

عبدالرحمن بن محمد

شرح منہج البلاغہ

مؤسسہ پندرہ عالی اہل علم

کویت چابڈ نگر سمانی بلوچان

برون نم نم ۲۵۱۱

OCIN
DS
238
AL
S53
1980
JUL 13-14



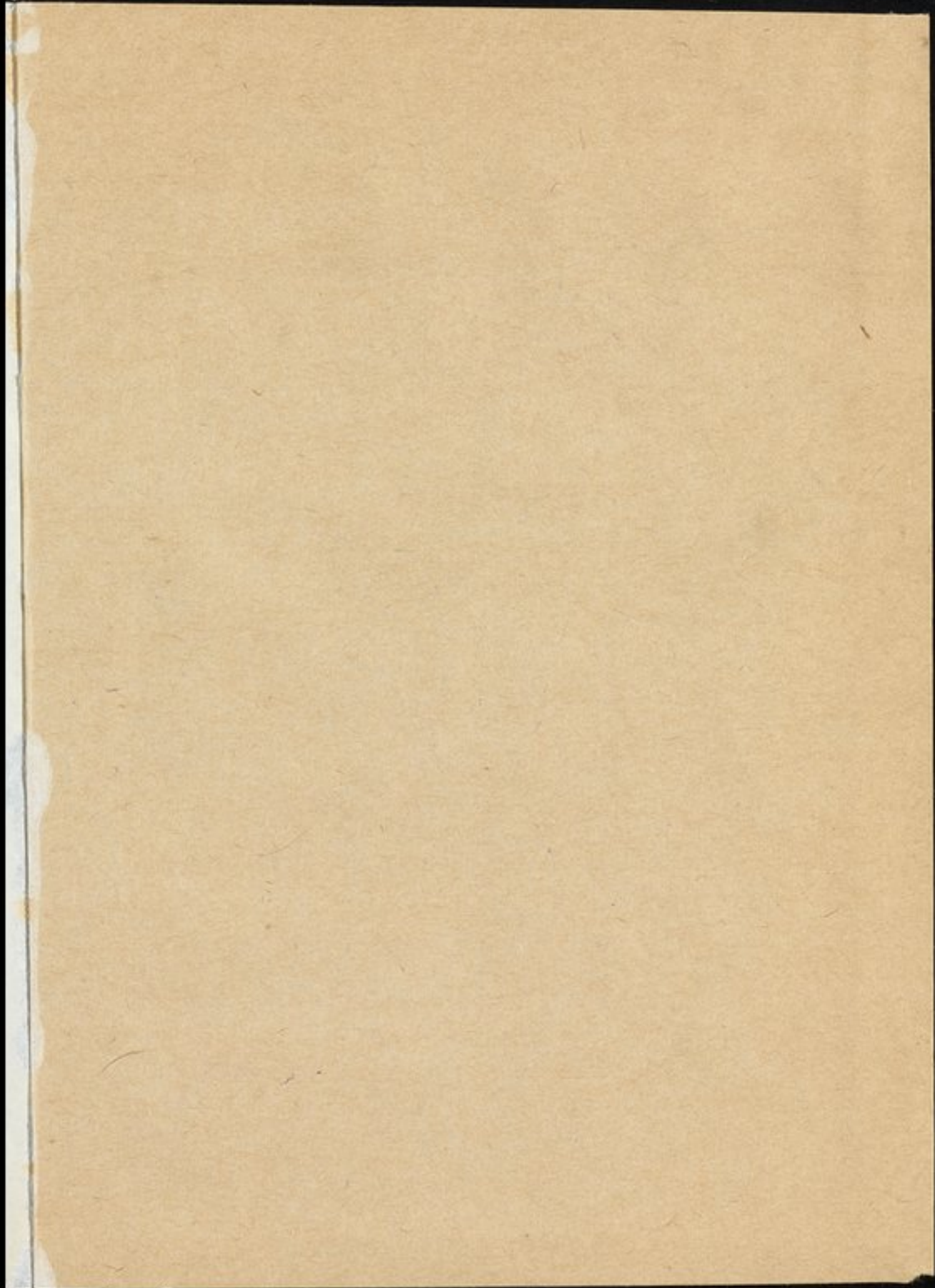
7

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY

3 1924 059 065 197

IK-AK-05-931803

(V, 13-14)



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل هاشم

الجزء الثالث عشر

مؤسسة اسماعيليان

للطباعة والنشر والتوزيع

قم إيران - تلفون ٢٥٢١٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

(٢٢٤)

الأصل :

ومن كلامه عليه السلام في وصف بيعة بالخزفة ، وقد تقدم منه
بألفاظ مختلفة

وَبَسَطْتُمْ يَدَيْ فَكَفَفْتُمَهَا ، وَمَدَدْتُمْ مَوْهَا فَقَبَضْتُمَهَا ، ثُمَّ تَدَا كَتُمُ عَلَى تَدَاكَ الْإِبِلِ
الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ، حَتَّى انْقَطَعَتْ النَّعْلُ ، وَسَقَطَ الرَّذَاهُ ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ ،
وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنْ أُبْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ ،
وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ .

الشرح :

التدالك : الازدحام الشديد . والإبل الهيم : العطاش .
وهدج إليها الكبير : مشى شيئاً ضعيفاً مرتعشاً ، والمضارع يهدج ، بالكسر .
وتحامل نحوها العليل : تكافى المشى على مشقة .

وحسرت إليها الكعاب : كشفت عن وجهها حرصاً على حضور البيعة ، والكعاب :
الجارية التي قد نهت نديها ، كعبت تكعب ، بالضم .

قوله : « حتى انقطع النمل وسقط الرداء » ، شبيه بقوله في الخطبة الشُّشْتِيَّة : « حتى
لقد وطىء الحسنان وشقَّ عطفائى ^(١) » .

وقد تقدم ذكر بيعته عليه السلام بعد قتل عثمان وإطباق الناس عليها ، وكيفية الحال
فيها ، وشرح شرحاً يستغنى عن إعادته .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ ، وَعِثْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكََةٍ ، وَبِحَبَابَةٍ
مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ .
فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَالِدُّعَاءُ يَسْمَعُ ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ
وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ .

وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُرًا نَاقِسًا ، أَوْ مَرَضًا حَاسِبًا ، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ؛ فَإِنَّ لَمَوْتَ
هَادِمٌ لِدَاتِكُمْ ، وَمُكَدِّرٌ شَهْوَاتِكُمْ ، وَمُبَاعِدٌ طِيَابِكُمْ . زَانِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقَرِينٌ
غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ، قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَبَائِلَهُ ، وَتَكَنَّفْتُمْ غَوَائِلَهُ ،
وَأَقْصَدْتُمْ مَعَابِلَهُ ، وَعَظَمْتُمْ فِيكُمْ سَطَوْتَهُ ، وَتَتَابَعْتُمْ عَلَيْكُمْ عَدَوْتَهُ ، وَقَلَّتْ
عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَفْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلْمِهِ ، وَأَخْتِدَامُ عَلَيْهِ ، وَحَنَادِمُ
عَمْرَاتِهِ ، وَغَوَاشِي سَكْرَاتِهِ ، وَأَلِيمٌ إِزْهَاقِهِ ، وَدُجُوْهُ إِطْبَاقِهِ ، وَخُسُونَةُ مَذَاقِهِ .
فَكَانَ قَدْ أَنَاكُمْ بَفْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ ، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ ، وَعَفَى آثَارَكُمْ ، وَعَظَلَ
دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَ وَرَائِكُمْ ، يَقْتَسِمُونَ تَرَائِكُمْ ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍ لَمْ يَنْفَعِ ، وَقَرِيبٍ
مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعِ ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزِعِ .

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ ، وَالتَّأَهُبِ وَالْإِسْتِعْدَادِ ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنَزِلِ الزَّادِ ،
وَلَا تَفْرُتْكُمْ أَحْيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ
الْخَالِيَةِ ، الَّذِينَ أَحْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا ،

وَأَصْبَحَتْ مَسَا كِنُهُمْ أَجْدَانًا ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا ، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَنَاهُمْ ، وَلَا يَحْفَلُونَ
مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ .

فاحذروا الدنيا فإنها غدارة غرارة خدوع ، معطية منوع ، ملبسة نزوع ، لا يدوم
رخاؤها ، ولا ينقضي عناؤها ، ولا يركد بلاؤها .

الشيخ :

عشق من كل ملكة ، هو مثل قوله عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها » ، أى
كل ذنب موبق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه ، فإن تقوى الله تعتق منه ، وتكفر
عقابه ، ومثله قوله : « ونجاة من كل هلكة » .

قوله عليه السلام : « والعمل ينفع » ، أى اعملوا فى دار التكليف ، فإن العمل يوم
القيامة غير نافع .

قوله عليه السلام : « والحال هادئة » ، أى ساكنة ليس فيها ماني أحوال الموقف
من تلك الحركات الفظيعة ، نحو تطاير الصحف ، ونطق الجوارح ، وعنف السياق
إلى النار .

قوله عليه السلام : « والأقلام جارية » ، يعنى أن التكليف باقٍ ، وأن الملائكة
الحفظة تكتب أعمال العباد ، بخلاف يوم القيامة ، فإنه يبطل ذلك ، ويستغنى عن الحفظة
لسقوط التكليف .

قوله : « عمراً ناكسا » ، يعنى الهرم ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ
فِي آخِلْتِهِ ﴾^(١) ، لرجوع الشيخ الهرم إلى مثل حال الصبي الصغير فى ضعف العقل والبنية .

والموت الخالس : المَخْطِيف . والطَّيَّات : جمع طِيَّة بالكسر ، وهي منزل السفر .
والواتر : القاتل ، والوتر ، بالكسر : الذَّخْل .
وأعلقتكم حباله . جعلتكم معتلقين فيها ، ويروى : « قد عَلَقْتُمْ » بغير همز .
وتكثفتكم غوائله : أحاطت بكم دواهيهِ ومصائبه . وأقصذتكم : أصابتكم .
والمعابل : نصال عِرَاض ، الواحدة مِعْبَلَةٌ ، بالكسر .
وعَدَوْتِه ، بالفتح : ظُلمه . ونَبَوْتِه : مصدر نَبَا السَّيْف إذا لم يؤثر في الضريبة .
ويوشِك ، بالكسر : يقرب . وتَغَشَاكُمْ : تحيط بكم .
والذَّوَجِي : الظُّلْم ، الواحدة داجية . والظُّلُّ : جمع ظُلَّة ، وهي السحاب . والاحتدام :
الاضطرام . والحنادس : الظلمات .
وإرهاقه : مصدر أرهقته أى أعجلته ، ويروى : « إزهاقه » بالزاي .
والأطباق : جمع طَبَق ، وهذا من باب الاستعارة ، أى تكاثف ظلماتها طبق
فوق طبق .

ويروى « وجُشُوبَة مذاقه » بالجيم والباء ، وهي غلظ الطعام .
والتَّجِي : القوم يتناجون . والندى : القوم يجتمعون في النادي .
واحتلبوا دِرَّتَها : فازوا بمنافعها ، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن .
وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام ، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمل .

الأضل :

منها في صفة الزهاد :

كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا ،

عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي
أَهْلِ الْآخِرَةِ ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا ، يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا
لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ .

التَّبَيُّحُ :

بين ظهراني أهل الآخرة ، بفتح النون ، ولا يجوز كسرهما ، ويجوز بين ظهراني أهل
الآخرة لوزنهم ، والمعنى في وسطهم .

قوله عليه السلام : « كانوا قوما من أهل الدنيا وليسوا من أهلها » أي هم من أهلها
في ظاهر الأمر وفي مرأى العين وليسوا من أهلها ، لأنه لا رغبة عندهم في ملاذها ونعيمها ،
فكانت لهم خارجون عنها .

قوله : « عملوا فيها بما يبصرون » ، أي بما يرونه أصلح لهم ، ويجوز أن يريد أنهم
لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المال ، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء
وهذا كقوله عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازدت يقينا » .

قوله عليه السلام : « وبادروا فيها ما يحذرون » ، أي سابقوه ، يعنى الموت .

قوله عليه السلام : « تقلب أبدانهم » ، هذا محمول تارة على الحقيقة ، وتارة على
المجاز ، أما الأول فلا أنهم لا يخالطون إلا أهل الدين ولا يجالسون أهل الدنيا ، وأما الثاني
فلا أنهم لما استحقوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه ، فأبدانهم تتقلب بين
ظهراني أهل الآخرة ، أي بين ظهراني قوم هم بمنزلة أهل الآخرة ، لأن المستحق للشيء
نظير لمن فعل به ذلك الشيء .

ثم قال : هؤلاء الزهاد يرون أهل الدنيا إنما يستعظمون موت الأبدان ، وهم أشد
استعظاما لموت القلوب ، وقد تقدم من كلامنا في صفات الزهاد والعارفين ما فيه كفاية .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام فطبرها بنى فار، وهو ضوجه إلى البصرة ، ذكرها
«الواقدي في كتاب « الجمل » :

فَصَدَعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ ،
وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاعِرَةِ فِي الصُّدُورِ ، وَالضَّغَائِنِ
الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ .

الشنج :

ذوقار : اسم موضع قريب من البصرة ، وفيه كانت وقعة للعرب مع الفرس
قبل الإسلام .

وصدع بما أمر به ، أى جهر ، وأصل الصَّدْعُ الشق .

ولم به : جمع . ورتق : خاط وألحم .

والعداوة الواغرة : ذات الوغرة ، وهى شدة الحر .

والضغائن : الأحقاد .

والقادحة فى القلوب ؛ كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النار بالمقدحة .

الأضل :

ومر كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة ، وهو من سبعة ، وذلك
أنه قدم عليه في خرافته يطلب منه ما را ، فقال عليه السلام :

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَجَلِبُ أَسْيَافِهِمْ ،
فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَازَةُ أَيْدِيهِمْ
لَا تَكُونُ لِعَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

الشنخ :

هو عبد الله بن زمعة ، بفتح الميم لا كما ذكره الراوندى ، وهو عبد الله بن زمعة بن
الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى .

كان الأسود من المستهزئين الذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل ، وابنه زمعة
ابن الأسود ، قُتِلَ يوم بدر كافراً ، وكان يدعى زاد الركب ، وقتل أخوه عقيل بن الأسود
أيضاً كافراً يوم بدر ، وقتل الحارث بن زمعة أيضاً يوم بدر كافراً ، والأسود هو الذى
سمع امرأة تبكى على بعير تضله بمكة بعد يوم بدر ، فقال :

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ الْمَجُودُ^(١)

(١) الأبيات في ديوان الحماسة - بشرح المرزوق ٢ : ٨٧٣ .

ولا تبكى على بَدْرِ ولكنَّ عَلَى بَدْرِ تَقَاصَرَتِ الجُودُ
أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمُ أَناسٌ وَلولا يَوْمُ بَدْرِ لَمْ يَسُودُوا
وكان عبد الله بن زَمعة شيعَةً لعلِّي عليه السلام . ومن أصحابه ؛ ومن ولد عبد الله
هذا أبو البخترى القاضى ؛ وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زَمعة ، قاضى
الرشيد هارون بن محمد المهدي ، وكان منحرفاً عن عليّ عليه السلام ، وهو الذى أفتى الرشيد
ببطلان الأمان الذى كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب
عليه السلام ، وأخذه بيده فمزقه .

وقال أمية بن أبى الصلت يرنى قتلى بدر ، ويذكر زَمعة بن الأسود :

عَيْنُ بَكِّي لِنَوْفَلٍ وَلِعَمْرٍو ثُمَّ لَا تَبْخَلِي عَلَى زَمَعَةَ^(١)

نوفل بن خويلد من بنى أسد بن عبد العزى ، ويعرف بابن العدوية ، قتله على
عليه السلام ، وعمرو أبو جهل بن هشام ، قتله عوف بن عفراء ، وأجهز عليه عبد الله
ابن مسعود .

قوله عليه السلام : « وَجَلَبَ أَسْيَافَهُمْ » أى ماجلته أسيافهم وساقته إليهم ، والجلب :
المال المجلوب . وجناة الثمر ما يُجْتَنَى منه ، وهذه استعارة فصيحة .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٧ - بشرح الشيخ محمد عيسى الدين ؛ ورواية البيت فيه :

عَيْنُ بَكِّي بِالمَسْبَلَاتِ أبا الحَا رِثٍ لَا تَذْخَرِي عَلَى زَمَعَةَ

الأضل

ومن كلام له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا أَمْتَنَعَ ، وَلَا يُمَهِّلُهُ
النُّطْقُ إِذَا أَسْعَى ، وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ عُرُوقُهُ ، وَعَلَيْنَا
تَهَدَّاتُ غُصُونُهُ .

وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَاللِّسَانَ
عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ ، أَهْلُهُ مَعْتَكِفُونَ عَلَى الْمِصْيَانِ ،
مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِذْهَانِ ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَانِبُهُمْ آئِمٌ ، وَعَارِلُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَقَارِنُهُمْ
مُمَازِقٌ ، لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ ، وَلَا يَعُولُ غَنِيَّهُمْ فَقِيرُهُمْ .

الشيخ

بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ قِطْعَةٌ مِنْهُ ، وَالْمَاءُ فِي « يَسْعِدُهُ » تَرْجِعُ إِلَى اللِّسَانِ .
وَالضَّمِيرُ فِي « أَمْتَنَعَ » يَرْجِعُ إِلَى الْإِنْسَانِ ، وَكَذَلِكَ الْمَاءُ فِي « لَا يُمَهِّلُهُ » يَرْجِعُ
إِلَى الْإِنْسَانِ .

وَالضَّمِيرُ فِي « أَسْعَى » يَرْجِعُ إِلَى الْإِنْسَانِ ، وَتَقْدِيرُهُ : فَلَا يُسْعِدُ اللِّسَانَ الْقَوْلُ إِذَا
أَمْتَنَعَ الْإِنْسَانُ عَنْ أَنْ يَقُولَ ، وَلَا يُمَهِّلُ اللِّسَانَ النُّطْقُ إِذَا « أَسْعَى » لِلْإِنْسَانِ الْقَوْلَ ،
وَاللَّفْظُ : إِنَّ اللِّسَانَ آتَةٌ لِلْإِنْسَانِ ، فَإِذَا صَرَفَهُ صَارَفَهُ عَنِ الْكَلَامِ ، لَمْ يَكُنِ اللِّسَانَ

ناطقاً ، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللسان بما في ضمير صاحبه .
وتنسبت عروقه ، أى عقلت ، وروى « انتشبت » . والرواية الأولى أدخل في صناعة
الكلام ، لأنها بإزاء تهذلت ، والتهذال التذلى ، وقد أخذ هذه الألفاظ بمينها أبو
مسلم الخراساني ، فخطب بها في خطبة مشهورة من خطبه .

[ذكر من أرتج عليهم أو حصروا عند الكلام]

واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة اقتضت أن يقوله ،
وذلك أنه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة الخزومي أن يخطب الناس يوماً ، فصعد المنبر ،
فحصر ولم يستطع الكلام ، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسلم ذروة المنبر ، وخطب
خطبة طويلة ، ذكر الرضى رحمه الله منها هذه الكلمات ، وروى شيخنا أبو عثمان في
كتاب « البيان والتبيين » ، أن عثمان صعد المنبر فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر
كانا يمدآن لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتكم
الخطبة على وجهها »^(١) . ثم نزل .

قال أبو عثمان : وروى أبو الحسن المدائني ، قال : صعد ابن لعدى^(٢) بن أرطاة المنبر
فلما رأى الناس حصروا فقال : « الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم »^(٣) .
وصعد رَوْح بن حاتم المنبر ، فلما رأى الناس قد رشقوه^(٤) بأبصارهم ، وصرقوا أسماعهم

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .

(٢) كذا في الأصول ؛ وفي البيان والتبيين : « صعد عدى بن أرطاة » .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .

(٤) البيان : « شفقوا أبصارهم » ، والشفق : أن يرفع المرء طرفه ناظراً إلى الشيء كالمتعجب له .

نحوه ، قال : نكسوا رءوسكم ، وغضوا أبصاركم ، فإن أول مركب صعب ، فإذا يسر الله عز وجل فتتح قفلي تيسر^(١) . ثم نزل .

وخطب مضعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر ، فقال : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » ، فقالت أم الجارية : عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك^(٢) ! وخطب مروان بن الحكم فحصر ، فقال : « اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نشرك بك » .

ولما حصر عبد الله بن عامر بن كرز على المنبر بالبصرة - وكان خطيبا - شق عليه ذلك ، فقال له زياد بن أبيه ، وكان خليفته : أيها الأمير لا تجزع فلو أقمت على المنبر عامة من ترى أصابهم أكثر مما أصابك . فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس : إن الأمير اليوم موعوك ، فقيل لرجل من وجوه أسراء القبائل : قم فاصعد المنبر ، فلما صعد حصر ، فقال : الحمد لله الذي يرزق هؤلاء ، وبقى ساكتا ، فأنزلوه ، وأصعدوا آخر من الوجوه ، فلما استوى قائما قابل بوجهه الناس ، فوقعت عينه على صلعة^(٣) رجل ، فقال : أيها الناس ، إن هذا الأصلع قد منعني الكلام ، اللهم فآلن هذه الصلعة . فأنزلوه . وقالوا لوازع اليشكري : قم إلى المنبر فتكلم ، فلما صعد ورأى الناس قال : أيها الناس إنى كنت اليوم كارها لحضور الجمعة ، ولكن امرأتى حملتني على إتيانها ، وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثا ، فأنزلوه ، فقال زياد لعبد الله بن عامر : كيف رأيت ؟ قم الآن فاخطب الناس^(٤) .

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .
(٣) الصلعة : موضع الصلع .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٥١ .

وقال سهل بن هارون : دخل قطرب النحويّ على الخلويع^(١) ، فقال ، : يا أمير المؤمنين ، كانت عدتُك أرفع من جائزتك - وهو يتبسّم - فاغتاض الفضل [بن الربيع]^(٢) فقلت له : إنّ هذا من الحصر والضعف ، وليس من الجلّد والقوّة ، أما تراه يفتلُ أصابعه ويرشح جبينه^(٣) !

ودخل معبد بن طوق العنبريّ على بعض الأمراء ، فتكلّم وهو قائم فأحسن ، فلما جلس تلهّيع^(٤) في كلامه ، فقال له : ما أطرفك قائماً ، وأمورك^(٥) قاعدا ! قال : إني إذا قُمت جَدَدْتُ ، وإذا قعدت هَزَلْتُ ، فقال : ما أحسن ما خرجت منها^(٦) !

وكان عمرو بن الأهمم المنقريّ والزبيرقان بنُ بدر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فسأل عليه السلام عمراً عن الزبيرقان فقال : يارسول الله ؛ إني لمانعٌ لحوزته ، مطاعٌ في أدانيه ، فقال الزبيرقان : حسدني يارسول الله ! فقال عمرو : يارسول الله ، إني لزمير المروءة ، ضيق العطن ، لثيم الخال ، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى وجه عمرو ، فقال : يارسول الله ؛ رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمتُ ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمتُ ، وما كذبتُ في الأولى ، ولقد صدقتُ في الأخرى . فقال عليه السلام : إنّ من البيان لسحراً .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملّة .

(١) الخليفة الخلويع هو الأمين .

(٢) من البيان والتبيين (٣) البيان والتبيين ١ : ٤٦٦ .

(٤) تلهيع : أفرط ، وفي البيان « تمتع » .

(٥) اللسان : « أموتك » .

(٦) البيان والتبيين ١ : ٣٤٨ ، واللسان ١٠ : ٢٠٣ .

وقال ابن أبي الزناد : كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في الظالم فيراجه ، فكتب إليه : إنه يحتمل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلى : أضأنا أم معزا ؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إلى : أذكرا أم أتى ! وإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إلى : صغيراً أم كبيراً ! فإذا كتبتُ إليك في مظلمة ، فلا تراجعني والسلام ^(١) .

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعقر نخلمهم ، فكتب إليه : بأيهما أبدأ [بالدور أم بالنخل] ^(٢) يا أمير المؤمنين ؟ فكتب إليه : لو قلت لك بالنخل لكتبت إلى بماذا أبدأ ؟ بالشهريز أم بالبرني ^(٣) ؟ وعزله ، وولى محمد بن سليمان ^(٤) .

وخطب عبد الله بن عامر مرة فارتج عليه ، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى ، فقال : لا أجمع عليكم عيًّا ولؤماً : من أخذ شاة من الشوق فهي له وتمنها على .

وخطب السفاح أول يوم صعد فيه المنبر فارتج عليه ، فقام عمه داود بن علي ، فقال : أيها الناس إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فيكم فعله ، ولآثر الأفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله علما فيكم ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم .

قال الشاعر :

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٠ (٢) من البيان والتبيين .
(٣) الشهريز : ضرب من التمر ، والبرني : ضرب من التمر أيضا أصفر مدور ؛ وهو أجود التمر
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٣

وما خيرُ مَنْ لا ينفَع الدهر عيشه وإن مات لم يحزن عليه أقاربه
كهامٍ على الأقصى كليل لسانه وفي بشر الأذى حديدٌ مخالبه
وقال أحيحة بن الجلاح :

والصمت أجملُ بالفتى ما لم يكن عيٌّ بشينه^(١)
والقولُ ذو خطلٍ إذا ما لم يكن لبٌّ يزينه

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٧٥ .

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام :

روى ذعبل اليامي عن أحمد بن قتيبة ، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية ، قال : كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس :

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِي طِينِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلَقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا ، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا ، فَهَمَّ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ؛ وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ ، فَتَأْمُ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ . وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبَةِ ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ . وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ .

الشَّرْحُ :

ذعبل وأحمد وعبد الله ومالك ، رجال من رجال الشيعة ومحدثيهم . وهذا الفصل عندي لا يجوز أن يحتمل على ظاهره ، وما يتسارع إلى أفهام العامة منه ، وذلك لأن قوله : « أنهم كانوا فِلَقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا » ؛ إما أن يريد به أن كل واحد من الناس ركب من طين ، وجعل صورة بشرية طينية برأس وبطن ويدين ورجلين ، ثم نفخت فيه الروح كما فعل بآدم ، أو يريد به أن الطين الذي ركبته منه صورة آدم فقط كان مختلطاً من سبخ وعذب ، فإن أريد الأول فالواقع خلافه ، لأن البشر الذين نشاهد ، والذين بلغتنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم ، وإِنَّمَا خَلِقُوا مِنْ نُطْفِ آبَائِهِمْ . وليس لقائل أن يقول : لعل تلك النطف

اختلفت لأنها تولدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة ، وذلك لأن النطفة لا تتولد من غذاء بعينه ، بل من مجموع الأغذية ، وتلك الأغذية لا يمكن أن تكون كلها من أرض سبخة محضة في السبخية ، لأن هذا من الاتفاقات التي يعلم عدم وقوعها ، كما يعلم أنه لا يجوز أن يتفق أن يكون أهل بغداد في وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلا التسكباب خاصة ، وأيضاً فإن الأرض السبخة ، أو التي الغالب عليها السبخية ، لا تنبت الأقوات أصلاً . وإن أريد الثاني ، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً في جوهره ، مختلفاً في طبائعه ، فلم كان زيد الأحق يتولد من الجزء السبخي وعمرو العاقل يتولد من الجزء العذبى بأولى من العكس ؟ وكيف يؤثر اختلاف طين آدم من ستة آلاف سنة في أقوام يتوالدون الآن .

والذي أراه أن لكلامه عليه السلام تأويلاً باطناً ، وهو أن يريد به اختلاف النفوس المدبرة للأبدان ، وكفى عنها بقوله : « مبادئ طينهم » ، وذلك أنها لما كانت الماسكة للبدن من الانحلال ، العاصمة له من تفرق العناصر ، صارت كالمبدأ كالعلة له من حيث إنها كانت علة في بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض ، ولذلك إذا فارقت عند الموت اختلفت العناصر ، وانحلت الأجزاء ، فرجع اللطيف منها إلى الهواء ، والكثيف إلى الأرض .

وقوله : « كانوا فلقه من سبخ أرض وعذبها ، وحزن تربة وسهلها » تفسيره أن الباري جلّ جلاله لما خلق النفوس ، خلقها مختلفة في ماهيتها ، فمنها الزكية ومنها الخبيثة ، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة ، ومنها القوية ومنها الضعيفة ، ومنها الجريئة المقدمة ، ومنها الفشلة الدليلة^(١) ، إلى غير ذلك من أخلاق^(٢) النفوس المختلفة المتضادة .

ثم فسر عليه السلام وعلل تساوي قوم في الأخلاق وتفاوت آخرين فيها ، فقال :

(١) ساقطة من ١ (٢) : « اختلاف » .

إنَّ نفسَ زيدٍ قد تكونُ مشابهةً أو قرييةً من المشابهةِ لنفسِ عمرو ، فإذاهما في الأخلاقِ متساويتان ، أو متقاربتان ، ونفسُ خالدٍ قد تكونُ مضادةً لنفسِ بكرٍ أو قرييةً من المضادةِ ، فإذاهما في الأخلاقِ متباينتان أو قرييتان من المباينةِ .

والقولُ باختلافِ النفوسِ في ماهياتِها هو مذهبُ أفلاطونِ ، وقد اتَّبعه عليه جماعةٌ من أعيانِ الحكماءِ ، وقال به كثيرٌ من مثبتيِ النفوسِ من متكلميِ الإسلامِ .

وأما أرسطو وأتباعه ، فإنَّهم لا يذهبون إلى اختلافِ النفوسِ في ماهياتِها . والقولُ الأوَّلُ عندي أمثلُ .

ثم بيَّن عليه السلامُ اختلافَ آحادِ الناسِ ، فقال : منهم من هو تامُّ الرِّواءِ ، لكنه ناقصُ العقلِ . والرِّواءُ بالهمزِ والمدُّ : المنظرُ الجميلُ ، ومن أمثالِ العربِ : « ترى الفتيانَ كالنخلِ وما يدريكُ ما الدخُلُ » .

وقال الشاعرُ :

عقله عقل طائرٍ وهو في خِلقةِ الجملِ

وقال أبو الطيبِ :

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شرفٌ له إذا لم يكن في فِعلِهِ والخلائقِ^(١)

وقال الآخرُ :

وما ينفعُ الفتيانَ حُسنُ وجوهِهِمْ إذا كانت الأخلاقُ غيرَ حِسانِ
فلا يفررنك المرءُ راقٍ رُواؤُهُ فما كلُّ مصقولِ الغرَّارِ يماني

ومن شعر الحماسة :

لَقَوْمِي أَرْعَى لِلْعُلَا مِنْ عِصَابَةٍ من النَّاسِ يَا حَارِبْنَ عَمْرٍو تَسْوِدُهَا (١)
وَأَنْتُمْ سَمَاةٌ يُعْجِبُ النَّاسَ رِزُّهَا بَأَبْدَةٍ تُنَجِّي شَدِيدٍ وَثِيْدُهَا (٢)
تَقْطَعُ أَطْنَابَ الْبَيْوتِ بِحَاصِبٍ وَأَكْذِبُ شَيْءَ بَرْقِهَا وَرَعْوُهَا
فَوَيْلَ أَمَّهَا خِيَالًا بِهَاءٍ وَشَارَةَ إِذَا لَاقَتِ الْأَعْدَاءَ لَوْلَا صَدُودُهَا !
ومنه أيضا :

وَكَأَثَرُ بِسَعْدٍ إِنْ سَعِدَا كَثِيرَةٌ وَلَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وِفَاءَ وَلَا نَصْرًا (٣)
يُرْوَعُكَ مِنْ سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ جِسْمُهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرًا

قوله عليه السلام : « وماذ القامة قصير الهمة » ؛ قريب من المعنى الأول ، إلا أنه خالف بين الألفاظ ، فجعل الناقص بإزاء التام ، والقصير بإزاء اللاد . ويمكن أن يجعل المعنيين مختلفين ، وذلك لأنه قد يكون الإنسان تام العقل ، إلا أن همته قصيرة ، وقد رأينا كثيرا من الناس كذلك ، فإذن هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأول .

قوله عليه السلام : « وزاكي العمل قبيح المنظر » يريد بزكاء أعماله حسناتها وطهارتها ، فيكون قد أوقع الحسن بإزاء القبيح ، وهذا القسم موجود فاشي بين الناس .

قوله : « وقريب القعر بعيد السبر » ، أي قد يكون الإنسان قصير القامة ، وهو مع ذلك داهية باقعة ، والمراد بقرب قعره تقارب ما بين طرفيه ، فليست بطنه بمديدة ولا مستطيلة ،

(١) لفراد بن حنش الصاردي - ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٣ : ١٤٣٠ .

(٢) السماء هنا : السحاب . والرز والوثيد جميعا : الصوت . ومعنى : « تنجي » تقبل .

(٣) ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٣ : ١٥٢٢ ، وهناك بعد هذا البيت :

وَلَا تَدْعُ سَعْدًا لِلْقِرَاعِ وَخَلْمًا إِذَا أَمِنْتَ وَنَعْتَهَا الْبَلَدَ الْفَقْرًا

وهي قعره ، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدته لبيبا فطنا ، لا يوقف على أسراره ،
ولا يدرك باطنه ، ومن هذا المعنى قول الشاعر (١) :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَنَزْدَرِيهِ وفي أثوابه أَسَدٌ مَزِيرٌ (٢)

ويجبك الطَّرِيرُ فتبتليهِ فيخلف ظنك الرجلُ الطَّرِيرُ (٣)

وقيل لبعض الحكماء : ما بال القصارِ من الناس أدهى وأحذق ؟ قال : لقرب قلوبهم
من أدمغتهم .

ومن شعر الحماسة :

إلا يكن عظمي طويلاً فإنني له بالخصال الصالحات وصولٌ (٤)

ولا خير في حُسنِ الجسوم وطولها (٥) إذا لم تزنْ حَسَنَ الجسوم عقولُ

ومن شعر الحماسة أيضا وهو تمام البيتين المقدم ذكرهما :

فما عظمُ الرجال لهم بفخري ولكن فخرهم كرم وخيرُ

ضعاف الطير أطولها جسوما ولم تطلِ البزاة ولا الصقورُ

بُعاثُ الطير أكرها فراخا وأمّ الصقر مقلاتٌ نزورُ (٦)

لقد عظم البعير بغير لبٍ فلم يستغنِ بالعظم البعيرُ

قوله عليه السلام : « ومعروف الضريبة منكر الجليية » ، الجليية هي الخلق الذي

(١) للعباس بن مرداس ، ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٣ : ١١٥٣ .

(٢) المزير : الجلد الخفيف النافذ في الأمور .

(٣) الطرير : الشاب الناعم . (٤) ديوان الحماسة ٣ : ١١٨١ - بشرح المرزوقي

ونسبه إلى بعض الفزاريين .

(٥) الحماسة : « ونبلها » .

(٦) المقلات ، من قلت وهو الهلاك . والتزور : القليلة الأولاد من التزر ، وهو القليل .

يتكلفه الإنسان ويستجلبه ، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلف الشجاعة ، أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود ، وهذا القسم أيضا عام في الناس .
ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوى الأخلاق والطباع المتناسبة المتلائمة ، فقال : « وتائه القلب متفرق اللب » ، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادان .
ثم قال : « وطلق اللسان حديد الجنان » ، وهذان الوصفان أيضا متناسبان ، وهما متضادان للوصفين قبلهما ، فالأولان ذم ، والآخران مدح .

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام : قاله وهو باى غل رسول الله صلى الله عليه وآله ونجهره :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ
النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعَمَّمْتَ
حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءَ ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجُرْعِ ، لَأَنْفَدْنَا
عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ ، وَلَكَانَ الدَّاهُ مُمَاطِلاً ، وَالْكَمْدُ مُحَالِفاً ، وَقَلَّا لَكَ ! وَلَكِنَّهُ
مَا لَا يُبْمَلِكُ رَدُّهُ ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ !

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! أَذْ كُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَأَجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ !

الشنخ :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! أَيُّ بِأَبِي أَنْتَ مَفْدَى وَأُمِّي .

والإنباء : الإخبار ، مصدر أنبا ينبأ ، وروى : « والأنباء » بفتح الهمزة جمع نبا ،
وهو الخبر . وأخبار السماء : الوحي .

قوله عليه السلام : « خصصت وعممت » ، أى خصت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم
لا يكثرثون بما يصيبهم بعدك من المصائب ، ولا بما أصابهم من قبل ، وعمت هذه

المصيبة أيضا الناس ، حتى استوى الخلائق كلهم فيها ، فهي مصيبة خاصة بالنسبة ،
وعامة بالنسبة .

ومثل قوله : « حتى صرت مسلّيا عن سواك » قول الشاعر :

رُزِينَا أَبَا عَمْرٍو وَلَا حَيَّ مِثْلُهُ فَلَهُ دَرْجَاتٌ بِمَنْ تَعْبُ !
فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ذُو خَلَّةٍ مَافِي أَسْدَادِهَا طَمَعُ
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ نَالَكُ أَنْتَا أَمْنَا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

وقال آخر :

أَقُولُ لِمَوْتٍ حِينٍ نَازِلِهِ وَالْمَوْتُ مَقْدَامَةٌ عَلَى الْبَهْمِ
أَظْفَرُ بِمَنْ شَتَّ إِذْ ظَفَرَتْ بِهِ مَا بَعْدَ يَحْيَى لِمَوْتٍ مِنَ الْمَرِّ

ولى فى هذا المعنى كتبته إلى صديق غاب عنى من جملة أبيات :

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى مِنْ خَطُوبِ غَوَائِلٍ فَلَمَّا نَأَى عَنِّي أَمَنْتُ مِنَ الْحَذَرِ
فَأَعْجَبَ لِحَيْثُ عَاشَ بَعْدَ حَيَاتِهِ وَأَعْجَبَ لِنَفْعٍ حَاصِلٍ جَرَّهُ ضَرَرُ

وقال إسحاق بن خلف يرثى بنتا له (١) :

أَمْسَتْ أَمِيمَةٌ مَعْمُورًا بِهَا الرَّجْمُ لَقَا صَعِيدٍ عَلَيْهَا التَّرْبُ مَرْتِكُمُ (٢)
بِأَشَقَّةِ النَّفْسِ إِنَّ النَّفْسَ وَالْهَمَّةُ حَرَّيْ عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الدَّمْعَ مِنْ جَمُ (٣)
قَدْ كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهَا أَنْ تُقَدِّمَنِي إِلَى الْجِجَامِ فِي يَدِي وَجَهَّأَ الْعَدْمُ
فَالآنَ نَمْتُ ، فَالْهَمْ يُؤَزِّقُنِي تَهْدَا الْعَيُونَ إِذَا مَا أَوَدَتْ الْحَرَمُ (٤)

(٢) الرجم : القبر ، واللقى : الشئ الملقى .

(٤) أودت : هلكت .

(١) الكامل ٤ : ٢٠

(٣) الشئ : نصف الشئ .

للموت عندي أيادي لست أكفرها أحيًا سروراً وبني مما أتى ألمُ

وقال آخر :

فلو أنها إحدى يدي رزيتها ولكن يدي بانت على إثرها يدي
فأليت لا آسى على إثر هالك قدي الآن من حزنٍ على هالك قدي

وقال آخر :

أجاري ما أزداد إلا صبابه عليك ؛ وما تزداد إلا تنائيا
أجاري لو نفس فدت نفس مبيت فديتك مسرورا بنفسي مالياً
وقد كنت أرجو أن أملاك حقبه فحال قضاء الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا

وقال آخر :

لتغد المنايا حيث شئت فإنها محلة بعد الفتى ابن عقيل
فتي كان مولاه يحل بنجوة فحل الموالى بعده بمسيل

قوله عليه السلام : « ولكن الداء مماطلا » ؛ أي مماطلا بالبره ، أي لا يجيب

إلى الإقلاع .

والإبلال : الإفاقة .

[ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته]

فأما وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وما ذكره أرباب السيرة فيها فقد ذكرنا طرفاً منه فيما تقدم؛ ونذكر هاهنا طرفاً آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه .

قال أبو جعفر : روى أبو مويهبة^(١) مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال أرسل^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في جوف الليل ، فقال : « يا أبا مويهبة ، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معي » ، فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم ، قال : « السّلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ! أتقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شرّ من الأولى » . ثم أقبل على ، فقال : « يا أبا مويهبة إني قد أوهبت^(٣) مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة^(٤) ، فخيرت بينها وبين الجنة ، فاخترت الجنة » ، فقلت : بأبي أنت وأمي ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة جميعاً ، فقال : « لا يا أبا مويهبة ، اخترت لقاء ربّي » ، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف ، فبدأ بوجعه الذي قبضه الله فيه^(٥) .

وروى محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عائشة ، قالت : رجع رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الليلة من البقيع ، فوجدني وأنا أجدُ صداعاً في رأسي ، وأقول : واراأساه ! فقال : بل أنا واراأساه ! ثم قال : « ماضرك لو ميت قبلي ، فقمّت عليك فكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك » ! فقلت : والله لكأني

(١) ذكره الطبري ١ : ١٧٨٠ (طبع أوروبا) . في موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال :
« قيل إنه كان من مولدى مزينة ، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه » .
(٢) الطبري : « بعثني » .
(٣) الطبري : « أتيت » .
(٤) الطبري : « ثم الجنة » .
(٥) تاريخ الطبري ١ : ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ .

بك- لو كان ذلك- رجعت إلى منزلي ، فأعرست ببعض نساءك ! فتبسم عليه السلام ، وتتام به وجهه ، وهو مع ذلك يدور على نسائه ، حتى استعز^(١) به ؛ وهو في بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي ، فأذن له ، فخرج بين رجلين من أهله ، أحدهما الفضل ابن العباس ورجل آخر ، تخطأ قدماء في الأرض ، عاصباً رأسه حتى دخل بيته .

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : حدثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث ، فقال : أتدري من الرجل الآخر ؟ قلت : لا ، قال : علي بن أبي طالب ، لكنها كانت لا تقدر أن تذكره بخير وهي تستطيع . قالت : ثم غمر^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله واشتد به الوجع ، فقال : « أهر يقوا على سبع قراب من آبارشتي حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » ، قالت : فأقدمته في مخضب لحفصة بنت عمر ، وصبنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده : « حسبكم حسبكم^(٣) » :

قلت : المخضب : المرء^(٤) .

وروى عطاء ، عن الفضل بن عباس رحمه الله : قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وآله حين بدأ به مرضه ، فقال : اخرج ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدي ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد في الناس ، فصيحت فيهم فاجتمعوا إليه ، فقال : « أيها الناس ، إني أحمد إليكم الله ، إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم ؛ فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يقل : رجل إني أخاف الشحنة من قبل رسول الله . ألا وإن الشحنة ليست من طبيعتي ولا من شأني ، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا

(١) استعز به : اشتد عليه وغلبه على نفسه . (٢) غمر : اشتد به الوجع

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . (٤) المركن : الإجابة التي تفصل فيها الثياب

إن كان له ، أو حلّني فلقيتُ الله وأنا طيب النفس ، وقد أرائني أن هذا غيرُ مغنٍ عني حتى أقوم فيكم به سرازا . ثم نزل فصلى الظهر . ثم رجَعَ فجلس على المنبر ، فعاد لمقالته الأولى في الشّحناء وغيرها ، فقام رجلٌ ، فقال : يا رسولَ الله ، إن لي عندك ثلاثة دراهم ، فقال : إنا لا نكذبُ قائلًا ولا نستحلفه على يمين ، فإم كانت لك عندي ؟ قال : أتذكرُ يا رسولَ الله يوم مرّ بك المسكين ، فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم ؟ قال : أعطه يا فضل ، فأمرته فجلس ، ثم قال : « أيها الناس من كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقل : فضوح الدنيا ؛ فإن فضوح الدنيا أهونُ من فضوح الآخرة » . فقام رجل فقال : يا رسولَ الله ، عندي ثلاثة دراهم غلّتها في سبيل الله ، قال : ولم غلّتها ؟ قال : كنت محتاجا إليها ، قال : خذها منه يا فضل . ثم قال : « أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئًا فليقم أدعوله » ، فقام رجلٌ فقال : يا رسولَ الله ، إني لكذاب ، وإني لفاحش ، وإني لنثوم . فقال : « اللهم ارزقه صدقًا وصلاحًا^(١) ، وأذهب عنه النوم إذا أراد . ثم قام رجل ، فقال : يا رسولَ الله ، إني لكذاب ، وإني لمنافق ، وما شيء - أو قال : وإن من شيء - إلا وقد جنته^(٢) . فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحت نفسك أيها الرجل ! فقال النبي صلى الله عليه وآله : « يا بن الخطاب : فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانًا وصبرًا أمره إلى خير »^(٣) .

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : نعى إلينا نبيّنا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر ، جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا [وشدّ]^(٤) ودمعت عينه ، وقال : مرحبا بكم ! حيّاكم الله ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، نفعكم الله ،

(١) الطبري : « وإيمانًا » .
(٢) الطبري ١ : ١٨٠١ - ١٨٠٣ ، وبقية الخبر : « فقال عمر : كلمة ، فضحك رسول الله ، ثم قال : عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان » .
(٣) من تاريخ الطبري .
(٤)

وفقكم الله ، رزقكم الله ، هداكم الله ، نصركم الله ، سلمكم الله ، تقبلكم الله ! أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إني لكم نذير وبشير ، ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده ، فإنه قال لي ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . فقلنا : يا رسول الله ، فمتى أجلك ؟ قال : « قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، والرفيق الأعلى وجنة المأوى والعيش المهين » ، قلنا : فمن يغسلك يا رسول الله ؟ قال : « أهلي الأدنى فالأدنى » ، قلنا : فقيم نكفئك ؟ قال : « في ثيابي هذه إن شئتم ، أو في بياض مصر ، أو حلة يمنية » ، قلنا : فمن يصلي عليك ؟ فقال : « إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا ، على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة ، فإن أول من يصلي عليّ جليسي وحيبي وخليلي جبرئيل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة ، ثم ادخلوا عليّ فوجا فوجا فصلوا عليّ وسلموا ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجة ولا رنة ، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرئوا أنفسكم مني السلام ، ومن غاب من أهلي فأقرئوه مني السلام ، ومن تابعكم بعدي عليّ ديني فأقرئوه مني السلام ، فإنني أشهدكم أنني قد سلمت علي من بايعني علي ديني من اليوم إلى يوم القيامة » . قلنا : فمن يدخل قبرك يا رسول الله ؟ قال : « أهلي مع ملائكة كثيرة يرونكم ولا ترونهم » (٢) .

قلت : العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة : فمن يلي أمورنا بعدك ! لأن ولاية الأمر أهم من السؤال عن الدفن ، وعن كيفية الصلاة عليه ، وما أعلم ما أقول في هذا المقام !

قال أبو جعفر الطبري : وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، قَالَ : كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ :

يومُ الخميس وما يومُ الخميس ! ثم يبكي حتى تبلّ دموعُه الحصباءَ ، فقلنا له : وما يومُ
الخميس؟ قال : يومُ اشتدّت برسول الله صلى الله عليه وآله وجهه ، فقال : « اتنوني باللّوح والدّواة
- أو قال : بالكتف والدّواة - أكتب لكم ما لا تضلّون بعدى ، فتنازعوا ، فقال :
أخرجوا ولا ينبغي عند نبيّ أن يتنازع ، قالوا : ماشأنه ، أهجر^(١)؟ استفهموه ، فذهبوا يُعيدون
عليه ، فقال : « دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه » ، ثم ، أوصى بثلاث ؛ قال : « أخرجوا
المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفدَ بنحوٍ مما كنت أجيزهم » ، وسكت عن الثالثة
عمداً ، أو قالها ونسيتها^(٢) .

وروى أبو جعفر ، عن ابن عباس . قال : خرج عليّ بن أبي طالب عليه السلام
من عند رسول الله صلى الله عليه وآله في وجعٍ الذي توفّي فيه ، فقال له الناس : يا أبا الحسن ،
كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً . فأخذ العباس
بيده ، وقال : ألا ترى أنك بعد ثلاث عبدُ العصا ! إني لأعريف الموت في وجوه بني
عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن
كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا وصّى بنا ، فقال عليّ : أخشى أن أسأله فيمنعناها
فلا يعطيناها الناسُ أبداً^(٣) .

وروت عائشة قالت : أغمى عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله والدّار مملوءة من النساء :
أم سلمة ، وميمونة ، وأسماء بنت عميس ، وعندنا عمّة العباس بن عبد المطلب ، فأجمعوا
على أن يلدّوه ، فقال العباس : لا ألدّه ، فلدّوه ، فلما أفاق قال : من صنع بي هذا؟ قالوا : عمك
قال لنا : هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض - وأشار إلى أرض الحبشة - قال : فلم فعلتم
ذلك؟ فقال العباس : يا ربّ الله ، أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : « إن ذلك

(٢) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٦ .

(١) هجر ، أى اختلف كلامه .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٧ .

لداء ما كان الله ليقدفني به ، لا يبقى أحدٌ في البيت إلا لدّا أعمى . قال : فلقد لدّت ميمونة وإنها لصائمة تقسم رسول الله صلى الله عليه وآله عقوبة لهم بما صنعوا .

قال أبو جعفر : وقد وردت رواية أخرى عن عائشة ، قالت : لدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه ، فقال : لا تلدوني ، فقلنا : كراهية للمريض للدواء ؛ فلما أفاق قال : لا يبقى أحدٌ إلا لدّ غير العباس عمي فإنه لم يشهدكم .

قال أبو جعفر : والذي تولى اللدود^(١) بيده أسماء بنت عميس .

قلت : العجّب من تناقض هذه الروايات ! في إحداها أن العباس لم يشهد اللدود ، فذلك أعفاه رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يلدّ ولدٌ من كان حاضراً ، وفي إحداها أن العباس حضر لدّه عليه السلام ، وفي هذه الرواية التي تتضمن حضور العباس في لدّه كلام مختلف ، فيها أن العباس قال : لا ألدّه ، ثم قال : فلدّ فأفاق ، فقال : من صنع بي هذا ؟ قالوا : عمك ، إنه قال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجنب ؛ فكيف يقول : لا ألدّه ، ثم يكون هو الذي أشار بأن يلدّ ، وقال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا !

وسألت التقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصرى عن حديث اللدود ، فقلت : ألدّ عليّ بن أبي طالب ذلك اليوم ؟ فقال : معاذ الله ! لو كان لدّ لذكرت عائشة ذلك فيما تذكره وتنعاه عليه . قال : وقد كانت فاطمة حاضرة في الدار ، وابناها معها ، أفترأها لدّت أيضا ، ولد الحسن والحسين ! كلاً ، وهذا أمر لم يكن ، وإنما هو حديث ولد من ولدته تقر با إلى بعض الناس ، والذي كان أن أسماء بنت عميس أشارت بأن يلدّ ، وقالت : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب ، وكان بعلمها ،

(١) اللدود ، بالفتح من الأدوية : ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ .

وساعدتها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث، فلقد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما أفاق أنكره ، وسأل عنه فذكر له كلام أسماء ، ومواقفة ميمونة لها ، فأمر أن تلد الامراتان لا غير ، فلدتا ولم يجر غير ذلك . والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر . وروت عائشة ، قالت : كثيراً ما كنت أسمع رسول الله يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره ، فلما احتضِر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتها منه : « بل الرفيق الأعلى » ، فقلت : إذا والله لا يختارنا ، وعلمت أن ذلك ما كان يقوله من قبل ^(١) .

وروى الأرقم بن شريحيل ، قال : سألت ابن عباس رحمه الله : هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ، قلت : فكيف كان ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه : « ابعثوا إلى علي فادعوه » ، فقالت عائشة : لو بعثت إلى أبي بكر ! وقالت حفصة : لو بعثت إلى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً - هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبري في التاريخ ، ولم يقل : « فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما » - قال ابن عباس : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « انصرفوا ، فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم » ، فانصرفوا . وقيل لرسول الله : الصلاة ! فقال : « مروا أبا بكر أن يصلي بالناس » ، فقالت عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق فمر عمر ، فقال : مروا عمر ، فقال عمر : ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد ، فتقدم أبو بكر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله خفة ، فخرج ، فلما سمع أبو بكر حركته تأخر ، فجذب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقامه مكانه ، وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر ^(٢) .

قلت : عندي في هذه الواقعة كلام ، ويعترضني فيها شكوك واشتباہ ؛ إذا كان قد

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٠ . (٢) تاريخ الطبري : ١٨١١ ، ١٨١٢ .
(٣ - نهج - ١٣)

أراد أن يبعث إلى عليّ ليوصيَ إليه ، فنفست عائشة عليه ، فسألت أن يحضر أبوها ، ونفست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها ، ثم حضرا ولم يُطلبا ، فلا شبهة أن ابنتيهما طلبتاها . هذا هو الظاهر ، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اجتمعوا كلمهم عنده : « انصرفوا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكم » ، قول من عنده ضجّر وغضب باطن لحضورها ، وتهمة للنساء في استدعائهما ، فكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ما روى من أن عائشة قالت لما عين عليّ أبيها في الصلاة : إن أبي رجلٌ رقيق ، فمر عمر ! وأين ذلك الحرص من هذا الاستغناء والاستقالة ! وهذا يوم صحة ما تقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر عائشة ، وإن كنت لا أقول بذلك ، ولا أذهب إليه ، إلا أن تأمل هذا الخبر ولمح مضمونه يوم ذلك ، فاعلم هذا الخبر غير صحيح . وأيضا ففي الخبر ما لا يحيزه أهل العدل ، وهو أن يقول : « مروا أبا بكر » ، ثم يقول عقيبة : « مروا عمر » ، لأن هذا نسخ الشيء قبل تقضى وقت فعله .

فإن قلت : قد مضى من الزمان مقدار ما يمكن الحاضرين فيه أن يأمرؤا أبا بكر ، وليس في الخبر إلا أنه أمرهم أن يأمرؤه ، ويكفي في صحة ذلك مضى زمان يسير جدا يمكن فيه أن يقال : بأبا بكر صل بالناس .

قلت : الإشكال ما نشأ من هذا الأمر ، بل من كون أبي بكر مأمورا بالصلاة ، وإن كان بواسطة ، ثم نسخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضى وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة .
فإن قلت : لم قلت في صدر كلامك هذا : إنه أراد أن يبعث إلى عليّ ليوصيَ إليه ؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له ؟

قلت : لأن مخرج كلام ابن عباس هذا المخرج ، ألا ترى أن الأرقم بن شرحبيل الراوى لهذا الخبر قال : سألت ابن عباس : هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : لا ، فقلت : فكيف كان ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في مرضه :

«ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه»، فسأته المرأة أن يبعث إلى أبيها، وسأته الأخرى أن يبعث إلى أبيها، فلولا أن ابن عباس فهم من قوله صلى الله عليه وآله: «ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه» أنه يريد الوصية إليه، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متصلاً بسؤاله عن الوصية معنى.

وروى القاسم بن محمد بن أبي بكر، عن عائشة، قالت: رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يموت وعنده قدحٌ فيه ماء يُدخلُ يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: «اللهم أعني على سكرة الموت^(١)!». .

وروى عروة عن عائشة، قالت: اضطجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم موته في حجرى، فدخل عليَّ رجلٌ من آل أبي بكر، في يده مسواك أخضر، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إليه نظراً عرف أنه يريد، فقلت له: أتحب أن أعطيك هذا المسواك؟ قال: نعم، فأخذته فمضغته حتى ألتته ثم أعطيته إياه، فاستن به كأشد ما رأيتَه يستن بسواك قبله، ثم وضعه، ووجدتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ينقل في حجرى، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»! فقلت: لقد خيَّرتَ فاخترت والذى بئسك بالحق! وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

قال الطبري: وقد وقع الاتفاق على أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، واختلف في أي الأثنين كان؟ فقيل: لليلتين خلتا من الشهر، وقيل: لائنتي عشرة^(٣) خلت من الشهر. واختلف في تجهيزه أي يوم كان! فقيل: يوم الثلاثاء الفد من وفاته، وقيل: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة.

وقد روى الطبري ما يدلُّ على ذلك عن زياد بن كليب، عن إبراهيم النخعي أن

(٢) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٤

(١) تاريخ الطبري ٣ : ١٨١٢ .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٥ .

أبا بكرٍ جاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد اربدَ بطنه ، فكشف عن وجهه ، وقبل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمي ! طببت حياً وطببت ميتاً^(١) !

قلت : وأنا أعجبُ من هذا ! هبْ أن أبا بكرٍ ومن معه اشتغلوا بأمر البيعة ، فعلى بن أبي طالب والعبّاس وأهل البيت بماذا اشتغلوا حتى يبقى النبي صلى الله عليه وآله مسجياً بينهم ثلاثة أيامٍ بلياليهنّ لا يفسلونه ولا يمسونه !

فإن قلت : الرواية التي رواها الطبري في حديث الأيام الثلاثة ، إنما كانت قبل البيعة ؛ لأن لفظ الخبر عن إبراهيم ، وأنه لما قبض النبي صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث ، ولم يجترئ أحدٌ أن يكشف عن وجهه عليه السلام حتى اربدَ بطنه ، فكشف عن وجهه وقبل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمي ! طببت حياً وطببت ميتاً ، ثم خرج إلى الناس ، فقال : مَنْ كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ... الحديث بطوله .

قلت : لعمري ، إن الرواية هكذا أوردتها ، ولكنها مستحيلة ، لأن أبا بكرٍ فارق رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ ، ومضى إلى منزله بالسُّنح في يوم الاثنين ، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه رآه بارئاً صالح الحال . هكذا روى الطبري في كتابه ، وبين السُّنح وبين المدينة نصف فرسخ ، بل هو طائفة من المدينة ، فكيف يبقى رسول الله صلى الله عليه وآله ميتاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر ، وبينهما غلوة ثلاثة أسهم ! وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحدٌ منهم أن يكشف عن وجهه ، وفيهم علي بن أبي طالب وهو رُوحه بين جنبيه ، والعبّاس عمّ القائم مقام أبيه ، وابنا فاطمة ، وهما كولديه ، وفيهم فاطمة بضعة منه ، أفما كان في هؤلاء مَنْ يكشف عن وجهه ، ولا مَنْ يفكر في جهازه ، ولا مَنْ يأنف له من

انتفاخ بطنه واخضرارها وينتظر بذلك حضورَ أبي بكر ليكشفَ عن وجهه !
أنا لأصدق ذلك ، ولا يسكنُ قلبي إليه . والصحيح أن دخولَ أبي بكر إليه وكشفه عن
وجهه ، وقوله ما قال ، إنما كان بعد الفراغ من البيعة ، وأنهم كانوا مشتغلين بها
كما ذكر في الرواية الأخرى .

وبقي الإشكال في قعود عليّ عليه السلام عن تجهيزه . إذا كان أولئك مشتغلين،
بالببيعة ، فما الذي شغله هو ؟

فأقول : ينلب عليّ ظني - إن صحّ ذلك - أن يكون قد فعله شناعة عليّ أبي بكر وأصحابه ،
حيث فاته الأمر ، واستؤثر عليه به ، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وآله بحاله لا يحدث
في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أن الدنيا شغلتهم عن نبيهم ثلاثة أيام ، حتى آل أمره
إلى مازون ؛ وقد كان عليه السلام يتطلب الحيلة في تهجين أمر أبي بكر حيث وقع في
السقيفة ما وقع بكلّ طريق ، ويتعلق بأذى سبب من أمورٍ كان يعتمدها ، وأقوالٍ كان
يقولها ، فلعلّ هذا من جملة ذلك ، أو لعلّه إن صحّ ذلك ، ^(١) فإنما تركه صلى الله عليه وآله
بوصية منه إليه وسريّ كانا يعملانه في ذلك .

فإن قلت : فلم لا يجوز أن يقال - إن صحّ ذلك : إنه ^(٢) أخرّ جهازه ليجتمع رأيه ورأى
المهاجرين على كيفية غسله وتكفينه ، ونحو ذلك من أموره ؟

قلت : لأن الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال ، وهي قوله صلى الله عليه وآله لم قبل
موته : « يغسلني أهلي الأذنى منهم فالأذنى ، وأكفن في ثيابي أوفى بياض مصر أو في
حلة يمنية » .

قال أبو جعفر : فأما الذين تولوا غسله فعليّ بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبدالمطلب ،
والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله صلى الله

(١-١) ساقط من ب ، وأنبته من ا

عليه وآله ، وحضر أوس بن خولى أحد الخرزج ، فقال لعلى بن أبي طالب : أنشدك الله يا على وحظنا من رسول الله ! وكان أوس من أصحاب بدر ، فقال له : ادخل ، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام ، وصب الماء عليه أسامة وشقران ، وكان على عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يدلكه من ورائه ، لا يفيض بيده إلى بدن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان العباس وابناه الفضل وقثم يساعدونه على قلبه من جانب إلى جانب (١) .

قال أبو جعفر : وروى عائشة أنهم اختلفوا في غسله : هل يجرد (٢) أم لا ؟ فألقى الله عليهم السنة حتى مامنهم رجل إلا وذقنه على صدره ، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدري من هو : غسلوا النبي وعليه ثيابه . فقاموا إليه فغسلوه ، وعليه قميصه فكانت عائشة تقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه (٣) .

قلت : حضرت عند محمد بن معد العلوى فى داره ببغداد ، وعنده حسن بن معالى الحلى المعروف بابن الباقلاوى وهما يقرآن هذا الخبر ، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبرى ، فقال محمد بن معد لحسن بن معالى : ماتراها قصدت بهذا القول ؟ قال : حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غسل رسول الله صلى الله عليه وآله ! فضحك محمد ، فقال : هبها استطاعت أن تراجحه فى الغسل ، هل تستطيع أن تراجحه فى غيره من خصائصه !

قال أبو جعفر الطبرى : ثم كفن عليه الصلاة والسلام فى ثلاثة أثواب : ثوبين صحاريين (٤) وبرد حبرة (٥) . أدرج (٦) فيها إدراجاً ، ولحد له على عادة أهل المدينة ، فلما فرغوا منه وضعوه على سريره (٧) .

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ . (٢) الطبرى : « أنجرد » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ . (٤) صحاريان : منسوبان إلى صحار ، قرية باليمن .
(٥) حبرة بوزن عنبة ، أى مخطط ، وهو برد يمان أيضاً على الوصف أو الإضافة .
(٦) أى لف فيه . (٧) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .

واختلفوا في دَفْنِهِ ، فقال قائل : ندفنه في مسجده ، وقال قائل : ندفنه في البقيع مع أصحابه ، وقال أبو بكر : سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا وَدُفِنَ حَيْثُ قُبِضَ » ، فَرَفَعَ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، فَخَفِرَ لَهُ تَحْتَهُ .

قلت : كيف اختلفوا في موضع دفنه ، وقد قال لهم : « فضعوني على سريري في بيتي هذا ، على شفير قبوري » ، وهذا تصريح بأنه يُدْفَنُ في البيت الذي جمعهم فيه ، وهو بيت عائشة ؛ فإما أن يكون ذلك الخبر غير صحيح ، أو يكون الحديث الذي تضمن أنهم اختلفوا في موضع دفنه ، وأن أبا بكر رَوَى لَمْ أَنَّهُ قَالَ : « الْأَنْبِيَاءُ يَدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ » غير صحيح ، لأنَّ الجَمْعَ بين هذين الخبرين لا يمكن .

وأيضاً ، فهذا الخبر يناهض ما ورد في موت جماعة من الأنبياء نُقِلُوا مِنْ مَوْضِعِ مَوْتِهِمْ إِلَى مَوَاضِعٍ أُخَرَ ، وقد ذكر الطبري بعضهم في أخبار أنبياء بني إسرائيل .

وأيضاً فلو صحَّ هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَيْثُ قُبِضَ ، لأنَّه ليس بأمرٍ بل هو إخبار محض ، اللهم إلا أن يكونوا فهموا من مخرج لفظه عليه السلام ومن مقصده أنه أراد الوصية لهم بذلك ، والأمر بدفنه حيث يقبض . قال أبو جعفر : ثم دخل ^(١) الناس فصَلُّوا عَلَيْهِ أَرْسَالاً ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ الرَّجَالُ أَدْخَلَ النِّسَاءَ ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ النِّسَاءُ أَدْخَلَ الصِّبْيَانَ ، ثُمَّ أَدْخَلَ الْعَبِيدَ ، وَلَمْ يُؤْمَرْهُمْ ^(٢) إِمَامًا ، ثُمَّ دَفِنَ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَسَطَ اللَّيْلِ مِنْ لَيْلَةِ الْأَرْبَعَاءِ ^(٣) .

قال أبو جعفر : وقد روت عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن عائشة قالت : ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي في جوف الليل ، ليلة الأربعاء ^(٤) .

(٢) الطبري : « ولم يؤمرهم » .

(٤) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٣ .

(١) الطبري : « ودخل » .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٢ .

قلت : وهذا أيضا من العجائب ، لأنه إذا مات يوم الاثنين وقت ارتفاع الضحى
— كما ذكر في الرواية — ودفن ليلة الأربعاء وسط الليل ، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد
في تلك الرواية .

وأياها من العجب كون عائشة ، وهو في بيتها لا تعلم بدفنه حتى سمعت صوت المساحي ،
أتراها أين كانت ! وقد سألت عن هذا جماعة ، فقالوا : لعلها كانت في بيت يجاور بيتها
عندها نساء كما جرت عادة أهل الميت ؛ وتكون قد اعتزلت بيتها وسكنت ذلك البيت ،
لأن بيتها مملوء بالرجال من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرهم من الصحابة ، وهذا
قريب ، ويحتمل أن يكون .

قال الطبري : ونزل في قبر رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه
السلام ، والفضل بن عباس ، وقثم أخوه ، وشقران مولاهم . وقال أوس بن خولى لعل
عليه السلام : أشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال له : انزل ،
فنزل مع القوم ، وأخذ شقران قطيفة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسها ، فذفها
معه في القبر ، وقال : لا يلبسها أحد بعده (١) .

قلت : من تأمل هذه الأخبار ، علم أن عليا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل
في أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وجهازه ، ألا ترى أن أوس بن خولى لا يخاطب
أحدًا من الجماعة غيره ، ولا يسأل غيره في حضور الغسل والنزول في القبر ! ثم انظر إلى كرم
علي عليه السلام وسجاجة أخلاقه وطهارة شيمته ، كيف لم يرضن بمثل هذه المقامات
الشريفة عن أوس ؛ وهو رجل غريب من الأنصار ، فعرف له حقه وأطلبه (٢) بما طلبه !
فكم بين هذه السجية الشريفة ، وبين قول من قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت

(٢) أطلبه : أجاهه إلى ما طلب .

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٣ .

ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه ! ولو كان في ذلك المقام غيره من أولي الطباع الخشنة ، وأربات الفضاظة والغلظة ، وقد سأل أوس ذلك - لزجر واتهر ورجع خائباً !

قال الطبري : وكان المغيرة بن شعبة يدعى أنه أحدثُ الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول للناس : إنني أخذت خاتمي فألقيته في القبر ، وقلت : إن خاتمي قد سقط مني ، وإنما طرحته عمدًا ؛ لأمس رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأكون آخر الناس به عهداً ^(١) .

قال الطبري : فرَوَى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : اعتمرتُ مع علي بن أبي طالب عليه السلام في زمان عمر - أو عثمان - فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب ، فلما فرغ من عمرته رجع وقد سكب له غسل ، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفرٌ من أهل العراق ، فقالوا : يا أبا الحسن ، جئناك نسألك عن أمر نحب أن نخبرنا به ! فقال : أظن المغيرة يحدثكم أنه أحدثُ الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله ! قالوا : أجل ، عن ذا جئنا نسألك ! قال : كذب ! أحدثُ الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله فم بن العباس ، كان آخرنا خروجاً من قبره ^(٢) .

قلت : بحق ما عاب أصحابنا رحمهم الله المغيرة وذموه وانتقصوه ! فإنه كان على طريقة غير محمودة ، وأبى الله إلا أن يكون كاذباً على كل حال ، لأنه إن لم يكن أحدثهم بالنبي عهداً ، فقد كذب في دعواه أنه أحدثهم به عهداً ، وإن كان أحدثهم به عهداً كما يزعم فقد اعترف بأنه كذب في قوله لهم : « سقط خاتمي مني » ؛ وإنما ألقاه عمدًا ، وأين المغيرةُ ورسول الله صلى الله عليه وآله ليدعى القرب منه ، وأنه أحدثُ الناس عهداً به !

(٢) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ .

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٣ .

وقد علم الله تعالى والمسلمون أنه لولا الحدّثُ الَّذِي أحدث ، والقوم الذين صحبهم فقتلهم
غَدْرًا ، واتخذ أموالهم ؛ ثم التجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليعصمه لم يُسلم ،
ولا وطئُ حصا المدينة .

قال الطبري : وقد اختلف في سن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالأكثر أن كان
ابن ثلاث وستين سنة ، وقال قوم . ابن خمس وستين سنة ، وقال قوم : ابن ستين .
فهذا ما ذكره الطبري في تاريخه (١) .

وروى محمد بن حبيب في " أماليه " قال : تولى غسل النبي صلى الله عليه وآله
على عليه السلام والعبّاس رضی الله عنه .
وكان على عليه السلام يقول بعد ذلك : ما شممت أطيبَ من ريحه ، ولا رأيت أضوأ
من وجهه حينئذ ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى .

قال محمد بن حبيب : فلما كشف الإزار عن وجهه بعد غسله انحنى عليه فقبله مرارا ؛
وبكى طويلا : وقال بأبي أنت وأمي ! طببت حيا وطببت ميتا ! انقطع بموتك ما لم ينقطع
بموت أحد سواك من النبوة والأنباء وأخبار السماء ! خصصت حتى صرت مسليا عن سواك ؛
وعمت حتى صارت المصيبة فيك سواء ! ولولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع
لأنفدنا عليك ماء الشئون ؛ ولكن أتى مالا يُدفع ! أشكو إليك كمدأ وإدبارا مخالفين
وداء الفتنة ، فإنها قد استمرت نارها وداؤها الداء الأعظم ! بأبي أنت وأمي اذكرنا عند
ربك ، واجعلنا من بالك وهماك !

ثم نظر إلى قذاة في عينه فلفظها بلسانه ، ثم رد الإزار على وجهه .

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ .

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أبها يومَ موته وبعد ذلك اليوم ،
وهي ألفاظ معدودة مشهورة ، منها: «يا أبتاه ! جنة الخلد مثواه ، يا أبتا ! عند ذى العرش
مأواه ! يا أبتاه ! كان جبرائيل يغشاه ! يا أبتاه لست بعد اليوم أراه !» .

ومن الناس من يذكر أنها كانت تشوبُ هذه الندبة بنوع من التظلم والتألم لإمر
يفلبها . والله أعلم بصحة ذلك .

والشيعة تروى أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل ، ونهوها عنه ، وأمروها
بالتنحي عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطرف المدينة .

وأنا أستبعد ذلك ، والحديث يدخله الزيادة والنقصان ، ويتطرق إليه التحريف
والافتعال ، ولا أقول أنا في أعلام المهاجرين إلا خيراً !

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ ،
وَلَا تَحْجِبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ ،
وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ .

الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ ، وَعَدَلَ
عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَاقِهَا ، وَبِمَا وَسَمَّهَا بِهِ مِنْ
الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا أَضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ .

وَاحِدٌ لَا يَمُدُّ ، وَدَائِمٌ لَا يَأْمِدُ ، وَقَائِمٌ لَا يَمِيدُ .

تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ . لَمْ تُحِطْ بِهِ
بِهَا الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا . وَبِهَا أَمْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا .

لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ أَمْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَّاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا ، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ
بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا ، بَلْ كَبُرَ شَأْنًا وَعَظُمَ سُلْطَانًا .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّيْفِيُّ ، وَأَمِينَهُ الرَّضِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ،
أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ ، وَظُهُورِ الْفَلَاحِ ، وَإِبْصَاحِ الْمَنْهَجِ ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا ،
وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا ، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ ، وَجَعَلَ أُمْرَانَ
الْإِسْلَامِ مَتِينَةً ، وَعُرَا الْإِيمَانِ وَثِيقَةً .

الشَّيْخُ

الشواهد هاهنا ، يريد بها الحواس ، وسمّاها «شواهد» إما لحضورها ؛ شهد فلان كذا
أى حضره ، أو لأنها تشهد على ماتدركه وثبته عند العقل ، كما يشهد الشاهد بالشئ^١ ويثبته
عند الحاكم .

والمشاهد هاهنا : المجالس والنوادي ، يقال : حضرت مشهد بنى فلان ، أى
ناديهم ومجتمعهم .

ثم فسّر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله : « ولا تراه النواظر » ، وفسّر اللفظة
الثانية وأبان عن مرادها ، فقال : « ولا تحجبه السواتر » .

ثم قال : « الدّال على قدّمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده » ؛ هذا مشكل ،
لأن لقائل أن يقول : إذا دلّ على قدّمه بحدوث خلقه ، فقد دخل في جملة المدلول كونه
موجوداً ، لأنّ القديم هو الموجود ولم يزل ، فأى حاجة إلى أن يعود فيقول : وبحدوث
خَلَقَهُ على وجوده !

ولجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبي هاشم ، فيقول : لا يلزم من
الاستدلال بحدوث الأجسام على أنه لا بدّ من محدث قديم كونه موجوداً ؛ لأنّ عندهم أنّ
الذات المعدومة قد تتصف بصفات ذاتية ، وهى معدومة ، فلا يلزم من كون صانع العالم
عندهم عالماً قادراً حياً أن يكون موجوداً ، بل لا بدّ من دلالة زائدة ، على أنّ له صفة
الوجود وهى والدلالة التى يذكرونها ، من أنّ كونه قادراً عالماً تقتضى تعلقه بالمقدور
والمعلوم ، وكل ذات متعلقة ، فإن عدمها يخرجها عن التعلق كالإرادة ، فلو كان تعالى معدوماً
لم يجوز أن يكون متعلقاً ، فحدوث الأجسام إذاً قد دلّ على أمرين من وجهين مختلفين :
أحدهما أنه لا بدّ من صانع له ، وهذا هو المعنى بقدمه .

والثاني أن هذا الصانع له صفة ، لأجلها يصحّ على ذاته أن تكون قادرة عالمة ، وهذا هو المعنى بوجوده .

فإن قلت : أيقول أصحابُ شيخكم أبي هاشم إنّ الذات المدومة التي لا أوّل لها تسمى قديمة ؟

قلت : لا ، والبحث في هذا بحث في اللفظ لا في المعنى .

والمراد بقوله عليه السلام : « الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه » ، أي على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل ، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل ، بل مجرد الذاتية لم يزل . ثم يستدلّ بعد ذلك بحدوث الأشياء على أنّ له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرد الذاتية ، وتلك الصفة هي وجوده . فقد اتضح المراد الآن .

فإن قلت : فهل لهذا الكلام مساعٍ على مذهب البغداديين ؟ قلت : نعم ، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله : « وبحدوث خلقه على وجوده » ، أي على صحّة إيجاده له فيما بعد ، أي إعادته بعد العدم يوم القيامة ، لأنه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداء صحّ منه إيجاده ثانياً على وجه الإعادة ، لأنّ الماهية قابلة للوجود والعدم ، والقادر قادر لذاته ، فأما من روى بحدوث خلقه على وجوده ، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها . والمعنى على هذا ظاهر لأنه تعالى دلّ المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم ، ومذهب أكثر المتكلمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاماً وإحساناً إليهم .

قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبه له » هذا دليل صحيح ، وذلك لأنه إذا ثبت أن جسمًا محدث ، ثبت أن سائر الأجسام محدثة ؛ لأنّ الأجسام متماثلة ، وكلّ ما صحّ على الشيء صحّ على مثله ، وكذلك إذا ثبت أن سواداً ما أو بياضاً ما محدث ، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدثة ، لأنّ حكم الشيء حكم مثله ، والسواد في معنى

كونه سوادا غير مختلف ، وكذلك البياض ، فصارت الدلالة هكذا الذوات التي عندنا يشبه بعضها بعضاً ، وهي محدثة ؛ فلو كان البارى سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها ، ولكان محدثاً لأن حكم الشيء حكم مثله ، لكنه تعالى ليس بمحدث ، فليس بمشابه لشيء منها ، فقد صح إذا قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبه له » .
قوله عليه السلام : « الذى صدق فى ميعاده » ، لا يجوز ألا يصدق ، لأن الكذب قبيحٌ عقلاً ، والبارى تعالى يستحيل منه من جهة الداعى والصارف أن يفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وارتفع عن ظلم عباده » ، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة . وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه ؛ وهو أستاذهم وشيخهم فى العدل والتوحيد ، فأما الأشعرية ، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأن الله تعالى يظلم العباد إلا أنها تعطى المعنى فى الحقيقة ، لأن الله عندهم يكلف العباد ما لا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يكلفهم إلا ما لا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلفهم ما يطيقونه ، وذلك لأن القدرة عندهم مع الفعل ، فالقاعد غير قادر على القيام ، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام ، ويستحيل عندهم أن يوصف البارى تعالى بإقذار العبد القاعد على القيام ، وهو مع ذلك مكلف له أن يقوم ، وهذا غاية ما يكون من الظلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها .

ثم أعاد الكلام الأول فى التوحيد تأكيذاً ، فقال : حدوث الأشياء دليل على قدمه ، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته ، وكونها فانية دليل على بقاءه .

فإن قلت : أما الاستدلال بحدوث الأشياء على قدمه فمعلوم ، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الأخيرين !

قلت : إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات في كونه موجودا ، وافترقا في أن أحدهما لا يصح منه فعل الجسم ، ولا الكون ، ولا الحياة ، ولا الوجود المحدث - ويصح ذلك من الموجودات القديمة - دلّ على افتراقهما في أمرٍ لأجله صحّ من القديم ذلك ، وتعذر ذلك على المحدث ، وذلك الأمر هو الذي يسمّى من كان عليه قادرا ، وينبغي أن تحمل لفظة «العجز» هاهنا على المفهوم اللغويّ ، وهو تعذر الإيجاد ، لا على المفهوم الكلاميّ .
وأما الاستدلال الثاني ، فينبغي أن يحمل الفناء هاهنا على المفهوم اللغويّ ، وهو تغير الصفات وزوالها ، لا على المفهوم الكلاميّ ، فيصير تقدير الكلام : لما كانت الأشياء التي بيننا تتغير وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حالٍ ، وعلما أنّ العلة المصححة لذلك كونها محدثة ، علما أنّ سبحانه لا يصحّ عليه التنقل والتغير ، لأنه ليس بمحدث .

ثم قال : « واحد لا بعدد » لأنّ وحدته ذاتية ، وليست صفة زائدة عليه ، وهذا من الأبحاث الدقيقة في علم الحكمة ، وليس هذا الكتاب موضوعا لبسط القول في أمثاله .
ثم قال : « دائم لا بآمد » ، لأنه تعالى ليس بزمنيّ ولا داخل تحت الحركة والزمان ، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهيّ ، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به ، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفيض المقدّس والأنوار الربانية .

ثم قال : « قائم لا بعمد » ، لأنه لما كان في الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمد عليه ، أبان عليه السلام تنزيهه تعالى عن المكان ، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقرٌّ على عرشه بهذه اللفظة . ومعنى القائم هاهنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنه المنتصب ؟ بل ماتفهمه من قولك : فلان قائم بتدبير البلد ، وقائم بالتسقط .

ثم قال : « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » ، أي تتلقاه تلقياً عقلياً ، ليس كما يتلقى الجسم الجسم بمشاعره وحواسّه وجوارحه ، وذلك لأنّ تعقل الأشياء وهو حصول صورها

فى العقل بريثة من المادة ، والمراد بتلقيه سبحانه هاهنا تلقى صفاته ، لا تلقى ذاته تعالى ، لأن ذاته تعالى لا تتصورها العقول ، وسيأتى إيضاح أن هذا مذهبه عليه السلام .

ثم قال : « وتشهد له المرأى لا بمحاضرة » ، المرأى : جمع مرأى ، وهو الشيء المدرك بالبصر ، يقول : المرئيات تشهد بوجود البارى ، لأنه لولا وجوده لما وجدت ، ولو لم توجد لم تكن مرئيات ، وهى شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأَبصار ، لأنها شهدت بوجود الأَبصار لحضورها فيها . وأما شهادتها بوجود البارى فليست بهذه الطريق ، بل بما ذكرناه . والأولى أن يكون « المرأى » هاهنا جمع « مرآة » بفتح الميم ، من قولهم : هو حسن فى مرآة عيني ، يقول : إن جنس الرؤية يشهد بوجود البارى من غير محاضرة منه للحواس .

قوله عليه السلام : « لم تحط به الأوهام » إلى قوله عليه السلام « وإليها حاكمها » ، هذا الكلام دقيق ولطيف ، والأوهام هاهنا هى العقول ، يقول : إنه سبحانه لم تحط به العقول ، أى لم تتصور كنه ذاته ، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول ، وتجليه هاهنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبية لا غير ، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته ؛ فأما غير ذلك فلا ؛ وذلك لأن البحث النظرى قد دل على أننا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب ، أما الإضافة فكقولنا : عالم قادر ، وأما السلب فكقولنا : ليس بحجم ولا عرض ولا يرى ، فأما حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هى ، فإن العقل لا يتصورها ، وهذا مذهب الحكماء وبعض المتكلمين من أصحابنا ومن غيرهم .

ثم قال : « وبالعقول امتنع من العقول » ، أى وبالعقول وبالنظر ؛ علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول .

ثم قال : « وإلى العقول حاكم العقول » ، أى جعل العقول المدعية أنها أحاطت

به وأدركته كأنخصم له سبحانه ، ثم حاكها إلى العقول السالمة الصحيحة النظر ، فحكمت
له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له .

واعلم أن القول بالحيرة في جلال ذات الباري والوقوف عند حدّ محدود لا يتجاوزه
العقل قولٌ مازال فضلاء العقلاء قائلين به .

[من أشعار الشارح في المناجاة]

ومن شعري الذي أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلواتي وانقطاعي بالقلب إليه
سبحانه قولي :

والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد
عليهما ولا جبريل وهو إلى محلّ القدس بصعد
كلّا ولا النفس البسيطة ، لا ولا العقل المجرد
من كنهه ذاتك غير أنك واحدى الذات سرمد
وجدوا إضافاتٍ وسدّاً بالحقيقة ليس توجد
ورأوا وجوداً واجباً يفنى الزمان وليس ينفد
فلتخسب الحكماء عن جرمٍ له الأفلاك تسجد
من أنت يارسطو ومن أفلاطون قبلك يابعد
ومن ابن سينا حين قرّر ما بنيت له وشيد
هل أنتم إلا القراش رأى الشهاب وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

ومما قلته أيضا في تصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى :

فيك يا أمجوبة الكون غدا الفكر قليلاً
أنت حيرت ذوى اللب وبلبلت العقولاً
كلما أقدم فكرى فيك شبراً فرّ ميلاً
ناكصاً يخبط في عمّ ياء لا يهدى السبيلاً

ولى في هذا المعنى :

فيك يا أغلوطة الفكر تاه عقلي وانقضى عمري
سافرت فيك العقولُ فما ربحت إلا أذى السفر
رجعت حسرتى وما وقفت لا على عين ولا أثر
فلحى الله الألى زعموا أنك المعلوم بالنظر
كذبوا إن الذى طلبوا خارج عن قوة البشر

وقلت أيضا في المعنى :

أفريت خمسين عاما معيلاً نظري فيه ؛ فلم أدر ما آتى وما أذر
من كان فوق عقول القايسين فما ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظر

ولى أيضاً

حبيبي أنت لا زيدٌ وعمرو وإن حيرتني وفتنت ديني
طلبتك جاهداً خمسين عاما فلم أحصل على برد اليقين

فهل بعد المات بك اتصالُ فاعلمُ غامض السرِّ المصونِ!
نوى قذْفُ وكم قد مات قبلي بحسرتة عليك من القرون!

ومن شعري أيضا في المعنى ، وكنت أنادى به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من
الناس ، بصوت رفيع ، وأجدح قلبي أيام كنت مالكا أمرى ، مطلقاً من قيود الأهل
والولد وعلائق الدنيا :

يامدهش الألباب والفطنِ ومحيرُ التقوالة اللسنِ
أفنيْتُ فيك العمرَ أنفقهُ والمال مجانا بلا ثمنِ
أتبَّع العلماء أسألهمُ وأجولُ في الآفاق والمُدنِ
وأخالطُ المللَ التي اختلفتُ في الدين حتى عابدَ الوثنِ
وظننتُ أنى بالغُ غرَضِي لما اجتهدت ومبرئُ شجني
ومطهرُ من كل رجس هوى قلبي بذاك ، وغايلُ درَني
فإذا الذي استكثرت منه هو الـ جاني على عظاممُ المحنِ
فضلتُ في تيهِ بلا علمٍ وغرقت في يَمِّ بلا سُننِ
ورجعت صيفرَ الكفِّ مكتئباً حيرانَ ذا همِّ وذا حزنِ
أبكي وأنكت في الثرى بيدي طورا وأدعم تارة ذقني
وأصيح يا مَنْ ليس يعرفهُ أحدُ مدى الأحقاب والزمنِ !
يا مَنْ له عنتِ الوجوهُ ومن قرت له الأعناق في قرَنِ
أمنت يا جذر الأصمِّ من الـ أعداد بل يافتنة الفتنِ
أن ليس تدركك العيون وأن الرأى ذو أفنٍ وذو غبنِ

والكلّ أنت فكيف يدركه بعضٌ وأنت السرّ في العلنِ !

ومما قلته في المعنى :

ناجيته ودعوته اكشف عن عشا قلبي وعن بصرى وأنت النورُ
وارفع حجاباً قد سدّت ستوره دوني ، وهل دون الحبّ ستور !
فأجابني : صه يا ضعيف فبعض ذا قد رامه موسى فـدك الطور

أعجبني هذا المعنى ، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت :

حبيبي أنت من دون البرايا وإن لم أخط منك بما أريدُ
قنعت من الوصال بكشف حالٍ فقيل ارجع فطلبها بعيدُ
ألم تسمع جواب سؤال موسى وليس على مكاتمه مزيدُ
تعرض للذي حاولت يوماً فدك الصخر واضطرم الصعيدُ
ولى في هذا المعنى أيضاً :

قد حار في النفس جميع الورى والفكر فيها قد غدا ضائعا
وبرهن الكل على ما ادعوا وليس برهانهم قاطعا
من جهل الصنعة تجرأ فما أجدره أن يجهل الصانعا !

ولى أيضاً في الرد على الفلاسفة الذين عللوا حركة الفلك بأنه أراد استخراج الوضع

أولاً ؛ لينسبه بالعقل المجرد في كماله ، وأن كل ماله بالقوة فهو خارج إلى الفعل :

تحير أرباب النهى وتمعجبوا من الفلك الأقصى لماذا تحرك كما
فقيل بطبع كالنقييل إذا هوى وقيل اختياراً والمحقق شككا
فرد حديث الطبع إذ كان دائراً وليس على سمت قويم فيسلكاً

وقيل لمن قال اختياراً فما الذي دعاه إلى أن دار ركضاً فأوشكاً
فقالوا لوضع حادثٍ يستجده يعاقب منه مطلباً ثم متركاً
فقيل لهم : هذا الجنون بعينه ولورامه منّا امرؤ كان أعفكاً^(١)
ولو أن إنساناً غدا ليس قصده سوى الوضع واستخراجه عدماً مضحكاً

ولى أيضاً في الردّ على مَنْ زعم أن النبي صلى الله عليه وآله رأى الله سبحانه بالعين ،
وهو الذي أنكرته عائشة ، والمعجب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من
نساء العرب :

عجبتُ لقوم يزعمون نبّهم رأى ربّه بالعين ، تَبّاً لهم تَبّاً !
وهل تُدرِكُ الأبصارُ غيرَ مكيفٍ وكيف تبيحُ العينُ ما يَمْنَعُ القلبُ !
إذا كان طرف القلب عن كنهه نبياً حَسيراً ، فطرف العين عن كنهه أنبيّ !
والمقطّعات التي نظمتها في إجلال الباري سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة ،
موجودة في كتبي ومصنّفاتى ، فلتلمح من مظانها ، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشييداً لما
قاله أمير المؤمنين عليه السلام على^٢ في هذا الباب .

قوله عليه السلام : « ليس بدى كِبَرٍ » إلى قوله « وعظُم سلطانا » ، معناه أنه تعالى يطلق
عليه من أسمائه الكبير والعظيم ، وقد ورد بهما القرآن العزيز ، وليس المراد بهما ما يستعمله
الجمهور من قولهم : هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم ، بل المراد عِظْمُ شأنه
وجلالته سلطانه .

والفَلَجُ : النُّصرة ، وأصله سكون العين ، وإتّما حرّكه ليوازن بين الألفاظ ، وذلك

(١) الأعفك : الذى لا يحسن العمل .

لأن الماضي، منه فَلَج الرجلُ على خصمه بالفتح ، ومصدره الفلج بالسكون ، فأما من روى :
« وظهور الفلج » بضمين فقد سقط عنه التأويل ، لأن الاسم من هذا اللفظ : « الفلج »
بضم أول الكلمة ، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جازله ضمّ الحرف الثاني .

وصادعاً بهما : مظهرأ مجاهداً ، وأصله الشق .

والأمراس : الحبال ، والواحد مَرَس ؛ بفتح الميم والراء .

الأصل :

منها في صفة عجب خلق أصناف من الحيوان :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَخَافُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ ، وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ . أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ
مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيبَهُ ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ
الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ !

انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ،
ولا بمستدرك الفكر ؛ كيف دبّت على أرضها ، وصبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى
جحرها ، وتعدّها في مستقرّها ، تجمع في حرّها ليردّها ، وفي وريدها لصدرها ؛ مكفول
برزقها ، مرزوقة بوقفها ؛ لا يفيلها المنان ، ولا يحرّمها الدينان ، ولو في الصفا
أليابس ، وألحجر أجماس !

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي تِجَارِي أَكْلِهَا ، وَفِي عُلُوقِهَا وَسُفْلِهَا ، وَمَا فِي أَلْبُوفِ مِنْ شَرَّاسِيفِ
بَطْنِهَا ، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا ، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا ، وَلَقَيْتَ مِنْ
وَصْفِهَا نِعْمًا !

فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا ؛ وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا ! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا
فَاطِرٌ ، وَلَمْ يُعِنِّهِ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ .

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَتَبَلَّغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ
فَاطِرَ النَّمَلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ ؛ لِذَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ .
وَمَا أُجْلِيلُ وَاللَّطِيفُ ، وَالنَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ
إِلَّا سَوَاءٌ .

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ . فَانظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَالنَّبَاتِ
وَالشَّجَرِ ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَتَفَجَّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ ، وَكَثْرَةَ
هَذِهِ الْجِبَالِ ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ .

فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمَقْدَرُ ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ !

رَزَعُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا
إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا دَعَوْا ، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ
جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !

الْبَشْرُ :

مدخولة : معيبة . وفلق : شقّ وخلق . والبشر : ظاهر الجلد .

قوله عليه السلام : « وَضُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا » ، قيل : هو على العكس ، أى وصبّت
رزقها عليها ، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا ، والمراد : كيف همت حتى انصبّت
على رزقها انصباباً ؛ أى انحطت عليه . ويروى : « وَضُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا » بالضاد المعجمة
والنون ، أى بخلت . وجُحِرَها : بيتها .

قوله عليه السلام : « وفي وزديها لصدّرها » ، أى تجمع في أيام التمكّن من الحركة لأيام العجز عنها ، وذلك لأنّ النمل يظهر صيفاً ويخفى في شدّة الشتاء لعجزه عن ملاقاته البرد .

قوله عليه السلام : « رزقها وفقها^(١) » ، أى بقدر كفايتها ، ويروى « مكفول برزقها ، سرزوقة بوقها » .

والمنان ؛ من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية ، أى هو كثير المنّ والإنعام على عباده .

والديان : المجازى للعباد على أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾^(٢) أى مجزيون .
والحجرّ الجامس : الجامد . والشراسيف : أطراف الأضلاع المشرفة على البطن .

[فصل في ذكر أحوال الذرّة وعجائب النملة]

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد في كتاب " الحيوان " ، في باب النملة والذرّة - وهى الصغيرة جدّاً من النمل - كلاماً يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام أصله ، ولكنّ أبا عثمان قد فرّع عليه .

قال : الذرّة تدّخر فى الصيف للشتاء ، وتتقدّم فى حال المهلة ، ولا تُضيع أوقات بإمكان الحزم ، ثم يبلغ من تفقدها وصحة تمييزها^(٣) ، والنظر فى عواقب أمورها^(٤) ؛ أنّها تخاف على الحبوب التى ادّخرتها للشتاء [فى الصيف]^(٥) ، أن تعفن وتسوس فى بطن الأرض

(١) كذا فى ١ ، ب ؛ وما ورد فى أصل التهج يوافق ما فى الرواية التالية .

(٢) سورة الصافات ٥٣

(٣) الحيوان : « وحسن خبرها » . (٤) الحيوان : « أمرها » .

(٥) من الحيوان .

فتخرجهما إلى ظهرها لتنترها^(١) وتعيد إليها جفوفها ، وبضربها النسيم فينفي عنها اللّخن والفساد .

ثم ربما - بل في الأكثر - تختار ذلك العمل ليلاً ، لأن ذلك أخفى ، وفي القمر لأنها فيه أبصر ، فإن كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت الحبة نقرت موضع القطمير^(٢) من وسطها ؛ لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت ، وربما فلتت الحبة نصفين . فأمّا إن كان الحب من حب الكزبرة فإنها تفلقه أرباعاً ، لأن أنصاف حب الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب ، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات ، حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس ، ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها في الشم والاسترواح ما ليس لشيء ، فربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد ، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة ، وليس بقربه ذرة ولا له عهد بالذرة في ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فترومها وتحاول نقلها وجرحها إلى جحرها ، فإذا أعجزتها بعد أن تُبلي عُذراً مضت إلى جحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلفها كالخيط الأسود المدود ، حتى يتعاون عليها فيحملتها . فاعجب من صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ! ثم انظر إلى بُعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة ، وأكثر من مائة مرة ، بل أضعاف أضعاف المائة ، وليس شيء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه سهاراً كثيرة غيرها .

فإن قال قائل^(٣) : فمن أين علمت أن التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي أخبرت صواحباتها من الذرة ، وأنها التي كانت على مقدمتهن ؟

قيل له : لطول التجربة ، ولأننا لم نر قط ذرة حاولت جرداً فعجزت عنها ، ثم

(١) الحيوان : « لتيسها » .

(٢) القطمير : شق النواة .

(٣) الحيوان : « فإن قلت » .

رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنا لانفصل في مرأى العين بينها وبين أخواتها ، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا ، فدلنا ذلك على أنها في رجوعها عن الجرادة أنها إنما كانت لأشباهها كالرائد الذي لا يكذب أهله .

قال أبو عثمان : ولا يُنكر قولنا : إن الذرة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذب القرآن ، فإنه تعالى قال في قصة سليمان : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ * فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ^(١) ، فهل بعد هذا ريب أو شك في أن لها قولاً وبيانا وتمييزاً !

فإن قلت : فلعلها مكلفة ، ومأمورة ومنهية ، ومطبعة وعاصية !

قيل : هذا سؤال جاهل ، وذلك أنه لا يلزم أن يكون كل ذى حس ، وتمييز مكلفاً مأموراً منهياً ، مطيعاً عاصياً ، لأن الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيراً من الآثار ، وضروبا من الأخبار ، ويشترى ويبيع ، ويخدع الرجال ويسخر بالمعلمين ، وهو غير مكلف ولا مأمور ، لا منهى ولا عاص ولا مطيع ، فلا يلزم بما قلناه في الذرة أن تكون مكلفة ^(٢) .

قال أبو عثمان : ومن عجيب ما سمعته من أمر النملة ، ما حدثني به بعض المهندسين عن رجل معروف بصناعة الإسطرلابات ^(٣) ، أنه أخرج طوقاً من صُفْر - أو قال من حديد - من الكبر ، وقد أحماه ، فرمى به على الأرض ليبرد ، فاشتعل الطوق على نملة ، فأرادت أن تنفر يمنة فلقبها وهج النار ، فأخذت يسرة فلقبها وهج النار ، فمضت قدماً فكذلك ، فرجعت إلى خلفها فكذلك ، فرجعت إلى وسط الدائرة ، فوجدها قد ماتت في موضع رجل البركار ^(٤) من الدائرة ، وهذا من العجائب .

قال أبو عثمان : وحدثني أبو عبيد الله الأفوه ، وما كنت أقدم عليه في زمانه من مشايخ

(١) سورة النمل ١٨ ، ١٩ . (٢) الحيون ٤ : ٥ وما بعدها .

(٣) الأسطرلابات : جمع اسطرلاب ، وهي آلة يعرف بها الوقت انظر شفاء النليل للخفاجي : ٥١ .

(٤) البركار : اسم لآلة معروفة . قال صاحب شفاء النليل : هو معرب « فرجار » . وقال : إنه لم يرد في شعر قديم .

المعتزلة إلا القليل ، قال : قد كنت ألقى من الذرّ والنمل في الرطاب يكون عندي وفي الطعام عننا كثيرا ، وذلك لأنى كنت لا أستقدر النملة ولا الذرة ، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت في قارورة بانٍ أو زئبق أو خيريّ ، فسد ذلك الدهن وزنخ ، فقدرتها ونفرت منها ، وقلت : أخلق بطبيعتها أن تكون فاسدة خبيثة ، وكنت أرى لها عضا منكرا ، فأقول : إنهما من ذوات السموم ، ولو أن بدن النملة زيد في أجزائه حتى يلحق ببدن العقرب ، ثم عشت إنسانا لكانت عشتها أضرّ عليه من لسعة العقرب .

قال : فأنخذت عند ذلك لطعامي منملة وقبرتها ، وصببت في خندقها الماء ، ووضعت سلّة الطعام على رأسها ، فغبرت أياما أكشف رأس السلّة بعد ذلك ، وفيها ذرّة كثير ، ووجدت الماء في الخندق على حاله ، فقلت : عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها ، وأكل مما فيها ! وطال مكثها في الأرض ، وقد دخلها الذرّة ثم أعيدت على تلك الحال ، وتسكلمت في ذلك وتعرفت الحال فيه ، فعرفت البراءة في عذرهم ، والصدق في خبرهم ، فاشتد تعجبي ، وذهبتُ بنى الظنون والخواطر كلّ مذهب ، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها ، وأثبتت في أمرى ، وأتعرّف شأني ، فإذا هي بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانبا ، وصعدت في الخائط ، ثم مرت على جذع السقف ، فلما صارت محاذية للسلّة أرسلت نفسها فقلت في نفسي : انظر كيف اهتدت إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة ! ثم قلت : وما عليها أن تبقى محصورة ؟ بل أيّ حصار على ذرّة وقد وجدت ما تشتهي .

قال أبو عثمان : ومن أعاجيب الذرّة أنها لا تعرض لجعلٍ ولا لجرادة ولا لخنفساء ولا لبنت ورّدان ، ما لم يكن بها حبل أو عقر أو قطع رجل أو يد ، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علة ، وثبت عليها ، حتى لو أن حية بها ضربة أو خرّق أو خدش ، ثم كانت من

ثعابين مِصر ، لوثب عليها الذرّ حتى يأكلها ، ولا تكاد الحية تسلّم من الذرّ إذا كان بها أدنى عقر .

قال أبو عثمان : وقد عذب الله بالذرّ والنمل أمما وأمما ، وأخرج أهل قرى من قراهم ، وأهل دروبٍ من دروبهم .

وحدثني بعض من أصدق خبره ، قال : سألت رجلاً كان ينزل ببغداد في بعض الدروب التي في ناحية باب الكوفة التي جلا أهلها عنها ، لغلبة النمل والذرّ عليها ، فسألته عن ذلك ، فقال : وما تصنع بالحديث ! امضِ معي إلى دارى التي أخرجني منها النمل .

قال : فدخلتها معه فبعث غلامه ، فاشترى رهوساً من الرأسين ليتغذى بها ، فانتقلنا هرباً من النمل في أكثر من عشرين مكاناً ، ثم دعا بطستٍ ضخمة ، وصب فيها ماء صالحاً ، ثم فرّق عظام الرهوس في الدار ، ومعه غلماناه ، فكان كلما اسود منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه - وذلك في أسرع الأوقات - أخذ الغلام فقرّغه في الطست بعود ينثر به ماعليه في جوف الطست ، فما لبثنا مقدار ساعة من النهار حتى فاضت الطست نملاً ، فقال : كم تظن أنى فعلت مثل هذا قبل الجلاء طمعاً في أن أقطع أصلها ! فلما رأيت عددها إماماً زائداً ، وإماماً ثابتاً ، وجاءنا مالا بصير عليه أحد ، ولا يمكن معه مقام ، خرجت عنها .

قال أبو عثمان : وعذب عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرثي بأنواع العذاب ، فقيل له : إن أردت ألا يفلاح أبداً فمرهم فلبنفضرا في دُبره النمل ، ففعلوا فلم يفلاح بعدها^(١) .

قال أبو عثمان : ومن الحيوان أجناسٌ يشبه الإنسان في العقل والروية والنظر في العواقب والفكر في الأمور ، مثل النمل ، والذرة ، والفأر ، والجُرذان ، والمنكبوت ، والنحل ، إلا أن النحل لا يدخر من الطعام إلا جنسا واحدا وهو العسل^(١) .

قال : وزعم البقيرى أنك لو أدخلت نملة في جحر ذرة لأكلتها حتى تأتي على عامتها ، وذكر أنه قد جرب ذلك .

قال : وزعم صاحب المنطق أن الضبع تأكل النمل أكلا ذريعا ، لأنها تأتي قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية ، فتلحس ذلك النمل كله بلسانها ، بشهوة شديدة وإرادة قوية .

قال : وربما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم ، وأكلت كل شيء لهم ، فلا تزال كذلك حتى ينشأ في تلك القرى النمل ، فيسلط الله عز وجل ذلك النمل على تلك الأرضة ، حتى تأتي على آخرها ، على أن النمل بعد ذلك سيكون له أذى ، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيدا ، وما أكثر ما يذهب النمل أيضا من تلك القرى ، حتى يتم لأهلها السلامة من النوعين جميعا .

قال : وقد زعم بعضهم أن تلك الأرضة بأعيانها تستحيل نملا ، وليس فناؤها لأكل النمل لها ، ولكن الأرضة نفسها تستحيل نملا ، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى الناس النقصان في عددها ومضرتها على الأيام^(٢) .

قال أبو عثمان : وكان كمامة يرى أن الذرة صغار النمل ، ونحن نراه نوعا آخر كالبقير والجواميس .

قال : ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته ، وقال الشاعر :

وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطفه

وكان في كتاب عبد الحميد إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحاً،
فيقال: إن أبا مسلم لما قرأ هذا الكلام في أول الكتاب لم يتمّ قراءته وألقاه في النار،
وقال: أخاف إن قرأته أن ينخب قلبي.

قال أبو عثمان: ويُقتل النمل بأن يصبّ في أفواه بيوتها القَطْران والكِبْرَيْت الأصفر،
وأن يدمر في أفواها الشعر، على أنا قد جرّبنا ذلك فوجدناه باطلاً.

فأما الحكماء، فإنهم لا يثبتون للنمل شراسيف ولا أضلاعاً، ويجب إن صحّ
قولهم أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيّله
وتتوهمه حقاً، وكذلك لا يثبت الحكماء للنمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها،
ويجب إن صحّ ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على قوّة الإحساس
بالأصوات، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوّة للنمل، ولهذا إذا صيح
عليهنّ هربن.

ويذكر الحكماء من عجائب النمل أشياء، منها أنه لا جلده، وكذلك كلّ
الحيوان المخرز.

ومنها أنه لا يوجد في صقلية نمل كبار أصلاً.

ومنها أن النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر.

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شيء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت
على العضد منعت من النوم.

قوله عليه السلام: «ولو ضربت في مذاهب فكري لتبلغ غاياته»، أي غايات فكري،
وضربت بمعنى سرت، وللمذاهب: الطرق. قال تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

الأرضِ»^(١) وهذا الكلام استعارة .

قال : لو أمعنتَ النَّظَرَ لعلمتَ أنَّ خالقَ النملةِ الحقيرةِ هو خالقُ النَّخلةِ الطويلةِ لأنَّ كلَّ شيءٍ من الأشياءِ تفصيلُ جسمه وهيئته تفصيلٌ دقيقٌ ، واختلافُ تلكِ الأجسامِ في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلافٌ غامضُ السببِ ، فلا بدَّ للكُلِّ من مدبِّرٍ يحكمُ بذلكِ الاختلافَ ويفعله ، على حسب ما يعلمه من المصلحة .

ثم قال : وما الجليلُ والدقيقُ في خلقه إلا سواء ! لأنه تعالى قادرٌ لذاته ، لا يعجزه شيءٌ من الممكنات .

ثم قال : « فانظر إلى الشمس والقمر » إلى قوله : « والألسن المختلفات » ، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع . والطرق إليه أربعة :

أحدها الاستدلال بحدوث الأجسام .

والثاني الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام .

والثالث الاستدلال بحدوث الأعراض .

والرابع الاستدلال بإمكان الأعراض .

وصورة الاستدلال هو أن كلَّ جسم يقبل - للجسمية المشتركة بينه وبين سائر الأجسام - ما يقبله غيره من الأجسام ، فإذا اختلفت الأجسام في الأعراض فلا بدَّ من مخصَّصٍ خصَّصَ هذا الجسم بهذا العرَض دون أن يكون هذا العرَض لجسم آخر ، ويكون لهذا الجسم عرَضٌ غير هذا العرَض ، لأنَّ للممكنات لا بدَّ لها من مرجِّح يرجِّحُ أحدَ طرفيها على الآخر ، فهذا هو معنى قوله : « فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجُّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرُّق هذه اللغات ، والألسن المختلفات » ، أي أنه يمكن أن تكون هيئة

الشمس وضوءها ومقدارها حاصلًا لجرم القمر ، ويمكن أن يكون النبات الذي لاساق له شجرا ، والشجر ذو الساق نباتا ، ويمكن أن يكون الماء صلبا والحجر مائعا ، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيئا وزمان النهار مظلما ، ويمكن ألا تكون هذه البحار متفجرة بل تكون جبالا ، ويمكن ألا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرة ، ويمكن ألا تكون هذه القلال طويلة . وكذلك القول في اللغات واختلافها . وإذا كان كل هذا ممكنا فاختصاص الجسم المخصوص بالصفات والأعراض والصّور المخصوصة لا يمكن أن يكون لجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها ، فلا بدّ من أمرٍ زائد ، وذلك الأمر الزائد هو المعنى بقولنا : صانع العالم .

ثم سفه آراء المعطلّة ، وقال : « إنهم لم يمتصموا بحجّة ، ولم يحقّقوا ما وعوّه » أى لم يرتبوا العلوم الضروريّة ترتيباً صحيحاً يفضى بهم إلى النتيجة التي هي حقّ . ثم أخذ في الردّ عليهم من طريق أخرى ، وهي دعوى الضرورة ، وقد اعتمد عليها كثيرٌ من المتكلمين ، فقال : نعم ضرورة أن البناء لا بدّ له من بانٍ . ثم قال : « والجنابة لا بدّ لها من جانٍ » ، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة ، والمراد عموم الفعلية لا خصوص الجنابة ، أى مستحيل أن يكون الفعل من غير فاعل ، والذين ادّعوا الضرورة في هذه المسألة من المتكلمين استغنوا عن الطرق الأربع التي ذكرناها ، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أولاً على طريق واحدة ، ثم جنح ثانياً إلى دعوى الضرورة ، وكلا الطريقتين صحيح .

الأصل

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجِرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرًا وَبَيْنَ ؛ وَأَسْرَجَ لَهَا
(٥ - نهج - ١٣)

حَدَقْتَيْنِ قَمَرَاوَيْنِ ؛ وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَلْفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا
الْحِسَّ الْقَوِيَّ ؛ وَتَأَبَّيْنِ بِهِمَا تَقْرِيضُ ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْرِيضُ ، يَرْهَبُهَا الزَّرَّاعُ فِي
زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا ،
وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا ؛ وَخَاقَهَا كُلُّهُ لَا يُكُونُ إِضْبَعًا مُسْتَدَقَّةً .

فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَيُعْفِرُ لَهُ
خَدًّا وَوَجْهًا ؛ وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْمًا وَضَعْفًا ، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ
رَهْبَةً وَخَوْفًا !

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسِ ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى
النَّدَى وَالْيَبْسِ ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا ، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا ؛ فَهَذَا غُرَابٌ ، وَهَذَا عُقَابٌ ؛ وَهَذَا
سَحَابٌ ، وَهَذَا نَعَامٌ ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَّلَ لَهُ بَرِيْرَ قِهِ .
وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثَّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيمَمًا ، وَعَدَدَ قَسَمَهَا ، فَبَلَ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ،
وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا .

الشَّيْرُجُ :

قوله : « وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ » أى جعلهما مضيئتين كما يضيئ السراج ، ويقال :
حدقة قمرأى منيرة ، كما يقال : ليلة قمرأى أى نيرة بضوء القمر .
و « بهما تَقْرِيضُ » أى تقطع ، والراء مكسورة .
والمنجلان : رجلاها ؛ شبههما بالمناجل لعوجهما وخشوتهما .
ويرهبها : يخافها . ونزواتها : وثباتها . والجدب : المحل .

[ذكر غرائب الجرادة وما احتوت عليه من صنوف الصنعة]

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب "الحيوان" : من عجائب الجرادة التماسها لبيضها الموضع الصلد ، والصخور الملس ، ثقةً منها أنها إذا ضربت بأذنانها فيها ، انفرجت لها ، ومعلوم أن ذنب الجرادة ليس في خلقه المنشار^(١) ولا طرف ذنبه كحدّ السنان ، ولا لها من قوّة الأثر ، ولا لذنبها من الصلابة ما إذا اعتمدت به على الكدّية^(٢) خرج^(٣) فيها ، كيف وهي تتعدّى إلى ما هو أصلب من ذلك ، وليس في طرفها كإبرة العقرب . وعلى أن العقرب ليس تخرق القمقم^(٤) ، من جهد الأيد وقوّة البدن ، بل إنما ينفرج لها بطبع مجمول هناك ، وكذلك انفراج الصّخور لأذنان الجراد .

ولو أن عقاباً أرادت أن تخرق جلد الجاموس لما انخرق لها إلا بالتكف الشديد ، والعقاب هي التي تنكدر^(٥) على الذئب [الأطلس]^(٦) ؛ فتقدّ بدابرتها ما بين صلاه إلى موضع الكاهل^(٧) .

فإذا غرّزت^(٨) الجرادة ، وألقت بيضها ، وانضمت عليها تلك الأخاديد التي هي أحدثها ، وصارت كالأفاحيص لها صارت حاضنة لها ومرية ، وحافظة وصانئة وواقية ، حتى إذا جاء وقت ديبب الروح فيها حدث عجب آخر ، وذلك لأنه يخرج من بيضه أصهب إلى

(١) الحيوان : « المسار » .

(٢) الكدّية : الصفاة العظيمة . وفي الحيوان : « الكدية والكذانة » ، واحدة الكذان ؛ وهي

حجارة كأنها المدر فيها رخاوة .

(٣) الحيوان : « جرح » . (٤) القمقم : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ، ويكون ضيق الرأس

(٦) من الحيوان .

(٥) تنكدر : تقفّس .

(٧) تقدّ : تقطع . والدايرة : الإصبع التي من وراء رجلها . والصلاب بالفتح : وسط الظهر .

(٨) غرّزت الجرادة : أثبتت ذنبها في الأرض لتبيض .

والكاهل : مقدّم أعلى الظهر

البياض ، ثم يصفر وتتلون فيه خطوط إلى السواد ، ثم يصير فيه خطوط سودّ وبيض ، ثم يبدو حجّم جناحه ، ثم يستقلّ فيموجُ بعضه في بعض^(١) .

قال أبو عثمان ، ويزعمُ قوم أن الجرّاد^(٢) قد يريد الخضرة ودونه النهر الجاري ، فيصير بعضه جسرا لبعض حتى يعبر إلى الخضرة ، وأن ذلك حيلة منها .

وليس كما زعموا ، ولكن الزحف الأوّل من الدّبا يريد الخضرة فلا يستطيعها إلا بالعبور إليها ، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت لعمري أرضاً للزحف الثاني الذي يريد الخضرة ، فإن سموا ذلك جسرا استقام ، فأما أن يكون الزحف الأوّل مهّد للثاني ومكّن له وآثره [بالكفاية] فهذا مالا يعرف ، ولو أن الزحفين جميعا أشرفا على النهر ، وأمسك أحدهما عن تكالّف العبور حتى يمهد له الآخر لكان لما قالوه وجه^(٣) .

قال أبو عثمان : ولعاب الجرّاد سمٌّ على الأشجار لا يقع على شئٍ إلا أحرقه .

فأما الحكماء فيذكرون في كتبهم أن أرجل الجرّاد تقلع الثآليل ، وأنه [إذا] أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها ، وجعل معها قليل آس يابس ، وشربت للاستسقاء كما هي ، نفعت نفعا يبيّن؛ وأن التبخّر بالجرّاد ينفع من عسر البول ، وخاصة في النساء ، وأن أكله ينفع من تقطيره ، وقد يبخر به للبواسير ، وينفع أكله من لسعة العقرب .

ويقال : إن الجرّاد الطوال إذا علّق على مَنْ به حُمى الرُّبّع نفعه .

(٢) الحيوان : « الدبا » .

(١) الحيوان ٥ : ٥٤٩ ، ٥٥٥ .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٦٢ .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : في التوحيد ، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم
ما نجمع خطبة غيرها :

مَا وَحَدَهُ مَنْ كَيْفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَلَهُ ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ ،
وَلَا صَدَّهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي
سِوَاهُ مَعْلُولٌ .

فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ ، مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ ؛ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ ؛
لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ ؛ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدْوَاتُ ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ، وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ ،
وَالْإِبْتِدَاءَ أَرْزَلُهُ .

الشرح :

هذا الفصل يشتمل على مباحث متعددة :

أولها قوله : « ما وحده من كيفه » ، وهذا حق لأنه إذا جعله مكيفاً جعله ذا هيئة
وشكل ، أو ذالون وضوء ، إلى غيرها من أقسام الكيف ، ومتى كان كذلك كان
جسماً ولم يكن واحداً ، لأن كل جسم قابل للانقسام ، والواحد حقاً لا يقبل الانقسام ،
فقد ثبت أنه ما وحده من كيفه .

وثانها قوله : « ولا حقيقته أصاب من مثله » وهذا حق ، لأنه تعالى لا مثل له ،
وقد دلت الأدلة الكلامية والحكمية على ذلك ، فمن أثبت له مثلاً ، فإنه لم يصب

حقيقته تعالى ، والسَّجعة الأخرى تعطى هذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه ، وهي قوله عليه السلام : « ولا إِيَّاهُ عَنِّي مَنْ شَبَّهَهُ » ولهذا قال شيوخنا : إنَّ المشبَّه لا يعرف الله ، ولا تتوجَّه عبادتُه وصلواتُه إلى الله تعالى ؛ لأنَّه يعبد شيئاً يعتقدُه جسماً ، أو يعتقدُه مشابهاً لبعض هذه الذوات المحدثَّة ، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد ، فإذا قُصد بها غيرُ الله تعالى لم يكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه ، وإِنَّمَا يتخيَّل ويتوهم أنه قد عرفه وعبدَه ، وليس الأمر كما تخيَّل وتوهم .

وثالثها قوله عليه السلام : « ولا صَمَدَهُ مَنْ أَشارَ إِلَيْهِ » أى أثبتَه في جهة ، كما تقول الكَرَامية . الصَّمَد في اللغة العربيَّة : السَّيِّد . والصَّمَد أيضاً الذي لا جوف له ، وصار التصميد في الاصطلاح العرفي عبارة عن التنزيه ، والذي قال عليه السلام حقّ ، لأنَّ مَنْ أَشارَ إِلَيْهِ - أى أثبتَه في جهة كما تقول الكَرَامية - فإنه ما صَمَدَه ، لأنَّه ما نزَّهه عن الجهات ، بل حكم عليه بما هو من خواصِّ الأجسام ، وكذلك مَنْ توهمه سبحانه ، أى مَنْ تخيَّل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً ، فإنه لم ينزَّهه عمَّا يجب تنزيهه عنه .

ورابعها قوله : « كلٌّ معروف بنفسه مصنوع » ، هذا الكلام يجب أن يتأوَّل ، ويحمل على أن كلَّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع ، وذلك لأنَّ الباري سبحانه معروف من طريقين : إحداهما من أفعاله ، والأخرى بنفسه ؛ وهي طريقة الحكماء الذين بحثوا في الوجود من حيث هو وجود ، فعملوا أنه لا بدَّ من موجودٍ واجب الوجود ، فلم يستدلُّوا عليه بأفعاله ، بل أخرج لهم البحث في الوجود أنه لا بدَّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هي هي .

فإن قلت : كيف يحمل كلامه على أن كلَّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان ؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية ،

وهي قوله عليه السلام : « وكلّ قائم فيما سواه معلول » لأنها للأعراض خاصّة ، فيدخل أحد مدلول الفقرتين في الأخرى ، فيختلّ النظم !

قلت : يريد عليه السلام بالفقرة الأولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلاً بذاته ، غير مفتقر في تقوّمه إلى غيره فهو مصنوع ، وهذا يختصّ بالأجسام خاصّة ، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه ، لأنها متقوّمة بمحالتها .

وخامسها قوله : « وكلّ قائم في سواه معلول » ، أي وكلّ شيء يتقوّم بغيره فهو معلول ، وهذا حقٌّ لا محالة ، كالأعراض لأنها لو كانت واجبة لا استغنت في تقومها عن سواها ، لكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذي يتقوّم به ذاتها ؛ فإذا هي معلولة ، لأنّ كلّ مفتقر إلى الغير فهو ممكن ، وكلّ ممكن فلا بدّ له من مؤثّر .

وسادسها قوله : « فاعل لا باضطراب آلة » هذا البيان الفرق بينه وبيننا ، فإننا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة .

وسابعها قوله : « مقدّر لا بجوّل فكرة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأننا إذا قدرنا أجّلنا أفكارنا ، وتردّدت بنا الدواعي ، وهو سبحانه يقدر الأشياء على خلاف ذلك .

وثامنها قوله : « غني لا باستفادة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأن الغنيّ منّا من يستفيد الغنيّ بسبب خارجي ، وهو سبحانه غنيّ بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنياً ، والمراد بكونه غنياً أنّ كلّ شيء من الأشياء يحتاج إليه ، وأنّه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الأشياء أصلاً .

وتاسعها قوله : « لا تصحبه الأوقات » ، هذا بحث شريف جداً ، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة ، فذاته فوق الزمان والدهر ؛ أمّا المتكلمون فإنهم يقولون :

إنه تعالى كان ولا زمان ولا وقت ، وأما الحكماء فيقولون : إن الزمان عرض قائم بعرض آخر ، وذلك العرض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه ، فالزمان عندهم - وإن كان لم يزل - إلا أن العلة الأولى ليست واقعة تحته ، وذلك هو المراد بقوله : « لا تصحبه الأوقات » إن قسرناه على قولهم ، وتفسيره على قول المتكلمين أولى .

وعاشرها قوله : « ولا تُرْفِدُهُ الأدوات » ، رفدت فلانا إذا أعنته ؛ والمراد الفرق بيننا وبينه لأننا مرفودون بالأدوات ، ولولاها لم يصح منا الفعل ، وهو سبحانه بخلاف ذلك .

وحادي عشرها قوله : « سبق الأوقات كونه ... » إلى آخر الفصل ، هذا تصريح بحدوث العالم .

فإن قلت : مامعنى قوله : « والعدم وجوده » ، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم في الأزل لا أول له ؟

قلت : ليس يعنى بالعدم هاهنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه ، أى غلب وجود ذاته عدمها وسبقها ، فوجب له وجود يستحيل تطرق العدم إليه أزلا وأبدا بخلاف الممكنات ، فإن عدمها سابق بالذات على وجودها ، وهذا دقيق !

الأضل :

بِتَشْمِيرِهِ لِلشَّاعِرِ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ .

ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ ؛ وَالْوُضُوحِ بِالْبُهْمَةِ ، وَالْجُمُودِ بِالْبَلَلِ ، وَالْحَرُورِ بِالصَّرْدِ .

مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ، مُفَرَّقٌ
بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .

لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ ، وَلَا يُحَسَّبُ بِعَدِّ ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدْوَاتُ أَنْفُسَهَا ؛ وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ
إِلَى نَظَائِرِهَا .

الْبِنْدُ :

المشاعر الحواس ، قال بلعاء بن قيس :

وَالرَّأْسُ مُرْتَفِعٌ فِيهِ مَشَاعِرُهُ يَهْدِي السَّبِيلَ لَهُ سَمْعٌ وَعَيْنَانٌ^(١)

قال : يجعله تعالى المشاعر عُرِفَ أن لا مشعر له ؛ وذلك لأن الجسم لا يصح منه فعل
الأجسام ، وهذا هو الدليل الذي يعوّل عليه المتكلمون في أنه تعالى ليس بجسم .
ثم قال : « وبمضاداته بين الأمور عرف أن لا ضد له » ، وذلك لأنه تعالى لما دلنا
بالعقل على أن الأمور المتضادة إنما تتضاد على موضوع تقوم به وتحمله كان قد دلنا على أنه
تعالى لا ضد له ، لأنه يستحيل أن يكون قائما بموضوع يحمله كما تقوم
المتضادات بموضوعاتها .

ثم قال : « وبمقارنته بين الأشياء عُرِفَ أن لا قرين له » ، وذلك لأنه تعالى قرن
بين العَرَضِ والجَوْهَرِ ، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر ، وقرن بين كثير من
الأعراض ، نحو ما يقوله أصحابنا في حياتي القلب والكبد ، ونحو الإضافات التي يذكرها
الحكماء كالبنوة والأبوة والفوقية والتحتية ، ونحو كثير من العلل والمملولات ، والأسباب
والمسببات ، فيما ركبه في العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين

(١) صحاح الجوهري ٦٩٩

عن الآخر ، علمنا أنه لا قرين له سبحانه ، لأنه لو قارن شيئاً على حسب هذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه ، فكان محتاجاً في تحقق ذاته تعالى إليه ، وكل محتاج ممكن ، فواجب الوجود ممكن ! هذا محال .

ثم شرع في تفصيل المتضادات ، فقال : « ضادّ النور بالظلمة » ، وهما عرّضان عند كثير من الناس ، وفيهم من يجعل الظلمة عدمية .

قال : « والوضوح بالبهمة » يعني البياض والسواد .

قال : « والجود بالبلل » ، يعني البيوسة والرطوبة .

قال : « والحرور بالصرد » يعني الحرارة والبرودة ، والحرور هاهنا مفتوح الحاء ، يقال : إني لأجد لهذا الطعام حرورا وحرورة في فمي ، أي حرارة ، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف ، أي وحرارة الحرور بالصرد ؛ والحرور هاهنا يكون الريح الحارة ، وهي بالليل كالسّموم بالنهار ، والصرد : البرد .

ثم قال : وإِنَّه تعالى مؤلّف بين هذه المتباعدات ، المتعاديّات المتباينات ، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إياها في مكان واحد ، كيف وذلك مستحيل في نفسه ، بل هو سبحانه مؤلّف لها في الأجسام المركبة حتى خلع منها صورة مفردة ، هي المزاج ، ألا ترى أنه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس ، فزجه مزجاً مخصوصاً حتى انتزع منه طبيعة مفردة ، ليست حارة مطلقاً ، ولا باردة مطلقاً ، ولا رطبة مطلقاً ، ولا يابسة مطلقاً ، وهي المزاج ، وهو محدود عند الحكماء ؛ بأنه كيفية حاصلة من كميّات متضادّة ، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه .

والعجب من فصاحته في ضمن حكّمته ، كيف أعطى كلّ لفظة من هذه اللفظّات ما يناسبها ويليق بها ، فأعطى المتباعدات لفظة « مقرّب » ؛ لأنّ البعد بإزاء القرب ،

وأعطى المتباينات لفظة « مقارن » ، لأنّ البيئونة يإزاء المقارنة ، وأعطى المتعديات لفظة « مؤلف » لأنّ الائتلاف يإزاء التعادى .

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، فجعل الفساد يإزاء الكون ، وهذا من دقيق حكمته عليه السلام ، وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد ، فلما أوضح ما أوضح فى الكون والتركيب والإيجاد ، أعقبه بذكر الفساد والعدم ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، وذلك لأنّ كلّ جسم مركّب من العناصر المختلفة الكيفيات المتضادة الطبايع ، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق .

ثم قال : « لا يشتمل بحدّ » ، وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركّباً من جنس وفصل ، والبارى تعالى منزّه عن ذلك ، لأنه لو شمله الحدّ على هذا الوجه يكون مركّباً ، فلم يكن واجب الوجود ، وقد ثبت أنه واجب الوجود ، ويمحوز أن يعنى به أنه ليس بذى نهاية ، فتحويه الأقطار وتحده .

ثم قال : « ولا يحسب بعدّ » ، يحتمل أن يريد : لا تحسب أزليته بعد ، أى لا يقال له : منذ ووجد كذا وكذا ، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد ، ويحتمل أن يريد به أنه ليس بمائلا للأشياء فيدخل تحت العدد ، كما تعدّ الجواهر ، وكما تعدّ الأمور المحسوسة .

ثم قال : « وإنما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها » ، هذا يؤكّد معنى التفسير الثانى ، وذلك لأنّ الأدوات كالجوارح ، إنما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير ، وكذلك إنما تشير الآلات وهى الحواس إلى ما كان نظيرها فى الجسمية ولوأزمها ، والبارى تعالى ليس بذى مقدار ولا جسم ، ولا حال فى جسم ، فاستحال أن تحدّه الأدوات ، وتشير إليه الآلات .

الأصل :

مَنْعَتَهَا مِنْذُ الْقِدْمَةِ ، وَحَمَّتَهَا قَدْ الْأَزَلِيَّةَ ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا
لِلْعُقُولِ ، وَبِهَا أَمْتَنَعَ عَنِ نَظَرِ الْعُمُيُونَ ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْخَرَكَةُ وَالشُّكُونُ ،
وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَحْدُثُ فِيهِ
مَا هُوَ أَحْدَثُهُ !

إِذَا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَلَا مَتَّعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ ؛ وَلَكَانَ لَهُ
وَرَاءَهُ إِذْ وَجِدَلَهُ أَمَامَهُ ، وَلَا لَتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ التَّقْصَانُ ؛ وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ
فِيهِ ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْأَمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ
يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ .

الشيخ :

قد اختلف الرواة في هذا الموضع من وجهين :

أحدهما قول مَنْ نَسَبَ « الْقِدْمَةَ » وَ « الْأَزَلِيَّةَ » وَ « التَّكْمِلَةَ » ، فَيَكُونُ نَسَبُهَا
عِنْدَهُ عَلَى أَنَّهَا مَفْعُولٌ ثَانٍ ، وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ الضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ بِالْأَفْعَالِ ، وَتَكُونُ « مَنْذُ »
وَ « قَدْ » وَ « لَوْلَا » فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِأَنَّهَا فَاعِلَةٌ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : إِنَّ إِطْلَاقَ لَفْظَةِ « مَنْذُ »
عَلَى الْآلَاتِ وَالْأَدْوَاتِ يَمْنَعُهَا عَنِ كَوْنِهَا قَدِيمَةً ، لِأَنَّ لَفْظَةَ « مَنْذُ » وَضَعْتَ لِابْتِدَاءِ الزَّمَانِ
كَلْفِظَةِ « مِنْ » لِابْتِدَاءِ الْمَكَانِ ، وَالْقَدِيمُ لَا ابْتِدَاءَ لَهُ ، وَكَذَلِكَ إِطْلَاقَ لَفْظَةِ « قَدْ » عَلَى
الْآلَاتِ ، وَالْأَدْوَاتِ تَحْمِيهَا وَتَمْنَعُهَا مِنْ كَوْنِهَا أَزَلِيَّةً ، لِأَنَّ « قَدْ » لِتَقْرِيبِ الْمَاضِي مِنَ
الْحَالِ ، تَقُولُ : قَدْ قَامَ زَيْدٌ ، فَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ قِيَامَهُ قَرِيبٌ مِنَ الْحَالِ الَّتِي أَخْبَرْتَ فِيهَا

بقيامه ، والأزلى لا يصحّ ذلك فيه ، وكذلك إطلاق لفظة « لولا » على الأدوات والآلات يجنبها التكملة ، ويمنعها من التمام المطلق ، لأنّ لفظة « لولا » وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره ، كقولك : لولا زيد لقام عمرو ، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد ، وأنت تقول في الأدوات والآلات وكلّ جسم : ما أحسنه لولا أنه فان ! وما أتمه لولا كذا ! فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدّثة ناقصة ، والمراد بالآلات والأدوات أربابها .

الوجه الثانى : قول من رفع « القدمة » و « الأزلية » و « التكملة » فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلا ، وتكون الضمائر المتصلة بالأفعال مفعولا أوّلا ، و « منذ » و « قد » و « لولا » مفعولا ثانيا ، ويكون المعنى أنّ قِدَمَ البارى وأزليته وكاله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة « منذ » و « قد » و « لولا » عليه سبحانه ، لأنه تعالى قديم كامل ، ولفظنا « منذ » و « قد » لا يطلقان إلّا على محدث ، لأنّ إحداهما لا ابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضى من الحال ، ولفظة « لولا » لا تطلق إلّا على ناقص ، فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قِدَمَ البارى تعالى وكاله ، وأنّه لا يصحّ أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنقص .

قوله عليه السلام : « بها تجلّى صانعها للعقول ، وبها امتنع عن نظر العيون » ، أى بهذه الآلات والأدوات التى هى حواسنا ومشاعرنا ، وبخلقه إياها ، وتصويره لها ، تجلّى للعقول وعُرف ، لأنه لو لم يمتدّها إلّا يعرف ، وبها امتنع عن نظر العيون ، أى بها استنبطنا استحالة كونه مرئيّا بالعيون ، لأننا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا ، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنه لا تصحّ رؤيته ، فإذا نحن بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلا ، وبذلك

أيضا عرفنا أنه يستحيل أن يعرف بغير العقل ، وأن قول من قال : إنا سنعرفه رؤية
ومشافية بالحاسة باطل .

قوله عليه السلام : « لا تجرى عليه الحركة والسكون » ، هذا دليل أخذ المتكلمون
عنه عليه السلام فنظموه في كتبهم وقرروه ، وهو أن الحركة والسكون معانٍ محدثة ،
فلو حلت فيه لم يخل منها ، وما لم يخل من الحدث فهو محدث .

فإن قلت : إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج ، وإنما قال كيف يجرى عليه
ما هو أجراه ، وهذا نمط آخر غير ما يقرره المتكلمون !

قلت : بل هو هو بعينه ، لأنه إذا ثبت أنه هو الذي أجرى الحركة والسكون ، أى
أحدهما لم يخبر أن يجرى عليه ، لأنهما لو جريا عليه لم يخل إماما أن يجرى عليه على التعاقب ،
وليسا ولا واحد منهما بقديم ، أو يجرى عليه على أن أحدهما قديم ثم تلاه الآخر ، والأول
باطل بما يبطل به حوادث لا أول لها ، والثاني باطل بكلامه عليه السلام ، وذلك لأنه
لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه ، لكن قد قلنا : إنه أجراه ، أى أحدثه ،
وهذا خلف محال . وأيضاً فإذا كان أحدهما قديماً معه لم يحز أن يتلوه الآخر ، لأن القديم
لا يزول بالحدث .

ثم قال عليه السلام : « إذا لتفاوتت ذاته ، ولتجزأ كنهه ، ولا تمتنع من الأزل
معناه » ، هذا تأكيد لبيان استحالة جريان الحركة والسكون عليه ، تقول : لو صح
عليه ذلك لكان محدثاً ، وهو معنى قوله : « لا تمتنع من الأزل معناه » ، وأيضاً
كان ينبغي أن تكون ذاته منقسمة ، لأن المتحرك الساكن لا بد أن يكون
متحيزاً ، وكل متحيز جسم ، وكل جسم منقسم أبداً ، وفي هذا إشارة إلى
نفي الجوهر الفرد .

ثم قال عليه السلام : « ولكان له وراء إذا وُجِد له أمام » هذا يؤكد ما قبلناه إنه إشارة إلى نفي الجوهر الفرد ، يقول : لو حلتته الحركة لكان جرماً ما وحجماً ؛ ولكان أحدٌ وجهيه غير الوجه الآخر لا محالة ، فكان منقسماً ، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفي الجوهر الفرد ، لأن من أثبتته يقول : يصح أن تحلّه الحركة ، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر ، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام .

ثم قال عليه السلام : « ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان » ، هذا إشارة إلى ما يقوله الحكماء ، من أن الكون عدم ونقص ، والحركة وجود وكال ، فلو كان سبحانه يتحرك وبسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كاله ، فكان ملتصقاً كاله بالحركة الطارئة على السكون ، وواجب الوجود ، يستحيل أن يكون له حالة نقصان ، وأن يكون له حالة بالقوة وأخرى بالفعل .

قوله عليه السلام : « إذا قامت آية المصنوع فيه » ، وذلك لأن آية المصنوع كونه متغيراً منتقلاً من حال إلى حال ، لأننا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، فلو كان تعالى متغيراً متحركاً منتقلاً من حال إلى حال لتحقق فيه دليل الحدوث ، فكان مصنوعاً ، وقد ثبت أنه الصانع المطلق سبحانه .

قوله عليه السلام : « ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه » ، يقول : إنا وجدنا دليلاً على البارئ سبحانه ، إنما هو الأجسام المتحركة ، فلو كان البارئ متحركاً لكان دليلاً على غيره ، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه ، لكنه سبحانه لا صانع له ولا ذات فوق ذاته ، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه .

قوله عليه السلام : « وخرج بسُلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره » ، في هذا الكلام يتوهم سامعه أنه عطف على قوله : « لتفاوتت » و « لتجزأ » و « لامتنع »

و « لكان له » « ولا تمس » و « لقامت » و « لتحول » وليس كذلك ، لأنه لو كان معطوفا عليها لاختل الكلام وفسد ، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى ، والمراد لو تحرك لزم هذه المحالات كلها .

وقوله : « وخرج بسطان الامتناع » ليس من المستحيلات عليه ، بل هو واجب له ، ومن الأمور الصادقة عليه ، فإذا فسد أن يكون معطوفا عليها وجب أن يكون معطوفا على ما كان مدلولا عليه ، وتقدير الكلام : كان يلزم أن يتحول الباري دليلا على غيره ، بعد أن كان مدلولا عليه ، و بعد أن خرج بسطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره ، وخروجه بسطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز ، فهذا هو سلطان الامتناع الذي به خرج عن أن يؤثر فيه ما أثر في غيره من الأجسام والمكفات .

الأصل :

الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُقُول . لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْئودًا ،
وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا . جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ ، لَا تَنَالُهُ
الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرُهُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْخَوَاسُ فَتُحِجَّهُ ،
وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ ، وَلَا
تَبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ .

الشرح :

هذا الفصل كله واضح مستغن عن الشرح ، إلا قوله عليه السلام : « لم يلد

فيكون « مولودا » ، لأن لقائل أن يقول : كيف يلزم من فرض كونه والدا أن يكون مولودا ؟ فنقول في جوابه : إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر ، وكيف وآدم والد وليس بمولود ! وإنما المراد أنه يلزم من فرض صحة كونه والدا صحة كونه مولودا ، والتالى محال ، والمقدم محال ، وإنما قلنا : إنه يلزم من فرض صحة كونه والدا صحة كونه مولودا ، لأنه لو صح أن يكون والدا على التفسير المفهوم من الوالدية ، وهو أن يتصور من بعض أجزائه حتى آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نقله في النطقة المنفصلة المستحيلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى ؛ حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأول لصحّ عليه أن يكون هو مولودا من والد آخر قبله ، وذلك لأن الأجسام متماثلة في الجسميّة ، وقد ثبت ذلك بدليل عقليّ واضح في مواضعه التي هي أمكّ به ، وكلّ مثلين فإن أحدهما يصحّ عليه ما يصحّ على الآخر ، فلو صحّ كونه والدا يصحّ كونه مولودا .

وأما بيان أنه لا يصحّ كونه مولودا ، فلان كلّ مولود متأخر عن والده بالزمان ، وكلّ متأخر عن غيره بالزمان محدّث ، فالمولود محدّث والبارى تعالى قد ثبت أنه قديم ، وأنّ الحدوث عليه محال ، فاستحال أن يكون مولودا ، وتمّ الدليل .

الأضدّ :

وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَلَا بِالْفَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ ، وَلَا يُقَالُ : لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَآيَةٌ ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ ؛ فَتَقَلُّهُ أَوْ تُهْوِيهِ ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ فَيَمِيلُهُ

أَوْ يُعَدَّلُهُ . لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِحٍ ، وَلَا عَنْهَا بِمَخَارِجٍ .
يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلِهَوَاتٍ ، وَيَسْمَعُ لَا بِمَخْرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ ، يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ ، وَيَحْفَظُ
وَلَا يَتَحَفَّظُ ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ .
يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَسَقَّةٍ ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ
كُونَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .
لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ
وَمَثَلَهُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا ، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا .

الْبُرْجُ :

في هذا الفصل مباحث :

أولها : أن الباري سُبْحَانَهُ لا يوصف بشيء من الأجزاء ، أي ليس بمركب ؛ لأنه لو كان مركباً لافتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه ليست نفس هويته ، وكل ذاتٍ تفتقر هويتها إلى أمر من الأمور فهي ممكنة ؛ لكنّه واجب الوجود ، فاستحال أن يوصف بشيء من الأجزاء .

وثانيها : أنه لا يوصف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة ، وذلك لأنه لو كان كذلك لكان جسماً ، وكل جسم ممكن ، وواجب الوجود غير ممكن .

وثالثها : أنه لا يوصف بمرض من الأعراض كما يقوله الكرامية ؛ لأنه لو حله العَرَضُ لكان ذلك العَرَضُ ليس بأن يُحَلَّ فيه أولى من أن يحل هو في العَرَضُ ، لأن معنى

الحلول حصول العَرَض في حيزِ الحَلِّ تبعاً لحصول الحَلِّ فيه ، فما ليس بمتحيز لا يتحقق فيه معنى الحَلُول ، وليس بأن يجعل محلاً أوّلى من أن يجعل حالاً !

ورابعها : أنه لا يوصف بالغيرية والأبعاد ، أى ليس له بعض ، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر ، وهذا يرجع إلى البحث الأول .

وخامسها : أنه لا أحد له ولا نهاية ، أى ليس ذا مقدار ، ولذلك المقدار طرف ونهاية ، لأنه لو كان ذا مقدار لكان جسماً ، لأن المقدار من لوازم الجسمية ، وقد ثبت أنه تعالى ليس بجسم .

وسادسها : أنه لا انقطاع لوجوده ، ولا غاية ، لأنه لو جاز عليه العدم في المستقبل لكان وجوده الآن متوقفاً على عدم سبب عدمه ، وكل متوقف على الغير فهو ممكن في ذاته ، والبارى تعالى واجب الوجود ، فاستحال عليه العدم ؛ وأن يكون لوجوده انقطاع ، أو ينتهى إلى غاية يعدم عندها .

وسابعها : أن الأشياء لا تحويه فتقله ؛ أى ترفعه ، أو تهويه ؛ أى تجعله هاوياً إلى جهة تحت ، لأنه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشيء الحاوى له ، لكن قد بينا أنه يستحيل عليه المقادير ، فاستحال كونه محوياً .

وثامنها : أنه ليس يحمله شيء فيميله إلى جانب ، أو يعدّه له بالنسبة إلى جميع الجوانب ، لأن كل محمول مقدّر ، وكل مقدّر جسم ، وقد ثبت أنه ليس بجسم .

وتاسعها : أنه ليس في الأشياء بواجب ، أى داخل . ولا عنها بخارج ، هذا مذهب الموحدين ؛ والخلاف فيه مع الكرامية والمجسمة ، وينبغي أن يفهم قوله عليه السلام : « ولا عنها بخارج » أنه لا يريد سلب الوجود ، فيكون قد خلا من النقيضين ، لأن ذلك محال ، بل المراد بكونه ليس خارجاً عنها أنه ليس كما يعتقد كثير من الناس ؛ أن الفلك الأعلى المحيط لا يحتوى

عليه ؛ ولكنته ذاتٌ موجودة متميِّزة بنفسها ، قائمة بذاتها ، خارجة عن الفلّك في الجهة العليا ، بينها وبين الفلّك بعدٌ ، إمّا غير متناهٍ - على ما يحكى عن ابن الهيثم - أو متناهٍ على ما يذهب إليه أصحابه ؛ وذلك أنّ هذه القضية ، وهى قولنا : البارى خارج عن الموجودات كلّها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضية الأولى ، وهى قولنا : البارى داخل العالم ، ليكون القول بخلوّه عنهما قولاً بخلوّه عن النقيضين ، ألا ترى أنّه يجوز أن تكون القضيتان كاذبتين معاً ، بآلا يكون الفلّك المحيط محتويًا عليه ، ولا يكون حاصلًا في جهة خارج الفلّك ، ولو كانت القضيتان متناقضتين لما استقام ذلك ، وهذا كما تقول : زيد في الدار زيد في المسجد ، فإنّ هاتين القضيتين ليستا متناقضتين ، لجواز آلا يكون زيد في الدار ، ولا في المسجد ، فإنّ هاتين ولو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضين ، لكن المتناقض : « زيد في الدار ، زيد ليس في الدار » ، والذي يستشعنه العوام من قولنا : « البارى لا داخل العالم ولا خارج العالم » غلط مبنى على اعتقادهم وتصوّرهم أنّ القضيتين تتناقضان ، وإذا فهم ما ذكرناه بانّ أنّه ليس هذا القول بشنيع ؛ بل هو سهل وحقّ أيضا ، فإنّه تعالى لا متحيّز ولا حالّ في المتحيّز ، وما كان كذلك استحال أن يحصل في جهة ؛ لا داخل العالم ولا خارج العالم ، وقد ثبت كونه غير متحيّز ولا حالّ في المتحيّز ، من حيث كان واجب الوجود ، فإذن القول بأنّه ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج صواب وحقّ .

وعاشرها : أنّه تعالى يخبر بلا لسان ولهوات ؛ وذلك لأنّ كونه تعالى مخبرا هو كونه فاعلا للخبر ، كما أنّ كونه ضاربا هو كونه فاعلا للضرب ، فكما لا يحتاج في كونه ضاربا إلى أداة وجارحة يضرب بها كذلك لا يحتاج في كونه مخبرا إلى لسان ولهوات يخبر بها .

وحادى عشرها : أنّه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات ، وذلك لأنّ البارى سبحانه حيّ لا آفة به ؛ وكلّ حيّ لا آفة به ؛ فواجب أن يسمع للسموعات ، ويبصر للمبصرات ، ولا

حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات ، كما نحتاج نحن إلى ذلك ، لأننا أحياء بحياة تحملنا ، والبارى تعالى حتى لذاته ، فلما افترقنا فيما به كان سامعا ومبصرا ، افترقنا في الحاجة إلى الأدوات والجوارح .

وثاني عشرها : أنه يقول ولا يتلفظ ، هذا بحث لفظي ، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلا ، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة ، نحو قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ^(١)﴾ ، ﴿وقال الله إني معكم ^(٢)﴾ ، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفظا عليه ، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جارحة ، فوجب الاقتصار على ما ورد ، وترك ما لم يرد .

وثالث عشرها : أنه تعالى يحفظ ولا يتحفظ ؛ أما كونه يحفظ فيطلق على وجهين : أحدها أنه يحفظ بمعنى أنه يحصى أعمال عباده ويعلمها ، والثاني كونه يحفظهم ويحرسهم من الآفات والدوامي . وأما كونه لا يتحفظ فيحتمل معنيين . أحدها أنه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفظ الكلام ، أي يتكلف كونه حافظا له ، ومحيطا وعالما به ، كالواحد منا . يتحفظ الدرس ليحفظه ، فهو سبحانه حافظ غير متحفظ . والثاني أنه ليس بمتحفظ ولا مشفق على نفسه خوفا أن تبدر إليه بادرة من غيره .

ورابع عشرها : أنه لا يريد ولا يضم ، أما كونه مريداً فقد ثبت بالسمع نحو قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ^(٣)﴾ ، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة ، وكيفيات مخصوصة ، جاز أن تقع على خلافها ، فلا بد من مخصص لها بما اختصت به ؛ وذلك كونه مريدا ، وأما كونه لا يضم فهو إطلاق لفظي لم يأذن فيه الشرع ، وفيه إيهام كونه ذا قلب ، لأن الضمير في العرف اللغوي ما استكن في القلب ، والبارى ليس بجسم .

(٢) سورة المائدة ١٢

(١) سورة المائدة ١١٠

(٣) سورة البقرة ١٨٥

وخامس عشرها : أنه يحب ويرضى من غير رقة ، ويبغض ويبغض من غير مشقة ، وذلك لأن محبته للعبد إرادته أن يثيبه ، ورضاه عنه أن يحمّد فعله ، وهذا يصحّ ويطلق على البارى ، لا كما إطلاقه علينا ، لأن هذه الأوصاف يقتضى إطلاقها علينا رقة القلب ، والبارى ليس بجسم ، وأما بغضه للعبد إرادة عقابه وغضبه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به ، وفي الأغلب إنما يطلق ذلك علينا ويصحّ مناع مشقة تناولنا من إزعاج القلب وغليان دمه ، والبارى ليس بجسم .

وسادس عشرها : أنه يقول لما أراد كونه : كن ؛ فيكون من غير صوت يقرع ، ولا نداء يسمع ، هذا مذهب شيخنا أبى الهذيل ، وإليه يذهب الكرامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم ، والظاهر أن أمير المؤمنين عليه السلام أطلقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن في مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به ، وتكرّر على أسماعهم وأذهانهم ، فأما باطن الآية وتأويلها الحقيقيّ فغير ما يسبق إلى أذهان العوامّ ، فليطلب من موضعه .

وسابع عشرها : أن كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كأننا ، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً ، هذا هو دليل المعتزلة على نفي المعانى القديمة التى منها القرآن ، وذلك لأنّ القِدَمَ عندهم أخصّ صفات البارى تعالى ، أو موجب عن الأخصّ ، فلو أنّ في الوجود معنى قديماً قائماً بذات البارى ؛ لكان المعنى مشاركاً للبارى في أخصّ صفاته ، وكان يجب لذلك المعنى جميع ماوجب للبارى من الصفات، نحو العالمية والقادرية وغيرها ، فكان إلهاً ثانياً .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « ومثله » ؟

قلت : يقال : مثلت له كذا تمثيلاً ، إذا صورت له مثاله بالكتابة أو بغيرها ، فالبارى مثل القرآن لجبريل عليه السلام بالكتابة فى اللوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه

وآله . وأيضاً يقال : مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً ، ومثله بين يدي زيد أي أحضرته .
منتصباً ، فلما كان الله تعالى فعل القرآن واضحاً بيننا كان قد مثله للمكلفين .

الأصل :

لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحَدَّثَاتُ وَلَا يَكُونُ
بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكَاوَأُ
الْمُبْتَدِعُ وَالْبَدِيعُ .

خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَامِنِ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ،
وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ
قَوَائِمٍ ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْأَعْوِجَاجِ ، وَمَنَعَهَا مِنَ
الْتِهَافِ وَالْانْفِرَاجِ .

أَرْسَى أَوْ تَادَاهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا ، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا ؛ فَلَمْ
يَهِنْ مَا بَنَاهُ ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ .

الشرح :

عاد عليه السلام إلى تنزيه الباري تعالى عن الحدوث ، فقال : لا يجوز أن يوصف به
فتجري عليه الصفات المحدثات كما تجرى على كل محدث ، وروى : « فتجري عليه صفات
المحدثات » وهو أليق ، ليعود إلى المحدثات ذوات الصفات ما بعده ؛ وهو قوله عليه السلام :
« ولا يكون بينه وبينها فصل » ، لأنه لا يحسن أن يعود الضمير في قوله : « وبينها » إلى
« الصفات » بل إلى « ذوات الصفات » .

قال : لو كان محدثاً لجرت عليه صفات الأجسام المحدثّة ، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدثّة فرق ، فكان يستوى الصانع والمصنوع ، وهذا محال .

ثم ذكر أنه خلق الخلق غير محتدٍ لمثال ، ولا مستفيد من غيره كيفية الصنعة ، بخلاف الواحد منّا ، فإنّ الواحد منّا لا بدّ أن يحتدّي في الصنعة ، كالبناء والتجار والصانع وغيرها .

قال عليه السلام : « ولم يستعنّ على خلقها بأحدٍ من خلقه » ، لأنه تعالى قادر لذاته لا يُعجزه شيء .

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض ، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمسكها ، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته ؛ ليس كالواحد منّا يمسك الثقيل فيشتغل بإمسكه عن كثير من أموره .

قال : « وأرساها » ، جعلها راسية على غير قرار تتمكّن عليه ، بل واقفة بإرادته التي اقتضت وقوفها ، أو لأنّ الفلك يجذبها من جميع جهاتها - كما قيل - أو لأنّه يدفعها من جميع جهاتها ، أو لأنّ أحد نصفها صاعد بالطبع ، والآخر هابط بالطبع ، فاقضى التعادل وقوفها ، أو لأنّها طالبة للمركز فوقفت .

والأود : الأعوجاج ، وكرّر لاختلاف اللفظ .

والتهافت : التساقط . والأسداد : جمع سدّ ، وهو الجبّل ، ويجوز ضم السين .

واستفاض عيونها ، بمعنى أفاض ، أى جعلها فائضة .

وخذّ أوديتها ، أى شقها . فلم يهن ما بناه ، أى لم يضعف .

الأصل :

هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا سُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بَعْلِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَالْعَالِي
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ
قَيْغَلِبُهُ ، وَلَا يَفْوَتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقُهُ .

خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ
إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضُرِّهِ ، وَلَا كُفَّ لَهُ فَيُكَافِئُهُ ، وَلَا نَظِيرَ
لَهُ فَيُسَاوِيَهُ .

هُوَ الْمُنْفَى لَهَا بَعْدَ وَجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودَهَا كَمَقْفُودِهَا ، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا
بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَأَخْتِرَاعِهَا . وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا - مِنْ
طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ أَسْنَاحِهَا وَأَجْنَاسِهَا ،
وَمُتَبَدِّلَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا - عَلَى إِحْدَاثِ بَعْوَضَةٍ ، مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَانِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ
كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا ، وَلَتَحَيَّرَتْ عَقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَنَاهَتْ ، وَعَجَزَتْ
قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً ، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُعِيرَةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ
إِنْشَائِهَا ، مُذْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا !

البِنْحُ :

الظاهر : الغالب القاهر ، والباطن : العالم الخبير .

والمُراح بضم الميم : النعم ترد إلى المراح ، بالضم أيضا ؛ وهو الموضع الذي تأوى إليه النعم ،
وليس المراح ضد السائم على ما يظنه بعضهم ، ويقول : إن عطف أحدهما على الآخر عطف

على المختلف والمتضاد ، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المملوقة ، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب في الخطابة ، ومثله في القرآن كثير ، نحو قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١) .

وأسناخها : جمع سِنْخ بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : « لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة » ، هو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ (٢) .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا تستطيع الهرب من سلطانة إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره »؟ وهلا قال : « من ضره »؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكره هاهنا !

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين عن غيره : ما يقدر اليوم فلان لي على نفع ولا ضرر ، وليس غرضه إلا ذكر الضرر ، وإنما يأتي بذكر النفع على سبيل سلب القدرة عن فلان على كل ما يتعلق بذلك المعتصم ، وأيضا فإن العفو عن المجرم نفع له ، فهو عليه السلام يقول : إنه ليس شيء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغنى عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

الأصل :

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحَدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ أَوَّلِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا ؛ بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَسْكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السَّنُونَ وَالسَّاعَاتُ ، فَلَا شَيْءَ

إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؛ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ .
بِالْقُدْرَةِ مِنْهَا كَانَ أِبْتِدَاءُ خَلْقِهَا ، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا ، وَلَوْ قَدَّرَتْ
عَلَى الْأَمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا .

لَمْ يَتَكَأْذُهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَبُودْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ ،
وَلَمْ يَكُونْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنَقْصَانٍ ، وَلَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا
عَلَى نِدَى مُكَائِرٍ ، وَلَا لِلِاخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَاوِرٍ ، وَلَا لِلِالزُّدْيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ،
وَلَا لِمُكَائِرَةِ شَرِيكِ فِي شِرْكِهِ ، وَلَا لِيُوحِشَهُ كَانَتْ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ
إِلَيْهَا . نَمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا ؛ لَا لِلسَّامِ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا
وَتَنْدِيرِهَا ، وَلَا لِرَاحَةِ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ ، لَا يُمِلُّهُ طَوْلُ بَقَائِهَا
فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَانِهَا ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ،
وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ ، نَمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَلَا اسْتِعَانَةَ
بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَةِ إِلَى حَالٍ اسْتِنْسَاسٍ ، وَلَا مِنْ حَالٍ
جَهْلٍ وَعَمَى إِلَى حَالٍ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ ؛ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ ، وَلَا مِنْ
ذُلٍّ وَضَعَةٍ ؛ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ .

الْبَرْخُ :

شرع أولاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض
قبل القيامة ، وذلك لأن الكتاب العزيز قد ورد به ، نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
خَلْقٍ نَعِيدُهُ ﴾^(١) ؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم ، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً .
وقال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾^(٢) ؛ وإتماماً كان أولاً لأنه كان موجوداً ، ولا شيء من

الأشياء بموجود ، فوجب أن يكون آخراً كذلك ، هذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين .

ثم ذكر أنه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان ، ولا حين ولا زمان ، وذلك لأن المكان إما الجسم الذي يتمكن عليه جسم آخر ، أو الجهة ، وكلاهما لا وجود له بتقدير عدم الأفلاك وما في حشوها من الأجسام ، أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأن الجهة لا تتحقق إلا بتقدير وجود الفلك ، لأنها أمرٌ إضافيٌّ بالنسبة إليه ، فتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقق أصلاً ، وهذا هو القول في عدم المكان حينئذ ، وأما الزمان والوقت والحين فكل هذه الألفاظ تعطى معنى واحداً ، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك ، لأن الزمان هو مقدار حركة الفلك ، فإذا قدرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان .

ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكد ، فقال : « عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات » ، لأن الأجل هو الوقت الذي يحل فيه الدين أو تبطل فيه الحياة ، وإذا ثبت أنه لا وقت ، ثبت أنه لا أجل ، وكذلك لاسنة ولا ساعة ، لأنها أوقات مخصوصة .

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا ، فقال : « بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » ؛ يعني أنها مسخرة تحت الأمر الإلهي .

قال : « ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها » ، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه في مراده ، وإتمام تمانعه في مراده لو كانت قادرة لذاتها ، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت .

قوله عليه السلام : « لم يتكأده » بالمداى لم يشق عليه ؛ ويجوز « لم يتكأده » بالنشيد والهمزة ، وأصله من العقبة الكئود ، وهي الشاقة .

قال : « ولم يؤده » أى لم يثقله .

ثم ذكر أنه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانه، ولا لخرّفه من زوال أو نقص يلحقه، ولا ليستعين بها على ندرٍ مماثل له ، أو يحتز بها عن ضدِّ محارب له ، أو ليزداد بها ملكه ملكا ، أو ليكثر بها شريكاً في شركته له ، أو لأنه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمن خلق .

ثم ذكر أنه تعالى : « سيُفنيها بعد إيجادها » لالضجر لحقه في تدبيرها ، ولالراحة تصله في إعدامها ، ولا لثقل شيء منها عليه حال وجودها ، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها .

ثم عاد عليه السلام ، فقال : إنه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء ، لا حاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض ، ولا لأنه استوحش حال عدمها فأحب أن يستأنس بإعادتها ، ولا لأنه فقد علماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم ، ولا لأنه صار فقيراً عند إعدامها فأحب أن يتكثر ويثرى بإعادتها ، ولا لئلاّ أصابه يافئتها فأراد العزّ بإعادتها .

فإن قلت : إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا ، وكان من قبيل أوجدها لا لكذا ولا لكذا ، ثم قلت : إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا ، فلائى حال أوجدها أولاً ، ولائى حال أفناها ثانياً ، ولائى حال أعادها ثالثاً ؟ خبرونا عن ذلك ، فإنكم قد حكيتم عنه عليه السلام الحكم ولم تحكوا عنه العلة !

قلت : إنما أوجدها أولاً للإحسان إلى البشر ليعرفوه ، فإنه لو لم يوجد لهم لبقى مجهولاً لا يعرف ، ثم كلف البشر أيرتهم للمنزلة الجنبيلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهي الثواب ، ثم يفنيهم لأنه لا بدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاقّ التكليف ؛ وإذا كان لا بدّ من انقطاعه فلا فرق بين انقطاعه بالعدم المطلق ،

أو بتفريق الأجزاء ، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع ، وفيه لطف زائد
للمكلفين ، لأنه أردع وأهيب في صدورهم من بقاء أجزائهم ، واستمرار وجودها
غير معدومة .

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدهم ليوصل إلى كل إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب ،
ولا يمكن إيصال هذا المستحق إلا بالإعادة ، وإنما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه
التعليلات ، لأنه قد أشار إليها فيما تقدم من كلامه ، وهي موجودة في فرش خطبه ، ولأن
مقام الموعظة غير مقام التعليل ، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلك مسلك
الموعظة في ضمن تمجيد الباري سبحانه وتعظيمه ، وليس ذلك بمظنة التعليل والحجاج .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : مختص بذكر الملامم :

أَلَا يَا بِي وَأُمِّي هُمُ مِنْ عِدَّةِ ! أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ .
أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ ، وَانْقِطَاعِ وَصَلِكُمْ ،
وَأَسْتِغْثَالِ صِغَارِكُمْ .

ذَلِكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ ! ذَلِكَ
حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْبَرَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى ؛ ذَلِكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ،
بَلْ مِنْ النُّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَّارٍ ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ؛
ذَلِكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ ، كَمَا يَعْضُ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ . مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءُ !
وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءُ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ،
وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَدْمُوا غَيْبَ فِعَالِكُمْ ، وَلَا تَفْتَحُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ
نَارِ الْفِتْنَةِ ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا ، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا ؛ فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي
لَهْمِهَا الْمُؤْمِنُ ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ . إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاجِ فِي
الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَجَلَهَا .

فاسمعوا أيها الناس وعوا ، وأحضروا آذان قلوبكم تفهموا .

الشَّيْخُ :

الإمامية تقول : هذه العدة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام . وغيرهم يقول :
إنه عني بالأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض ، وقد تقدّم منا ذكر القطب والأبدال ،
وأوضحنا ذلك إيضاحاً جلياً .

قوله عليه السلام : « أسماؤهم في السماء معروفة » ، أى تعرفها الملائكة المعصومون ،
أعلمهم الله تعالى بأسمائهم .

وفي الأرض مجهولة ، أى عند الأَكْثَرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر .

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان
الدنيا ، فقال لهم : توقعوا ما يكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وُصْلِكُمْ ، جمع وُصْلَةٍ .

واستعمال صغاركم ، أى يتقدّم الصغار على الكبار ، وهو من علامات الساعة .

قال : ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقل مشقة من احتمال المشقة
في اكتساب درهم حلال ، وذلك لأن المكاسب تكون قد فسدت واختلطت ، وغلب
الحرام والحلال فيها .

قوله : « ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطى » ، معناه أن أكثر من يعطى
ويتصدق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجر له في التصدق به ، ثم أكثرهم يقصد الزيادة
والشُّمعة بالصدقة أو لهوى نفسه ، أو لخطرة من خطراته ، ولا يفعل الحسن لأنه حسن ،
ولا الواجب لوجوبه ، فتكون اليد السفلى خيراً من اليد العليا ، عكس ماورد في الأثر ، وأما
المعطى فإنه يكون فقيراً ذا عيال ، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال ! فإذا
أخذته ليسدّ به خلته ، ويصرفه في قوت عياله ، كان أعظم أجراً ممن أعطاه .

وقد خطر لى فيه معنى آخر ، وهو أن صاحب اللبال الحرام إنما يصرفه في أكثر الأحوال وأغلبها في الفساد وارتكاب المحظور كما قال : « من اكتسب مالا من نهب أو من أذهب الله في نهبه »^(١) . فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوت عليه صرفه في تلك القبائح والمحظورات التي كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير ، فإذا قد أحسن الفقير إليه بكفه عن ارتكاب القبيح ، ومن العصمة ألا يقدر .

قوله عليه السلام : « ذلك حيث تسكرون من غير شراب ، بل من النعمة » ،
بفتح النون ، وهي غضارة العيش ، وقد قيل في المثل : سُكِرَ الهوى أشد من
سُكِرِ الخمر .

قال : « تحلفون من غير اضطرار » أى تهاونون باليمين وبذكر الله عز وجل .
قال : « وتكذبون من غير إحراج » أى يصير الكذب لكم عادة ودُرْبَةً ،
لا تفعلونه لأن آخر منكم قد أخرجكم واضطركم بالغيظ إلى الحلف ، وروى من غير « إحراج »
بالواو أى من غير أن يُحوجكم إليه أحد .

قال : ذلك إذا عَضَّكم البلاء كما يعضّ القتبُ غاربَ البعير . هذا الكلام
غير متصل بما قبله ، وهذه عادة الرضى رحمه الله يلتقط الكلام التقاطا ، ولا يتلو بمضه بعضا ،
وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدم من الأجزاء الأولى ، وقبل هذا الكلام
ذكر ما يناله شيعته من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج .

قوله عليه السلام : « ما أطول هذا العناء ، وأبعد هذا الرجاء ! » هذا حكاية كلام
شيعته وأصحابه .

(١) التهاوش : المظالم : والتهاير : المهالك ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٨٦
(٧ - نهج البلاغة - ١٣)

ثم قال مخاطباً أصحابه الموجودين حوله : أيها الناس ، ألقوا هذه الأزيمة التي تحمّل ظهورها الأثقال عن أيديكم ، هذه كناية عن النهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإنم والعقاب . والظهور هاهنا : هي الإبل أنفسها . والأثقال : المآثم . وإلقاء الأزيمة : ترك اعتماد القبيح ، فهذا عمومه ، وأما خصوصه فتعريض بما كان عليه أصحابه من الغدر ومخامرة العدو عليه ، وإضمار الغل والغش له ، وعصيانه والتلوى عليه ، وقد فسره بما بعده فقال : « ولا تصدّعوا عن سلطانكم » أي لا تفرّقوا « فتدموا غيب فعالكم » ، أي عاقبته . ثم نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من فور نارِ الفتنة ، وفور النار : غليانها واحتدامها ، ويروي : « ما استقبلكم » .

ثم قال : « وأميطوا عن سننها » أي تنحّوا عن طريقها ، وخلّوا قصد السبيل لها ، أي دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها . ثم ذكر أنه قد يهلك المؤمن في هبها ، ويسلم فيه الكافر ؛ كما قيل : المؤمن ملق والكافر موقّ .

ثم ذكر أن مثله فيهم كالشرج يستضيء بها من ولجها ؛ أي دخل في ضوءها . وآذانُ قلوبكم ؛ كلمة مستعارة ، جعل للقلب آذانا كما جعل الشاعر للقلوب أبصارا ، فقال :

يَدِقُّ عَلَى النَوَاطِرِ مَا أَنَاهُ فُتْبِصِرُهُ بِأَبْصَارِ الْقُلُوبِ

الأصل :

ومن فطنة له عليه السلام :

أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم ، ونعمائه
عليكم ، وبلائه لديكم ، فكم خصكم بنعمة ، وتداركم برحمة !
أعوزتم له فستركم ، وتعرضتم لأخذه فأمهلكم !

وأوصيكم بذكر الموت وإفلال الغفلة عنه ، وكيف غفلتكم عما ليس
بفيلكم ، وطعمكم فيمن ليس بيهلكم ؛ فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم ،
محلوا إلى قبورهم غير راكبين ، وأنزلوا فيها غير نازلين ، فكأنهم لم
يكونوا للدنيا عمارة ، وكان الآخرة لم تنزل لهم داراً . أو حشوا ما كانوا يوطنون ،
وأوطنوا ما كانوا يوحشون ، واشتغلوا بما فارقوا ، وأضاعوا ما إليه انتقلوا ، لا عن
قبيح يستطيعون انتقالاً ، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً ، أنسوا بالدينياً ففرتهم ،
وورثوا بها فصرعتهم .

فأيقوا رحمة الله إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها ، والتي رغبتم
فيها ودعيتم إليها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته ، والمجانبة لمعصيته ،
فإن غداً من اليوم قريب .

مأسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ،
وأسرع السنين في العمر !

الشَّيْخُ :

أعورتهم ، أى انكشفتهم وبتت عوراتكم ، وهى المقاتل ، تقول : أعور الفارس إذا
بتت مقاتله ، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه .

قوله عليه السلام : « أَوْحَسُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ ، وَأَوْطِنُوا قُبُورَهُمُ الَّتِي
كَانُوا يُوحَسُونَهَا » .

قوله عليه السلام : « وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا » ، أى اشتغلوا وهم فى القبور بما فارقوه من
الأموال والقينات ، لأنها أذى وعقاب عليهم فى قبورهم ، ولولاها لكانوا فى راحة . ويجوز
أن يكون حكاية حالهم وهم بعد فى الدنيا ، أى اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل
بما فارقوه ، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه .

ثم ذكر أنهم لا يستطيعون فعل حسنة ، ولا توبة من قبيح ، لأن التكليف سقط ،
والمنازل التى أمروا بعمارتها ، المقابر ، وعمارتها الأعمال الصالحة .

وقوله عليه السلام : « إِنْ غَدَا مِنْ الْيَوْمِ قَرِيبٌ » كلام مجرى مجرى المثل ، قال :

* غَدٌ مَاغِدٌ مَا أَقْرَبُ الْيَوْمِ مِنْ غَدٍ *

والأصل فيه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾^(١) .

وقوله عليه السلام : « مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتُ فِي الْيَوْمِ ... » إلى آخر الفصل ، كلام شريف

وجيز بالغ فى معناه ، والفصل كله نادر لا نظيره .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَايَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ ، فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ ، فَمَعِنَدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ .

وَالهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ ، مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرٍّ الْأُمَّةِ وَمُعَلِنِهَا ، لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ ، وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ ، وَوَعَاها قَلْبُهُ .

إِنَّ أَمْرًا نَاصَبًا مُسْتَضْعَبًا لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا يَبْعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ . سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَأُنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ ؛ قَبْلَ أَنْ تَشْفَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةً تَطَأُ فِي خِطَامِهَا ، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا .

الشرح :

هذا الفصل يُحْمَلُ عَلَى عِدَّةٍ مَبَاحِثَ :

أولها قوله عليه السلام : فمن الإيمان ما يكون كذا . فنقول : إنه قسم الإيمان إلى

ثلاثة أقسام :

أحدها : الإيمان الحقيقيّ ، وهو الثابت المستقرّ في القلوب بالبرهان اليقينيّ .

الثاني : ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقينيّ بل بالدليل الجدليّ ، كما يمان كثير ممن لم يحقّق العلوم العقلية ، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدلية لا تبلغ إلى درجة البرهان ، وقد سمى عليه السلام هذا القسم باسم مفرد ، فقال : إنه عوارى في القلوب ، والعوارى : جمع غارية أي هو وإن كان في القلب وفي محل الإيمان الحقيقيّ إلا أن حكمه حكم العارية في البيت ، فإنها بعرضة الخروج منه ، لأنها ليست أصلية كائنة في بيت صاحبها .

والثالث : ما ليس مستندا إلى برهان ولا إلى قياس جدليّ ، بل على سبيل التقليد وحسن الظن بالأسلاف ، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابدٍ أو زاهد أو ذى ورع ، وقد جعله عليه السلام عوارى بين القلوب والصدور لأنه دون الثاني ، فلم يجعله حالاً في القلب ، وجعله مع كونه عارية حالاً بين القلب والصدر . فيكون أضعف مما قبله .

فإن قلت : فما معنى قوله : « إلى أجل معلوم » ؟

قلت : إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين ؛ لأنّ من لا يكون إيمانه ثابتاً بالبرهان القطعيّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعياً ، بأن ينعم النظر ويرتب البرهان ترتيباً مخصوصاً ، فينتج له النتيجة اليقينية ، وقد يصير إيمان المقلد إيماناً جدلياً فيرتقى إلى ما فوقه مرتبة ، وقد يصير إيمان الجدليّ إيماناً تقليدياً بأن يضعف في نظره ذلك القياس الجدليّ ، ولا يكون عالماً بالبرهان ، فيؤول حالُ إيمانه إلى أن يصير تقليدياً ، فهذا هو فائدة قوله : « إلى أجل معلوم » في هذين القسمين .

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم ، لأنّ مَنْ ظفر بالبرهان استحالة أن ينتقل عن اعتقاده ، لا صاعداً ولا هابطاً ؛ أمّا لا صاعداً ، فلاّنه ليس فوق البرهان مقام آخر ، وأمّا لا هابطاً ، فلاّنه مادّة البرهان هي المقدمات البديهية

والمقدّمات البديهية يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدلياً أو تقليدياً .

وثانيها قوله عليه السلام: « فإذا كانت لكم براءة » ، فنقول: إنّه عليه السلام نهى عن البراءة من أحدٍ مادام حياً ، لأنه وإن كان مخطئاً في اعتقاده ، لكن يجوز أن يعتقد الحقّ فيما بعد ، وإن كان مخطئاً في أفعاله ، لكن يجوز أن يتوب . فلا تحلّ البراءة من أحد حتى يموت على أمرٍ ؛ فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه ، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظر ؛ وينبغي أن تحمل هذه البراءة التي أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة ، لا على كلّ براءة ، لأننا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حيٌّ ، ومن الكافر وهو حيٌّ ، لكن بشرط كونه فاسقاً ، وبشرط كونه كافراً ، فأما مَنْ مات ونعلم مامات عليه فإننا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة .

وثالثها قوله : « والهجرة قائمة على حدّها الأوّل » ، فنقول : هذا كلام يختصّ به أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو من أسرار الوصية ، لأنّ الناس يروون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح » فشنع عمّه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعيّ أن يستثنيّه ، فاستثناه ، وهذه الهجرة التي يشيرُ إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة ، بل هي الهجرة إلى الإمام ، قال : إنها قائمة على حدّها الأوّل ما دام التكليف باقياً ، وهو معنى قوله : « ما كان لله تعالى في أهل الأرض حاجة » .

وقال الراوندي : ما هاهنا نافية ، أي لم يكن لله في أهل الأرض من حاجة ، وهذا ليس بصحيح ، لأنه إدخال كلام منقطع بين كلامين متصلّ أحدهما بالآخر .

ثم ذكر أنه لا يصحّ أن يعدّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه ، وهو

معنى قوله : « إلا بمعرفة الحجّة في الأرض » . قال : « فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر » .

قال : ولا يجوز أن يسمّى من عرف الإمام مستضعفا ، يمكن أن يشير به إلى آيتين في القرآن :

إحداها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ (١) ، فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كما كان هؤلاء مستضعفين ، وإن كان في بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشم مشقة السفر .

ثانيها قوله تعالى في الآية التي تلي الآية المذكورة : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ (٢) فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين ، لأن أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضة عليهم ، وعُفي عن ذوى العجز عن الحركة منهم ، وشيعة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضة عليهم ، بل تكفى معرفتهم به وإقرارهم بإمامته ، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم .

فإن قلت : فما معنى قوله : « من مستسرّ الأمة ومعلنها » ، وبماذا يتعلق حرف الجر ؟ قلت : معناه ، مادام لله في أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده والمعلن حاجة ، فمن على هذا زائدة ، فلو حذف جر المستسرّ بدلا من أهل الأرض ، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلق ، نحو قولك ماجاءني من أحد .

ورابعها : قوله عليه السلام : « إن أمرنا هذا صعب مستصعب » ويرى :
 « مستصعب - بكسر العين - لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبه للإيمان » ، هذه من ألفاظ
 القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) ،
 وهو من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب ودرب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير
 وان عنه ، والمعنى أنهم صبروا على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها ، ويجوز أن يكون وضع
 الامتحان موضع المعرفة ، لأن تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة ،
 فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى ، فيتعلق اللام بمحذوف ، أى كائنه له ، وهى
 اللام التى فى قولك : أنت لهذا الأمر ، أى مختص به كقوله :

* أعداء من للعمليات على الوجاه *

وتكون مع معمولها منصوبة على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى : ضرب الله قلوبهم
 بأنواع المحن والتكاليف الصعبة ، لأجل التقوى ، أى لتثبت فيظهر تقواها ، ويعلم أنهم
 متقون ، لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها . ويجوز أن
 يكون المعنى أنه أخلص قلوبهم للتقوى ، من قولهم : امتحن الذهب ، إذا أذابه فخلص
 إبريزه من خبثه ونقاها .

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً ، ووقفت فى بعض الكتب على خطبة من
 جملتها : إن قريشا طابت السعادة فشقيت ، وطلبت النجاة فهلكت ، وطلبت الهدى
 فضلت ، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا
 بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (٢) ؟ فإين المعدل والمنزع عن ذرية الرسول ، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم ،
 وأعلى رهوسهم فوق رهوسهم ، واختارهم عليهم ! ألا إن الذرية أفنان أنا شجرتها ، ودوحة
 أنا ساقها ، وإني من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء ، كنا ظلالاً تحت العرش قبل خلق البشر ،

(١) سورة الحجرات ٣

(٢) سورة الطور ٢١

وقبل خلق الطَّيْنَةِ التي كان منها البشر ، أشباحاً عالية ، لا أجساماً نامية . إنَّ أمرنا صعب مستصعب ، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة : ملك مقرَّب ، أو نبيُّ مرسل ، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان ، فإذا انكشف لكم سرُّه ، أو وضح لكم أمر فاقبلوه ، وإلا فامسكوا تساموا ، وردُّوا علمنا إلى الله ، فإنَّكم في أوسع مما بين السماء والأرض .

وخامسها : قوله : « سلوني قبل أن تفقدوني » ، أجمع الناس كلُّهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة ، ولا أحد من العلماء : « سلوني » غير علي بن أبي طالب عليه السلام ، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب " الاستيعاب " .

والمراد بقوله : « فلأنا أعلم بطرُق السماء مني بطرق الأرض » ، ما اختصَّ به من العلم بمستقبل الأمور ، ولا سيما في الملاحم والدَّول ، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكرِّرة ، لا مرة ولا مائة مرة ، حتى زال الشكُّ والرَّيب في أنه إخبار عن علم ، وأنه ليس على طريق الاتفاق ، وقد ذكرنا كثيراً من ذلك فيما تقدَّم من هذا الكتاب .

وقد تأوَّله قوم على وجه آخر قالوا : أراد أنا بالأحكام الشرعيَّة والفتاوى الفقهيَّة أعلمُ مني بالأمور الدنيويَّة ؛ فعبر عن تلك بطرق السماء ، لأنها أحكام إلهيَّة ، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضيَّة . والأوَّل أظهر ، لأنَّ نحوى الكلام وأوَّله يدلُّ على أنه المراد .

[قصة وقعت لأحد الوعاظ ببغداد]

وعلى ذكر قوله عليه السلام : « سلوني » ، حدثني مَنْ أثق به من أهل العلم حديثا ، وإن كان فيه بعض الكلمات العامية ، إلا أنه يتضمن ظرفاً ولطفاً ، ويتضمن أيضا أدبا .

قال : كان ببغداد في صدر أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بالله ، واعظ مشهور بالحذق ومعرفة الحديث والرجال ، وكان يجتمع إليه تحت منبره خلق عظيم من عوام بغداد ومن فضلائها أيضا ، وكان مشتهرا بدم أهل الكلام وخصوصا المعتزلة وأهل النظر ، على قاعدة الحشوية ، ومبغضى أرباب العلوم العقلية ، وكان أيضا منحرفاً عن الشيعة برضا العامة بالميل عليهم ، فانفق قوم من رؤساء الشيعة على أن يضعوا عليه مَنْ يبيكته ويسأله تحت منبره ، ويُنَجِّله ويفضجه بين الناس في المجلس ، وهذه عادة الوعاظ ؛ يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكافون الجواب عنها ، وسألوا عمن ينتدب لهذا ، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزبي ، كان له لسن ، ويشغل بشيء يسير من كلام المعتزلة ، ويتشيع ، وعنده قِحة ، وقد شدا أطرافا من الأدب ، وقد رأيت أنا هذا الشخص في آخر عمره ، وهو يومئذ شيخ ، والناس يختلفون إليه في تعبير الرؤيا ، فأحضره وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك ، فأجابهم ، وجلس ذلك الواعظ في يومه الذي جرت عادته بالجلوس فيه ، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم ، حتى امتلأت الدنيا بهم ، وتكلم على عادته فأطال ، فلما مر في ذكر صفات الباري سبحانه في أثناء الوعظ ، قام إليه الكزبي ، فسأله أسئلة عقلية ، على منهاج كلام المتكلمين من المعتزلة ، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظري ، وإنما دفعه بالخطابة والجدل ، وسجع الألفاظ ؛ وتردد الكلام بينهما طويلا ، وقال الواعظ في آخر الكلام : أعين المعتزلة حول ، وأصواتي

في مسامعهم طُبول ، وكلامي في أفئدتهم نُصول ، يامن بالاعتزال يصول ، ويحك كم تحوم
وتجول ، حول من لا تدركه العقول ! كم أقول كم أقول ، خلّوا هذا الفضول !

فارتجّ المجلس ، وصرخ الناس ، وعلت الأصوات ، وطاب الواعظ وطرب ، وخرج
من هذا الفصل إلى غيره فشطح شطح الصوفيّة ، وقال : سلوني قبل أن تفقدوني ، وكرّرها ؛
فقام إليه الكزّي ، فقال : ياسيدي ماسمعنا أنه قال هذه الكلمة إلا علي بن أبي طالب
عليه السلام ، وتمام الخبر معلوم . وأراد الكزّيّ بتمام الخبر قوله عليه السلام : « لا يقولها
بعدي إلا مدّع » .

فقال الواعظ وهو في نشوة طربه ، وأراد إظهار فضله ومعرفته برجال الحديث والرواة :
من عليّ بن أبي طالب ؟ أهو علي بن أبي طالب بن المبارك النيسابوريّ ؟ أم عليّ بن أبي طالب
ابن إسحاق المروزيّ ؟ أم علي بن أبي طالب بن عثمان القيروانيّ ؟ أم علي بن أبي طالب
ابن سليمان الرازيّ ؟ وعدّ سبعة أو ثمانية من أصحاب الحديث ، كلّمهم علي بن أبي طالب .
فقام الكزّيّ ، وقام من يمين المجلس آخر ومن يسار المجلس ثالث ، انتدبوا له ،
وبذلوا أنفسهم للحمية ووطنوها على القتل .

فقال الكزّيّ : أشأ ياسيدي فلان الدين ، أشأ ! صاحب هذا القول هو علي بن
أبي طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام ، وإن كنت ماعرفته بعد بعينه ،
فهو الشخص الذي لما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأتباع والأذنان آخى بينه
وبين نفسه ، وأسجل على أنه نظيره ومثاله ، فهل نقل في جهازكم أتم من هذا شيء ؟
أو نبت تحت خبكم من هذا شيء ؟

فأراد الواعظ أن يكلمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن ، وقال : ياسيدي
فلان الدين ، محمد بن عبد الله كثير في الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزة :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١).

وكذلك على بن أبي طالب كثير في الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لانبىّ بعدى » .

وقد تلتقى الأسماء في الناس والكفى كثيراً ولكن مَيَّزُوا في الخلائق فالتفت إليه الواعظ ليكلمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر ، وقال : يا سيدي فلان الدين ، حَقَّك تجهله ، أنت معذور في كونك لاتعرفه :

وإذا خفيتُ على النبيِّ فعاذرٌ أَلَا تراني مقلة عميابه

فاضطرب المجلس وماج كما يمجج البحر ، وافتتن الناس ، وتوالتبت العامة بعضها إلى بعض ، وتكشفت الرؤوس ، ومرتقت الثياب ، ونزل الواعظ ، واحتمل حتى أدخل دارا أغلق عليه بابها ، وحضر أعوان السلطان فسكنوا الفتنة ، وصرفوا الناس إلى منازلهم وأشغالهم ، وأنفذ الناصر لدين الله في آخر نهار ذلك اليوم ، فأخذ أحمد بن عبد العزيز الكزبي والرجلين اللذين قاما معه فحبسهم أياما لتطفأ نائرة الفتنة . ثم أطلقهم .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَطَائِفِ حُقُوقِهِ ، عَزِيزَ الْجُنْدِ ، عَظِيمَ
الْمَجْدِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ ، جِهَادًا
عَنْ دِينِهِ ، لَا يَبْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ أَجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَالنِّاسُ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ .
فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتَهُ ، وَمَعْقَلًا مَنِيعًا ذِرْوَتَهُ .
وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَعَمْرَاتِهِ ، وَأَمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ ؛ فَإِنَّ
الْعَايَةَ الْقِيَامَةَ ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهَلَ . وَقَبْلَ بُلُوغِ الْعَايَةِ
مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ ، وَشِدَّةِ الْإِبْنَالِ ، وَهَوْلِ الْمَطْلَعِ ، وَرَوَعَاتِ الْفَرْعِ ،
وَأَخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ ، وَأَسْتِكَالِ الْأَسْمَاعِ ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ ، وَغَمِّ الصَّرِيحِ
وَرَدْمِ الصَّفِيحِ .

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنِ ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةَ فِي قَرْنٍ ،
وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا ، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا
قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَالِهَا ، وَأَنَاخَتْ بِكَلَالِهَا ، وَأَنْصَرَفَتْ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَأَخْرَجَتْهُمْ
مِنْ حِضْنِهَا ، فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى ، وَشَهْرٍ انْقَضَى ، وَصَارَ جَدِيدًا مَرَّئًا ،
وَسَمِينًا غَنًّا .

فِي مَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ ، وَأُمُورِ مُشْدِيهِهِ عِظَامِ ، وَنَارِ شَدِيدِ كَلْبِهَا ، عَالٍ لَجْبِهَا ،
سَاطِعِ لِبْهَا ، مَتَغَيِّظِ زَفِيرِهَا ، مُتَأَجِّجِ سَعِيرِهَا ، بَعِيدِ خُمُودِهَا ، ذَلِكَ وَقُودُهَا ، مَخُوفِ

وَعِيدُهَا ، عَمَّ قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٌ أَقْطَارُهَا ، حَامِيَةٌ قُدُورُهَا ، فَظِيْعَةٌ أُمُورُهَا . ﴿ وَسِيْقَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۝ ﴾ .

قَدْ أَمِنَ الْعَذَابُ ، وَأَنْقَطَعَ الْعِتَابُ ، وَزُخْرِحُوا عَنِ النَّارِ ، وَأُطْمَأْنِنَتْ بِهِمُ الدَّارُ ،
وَرَضُوا الْمَشْوَى وَالْقَرَارَ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً ،
وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا ، تَخَشَعًا وَأَسْتِغْفَارًا ؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا ؛ تَوْحُشًا وَأَنْقِطَاعًا
فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبَا ، وَأُلْجَزَاءَ ثَوَابًا ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ ؛
وَنَعِيمٍ قَائِمٍ .

فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِّعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ ،
وَبَادِرُوا آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ ،
وَكَانَ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ ، فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ ، وَلَا عَثْرَةَ تَقَالُونَ .

اسْتَعْمَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ .
الزُّمُومَا الْأَرْضَ ، وَأَضْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى
الْسَيْنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ
وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَوَقَعَ أَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ ، وَأَسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، وَقَامَتِ النَّيَّةُ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ
لِسَيْفِهِ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا .

الْبُنْحُ :

وظائف حقوقه : الواجبات المؤقتة ، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ، والوظيفة

ما يجعل للإنسان في كل يوم ، أو في كل شهر ، أو في كل سنة ، من طعام ، أو رزق .

وعزيز منصوب ، لأنه حال من الضمير في « أستعينه » ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور في « حقوقه » وإضافة « عزيز » إلى « الجند » إضافة في تقدير الانفصال ، لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالا .

وقاهر أعداءه : حاربهم ، وروى « وقهر أعداءه » .

وللعقل : ما يعتصم به . وذروته : أعلاه .

وأمهّدوا له : اتخذوا مهاداً ، وهو الفراش ، وهذه استعارة .

قوله عليه السلام : « فإنّ الغاية القيامة » أي فإنّ منتهى كلّ البشر إليها ، ولا بدّ منها .

والأرماس : جمع رمس وهو القبر . والإبلاس مصدر « أباس » أي خاب ويئس ،

والإبلاس أيضا : الانكسار والحزن

واستكاك الأسماع : صممها .

وغمّ الضريح : ضيق القبر وكرّ به . والصفيح : الحجر ، وردمه : سدّه .

والسنن : الطريق . والقرن : الحبل .

وأشراط الساعة : علاماتها . وأزفت : قربت : وأفراطها : جمع فرط ، وهم المتقدّمون

السابقون من الموتى ، ومن روى « يافراطها » فهو مصدر أفرط في الشيء ، أي قربت الساعة

بشدّة غلوائها وبلوغها غاية الهول والفظاعة ، ويجوز أنّ تفسّر الرواية الأولى بمقدماتها

وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزججة ، كالدجال ودابة الأرض ونحوها ، ويرجع

ذلك إلى اللفظة الأولى ، وهي أشراطها ، وإنما يختلف اللفظ .

والكلاكل : جمع كلكل ، وهو الصدر ، ويقال للأمر الثقيل : « قد أناخ عليهم

بكلكاه » ، أي هدم ورضهم كما يهدّ البعير المبارك من تحته إذا أنحى عليه بصدرة .

قوله عليه السلام : « وانصرفت الدنيا بأهلها » أي ولّت ، ويروى « وانصرفت »

أي انقضت .

والْحِضْنُ ، بكسر الحاء : مادون الإبط إلى الكشح .

والرَّثْ : الخلق ، والنث : الهزيل .

ومقام ضنك ، أى ضيق .

وشديد كلمها ، أى شرها وأذاها . واللجَب : الصوت . ووُقودها هاهنا ، بضم الواو ؛ وهو

الحدث ، ولا يجوز الفتح لأنه ما يوقد به كالحطب ونحوه ، وذلك لا يوصف بأنه ذلك .

قوله عليه السلام : « عمّ قرارها » ، أى لا يهتدى فيه لظلمته ، ولأنه عميق جدا ،

ويروى : « وكان ليلهم نهار » وكذلك أختها على التشبيه .

والمآب : المرجع ، ومدينون : مجزيون .

قوله عليه السلام : « فلا رجعة تُنالون » الرواية بضم التاء ، أى تعطون ، يقال : أنلت

فلانا مالا ، أى منحته . وقد روى : « تَنالون » بفتح التاء .

ثم أمر أصحابه أن يثبتوا ولا يعجلوا فى محاربة مَنْ كان مخالطا لهم من ذوى العقائد

الفاصلة كالأجارج ، ومَنْ كان يُبطنُ هوى معاوية ، وليس خطابه هذا تضييظاً لهم عن حرب

أهل الشام ، كيف وهو لا يزال يقرُّ عنهم ويوتجهم عن التقاعد والإبطاء فى ذلك ! ولكن

قوما من خاصته كانوا يطلعون على ما عند قوم من أهل الكوفة ، ويعرفون نفاقهم

وفسادهم ، ويرومون قتلهم وقتلهم ، فنهام عن ذلك ، وكان يخاف فرقة جُنده وانتشار

حبل عسكره ، فأمرهم بلزوم الأرض ، والصبر على البلاء .

وروى بإسقاط الباء من قوله : « بأيديكم » ومَنْ روى الكلمة بالباء جعلها زائدة ،

ويجوز ألا تكون زائدة ، ويكون المعنى : ولا تحركوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم فى هوى

السنكم ، فحذف المفعول .

والإصلاط بالسيف : مصدر أصلت ، أى سل .

واعلم أن هذه الخطبة من أعيان خطبه عليه السلام ، ومن ناصع كلامه ونادره ،
وفيهما من صناعة البديع الرائقة المستحسنة البريئة من التكلف مالا يخفى ، وقد أخذ ابن
نباتة الخطيب كثيرا من ألفاظها فأودعها خطبه ، مثل قوله : « شديد كلبها ، عال لجبها ،
ساطع لهبها ، متغيظ زفيرها ، متأجج سعيرها ، بعيد خمودها ، ذاك وقودها ، مخوف
وعيدها ، عم قرارها ، مظلمة أقطارها ، حامية قدورها ، فظيعة أمورها » ؛ فإن هذه الألفاظ
كلها اختطفها ، وأغار عليها واغتصبها ، وسمّط بها خطبه ، وشذّر بها كلامه .

ومثل قوله : « هول المطلع ، وروعات الفزع ، واختلاف الأضلاع ، واستكالك الأسماع ،
وظلمة اللحد ، وخيفة الوعد ، وغمّ الضريح ، وردم الصفيح » . فإن هذه الألفاظ أيضا
تمضى في أثناء خطبه ، وفي غضون مواعظه .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ ، وَالْقَالِبِ جُنْدُهُ ، وَالْمُتَعَالَى جَدُّهُ ؛ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التَّوَامِ ، وَالْآلَائِهِ الْعِظَامِ ، الَّذِي عَظَّمَ حِلْمُهُ فَعَفَا ، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى ، وَعَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَى ، مُبْتَدِعَ الْخَلَائِقِ بَعْدَهُ ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ ، بِلَا أُقْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ ؛ وَلَا أُحْتَدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ ، وَلَا إِصَابَةَ خَطَا ، وَلَا حَضْرَةَ مَلَأَ .
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَبْتَعَنَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي عَمْرَةٍ ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةٌ الْخَيْنِ ، وَأَسْتَفْلَقَتْ عَلَى أَفْتِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرِّينِ .

عِبَادَ اللَّهِ ! أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ؛ وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقِّكُمْ ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجَنَّةُ ، وَفِي غَدِ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ مَسْلِكُهَا وَاصِحٌ ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ . لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ ، وَالنَّابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا ، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبَدَى ، وَأَخَذَ مَا أُعْطِيَ ، وَسَأَلَ عَمَّا أُسْدَى . فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا ، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا ! أَوْلَيْكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا ، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ (١) .

فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا ، وَالْأَلْطُوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا ، وَأَعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفًا ، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا .

أَيَقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ ، وَأَقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ ، وَأَشْعِرُوا قُلُوبَكُمْ ، وَأَرْحَصُوا
بِهَا ذُنُوبَكُمْ ؛ وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ،
وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا .

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا ، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نَزَاهًا ؛ وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلاَهَا ،
وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتُهُ التَّقْوَى ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعْتُهُ الدُّنْيَا ، وَلَا تَشِيمُوا بِأَرْحَمَهَا ،
وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا ، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا ، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا ،
فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ ، وَنُطِقَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ .

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيةُ الْعَنُونُ ، وَالْجَاحِجَةُ الْخُرُونُ ، وَالْمَائِنَةُ الْخُلُونُ ، وَالْجُحُودُ
الْكَنُودُ ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ ، وَالْخُيُودُ المَيُودُ ؛ حَالِهَا أَنْتِقَالٌ ، وَوَطْأُهَا زَلْزَالٌ ، وَعِزُّهَا
ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزَلٌ ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ .

دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ ، وَنَهَبٍ وَعَطَبٍ ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ ، قَدْ
تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا ، فَاسَلَمَتْهُمْ الْمَعَالِقُ ، وَلَفَظَتْهُمْ
الْمَنَازِلُ ، وَأَعْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ ؛ فَمِنْ نَاجٍ مَعْفُورٍ ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ ، وَشَيْلٍ مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ
مَسْفُوحٍ ، وَعَاضٍ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافِقٍ بِكَفَيْهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَيْهِ ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ،
وَرَاجِعٍ عَنِ عَزْمِهِ .

وَقَدْ أَذْبَرَتْ الْحِيلَةَ ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ !
قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَمَضَتْ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (١) .

البَشْرُحُ :

الفاشى : الذائع ، فشا الخبرُ يفشو فشواً ، أى ذَاعَ ، وأفشاه غيره . وتفشى الشيء ، أى اتسع ، والفواشى : كلُّ منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرها ، ومنه الحديث : « ضَمُّوا فواشِيَكُمْ حتى تذهب خِمة العشاء » ، فيجوز أن يكون عَنَى بفشوَّ حمده إطباق الأمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته ، ويجوز أن يريد بالفاشى سبب حمده ، وهو النعم التي لا يقدر قدرها ، فحذف المضاف .

قوله : « والغالب جنده » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

قوله : « والمتعالى جدّه » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ (٢) والجدُّ في هذا الموضع وفي الآية : العظمة .

والتؤام : جمع توأم على قَوْعِل ، وهو الولد المقارن أخاه في بطن واحد ، وقد أتامت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك ، فهي متئِم ، فإن كان ذلك عادتها فهي متئَام ، وكل واحد من الولدين توأم ، وهاتوئمان ، وهذا توأم هذا ، وهذه توأمته ، والجمع توأم ، مثل قشع وقشاعم ، وجاء في جمعه « تُوَام » على « فُعَال » وهي اللفظة التي وردت في هذه الخطبة ، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا في مواضع معدودة ، وهي : عرق العظم يؤخذ عنه اللحم وعراق ، وشاة رُبِّي للحديثة العهد بالولادة وغنم رُبَاب ، وظئر للرضعة غير ولدها وظُوَار ، ورَخْل اللأنتى من أولاد الضأن ورُخَال ، وفرير لولد البقرة الوحشية ، وفرار (٣) .

والآلاء : النعم .

(٢) سورة الجن ٣

(١) سورة المائدة ٥٦

(٣) انظر صحاح الجوهري ٤ : ١٥٢٣

قوله عليه السلام: «مبدع الخلاق بعلمه»، ليس يريد أن العلم علة في الإبداع، كما تقول: هوى الحجر بثقله، بل المراد: أبداع الخلق وهو عالم، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أى خرج مسلحاً، فوضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحالية، وكذلك القول في: «ومنشئهم بحكمه» والحكم هاهنا: الحكمة.

ومنه قوله عليه السلام: «إن من الشعر لحكمة».

قوله: «بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء» قد تكرر منه عليه السلام أمثاله مراراً.

قوله: «ولا إصابة خطأ» تحته معنى لطيف، وذلك لأن المتكلمين يوردون على أنفسهم سؤالاً في باب كونه عالماً بكل معلوم إذا استدقوا على ذلك، فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال، فوجب أن يعلم سائرهما، لأنه لا يخصص، فقالوا لأنفسهم: لم زعمتم ذلك؟ ولم لا يجوز أن يكون فعل أفعاله مضطربة، فلما أدركها علم كيفية صنعها بطريق كونه مدركاً لها فأحكمها بعد اختلاها واضطرابها! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بد أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس، ويكفي ذلك في كونه عالماً بمسلم يتطرق إليه، ثم يعود الاستدلال المذكور أولاً.

قوله عليه السلام: «ولا حصره ملاً» الملاء: الجماعة من الناس وفيه معنى قوله

تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾^(١).

قوله: «يضربون في عمرة»، أى يسيرون في جهل وضلالة، والضرب:

السير السريع.

والحين: الهلاك. والرين: الذنب صلى الذنب حتى يسود القلب، وقيل: الرين:

(١) سورة الكهف ٥١

الطَّبَعِ والِدِنْسِ ، يُقَالُ : رَانَ عَلَى قَلْبِهِ ذَنْبُهُ ، يَرِينُ رَيْنًا ، أَيْ دَنَسَهُ وَوَسَخَهُ ، وَاسْتَفْلَقَتْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ عَلَى قُلُوبِهِمْ : تَعَسَّرَ فَتَحَهَا .

قوله : « فَإِنَّهَا حَقٌّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّوَجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقِّكُمْ » ؛ يُرِيدُ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ فَعَلْتُمُوهَا وَجَبَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُجَازِيَكُمْ عَنْهَا بِالثَّوَابِ ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِمَذْهَبِ الْمُعْتَزَلَةِ فِي الْعَدْلِ ، وَأَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُجِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ .

قوله : « وَأَنْ نَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ ، وَنَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ » ، يُرِيدُ : أَوْصِيكُمْ بِأَنْ تَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَى التَّقْوَى بِأَنْ تَدْعُوهُ وَتَتَّبِعُوهُ إِلَيْهِ أَنْ يَعِينَكُمْ عَلَيْهَا ، وَيُوقِّعْكُمْ لَهَا وَيُبَيِّرْهَا وَيَقْوَى دَوَاعِيَكُمْ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا ، وَأَوْصِيكُمْ أَنْ تَسْتَعِينُوا بِالتَّقْوَى عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ وَمَحَافِظَتِهِ وَحِسَابِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ كَالْحَاكِمِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ ^(١) ، فَالْسَعِيدُ مَنْ اسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ الْحِسَابِ وَتِلْكَ الْحُكُومَةُ وَالْخُصُومَةُ بِالتَّقْوَى فِي دَارِ التَّكْلِيفِ ، فَإِنَّهَا نِعْمَ الْمَعُونَةُ ﴿ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

وَالْجَنَّةُ : مَا يَسْتَرِبُهُ .

قوله : « وَمَسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ » ، يَعْنِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ ، لِأَنَّهُ مَسْتَوْدَعُ الْأَعْمَالِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ^(٢) ، وَبَلِيسُ مَا قَالَهُ الرَّائِدِيُّ مِنْ أَنَّهُ أَرَادَ بِالْمَسْتَوْدَعِ قَلْبَ الْإِنْسَانِ بِشَيْءٍ .

قوله : « لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا » كَلَامٌ فَصِيحٌ لَطِيفٌ ، يَقُولُ : إِنْ التَّقْوَى لَمْ تَنْزَلْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى مَنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرُونِ ، فَقَبِلَهَا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ ، شَبَّهَهَا بِالْمَرَأَةِ الْعَارِضَةِ نَفْسَهَا نِكَاحًا عَلَى قَوْمٍ فَرَّغَ فِيهَا مِنْ رَغْبٍ ، وَزَهَدٍ مِنْ زَهْدٍ ، وَعَلَى الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ

(١) سُورَةُ الْجَانِيَةِ ٢٨

(٢) سُورَةُ الْكَهْفِ ٣٠

هي العارضة نفسها ، ولكن المكلفين ممكنون من فعلها ومرغبون فيها ، فصارت كالعارضة .

والغابر هاهنا . الباقي ، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقي ، وبمعنى الماضي .

قوله عليه السلام : « إذا أعاد الله ما بدأ » ، يعني أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبق في الوجود من له تصرف في شيء غيره كما قال : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾^(١) . وقيل في الأخبار والحديث : إن الله تعالى يجمع الذهب والفضة كل ما كان منه في الدنيا ، فيجعله أمثال الجبال ، ثم يقول : هذا فتنة بني آدم ، ثم يسوقه إلى جهنم فيجعله مكاوي لجباه المجرمين .

« وسأل عما أسدى » ؛ أي سأل أرباب الثروة عما أسدى إليهم من التعم فيم صرفوها ؟

وفيم أنفقوها ؟

قال عليه السلام : « فما أقل من قبلها ! » ، يعني ما أقل من قبل التقوى العارضة

نفسها على الناس .

وإذا في قوله : « إذا أعاد الله » ؛ ظرف لحاجتهم إليها ، لأن المعنى يقتضيه ، أي لأنهم

يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق ؛ وليس كما ظنه الراوندي أنه ظرف لقوله : « فما أقل

من قبلها » ، لأن المعنى على ما قلناه ، ولأن ما بعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملا

فيما قبلها .

قوله : « فاهطعوا بأسماعكم » ، أي أسرعوا ، أھطع في عذوه أي أسرع .

ويروى : « فانقطعوا بأسماعكم إليها » ، أي فانقطعوا إليها مصفين بأسماعكم .

قوله : « وألظوا بجدكم » ، أي ألحوا ، والإلظاظ : الإلحاح في الأمر ، ومنه قول ابن

ابن مسعود: أَلِظُوا فِي الدِّعَاءِ بِيَاذَا الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ ، وَمِنْهُ الْمَلَاظَةُ فِي الْحَرْبِ ، وَيُقَالُ : رَجُلٌ مِلْظٌ وَمِلْظَاظٌ ، أَيْ مَلْحَاحٌ ، وَأَلِظَ الْمَطْرُ ، أَيْ دَامَ .

وقوله: «بِحِدِّكُمْ» أَيْ بِاجْتِهَادِكُمْ ، جَدَدْتُ فِي الْأَمْرِ جَدًّا بِالْفَتْحِ وَاجْتَهَدْتُ ، وَيُرْوَى : «وَأَكْظُوا بِحِدِّكُمْ» وَاللَّوَاكِظَةُ : الْمُدَاوِمَةُ عَلَى الْأَمْرِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِلَّا مَا دُوتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾^(١) قَالَ : أَيْ مَوَاكِظًا .

قوله : « وَأَشْعَرُوا بِهَا قُلُوبَكُمْ » يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ : اجْعَلُوهَا شِعَارًا لِقُلُوبِكُمْ ، وَهُوَ مَا دُونَ الدِّثَارِ وَالصَّقِّ بِالْجَسَدِ مِنْهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ : اجْعَلُوهَا عَلَامَةً يَعْرِفُ بِهَا الْقَلْبُ التَّقَى مِنْ الْقَلْبِ الْمَذْنُوبِ كَالشِّعَارِ فِي الْحَرْبِ يَعْرِفُ بِهِ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ آخِرَ جَوَا قُلُوبِكُمْ بِهَا مِنْ أَشْعَارِ الْبَدَنِ ، أَيْ طَهَّرُوا الْقُلُوبَ بِهَا ، وَصَفُّوهَا مِنْ دَنَسِ الذَّنُوبِ ، كَمَا يَصْفِي الْبَدْنَ بِالْفِصَادِ مِنْ غَلْبَةِ الدَّمِ الْفَاسِدِ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ الْإِشْعَارَ بِمَعْنَى الْإِعْلَامِ ، مِنْ أَشْعَرْتُ زَيْدًا بِكَذَا ، أَيْ عَرَفْتَهُ إِيَّاهُ ؛ أَيْ اجْعَلُوهَا عَالِمَةً بِجَلَالَةِ مَوْقِعِهَا وَشَرَفِ مَحَلِّهَا .

قوله : « وَارْحَضُوا بِهَا » أَيْ اغْسَلُوا ، وَثُوبٌ رَحِيضٌ وَمَرْحُوضٌ ، أَيْ مَغْسُولٌ .

قال : « وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ » ، يَعْنِي أَسْقَامَ الذَّنُوبِ .

وَبَادَرُوا بِهَا الْحِمَامَ : عَجَّلُوا وَاسْبَقُوا الْمَوْتَ أَنْ يَدْرِكَكُمْ وَأَنْتُمْ غَيْرُ مَتَّقِينَ .

وَاعْتَبَرُوا بِمِنْ أَضَاعِ التَّقْوَى فَهَلِكُ شَقِيًّا ، وَلَا يُعْتَبَرُونَ بِكُمْ أَهْلُ التَّقْوَى ، أَيْ لَا تَكُونُوا

أَنْتُمْ لَهُمْ مَعْتَبَرًا بِشِقَاوَتِكُمْ وَسَعَادَتِهِمْ .

ثم قال : « وَصَوَّنُوا التَّقْوَى عَنْ أَنْ تَمَازَجَهَا الْمَعَاصِي ، وَتَصَوَّنُوا أَنْتُمْ بِهَا عَنِ الدَّنَاءَةِ

وَمَا يَنْفِي الْعَدَالَهَ .

وَالنُّزْهَ : جَمْعُ نَزَاهٍ ، وَهُوَ الْمُتَبَاعِدُ عَمَّا يَرْجِبُ الذَّمَّ . وَالْوَلَاءُ : جَمْعُ وَالٍ ، وَهُوَ الْمَشْتَقُ

ذُو الْوَجْدِ حَتَّى يَكَادُ يَذْهَبُ عَقْلُهُ .

ثم شرع في ذكر الدنيا ، فقال : « لا تسيموا بارقها » الشَّيم : النظر إلى البرق
انتظاراً للمطر .

ولا تسمعوا ناطقها : لا تصغوا إليها سامعين ، ولا تجيبوا مناديتها .
والأعلاق : جمع علق وهو الشيء النفيس . و برق خالب وخلب : لا مطر فيه .
وأموالها محروبة ، أى مسلوبة .

قوله عليه السلام : « ألا وهى المتصدية العنون » ؛ شبهها بالمرأة المومس تتصدى
للرجال تريد الفجور . وتتصدى لهم : تتعرض . والعنون : المتعرضة أيضاً ، عن لى كذا
أى عرض .

ثم قال : « والجائحة الخرون » شبهها بالذابة ذات الجراح ، وهى التى لا يستطيع
ركوبها لأنها تعثر بفارسها وتغلبه ، وجعلها مع ذلك حرّونا وهى التى لا تنقاد .

ثم قال : « والمائنة الخثون » ، مان ، أى كذب ، شبهها بامرأة كاذبة خائنة .
والجحود الكنود ، جحد الشيء أنكره ، وكند النعمة : كفرها ، جعلها كامرأة
تجحد الصنعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة . ويجوز أن يكون الجحود من قولك : رجل
جحد وجحد ، أى قليل الخير ، وعام جحد ، أى قليل المطر ، وقد جحد النبت ،
إذا لم يطل .

قال : والعنود : الصدود ، العنود : الناقة تعدل عن مرعى الإبل وترعى ناحية ،
والصدود : المعرضة ، صد عنه ، أى عرض ؛ شبهها فى انحرافها وميلها عن القصد بتلك .
قال : والحيود الميود ؛ حادت الناقة عن كذا تميد فهى حيود ، إذا مالت عنه .
ومادت تميد فهى ميود ، أى مالت ، فإن كانت عاداتها ذلك مُتِمَّت الحيوود الميود
فى كل حال .

قال : « حالها انتقال » ؛ يجوز أن يعنى به أن شيمتها وسجيتها الانتقال والتغير ، ويجوز أن يريد به معنى أدق وهو أن الزمان على ثلاثة أقسام : ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، فالماضى والمستقبل لا وجود لهما الآن ، وإتسا الموجود أبدا هو الحاضر ؛ فلما أراد المبالغة في وصف الدنيا بالتغير والزوال قال : « حالها انتقال » ، أى أن الآن الذى يحكم العقلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة ، بل هو سيال متغير ، فلا ثبوت إذاً لشيء منها مطلقا . ويروى : « وحالها افتعال » ، أى كذب وزور ، وهى رواية شاذة .

قال : « ووطأتها زلال » ، الوطأة كالضغطة ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله : « اللهم اشدد وطأتك على مضر » ، وأصلها موضع القدم . والززال : الشدة العظيمة ، والجمع زلازل وقال الراوندى فى شرحه : يريد أن سكونها حرّكة ، من قولك : وطؤ الشيء ، أى صار وطيئا إذا حال لينة ، وموضع وطيء ، أى وثير ، وهذا خطأ ، لأن المصدر من ذلك وطأة بالمد ، وهاهنا وطأة ساكن الطاء ، فأين أحدهما من الآخر !

قال : « وعلوها سفل » ، يجوز ضم أولها وكسره .

قال : « دار حرب » الأحسن فى صناعة البديع أن تكون الزاء هاهنا ساكنة ليوازى السكون هاء « نهب » ومن فتح الزاء ، أراد السلب ، حربته أى سلبت ماله .

قال : « أهلها على ساق وسياق » يقال : قامت الحرب على ساق ، أى على شدة ومنه قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ ^(١) والسياق : نزع الروح ، يقال : رأيت فلانا يسوق ، أى ينزع عند الموت ، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقا وسياقا . وقال الراوندى فى شرحه : يريد أن بعض أهلها فى أثر بعض كقولهم : ولدت فلانة

ثلاثة بنين على ساقٍ ، وليس ماقاله بشيء ، لأنهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنتى ، ولا يقال ذلك فى مطلق التتابع : أين كان .

قال عليه السلام : « ولحاق وفراق » اللام مفتوحة ، مصدر لحق به ، وهذا كقولهم : « الدنيا مولود يولد ، ومفقود يفقد » .

قال عليه السلام : « قد تحيرت مذاهبها » ، أى تحير أهلها فى مذاهبهم ، وليس يعنى بالمذاهب هاهنا الاعتقادات ، بل المسالك .

وأعجزت مهاربها : أى أعجزتهم جعلتهم عاجزين ، فحذف المفعول .

وأسلمتهم المعائل : لم تحصنهم .

ولفظتهم ، بفتح الفاء : رمّت بهم وقذقتهم .

وأعيتهم المحاول ، أى المطالب .

ثم وصف أحوال الدنيا فقال : « هم من ناجٍ معقور » ، أى مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه ، وقد جرح بدنه .

ولحم مجزور ، أى قتيل قد صار جزراً للسباع .

وشلّو مذبوح : الشلّو ، العضو من أعضاء الحيوان ؛ المذبوح أو الميت .

وفى الحديث : « ائتمنى بشلّوها الأيمن » .

ودم مسفوح ، أى مسفوك . وعاض على يديه ، أى ندما .

وصافق بكفّيه ، أى تسفأ أو تعجبا .

وسرتق بخديّه : جاعل لها على مرفقيه فكراً وهماً .

وزار على رأيه ، أى عائب ، أى يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه ، وهو

البداء الذى يذكره المتكلمون . ثم فسره بقوله : « وراجع عن عزمه » .

فإن قلت : فهل يمكن أن يفرق بينهما ، ليكون الكلام أكثر فائدة ؟
قلت : نعم ، بأن يريد بالأول مَنْ رأى رأيا وكشفه لغيره ، وجامعه عليه ثم بدأ
له وعابه ، ويريد بالثاني مَنْ عزم نفسه عزما ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه ، ويمكن أيضا
بأن يفرق بينهما بأن يعنى بالزأى الاعتقاد ، كما يقال : هذا رأى أبى حنيفة ، والعزم أمر
مفرد خارج عن ذلك ، وهو ما يعزم عليه الإنسان من أمور نفسه ، ولا يقال : عزم
في الاعتقادات .

ثم قال عليه السلام : « وقد أدبرت الحيلة » : ولت ، وأقبلت الغيلة ، أى الشر ، ومنه
قولهم : فلان قليل الغائلة . أو يكون بمعنى الاغتيال ، يقال : قتله غيلة ، أى خديعة . يذهب به
إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله .

قال عليه السلام : « ولات حين مناص » ، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز^(١) ، قال
الأخفش : شبهوا « لات » بليس ، وأضمروا فيها اسم الفاعل ؛ قال : ولا تكون « لات »
إلا مع « حين » ، وقد جاء حذف « حين » في الشعر ، ومنه المثل : « حنت ولات هنت » ،
أى ولات حين حنت ، والهاء بدل من الحاء ، فحذف الحين وهو يريد . قال : وقرأ
بعضهم ﴿ وَلا تَحِينَ مَنَاصٍ ﴾ بالرفع ، وأضمر الخبر . وقال أبو عبيد : هى لا ؛
والتاء إما زيدت في « حين » ، لافى « لا » ، وإن كتبت مفردة ، والأصل
« تحين » كما قال في « ألان » « تلان » . فزادوا التاء ، وأنشد لأبى وجزة .

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان أين المظم^(٢)

وقال المؤرج : زيدت التاء في « لات » كما زيدت في « ربّت » و « ثمت » .

والمناص : المهرب ، ناس من قرء : يتنصنر نوصا ومناصا ، أى ليس هذا وقت الهرب والفرار .

(١) وهو قوله تعالى في سورة ص ٣ : ﴿ وَلا تَحِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

(٢) الصحاح ١ : ٢٢٦

ويكون المناص أيضا بمعنى الملجأ والمفرج ، أى ليس هذا حين تجد مفرزا ومعقلا تعتصم به .
هيات : اسم للفعل ومعناه بُعد ، يقال : هيات زيد فهو مبتدأ وخبر ، والمعنى يعطى
الفعلية ، والتاء فى « هيات » مفتوحة مثل كيف ، وأصلها هاء ، وناس يكسرونها على كل
حال بمنزلة نون التثنية ، وقال الراجز :

هيات من مصبها هياتِ هيات حُجْر من صُنَيْعَاتِ^(١)

وقد تبدل الهاء همزة ، فيقال « آيات » مثل هراق وأراق ، قال :

* آيات منك الحياة آياتنا^(٢) *

قال الكسائى : فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء ، فقال : « هَيْهَاه » ، ومن فتحها وقف
إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء .

قوله عليه السلام : « ومضت الدنيا لخال بالهأ » ، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره ،
ومعناها مضى بما فيه إن كان خيرا ، وإن كان شرا .

قوله عليه السلام : « فما بكت عليهم السماء » ؛ هو من كلام الله تعالى ؛ والمراد أهل
السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر ، والمعنى أنهم لا يستحقون أن يتأسف عليهم ،
وقيل : أراد المبالغة فى تحقير شأنهم لأن العرب كانت تقول فى العظيم القدر يموت : بكته
السماء ، وبكته النجوم ، قال الشاعر :

فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ^(٣)

فنفى عنهم ذلك ، وقال : لبسوا من يقال فيه مثل هذا القول ، وتأولها ابن عباس رضى
الله عنه لما قيل له : أتبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم يبكيه مصلا فى الأرض
ومصعد عمله فى السماء ؛ فيكون نفى البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم فى الأرض
عمل صالح يرفع منهما إلى السماء .

(١) اللسان ١٧ : ٤٥١ من رجز نسيه الى حميد الأرقط .

(٢) لجرير ، ديوانه ٣٠٤

(٣) انظر اللسان ١٧ : ٤٥٢

الأصل :

ومنه خطبة له عليه السلام :

(ومن الناس من يسمي هذه الخطبة بالقاصعة ، وهي تتضمن ذم إبليس لعنه الله ، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية . وتحذير الناس من سلوك طريقته) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِرَّ وَالْكَبْرِيَاءَ ؛ وَأَخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمَا حِمَى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ ، وَأَصْطَفَاهُمَا لِيَجْلَالَهُ ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ .
 ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ ؛ لِيَمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهِ ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَنَحْوِ بَاتِ الْغُيُوبِ : ﴿ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ ^(١) ؛ اِعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ ، فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ ، فَعَدُوُّ اللَّهِ إِمَامَ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ؛ الَّذِي وَضَعَ أَسَانَ الْعَصْبِيَّةِ ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبَرِيَّةِ ، وَأَدْرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّنْذِيلِ .
 أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبُرِهِ ، وَوَضَعَهُ اللَّهُ بِتَرْفَعِهِ ؛ فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَذْهُورًا ، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا !

الشَّيْخُ :

يجوز أن تسمى هذه الخطبة « القاصعة » من قولهم : قَصَعَتِ النَّاقَةُ بِجِرَّتِهَا ، وهو أن تردّها إلى جوفها ، أو تخرجها من جوفها فتملاً فإها ، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها ، شبهها بالناقاة التي تقصع الجِرّة . ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية ، من قولهم : قَصَعَتِ الْقَمَلَةَ ، إذا هشمته وقتلتها . ويجوز أن تسمى القاصعة ، لأنّ المستمع لها الاعتباريها يذهب كثيره ونحوته ، فيكون من قولهم : قَصَعَ الْمَاءَ عَطَشَهُ ، أي أذهبه وسكنه ، قال ذو الرّمة بيتا في هذا المعنى :

فَانصَاعَتِ الْحُقْبُ لَمْ تَقْصَعْ صِرَائِرَهَا وَقَدْ تَشَحَّحَ فَلَا رِيَّ وَلَا هِيمَ^(١)

الصَّرَائِرُ : جمع صَرِيرَةٍ ، وهي العطش ؛ ويجوز أن تسمى القاصعة ، لأنها تتضمن تحقير إبليس وأتباعه وتصغيرهم ، من قولهم : قصعت الرجل إذا امتهنته وحقرته ، وغلام مقصوع ، أي قبيء لا يشب ولا يزداد .

والعصبية على قسمين : عصبية في الله وهي محمودة ، وعصبية في الباطل وهي مذمومة ؛ وهي التي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها ، وكذلك الحمية . وجاء في الخبر : «العصبية في الله تورث الجنة ، والعصبية في الشيطان تورث النار» ؛ وجاء في الخبر : «العظمة إزارى ، والكبرياء ردأى ، فمن نازعنى فيهما قصمته» ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : «اختارها لنفسه دون خلقه ...» إلى آخر قوله : «من عباده» .

قال عليه السلام : «ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين مع علمه بمضمراتهم» ؛ وذلك لأنّ اختباره سبحانه ليس ليعلم بل ليعلم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصى ، وكذلك ، قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

(١) ديوانه ٥٨٨ . انصاعت : ذهبت هاربة . والحقب : الحزب الوحشية . وروايته : «وقد نشحن»

الرَّسُولِ يَمَنُّ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ^(١)، النون في « لنعلم » نون الجمع لانون العظمة، أى لتصير أنت وغيرك من المكلفين عالمين لمن يعطى ومن يعصى ، كما أنا عالم بذلك فتكونوا كأكم مشاركين لى فى العلم بذلك .

فإن قلت : وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به ؟

قلت : ليس بممتنع أن يكون ظهورُ حال العاصى والمطيع وعلم المكلفين أو أكثرهم أو بعضهم به يتضمّن لطفافى التكليف !

فإن قلت : إن الملائكة لم تكن تعلم ما للبشر ، ولا تتصور ماهيته ، فكيف قال لهم ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾ ؟

قلت : قد كان قال لهم : إنى خالق جسمًا من صفته كيت وكيت ، فلما حكاه اقتصر على الاسم . ويجوز أن يكون عرفهم من قبل أن لفظة « بشر » على ماذا تقع ، ثم قال لهم : إنى خالقٌ هذا الجسم المخصوص الذى أعلمتكم أن لفظة « بشر » واقعةٌ عليه من طين . قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ ﴾ ؛ أى إذا أكملت خلقه .

ففعوا له ساجدين : أمرهم بالسجود له . وقد اختلف فى ذلك فقال قوم : كان قبلة ، كما الكعبة اليوم قبلة ، ولا يجوز السجود إلا لله . وقال آخرون : بل كان السجود له تكريمًا ومحنة ، والسجود لغير الله غير قبيح فى العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحى ﴾ ، أى أحللت فيه الحياة ، وأجريت الروح إليه فى عروقه ، وأضاف الروح إليه تبجيلا لها ، وسمى ذلك نفخا على وجه الاستعارة ، لأن العرب تتصور من الروح معنى الريح ، والنفخ يصدق على الريح ، فاستعار لفظة « النفخ » توسعا .

(١) سورة البقرة ١٤٣

وقالت الحكماء : هذا عبارة عن النفس الناطقة .

فإن قلت : هل كان إبليس من الملائكة أم لا ؟

قلت : قد اختلف في ذلك ، فمن جعله منهم احتج بالاستثناء ، ومن جعله من غيرهم احتج بقوله تعالى : ﴿ كَان مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، وجعل الاستثناء منقطعا ، وبأن له نسلا وذرية ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِّن دُونِي ﴾ ^(١) ، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرية ، وبأن أصله نار والملائكة أصلها نور ، وقد مر لنا كلام في هذا في أول الكتاب .

قوله : « فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله » ، كانت خلقته أهون من خلقه آدم عليه السلام ، وكان أصله من نار وأصل آدم عليه السلام من طين .

فإن قلت : كيف حكم على إبليس بالكفر ، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر ، ومعلوم أن تارك الأمر فاسق لا كافر !

قلت : إنه اعتقد أن الله أمره بالقبيح ولم ير أمره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة ، وامتنع من السجود تكبرا ، وردّ على الله أمره ، واستخف بمن أوجب الله إجلاله ، وظهر أن هذه المخالفة عن فساد عقيدة ، فكان كافرا .

فإن قلت : هل كان كافرا في الأصل أم كان مؤمنا ثم كفر ؟

قلت : أما المرجحة فأكثرهم يقول : كان في الأصل كافرا ، لأن المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر ، وأما أصحابنا فلما كان هذا الأصل عندهم باطلا توقفوا في حال إبليس ، وجوزوا كلا الأمرين .

قوله عليه السلام : « رداء الجبرية » الباء مفتوحة ، يقال : فيه جبرية ، وجبروة ، وجبروت ، وجبورة ، كفر وجة أى كبر ، وأنشدوا :

فإنك إن عاديتنى غضب الحصا عليك وذو الجبورة المتفطرف^(١)
وجعله مدحورا ، أى مطرودا مبعداً ، دحره الله دحورا ، أى أقصاه وطرده .

الأصل :

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْتَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ
رُؤَاؤُهُ ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ ، لَفَعَلَ ؛ وَلَوْ فَعَلَ لَطَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ،
وَنَخَفَتِ الْبُلُوبُ فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ابْتَلَى خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ
أَصْلَهُ تَمْيِيزًا بِالْإِخْتِبَارِ لَهُمْ ، وَنَفْيًا لِلْإِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ ، وَإِنْعَادًا لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ ، فَاعْتَبَرُوا
بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ ، وَجَهَدَهُ الْجَهِيدَ ، وَكَانَ قَدْ
عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ، لَا يُدْرِي أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ ، عَنْ كِبَرِ
سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ !

كَلَّمَ مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بِأَمْرِ أُخْرِجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا ، إِنَّ
حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَوَاحِدٌ ، وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ
فِي إِبَاحَةِ حَمِي حَرَمِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ .

الشرح :

خَطَفَتِ الشَّيْءُ بِكسر الطاء ، أَخْطَفَهُ ، إِذَا أَخَذْتَهُ بِسُرْعَةٍ اسْتِلَابًا ، وَفِيهِ لَفَةٌ أُخْرَى :

(١) لمفسر بن لقيط الأسدي ، وانظر الصحاح وحواشيه (جبر) .

خَطَفَ بالفتح ، ويخطف بالفتح ويخطف بالكسر ، وهى لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف ، وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

والرؤء ، بالهمزة والمد : المنظر الحسن . والعرف : الريح الطيبة .

وأخيلاء ، بضم الخاء وكسر ها : الكبر ، وكذلك الخالُ والخيلة ، تقول : اختال الرجل وخال أيضا ، أى تكبر .

وأحبط عمله : أبطل ثوابه ، وقد حبط العمل حَبَطًا بالتسكين وحُبوطا . والمتكلمون يسمون إبطال الثواب إحباطا وإبطال العقاب تكفيرا :

وجَّهده بفتح الجيم : اجتهده وجده ، ووصفه بقوله : « الجهد » أى المستقصى ، من قولهم : مرعى جهيد ، أى قد جهده المال الراعى واستقصى رعيه .

وكلامه عليه السلام يدل على أنه كان يذهب إلى أن إبليس من الملائكة لقوله : « أخرج منها ملكا » .

والهوادة : الموادة والمصالحة ، يقول : إن الله تعالى خلق آدم من طين ، ولو شاء أن يخلقه من النور الذى يخطف أو من الطيب الذى يعبق لَفَعَلَ ، ولو فعل لخال الملائكة أمره وخضعوا له ، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسجود له خفيفا عليهم ، لعظمتهم فى نفوسهم ، فلم يستحقوا ثواب العمل الشاق ، وهذا يدل على أن الملائكة تشم الرائحة كما تشمها نحن ، ولكن الله تعالى يبتلى عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم .

فإن قلت : مامعنى قوله عليه السلام : « تميزنا بالاختبار لهم » .

قلت : لأنه ميزهم عن غيرهم من مخلوقاته ، كالحيوانات العجم ، وأبائهم عنهم ، وفضلهم عليهم بالتكليف والامتحان .

قال : « ونفيا للاستكبار عنهم » ؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلة ، ففيها نفي الخيلاء والتكبر عن فاعليها ، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذي عبد الله ستة آلاف سنة ؛ لا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدنْيا أم من سِنِي الآخرة ! وهذا يدلّ على أنه قد سمع فيه نصّاً من رسول الله صلى الله عليه وآله مجّالاً لم يفسره له ، أو فسره له خاصة ، ولم يفسره أمير المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه في كتابه عنهم من المصلحة .

فإن قلت : قوله : « لا يُدْرَى » على ما لم يسم فاعله يقتضى أنه هو لا يدري .

قلت : إنه لا يقتضى ذلك ، ويكفي في صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجمله الأكترون .

فأمّا القولُ في سِنِي الآخرة كم هي ؟ فاعلم أنه قد وردَ في الكتاب العزيز آياتٌ مختلفة :

إحداهن قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾^(١) .

والأخرى قوله : ﴿ يُدَبَّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾^(٢) .

والثالثة قوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾^(٣) .

وأولى ما قيل فيها أن المراد بالآية الأولى مدّة عمر الدنيا ، وسمى ذلك يوماً ، وقال : إن الملائكة لا تزال تعرج إليه بأعمال البشر طول هذه المدّة حتى ينقضى التكليف ، وينقل الأمر إلى دار أخرى . وأمّا الآيتان الأخيرتان فمضمونهما بيان كمية أيام الآخرة ، وهو أن كل يوم منها مثل ألف سنة من سِنِي الدنيا .

(٢) سورة السجدة ٥

(١) سورة المعارج ٤

(٣) سورة الحج ٤٧

فإن قلت : فعلى هذا كم تكون مدة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من
سنى الآخرة ؟

قلت : يكون ما يرتفع من ضرب أحد المضروبين فى الآخر ، وهو ألفا ألف ألف ،
ثلاث لفظات ، الأولى منهنّ مثناة ، ومائة ألف ألف لفظتان ، وستون ألف ألف سنة لفظتان
أيضا من سنى الدنيا . ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيما جدا علم أنّ
أذهان السامعين لا تحتمله ، فلذلك أبهم القول عليهم ، وقال : « لا يدرك من سنى
الدنيا أم من سنى الآخرة » .

فإن قلت : فإذا كنتم قد رجّحتم قول من يقول : إنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة ،
فكم يكون عمرها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سنى الآخرة ؟ لأنه لا يؤمن
أن يكون أراد ذلك إذا كانت السنة عنده عبارة عن مدة غير هذه المدة التى قد اصطلح
عليها الناس ؟

قلت : يكون ما يرتفع من ضرب خمسين ألفا فى ثلثمائة وستين ألف سنة من سنى الدنيا
ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف سنة من سنى الدنيا ثلاث لفظات ، وهذا القول
قريب من القول المحكى عن الهند .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه روايات كثيرة بأسانيد أوردها عن
جماعة من الصحابة أنّ إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض ، وكان من قبيلة من
الملائكة يقال لهم الجنّ ، وإنما سُموا الجنّ لأنهم كانوا خزّان الجنان ، وكان إبليس
رئيسهم ومقدّمهم . وكان أصل خلقهم من نار السموم ، وكان اسمه الحارث ، قال :
وقد روى أنّ الجنّ كانت فى الأرض ، وأنهم أفسدوا فيها ، فبعث الله إليهم إبليس فى
جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار ، ثم تكبر فى نفسه ، ورأى أنه قد
صنع شيئا عظيما لم يصنعه غيره . قال : وكان شديد الاجتهاد فى العبادة .

وقيل : كان اسمه عزازيل ، وأن الله تعالى جعله حَكماً وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم ، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه في سكان الأرض وقضائه بينهم ، فانطوى على المعصية حتى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان .
قلت : ولا ينبغي أن نصدق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ما ورد في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو في السنة ، أو نقل عن مجرب الرجوع إلى قوله ، وكلّ ما عدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق ، والباب مفتوح ، فليقل كلُّ أحدٍ في أمثال هذه القصص ما شاء .

واعلم أن كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل يطابق مذهب أصحابنا في أن الجنة لا يدخلها ذو معصية ، ألا تسمع قوله : « فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته كلاً ، ما كان الله ليُدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً ، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد . »
فإن قلت : أليس من قولكم إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة ! فهذا صاحب معصية وقد حكمت له بالجنة ؟

قلت : إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص .
فإن قلت إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته » ، ولم يقل : « بالمعصية » المطلقة ؛ والمرجئة لا تخالف في أن مَنْ وافي القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنة .

قلت : كل معصية كبيرة فهي مثل معصيته ، ولم يكن إخراج من الجنة لأنه كافر ، بل لأنه عاصٍ مخالف للأمر ، ألا ترى أنه قال سبحانه : ﴿ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا ﴾ ^(١) ، فعُدل إخراج من الجنة بتكبره لا بكفره .

فإن قلت : هذا مناقض لما قدّمت في شرح الفصل الأول .

قلت : كلاً ، لأنى فى الفصل الأوّل علّلت استحقاقه اسم الكفر بأمر زائد على المعصية المطلقة ، وهو فساد اعتقاده ، ولم أجعل ذلك علّة فى خروجه من الجنة ، وهاهنا علّلت خروجه من الجنّة بنفس المعصية ، فلا تناقض .

فإن قلت : ما معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام : « ما كان الله ليُدخل الجنّة بشراً بأمرٍ أُخرج به منها ملكاً » ؟ وهل يظنّ أحدٌ أو يقول : إنّ الله تعالى يُدخِلُ الجنّة أحداً من البشر بالأمر الذى أُخرج به هاهنا إبليس ! كلاً ، هذا مالا يقوله أحد ، وإنما الذى يقوله المرجئة : إنّه يدخِلُ الجنّة مَنْ قد عصى وخالف الأمر - كما خالف الأمر إبليس - برحمته وعفوه ، وكما يشاء ، لأنّه يدخِلُه الجنّة بالمعصية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى نفى دخول أحد الجنّة بالمعصية لأنّ الباء للسببية ؟

قلت الباء : هاهنا ليست للسببية كما يتوهمه هذا المعترض ؛ بل هى كالباء فى قولهم : خرج زيد بثيابه ، ودخل زيد بسلاحه ، أى خرج لابساً ، ودخل متسلحاً ، أى بصحبه الثياب وبصحبه السلاح ، فكذلك قوله عليه السلام : « بأمرٍ أُخرج به منها ملكاً » ، معناه أنّ الله تعالى لا يدخِلُ الجنّة بشراً بصحبه أمرٍ أُخرج الله به ملكاً منها .

الأضلُّ :

فاحذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عَدُوَّ اللَّهِ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ بِدَائِهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِبِدَائِهِ ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِبُخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ ، فَلَمَعَمْرَى لَقَدْ فَوْقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) ، قَدْفَا بَغِيْبٍ بَعِيدٍ ، وَرَجَمَا بِظَنِّ

(١) سورة الحجر : ٣٩

غَيْرِ مُصِيبٍ؛ صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاهُ الْحَمِيَّةِ ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ ، وَفُرْسَانُ الْكِبَرِ وَالْبَاهِلِيَّةِ ،
 حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَائِحَةُ مِنْكُمْ ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ ، فَجَمَعَتِ
 الْحَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ ، اسْتَفْجَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ
 نَحْوَكُمْ ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذَّلِّ ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ
 الْجِرَاحَةِ ، طَعَنًا فِي عُيُونِكُمْ ، وَحَزْرًا فِي حُلُوقِكُمْ ، وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ ، وَقَصْدًا
 لِمَقَاتِلِكُمْ ، وَسَوْفًا بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ ، إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ أَكْثَرُكُمْ فِي دِينِكُمْ
 حَرْجًا ، وَأَوْزَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا ، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ ،
 وَعَلَيْهِمْ مُتَالِبِينَ .

فاجعلوا عليه حدَّكم وله جدَّكم . فلعمرُ الله لقد فخرَ على أضيكم ، ووقعَ
 في حسبيكم ، ودفعَ في نسيكم ، وأجلبَ بحيلةِ عليكم ؛ وقصدَ برَجَلِهِ سَبِيلَكُمْ .
 يفتنسونكم بكلِّ مكانٍ ، ويضربون منكم كلَّ بنانٍ ، لا تمتنعون بحيلةٍ ، ولا
 تدفعون بعزيمةٍ ، في حومةِ ذلِّ ، وحلقةِ ضيقٍ ، وعرضةِ موتٍ ، وجولةِ بلاءٍ .

فأطفئوا ما كمنَ في قلوبكم من نيرانِ العصبيةِ ، وأحقادِ الجاهليةِ ، فإنَّ تلكَ
 الحميةُ تكونُ في المسلمِ من خطراتِ الشيطانِ ونحواته ، ونزغاته ونفثاته ، واعتمدوا
 وضعَ التدلُّلِ على رؤوسكم ، وإلقاءِ التعرُّزِ تحتَ أقدامكم ، وخلعَ التكبُّرِ من
 أعناقكم ، واتخذوا التواضعَ مسلحةً بينكم وبين عدوكم إبليسَ وجنوده ؛
 فإنَّ له من كلِّ أمةٍ جنوداً وأعواناً ، ورجلاً وفرساناً ؛ ولا تكونوا كالمتكبرِ
 على ابنِ أمِّه من غيرِ ما فضلَ جملةُ الله فيه ، سوى ما ألحقتِ العظمةُ بنفسه من
 عداوةِ الحسبِ ، وقدحتِ الحميةُ في قلبه من نارِ الغضبِ ، ونفخَ الشيطانُ في أنفه
 من ريحِ الكِبَرِ الَّذِي أعقبه اللهُ به الندامةَ ، والرَّزْمَ آتامَ القاتلينَ إلى يومِ القيامةِ .

الشرح :

موضع « أن يُعديكم » نصب على البدل من « عدو الله » . وقال الراوندى :
يجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، وهذا ليس بصحيح لأن « حذر » لا يتعدى إلى المفعولين ،
والعدوى : ما يُعدي من جرب أو غيره ، أعدى فلان فلانا من خلقه أو من عنته ، وهو
مجاوزته من صاحبه إلى غيره ، وفي الحديث : « لا عدوى في الإسلام » .

فإن قلت : فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد أبطل أمر العدوى ، فكيف قال
أمير المؤمنين : « فاحذروه أن يُعديكم » ؟

قلت : إن النبي صلى الله عليه وآله أبطل ما كانت العرب تزعمه من عدوى الجرب
في الإبل وغيرها ، وأمير المؤمنين عليه السلام حذر المكلفين من أن يتعلموا من إبليس
الكبر والحمية ، وشبه تعلمهم ذلك منه بالعدوى لاشتراك الأمرين في الانتقال من أحد
الشخصين إلى الآخر .

قوله عليه السلام : « يستفزكم » أى يستخفكم ، وهو من أفضأ القرآن :
﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾^(١) أى أزعجه واستخفه وأطرب قلبه . والخيل :
الخيالة ، ومنه الحديث : « يا خيَلِ الله اركبى » .

والرَّجُل : اسم جمع لراجل كركب اسم جمع لراكب ، وصحَّب اسم جمع لصاحب
وهذه أيضا من أفضأ القرآن العزيز : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾^(٢) وقرئ
﴿ وَرَجْلِكَ ﴾^(٣) بكسر الجيم على أن « فعلا » بالكسر بمعنى فاعل نحو تعب وتعب ،

(٢) سورة الإسراء ٦٤

(١) سورة الإسراء ٦٤

(٣) هى قراءة حفص ؛ وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ٢٨٨

ومعناه ، وقد تضمّ الجيم أيضا ، فيكون مثل قولك رجل حدّث وحدّث
ونَدِسَ ونَدُسَ .

فإن قلت : فهل لإبليس خيل تركبها جنده ؟

قلت : يجوز أن يكون ذلك ، وقد فسره قوم بهذا . والصحيح أنه كلام خرج مخرج
المثل ، شبهت حاله في تسلطه على بني آدم بمن يُغير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم .
وقيل : بصوتك ، أى بدعائك إلى القبيح . وخيله ورجله : كل ما شراك من أهل الفساد
من بني آدم .

قوله : « وفوتت السهم » جعلت له فوقاً ، وهو موضع الوتر ، وهذا كناية عن
الاستعداد ، ولا يجوز أن يفسر قوله : « فقد فوتت لكم سهم الوعيد » بأنه وضع الفوق
في الوتر ليرمى به ، لأنّ ذلك لا يقال فيه قد فوتت ، بل يقال : أفقت السهم وأوفقته أيضا ،
ولا يقال : أفوقته ، وهو من النوادر .

وقوله : « وأغرق إليكم بالنزع » ، أى استوفى مدّ القوس وبالغ في تزعمها ليكون
مرماها أبعد ، ووقع سهامه أشدّ .

قوله : « ورماكم من مكان قريب » ، لأنه كما جاء في الحديث : « يجرى من ابن
آدم مجرى الدم ، ويخالط القلب » ، ولا شيء أقرب من ذلك .

والباء في قوله : « بما أغويتني » متعلّق بفعل محذوف تقديره : أجازيك بما أغويتني
تزييني لهم القبيح ، « ما » على هذا مصدرية أى أجازيك ياغوائك لى تزييني لهم القبيح ،
محذوف المفعول . ويجوز أن يكون الباء قسماً كأنه أقسم ياغوائه إياه ليزيننّ لهم .

فإن قلت : وأى معنى في أن يقسم ياغوائه ؟ وهل هذا مما يقسم به ؟

قلت : نعم ، لأنه ليس إغواء الله تعالى إياه خلق النعم والضلال في قلبه ، بل تكليفه

إِيَّاهُ السَّجُودَ الَّذِي وَقَعَ الْعَيَّ عِنْدَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، لَا مِنْ اللَّهِ ، فَصَارَ حَيْثُ وَقَعَ عِنْدَهُ ، كَأَنَّهُ
مَوْجِبٌ عَنْهُ ، فَنَسَبَ إِلَى الْبَارِي ، وَالتَّكْلِيفُ تَعْرِيفٌ لِلثَّوَابِ وَلِذَّةِ الْأَبَدِ ، فَكَانَ جَدِيرًا أَنْ
يُقَسَمَ بِهِ ، وَقَدْ أُقْسِمَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَقَالَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) ، فَأُقْسِمُ
بِالْعِزَّةِ ، وَهَاهُنَا أُقْسِمُ بِالْأَمْرِ وَالتَّكْلِيفِ . وَيَجُوزُ فِيهِ وَجْهُ ثَالِثٌ ، وَهُوَ أَلَّا تَكُونَ الْبَاءُ
قَسَمًا ، وَيَقْدَرُ قَسَمٌ مَحْذُوفٌ ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى : بِسَبَبِ مَا كَلَّفْتَنِي فَأَفْضَى إِلَى غَوَايَتِي ،
أُقْسِمُ لِأَفْعَلَنْ بِهِمْ نَحْوَ مَا فَعَلْتَ بِي ، وَهُوَ أَنْ أُزَيِّنَ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ الَّتِي تَكُونُ
سَبَبًا هَلَاكِهِمْ .

فَإِنْ قُلْتَ : لَيْسَ هَذَا نَحْوَ مَا فَعَلَهُ الْبَارِي بِهِ ، لِأَنَّ الْبَارِي أَمَرَهُ بِالْحَسَنِ فَأَبَاهُ ، وَعَدَّلَ
عَنْهُ إِلَى الْقَبِيحِ ، وَالشَّيْطَانُ لَا يَأْمُرُنَا بِالْحَسَنِ فَفَكَرَهُهُ وَنَعَدَلَ عَنْهُ إِلَى الْقَبِيحِ ، فَكَيْفَ
يَكُونُ ذَلِكَ نَحْوَ وَاقِعَتِهِ مَعَ الْبَارِي !

قُلْتَ : الْمَشَابَهَةُ بَيْنَ الْوَاقِعَتَيْنِ فِي أَنْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَقَعُ عِنْدَهَا الْمَعْصِيَةُ ، لَا عَلَى
وَجْهِ الْإِجْبَارِ وَالْقَسْرِ ، بَلْ عَلَى قَصْدِ الْاِخْتِيَارِ ، لِأَنَّ مَعْصِيَةَ إِبْلِيسَ كَانَتْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَوَقَعَتْ
عِنْدَ الْأَمْرِ بِالسَّجُودِ اِخْتِيَارًا مِنْهُ لَا فَعْلًا مِنَ الْبَارِي ، وَمَعْصِيَتُنَا نَحْنُ عِنْدَ التَّزْيِينِ وَالْوَسْوَسَةِ
تَقَعُ اِخْتِيَارًا مِنْنَا لَا اضْطِرَارًا يَضْطَرُّنَا إِبْلِيسَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا تَشَابَهَتِ الصُّورَتَانِ فِي هَذَا الْمَعْنَى
حَسُنَ قَوْلُهُ : « بِمَا فَعَلْتَ بِي كَذَا لِأَفْعَلَنْ بِهِمْ نَحْوَهُ » .

فَإِنْ قُلْتَ : مَا مَعْنَى قَوْلِهِ : « فِي الْأَرْضِ » ؟ وَمِنْ أَيْنَ كَانَ يَعْلَمُ إِبْلِيسُ أَنَّ آدَمَ سَيَصِيرُ لَهُ
ذَرِيَّةٌ فِي الْأَرْضِ ؟

قُلْتَ : أَمَا عَلِمَهُ بِذَلِكَ فَمِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ وَلِلْمَلَائِكَةِ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً ﴾ ^(٢) ، أَمَا الْفَلْظَةُ « الْأَرْضُ » ، فَالْمُرَادُ بِهَا هَاهُنَا الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ التَّكْلِيفِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾^(١) ، ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملاذ وهوى الأنفس .

قوله عليه السلام : « قَذْفًا بَغِيْبٍ بَعِيدٍ » ، أى قال إبليس هذا القول قَذْفًا بَغِيْبٍ بَعِيدٍ ، والعرب تقول للشئ المتوهم على بعد : هَذَا قَذْفٌ بَغِيْبٍ بَعِيدٍ ، والقذفُ فى الأصل : رَمَى الحِجْرَ وَأَشْبَاهَهُ ، والغيبُ الأمرُ الغائبُ ، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية ، قال الله تعالى فى كفار قريش : ﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾^(٢) ، أى يقولون : هذا سحر : أو هذا من تعليم أهل الكتاب ، أو هذه كهانة ، وغير ذلك مما كانوا يرمونه عليه الصلاة والسلام به . وانتصب « قَذْفًا » على المصدر الواقع موقع الحال ، وكذلك « رَجْمًا » . وقال الراوندى : انتصبا لأنهما مفعول له ، وليس بصحيح ، لأن المفعول له ما يكون عذراً وعلّة لوقوع الفعل ، وإبليس ما قال ذلك الكلام لأجل القذف والرجم ، فلا يكون مفعولاً له .

فإن قلت : كيف قال عليه السلام : « قَذْفًا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » ، وَرَجْمًا بظنٍ غير مصيب » ، وقد صحّ ماتوهمه وأصاب فى ظنه ، فإن إغواؤه وتزيينه تمّ على الناس كلّهم إلا على المخلصين .

قلت : أما أولاً فقد روى : « وَرَجْمًا بظنٍ مصيبٍ » بحذف « غير » ، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَلِيْسٍ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا ﴾^(٣) وأما ثانياً على الرواية التى هى أشهر فنقول : أما قَذْفًا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، فإنه قال ما قال على سبيل التوهم والحسبان لأمرٍ مستبعد لا يعلم صحته ولا يظنها ، وليس وقوع ما وقع من المعاصى وصحة ماتوهمه بمخرج لكون قوله الأول : « قَذْفًا بَغِيْبٍ بَعِيدٍ » ، وأما « رَجْمًا بظنٍ غير مصيب » ،

(٢) سورة سبأ ٥٣

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٣) سورة سبأ ٢٠

فيجب أن يحمل قوله : ﴿ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ^(١) ﴾ على الغواية بمعنى الشرك أو الكفر ؛ ويكون الاستثناء وهو قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ^(١) ﴾ معناه : إلا المعصومين من كل معصية ، وهذا ظنٌ غير مصيب لأنه ما أغوى كل البشر الغواية التي هي الكفر والشرك إلا المعصومين العصمة المطلقة ، بل أغوى بعضهم كذلك ، وبعضهم بأن زين له الفسق دون الكفر ، فيكون ظنه أنه قادر على إغواء البشر كافة بمعنى الضلال بالكفر ظناً غير مصيب .

قوله : « صدقه به أبناء الحمية » ، موضع « صدقه » جر لأنه صفة « ظن » ، وقد روى : « صدقه أبناء الحمية » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومن رواه بالجار والمجرور كان معناه : صدقه في ذلك الظن أبناء الحمية ، فأقام الباء مقام « في » .

قوله : « حتى إذا انقادت له الجامحة منكم » ، أي الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة . قوله « فنجمت فيه الحال » أي ظهرت ، وقد روى : « فنجمت الحال من السرّ الخفي » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومن رواه بالجار والمجرور فالمعنى : فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجلاء .

واستفحل سلطانه : قوى واشتدّ وصار فحلاً ، واستفحل جواب قوله : « حتى إذا » .
دلف بجنوده : تقدّم بهم .

والولجات : جمع ولجة بالتحريك ، وهي موضع ، أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره .

وأحموكم : أدخلوكم . والورطة : الهلكة .

قوله : « وأوطأوكم إثمخ الجراحة » ، أي جعلوكم واطئين لذلك ، والإثمخان : مصدر أثمخ في القتل ، أي أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه ، وصار كالشيء الثخين ، ومعنى

إيطاء الشيطان ببني آدم ذلك إلقاءه إيّاهم فيه ، وتوريطهم وحمله لهم عليه . فالإنحان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ ؛ لا كما زعم الراونديّ أنه انتصب بحذف حرف الخفض .

قوله عليه السلام : « طَعَنَّا فِي عِيُونِكُمْ » ، انتصب « طعنا » على المصدر ، وفعله محذوف ، أى فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم في عيونكم طعنا ، فأما من روى : « وأوطأوكم لإنحان الجراحة » باللام فإنه يجعل « طعنا » منصوبا على أنه مفعول به ، أى أوطأوكم طعنا وحزّاء ، كقولك : أوطأته ناراً ، وأوطأته عَشْوَةً ، ويكون « لإنحان الجراحة » مفعولاً له ، أى أوطأوكم الطعن ليثنخنوا جراحكم . وينبغي أن يكون « قصداً » و « سوقاً » خالصين للمصدرية ، لأنه يبعد أن يكون مفعولاً به .

واعلم أنه لما ذكر الطعنَ نسبة إلى العيون ، ولما ذكر الحزّ ، وهو الذبح نسبة إلى الحلق ، ولما ذكر الدقّ ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر ، وهذا من صناعة الخطابة التي علّمها الله إيّاها بلا تعليم ، وتعلّمها الناس كلهم بعده منه .

والخزائم : جمع خزيمة ، وهي حلقة من شعر تجعل في وترّة أنف البعير فيشدّ فيها الزمام .

وتقول : قد ورى الزند ، أى خرجت ناره ، وهذا الزند أوزى من هذا ، أى أكثر إخراجاً للنار . يقول : فأصبح الشيطان أضراً عليكم وأفسد لحالك من أعدائكم الذين أصبحتم مناصبين لهم ، أى معادين ، وعليهم متألّبين ، أى مجتمعين .

فإن قلت : أمّا أعظم في الدين حرجاً فمعلوم ، فأى معنى لقوله : « وأورى في دنياكم قدحاً » ، وهل يُفسد إبليسُ أمرَ الدنيا كما يفسد أمر الدين ؟

قلت : نعم ، لأن أكثر القبائح الدينية مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيوية ، ألا ترى أنه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسد حال السارق من جهة الدين وحال المسروق منه من جهة الدنيا ،

وكذلك القول في الغضب والقَتْل وما يحدث من مضارّ الشرور الدنيويّة من اختلاط الأنساب واشتباه النّسل، وما يتولّد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنها من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقدقاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهها .

قوله عليه السلام : « فاجعلوا عليه حدّكم » ، أي شبّاتكم وبأسكم .

وله حدّكم : من جدّدت في الأمر جدّاً ، أي اجتهدت فيه وبالغت .

ثم ذكر أنّه فنّخر على أصلِ بني آدم ، يعني أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له ، وقال : « أنا خير منه » .

ووقع في حسبيكم : أي عاب حسبيكم وهو الطين ، فقال : إنّ النار أفضل منه .
ودفع في نسبكم مثله .

وأجلب بخيله عليكم ، أي جمع خيالاته وفُرسانه وآلبها .

ويقتنصونكم : يتصيدونكم . والبّنان : أطراف الأصابع ، وهو جمع ، واحدته بِنانة ، ويجمع في القلة على بِنانات ، ويقال : بنان مخضّب ، لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحدته إلا الهاء فإنه يذكر ويوحّد .

والحومة : معظم الماء والحرب وغيرها ، وموضع هذا الجار والمجرور نصب على الحال ، أي يقتنصونكم في حومة ذلّ .

والجولة : الموضع الذي تجول فيه .

وكمّن في قلوبكم : استتر ، ومنه الكمين في الحرب .

ونزغات الشيطان : وساوسه التي يفسد بها . ونفثاته مثله .

قوله : « واعتمدوا وضع التذلل على رءوسكم ، وإلقاء التعرّز تحت أقدامكم » كلامٌ

شريف جليل المحلّ ، وكذلك قوله عليه السلام : « واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين

عدوّكم إبليس وجنوده » ، والمسلحة : خيلٌ معدّة للحماية والدفاع .

ثم نهام أن يكونوا كقبايل الذرى حسد أخاه هايبيل فقتله ، وهما أخوان لأب وأم ، وإنما قال : « ابن أمه » ، فذكر الأم دون الأب ، لأن الأخوين من الأم أشد حنواً ومحبةً والتصاقاً من الأخوين من الأب ، لأن الأم هي ذات الحضانه والتربية .

وقوله : « من غير ما فضل » ؛ ماها هنا زائدة ، وتعطى معنى التأكيد ؛ نهام عليه السلام أن يحسدوا النعم ، وأن يبنغوا ويفسدوا فى الأرض ، فإن آدم لما أمر ولده بالقربان قرب قبايل شرّ ماله - وكان كافراً - وقرب هايبيل خير ماله - وكان مؤمناً - فتقبل الله تعالى من هايبيل ، وأهبط من السماء ناراً فأكلته ، قالوا : لأنه لم يكن فى الأرض حينئذ فقير يصل القربان إليه ، فحسده قبايل - وكان أكبر منه سنّاً - فقال : لأقتلنك ، قال : هايبيل إنما يتقبل الله من المتقين ، أى بذنبك وجرمك كانت عدم قبول قربانك لانسلاخك من التقوى ، فقتله فأصبح نادماً ، لاندم التوبة بل ندم الخيرة ورقة الطبع البشرى ، ولأنه تعب فى حمله كما ورد فى التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب .

قوله عليه السلام : « وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة » ، لأنه كان ابتداءً بالقتل ، ومن سنّ سنة شرّ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، كما أن من سنّ سنة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أن الروايات اختلفت فى هذه الواقعة ، فروى قوم أن الرّجلين كانا من بنى إسرائيل وليسا من ولد آدم لصلبه ، والأكثرون خالفوا فى ذلك .

ثم اختلف الأكثرون ، فروى قوم أن القربان من قبايل وهايبيل كان ابتداءً ، والأكثرون قالوا : بل أراد آدم عليه السلام أن يزوّج هايبيل أخت قبايل توأمته ، ويزوّج

قاييل أخت هاييل تويمته ، فأبي قاييل ، لأن تويمته كانت أحسن ، فأمرها أبوها بالقربان ، فمن تُقَبِّلُ قربانه نكح الحسناء . فتقَبِّلُ قربان هاييل ، فقتله أخوه كما ورد في الكتاب العزيز .

وروى الطبري مرفوعاً أنه صلى الله عليه وآله قال : « مامن نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأول كِفْلٌ منها ، وذلك بأنه أول من سنَّ القتل » ، وهذا يشيد قول أمير المؤمنين عليه السلام .

الأضل :

أَلَا وَقَدْ أَمَعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، مُصَارِحَةً لِلَّهِ بِالْمُنَاصِبَةِ ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَحَارَبَةِ . فَاللَّهُ فِي كِبَرِ أَلْحَمِيَّةِ ، وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ! فَإِنَّهُ مَلَأَ قِحُ الشَّنَانِ ، وَمَنَافِحُ الشَّيْطَانِ ؛ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ ، حَتَّى أَغْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ ، ذُلًّا عَنْ سِيَاقِهِ ، سُلْسًا فِي قِيَادِهِ ؛ أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ ؛ وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ ؛ وَكَبْرًا تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ .

أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكِبَرَاتِكُمْ ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ ، وَتَرَفَعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ، وَأَلْفَوْا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ ؛ مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ ، وَمُعَالَبَةً لِآلَائِهِ ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ ، وَسُيُوفُ اعْتِرَافِ الْجَاهِلِيَّةِ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أُضْدَادًا ، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا ،

وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدْرَهُمْ ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ ،
وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ ، وَهُمْ آسَاسُ الْفُسُوقِ ، وَأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ ؛ اتَّخَذَهُمْ
إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ ، وَجُنُودًا بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ،
اسْتِرَاقًا لِعُقُوبِكُمْ ، وَدُخُولًا فِي عُيُونِكُمْ ، وَتَفَنًّا فِي أَسْمَاعِكُمْ ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبِيلِهِ ،
وَمَوْطِيءَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخِذَ يَدِهِ .

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّةَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ ،
وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ ، وَاتَّقُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ ، وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ
مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ ، كَمَا تَسْتَعِيدُونَ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ .

الشيخ :

أمعنتم في البغي : بالغتم فيه ، من أمعن في الأرض ؛ أى ذهب فيها بعيدا . ومصارحة الله ،
أى مكاشفة .

والمناصبة : المعادة .

وملاقح الشنآن : قال الراوندى : الملاقح هى الفحول التى تلتحق ؛ وليس بصحيح ،
نصّ الجوهري على أنّ الوجه لواقح كما جاء فى القرآن : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾^(١) .

وقال : هو من التوارد ، لأنّ الماضى رباعى . والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع مَلْقَح
وهو المصدر ، من لَقَّحت كضربت مضربا وشربت مشربا .

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها ؛ وهو البغض .

ومنافخ الشيطان : جمع مَنْفَخ ، وهو مصدر أيضا ، من نفخ ، ونَفَخَ الشيطان ونَفَثَهُ

واحد ، وهو وسوسته وتسويله ، ويقال للمتطاول إلى ما ليس له : قد نفخ الشيطان في أنفه .
وفي كلامه عليه السلام ، يقوله لطلحة وهو صريع ، وقد وقف عليه ، وأخذ سيفه : « سيفٌ
طلما جلى به الكُرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الشيطان نفخ في أنفه ! » .
قوله : وأعنعوا : أسرعوا ، وفرس مِعْنَق ، والسَيْر العَنَق ، قال الراجز :

يَأْنَقُ سِيرِي عَنَقًا فَسِيحًا إِلَى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحًا

والحنادس : الظلم .

والمهاوى : جمع مَهْوَاة بالفتح ؛ وهى الهُوَّة يتردى الصيد فيها ، وقدتهاوى الصَّيْدُ فى
المهواة ، إذا سقط بعضه فى أثر بعض .

قوله عليه السلام : « ذللا عن سياقه » ، انتصب على الحال ، جمع ذُلُول ، وهو السهل
المقادة ، وهو حال من الضمير فى « أعنعوا » ، أى أسرعوا متقادين لسوقه إياهم .

وسُلْسَا : جمع سَلَس ، وهو السَّهْل أيضا ، وإنما قسم « ذللا » و « سلسا » بين « سياقه »
و « قياده » لأنَّ المستعمل فى كلامهم : قَدَتُ الفرس فوجدته سَلِسًا أو صعبا ،
ولا يستحسنون : سقته فوجدته سلسا أو صعبا ، وإنما المستحسن عندهم : سقته فوجدته ذُلُولًا
أو سَمُوسًا .

قوله عليه السلام : « أمراً » منصوب بتقدير فعل ، أى اعتمدوا أمراً ، « وكبرا » ،
معطوف عليه ، أو ينصب « كبرا » على المصدر بأن يكون اسما واقعا موقعه ، كالعطاء
موضع الإعطاء .

وقال الراوندى : « أمرا » منصوب هاهنا لأنه مفعول به . وناصبه المصدر الذى هو سياقه
وقياده ، تقول : سقطت سياقا وقادت قيادا ، وهذا غير صحيح لأنَّ مفعول هذين المصدرين
محدوف تقديره : عن سياقه إيتامه وقياده إيتامه ؛ هذا هو معنى الكلام ، ولو فرضنا مفعول

أحد هذين المصدرين « أمرا » لفسد معنى الكلام. وقال الراوندى أيضا: ويجوز أن يكون « أمرا » حالا. وهذا أيضا ليس بشيء، لأنّ الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول، و« أمرا » ليس كذلك.

قوله عليه السلام: « تشابهت القلوب فيه »، أى أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبية ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها.

وتتابعت القرون عليه: جمع قرّن بالفتح؛ وهى الأمة من الناس. وكبيرا تضايقت الصدور به أى كبر فى الصدور حتى امتلأت به وضاحت عنه لكثرة. ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (١).

وقد كان أمرى فى الفصل الأوّل بالتواضع لله، ونهى هاهنا عن التواضع للرؤساء، وقد جاء فى الخبر المرفوع: « ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء! وأحسن منه تكبر الفقراء على الأغنياء ».

الذين تكبروا عن حسبهم، أى جهلوا أنفسهم، ولم يفكروا فى أصلهم من النطف المستقدرة من الطين المتين، قال الشاعر:

مابال من أوّله نطفةٌ وجيفةٌ آخره يفخرُ
بصبح لا يملك تقديمَ ما يرجو ولا تأخير ما يحذرُ

قوله عليه السلام: « وألقوا الهجينة على ربهم » روى « الهجينة » على « فعيلة »، كالطبيعة والخليقة، وروى « الهجينة » على « فعلة »، كالمضغة واللّمة، والمراد بهما الاستهجان، من قولك: هو يهجن كذا أى يقبّحه، ويستهنه أى يستقبّحه. أى نسبوا ما فى الأنساب

من القبيح بزعمهم إلى ربهم ، مثل أن يقولوا للرجل : أنت عجمي ونحن عرب ، فإن هذا ليس إلى الإنسان ، بل هو إلى الله تعالى ، فأى ذنب له فيه !
قوله : « وجاحدوا الله » ، أى كبروه وأنكروا صنعه إليهم .
وآساس بالمد : جمع آساس .

واعتراء الجاهلية : قولهم : يالفلان ! وسمع أبي بن كعب رجلاً يقول : يالفلان ! فقال :
عَضَّضْتَ بِهِنِ أَيْبِكَ ! فقيل له : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ مَا كُنْتَ فَحَاشَا ، قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ نَعَزَّى بَعْرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضَّوهُ بِهِنِ أَيْبِهِ وَلَا تَكُنُوا » .
قوله : « فلا تكونوا لنعمة الله أصدادا » ؛ لأنّ البغى والكبر يقتضيان زوال النعمة
وتبدلها بالنقمة .

قوله : « ولا تطيعوا الأديعاء » ، مراده هاهنا بالأديعاء ، الذين ينتحلون الإسلام
ويبطنون النفاق .

ثم وصفهم فقال : « الذين شربتم بصفوكم كدرهم » ، أى شربتم كدرهم مستبدلين
ذلك بصفوكم . ويروى : « الذين ضربتم » ، أى مزجتم . ويروى : « شربتم » أى
بتم واستبدلتم .

والأحلاس : جمع حلس ، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له ، فقيل
لكل ملازم أمر : هو حلس ذلك الأمر .

والترجمان ، بفتح التاء : هو الذى يفسر لسانا بلسان غيره ، وقد نُصِمَ التاء . ويروى :
« وثأفى أسمعكم » من نث الحديث ، أى أفشاه .

الأضل :

فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبَرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَلَكِنَّهُ
سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضِعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ،
وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ؛
قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَأَمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَافِ، وَتَحَصَّنَهُمْ
بِالْمَكَارِهِ .

فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَالِدِ، جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالِاخْتِيَارِ
فِي مَوَاضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتَارِ؛ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ
مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

الْبِنُخ :

التكابر: التعاضل، والغرض مقابلة لفظة « التواضع » لتكون الألفاظ مزدوجة .
وعفرو وجهه : ألقوه بالعفر .

وخفضوا أجنحتهم : الأثوا جانبهم .

والمخمصة : الجوع . والمجهدة : المشقة ، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال
لمفعل ومفعلة بمعنى المصدر ، إذا تصفحت كلامه عرفت ذلك .

وتحصنهم ، أي طهرهم ، وروى « منحضهم » بالخاء والضاد المعجمة ، أي حرّكهم وزلزلهم .

(١) سورة المؤمنون ٥٥ ، ٥٦ .

ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالا وولدا ؛ فإن ذلك
جهل بمواقع الفتنة والاختبار .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ ... ﴾ ، الآية دليل على ما قاله عليه السلام ، والأدلة العقلية
أيضا دلّت على أن كثيرا من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى ، للألطف
والمصالح . وما الموصولة في الآية يعود إليها محذوف ومقدر لا بد منه ؛ وإلا كان الكلام
غير منتظم ، ولا غير مرتبط ببعضه ببعض ، وتقديره : نسارع لهم به في الخيرات .

الأفضل :

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ بِأَوْلِيَانِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ
فِي أَعْيُنِهِمْ ؛ وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا - عَلَى
فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصَى ، فَشَرَطَا لَهُ - إِنْ أَسْلَمَ - بَقَاءَ مُلْكِهِ ،
وَدَوَامَ عِزِّهِ ؛ فَقَالَ : أَلَا تَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ ؛
وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ ، فَهَلَّا أَتَيْتُمَا أُسَاوِرَةَ مِنْ ذَهَبٍ ؛ إِعْظَامًا
لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ !

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذَّهَبَانِ ،
وَمَعَادِنَ الْعَمِيَانِ ، وَمَغَارِ مِنَ الْجِنَانِ ؛ وَأَنْ يَحْشَرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ، وَوُحُوشَ الْأَرْضِينَ ؛
لَفَعَلَ ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ ، وَأَضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ ، وَلَمَّا وَجَبَ
لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُبْتَلَيْنِ ؛ وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا لَزِمَتْ
الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أَوْلَى قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ ؛ وَضَعَفَةً فِيمَا

تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قِنَاعَةٍ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنَى ، وَخَصَاصَةٌ تَمَلُّ
الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَدَى .

الشيخ :

مدارع الصوف : جمع مِدْرَعَة ، بكسر الميم ، وهى كالكساء ، وتدرع الرجل وتمدرع
إذا لبسها . والعصى : جمع عصا .

وتقول : هذا سوار المرأة ، والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساور ، وقرئ ﴿ فَلَوْلَا أَلْتَقَى
عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾^(١) . وقد يكون جمع أساور ، قال سبحانه : ﴿ يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾^(٢) ، قال أبو عمرو بن العلاء : أساور هاهنا : جمع أسوار
وهو السوار .

والذَّهَبَانُ بكسر الذال : جمع ذهب ، كغَرَبَ لذكر الحُبَارَى وخِرْبَان . والعَيَان
الذهب أيضا .

قوله عليه السلام : « واضمحلَّت الأنبياء » أى تلاشت وفنيت . والأنبياء : جمع نَبَأ ،
وهو الخبر ، أى لسقط الوعد والوعيد وبطلا .

قوله عليه السلام : « ولا لُزِمَت الأسماء معانيها » ، أى مَنْ يسمَى مؤمناً أو مسلماً
حينئذ ، فإن تسميته مجاز لا حقيقة ؛ لأنه ليس بمؤمن إيماناً مِنْ فِعْلِهِ وَكَسْبِهِ ، بل يكون
ملجأً إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة .

والمبتَلِّينَ ، بفتح اللام : جمع مبتلَى ، كالمعطين والمرتضين ، جمع معطى ومرضى .
والخصاصة : الفقر .

وهذا الكلام هو ما يقوله أصحابنا بعينه في تعليل أفعال الباري سبحانه بالحكمة والمصاحبة ، وأن الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب ، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء ، ومن أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه ، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ ؛ أن موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرعون ، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفاً على بابه يلتمسان الإذن عليه ، فمكثتا سنين يغدوآن على بابه ويروحان ، لا يعلم بهما ؛ ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما - وقد كانا قالا لمن بالباب : إنا رسولا رب العالمين إلى فرعون - حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه ، فقال له : أيها الملك إن على الباب رجلاً يقول قولاً عجيباً عظيماً ، ويزعم أن له إلهاً غيرك ، قال : بياني ! قال : نعم ، قال : أدخلوه ، فدخل ويده عصاه ، ومعه هارون أخوه ، فقال : أنا رسول رب العالمين إليك ... وذكر تمام الخبر .

فإن قلت : أي خاصية في الصوف ولبسه ؟ ولم اختاره الصالحون على غيره ؟

قلت : ورد في الخبر أن أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قبيضه الله له ، وأمره أن يذبحه فياً كل لحمه ويلبس صوفه ؛ لأنه أهبط عريان من الجنة فذبحه ، وغزلت حواء صوفه ، فلبس آدم منه ثوباً ، وألبس حواء ثوباً آخر ، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفية .

الأصل :

وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَأْتَرَامُ ، وَعِزَّةٍ لَأَنْضَامُ ، وَمُلْكٍ مُتَمَدِّدًا نَحْوَهُ أَعْنَاقُ
الرِّجَالِ ، وَتُسَدُّ إِلَيْهِ عَقْدُ الرِّحَالِ ؛ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْاِعْتِبَارِ ،
وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْاِسْتِكْبَارِ ، وَلَا مَنُوعًا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ ،
فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً ، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ
يَكُونَ الْاِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ ، وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ ، وَالْخُشُوعُ لَوَجْهِهِ ، وَالْاِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ ،
وَالْاِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ ؛ أُمُورًا لَهُ خَاصَّةٌ ، لَا يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ .

الشرح :

تمدّد نحوه أعناق الرجال ، أى لعظمته ؛ أى يؤتمله المؤمنون ويرجوه الراجون ، وكل
مَنْ أَمَلَ شيئاً فقد طمّح ببصره إليه معنى لاصورة ، فكفى عن ذلك بمدّ العنق .
وتُسَدُّ إِلَيْهِ عَقْدُ الرِّحَالِ : يسافر أربابُ الرغبات إليه ، يقول : لو كان الأنبياء ملوكاً
ذوى بأس وقهر لم يمكن إيمان الخلق واثقيادهم إليهم ، لأنّ الإيمان فى نفسه واجب عقلاً ،
بل كان رهبة لهم أو رغبة فيهم ، فكانت النيات مشتركة . هذا فرض سؤال وجواب
عنه ، كأنه قال لنفسه : لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هذا التقدير لوجوبه ، ولخوف
ذلك النبى ، أو لرجاء نفع ذلك النبى صلى الله عليه وآله ؟ فقال : لأنّ النيات تكون
حينئذ مشتركة ، أى يكون المكلف قد فعل الإيمان لكلا الأمرين . وكذلك تفسير قوله :
« والحسنات مقسمة » : قال : ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعلّ إلا لكونها طاعة
له لا غير ، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار ، وأبعد لهم من الاستكبار » ؟

قلت : أي لو كان الأنبياء كالمملوك في السطوة والبطش ؛ لكان المكلف لا يشقّ عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقته عليه إذا تركه لقبحه لا لخوف السيف ، وكان بعدد المكافين عن الاستكبار والبنى لخوف السيف والتأديب أعظم من بعدهم عنهما إذا تركوها لوجه قبهما ، فكان يكون ثواب المكلف ؛ إما ساقطاً ، وإما ناقصاً .

الأصل :

وَكَلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالْاِخْتِبَارُ أَعْظَمَ ، كَانَتِ الثُّوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ ؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا ، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا ، وَأَقْلَّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدْرًا ، وَأَضْيَقِ بَطُونِ الْأُودِيَةِ قَطْرًا . بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ ، وَرِمَالٍ دَمِيئَةٍ ، وَعُيُونٍ وَشِلَّةٍ ، وَقُرَى مُنْقَطِعَةٍ ؛ لَا يَزُكُّ بِهَا خُفٌّ ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ ، ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَنْتَوُوا أَعْطَافِهِمْ نَحْوَهُ ؛ فَصَارَ مَنَابِتُهُ لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ ، وَغَايَةِ لِمُلْتَقَى رِحَالِهِمْ ، تَهْوَى إِلَيْهِ نِمَارُ الْأَفْنِدَةِ ؛ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ ، وَمَهَاوِي فِجَاجِ سَمِيقَةٍ ، وَجَزَائِرِ بَحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ ، حَتَّى يَهْزُؤَ أَمَانًا كِبَاهِمُ ذُلَّلًا ، يَهْلَلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ ، وَيَزْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، شُعْنًا غُبْرًا لَهُ ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَشَوْهُوَ بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ بِحَاسِنِ خَلْقِهِمْ ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا ، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا ، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا ، وَتَمْحِيسًا بَلِيغًا ، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ ، وَوَصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ .

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْخَرَامَ ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ ،
وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ ، حَمَّ الْأَشْجَارِ ، دَانِيَ الشَّمَارِ ، مُلْتَفَّ الْبُنَى ، مُتَّصِلَ الْقُرَى ، بَيْنَ بُرَّةٍ
سَمْرَاءَ ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ ، وَأَزْيَافٍ مُحَدِّقَةٍ ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ ، وَزُرُوعٍ نَاصِرَةٍ ، وَطُرُقٍ
عَامِرَةٍ ، لَكَانَ قَدْ صَفَرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ .

وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ لِلْحَمُولِ عَلَيْهَا ، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا ؛ مِنْ زُمُرْدَةٍ خَضْرَاءَ ،
وَيَاقُوتَةٍ سَمْرَاءَ ، وَنُورٍ وَضِيَاءَ ، تَخَفَّتْ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصَّدُورِ ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً
إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَلَنَفَى مُعْتَدِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ ،
وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ ، إِخْرَاجًا لِلتَّكْبُرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ
فِي نُفُوسِهِمْ ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ .

الشَّرْحُ :

كانت المنوبة ، أى الثواب .

وأجزل : أكثر ، والجزيل : العظيم ، وعطاء جزل وجزيل والجمع جزال ، وقد
أجزلت له من العطاء ، أى أكثرت .

وجعله للناس قياما ، أى عمادا ، وفلان قيام أهله ، أى يقيم شئونهم ، ومنه قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَوَاتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) .

وأوعرُ بقاع الأرض حبراً ، أى أصعبها ، ومكانٌ وعرٌ ، بالتسكين : صعب
المسلك أو المقام .

(١) سورة النساء .

وأقلُّ تَنَاتِقُ الدُّنْيَا مَدْرَأً؛ أصل هذه اللفظة من قولهم: «امرأة منتاق»، أى كثيرة الحبل والولادة، ويقال: ضيعة منتاق أى كثيرة الربيع، فجعل عليه السلام الضياع ذوات المدر التى تثار للحرث تَنَاتِقُ، وقال: إن مَكَّةَ أقلها صلاحاً للزرع، لأن أرضها حجرية.

والقَطْرُ: الجانب، ورمالٌ دَمِيثةٌ: سهلة، وكلما كان الرَّمْلُ أسهل؛ كان أبعد عن أن ينبت.

وعيون وشِلَّةٌ، أى قليلة الماء، والوَشَلُ، بفتح الشين: الماء القليل، ويقال: وشَل الماء وشَلاناً، أى قطر.

قوله: «لا يزكوها خَفَ»، أى لا تزيد الإبل فيها أى لا تسمن، وأخفها هاهنا هو الإبل، والخافر: الخيل والحمير، والظَّلْفُ: الشاة، أى ليس حولها مرعى يراها الغنم فتسمن.

وأن يَنْثُوا أعطافهم نحوه، أى يقصدوه ويحجوه، وعطفا الرجل: جانباه. وصار مثابة، أى يُثاب إليه ويرجع نحوه مرة بعد أخرى، وهذه من ألقاظ الكتاب العزيز^(١).

قوله عليه السلام: «لمنتجع أسفارهم»، أى لُنَجَعَتها، والنَجعة: طلب الكلاء فى الأصل، ثم سمي كل من قصد أمرا يروم النفع منه منتجعاً.

قوله: «وغاية لُمَلَقَى رحالم»، أى صار البيت هو الغاية التى هى الغرض والمقصد، وعنده تلقى الرِّحال؛ أى تحط رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السفر، لأنهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة.

(١) وهو قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

قوله : « تَهْوِي إليه ثمار الأفئدة » ، ثمرة الفؤاد : هو سويداء القلب ، ومنه قولهم للولد : هو ثمرة الفؤاد ، ومعنى « تهوى إليه » أى تنشوقه وتحن نحوه .
والمفاوز : هى جمع مفازة ، الفلاة سُمِّيَتْ مَفَازَةً ، إِمَّا لِأَنَّهَا مَهْلِكَةٌ ، من قولهم : فَوَزَ الرَّجُلُ ، أى هلك ، وإمَّا تَفَاوُلاً بِالسَّلَامَةِ وَالنُّوْزِ ، وَالرَّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ . « من مفاوز قفار » بالإضافة . وقد روى قوم : « من مفاوز » بفتح الزاء ، لأنه لا ينصرف ، ولم يضيفوا ، جعلوا « قفار » صفة .

والسحيفة : البعيدة .

والمهاوى : المسقط .

والفجاج : جمع فَجٍّ ، وهو الطريق بين الجبلين .

قوله عليه السلام : « حتى يهزوا منا كبهم » ، أى يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه ، فكفى عن السفر بهز المناكب .

وذُلًّا ، حال ، إمَّا مِنْهُمْ وَإِمَّا مِنَ الْمَنَاكِبِ ، وَوَاحِدُ الْمَنَاكِبِ ، مَنْكِبٌ بِكسر الكاف ، وهو جمع عظم العَضُدِ وَالكَتِفِ .

قوله : « ويهللون » ، يقولون : لا إله إلا الله ، وروى : « يهللون لله » أى يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها .

ويرملون ، الرَّمَلُ : السعى فوق المشى قليلا .

شُعْنَا غُبْرًا ؛ لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم ، قد نبذوا السراويل ، ورموا ثيابهم وقمصانهم الخيطة .

وشوّهوا بإعفاء السمير ، أى شبرًا رتبموا حسن صورهم ، بأن أعفوا شعورهم فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه ونبت في غيره من الأعضاء التى جرت العادة بإزالتها عنها .

والتحيص : التّطهير ، من تحّصت الذهب بالنار إذا صَفَيْتَهُ مما يشوبه ، والتحصيص
أيضا : الامتحان والاختبار . والمشاعر : معالم النُّسك .

قوله : « وسهل وقرار » ، أى فى مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقة .
وجمّ الأشجار : كثيرها . ودانى الثمار : قريبها .
وملتفّ البنى : مشتبك العمارة .

والبُرة : الواحدة من البُرّ ، وهو الحنطة .

والأرياف . جمع ريف وهو الخصب والمرعى فى الأصل ، وهو هاهنا السّواد والمزارع .
ومحدّقة : محيطّة . ومعدّقة : غزيرة ، والغدّقى : الماء الكثير .
وناضرة : ذات نضارة وروث وحسن .

قوله : « ولو كانت الأساس^(١) » ، يقول : لو كانت أساس البيت التى حمل البيت عليها
وأحجاره التى رفع بها من زمردة وياقوتة فالحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان ، لأنهما صفة
اسم كان والخبر « من زمردة » ، وروى : « بين زمردة » ، ويجوز أن تحمل لفظتى المفعول
وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت ، فيكون قائما مقام اسم الفاعل ، ويكون موضع الجار
والجرور نصباً ، ويجوز ألاّ تحملهما ذلك الضمير ، ويجعل الجار والجرور هو الساد مسدّد
الفاعل ، فيكون موضعه رفعا .

وروى : « مضارعة الشكّ » بالضاد المعجمة ، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس ،
وأصله من مضارعة القدر إذا حان إدراكها ، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيّب .
وقال الراوندى فى تفسير هذه الكلمة : من مضارعة الشك ، أى مماثلته ومشابهته ،
وهذا بعيد ، لأنه لا معنى للمائلة والمشابهة هاهنا ، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة .

قوله عليه السلام : « وكفى متعلّج الرّيب » ، أى اعتلاجه ، أى ولنفى اضطراب الشكّ
فى القلوب . وروى « يستعبدهم » و « يتعبدهم » ، والثانية أحسن .

(١) الأساس ، بالكسر : جمع أس .

والمجاهد : جمع مجاهدة ، وهي المشقة .
وأبواباً فتوحاً ، أى مفتوحة . وأسباباً ذللاً ، أى سهلة .

واعلم أن محصول هذا الفصل أنه كلما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم ، ولو أن الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلفين لما استحقّوا عليها من الثواب إلا قدرأ يسيراً ، بحسب ما يكون فيها من المشقة اليسيرة .

فإن قلت : فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام ، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه ؟

قلت : نعم هكذا روى أرباب السيرة وأصحاب التواريخ ؛ روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في " تاريخه " عن ابن عباس ، أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبطه إلى الأرض : أن لي حرماً حيال عرشي ، فانطلق فابن لي بيتاً فيه ، ثم طف به كما رأيت ملائكتي تحف بعرشي ، فهناك أستجيب دعاءك ودعاء من يحف به من ذريتك . فقال آدم : إني لست أقوى على بنائه ، ولا أهتدي إليه ، فقيض الله تعالى له ملكاً ، فانطلق به نحو مكة - وكان آدم في طريقه كلما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزل به هناك لينبئ فيه - فيقول الملك : إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكة ، فبنى البيت من خمسة جبال : طور سيناء ، وطور زيتون ، ولبنان ، والجودي ، وبنى قواعده من حراء ، فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه للناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم ، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات .

وروى الطبري في التاريخ أن آدم حج من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجّة

على رجله .

وقد روى أنّ الكعبة أنزلت من السماء وهي يا قوتة أولؤلؤة ؛ على اختلاف الروايات ،
وأنّها بقيت على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصي أيام نوح ، وجاء الطوفان
فرفع البيت ، وبني إبراهيم هذه البنية على قواعده القديمة .

وروى أبو جعفر ، عن وهب بن منبه أن آدم دعا ربّه فقال : ياربّ أما لأرضك هذه
عامرٌ يسبحك ويقدّسك فيها غيري ! فقال الله : إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح
بحمدي ويقدّسني ، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري ، يسبحني فيها خلقي ، ويذكر
فيها اسمي ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصّه بكرامتي ، وأوثره باسمي ، فأسميه بيتي ،
وعليه وضعت جلالتي وخصصته بعظمتي ، وأنا مع ذلك في كلّ شيء ، أ جعل ذلك البيت
حرماً آمناً يحرم بحرمة من حوله ، ومن تحته ، ومن فوقه ، فمن حرّمه بحرمتي استوجب
كرامتي ، ومن أخاف أهله فقد أباح حرمتي ، واستحقّ سخطي ؛ وأجعله بيتاً مباركاً
يأتيه بنوك شعثاً غبراً على كلّ ضامر من كلّ فجٍّ عميق ، يرجون بالتلبية رجيجاً ؛
ويعجّون بالتكبير عجيجاً ، من اعتمده لا يريد غيره ووفد إلى وزارني واستضاف بي ،
أسعفته بحاجته ؛ وحقّ على الكريم أن يكرم وفدّه وأضيافه ؛ تعمره يا آدم مادمت حيّاً ،
ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن .

قال : ثم أمر آدم أن يأتي إلى البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به
كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش ، وكان البيت حينئذ من دُرّة أو من ياقوتة ،
فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه ، وبقي أساسه فبوّأه الله لإبراهيم قبناه .

الأصل :

فَاللَّهُ اللهُ فِي عَاجِلِ النَّبِيِّ ؛ وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ ؛ وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكَبِيرِ ، فَإِنَّهَا
مَصِيدَةُ إِبْلِيسَ الْعَظَمِيِّ ، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى ؛ الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ
مُسَاوِرَةَ الشُّمُومِ الْفَاتِلَةِ ، فَمَا تُكْدِي أبدأً ، وَلَا تُشْوِي أَحداً ؛ لِاعَالِمًا لِعَلِمِهِ ، وَلَا مُقَلًّا
فِي طَمَرِهِ .

وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَمَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَاةِ ، وَجَاهِدَةِ
الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ ، وَتَخْشِيعًا لِأَبْصَارِهِمْ ، وَتَذَلِيلًا
لِنُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيفًا لِقُلُوبِهِمْ ، وَإِذْهَابًا لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُمْ ، وَلِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ
عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالْتَّرَابِ تَوَاضَعًا ، وَالتَّصَاقِ كَرَامِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا ، وَخُلُوقِ
الْبَطُونِ بِالْمَتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا ؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ ،
وَعَبْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكِنَةِ وَالْفَقْرِ .

أَنْظَرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ ، وَقَدْحِ طَوَالِعِ الْكَبْرِ !

الْبُنْحُ :

بلدة وخيمة ووخيمة : بينة الوخامة ، أى وبيثة .

مَصِيدَةُ إِبْلِيسَ ، بِسُكُونِ الصَّادِ وَفَتْحِ الْيَاءِ : آلَتُهُ الَّتِي يَصْطَادُ بِهَا .

وَتَسَاوَرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ : تَوَاتُبُهَا ، وَسَارَ إِلَيْهِ بِسُورِ ، أَيْ وَثَبَ ، وَالْمَصْدَرُ السُّورُ ،

وَمَصْدَرُ «تَسَاوَرُ» الْمَسَاوِرَةُ ، وَيُقَالُ : إِنَّ لَفْظَهُ سَوْرَةٌ ، وَهُوَ سَوَارٌ ، أَيْ وَثَابَ مَعْرَبَدٌ ،

وسورة الشراب : وثوبه في الرأس ، وكذلك مساورة السموم التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

وماتكدي : ما ترد عن تأثيرها ، من قولك : أكدى حافر الفرس ، إذا بلغ الكدية ، وهي الأرض الصلبة ، فلا يمكنه أن يحفر .

ولا تشوي أحدا : لا تخطئ المقتل وتصيب غيره ؛ وهو الشوى ، والشوى : الأطراف ، كاليد والرجل .

قال : لا ترد مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه ، ولا عن فقير لطمره ، والطمر : الثوب الخلق .

و « ما » في قوله : « وعن ذلك ما حرس الله » زائدة مؤكدة ، أي وعن هذه المكاييد التي هي البنى والظلم والكبر حرس الله عباده ، ذ « من » متعلقة بـ « حرس » . وقال الراوندي : يجوز أن تكون مصدرية ، فيكون موضعها رفعا بالابتداء ، وخبر المبتدأ قوله : « لما في ذلك » . وقال أيضاً : يجوز أن تكون نافية ، أي لم يحرس الله عباده عن ذلك إجماعاً وقهراً ، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم ، والوجه الأول باطل ، لأن « عن » على هذا التقدير تكون من صلة المصدر ، فلا يجوز تقديمها عليه ، وأيضاً فإن لما في ذلك لو كان هو الخبر ، لتعلق لام الجر بمحذوف ، فيكون التقدير : حراسة الله لعباده عن ذلك كأنه لما في ذلك من تعبير الوجوه بالتراب ؛ وهذا كلام غير مفيد ولا منتظم إلا على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسفه ، والوجه الثاني باطل ، لأن سياق الكلام يدل على فساد ، ألا ترى قوله : « تسكيناً وتخشيعة » ، وقوله : « لما في ذلك من كذا » ، وهذا كله تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفي المعدوم .

ثم بين عليه السلام الحكمة في العبادات ، فقال : إنه تعالى حرس عباده بالصلوات

التي افترضها عليهم من تلك المكاييد ، وكذلك بالزكاة والصوم ليسكن أطرافهم ، ويخشع أبصارهم ، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلّة للحراسة ، ونصب اللفظات على أنها مفعول له .

ثم علل السكون والخشوع الذي هو علّة الحراسة لما في الصلاة من تغيير الوجه على التراب ، فصار ذلك علّة العلة . قال : وذلك لأنّ تغيير عتاق الوجوه بالتراب تواضعا يوجب هضم النفس وكسرها وتذليلها .
وعتاق الوجوه : كرائمها .

وإصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والاستسلام ، والجوع في الصوم الذي يلحق البطن في المتن يقتضى زوال الأثر والبطر ، ويوجب مذلة النفس وقمعها عن الانهماك في الشهوات ، وما في الزكاة من صرف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجب تطهير النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمح به النفوس من الأموال ، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات ، ففي ذلك كلّ دفع مكاييد الشيطان .

وتخفيض القلوب : حطها عن الاعتلاء والتّيه .
والتّخيلاء : التكبر . والمسكنة : أشدّ الفقر في أظهر الرأيين . والقمع القهر .
والنواجم : جمع ناجمة ، وهي ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره .
والقدع ، بالبدال المهملة : الكف ، قدعت الفرس ، وكبحته باللبجام ، أى كفتته .
والطوالع ، كالنواجم .

الأصل :

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنِ
عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهِ الْجُهْلَاءِ ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيظُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ
لِأَمْرٍ مَا يُعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . أَمَا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ
فِي خَلْقَتِهِ ، فَقَالَ : أَنَا نَارِي وَأَنْتَ طِينِي . وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنَ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ
مَوَاقِعِ النِّعَمِ ، فَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ .

فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ ، وَتَحَامِدِ
الْأَفْعَالِ ، وَتَحَاسِنِ الْأُمُورِ ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَّاهُ وَالنُّجَدَّاهُ مِنْ بِيُوتَاتِ الْعَرَبِ ،
وَبِعَاسِيِبِ الْقَبَائِلِ ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيْمَةِ ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيْلَةِ ،
وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ .

فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْخَفِظِ لِلْحِوَارِ ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلدِّبْرِ ،
وَالْمُعَصِيَةِ لِلْكِبْرِ ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ ، وَالْكَفِّ عَنِ التَّبَعِ ، وَالْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ ، وَالْإِنْصَافِ
لِلْخَلْقِ ، وَالْكَظْمِ لِلغَيْظِ ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

البنخ :

قد روى : « تحتمل » بالتاء ، وروى « تحمل » ، والمعنى واحد .
والتمويه : التلبيس من موهت النحاس ، إذا طليته بالذهب ليخفى .
ولاط الشيء بقلبي يلوطن ويليط ، أى النطق .
والمترّف : الذى أطفته النعمة .

وتفاضلت فيها ، أرى تزايدت .

والمُجْدَاء : جمع ماجد ، والمُجْدُ الشرف في الآباء ، والحسب والكرم يكونان في الرَّجُل وإن لم يكونا في آباءه . هكذا قال ابنُ السَّكَيْتِ ، وقد اعترض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾^(١) على قراءة مَنْ رَفَع ، والله سبحانه يتعالى عن الآباء ، وقد جاء في وصف القرآن المجيد ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾^(٢) .

والنَّجْدَاء : الشجعان ، واحدهم نَجِيدٌ ، وأما نَجِدٌ ونَجْدٌ ، بالكسر والضم ، فجمعه أنجاد ، مثل يَقِظٌ وأيقاظ .

ويبوتات العرب : قبائلها . ويعاسيب القبائل : رؤساؤها ، واليعسوب في الأصل : ذكر النحل وأميرها .

والرغبية : الخصلة يُرَغَبُ فيها .

والأحلام : العقول . والأخطار : الأقدار .

ثم أمرهم بأن يتعصبوا لخلال الحمد وعددها ، وينبغي أن يحمل قوله عليه السلام : « فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة » ، على أنه لا يعرف له سبب مناسب ، فكيف يمكن أن يتعصبوا لغير سبب أصلا !

وقيل : إن أصل هذه العصبية ، وهذه الخطبية ؛ أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا في آخر خلافة أمير المؤمنين ، وكانوا قبائل في الكوفة ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى ، فينادي باسم قبيلته : يا لَنَنْخَع ! مثلا ، أو يا لَكِنْدَةَ ! نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشر ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لَتَمِيم !

ويألر بيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصأح فيضر بونه ، فيمضى إلى قبيلته فيستصرخها ، فنسل -
السيوف وتثور الفتن ، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض .

الأضل :

وأخذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال ، وذمهم الأعمال -
فتذكروا في الخير والشر أحوالهم ، وأخذروا أن تكونوا أمثالهم ؛ فإذا تفكرتم
في تفاوت حالهم ، فالزموا كل أمر لزم العزة به حالهم ، وزاحت الأعداء له
عنهم ، ومدت العافية به عليهم ، وأنقادت النعمة له معهم ، ووصلت الكرامة عليه
حبلمهم ؛ من الاجتناب للفرقة ، واللزوم للألفة ، والتحاض عنهم ، والتواصي بها .
وأجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم ، وأوهن منتهم ؛ من تصاغن القلوب ، وتشاحن
الصدور ، وتدابير النفوس ، وتخاذل الأيدي .

البنج :

المثلات : العقوبات .

وذم الأفعال : ما يذم منها .

وتفاوت حالهم : اختلافهما . وزاحت الأعداء : بعدت . وله ، أى لأجله .

والتحاض عليها : تفاعل يستدعى وقوع الحض ، وهو الحث من الجهتين ، أى يحث

بعضهم بعضاً .

والفقرة : واحدة فقر الظهر ، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة : قد كسرت فقرته .

والمُنَّة : القوة .

وتضاعف القلوب وتشاحنها واحد . وتحاذل الأيدي : ألا ينصرُ الناس بعضهم بعضا .

الأضل :

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم ؛ كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء ! ألم يكونوا أثقل أثقال أعباء ، وأجهد العباد بلاء ، وأضيق أهل الدنيا حالا ! اتخذتهم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب ، وجرعوهم المرار ، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة ؛ لا يجدون حيلة في امتناع ، ولا سبيلا إلى دفاع ، حتى إذا رأى الله سبحانه جد الصبر منهم على الأذى في محبته ، والاحتمال للمكروه من خوفه ، جعل لهم من مضايق البلاء فرجا ، فأبدلهم العز مكان الذل ، والأمن مكان الخوف ، فصاروا ملوكا حكاما ، وأئمة أعلاما ، وقد بلغت الكرامة من الله لهم ، ما لم تذهب الآمال إليه بهم .

البنج :

تدبروا ، أى تأملوا . والتمحيص : التطهير والتصفية .

والأعباء : الأثقال ، واحدها عبء .

وأجهد العباد : أتعبهم .

والفراعنة : العتاة ، وكل عات فرعون .

وساموهم سوء العذاب : أزموم إيتاه ؟ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يسومونكم سوء

الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَ كُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١).

والمرار: بضم الميم: شجر مرث في الأصل، واستعير شرب المرار لكل من يلقي شديد المشقة.

ورأى الله منهم جد الصبر، أى أشده.

وأمة أعلاما، أى يهتدى بهم، كالعلم في الفلاة.

الأصل:

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأُمَلَاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ!

فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الْأَلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ؛ تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قِصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

الشنخ:

الأملاء: الجماعات، الواحد ملاء.

ومتراذفة : متعاونة . البصائر نافذة ، يقال : نفذت بصيرتى فى هذا الخبر ، أى اجتمع همى عليه ، ولم يبق عندى تردد فيه ، لعلمى به وتحقيقى إياه .
وأقطار الأرضين : نواحيها ، وتشقت . تفرقت .
وتشعبوا : صاروا شعوبا وقبائل مختلفين .
وتفرقوا متحزبين : اختلفوا أحزابا ، وروى : « متحازبين » .
وغضارة النعمة : الطيب اللين منها .
والقصص : الحديث .

يقول : انظروا فى أخبار من قبلكم من الأمم ، كيف كانت حالهم فى العز والملك لما كانت كلمتهم واحدة ، وإلى ماذا آلت حالهم حين اختلفت كلمتهم ! فاحذروا أن تكونوا مثلهم ، وأن يحل بكم إن اختلفتم مثل ما حل بهم .

الأصل :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ فَمَا أَشَدَّ
أَعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ ، وَأَقْرَبَ أَشْيَابَهُ الْأَمْثَالَ !
تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَقُّبِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، لِيَأْتِيَ كَأَنَّ الْأَكْمِيرَةَ وَالْقِيَاصِرَةَ
أَرْبَابًا لَهُمْ ، يَحْتَاذُونَ عَنْ رَيْفِ الْأَفَاقِ ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا ، إِلَى مَنَابِتِ
الشَّيْحِ ، وَمَهَافِي الرِّيحِ ، وَنَسْكَدِ الْمَعَاشِ ؛ فَتَرَ كَوْمَهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ ، إِخْوَانَ دَبْرِ
وَوَبْرِ . أَذَلَّ الْأُمَمِ دَارًا ، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَارًا ، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ
بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أَلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا ، فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ،
وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ ؛ فِي بَلَاءِ أَزَلٍ ، وَأَطْبَاقِ جَهْلِ ؛ مِنْ بَنَاتِ مَوْجِدَةٍ وَأَصْنَافِ مَعْبُودَةٍ ،
وَأَرْحَامِ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتِ مَشْنُونَةٍ .

التَّبْنُحُ :

لقائل أن يقول : ما عرف أحداً من بني إسحاق وبني إسرائيل احتازتهم الأكامرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشَّيْح ، إلا أن يقال : يهود خيبر والنضير وبني قُرَيْظَةَ وبني قَيْنُقَاع ، وهؤلاء نفرٌ قليل لا يعتدّ بهم . ويُعلم من فَخْوَى الخطبة أنهم غيرُ مرادين بالكلام ، ولأنه عليه السلام قال : تركوهم إخوان دَبْرٍ وَوَبْرٍ ، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوَبْرِ والدَّبْرِ ، بل من أهل المَدَّرِ ؛ لأنهم كانوا ذوى حصون وآطام . والحاصل أن الذين احتازتهم الأكامرة والقياصرة من الرِّيفِ إلى البادية ، وصاروا أهل وَبْرٍ وِلْدُ إِسْمَاعِيلِ ؛ لا بنو إسحاق وبنو إسرائيل !

والجواب أنه عليه السلام ذكر في هذه الكلمات ، وهى قوله : « فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعاً » ؛ أما المقهورون فبنو إسماعيل ، وأما القاهرون فبنو إسحاق وبنو إسرائيل ، لأن الأكامرة من بني إسحاق ؛ ذكر كثير من أهل العلم أن فارس من ولد إسحاق ، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً ، لأن الرُّوم بنو العيص بن إسحاق ، وعلى هذا يكون الضمير فى « أمرهم » ، و « تستهم » و « تفرقهم » يرجع إلى بني إسماعيل خاصة .

فإن قلت : فبنو إسرائيل ، أى مدخل لهم هاهنا ؟

قلت : لأن بني إسرائيل لما كانوا ملوكاً بالشَّام فى أيام أجب الملك وغيره ، حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرّة ، وطردوهم عن الشَّام ، وألجئوهم على المقام ببادية الحجاز . وبصير تقدير الكلام : فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بني إسحاق وبني إسرائيل ؛ فجاء بهم فى صدر الكلام على العموم ، ثم خصص فقال : الأكامرة والقياصرة ؛ وهم داخلون فى عموم ولد إسحاق ، وإنما لم يخصص عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك

ولد يعقوب ، فيذكر لهم أسماءهم في الخطبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بنى ساسان ومن بنى الأصفر .

قوله عليه السلام « فما أشدّ اعتدال الأحوال ! » ، أى ما أشبه الأشياء بعضها ببعض !
وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم .

قوله : « يحتازونهم عن الريف » يبعدونهم عنه ، والريف : الأرض ذات الخصب والزرع ، والجمع أرياف ؛ ورافت الماشية أى رعت الرّيف ، وقد أرفنا أى صرنا إلى الريف ، وأرافت الأرض أى أخصبت ، وهى أرض ريفة ، بتشديد الياء .

وبحر العراق : دجلة والفرات ، أما الأكاسرة فطرطروهم عن بحر العراق ، وأما القياصرة فطرطروهم عن ريف الآفاق ، أى عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجع .

قوله عليه السلام : « أرباباً لهم » ، أى ملوكاً ، وكانت العرب تسمى الأكاسرة أرباباً ، ولما عظم أمر حذيفة بن بدر عندهم سموه ربّ معدّ .

ومنابت الشّيح : أرض العرب ، والشّيح : نبت معروف .

ومها في الريح : المواضع التى تهفو فيها ، أى تهبّ وهى الفيافي والصحارى .

ونكد المعاش : ضيقه وقلته .

وتركوهم عالةً ، أى فقراء ، جمع عائل ، والعائل ذو العيلة ، والعيلة : الفقر ، قال تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(١) ، قال الشاعر :

تَعَيَّرْنَا أَنْتَنَا عَالَةً صَعَالِيكَ نُحْنُ وَأَنْتُمْ مَلُوكُ

نظيره قائد وقادة ، وسائس وساسة .

وقوله : « إخوانَ دَبَرٍ وِوَبَرٍ » الدَبَرُ مصدر دَبَرَ البعيرُ ، أى عقره القَتَبُ . والوَبَرُ

للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز .

قوله : « أذلَّ الأمم دارا » ؛ لعدم المعامل والحصون المنيعة فيها .

وأجدهم قرارا ، لعدم الزرع والشجر والنخل بها . والجذب : المحل .

ولا ياوون : لا يلتجئون ولا ينفضون .

والأزل : الضيق . وأطباق جهل : جمع طبَّق ، أى جهل متراكم بعضه فوق بعض .

وغارات مشنونة : متفرقة ، وهى أصعب الغارات .

[فصل في ذكر الأسباب التي دعت العرب إلى وأد البنات]

مِنْ بَنَاتِ مَوْءُودَةَ ؛ كان قومٌ من العرب يثُدُّون البنات ، قيل : إنهم بنو تميم خاصة ،
وإنه استفاض منهم في جيرانهم . وقيل : بل كان ذلك في بني تميم ، وقيس ، وأسد ،
وهذيل ، وبكر بن وائل ، قالوا : وذلك أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله دعا عليهم ،
فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعل عليهم سنين كسني يوسف » ، فأجدبوا
سبع سنين حتى أكلوا الوبرَ بالدم ، وكانوا يسمونه العِلْهز ، فوأدوا البنات لإملاقهم
وقفرهم ، وقد دلَّ على ذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(١) ، قال :
﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ^(٢) .

وقال قوم : بل وأدوا البنات أنفةً ، وزعموا أن تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من

(٢) سورة المتحنة ١٢

(١) سورة الإسراء ٣١

السنين ، فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، وجُلَّ مَنْ معه من بكر بن وائل ، فاستاق النعم وسبي الذراري ، وفي ذلك يقول بعض بني يشكر :

لَمَّا رَأَوْا رَايَةَ النُّعْمَانِ مَقْبِلَةً قَالُوا : أَلَا لَيْتَ أَدْنَى دَارِنَا عَدَنُ !
يَالَيْتَ أُمَّ تَمِيمٍ لَمْ تَكُنْ عَرَفَتْ مُرًّا ، وَكَانَتْ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَأَعْيَارُ مَخْدَعَةٍ أَوْ تُنْعِمُوا فَقَدِيدًا مِنْكُمْ الْمَنُ
مِنْكُمْ زُهْرٌ — وَعَتَابٌ وَمَحْتَضِنٌ وَابْنَا لَقِيَطٍ وَأَوْدَى فِي الْوَعَى قَطَنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان ، واستعطفوه ، وفرق عليهم ، وأعاد عليهم السبي ، وقال :
كل امرأة اختارت أباه ردت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلهن اخترن
آبَاهن ، إلا ابنة قيس بن عاصم ، فإنها اختارت من سبها ، وهو عمرو بن المشمرخ
اليشكري ، فنذر قيس بن عاصم المنقرى التميمي ألا يولد له بنت إلا وأدها ، والوَادُ أَنْ
يَخْنُقَهَا فِي التَّرَابِ وَيُثْقِلَ وَجْهَهَا بِهِ حَتَّى تَمُوتَ . ثم اقتدى به كثير من بني تميم ، قال
سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾^(١) ، أي على طريق التبكيت
والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٢) .

ومن جيد شعر الفرزدق قوله في هجاء جرير :

أَلَمْ تَرَ أَنَا بَنِي دَارِمٍ زُرَّارَةٌ مِنْ أَبُو مَعْبَدٍ^(٣)
وَمَنْ أَلَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَحْيَا الْوَالِدَ فَلَمْ يُوَادِدِ^(٤)
أَلَسْنَا بِأَصْحَابِ يَوْمِ النَّسَارِ وَأَصْحَابِ الْوَيْةِ الْمُرْبِدِ

(٢) سورة المائدة ١١٦

(٤) يعني جدته صعصعة بن فاجية .

(١) سورة التكاوير ٨ ، ٩

(٣) ديوانه ٢٠٢ ، ٢٠٣

أَسْنَا الَّذِينَ تَمِيمٌ بِهِمْ تَسَامَى وَتَفَخَّرَ فِي الْمَشْهَدِ !
 وَنَاجِيَةَ الْخَبِيرِ وَالْأَقْرَعَا نِ وَقَبِيرٌ بِكَاطِمَةَ الْمَوْرِدِ ^(١)
 إِذَا مَا أَتَى قَبْرَهُ عَائِدٌ أَنَاخَ عَلَى الْقَبْرِ بِالْأَسْعَدِ ^(٢)
 أَيَطْلُبُ مَجْدَ بَنِي دَارِمٍ عَطِيَّةَ كَالْجَعَلِ الْأَسْوَدِ !
 قَرْنَبِي يَحْكُ قَفَا مُقْرِفٍ لَثِيمٍ مَآثِرَهُ قُعْدُدٍ ^(٣)
 وَمَجْدَ بَنِي دَارِمٍ فَوْقَهُ مَكَانَ السَّمَاءِ كَيْنَ وَالْفَرَاقِدِ

وفي الحديث : أن صمصمة بن ناجية بن عقال لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : يا رسول الله ، إني كنتُ أعملُ في الجاهلية عملاً صالحاً ، فهل ينفعني ذلك اليوم ؟ قال عليه السلام : وما عملت ؟ قال : ضللتُ ناقتين عُشراًوين ، ^(٤) فركبتُ جَمَلًا ومضيتُ في بُغائهما ^(٥) ، فرفع لي بيت حريد ^(٦) ، فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفنائها فسألته عن الناقتين ، فقال : مانارهما ^(٧) ؟ قلت : ميسم بنى دارم ، قال : هما عندي ، وقد أحيا الله بهما قومًا من أهلِكَ من مُضَرٍّ ، فجلستُ معه ليخرجهما إليّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كسر البيت ، فقال لها : ما وضعتُ ، فإن كان سَقْبًا ^(٨) شاركنا في أموالنا ، وإن كان حائلاً ^(٩) وأدناها ، فقالت العجوز : وضعتُ أتي ، فقلت له : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادها ! قلت : إنما أشتري حياتها ، ولا أشتري رقها ، قال : فبكم ؟ قلت : احتكم ، قال : بالناقتين والجلل ، قلت : أذاك لك على أن يبلغني الجلل وإياها ! قال : بعتك ، فاستنقذتها

(١) ناجية ؛ هو ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . والأقراعان : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال .

(٢) الأسعد : نجم طالعه سعد .

(٣) القرني : ضرب من الخنافس أرقط طويل القوائم ، والقعدد : اللثيم الآباء .

(٤) العشراء من النياق : التي مضى لجلها عشرة أشهر ، كالنفساء .

(٥) في بغائهما : في طلبهما . (٦) الحريد : المعتزل المتنعى .

(٧) في النهاية واللسان : ما نارهما ؟ والنار هنا : السمة باللكوى ؛ سميت باسم النار .

(٨) السقب : ولد الناقة ساعة يولد ؛ وهو خاص بالذكور .

(٩) الحائل : الأتي من ولد الناقة ساعة تولد ؛ ولا يقال : « سقبة » .

منه بالجل والناقتين ، وآمنت بك يا رسول الله ، وقد صارت لى سنة فى العرب أن
أشترى كل موهودة بناقتين عشاوين وجل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موهودة
قد أخذتهن ، فقال عليه السلام : « لا ينفك ذلك لأنك لم تتبع به وجه الله ، وإن تعمل فى
إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه »^(١) .

وروى الزبير فى "الموقيات" ، أن أبا بكر قال فى الجاهلية لقيس بن عاصم المنقرى :
ما حلك على أن وأدت ؟ قال : مخافة أن يخلف عليهن مثلك .

الأصل :

فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، فَعَقَدَ بِمِلَّةِهِ
طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أَلْفَهُمْ ، كَيْفَ نَشَرْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ،
وَأَسَأَلْتَ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالتَّفَتِ الْعِلْمَةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا ، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا
عَرِيقِينَ ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِيهِينَ ؛ قَدْ تَرَبَّعْتَ الْأُمُورُ بِهِمْ ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ ،
وَأَوْتَهُمْ أُمُحَالُ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ ، وَتَعَطَّفْتَ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ ؛
فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ
كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ ، وَيَمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيْمَنْ كَانَ يُمضِيهَا فِيهِمْ ، لَا تُعْمَرُ لَهُمْ
قَنَاءَةٌ ، وَلَا تُفْرَعُ لَهُمْ صَفَاءَةٌ

الْبَيْتُ :

لَمَّا ذَكَرَ مَا كَانَتِ الْعَرَبُ عَلَيْهِ مِنَ الذَّلِّ وَالضَّمِيمِ وَالْجَهْلِ ، عَادَ فَذَكَرَ مَا أَبَدَلَ اللَّهُ

(١) انظر الفائق ٣ : ١٣٣

به حالهم ، حين بعث إليهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فعقد عليه طاعتهم كالشيء المنتشر
المحلول ، فعقدها بملة محمد صلى الله عليه وآله .
والجداول : الأنهر .

والتفت الملة بهم ، أى كانوا متفرقين فالتفت ملة محمد بهم ، أى جمعهم ، ويقال :
التفت الحبل بالخطب ، أى جمعه ، والتفت الحطب بالحبل ، أى اجتمع به .
و«فى» فى قوله : « فى عوائد بركتها » متعلقة بمحذوف ؛ وموضع الجار والمجرور نصب
على الحال ، أى جمعهم الملة كائنة فى عوائد بركتها ، والعوائد : جمع عائدة ، وهى المنفعة .
تقول : هذا أعودُ عليك ، أى أنفع لك . وروى : « والتفت الملة » بالقاف أى اجتمعت بهم ،
من اللقاء . والرواية الأولى أصح .

وأصبحوا فى نعمتها غريقين ، مبالغة فى وصف ما هم فيه من النعمة .
وفاكهين : ناعمين . وروى « فكهين » أى أشيرين ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : ﴿ وَنَعْمَةً كَانُوا
فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾^(١) وقال الأصمى : فاكهين : مازحين ، والفاكهة المازحة ، ومن أمثالهم :
« لا تنفك أمة ، ولا تبلى على أكمة » ؛ فأما قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ نَفْسَكُمْ ﴾^(٢) ،
فقليل : تندمون ، وقيل : تعجبون .

و«عن» فى قوله : « وعن خضرة عيشها » ، متعلقة بمحذوف ، تقديره : فأصبحوا فاكهين
فكاهة صادرة عن خضرة عيشها ، أى خضرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة
والمزاح عنه .

وتربعت الأمور بهم ، أى أقامت ، من قولك : ربعت بالمكان ، أى أقام به .

وأوتهم الحال؛ بالمدّ أى ضمّهم وأنزلهم ، قال تعالى : ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ^(١) ﴾ ، أى ضمّه إليه وأنزله ، ويجوز «أوتهم» بغير مدّ . أفعلت فى هذا المعنى وفعلت واحد ؛ عن أبى زيد . والكنف : الجانب ، وتعطفت الأمور عليهم : كناية عن السيادة والإقبال ، يقال : قد تعطف الدهر على فلان ، أى أقبل حظه وسعادته ، بعد أن لم يكن كذلك . وفى ذرّاً مُلكٍ : بضم الذال أى فى أعاليه ، جمع ذروة ، ويكنى عن العزيز الذى لا يُضام ، فيقال : لا يغمز له قناة ، أى هو صلب . والقناة إذا لم تلن فى يد الغامز كانت أبعد عن الحطم والكسر . ولا تفرع لهم صفاة ؛ مثل يضرب لمن لا يطمع فى جانبه لعزته وقوته .

الأصل :

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ ، وَتَلَمَّسْتُمْ حِصْنَ اللَّهِ لِلضُّرُوبِ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ أَجْهَلِيَّةٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا ، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنْفِهَا ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً ، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ تَمَنٍّ ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَابًا ، وَبَعْدَ الْوَالَاةِ أَحْزَابًا ، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِأَسْمِهِ ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ ، تَقُولُونَ : النَّارَ وَلَا الْعَارَ ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِنُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ أَنْتَهَا كَأَ لِحَرِيمِهِ ، وَتَقْضَى لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ ، وَأَمْنَا بَيْنَ خَلْقِهِ .

وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ، ثُمَّ لَا جِبْرَائِيلَ

وَلَا مِيكَائِيلَ، وَلَا مُهَاجِرِينَ وَلَا أَنْصَارًا يَنْصُرُونَكُمْ، إِلَّا الْمَقَارِعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى
يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِنُوا
وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بَبِطْشِهِ، وَبِأَسَا مِنْ بَأْسِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ
الْقُرْنَ لِلْمَاضِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لَتَرَكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ
اللَّهُ الشُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْخُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهَى!

الشَّيْخُ :

نفضتم أيديكم : كلمة تقال في أطراح الشيء وتركه ، وهي أبلغ من أن تقول : تركتم
حبلَ الطاعة ، لأن من يخلى الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدَّ تخلياً له ممن
لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط ، لأن نفضها إشعار وإيدان بشدة
الاطراح والإعراض .

والباء في قوله : « بأحكام الجاهلية » متعلقة بـ « ثلتم » ، أي ثلتم حصن الله بأحكام
الجاهلية التي حكتم بها في ملة الإسلام .

والباء في قوله : « بنعمة لا يعترف » ، متعلقة بـ « امتن » . و« في » من قوله « فيما عقد »
متعلقة بمحذوف ، وموضعها نصب على الحال ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾^(٢) .

وروى : « تتقلبون في ظلها » .

قوله: « صرتم بعد الهجرة أعراباً »؛ الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من آمن به من أهل البادية ، ولم يهاجر إليه ، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم في بُعدٍ من مخالطة العلماء ، وسماع كلام الرسول صلى الله عليه وآله ، وفيهم أنزل : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾^(١)؛ وليست هذه الآية عامة في كل الأعراب بل خاصة ببعضهم ، وهم الذين كانوا حول المدينة ، وهم جهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، وإليهم أشار سبحانه بقوله : ﴿ وَيَمُنُّ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾^(٢). وكيف يكون كل الأعراب مذموماً ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٣) ، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل .

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بَعْصَلِيَّ^(٤) أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِيِّ^(٥)

* مهاجر ليس بأعرابي^(٦) *

وقال عثمان لأبي ذرٍّ : أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابياً .

وروى : « ولا يعقلون من الإيمان » .

وقولهم : « النارَ ولا العارَ » ، منصوبتان بإضمار فعل ، أى ادخلوا النار ولا تلتزموا العار ، وهى كلمة جارية مجرى المثل أيضاً ، يقولها أرباب الحمية والإباء ، فإذا قيلت فى حقِّ كانت صواباً ، وإذا قيلت فى باطل كانت خطأ .
وأكفأت الإناء وكفأته : لغتان ، أى كيبته .

(١) سورة التوبة ٩٧

(٢) سورة التوبة ٩٩

(٣) سورة التوبة ١٠١

(٤) العصى : الشديد الخلق .

(٥) أروع : أى ذكى . يقول : خراج من كل غمأ شديدة ، ويقال للصحراء : دوية ، وهى التى لا تكاد تنقضى ، منسوبة إلى الدو ، والدو : صحراء ملاء لا علم بها .

(٦) الكامل للبرد ١ : ٣٨١ (طبعة نهضة مصر) .

قوله : « ثم لاجبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرين » ، الرواية المشهورة هكذا بالنصب ، وهو جائز على التشبيه بالنكرة ، كقولهم : معضلة ولا أبا حسن لها . قال الراجز :

* لا هيتم الليلة للمطى *

وقد روى بالرفع في الجميع .

والمقارعة منصوبة على المصدر . وقال الراوندى : هي استثناء منقطع ، والصواب ما ذكرناه ، وقد روى : « إلا المقارعة » بالرفع ، تقديره : ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة .

والأمثال التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هي ما تضمنه القرآن من أيام الله ونعماته على أعدائه ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ ^(١) .

والتناهي : مصدر تناهى القوم عن كذا ، أى نهى بعضهم بعضا ، يقول : لعن الله للماضين من قبلكم ، لأن سلفهم ارتكبوا المعصية ، وحلماءهم لم ينهوهم عنها ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢) .

الأفضل :

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ ، وَعَظَّمْتُمْ حُدُودَهُ ، وَأَمْتُمْ أَحْكَامَهُ .
أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، فَأَمَّا
النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُمْ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُمْ ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُمْ ،
وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهَةِ فَقَدْ كُفَيْتُهُ بِصَمْعَةٍ سَمِعَتْ لَهَا وَجِبَةُ قَلْبِهِ ، وَرَجَعَتْ صَدْرِهِ ،

وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغِيِّ ؛ وَلَكِنَّ أذِنَ اللَّهُ فِي الْكُرَّةِ عَلَيْهِمْ ، لَا دِيْلَنَ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَنْشَدُّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا .

الشَّيْخُ :

قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال له عليه السلام : « ستقاتلُ بعدي النَّاكِثِينَ والقَاسِطِينَ والمَارِقِينَ » ، فكان النَّاكِثُونَ أصحابَ الجمل ، لأنهم نكثوا بيعته عليه السلام ، وكان القاسطون أهلَ الشَّامِ بصفين ، وكان المارقون الخوارج في النَّهْرَوَانَ ، وفي الفرق الثلاث ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ^(١) ، وقال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ^(٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : « يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؛ ينظر أحدكم في النَّصْلِ فلا يجد شيئاً ، فينظر في الفُوقِ ^(٣) ، فلا يجد شيئاً ، سبق الفُوقُ والدم » . وهذا الخبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب .

وأما شيطانُ الرَّذْهَةِ ، فقد قال قوم : إنه ذو النَّدْيَةِ صاحب النَّهْرَوَانَ ، ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله ، وممن ذكر ذلك واختاره الجوهري صاحب " الصَّحاح " ^(٤) ، وهؤلاء يقولون : إنَّ ذَا النَّدْيَةِ لم يَقْتَلْ بِسَيْفٍ ، ولكنَّ الله رماه يوم النَّهْرَوَانَ بصاعقة ، وإليها أشار عليه السلام بقوله : « فقد كُفِّيتَه بِصَعْفَةٍ سَمِعْتَ لَهَا وَجِبَةَ

(٢) سورة الجن ١٥

(١) سورة الفتح ١٠

(٣) الفوق : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) الصحاح ٨ : ٢٢٣٢ ، وفيه : قال الخليل : الرذعة : شبه أكمة كثيرة الحجارة . وفي الحديث

أنه صلى الله عليه وسلم ذكر القتل بالنهروان ، فقال : « شيطان الرذعة » .

قلبه » ، وقال قوم : شيطان الرّذّة أحد الأبالسة المرّدة من أعوان عدوّ الله إبليس ، وروّوا في ذلك خبرا عن النّبي صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان يتعوّذ منه . والرّذّة : شبه نُقْرة في الجبَل يجتمع فيها الماء ، وهذا مثل قوله عليه السلام : « هذا أزب العقبة » ، أى شيطانها ، ولعلّ أزب العقبة هو شيطان الرّذّة بعينه ، فتارة يردُّ بهذا اللفظ ، وتارة يردُّ بذلك اللفظ . وقال قوم : شيطان الرّذّة ماردٌ يتصوّر في صورة حيّة ، ويكون على الرّذّة . وإنما أخذوا هذا من لفظة « الشيطان » لأنّ الشيطان الحيّة ، ومنه قولهم : شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة مخصوصة ، ويقال : إنها كثيرة الحيات .

قوله : « ويتشذّر في أطراف الأرض » ، يتمزّق ويتبدّد ، ومنه قولهم : ذهبوا شذّر مَدَر .

والبقيّة التي بقيت من أهل البغي : معاوية وأصحابه ، لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم ، وإنما وقفت الحربُ بينه وبينهم بمكيدة التحكيم .

قوله عليه السلام : « ولئن أذن الله في السكّرة عليهم » ، أى إن مُدّلى في العمر لأدلينّ منهم ، أى لتكونن الدّولة لى عليهم ، أدلت من فلان أى غلبته وقهرته ، وصرت ذا دولةٍ عليه .

[استدلال قاضى القضاة على إمامة أبى بكر وردّ المرتضى عليه]

واعلم أن أصحابنا قد استدلوا على صحّة إمامة أبى بكر بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أُذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ
لَائِمٍ^(١) ثم قال قاضي القضاة في المعنى : وهذا خبر من الله تعالى ، ولا بد أن يكون
كائنا على ما أخبر به ، والذين قاتلوا المرتدين هم أبو بكر وأصحابه ، فوجب أن يكونوا
هم الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وذلك يوجب أن يكونوا
على صواب .

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج في " الشافي " فقال : من أين قلت :
إن الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه ؟ فإن قال : لأنهم الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله
صلى الله عليه وآله ، ولا أحد قاتلهم سواهم ، قيل له : وَمَنِ الَّذِي سَلَّمَ لَكَ ذَلِكَ ؟ أو ليس
أمير المؤمنين عليه السلام قد قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله
عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدون عن الدين ؟ ويشهد بصحة التأويل زائدا على احتمال
القول له ، ماروى عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة : والله ما قوتل أهل
الآية حتى اليوم ، وتلاها ، وقد روى عن عمّار وحذيفة وغيرها مثل ذلك .

فإن قال : دليلي على أنها في أبي بكر وأصحابه قول أهل التفسير ، قيل له : أو
كل أهل التفسير قال ذلك ؟ فإن قال : نعم ، كابر لأنه قد روى عن جماعة التأويل الذي
ذكرناه ، ولو لم يكن إلا ماروى عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين ذكرناهم
لكفى ، وإن قال : حجّتي قول بعض المفسرين ، قلنا : وأي حجّة في قول البعض ! ولم صار
البعض الذي قال ما ذكرت أوّلى بالحق من البعض الذي قال ما ذكرنا !

ثم يقال له : قد وجدنا الله تعالى قد نعت المذكورين في الآية بنعوت يجب أن

نراعيها ، لنعلم أني صاحبنا هي أم في صاحبك ! وقد جعله الرسول صلى الله عليه وآله في خيبر حين فرّ مَنْ فرّ من القوم عن العدو صاحب هذه الأوصاف ، فقال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، كراها غير فرار ؛ فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

ثم قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) ، يقتضى ما ذكرنا ، لأنه من المعلوم بلا خلاف حال أمير المؤمنين عليه السلام في التواضع والتواضع ، وذم نفسه ، وقع غضبه ، وأنه مارئى قطّ طائشاً ولا متطيّراً في حال من الأحوال ، ومعلوم حال صاحبك في هذا الباب ، أما أحدهما فإنه اعترف طوعاً بأن له شيطاناً يعتريه عند غضبه ، وأما الآخر فكان معروفاً بالجدّ والعجلة ، مشهوراً بالفظاظة والغلظة ، وأما العزة على الكافرين ، فإنما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم ، وهذه حال لم يسبق أمير المؤمنين عليه السلام إليها سابق ، ولا لحقه فيها لاحق .

ثم قال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ ^(٢) ، وهذا وصف أمير المؤمنين المستحق له بالإجماع ، وهو منتف عن أبي بكر وصاحبه إجماعاً ، لأنه لا قتيل لهما في الإسلام ، ولا جهاد بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله ، وإذا كانت الأوصاف المرافعة في الآية حاصلة لأمر المؤمنين عليه السلام ، وغير حاصلة لمن ادّعى ، لأنها فيهم على ضربين : ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد ، وضرب مختلف فيه كالأوصاف التي هي غير الجهاد ، وعلى من أثبتهم الدلالة على حصولها ، ولا بد من أن يرجع في ذلك إلى غير ظاهر الآية ، لم يبق في يده من الآية دليل .

هذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله ، ولقد كان يمكنه التخلص من الاحتجاج بالآية

على وجهٍ أطف وأحسن وأصح مما ذكره ، فيقول : المراد بها من ارتدّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة الأسود العنسيّ باليمن ، فإن كثيراً من المسلمين ضلوا به وارتدوا عن الإسلام ، وادّعوا له النبوة ، واعتقدوا صدقه ، والقوم الذين يحبهم الله ويحبونه : القوم الذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله ، والفتك به ، وهم فيروز الديلمي وأصحابه . والقصة مشهورة .

وقد كان له أيضاً أن يقول : لم قلت : إن الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابه كانوا مرتدين ! فإن المرتد من ينكر دين الإسلام بعد أن كان قد تدين به ، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصل دين الإسلام ، وإنما تأولوا فأخطئوا ؛ لأنهم تأولوا قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (١) ؛ فقالوا : إنما ندفع زكاة أموالنا إلى من صلواته سكن لنا ، ولم يبق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله من هو بهذه الصفة ، فسقط عنا وجوب الزكاة ، ليس هذا من الردة في شيء ، وإنما سماهم الصحابة أهل ردة على سبيل المجاز ، إعظاماً لما قالوه وتأولوه .

فإن قيل : إنما الاعتماد على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيمة وطليحة اللذين ادّعيا النبوة ، وارتد بطريقهما كثير من العرب ، لا على قتال ما نعى الزكاة !

قيل : إن مسيمة وطليحة جأهدا رسول الله صلى الله عليه وآله قبل موته بالكُتُب والرسل ، وأنفذ لقتلها جماعة من المسلمين ، وأمرهم أن يفتكوا بهما غيلة إن أمكنهم ذلك ؛ واستنفر عليهما قبائل من العرب ، وكل ذلك مفصل مذکور في كتب السيرة والتواريخ ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وآله للفتك بهما ، هم المعنيون بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ إلى آخر الآية ! ولم يقل في الآية : « يجاهدون

فيقتلون» ، وإِنَّمَا ذَكَرَ الْجِهَادَ فَقَطْ ، وَقَدْ كَانَ الْجِهَادُ مِنْ أَوْلَى النَّفَرِ حَاصِلًا وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا
الغرض ، كَمَا كَانَ الْجِهَادُ حَاصِلًا عِنْدَ حِصَارِ الطَّائِفِ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ فِيهِ الْغُرْضُ .

وقد كان له أيضا أن يقول : سياقُ الآية لا يدلّ على ما ظنّه المستدلّ بها ؛ من أنّه
مَنْ يَرْتَدُّ عَنِ الدِّينِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ يُحَارِبُونَهُ لِأَجْلِ رِذَّتِهِ ، وَإِنَّمَا
الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ أَنَّهُ مَنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ بِتَرْكِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ارْتِدَادًا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ - فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ،
يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَهُ عِوَاضًا عَنْكُمْ ، وَكَذَلِكَ كَانَ كُلُّ مَنْ خَذَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَعَدَ عَنِ النَّهْوِ مَعَهُ فِي حُرُوبِهِ ، أَغْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِطَائِفَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ
جَاهِدُوا بَيْنَ يَدَيْهِ !

وأما قول المرتضى رحمه الله : إِنَّمَا أُنزِلَتْ فِي النَّاسِ كَثِيرِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَسَارِقِينَ الَّذِينَ
حَارَبَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَعِيدٌ ، لِأَنَّهُمْ لَا يُطَلَّقُ عَلَيْهِمْ لَفْظُ «الرَّدَّةِ» عِنْدَنَا ، وَلَا عِنْدَ
المرتضى وأصحابه ، أَمَا اللَّفْظُ فَبِالِاتِّفَاقِ ، وَإِنْ سَمَّوْهُمُ كُفَرَارًا . وَأَمَّا الْمَعْنَى فَلَأَنَّ فِي مَذْهَبِهِمْ
أَنَّ مَنْ ارْتَدَّ - وَكَانَ قَدْ وُلِدَ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ - بَانَتْ أَسْرَأَتُهُ مِنْهُ ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ وَرَثَتِهِ ،
وَكَانَ عَلَى زَوْجَتِهِ عِدَّةَ التَّوْفَى عَنْهَا زَوْجَهَا ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَكْثَرَ مُحَارِبِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ
السَّلَامِ كَانُوا قَدْ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَحْكَمْ فِيهِمْ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ .

وقوله : « إِنْ الصِّفَاتُ غَيْرُ مُتَحَقِّقَةٍ فِي صَاحِبِكُمْ » ، فَلَعَمْرِي إِنْ حَظَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ مِنْهَا هُوَ الْحِظُّ الْأَوْفَى ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ مَا خَصَّتْ الرَّئِيسَ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ ، وَإِنَّمَا
أُطْلِقَهَا عَلَى الْمُجَاهِدِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَبَاشِرُونَ الْحَرْبَ ؛ فَهَبْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ مَا كَانَا بِهَذِهِ
الصِّفَاتِ ، لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا لِمَنْ جَاهَدِيْنَا أَيْدِيَهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَاشَرَ الْحَرْبَ ،
وَهُمْ شُجْعَانُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ فَتَحُوا الْفَتْوحَ ، وَنَشَرُوا الدَّعْوَةَ ،
وَمَلَكَوا الْأَقَالِيمَ !

وقد استدلّ قاضي القضاة أيضا على صحة إمامة أبي بكر؛ - وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي علي - بقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا هَذَا ذُرْوَانًا نَنبِئُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾^(٣)، يعني قوله تعالى: ﴿ لَنْ نَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾. ثم قال سبحانه: ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٤)، فبيّن أن الذي يدعو هؤلاء المخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولي بأس شديد غير النبي صلى الله عليه وآله، لأنه تعالى قد بين أنهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون معه عدوًّا، بآية متقدمة، ولم يدعهم بعد النبي صلى الله عليه وآله إلى قتال الكفار إلا أبو بكر وعمر وعثمان، لأن أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل، فقال بعضهم: عني بقوله: ﴿ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾، بني حنيفة، وقال بعضهم: عني فارس والروم؛ وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقاتل آل فارس والروم، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والروم عمر، فإذا كان الله تعالى قد بين أنهم بطاعتهم لها يؤتهم أجرا حسنا، وإن تولّوا عن طاعتها يعذبهم عذابا أليما، صحّ أنهما على حق، وأن طاعتها طاعة لله تعالى، وهذا يوجب صحة إمامتهما.

(٢) سورة التوبة ٨٣

(٤) سورة الفتح ١٦

(١) سورة الفتح ١١

(٣) سورة الفتح ١٥

فإن قيل : إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصيفين !

قيل : هذا فاسد من وجهين : أحدهما قوله تعالى : ﴿ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا ﴾ ، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام ، ولم يقاتلوا على الكفر . والوجه الثاني أننا لانعرف من الذين عناهم الله تعالى بهذا من بقي إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام ، كما علمنا أنهم كانوا باقين في أيام أبي بكر .

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين : أحدهما أنه نازع في اقتضاء الآية ، داعياً يدعو هؤلاء الخلفين غير النبي صلى الله عليه وآله ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿ (١) ﴾ إنما أراد به سبحانه الذين تخلفوا عن الحديبية بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسرين .

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) ، وإنما التمس هؤلاء الخلفون أن يخرجوا إلى غنيمة خبير ، فمنعهم الله تعالى من ذلك ، وأمر نبيه أن يقول لهم : لن تتبعونا إلى هذه الغزاة ، لأن الله تعالى كان حكماً من قبل بأن غنيمة خبير لمن شهد الحديبية ، وأنه لا حظ لمن لم يشهدا ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ

مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴿١﴾ ، وإنما أراد أن الرسول سيدعوكم فيما بعد إلى قتال قومٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وقد دعاهم النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك إلى غزوات كثيرة ، إلى قومٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، كمؤتة وحنين وتبوك وغيرها ، فمن أين يجب أن يكون الداعي لهؤلاء غير النبي صلى الله عليه وآله ، مع ما ذكرناه من الحروب التي كانت بعد خيبر !

وقوله : إن معنى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، إنما أراد به ما بينته في قوله : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ ؛ ببوك سنة تسع ، وآية الفتح نزلت في سنة ست ، فكيف يكون قبلها !

وليس يجب أن يقال في القرآن بالإرادة ، وبما يحتمل من الوجوه في كل موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآي ، والأسباب التي وردت عليها ، وتعلقت بها .

ومما يبين لك أن هؤلاء المخلفين غير أولئك لو لم نرجع في ذلك إلى نقل وتاريخ ، قوله تعالى في هؤلاء : ﴿ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(١) ، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية ، بل ذكر الوعد والوعيد على ما يفعلونه من طاعة أو معصية ، وحكم المذكورين في آية سورة التوبة بخلاف هذه ، لأنه تعالى بعد قوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ^(٢) ، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدل

على اختلافهم ، وأن المذكورين في آية سورة الفتح غير المذكورين في آية سورة التوبة .

وأما قوله : لأن أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرها باطل ؛ لأن أهل التأويل قد ذكروا شيئاً آخر لم يذكره ، لأن ابن المسيب روى عن أبي روق عن الضحّاك في قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ ... ﴾ الآية ، قال : هم ثقيف . وروى هشيم عن أبي يسر ، عن سعيد بن جبير ، قال : هم هوازن يوم حنين .

وروى الواقدي ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : هم هوازن وثقيف ، فكيف ذكر من أقوال المفسرين ما يوافق مع اختلاف الرواية عنهم ! على أننا لا نرجع في كل ما يحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسرين ، فإنهم ربما تركوا ما يحتمله القول وجهاً صحيحاً ؛ ولم استخراج جماعة من أهل العدل في متشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التي ظاهر التنزيل بها أشبه ، ولها أشد احتمالاً ، مما لم يسبق إليه المفسرون ، ولا دخل في جملة تفسيرهم وتأويلهم .

والوجه الثاني سلم فيه أن الداعي هؤلاء الخلفين غير النبي صلى الله عليه وآله ، وقال : لا يمتنع أن يعنى بهذا الداعي أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنه قاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين . وبشره النبي صلى الله عليه وآله بأنه يقاتلهم ، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة .

قال : فأما تعلق صاحب الكتاب بقوله : ﴿ أَوْ يُسْمُونَ ﴾ ، وأن الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين ، فأول ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه ؛ لأن الكبائر تُخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمان هو الإسلام

على مذهبهم . ثم إنَّ مذهبنا في محاربي أمير المؤمنين عليه السلام معروفٌ ، لأنهم عندنا كانوا كفاراً بمحاربتهم لوجهه :

الأول منها : أن مَنْ حاربه كان مستحلاً لقتاله ، مظهراً أنه في ارتكابه على حقٍّ ؛ ونحن نعلم أن مَنْ أظهر استحلال شرب جرعة خمر هو كافر بالإجماع ؛ واستحلال دماء المؤمنين فضلاً عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله ، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفاراً .

الثاني : أنه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل : « حرَّ بك يا عليَّ حرَّبي ، وسيدك سلمي » ، ونحن نعلم أنه لم يرد إلا التشبيه بينهما في الأحكام ، ومن أحكام محاربي النبي صلى الله عليه وآله الكفر بلا خلاف .

الثالث : أن النبي صلى الله عليه وآله قال له بلا خلاف أيضاً : « اللهم والِ مَنْ وَالَاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر مَنْ نصره ، واخذل مَنْ خذله » ، وقد ثبت عندنا أن العداوة من الله لا تكون إلا للكفار الذين يعادونه دون فساق أهل الملَّة .

الرابع : قوله : إننا لا نعلم ببقاء هؤلاء المخلفين إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشيء ، لأنه إذا لم يكن ذلك معلوماً ومقطوعاً عليه ، فهو مجوز وغير معلوم خلافه ، والجواز كافٍ لنا في هذا الموضع .

ولو قيل له : من أين علمت بقاء المخلفين المذكورين في الآية على سبيل القطع إلى أيام أبي بكر ؟ لكان يفرغ إلى أن يقول : حكم الآية يقتضى بقاءهم حتى يتم كونهم مدعوين إلى قتال أولى البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة ، وهذا بعينه يمكن أن يقال له ، ويعتمد في بقائهم إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يوجب حكم الآية .

فإن قيل : كيف يكون أهل الجمل وصيفين كفاراً ولم يسر أمير المؤمنين عليه السلام

فيهم بسيرة الكفار ، لأنه ما سبهم ، ولا غنم أموالهم ، ولا تبع مولاهم !

قلنا : أحكام الكفر تختلف ، وإن شملهم اسم «الكفر» ، لأن في الكفار من يُقتل ولا يستبق ، وفيهم من يُؤخذ منه الجزية ولا يحل قتله إلا بسبب طارى غير الكفر ، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين ، فعلى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كفاراً ، وإن لم يسر فيهم بجميع سيرة أهل الكفر ، لأننا قد بينا اختلاف أحكام الكفار ، ويرجع في أن حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم . على أننا لا نجد في الفساق من حكمه أن يقتل مقبلاً ، ولا يقتل مولياً ، ولا يجهز على جريحه ، إلى غير ذلك من الأحكام التي سيرها في أهل البصرة وصفين .

فإذا قيل في جواب ذلك : أحكام الفسق مختلفة ، وفعل أمير المؤمنين هو الحجّة في أن حكم أهل البصرة وصفين مافعله .

قلنا مثل ذلك حرفاً بحرف ، ويمكن مع تسليم أن الداعي لهؤلاء الخلفين أبو بكر ، أن يقال : ليس في الآية دلالة على مدح الداعي ولا على إمامته ، لأنه قد يجوز أن يدعو إلى الحق والصواب من ليس عليهما ، فيلزم ذلك الفعل من حيث كان واجبا في نفسه ، لا لدعاء الداعي إليه ، وأبو بكر إنما دعا إلى دفع أهل الردة عن الإسلام ، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داع ، والطاعة فيه طاعة لله تعالى ، فمن أين له أن الداعي كان على حق وصواب ! وليس في كون مادعا إليه طاعة ما يدل على ذلك .

ويمكن أيضا أن يكون قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم ، لأنه إذا دلّهم على وجوب قتال المرتدين ، ورفعهم عن بيضة الإسلام ، فقد دعاهم إلى القتال ، ووجب عليهم الطاعة ، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا ، وهذا أيضا تحتمله الآية .

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله في هذا الموضوع؛ وأكثره جيد لا اعتراض عليه ، وقد كان يمكنه أن يقول: لو سلمنا بكل هذا لكان ليس في قوله: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ الآية ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله لا يكون هو الداعي لهم إلى القوم أولى البأس الشديد ، لأنه ليس فيها إلا محض الإخبار عنهم بأنهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون العدو معه ، وليس في هذا ما ينفى كونه داعيا لهم ، كما أنه عليه السلام قال : «أبو هلب لا يؤمن بي» ، لم يكن هذا القول نافيا لكونه يدعو إلى الإسلام .

وقوله: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾ ليس بأمر على الحقيقة ، وإنما هو تهديد كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(١) ولا بد للمرتضى ولقاضي القضاة جميعا من أن يحملا صيغة «افعل» على هذا الحمل ، لأنه ليس لأحدهما بمسوغ أن يحمل الأمر على حقيقته ، لأن الشارع لا يأمر بالعود وترك الجهاد مع القدرة عليه ، وكونه قد تعين وجوبه .

فإن قلت : لو قدرنا أن هذه الآية ، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ، أنزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد نزول سورة «براءة» ، التي تتضمن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ، وقدرنا أن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ليس إخبارا محضا كما تأولته أنت وحملت الآية عليه ، بل معناه لا أخرجكم معي ولا أشهدكم حرب العدو ، هل كان يتم الاستدلال؟

قلت : لا ؛ لأن للإمامية أن تقول : يجوز أن يكون الداعي إلى حرب القوم أولى البأس الشديد مع تسليم هذه المقدمات كلها هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه دعاهم إلى حرب الروم في سرية أسامة بن زيد في صفر من سنة إحدى عشرة ، لما سيره إلى البلقاء ، وقال له : سر إلى الروم إلى مقتل أبيك ، فأوطفهم الخيول ، وحشد معه أكثر المسلمين ، فهذا الجيش قد دُعِيَ فيه المخلفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد

(١) سورة الشورى : ٤٠

في غزاة تبوك إلى قوم بأس شديد ، ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ،
ولا حاربوا معه عدوًّا .

فإن قلت : إذا خرجوا مع أسامة ، فكأنما خرجوا مع رسول الله ، وإذا حاربوا مع
أسامة العدو ، فكأنما حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كان سبق أنهم
لا يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحاربون معه عدوًّا .

قلت : وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره في أيتام أبي بكر ، ومع أبي عبيدة وسعد
في أيام عمر ؛ فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحاربوا العدو معه أيضاً .
فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلا أنه على الحقيقة ليس معه ،
وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه .

قيل لك : وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدو معه ، وإن شابه الخروج مع
النبي ومحاربة العدو معه ، إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع بعض أمرائه .
ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية ، فيقال : لا يجوز حملها على بني حنيفة ، لأنهم
كانوا مسلمين ، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » صلى الله عليه
وآله ، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة ، والإمامية مرجئة ؛
ولا يجوز حملها على فارس والروم ، لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم ،
كما تقول : إما كذا وإما كذا ، فيقتضى ذلك نفي الواسطة ، وقاتل فارس والروم بينه وبين
إسلامهم واسطة ، وهو دفع الجزية ، وإنما تنفي هذه الواسطة في قتال العرب ، لأن
مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية ، فالآية إذن دالة على أن المخلفين سيذعنون إلى قوم
أولى بأس شديد الحكم فيهم ، إما قتالهم وإما إسلامهم ، وهؤلاء هم مشركو العرب ،
ولم يحارب مشركي العرب إلا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالداعي لهم إذاً هو رسول الله ،
وبطل الاستدلال بالآية .

الأضل :

أَنَا وَصَمْتُ فِي الصَّغْرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رِبْعَةٍ وَمُضَرَ .
وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ
الْخَلِصَةِ ، وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ ، وَأَنَا وَلِيدٌ بَضْمُنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ،
وَيُمِشِنِي جَسَدَهُ ، وَيُسْمِنِي عَرْفَهُ ؛ وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُبَلِّغُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي
كَذِبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ .

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَكْبَرَ مَلَكٍ مِنْ
مَلَائِكَتِهِ ، بِسَلُوكِ بِهِ طَرِيقِ الْمَكَارِمِ ، وَتَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ .
وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرًا مَعَهُ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ
عِلْمًا ، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ فَأَرَاهُ ، وَلَا
يَرَاهُ غَيْرِي ، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا نَالُهُمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ .
وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَذِهِ الرَّنَةُ ؟ فَقَالَ : هَذَا الشَّيْطَانُ ، قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إِنَّكَ تَسْمَعُ
مَا أَسْمَعُ ، وَتَرَى مَا أَرَى ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ ، وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ ، وَإِنَّكَ
لَعَلَى خَيْرٍ .

الشنخ :

الباء في قوله : « بكلاكل العرب » زائدة . والكلاكل : الصدور ، الواحد كلكل ،

والمعنى أتى أذلتهم وصرعتهم إلى الأرض .

ونواجه قرون ربيعة ومضر : مَنْ نَجْمَ مِنْهُمْ وَظَهَرَ ، وَعَلَا قَدْرُهُ ، وَطَارَ صَيْتُهُ .
فإن قلت : أَمَا قَهْرَهُ لِمُضَرَ فَمَعْلُومٌ ، فَمَا حَالُ رِبِيعَةَ ، وَلَمْ نَعْرِفْ أَنَّهُ قَتَلَ مِنْهُمْ أَحَدًا ؟ قلت :
بَلَى قَدْ قَتَلَ بِيَدِهِ وَبِحَيْشِهِ كَثِيرًا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ فِي صِفِّينَ وَالجَلِ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَسْمَائِهِمْ مِنْ
قَبْلِ ، وَهَذِهِ الْخُطْبَةُ خُطِبَ بِهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ أَمْرِ النَّهْرَوَانِ .

وَالعَرَفُ بِالْفَتْحِ : الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ ، وَمَضَعُ الشَّيْءِ يَمْضَعُهُ بِفَتْحِ الضَّادِ .
وَالخَطْلَةُ فِي الْفِعْلِ : الْخَطَأُ فِيهِ ، وَإِيقَاعُهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ . وَحِرَاءُ : اسْمُ جَبَلٍ
بِمَكَّةَ مَعْرُوفٌ .
وَالرَّتَّةُ : الصَّوْتُ .

[ذَكَرَ مَا كَانَ مِنْ صَلَاةِ عَلِيٍّ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي صَفْرِهِ]

وَالقَرَابَةُ الْقَرِيبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَامِ ،
كَوْنِهِ رَبَّاهُ فِي حَبْرِهِ ، ثُمَّ حَامَى عَنْهُ وَنَصَرَهُ عِنْدَ إِظْهَارِ الدَّعْوَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ،
ثُمَّ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُصَاهَرَةِ الَّتِي أَفْضَتْ إِلَى النَّسْلِ الْأَطْهَرِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْهَارِ . وَنَحْنُ
نَذَكُرُ مَا ذَكَرَهُ أَرَبَابُ السِّيَرِ مِنْ مَعَانِي هَذَا الْفَصْلِ .

رَوَى الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ
ابْنُ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَجِيحٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : كَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى
عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا صَنَعَ اللَّهُ لَهُ ، وَأَرَادَهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ ، أَنَّ قَرِيشًا أَصَابَتْهُمْ أَرْزَمَةٌ
شَدِيدَةٌ ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِلْعَبَّاسِ - وَكَانَ
مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ - يَا عَبَّاسُ ، إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ ، وَقَدْ تَرَى مَا أَصَابَ النَّاسَ
مِنْ هَذِهِ الْأَرْزَمَةِ ، فَانْطَلِقْ بِنَا ، فَانْخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ ، آخِذٌ مِنْ بَيْتِهِ وَاحِدًا ، وَتَأْخِذٌ وَاحِدًا ،

فكفّيهما عنه . فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما : إن تركتما لي عَمِيلاً فاصنعا ما شئتما ، فأخذ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلِيّاً فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسَ جَعْفراً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى بَعَثَهُ اللهُ نَبِيّاً ، فَاتَّبَعَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَقْرَبَهُ وَصَدَّقَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرٌ عِنْدَ الْعَبَّاسِ حَتَّى أَسْلَمَ وَاسْتَعْفَى عَنْهُ (١) .

قال الطبري : وحدثنا ابنُ حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا محمد بن إسحاق ، قال : كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى شَعَابِ مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَلِيٌّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَخْفِياً مِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمِنْ جَمِيعِ أَعْمَامِهِ وَسَائِرِ قَوْمِهِ ، فَيَصَلِّيَانِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا ، فَإِذَا أَمْسَيَا رَجَعَا ، فَكُنَّا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُمْكِنَا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما وهما يصليان ، فقال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يا ابنَ أخي ، ما هذا الذي أراك تدين به ؟ قال : يا عمّ هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسوله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال - بعثني الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت يا عمّ أحقّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحقّ مَنْ أجابني إليه ، وأعانتني عليه - أو كما قال . فقال أبو طالب : يا ابنَ أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي ، وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيتُ .

قال الطبري : وقد روى هؤلاء المذكورون أن أبا طالب قال لعليّ عليه السلام : يا بني ، ما هذا الذي أنت عليه ؟ فقال : يا أبت ، إني آمنتُ بالله ورسوله ، وصدّقتُه بما

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٣ (طبعة المعارف)

جاء به ، وصليت لله معه ، قال : فرعموا أنه قال له : أما إنه لا يدعوا إلا إلى خير ،
فألزمه (١) .

وروى الطبري في تاريخه أيضا ، قال : حدثنا أحمد بن الحسين الترمذي ، قال :
حدثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا العلاء ، عن المنهال بن عمر ، وعن عبد الله بن
عبد الله قال : سمعتُ علياً عليه السلام ، يقول : أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، وأنا الصديق
الأكبر ، لا يقولها بعدى إلا كاذب مُفتَرٍ ؛ صليتُ قبلَ الناسِ بسبعِ سنين (٢) .

وفي غير رواية الطبري : أنا الصديق الأكبر وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام
أبي بكر ، وصليت قبل صلاته بسبع سنين . كأنه عليه السلام لم يرتضِ أن يذكر عمر
ولا رآه أهلاً للمقايسة بينه وبينه ؛ وذلك لأن إسلام عمر كان متأخراً .

وروى الفضل بن عباس رحمه الله ، قال : سألتُ أبي عن ولد رسول الله صلى الله
عليه وآله الذُّكور ، أيهم كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله له أشدُّ حباً ؟ فقال : علي بن
أبي طالب عليه السلام ، فقلت له : سألتك عن بنيهِ ، فقال : إنه كان أحبَّ عليه من
بنيه جميعاً وأرأفَ ، ما رأيتُ زائلاً يوماً من الدهر منذ كان طفلاً ، إلا أن يكون في
سفرٍ لخديجة ، وما رأيتُ أباً أبرَّ بابنٍ منه لعلي ، ولا ابناً أطوعَ لأبٍ من علي له .

وروى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : سمعتُ زيداُ أبي عليه
السلام يقول : كان رسول الله يمضغ اللّحمة والتمرّة حتى تليّن ، ويجعلهما في فم علي عليه
السلام وهو صغير في حجّره ؛ وكذلك كان أبي علي بن الحسين عليه السلام يفعل بي ؛
ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة ، فيبردّه في الهواء ، أو ينفخ عليه حتى
يبرد ، ثم يُلقمُنيهِ ؛ أفيشفقُ علي من حرارة لقمة ولا يشفق علي من النار ! لو كان أخي
إماماً بالوصية كما يزعم هؤلاء ، لكان أبي أفضى بذلك إليّ ووقاني من حرّ جهنم .

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٤ (المعارف) (٢) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٠ (المعارف)

وروى جبير بن مطعم ، قال : قال أبي مطعم بن عدى لنا ونحن صبيان بمكة: الأترؤن حبّ هذا الغلام - يعني علياً - لمحمد واتباعه له دون أبيه ! واللآت والعزى، لوددت أن ابني بفتيان بني نوفل جميعا !

وروى سعيد بن جبیر ، قال : سألت أنس بن مالك ، فقلت : أ رأيت قولَ عمر عن السّنة : إن رسولَ الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راضٍ ؟ ألم يكن راضياً عن غيرهم من أصحابه ؟ فقال : بلى ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين ؛ ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضىً ، فقلت له : فأى الصحابة كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله له أحمد ؟ أو كما قال - قال : ما فيهم أحدٌ إلا وقد سخط منه فعلاً ، وأنكر عليه أمراً ، إلا اثنان : على بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة ، فإنهما لم يقترفا منذ أتى الله بالإسلام أمراً أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله .

[ذكر حال رسول الله عند نشوئه]

وينبغى أن نذكر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وعصمته بالملائكة ، ليكون ذلك تقريراً وإيضاحاً لقوله عليه السلام : « ولقد قرن الله به من لدن كان فطياً أعظم ملكٍ من ملائكته » ، وأن نذكر حديث مجاورته عليه السلام بحراء ، وكون عليّ عليه السلام معه هناك ؛ وأن نذكر ما ورد في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّاً وخديجة ، وأن نذكر ما ورد في سماعه رنة الشيطان ، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيراً للمصطفى صلوات الله عليه .

أما المقام الأول فروى محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب " السيرة النبوية " ، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، قال : كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية

أم رسول الله صلى الله عليه وآله التي أرضعته تحدث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجها وابن لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتصقن الرضاع^(١) بمكة ، في سنة شهباء^(٢) لم تبق شيئاً ، قالت : فخرجت على أتان لنا قمرأه^(٣) عجفاء ، ومعنا شارف^(٤) لنا؛ ماتبض^(٥) بقطرة ، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيتنا الذي معنا من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغديه^(٦) ، ولكننا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتانى تلك ، ولقد أرائت بالركب ضعفاً وعجفاً^(٧) ، حتى شق ذلك عليهم ، حتى قدمنا مكة فلتمس الرضاع^(٨) فامنا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد صلى الله عليه وآله فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ؛ وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ، ما عسى أن تصنع أمه وجدّه ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة ذهبت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ؛ فلما اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبي : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحي لم آخذ رضيعاً ؛ والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا خذنه ، قال : لا عليك أن تفعل ! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت إليه فأخذته ؛ وما يحملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره . قالت : فلما أخذته رجعت إلى رحلي ، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فوضع حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ، وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبيتنا جوعاً ، فنام ؛ وقام زوجى إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنها حافل^(٩) ؛ فحلب منها ما شرب وشربت حتى اتهمنا ريباً وشبعاً ؛ فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول

(١) ابن هشام : « تلتمس الرضعا » .

(٢) سنة شهباء ، تريد بها سنة الجذب ، وذلك أن الأرض حينئذ تكون بيضاء لا نبات فيها .

(٣) القمرة بالضم : لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة ، وسمار أقر ، وأتان قراء . القاموس .

(٤) الشارف : الناقة المسنة .

(٥) قال أبو ذر الحثني : ما تبض ، بالضاد المعجمة ، معناه : ما تنفع ولا ترشح ، ومن رواه بالصاد

المهملة ، فعناه : « لا يبرق عليها أثر لبن ، من البصيص ، وهو اللعان » . (٦) قال ابن هشام : « ما يغديه » .

(٧) ابن هشام : « فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً » .

(٨) ابن هشام : « الرضعا » . (٩) حافل : أى ممتلئة الضرع .

صاحبي حين أصبحنا : أتعلمين ^(١) والله يا حليلة لقد أخذت نَسَمَةً مباركة ، فقلت : والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتاني تلك ، وحملتني معي عليها ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حميرهم ^(٢) حتى إن صواحي كَيَقُنَّ لي : ويحك يا بنت أبي ذؤيب ! اربعي ^(٣) علينا ، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ! فأقول لمن : بلى والله ، إنها لهي ، فيقلن : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد - وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجذب منها - فكانت غنمي ترُوح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى ^(٤) لبناً ، فكنا نحتلب ونشرب ؛ وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى إن الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم : ويلكم؟ اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب ! فيفعلون ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تُبِضُّ بقطرة ، وتروح غنمي شباعاً لبناً ، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصلته ، فكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان [فلم يبلغ سنتيه] ^(٥) ، حتى كان غلاماً جفراً ^(٦) ، فقدمنا به على أمه آمنة بنت وهب ، ونحن أحرصُ شيء على مكته فينا ، لما كنا نرى من برّكته ، فكأمنّا أمه ، وقلنا لها : لو تركته عندنا حتى يغلظ ! فإننا نخشى عليه ^(٧) وباء مكة ، فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد ، فوالله إنه لبعد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بهم ^(٨) لنا خلف بيوتنا ؛ إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لي ولا يبه : هاهو ذاك أخي القرشيّ ؛ قد جاءه

(١) ابن هشام : « تعلمي » . (٢) ابن هشام : « حرمم » .

(٣) اربعي علينا ، أي أقيمي وانتظري ، يقال : ربيع فلان على فلان ، إذا أظم عليه وانتظره .

(٤) ابن هشام : « لبناً » بالتشديد ، أي غزيرات اللبن .

(٥) من ابن هشام (٦) جفراً ، أي قويا شديداً .

(٧) الوباء ، مهموز ومقصور : كثرة الأمراض والموت .

(٨) البهم : الصغار من الغنم ، واحدها بهمة .

رجلان عليهما ثياب بياض ، فأضجماه وشقاً بطنه ، فهما يسوطانه ^(١) . قالت : فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه ، فوجدناه قائماً ^(٢) ممتقماً وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا : مالك يا بني ! قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجماني ثم شقاً بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ماهو !

قالت : فرجعنا به إلى خيائنا ، وقال لي أبوه : يا حليلة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقته بأهله .

قالت : فاحتملته حتى قدمتُ به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت لها : قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذي علىّ به ، وتخوفت عليه الأحداث ، وأديته إليك كما تحبين . قالت : أنتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ، قالت : كلاً والله ما للشيطان عليه من سبيل ؛ وإن لابني شأن ، أفلا أخبرك خبره ؟ قلت : بلى ، قالت : رأيت حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاءت له قصورٌ بصرى من ^(٣) الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت سخلاً قط كان أخف ولا أيسر منه ، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ، ورافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة ^(٤) .

قال : وروى الطبري في " تاريخه " عن شداد بن أوس ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يحدث عن نفسه ؛ ويذكر ما جرى له وهو طفلاً في أرض بني سعد بن بكر ، قال : لما وُلدت استرضعتُ في بني سعد ، فبينما أنا ذات يوم منتبذ من

(١) يسوطانه ، قال أبو ذرّ الحثني : يقال : « سطت اللبن والدم وغيرها أسوطه ، إذا ضربت بعضه ببعض وحركته ، واسم العود الذي يضرب به المسوط » .

(٢) ممتقماً : متغيراً ، وفي ابن هشام : « منتقماً ، وهما سواء » .

(٣) قال السهيلي : « ذلك ما فتح الله عليه من تلك البلاد ، حتى كانت الخلافة فيها مدة بني أمية ، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنوره صلى الله عليه وسلم » .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ - ١٧٧ (نشرة المكتبة التجارية) .

أهلى فى بطن وادى مع أترابى لى من الصبيان ، تتقاذف بالجلّة؛ إذ أتانى رهط ثلاثة ؛ معهم طشت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هُرَّاباً حتى اتهبوا إلى شفير الوادى ، ثم عادوا إلى الرَّهْط ، فقالوا : ما أَرَبُكُمْ إلى هذا الغلام ، فإنه ليس منّا ! هذا ابن سيّد قريش ، وهو مسترضع فينا ؛ غلام يتيم ليس له أب ، فماذا يرُدُّ عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ! ولكن إن كنتم لا بدّ قاتليه ، فاختراروا منّا أينما شئتم فاقتلوه مكانه ، ودَعُوا هذا الغلام ، فإنه يتيم .

فلما رأى الصبيان أنّ القوم لا يُحَيِّرون لهم جوابا ، انطلقوا هُرَّابا مسرعين إلى الحىّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم ، فأضجعتنى إضجاعا لطيفا ، ثم شقّ ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حسّا ، ثم أخرج بطنى فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثانى منهم ، فقال لصاحبه : تنحّ ، فنحّاه عنيّ ، ثم أدخل يده فى جوفى ، وأخرج قلبى ، وأنا أنظر إليه ، فصدّعه ثم أخرج منه مُضغّة سوداء فرماها ، ثم قال بيده : يَمَنَّةٌ ^(١) منه وكأنه ^(٢) يتناول شيئا ، فإذا فى يده خاتم من نور ، تحارُّ أبصار الناظرين دونه ، فحتم به قلبى ، ثم أعاده مكانه فوجدتُ يرُدُّ ذلك الخاتم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنحّ عنه ، فأمرتُ يده ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشقّ ، ثم أخذ بيدي فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، وقال للأوّل الذى شقّ بطنى : زنه بعشرة من أمته ، فوزنتى بهم فرجحتهم ، فقال : دعوه ، فلو وزتموه بأمته كلّها لرجحهم ، ثم ضمّونى إلى صدرهم ، وقبلوا رأسى ومابين عينيّ ، وقالوا : يا حبيبَ الله ، لا ترعّ ، إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك ! فبينما أنا كذلك إذا أنا بالحقى قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمى - وهى

(١) فى الأصول : « نيمه » تصحيف . (٢) الطبرى : « وكأنه » .

ظئرى - أمام الحى تهتف بأعلى صوتها ، وتقول : يا ضعيفاه ! فانكبت على أولئك الرهط
فقبلوا رأسى وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من ضعيف ! ثم قالت ظئرى : يا وحيداه !
فانكبوا على ، وضموني إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عيني ، ثم قالوا : حبذا أنت
من وحيد ! وما أنت بوحيد ! إن الله وملائكته معك وللمؤمنين من أهل الأرض ، ثم قالت
ظئرى : يايتيهاه ! استضعفت من بين أصحابك ، فقتلت لضعفك ، فانكبوا على وضموني
إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على
الله لو تعلم ما يراد بك من الخير ! قال : فوصل الحى إلى شفير الوادى ، فلما بصرت بي
أمى - وهى ظئرى - نادى : يا بنى ، ألا أراك حيًا بعد ! فجاءت حتى انكبت على ،
وضممتنى إلى صدرها ، فوالذى نفسى بيده ، إني لفي حجرها قد ضمتنى إليها ، وإن يدي
لفي يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم ،
فيقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَم ، أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى
كاهن بنى فلان ، حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : ما بى شيء مما يذكرون ، نفسى سليمة ،
وإن فؤادى صحيح ؛ ليست بى قلبه (١) . فقال أبى - وهو زوج ظئرى : ألا ترون كلامه
صحيحًا ! إني لأرجو ألا يكون على ابنى بأس .

فاتفق القوم على أن يذهبوا إلى الكاهن بى ، فاحتملوني حتى ذهبوا بى إليه ، فقصوا
عليه قصتى ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فهو أعلم بأمره منكم ، فسألنى فقصتُ
عليه أمرى ، وأنا يومئذ ابن خمس سنين ، فلما سمع قولى وثب وقال : يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام
فهو اللات والعزى لئن عاش لبيد لئن دينكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بما لم تسمعوا به
قط ، فانزعمتنى ظئرى من حجره ، وقالت : لو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ،

(١) ليس بى قلبه ، أى ليس به شيء ، وأصله من الغلاب ، وهو داء يأخذ الإبل فى ره وسها ، فيقلبها
إلى فوق ، قال فى اللسان : « ولا يستعمل إلا فى النقي » .

ثم احتملوني فأصبحتُ وقد صار في جَسَدِي أثر الشقِّ ، ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشَّرَكُ (١) .

وروى أن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام سأله عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ (٢) . فقال عليه السلام : يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكةً يُحصون أعمالهم ، ويؤدُّون إليه تبليغهم الرِّسالة ، ووكل بمحمد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يُرشدُه إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ، ويصدِّه عن الشرِّ ومساوئ الأخلاق ، وهو الذي كان يناديه : السَّلَامُ عليك يا محمد يا رسول الله وهو شابٌّ لم يبلغ درجَةَ الرِّسالة بعد ، فيظنُّ أن ذلك من الحجر والأرض ، فيتأمل فلا يرى شيئاً .

وروى الطبري في " التاريخ " عن محمد بن الحنفية ، عن أبيه عليّ عليه السلام ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما هممت بشيءٍ مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلَّ ذلك يحولُ الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوءٍ حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلةً لغلامٍ من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمُرَ بها كما يسمُرُ الشباب ، فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دارٍ من دُور مكة ، سمعتُ عزّاً بالدَّفِّ (٣) والمزامير ، فقلت : ما هذا؟ قالوا : هذا فلان تزوج ابنة فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعتُ شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، ثم قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك ، فقال : أفل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على

(١) الخبر بتفصيل أوفى في الطبري : ٢ : ١٦١ - ١٦٥ (طب المعارف) .

(٢) سورة الجن ٢٧ .

(٣) الطبري : « بالدفوف » .

أذنى ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فأخبرته الخبر ، ثم ماهمتُ بعدها بسوء ، حتى أكرمني الله برسالته (١) .

وروى محمد بن حبيب في " أماليه " قال : قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :
أذُكُرُ وَأَنَا غلامُ ابنِ سبعِ سنين ، وقد بنى ابنُ جُدعان داراً له بِمَكَّةَ ، فحُتَّتْ مع الغلمانُ تأخذُ الترابَ والمدَرَ في حُجورنا فننقله ، فمَلَّتْ حِجْرِي تُراباً فانكشفت عورتِي ، فسمعتُ نداءً من فوق رأسي : يا مُحَمَّدَ ، أَرِخْ إِزارَكَ ، فجعلتُ أرفعُ رأسي فلا أرى شيئاً ، إلا أني أسمعُ الصوتَ ، فمأسكتُ ولم أَرِخْهُ ، فكانَ إنساناً ضربني عَلَى ظَهْرِي ، فخررت لوجهي ، وانحلتُ إِزارِي فسترني ، وسقط الترابُ إلى الأرض ، فقامتُ إلى دارِ أبي طالبِ عمِّي ولم أعد .

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بحِراءِ فمشهور ، وقد ورد في الكُتُب الصحاح أَنَّهُ كان يجاور في حِراءِ من كلِّ سنة شهراً ، وكان يُطِعمُ في ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من حِراءِ ، كان أوَّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتيَ باب الكعبة قبل أن يدخلَ بيته ، فيطوفَ بها سبعاً ، أو ما شاء اللهُ من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى جاءت السنة التي أكرمه اللهُ فيها بالرسالة ، فجاور في حِراءِ شهر رمضان ، ومعه أهله : خديجة وعلی بن أبي طالب وخادم لهم ، فجاءه جبريل بالرسالة ، وقال عليه الصلاة والسلام : جاءني وأنا نائمٌ بنمطٍ فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أقرأ ، ففتنني (٢) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ﴾

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٢٧٩ (المعارف) .

(٢) غثنى ، قال ابن الأثير : « الفت والفظ سواء ، كأنه أراد : عصرتني عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة كما يجرد من يغمس في الماء قهراً . النهاية ٣ : ١٤٩ .

مَا لَمْ يَعْلَمْ^(١) . فقرأته ، ثم انصرف عني فانتبهت من نومي ، وكأنا كتب في قلبي كتاب ، وذكر تمام الحديث .

وأما حديث أن الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحد يومئذ إلا النبي وهو - عليهما السلام - وخديجة ، فخير عفيف الكندي مشهور ، وقد ذكرناه من قبل ، وأن أبا طالب قال له : أتدرى من هذا؟ قال : لا قال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؛ وهذا ابني علي بن أبي طالب ، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد؛ زوجة محمد ابن أخي ، وإيم الله ما علم على الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

وأما رنة الشيطان ، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مسنده ، عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله صبيحة الليلة التي أسرى به فيها ، وهو بالحجر يصلي ، فلما قضى صلاته ، وقضيت صلاتي ، سمعت رنة شديدة ، فقلت : يا رسول الله ، ماهذه الرنة؟ قال : ألا تعلم ! هذه رنة الشيطان ، علم أنني أسرى بي الليلة إلى السماء ، فأبس من أن يُعبد في هذه الأرض .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله ما يشابه هذا ، لما بايعه الأنصار السبعون ليلة العقبة سمع من العقبة صوت عال في جوف الليل : يا أهل مكة ، هذا مذم والصباء معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار : ألا تسمعون ما يقول ! هذا أرب العقبة - يعني شيطانها ، وقد روى : « أرب العقبة » . ثم التفت إليه ، فقال^(٢) : استمع يا عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

(١) سورة اقرأ : ٥ .

(٢) في اللسان : « كانت العرب تسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصابي لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ، ويسمون من دخل في دين الإسلام مصبواً ، لأنهم كانوا لا يهزون ، فأبدلوا من الهززة واواً ، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز ، كأنه جمع الصابي » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، قال : كان عليّ عليه السلام يركب مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ، ويسمع الصوت ، وقال له صلى الله عليه وآله : « لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة ، فإن لا تكن نبياً فإنك وصي نبي ووارثه ، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء » .

وأما خبر الوزارة ، فقد ذكره الطبري في تاريخه ، عن عبد الله بن عباس عن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، قال لما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١) ؛ صَلَّى رسول الله صلى الله عليه وآله دعاني ، فقال : يا عليّ ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فضقت بذلك ذرعا ، وعلمت أني متى أنادم بهذا الأمر أراهم ما أكره ، فصمت حتى جاءني جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إنك إن لم تفعل ما أمرت به يعذبك ربك ؛ فاصنع لنا صاعاً من طعام ، واجعل عليه رجلاً شاة ، واملاً لنا عساً من لبن ، ثم اجمع بني عبد المطلب حتى أكلهم ، وأبلغهم ما أمرت به . ففعلت ما أمرني به ، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، وفيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب ؛ فلما اجتمعوا إليه دعا بالطعام الذي صنعت لهم ، فحفت به ، فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وآله بضعة^(٢) من اللحم فشقها بأسنانه ، ثم ألقاها في نواحي الصحفة ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فأكلوا حتى مالهم إلى شيء من حاجة ، وإيم الله الذي نفس عليّ بيده ، إن كان الرجل الواحد منهم لياً كل ما قدمته لجمعهم ، ثم قال : اسق القوم يا عليّ ، فحفتهم بذلك العن فشربوا منه ، حتى رووا جميعاً ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام ، فقال : لشدّ ما سحركم صاحبكم ! ففترق القوم ، ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال من الغد : يا عليّ ، إن هذا الرجل قد سبقني

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .

(٢) البضعة بالفتح ، وقد تكسر : القطعة من اللحم .

إلى ما سمعت من القول ، ففتفرق القوم قبل أن أكلهم ، فعدلنا اليوم إلى مثل ما صنعت
بالأمس ، ثم اجتمعهم لى . ففعلت ثم جمعهم ، ثم دعاني بالطعام ، فقرّبه لهم ، ففعل كما فعل
بالأمس ، فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة ، ثم قال : استقيهم ، فنجتهم بذلك المس ،
فشرّبوا منه جميعا ، حتى رووا ، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا بني
عبد المطلب ، إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد
جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأيتكم يوازرني على هذا
الأمر ، على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت أنا^(١) -
وإني لأحدسهم سناً وأرمضهم^(٢) عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحشهم^(٣) سلقا : أنا يا رسول
الله أكون وزيرك عليه ، فأعاد القول ، فأمسكوا وأعدت ما قلت ، فأخذ برقبتي ، ثم قال لهم :
هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ، ويقولون
لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(٤) .

ويدل على أنه وزير رسول الله صلى الله عليه وآله من نص الكتاب والسنة قول
الله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ
فِي أَمْرِي ﴾^(٥) . وقال النبي صلى الله عليه وآله في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق
الإسلام : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » ؛ فأثبت له جميع
مراتب هارون عن موسى ، فإذا هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشاد أزره ،
ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكا في أمره .

(١) ساقطة من التاريخ .

(٢) الرمس في العين : كالنفس ، وهو قذى تلفظ به ؛ كناية عن صغر سنه .

(٣) حش السابقين : ربيعهما .

(٤) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٩ - ٣٢١ (المعارف) ، وتفسير الطبري ١٩ : ٧٤ ، ٧٥ (بولاق) ،

بتفصيل أوفى .

(٥) سورة طه ٢٩ - ٣١ .

وروى أبو جعفر الطبري أيضا في "التاريخ" : أن رجلا قال لعلي عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، بم ورثت ابن عمك دون عمك ؟ فقال علي عليه السلام : هاؤم ثلاث مرات ، حتى اشرب الناس ، ونشروا آذانهم ، ثم قال : جمع رسول الله صل الله عليه وآله بنى عبد المطلب بمكة ، وهم رهطه ^(١) كلهم ، يأكل الجذعة ، ويشرب الفِرَق ^(٢) ، فصنع مِذًا من طعام ، حتى أكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو ، كأنه لم يمس ، ثم دعا بغير ^(٣) ، فشربوا وزروا ؛ وبقى الشراب كأنه لم يشرب ، ثم قال : يا بنى عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، فأيكم يبأيئني على أن يكون أخي وصاحبي ، ووارثي ؟ فلم يقيم إليه أحدٌ ، فقامت إليه ، وكنت من أصغر القوم ، فقال : اجلس ، ثم قال : ذلك ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه ، فيقول : اجلس ؛ حتى كان في الثالثة ، فضرب بيده على يدي ، فعند ذلك ورثت ابن عمي دون عمي ^(٤) .

الأصل :

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ قَدْ أَدْعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدِّعِهِ آبَاؤُكَ ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا نَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا : تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ؛ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا ، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ

(١) في الأصول : « رهط » ، وأثبت ما في الطبري .

(٢) الفرق ، بكسر الفاء ، وبعضهم يقول بالفتح : مكيال كبير لأهل المدينة يكال به اللبن .

(٣) الغمر : القدح الصغير . (٤) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٢ .

شَيْءٌ قَدِيرٌ ؛ فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ ! قَالُوا : نَعَمْ ،
 قَالَ : فَإِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيثُونَ إِلَى خَيْرٍ ، وَإِنِّي فِيكُمْ
 مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْ يُحْزَبُ الْأَحْزَابِ . ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا أَيُّهَا
 الشَّجَرَةُ ، إِنْ كُنْتِ تُوْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَانْقَلِعِي
 بِعُرْوَتِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ؛ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَا تَقْلَعْتِ بِعُرْوَتِهَا ،
 وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ ، وَقَصَفُ كَقَصْفِ أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرِفَةً ؛ وَأَلْقَتْ بِغُضَنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبِغُضِّهَا عَلَى مَنْكَبِي ؛ وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ،
 فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ ، قَالُوا عَلُوًّا وَاسْتِكْبَارًا : فَمَرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ؛ وَيَبْقَى نِصْفُهَا ،
 فَأَمَرَهَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا ، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُوًّا : فَمَرَّ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ ،
 كَمَا كَانَ ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ ، فَقُلْتُ أَنَا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ إِنِّي
 أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقْرَبَ بَانَ الشَّجَرَةَ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ
 تَعَالَى تَصَدِيقًا بِنُبُوَّتِكَ ؛ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ . فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ : بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ،
 عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ ؛ وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا ! يَعْنُونَنِي -
 وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ؛ سِيَاهُمْ سِيَاهُ الصَّادِقِينَ ، وَكَلَامُهُمْ
 كَلَامُ الْأَبْرَارِ ؛ عَمَّارُ اللَّيْلِ ، وَمَنَارُ النَّهَارِ ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ ، يُحْيُونَ
 سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَفْلُونَ ؛ وَلَا يَفْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ ،
 قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ .

الشَّيْخُ :

للأئمة الجماعة . ولا تفيثون : لا ترجعون . ومن يُطرح في القليب ، كعُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابني ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة ، المكْنَى أبا جهل وغيرهم ، طُرِحوا في قَلْبِ بَدْرٍ بَعْدَ انقضاء الحرب ، ومن يحزَّب الأحزاب ، أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية .

والقَصْفُ والقَصِيفُ : الصوت . وسِيَامٌ : علامتهم ، ومثله « سيمياء » .

ومعنى قوله عليه السلام : « قلوبهم في الجنان ، وأجسادهم في العمل » ، أن قلوبهم ملتذّة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصابة بالعبادة .

وأما أمرُ الشجرة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض ، قد ذكره المحدثون في كتبهم ، وذكره المتكلمون في معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، والأكثر من رواها الخبر فيها على الوضع الذي جاء في خطبة أمير المؤمنين ، ومنهم من يروي ذلك مختصراً أنه دعا شجرة فأقبلت تحنُّ إليه الأرض خدّاً .

وقد ذكر البيهقي في كتاب " دلائل النبوة " حديث الشجرة ، ورواه أيضاً محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي على وجه آخر ، قال محمد بن إسحاق : كان رُكَّانَةً^(١) بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدَّ قريش كلها ، فخلا يوماً برسول الله صلى الله عليه وآله في بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يارُكَّانَةَ ، ألا تتقي الله ، وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : لو أعلم أن الذي تقول حقٌّ لا أتبعك ، قال : أفرأيت إن صرعتك ؛ أنعلم أن ما أقول لك حقٌّ ؟ قال : نعم ، قال : فقم حتى أصارعك ، فقام رُكَّانَةَ ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وآله أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً ، فقال : عدُّ يا محمد ، فعاد فصرعه ، فقال : يا محمد ، إن هذا لعجبٌ حين^(٢) نصرعني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأعجب من ذلك إن شئت أريتكه ، إن اتقيت الله ، واتبعت أمري ،

(١) كذا ضبطه صاحب الاشتقاق ٧٨ ، بضم الراء .

(٢) ب : « حتى » ، تصحيف ، وفي ابن هشام : « أنصرعني » .

قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التي تراها ، فتأتى ، قال : فاذعها ؛ فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : ارجعى إلى مكانك ، فرجعت إلى مكانها ، فرجع رُكّانة إلى قومه ، وقال : يا بنى عبد مناف ، ساحرُوا (١) بصاحبكم أهل الأرض ! فما رأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذى رأى ، والذى صنع (٢) .

[القول فى إسلام أبى بكر وعلّى وخصائص كلّ منهما]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضوع ملخص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب " العُمانية " فى تفضيل إسلام أبى بكر على إسلام على عليه السلام ، لأنّ هذا الموضوع يقتضيه ، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله : وهل يصدقك فى أمرك إلّا مثل هذا ! لأنهم استصغروا سنّه ؛ فاستحقروا أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث لم يصدّقه فى دءواه إلا غلام صغير السن ، وشُبّهة العُمانية التي قررها الجاحظ من هذه الشُبّهة نشأت ، ومن هذه الكلمة تفرّعت ، لأن خلاصتها أن أبى بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة ، وعلّى أسلم ولم يبلغ الحلم ، فكان إسلام أبى بكر أفضل .

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافى على الجاحظ فى كتابه المعروف بـ " نقض العمانية " ؛ ويتشعب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث فى الإسلاميين إلى البحث فى أفضليّة الرّجلين وخصائصهما ؛ فإنّ ذلك لا يخلو عن فائدة جليّة ، ونكتة

(١) ساحرُوا : أى غالبوا بالسحر .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٤١٨ (نشرة المكتبة التجارية) .

لطيفة ، لا يليق أن يخلو كتابنا هذا عنها ؛ ولأنّ كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه ، وفي الكتابة أقصد وأدخل ، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله .

قال أبو عثمان : قالت العمانيّة : أفضل الأئمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبي قحافة عليه ما عليه لإسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد في عصره ؛ وذلك أن الناس اختلفوا في أوّل الناس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زيد بن حارثة ، وقال قوم : خبّاب بن الأرت .

وإذا تفقّدنا أخبارهم ، وأحصينا أحاديثهم ، وعددنا رجالهم ، ونظرنا في صحّة أسانيدهم ، كان الخبر في تقدّم إسلام أبي بكر أعمّ ورجاله أكثر ، وأسانيدهم أصحّ ، وهو بذلك أشهر ، واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة ، والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته ، وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها ، وأصل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطؤ ، ولكن ندع هذا المذهب جانبا ، ونضرب عنه صفحا ، اقتدارا على الحجّة ، ووثوقا بالفلج والقوّة ، وتقتصر على أدنى نازل في أبي بكر ، وننزل على حكم الخضم ؛ فنقول : إنا وجدنا من يزعم أنه أسلم قبل زيد وخبّاب ، ووجدنا من يزعم أنهما أسلما قبله ، وأوسط الأمور عدلها ، وأقر بها من محبّة الجميع ، ورضا المخالف ؛ أن نجعل إسلامهم كان معا ، إذ الأخبار متكافئة ، والآثار متساوية على ما تزعمون ، وليست إحدى القضيتين أولى في صحّة العقل من الأخرى ؛ ثم نستدل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث ؛ وبما أبانه به الرسول صلى الله عليه وآله من غيره .

قالوا : فمما روي من تقدّم إسلامه ما حدّث به أبو داود وابن مهدي عن شعبة ، وابن عيينة ، عن الجريري ، عن أبي هريرة ، قال : أبو بكر : أنا أحقكم بهذا الأمر - يعني الخلافة - ألسن أول من صلى !

روى عباد بن صُهَيْب ، عن يَحْيَى بن عَمِير ، عن مُحَمَّد بن المنْكَدِر ، أن رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : « إِنْ اللهُ بَعَثَنِي بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، فَقَالُوا : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتَ » .

وروى يَعْلى بنُ عُبَيْد ، قال : جاء رجل إلى ابنِ عَبَّاس ، فسأله : مَنْ كَانَ أَوَّلَ النَّاسِ إِسْلَامًا : فقال : أما سمعت قولَ حسان بنِ ثابت !

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةً فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا^(١)
الثَّانِيَ التَّالِيَّ الْحَمُودَ مُشْهَدُهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرِّسَالَا^(٢)
وقال أبو نُجَيْجَن :

سَبَقْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدُ وَكُنْتَ حَبِيبًا بِالْعَرِيشِ الْمَشْهُرِ^(٣)
وقال كعب بن مالك :

سَبَقْتَ أَخَا تَيْمٍ إِلَى دِينِ أَحْمَدٍ وَكُنْتَ لَدَى الْغَيْرَانِ فِي الْكَهْفِ صَاحِبَا^(٤)
وروى ابنُ أَبِي شَيْبَةَ ، عن عبدِ اللهِ بنِ إِدْرِيسَ ووَكَيْع ، عن شُعْبَةَ ، عن عمرو بنِ مَرْثَدَةَ ، قال : قَالَ النَّخَعِيُّ : أَبُو بَكْرٍ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ .

وروى هَيْثَمُ عن يَعْلى بنِ عَطَاء ، عن عمرو بنِ عَنبَسَةَ ، قال : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ بَعْكَاطُ ، فَقُلْتُ : مَنْ بَايَعَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ؟ فَقَالَ : بَايَعَنِي حُرٌّ وَعَبْدٌ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ وَأَنَا رَابِعُ الْإِسْلَامِ .

(١) ديوانه ٢٩٩ ، والثمانية ١١١ (٢) بعده في الديوان والثمانية :

وَتَائِيَّ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ طَافَ الْعِدَاءُ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجِبَالَ
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَتَقَاهَا وَأَطْهَرَهَا إِلَّا النَّبِيَّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا

(٣) في الأصول : « المشهرا » ، وأثبت ما في الثمانية ، من أبيات ثلاثة أوردها على قافية الراء المكسورة

(٤) الثمانية ١١١

قال بعض أصحاب الحديث : يعنى بالحرّ أبو بكر وبالعبد بلالا .

وروى الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح ، عن سليم بن عامر ، عن أبي أمامة ، قال :
حدّثنى عمرو بن عبّسة ، أنه سأل النبيّ صلى الله عليه وآله وهو بمكّظ ، فقال له : مَنْ
تبعك ؟ قال : تبعنى حرٌّ وعبد : أبو بكر وبلال .

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشمي ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أسيد بن صفوان ؛
صاحب النبيّ صلى الله عليه وآله قال : لما قبضَ أبو بكر جاء عليّ بن أبي طالب عليه
السلام ، فقال : رحمك الله أبو بكر ! كنتَ أوّلَ الناس إسلاما .

وروى عبّاد ، عن الحسن بن دينار ، عن بشر بن أبي زينب ، عن عكرمة مولى
ابن عباس ، قال : إذا لقيت الهاشميين قالوا : عليّ بن أبي طالب أوّلَ مَنْ أسلمَ ؛ وإذا
لقيت الذين يعلمون ، قالوا : أبو بكر أوّلَ مَنْ أسلمَ .

قال أبو عثمان الجاحظ : قالت العمانية : فإن قال قائل : فما بالك لم تذكروا عليّ بن
أبي طالب في هذه الطبقة ، وقد تعلمون كثرة مقدّميه والرواية فيه ؟

قلنا : قد علمنا الرواية الصحيحة ، والشهادة القائمة ؛ أنه أسلم وهو حدّثُ غرير ، وطفل
صغير ، فلم نكذب الناقلين ، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأنّ المقلّل زعم
أنه أسلم ، وهو ابن خمس سنين ، والمكثّر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ، فالقياس أن
يؤخذ بالأوسط بين الروایتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإتّما يُعرفُ حقُّ ذلك من باطله ،
بأنّ نحصي سنه التي ولى فيها الخلافة ، وسنى عمر ، وسنى عثمان ، وسنى أبي بكر ، ومقام النبي
صلى الله عليه وآله بالمدينة ، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فإذا فعلنا ذلك صحّ أنه أسلم
وهو ابن سبع سنين ، فالتاريخ الجمّع عليه أنه قُتل عليه السلام في شهر رمضان
سنة أربعين .

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي^(١): لولا ما غلبَ على الناس من الجهل وحبّ التقليد ، لم نحتجُ إلى نقض ما احتجّت به العثمانية ، فقد علم الناس كافةً ؛ أنّ الدولة والسلطان لأرباب مقالتهن ، وعرف كلّ أحدٍ علوَ أقدار شيوخهنّ وعلماهنّ وأمرأتهنّ ، وظهور كلمتهنّ ، وقهر سلطانهنّ وارتفاع التقية عنهنّ والكرامة ، والجائزة لمن روى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر ، وما كان من تأكيد بنى أمية لذلك ، وما ولده المحدثون من الأحاديث طلبا لما في أيديهنّ ، فكانوا لا يألون جهداً في طول ماملكنوا أن يُخملوا ذكرَ عليّ عليه السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم ، ويحملوا على شتمهم وسبهم ولعنهم على المنابر ؛ فلم يزل السيف يقطرُ من دماهم ، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ، فكانوا بين قتيلٍ وأسير ، وشريد وهارب ، ومستخفٍ ذليل ، وخائف مترقب ، حتى إنَّ الفقيه والمحدث والقاضي والمتكلم ، كيتقدّم إليه ويتوعد بغاية الإبعاد وأشدّ العقوبة ، أن لا يذكروا شيئاً من فضائلهم ، ولا يرخّصوا لأحدٍ أن يُطيف بهم ، وحتى بلغ من تقية المحدث أنّه إذا ذكر حديثاً عن عليّ عليه السلام كغنى عن ذكره ، فقال : قال رجلٌ من قریش ، وفعل رجلٌ من قریش ، ولا يذكر علياً عليه السلام ، ولا يتفوّه باسمه .

ثم رأينا جميعَ المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله ، ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها ، من خارجيّ مارق ، وناصب حنق ، وثابت مستبهم ، وناشئ معاند ، ومناقك مكذّب ، وعثمانيّ حسود ، يعترض فيها ويطعن ، ومعتزليّ قد نقض في الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ،

(١) هو محمد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافي ، ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٥ : ٤١٦ ، وقال عنه : « أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين ، وله تصانيف معروفة . . . وبلغني أنه مات في سنة أربعين ومائتين » .

وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيلَ في إبطال مناقبه وتأويل مشهور فضائله ، فرّة يتأولها بما لا يحتمل ، ومرّة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقضى ، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ، ووضوحا واستنارة ؛ وقد علمت أن معاوية ويزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم - وذلك نحو ثمانين سنة - لم يدعوا جهدا في تحمّل الناس على شتمه ولثنه وإخفاء فضائله ، وستر مناقبه وسوابقه .

روى خالد بن عبد الله الواسطي ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن هلال بن يساف ، عن عبد الله بن ظالم قال : لما بُويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليا عليه السلام ، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجلٍ من أهل الجنة !

روى سليمان بن داود ، عن شعبة ، عن الحرّ بن الصباح ، قال : سمعتُ عبد الرحمن بن الأحنس ، يقول : شهدتُ المغيرة بن شعبة خطب فذكر علياً عليه السلام ، فقال منه .

روى أبو كريب ، قال : حدثنا أبو أسامة ، قال : حدثنا صدقة بن المثني النخعي عن رياح بن الحارث ، قال : بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر ، وعنده ناس إذ جاءه رجلٌ يقال له : قيس بن علقمة ، فاستقبل المغيرة ، فسبّ عليا عليه السلام .

روى محمد بن سعيد الأصفهاني ، عن شريك ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن علي ابن الحسين ، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام ، قال : قال لي مروان : ما كان في القوم أذفع عن صاحبنا من صاحبكم . قلت : فما بالك تسبّونه على المنابر ؟ قال : إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك .

روى مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي ، عن ابن أبي سيف ، قال : خطب مروان والحسن عليه السلام جالساً فقال من عليّ عليه السلام ، فقال الحسن : ويحك يا مروان ! أهدأ الذي تشتم شرّ الناس ! قال : لا ، ولكنه خيرُ الناس .

وروى أبو عثمان أيضاً ، قال : قال عمرُ بن عبد العزيز : كان أبي يخطب فلا يزال مستمرّاً في خطبته ؛ حتى إذا صار إلى ذكر عليّ وسبه تقطع لسانه ، واصفرّ وجهه ، وتغيّرت حاله ، فقلت له في ذلك ، فقال : أوقد فطنتَ لذلك؟ إن هؤلاء لو يعلمون من عليّ ما يعلمه أبوك ماتبعنا منهم رجل .

وروى أبو عثمان ، قال : حدّثنا أبو اليقظان ، قال : قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرفة ، فقال : إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تراب .

وروى عمرو بن القناد ، عن محمد بن فضيل ، عن أشعث بن سوار ، قال : سبّ عدى بن أرطاة عليّاً عليه السلام على المنبر ، فبكى الحسن البصرى وقال : لقد سبّ هذا اليوم رجلٌ إنه لأخو رسول الله صلّى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة .

وروى عدى بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم ، قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة ممّا يلي أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب ، حمّد الله ، ثم ذكر ما شاء أن يذكر ، ثم وقع في عليّ عليه السلام ، فضرب إبراهيم على فخذي أوركبتي ، ثم قال : أقبل عليّ ؛ فحدّثني فإننا لسنا في جمعة ، ألا تسمع ما يقول هذا !

وروى عبد الله بن عثمان الثقفى ، قال : حدّثنا ابنُ أبي سيف ، قال : قال ابن لعامر ابن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بنيّ عليّاً إلا بخير ؛ فإن بني أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزدّه الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبين شيئاً قطّ إلا رجعت على ما بنّت فهدمته ، وإن الدّين لم يبين شيئاً قطّ وهدّمه .

وروى عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا مطلب بن زياد ، عن أبي بكر بن عبد الله الأصبهانيّ ، قال : كان دعوى لبني أمية يقال له خالد بن عبد الله ؛ لا يزال يشتم عليّاً عليه

السلام ، فلما كان يوم الجمعة ، وهو يخطب الناس ، قال : والله إن كان رسول الله ليستمعله ،
وإنه ليعلم ما هو ! ولكنه كان ختنه ، وقد نعى سعيد بن المسيب ففتح عينيه ، ثم قال :
ويحك ! ما قال هذا الخبيث رأيت القبر انصدع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول :
كذبت يا عدو الله !

وروى القناد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر الهمداني ، عن السدي ، قال : بينا
أنا بالمدينة عند أحجار الزيت ، إذ أقبل راكب على بعير ، فوقف فسب عليا عليه السلام ،
خف به الناس ينظرون إليه ، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال :
اللهم إن كان سباً عبداً لك صالحاً ، فأرسله خزيه ، فما لبث أن نفر به بعيره فسقط ،
فاندقت عنقه .

وروى عثمان بن أبي شيبة ، عن عبد الله بن موسى ، عن فطر بن خليفة ، عن
أبي عبد الله الجدلي ، قال : دخلت على أم سلمة رحمها الله فقالت لي : أيسب رسول الله
صلى الله عليه وآله فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأنى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسب على
عليه السلام ومن يحبه !

وروى العباس بن بكار الضبي ، قال : حدثني أبو بكر الهذلي ، عن الزهري ،
قال : قال ابن عباس لمعاوية : ألا تكف عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل
حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه ،
فقتل الناس : ترك السنة .

قال : وقد روى عن ابن مسعود إما موقوفاً عليه أو مرفوعاً ؛ كيف أتم إذا شملتمكم
فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير ، يجرى عليها الناس فيتخذونها سنة ، فإذا غير
منها شيء قيل : غيرت السنة !

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أن بعض الملوك ربما أحدثوا قولاً ، أو ديناً لهوى فيحملون
الناس على ذلك ؛ حتى لا يعرفون غيره ، كنفحو ما أخذ الناس الحجاج بن يوسف بقراءة
عثمان ، وترك قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ، وتوعدت على ذلك بدون ما صنع هو وجبايرة
بنى أمية وطفة بنى مروان بولد على عليه السلام وشيعته ، وإنما كان سلطانه نحو عشرين
سنة ، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون
غيرها ؛ لإمساك الآباء عنها ، وكف المعلمين عن تعليمها ؛ حتى لو قرأت عليهم قراءة
عبد الله وأبي ما عرفوها ، ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول
الجهالة ؛ لأنه إذا استوتت على الرعية الغلبة ، وطالت عليهم أيام التسلط ، وشاعت فيهم
الخافة ، وشملتهم التقية ؛ اتفقوا على التخاذل والتساکت فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم ؛
وتنقص من ضمائرهم ، وتنقص من مرائرهم ، حتى تصير البدعة التي أحدثوها غامرة للسنة
التي كانوا يعرفونها ؛ ولقد كان الحجاج ومن وآله ، كعبد الملك والوليد ومن كان قبلهما
وبعدهما من فراعنة بنى أمية على إخفاء محاسن علي عليه السلام وفضائله وفضائل ولده
وشيعته ، وإسقاط أقدارهم ، أحرص منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبي ؛ لأن تلك
القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم ، وفساد أمرهم ، وانكشاف حالهم ؛ وفي اشتها
فضل علي عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارهم ، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ؛
فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله ، وحلوا الناس على كتمانها وسترها ؛ وأبى الله أن يزيد
أمره وأمر ولده إلا استنارة وإشراقاً ، وحبهم إلا شغفا وشدة ، وذكرهم إلا انتشاراً
وكثرة ، وحبهم إلا وضوحاً وقوة ، وفضلهم إلا ظهوراً ، وشأنهم إلا علواً ؛ وأقدارهم
إلا إعظاماً ، حتى أصبحوا يباهونهم إياهم أعزاء ؛ وبإماتتهم ذكرهم أحياء ؛ وما أرادوا به
وبهم من الشر تحول خيراً ، فاتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه
مالم يتقدمه السابقون ؛ ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون ؛ ولولا أنها كانت

كالتقبلة المنصوبة في الشهرة ، وكالثن المحفوظة في الكثرة ؛ لم يصل إلينا منها في دهرنا حرف واحد ؛ إذ كان الأمر كما وصفناه .

قال : فأمّا ما احتجّ به الجاحظ بإمامة أبي بكر ، بكونه أوّل الناس إسلاماً ، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً ، لا احتجّ به أبو بكر يوم السقيفة ، وما رأيناه صنع ذلك لأنه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح ، وقال للناس : قد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين ؛ فبايعوا منهما من شئتم ، ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها ، ولو كان احتجاجاً صحيحاً لا دعى واحد من الناس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره ، بكونه سبق إلى الإسلام ؛ وما عرفنا أحداً ادعى له ذلك ، على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدّة من الرّجال ؛ منهم عليّ ابن أبي طالب ، وجعفر أخوه ، وزيد بن حارثة ، وأبو ذرّ الغفاري ، وعمر بن عبّسة السلميّ ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وخبّاب بن الأرت ؛ وإذا تأملنا الرّوايات الصحيحة ، والأسانيد القويّة الوثيقة ، وجدناها كلّها ناطقة بأنّ عليّاً عليه السلام أوّل من أسلم .

فأمّا الرواية عن ابن عباس أنّ أبا بكر أوّلهم إسلاماً فقد روى عن ابن عبّاس خلاف ذلك ، بأكثر مما رووا وأشهر ، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حمّاد ، عن أبي عوانة وسعيد ابن عيسى ، عن أبي داود الطيالسيّ ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عبّاس ؛ أنه قال : أوّل من صلى من الرّجال عليّ عليه السلام .

وروى الحسن البصريّ ، قال : حدّثنا عيسى بن راشد ، عن أبي بصير ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس ، قال : فرض الله تعالى الاستغفار لعليّ عليه السلام في القرآن

على كل مسلم ، بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ (١) ؛
فكل من أسلم بعد عليّ فهو يستغفر لعليّ عليه السلام .

وروى سفيان بن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ؛ عن ابن عباس ، قال :
السُّبَّاقُ ثلاثة : سَبَقَ يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب « يس » إلى عيسى ، وسبق
عليّ بن أبي طالب إلى محمد عليه وعليهم السلام .

فهذا قول ابن عباس في سبق عليّ عليه السلام إلى الإسلام ، وهو أثبت من حديث
الشَّعْبِيّ وأشهر ، على أنه قد رُوِيَ عن الشعبيّ خلاف ذلك من حديث أبي بكر الهذليّ
وداود بن أبي هند عن الشعبيّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام :
« هذا أوّل من آمن بي وصدقني وصلى معي » .

قال : فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة في الكتب الصحاح
والأسانيد الموثوق بها ، فمنها ما روى شريك بن عبد الله ، عن سليمان بن المغيرة ، عن زيد
ابن وهب ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : أوّل من علمته من أمر رسول الله صلى
الله عليه وآله أتى قدمت مكة مع عمومة لي وناس من قومي ، وكان من أنفسنا شراء عطر ،
فأرشدنا (٢) إلى العباس بن عبد المطلب ، فأنهينا إليه ، وهو جالس إلى رَمَزَم ، فبينما نحن
عنده جلوسا ، إذ أقبل رجل من باب الصفا ، وعليه ثوبان أبيضان ، وله وفرة إلى
أنصاف أذنيه ؛ جعدة ، أشمّ أفنى ، أدعجُ العينين ، كث اللحية ، براق الثنايا ، أبيض
تعلوه حمرة ، كأنه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مُراهق أو محتلم ، حسن الوجه ،
تقوم امرأة ، قد سترت محاسنها ، حتى قصدوا نحو الحجر ، فاستلمه واستلمه الغلام ، ثم
استلمته للمرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا ، والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحجر ،

(٢) « فأرشدونا » .

(١) سورة الحشر ١٠ .

فقام ورفع يديه وكبر ، وقام الغلام إلى جانبه ، وقامت المرأة خلفهما ، فرفعت يديها ، وكبرت ، فأطال القنوت ، ثم ركع وركع الغلام والمرأة ، ثم رفع رأسه فأطال ، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع ، فلما رأينا شيئاً ننكره ، لا نعرفه بمكة ، أقبلنا على العباس ، فقلنا : يا أبا الفضل ، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم ، قال : أجل والله ، قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابن أخى ، هذا محمد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخى أيضاً ؛ هذا على بن أبي طالب ، وهذه المرأة زوجة محمد ، هذه خديجة بنت خويلد ، والله ما طلّى وجه الأرض أحدٌ يدّين بهذا الدين ؛ إلا هؤلاء الثلاثة .

ومن حديث موسى بن داود ، عن خالد بن نافع ، عن عفيف بن قيس الكندى ، وقد رواه عن عفيف أيضاً ، مالك بن إسماعيل النهدي والحسن بن عنبسة الوراق وإبراهيم ابن محمد بن ميمونة ، قالوا جميعاً : حدثنا سعيد بن جُشم ، عن أسد بن عبد الله البجلي ، عن يحيى بن عفيف بن قيس ، عن أبيه ، قال : كنتُ في الجاهلية عطّاراً ، فقدمت مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فبينما أنا جالس عنده ، أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلقت الشمس في السماء ، أقبل شابٌ كأنّ في وجهه القمر ، حتى رمى بصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصفّ قدميه بصلّى ، فخرج على أثره فتّى كأنّ وجهه صفيحة يمانية ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها ، فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعاً ، فركعاً معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً ، فسجداً معه ، فقلت للعباس : يا أبا الفضل ، أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم ! أتدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا ، قال هذا ابن أخى ، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؛ أتدرى من هذا الفتى ؟ قلت : لا ، قال : هذا ابن أخى على بن أبي طالب بن عبد المطلب ؛ أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا ، قال : هذه ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى ، هذه خديجة زوج محمد هذا^(١) ، وإنّ محمداً هذا يذكر أنّ إلهه إله السماء والأرض ، وأمره بهذا الدين ، فهو عليه كآثرى ،

ويزعم أنه نبيّ ، وقد صدّقه على قوله على ابن عمه هذا الفتى ، وزوجته خديجة ، هذه المرأة ؛
والله ما أعلم على وجه الأرضِ كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة : قال عُفَيْفٌ :
فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ ما يصنع ! يعني أبا طالب أخاه .

وروى عبيد الله بن موسى ، والفضل بن دُكَيْن ، والحسن بن عطية ، قالوا : حدثنا
خالد بن طهّمان ، عن نافع بن أبي نافع ، عن معقل بن يسار ، قال : كنت أوصي النبيّ
صلى الله عليه وآله ، فقال لي : هل لك أن نعود فاطمة ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، فقام
يمشي متوكئاً علىّ ، وقال : أما إنّه سيحمل ثقلها غيرك ، ويكون أجرها لك ، قال : فوالله
كأنّه لم يكن علىّ من ثقل النبيّ صلى الله عليه وآله شيء ؛ فدخلنا علىّ فاطمة عليها
السلام ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : كيف تجدينك ؟ قالت : لقد طال أسفي ،
واشتدّ حزني ، وقال لي النساء : زوجك أبوك فقيراً لا مال له ! فقال لها : أما ترصين
أني زوجتك أقدم أمتي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأفضلهم حملاً ! قالت : بلى رضيت
يا رسول الله .

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد ، وعبد السلام بن صالح ، عن قيس بن الربيع ،
عن أبي أيوب الأنصاريّ ، بالفاظه أو نحوه .

وروى عبد السلام بن صالح ، عن إسحاق الأزرق ، عن جعفر بن عماد ، عن آباءه ، أنّ
رسول الله صلى الله عليه وآله لما زوج فاطمة ، دخل النساء عليها ، فقلن : يا بنت رسول
الله ، خطبتك فلانٌ وفلان ، فردّم عنك ، وزوجك فقيراً لا مال له ، فلما دخل عليها
أبؤها صلى الله عليه وآله رأى ذلك في وجهها ، فسألها فذّكرت له ذلك ، فقال : يا فاطمة ،
إنّ الله أمرني فأنكحتك أقدمهم سلماً ؛ وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حملاً ؛ وما زوجتك
إلاّ بأمرٍ من السماء ؛ أما علمت أنه أخى في الدنيا والآخرة !

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظهير ، عن التدي ؛ أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة عليها السلام ، فردّهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : لم أومرَ بذلك ، فخطبها على عليه السلام ، فزوجه إياها ، وقال لها : زوجتك أقدّم الأمة إسلاما . . . وذكر تمام الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة ، منهم أسماء بنت عميس ، وأم أيمن ، وابن عباس وجابر بن عبد الله .

قال : وقد روى محمد بن عبد الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، عن جدّه أبي رافع ، قال : أتيتُ أبا ذرّ بالربذة أودّعه ، فلما أردت الانصراف ، قال لي ولأناسٍ معي : ستكون فتنة ، فاتقوا الله ، وعليكم بالشيخ على بن أبي طالب ، فاتبعوه ، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول له : « أنت أول من آمن بي ، وأول من يصاغني يوم القيامة ، وأنت الصديق الأكبر ، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحقّ والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ؛ وللمال يعسوب الكافرين ؛ وأنت أخي ووزيرى ، وخير من أترك بعدى ، تقضى ديني وتنجز موعدي » .

قال : وقد روى ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن مُنمّر ، عن العلاء بن صالح ، عن المنهال بن عمرو ، عن عباد بن عبد الله الأسديّ ، قال : سمعتُ على بن أبي طالب ، يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر ، لا يقولها غيرى إلا كذاب ، ولقد صليت قبل الناس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدويّة ، قالت : سمعتُ عليا عليه السلام ، يخطب على منبر البصرة ، ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبة بن جوين الثمرانيّ أنه سمع عليا عليه السلام ، يقول : أنا أول رجل أسلم

مع رسول الله صلى الله عليه وآله . رواه أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن سفيان الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن حبة بن جوين .

وروى عثمان بن سعيد الخزاز^(١) ، عن علي بن حرّار ، عن علي بن عامر ؛ عن أبي الحجاج ، عن حكيم مولى زاذان ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : صليتُ قبل الناس سبع سنين ، وكفنا نسجد ولا نركع ، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر ، فقلت : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : أمرت به .

وروى إسماعيل بن عمرو ، عن قيس بن الربيع ، عن عبد الله بن محمد بن عجيل ، عن جابر بن عبد الله ، قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ؛ وصلى علي يوم الثلاثاء بعده . وفي الرواية الأخرى ، عن أنس بن مالك : استنحي النبي صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وأسلم علي يوم الثلاثاء بعده .

وروى أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى أول صلاة صلاها غداة الاثنين ، وصلت خديجة آخر نهار يومها ذلك ، وصلى علي عليه السلام يوم الثلاثاء غدا ذلك اليوم .

قال : وقد روي بروايات مختلفة كثيرة متعددة ، عن زيد بن أرقم ؛ وسلمان الفارسي ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ؛ أن عليا عليه السلام : أول من أسلم ؛ وذكر الروايات والرجال بأسمائهم .

وروى سلمة بن كهيل ، عن رجاله الذين ذكروهم أبو جعفر في الكتاب أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « أولكم وروداً علي الحوض ، أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب » .
وروى ياسين بن محمد بن أيمن ، عن أبي حازم ؛ مولى ابن عباس عن ابن عباس ،

(١) ب : « الحرار » .

قال : سمعتُ عمرَ بن الخطاب وهو يقول : كفووا عن عليّ بن أبي طالب ؛ فإنّي سمعتُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله يقول^(١) فيه خِصالاً ، لو أنّ خصلةً منها في جميع آل الخطاب ، كان أحبّ لي ممّا طلعت عليه الشمس ؛ كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله نطلبه ، فاتّهبنا إلى باب أمّ سلمة ، فوجدنا عليّاً متكئاً على نِجاف^(٢) الباب ؛ فقلنا : أردنا رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ فقال : هو في البيت ، رويدكم ! فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله فسيرنا حوله ، فاتكأ على عليّ عليه السلام ، وضرب بيده على منكبه ، فقال : أبشراً يا عليّ ابن أبي طالب ، إنك مخاصم ، وأنت تخصم^(٣) الناس بسبع لا يجاريك أحدٌ في واحدةٍ منهن ، أنت أولُ الناس إسلاماً ، وأعلمهم بأيام الله .. » وذكر الحديث .

قال : وقد روى أبو سعيد الخدريّ ، عن النبي صلى الله عليه وآله مثل هذا الحديث .

قال : روى أبو أيوب الأنصاريّ ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال : « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى عليّ عليه السلام ، سبع سنين » ؛ وذلك أنه لم يصلّ معي رجل فيها غيره .

قال أبو جعفر : فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وآله : « إنّما تبعني حرّ وعبد » ، فإنه لم يسمّ في هذا الحديث أبا بكر وبلالاً ، وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالاً إلا بعد ظهور الإسلام بمكة ؛ فلما أظهر بلال إسلامه عذّبه أمية بن خلف ! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله الدّعوة ، ولا في ابتداء أمر الإسلام ؛

(١) ساقطة من ا

(٢) النجاف : هو ما بين فانتاً فوق الباب .

(٣) تخصم الناس : تغلبهم في الخصومة .

وقد قيل : إنه عليه السلام إنما عني بالحرّ عليّ بن أبي طالب ، وبالعبد زيد بن جارية .

وروى ذلك محمد بن إسحاق ، قال : وقد روى إسماعيل بن نصر الصفار ، عن محمد ابن ذكوان ، عن الشعبي ؛ قال : قال الحجاج للحسن ، وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ! هو أول من صلى إلى القبلة ، وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن لعليّ منزلة من ربه ، وقرابة من رسوله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ . فغضب الحجاج غضبا شديدا ، وقام عن سريره ، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا .

قال الشعبي : وكنا جماعة مامنا إلا من نال من علي عليه السلام مقاربة للحجاج ، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله .

وروى محرز بن هشام ، عن إبراهيم بن سلمة ، عن محمد بن عبيد الله ، قال : قال رجل للحسن : ما لنا لا نراك تُثني على عليّ وتقرّظه ! قال : كيف وسيف الحجاج يقطر دما ! إنه لأول من أسلم ، وحسبكم بذلك !
قال : فهذه الأخبار .

وأما الأشعار المروية فمعروفة كثيرة منشورة ، فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيبا للوليد بن عقبة بن أبي معيط :

وإن وليّ الأمر بعد محمدٍ عليّ وفي كلّ المواطن صاحبه
وصيُّ رسول الله حقًّا وصنوه وأول من صلى ومنّ لان جانيه

وقال خزيمه بن ثابت في هذا :

وصيُّ رسول الله من دون أهله وفارسه مُذْ كان في سالف الزّمن
وأول من صلى من الناس كلّهم سوى خيرة النّسوان والله ذو منن

وقال أبو سفیان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، حين بويع أبو بكر :
ما كنت أحسب أن الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حسنٍ
أليس أولَ مَنْ صَلَّى لقبلتهم وأعلمَ الناس بالأحكام والسُننِ !
وقال أبو الأسود الدؤلي يهدد طلحة والزبير :

وإن علياً لكم مُصْحِرٌ يمثله الأسد الأسودُ
أما إنه أولُ العابدين بمكة والله لا يعبد !

وقال سعيد بن قيس الهمداني يرتجز بصفين :

هذا عليٌّ وابنُ عمِّ المصطفى أولَ مَنْ أجابه فيما روى
* هو الإمام لا يبالي مَنْ غوى *

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي :

فحُوطُوا علياً وانصروه فإنه وصيُّ وفي الإسلام أولُ أولٍ
وإن تحذوه والحوادث جمةٌ فليس لكم عن أرضكم متحولٌ

قال : والأشعار كالأخبار ، إذا امتنع في مجيئ القبيلين التواطؤ والاتفاق ، كان
ورودها حجة .

فأما قولُ الجاحظ ؛ فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا ، فقد أبطل بهذا ما احتج به
لأمامة أبي بكر ، لأنه احتج بالسبق ، وقد عدل الآن عنه .

قال أبو جعفر : ويقال لهم : لسنا نحتاج من ذكر سبق علي عليه السلام إلا مجامعتكم
إيانا على أنه أسلم قبل الناس ؛ ودعواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة لا بحجة .
فإن قلتم : ودعوتكم أنه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجة !

قلنا : قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ؛ ولو كان طفلاً لكان في الحقيقة غير مسلم ، لأن اسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين ؛ وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه اسم الإسلام ، فالأصل في الإطلاق الحقيقة ، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « أنت أول من آمن بي ، وأنت أول من صدقني » . وقال لفاطمة : « زوجتك أقدمهم سلماً - أو قال : إسلاماً - » فإن قالوا : إنما دعاه النبي صلى الله عليه وآله إلى الإسلام على جهة العرض لا التكليف .

قلنا : قد وافقتمونا على الدعاء ، وحكم الدعاء حكم الأمر والتكليف . ثم ادعيتم أن ذلك كان على وجه العرض ، وليس لكم أن تقبلوا معنى الدعاء [عن وجهه^(١)] إلا لحجة . فإن قالوا : لعله كان على وجه التأديب والتعليم ، كما يعتمد مثل ذلك مع الأطفال !

قلنا : إن ذلك إنما يكون إذا تمكن الإسلام بأهله ، أو عند النشوء عليه والولادة فيه ، فأما في دار الشرك فلا يقع مثل ذلك ؛ لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم ، على أنه ليس من سنة النبي صلى الله عليه وآله دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم ، قبل أن يبلغوا الحلم .

وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله ، وتقليد أبيه ، والمضي على منشئه ومولده ، وقد كانت منزلة النبي صلى الله عليه وآله حينئذ منزلة ضيق وشدة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلا من ثبت الإسلام عنده بحجة ، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة .

فإن قالوا : إن علياً عليه السلام كان يألف النبي صلى الله عليه وآله ، فوافقته على طريق المساعدة له .

قلنا : إنه وإن كان يألفه أكثر من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته ، ولم يكن الإلف ليخرجه عما نشأ عليه ، ولم يكن الإسلام مما غدّى^(٢) به وكرر على سمعه ،

(٢) ب : « عدى » ، تصحيف ، وأثبت ما في أ .

(١) تكملة من أ

لأنّ الإسلام هو خلع الأنداد والبراءة ممن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل .

ومن العجَب قولُ العباس لعُقيف بن قيس : ننتظر الشَّيخ وما يصنع ! فإذا كان العباس وحمة ينتظران أبا طالب ، ويصدُران عن رأيه ، فكيف يخالفه ابنُه ، ويؤثر القلّة على الكثرة ، ويفارق المحبوبَ إلى المكروه ، والعزّ إلى الذلّ ، والأمن إلى الخوف ، عن غير معرفة ولا علم بما فيه !

فأمّا قوله : إنّ المقلل يزعمُ أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثري يزعمُ أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ؛ فأول ما يقال في ذلك : إنّ الأخبار جاءت في سنّته عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه في قسمين :

القسم الأوّل : الذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة . حدّثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسديّ ، عن إسحاق بن بشر القرشيّ ، عن الأوزاعيّ ، عن زمرة بن حبيب ، عن شدّاد بن أوس ، قال : سألتُ خباب بن الأرتّ عن إسلام عليّ ، فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيته يصليّ قبل الناس مع النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يومئذ بالغٌ مستحكم البلوغ . وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، أنّ أوّل مَنْ أسلم عليّ بن أبي طالب ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثاني : الذين قالوا إنّه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة ، رواه أبو قتادة الحرّانيّ ، عن أبي حازم الأعرج ، عن حذيفة بن اليمان ، قال : كُنّا نعبد الحجارة ، ونشربُ الخمر وعليّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصليّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله ليلاً ونهاراً ، وقريش يومئذ تسافه رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، ما يذبّ عنه إلا عليّ

عليه السلام . وروى ابن أبي شَيْبَةَ عن جَرِير بن عبد الحميد ، قال : أسلم عليّ وهو ابن أربع عشرة سنة .

القسم الثالث : الذين قالوا : أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة . رواه إسماعيل بن عبد الله الرِّقِّي ، عن محمد بن عمر ، عن عبد الله بن سمعان ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه عن محمد بن علي عليه السلام ، أن علياً حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة . وروى عبدُ الله بن زياد المدنيّ ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام ، قال : أولُ مَنْ آمَنَ بالله عليّ ابن أبي طالب ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة .

القسم الرابع الذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين . رواه نوح بن درّاج ، عن محمد بن إسحاق ، قال : أولُ ذَكَرٍ آمَنَ وصدق بالنبوة عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وهو ابن عشر سنين ، ثم أسلم زيد بن حارثة ، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ستٍ وثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم الخامس : الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن تسع سنين ، رواه الحسن بن عُبَيْسَةَ الورّاق ، عن سليم مولى الشعبيّ ، عن الشعبيّ ، قال : أولُ مَنْ أسلم من الرّجال عليّ ابن أبي طالب وهو ابن تسع سنين ، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تسعٌ وعشرون سنة .

قال شيخنا أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها ، فإمّا أن يكونَ الجاحظ جهلها أو قصد العناد .

فأمّا قوله : « فالقياسُ أن نأخذ بأوسط الأمرين من الرّوايتين » ، فنقول : إنه أسلم وهو ابن سبع سنين . فإنّ هذا تحكّم منه ، ويلزمه مثله في رجلٍ ادّعى قبل رجل عشرة

دراهم ، فأنكر ذلك وقال : إنما يستحقُّ قبلي أربعة دراهم ، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ، ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم : كان كافرا ، وقال قوم : كان إماما عادلا أن نقول : أعدلُ الأفاويل أوسطها وهو منزلة^(١) بين المنزلتين ، فنقول : كان فاسقا ظالما ، وكذلك في جميع الأمور المختلف فيها .

فأما قوله : وإِنَّمَا يُعْرَفُ حَقُّ ذَلِكَ مِنْ بَاطِلِهِ ، بأن نحصى سني ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسني الهجرة ، ومقام النبي صلى الله عليه وآله بمكة بعد الرسالة إلى أن هاجر ، فيقال له : لو كانت الروايات متفقة على هذه التواريخ ، لكان لهذا القول مساع ، لكن الناس قد اختلفوا في ذلك ، فقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بمكة بعد الرسالة خمس عشرة سنة ، رواه ابن عباس ، وقيل ثلاث عشرة سنة ؛ وروى عن ابن عباس أيضا ، وأكثر الناس يروونه . وقيل عشرة سنين ، رواه عروة بن الزبير ، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن المسيب . واختلفوا في سن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال قوم : كان ابن خمس وستين ، وقيل كان ابن ثلاث وستين ، وقيل : كان ابن ستين . واختلفوا في سن علي عليه السلام ، فقيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين . وقيل ابن ثلاث وستين وقيل : ابن ستين ، وقيل ابن تسع وخمسين .

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذه الحال ! وإنما الواجب أن يرجع إلى إطلاق قولهم : أسلم علي ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقا إلا على البالغ ، كما لا يطلق اسم الكافر إلا على البالغ ، على أن ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً ، ويولد له الأولاد ، فقد روت الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسن من ابنه عبد الله

(١) : « أن نزله » .

إلا بائنتي عشرة سنة ، وهذا يوجب أنه احتلم وبلغ في أقل من إحدى عشرة سنة .

وروى أيضا أن محمد بن عبد الله بن العباس ، كان أصغر من أبيه علي بن عبد الله ابن العباس بإحدى عشرة سنة ، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسلم على الحقيقة ، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام ، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين . رواه هشيم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا ابن عشر سنين .

قال الجاحظ : فإن قالوا : فلعله وهو ابن سبع سنين^(١) أو ثمان سنين^(٢) ، قد بلغ من من فطنته وذكائه وصحة لُبِّه وصدق حدسه^(٣) وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرب الأمور ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به !

قيل^(٤) لهم : إنما تتكلم على ظواهر الأحوال ، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال ، فإننا وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثمان - ما لم يعلم باطن أمره وخاصة طبعه - حكم الأطفال ، وليس كذا أن تُزيل ظاهر حكمه والذي نعرف من حال أبناء جنسه بلعلّ وعسى ، لأننا وإن كنا لا ندري ، لعله قد كان ذا فضيلة في الفطنة ، فلعله قد كان ذاتقص فيها ! هذا على تجويز أن يكون علي عليه السلام في الغيب^(٤) قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلام البالغ ، غير أن الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الذين أسلموا وهم في مثل سنه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن ، وتلقين القيم ، ورياضة السانس .

فأما عند التحقيق ، فإنه لا تجويز لمثل ذلك ، لأنه لو كان أسلم ، وهو ابن سبع

(٢) الثمانية : « حه » .

(٤) الثمانية « اللبيب » .

(١ - ١) ساقط من أ

(٣) الثمانية : « قيل » .

أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفرق ما بين الرسل والسحرة ، وفرق ما بين خبر النبي والمنجم ، وحتى عرف كيد الأريب^(١) ، وموضع الحجّة ، و^(٢) وبعد غور المتنبي^(٢) ، كيف يلبس على العقلاء ، وتسمال عقول الدّهماء ، وعرف الممكن في الطّبع من الممتنع ، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب ، وعرف قدر القوى وغاية الحيلة ومنتهى التّمويه والخديعة ، وما لا يحتمل أن يحدثه إلا الخالق سبحانه ، وما يجوز على الله في حكمته مما لا يجوز ، وكيف التحفظ من الهوى والاحتراس من الخداع ؛ لكان كونه على هذه الحال وهذه مع فرط الصّبأ والحدّائة وقلة التجارب والممارسة خروجاً من العادة . ومن المعروف مما عليه تركيب هذه الخلقّة ، وليس يصل أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبّي ، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها ، والأسباب التي وصفناها وفصلناها ، ولو كان على عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجّة على العامّة ، وآية تدلّ على النبوة ، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يحتجّ بها ، ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد وحجة على الغائب . ولولا أن الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنه أتاه الحكم صبيّاً ، وأنه أنطق عيسى في المهد ما كانا في الحكم [ولأفي الغيب]^(٣) ، إلا كسائر الرسل ، وما عليه جميع البشر . فإذا لم ينطق لعليّ عليه السلام بذلك قرآن ، ولا جاء الخبر به بحجّة الحجّة القاطعة والمشاهدة القائمة ، فالمعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطبائع عميّة حمزة والعباس ، وهما أمسّ بمعدن جماع الخير منه ، أو كطبائع جعفر وعقيل من رجال قومه ، وسادة رهطه . ولو أن إنساناً ادعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعميّة حمزة والعباس ، ما كان عندنا في أمره إلا مثل ما عندنا فيه^(٣) .

أجاب شيخنا أبو جعفر رحمه الله ، فقال : هذا كلّهُ مبنيّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان ، ونحن قد بينا أنه أسلم بالغيا ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة ؛ على

(١) الثمانية : « المريب » . (٢-٢) في الأصول : « وفقد التمييز » ، وأثبت ما في الثمانية .

(٣) الثمانية ٦ - ٨ .

(١) الثمانية : « المريب » .

(٢) من الثمانية

أنا لو نزلنا على حُكمِ الخصوم ، وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية ؛ وهو أنه أسلم وهو ابن عشرٍ لم يلزم ما قاله الجاحظ ، لأن ابن عشرٍ قد يستجمع عقله ، ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيرا من الأمور المعقولة ؛ ومتى كان الصبي عاقلاً مميّزا كان مكلفاً بالعقليّات ؛ وإن كان تكليفه بالشرعيّات موقوفاً على حدّ آخر وغاية أخرى ، فليس بمنكرٍ أن يكون على عليه السلام وهو ابن عشرٍ قد عقل المعجزة ، فلزمه الإقرار بالنبوة ، وأسلم إسلام عالم عارف ، لا إسلام مقلّد تابع ؛ وإن كان ما نسقه الجاحظ وعدّه من معرفة السحر والنجوم والفصل بينهما وبين النبوة ، ومعرفة ما يجوز في الحكمة ممّالا يجوز ، ومالا يحدثه إلا الخالق ، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقُدرة ، ومعرفة التمويه والخديعة ، والتليس والمأكرة ، شرطاً في صحّة الإسلام لما صحّ إسلام أبي بكرٍ ولا عمر ولا غيرهما من العرب ؛ وإتّما التكليف هؤلاء بالجلل ومبادئ المعارف لا بدقائقها والغامض منها ، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخصوم ؛ وإنما يفتقر إلى صحّة الغريزة وكال العقل وسلامة الفطرة ؛ ألا ترى أن طفلاً لو نشأ في دارٍ لم يعاشر الناس بها ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ؛ ثم كَمَل عقله ، وحصلت العلوم البديهيّة عنده ، لكان مكلفاً بالعقليّات !

فأما توهمه أن عليّاً عليه السلام عن تربية الخاضن ، وتلقين القيم ، ورياضة السائس ؛ فلعمري إن محمداً صلى الله عليه وآله كان حاضنه وقيمه وسائسه ، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبي طالب ، ولا عن إخوته طالب وعقيل وجعفر ، ولا عن عمومته وأهل بيته ، وما زال مخالطاً لهم ، متمزجاً بهم ، مع خدته لمحمد صلى الله عليه وآله ، فإباليه لم يميل إلى الشرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله ، وهم كثير ، ومحمد صلى الله عليه وآله واحد ! وأنت تعلم أن الصبي إذا كان له أهلٌ ذوو كثرة ، وفيهم واحد

يذهب إلى رأى مفرد ، لا يوافقهُ عليه غيره منهم ، فإنه إلى ذَوِي الكثرة أميلُ ،
وعن ذى الرأى الشاذ المنفرد أبعد ، وكلّى أن عليّاً عليه السلام لم يولد في دار الإسلام ،
وإنما ولد في دار الشرك ورُبِّيَ بين المشركين ، وشاهد الأصنام ، وعابن بعينيه أهله ورهطه
يعبدونها ؛ فلو كان في دار الإسلام لكان في القول مجالاً ، ولقيل إته ولد بين المسلمين ،
فإسلامه عن تلقين الظنر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيره ، ولا خطر
ببأله سواه ، فلما لم يكن ولد كذلك ، ثبت أن إسلامه إسلام المميز العارف بما دخل عليه .
ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، ولا أرضى ابنته فاطمة
لما وجدت من تزويجه بقوله لها : زوّجتك أقدمهم سلماً ، ولا قرن إلى قوله : « وأكثرم
علما ، وأعظمهم حلما » ، والحلم : العقل ، وهذان الأمران غاية الفضل ، فلولا أنه أسلم إسلام
عارف عالم مميز لما ضمّ إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بهما ! وكيف يجوز أن
يمدحه بأمر لم يكن مُثاباً عليه ، ولا معاقبا به لو تركه ، ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية
لما افتخر هو عليه السلام [به]^(١) على رهوس الأشهاد ، ولا خطب على المنبر ؛ وهو بين
عدوّ ومحارب ، وخاذل منافق ، فقال : أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر
والفاروق الأعظم ؛ صليتُ قبلَ الناس سبع سنين ، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر ،
وآمنت قبل إيمانه ! فهل بلغكم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو
ادعاه لغيره ، أو قال له : إنما كنت طفلاً أسلمت على^(٢) تربية محمد صلى الله عليه وآله
ذلك ، وتلقينه إياك ، كما يُعلم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً ! فلا فخر له في
تعلم ذلك ، وخصوصاً في عصرٍ قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهران ، وقد اعتورته
الأعداء وهجته الشعراء ، فقال فيه النعمان بن بشير :

لَقَدْ طَلَبَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعِيدٍ وَسَارَعَ فِي الضَّلَالِ أَبُو تَرَابٍ
مَعَاوِيَةَ الْإِمَامُ وَأَنْتَ مِنْهَا عَلَى وَتَحِ بِمَنْقَطَعِ السَّرَابِ (١)
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا بَعْضُ الْخَوَارِجِ :

دَسَّسْنَا لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ ابْنَ مُلْجَمٍ جِزَاءَ إِذَا مَا جَاءَ نَفْسًا كِتَابُهَا
أَبَا حَسَنٍ خَذَهَا عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً بِكَفِّ كَرِيمٍ ؛ بَعْدَ مَوْتِ ثَوَابُهَا
وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ يَمْدَحُ قَاتِلَهُ :

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقَى مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَذْكَرُهُ حِينًا فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِّيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دَحْضِ حِجَّةٍ فِيمَا كَانَ يَفْخَرُ بِهِ مِنْ تَقَدُّمِ إِسْلَامِهِ لَبَدَّوْا
بِذَلِكَ ، وَتَرَكَوْا مَا لَمْ يَمَعْنِي لَهُ .

وقد اوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الإسلام ، فكيف لم يرَدَ على هؤلاء
الذين مدحوه بالسبق شاعرٌ واحدٌ من أهلِ حرِّبه . ولقد قال في أمهات الأولاد قولاً خالف
فيه عمر ، فذكروه بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به مما لا فخر
فيه عندهم ، وعابوه بقوله في أمهات الأولاد .

ثم يقال له : خَبَّرْنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَدْ أَجَازَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ،
وَلَمْ يَجْزِهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، هَلْ كَانَ يُمَيِّزُ مَا ذَكَرْتَهُ ؟ وَهَلْ كَانَ يَعْلَمُ فَرَقَ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ ،
وَيَفْصَلُ بَيْنَ السَّحْرِ وَالْمُعْجِزَةِ ، إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا عَدَدْتُ وَفَصَّلْتُ !

فإن قال : نعم وتجاسر على ذلك ، قيل له : فعلى عليه السلام بذلك أولى من ابن
عمر ، لأنه أذكى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء ، وأتى يسك في ذلك ، وقد رويتم أنه

(١) الوتح : القليل .

لم يميز بين الميزان والعود بعد طول السنّ ، وكثرة التجارب ، ولم يميز أيضا بين إمام الرشد وإمام النيّ ، فإنه امتنع من بيعة علي عليه السلام . وطرق على الحجاج بابه ليلا ليبياع لعبد الملك ؛ كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام ، زعم . لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية » ، وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واستزداله حاله ، أن أخرج رجله من الفراش ، فقال : أصفق بيدك عليها ، فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره في الأئمة ، وحال علي عليه السلام في ذكائه وفطنته ، وتوقّد حسّه ، وصدق حدسه ، معلومة مشهورة ، فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر ، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التي سردها الجاحظ ونسّقها ، وأظهر فصاحته وتشدّقه فيها ، فعلى بمعرفة ذلك أحقّ ، وبصحة إسلامه أولى .

وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلمُ ويعرف ذلك ، فقد أبطال إسلامه ، وطعن في رسول الله صلى الله عليه وآله حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق ؛ لأنه عليه السلام كان قال : لا أجزى إلا البالغ العاقل ، ولذلك لم يجزه يوم أحد .

ثم يقال له : إن ما قوله في بلوغ عليّ عليه السلام الحدّ الذي يحسن فيه التكليف العقليّ بل يجب - وهو ابن عشر سنين - ليس بأعجب من مجيء الولد لستة أشهر ، وقد صحّح ذلك أهل العلم ، واستنبطوه من الكتاب ، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة . وكذلك مجيء الولد لسنتين خارج أيضاً عن التعارف والعادة ، وقد صحّحه الفقهاء والناس .

ويروي أن معاذاً لما نهى عمر عن رجم الحامل تركها حتى ولدت غلاماً قد نبتت ثنيتها ، فقال أبوه : ابني وربّ الكعبة ! فثبت ذلك سنة يعمل بها الفقهاء ، وقد وجدنا العادة تقضى بأن الجارية تحيض لاثنتي عشرة سنة ، وأنه أقلّ سنّ تحيض فيه المرأة ، وقد

يكون في الأقل نساء بمحضن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعي في اللعان : لو جاءت المرأة بمحمل وزوجها صبي له دون عشر سنين لم يكن ولد له ، لأن من لم يبلغ عشر سنين من الصبيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له ، وكان بينهما لعان إذا لم يقرّ به .

وقال الفقهاء أيضا : إن نساء تهماة يحضن لتسع سنين ؛ لشدة الحرّ بيلاذهن .

قال الجاحظ : ولو لم يعرف باطل هذه الدعوى من أثر التقوى ، وتحفظ من الهوى ، إلا بترك عليّ عليه السلام ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على خصمه ، وقد نازع الرجال وناوى الأكفاء ، وجامع أهل الشورى ؛ لكان كافيا ، ومتى لم تصح لعلي عليه السلام هذه الدعوى في أيامه ، ولم يذكرها أهل عصره ، فهي عن ولده أعجز ، ومنهم أضعف !

ولم ينقل أن علياً عليه السلام احتج بذلك في موقف ، ولا ذكره في مجلس ، ولا قام به خطيبا ، ولا أدلى به واثقا ، لا سيما وقد رضيّه الرسول صلى الله عليه وآله عند كم مفرزا ومعلما ، وجعله للناس إماما . ولا ادعى له أحد ذلك في عصره ، كما لم يدّعه لنفسه ؛ حتى يقول إنسان واحد : الدليل على إمامته أن النبي صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام أو كلفه التصديق قبل بلوغه ، ليكون ذلك آية للناس في عصره ، وحيجة له ولولده من بعده ؛ فهذا كان أشدّ على طلحة والزبير وعائشة من كل ما ادّعاء من فضائله وسوابقه وذكر قرابته (١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إن مثل الجاحظ مع فضله وعلمه ؛ لا يخفى عليه كذب

(١) الثمانية ٩ - ١٢ ، مم تصرف واختصار .

هذه الدعوى وفسادها ، ولكنه يقول مايقوله تعصباً وعناداً ، وقد روى الناس كافةً ، افتخاراً على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام ، وأن النبي صلى الله عليه وآله استنبي يوم الاثنين ، وأسلم على يوم الثلاثاء ، وأنه كان يقول : صليت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول : أنا أول من أسلم ، ويفتخر بذلك ، ويفتخر له به أولياؤه ومدحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته . والأمر في ذلك أشهر من كل شهير ، وقد قدمنا منه طرقاتاً ، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام علي عليه السلام ، ولا تهاون به ، ولا زعم أنه أسلم لإسلام حدث غرير ، وطفل صغير . ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ، ليصدرا عن رأيه ، ثم يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة ؛ يؤثر القلة على الكثرة ، والذل على العزة من غير علم ولا معرفة بالعاقبة .

وكيف ينكر الجاحظ والعناني أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام وكلفه التصديق !

وقد روى في الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاماً ، وأن يدعو له بني عبد المطلب ، فصنع له الطعام ، ودعاهم له ، فخرجوا ذلك اليوم ، ولم يندرم صلى الله عليه وآله لكلمة قالها عمه أبو لهب ، فكلفه في اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام ، وأن يدعوهم ثانية ، فصنع ، ودعاهم فأكلوا ، ثم كلمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدين ، ودعاه معهم لأنه من بني عبد المطلب ، ثم ضمن لمن يوازره منهم وينصره على قوله ، أن يجعله أخاه في الدين ، ووصيه بعد موته ، وخليفته من بعده ، فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده ، وقال : أنا أنصرك على ما جئت به ، وأوازرك وأبايعك ، فقال لهم لما رأى منهم الخذلان ، ومنه النصر ، وشاهد منهم للعصية ومنه الطاعة ، وعين منهم الإباء ومنه الإجابة : هذا أخي ووصي وخليفتي من بعدى ، فقاموا يسخرون ويضحكون ، ويقولون لأبي طالب : أطع ابنك ، فقد أمره عليك ، فهل يكلف عمل

الطعام ودعاء القوم صغير مميّز وغير عاقل ! وهل يؤتمن على سرّ النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع ! وهل يدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب ! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يده ، ويعطيه صَفَقَةً يمينه ؛ بالأخوة والوصية والخلافة إلا وهو أهلٌ لذلك ، بالغ حدّ التكليف ، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه ! وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ، ولم يلصق بأشكاله ، ولم ير مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه ، وهو كأحدهم في طبقتهم ، كبعضهم في معرفته !

وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته ، فيقال : دعاه داعي الصبأ وخاطر من خواطر الدنيا ، وحملته الغيرة والحدائث على حضور لهوم والدخول في حالهم ، بل ما رأيناه إلا ماضيا على إسلامه ، مصمما في أمره ، محققا لقوله بفعله ؛ قد صدق إسلامه بغفاه وزهده ؛ ولصق برسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع من بحضرتة ؛ فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته ؛ وقد قهر شهوته ، وجاذب خواطره ، صابرا على ذلك نفسه ؛ لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة ، وقد ذكر هو عليه السلام في كلامه وخُطبه بدء حاله ، وافتتاح أمره ، حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشجرة ، فأقبلت تحمداً الأرض ؛ فقالت قريش : ساحر خفيف السحر ! فقال علي عليه السلام : يا رسول الله ، أنا أول من يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدقتك فيما جئت به ، وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله ، تصديقا لنبوتك ، وبرهانا على صحة دعوتك ؛ فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الإيمان وأوثق عُقْدَةً ، وأحكم مِرَّةً ! ولكن حنق العناتية وغيظهم ، وعصبية الجاحظ وانحرافه مما لا حيلة فيه . ثم لينظر للنصف وليدع الهوى جانبا ، ليعلم نعمة الله على علي عليه السلام بالإسلام حيث أسلم على الوضع الذي أسلم عليه ، فإنه لولا الألفاظ التي خص بها ، والهداية التي منحتها ، لما كان إلا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وآله ، فقد كان ممازجا له كمازجته ، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه ، ولم يستجيب منهم

أحدٌ له إلا بعد حين . ومنهم من لم يستجب له أصلاً ؛ فإن جعفرًا عليه السلام كان ملتصقًا به ، ولم يُسلم حينئذ ، وكان عتبة بن أبي لهب ابن عمه وصهره زوج ابنته ولم يصدقه ، بل كان شديدًا عليه ، وكان لخديجة بنون من غيره ، ولم يسلموا حينئذ ، وهم ربائبه^(١) ومعه في دار واحدة . وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصرَه ، والمحامي عنه ، ومن لولاه لم تقم له قائمة ، ومع ذلك لم يُسلم في أغلب الروايات ، وكان العباس عمه وصنو أبيه ، وكلقرين له في الولادة والمنشأ والتربية ، ولم يستجب له إلا بعد حين طويل ، وكان أبو لهب عمه ، وكدمه ولحمه ، ولم يسلم ، وكان شديدًا عليه ، فكيف ينسب إسلام علي عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللحمة والتلقين والحضانة ، والدار الجامعة ، وطول العشرة والأنس والخلوة ! وقد كان كل ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم ، ولم يهتد أحدٌ منهم إذ ذاك ، بل كانوا بين [من]^(٢) جحد وكفر ومات على كفره ، ومن أبطأ وتأخر ، وسبق بالإسلام وجاء سுகيتا^(٣) ؛ وقد فاز بالمنزلة غيره .

وهل يدل تأمل حال علي عليه السلام مع الإنصاف إلا على أنه أسلم ، لأنه شاهد الأعلام ، ورأى المعجزات ، وشم ريح النبوة ، ورأى نور الرسالة ، وثبت اليقين في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح ؛ لا بتقليد ولا حمية ، ولا رغبة ولا رهبة ، إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة .

قال الجاحظ : فلو أن عليا عليه السلام كان بالغًا حيث أسلم ؛ لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخباب بن الأرت أفضل من إسلامه ، لأن إسلام المقتضب^(٤) الذي لم يعتد به ولم يعوده ، ولم يمرن عليه ، أفضل من إسلام الناشئ الذي رُبِّي فيه ، ونشأ وحبيب

(١) الربائب : أولاد الزوج .

(٣) السكيت : آخر الحلبة .

(٢) من ١

(٤) المقتضب : غير المستعد للشيء .

إليه ، وذلك لأنَّ صاحب التربية يبلغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الرّوية
والخاطر ، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس ، وزيد وخبّاب وأبو بكر يعانون من
كُلِّفة النظر ومؤنة التأمل ومشقة الانتقال من الدّين الذي قد طال الفهم له ما هو غير خافٍ .
ولو كان عليٌّ حيث أسلم بالغاً مقتضياً كثيره ممّن عددنا ، كان إسلامهم أفضل من
إسلامه ، لأنّ من أسلم وهو يعلم أنّ له ظهراً كأبي طالب ، وردّها كبنى هاشم ، وموضعا
في بنى عبد المطلب ، ليس كالحليف والمولى ، والتابع والعيسيف^(١) ، وكالرجل من عرض
قريش^(٢) ، أو لست تعلم أنّ قريشا خاصّة وأهل مكة عامّة لم يقدرُوا على أذى النّبىّ صلى
الله عليه وآله ، ما كان أبو طالب حيّاً ! وأيضا فإنّ أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف
مشقة الخواطر ، وعليٌّ عليه السلام كان بحضرة الرّسول صلى الله عليه وآله ، يشاهد
الأعلام في كلّ وقت ، ويحضر منزل الوحي ، فالبراهين له أشدُّ انكشافا ، والخواطر
على قلبه أقلُّ اعتلاجاً ، وعليٌّ قدّر الكُلِّفة والمشقة يعظمُ الفضل ، ويكثر الأجر^(٣) .

قال أبو جعفر رحمه الله: ينبغي أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل ، ويقفوا على قول
الجاحظ والأصمّ في نصرته العثمانية واجتهادها في القصد إلى فضائل هذا الرجل ، وتهجينها ،
فمرة يبطلان معناها ، ومرة يتوصّلان إلى حطّ قدرها ، فلينظر في كلّ باب اعتراضه ،
أين بلغت حيلتهما ، وما صنعا في احتياهما في قصصهما وسجعهما ! أليس إذا تأملتها علمت
أنّها ألفاظٌ ملفّقة بلا معنى ، وأنّها عليها شجى وبلاء ! وإلا فاعسى أن تبلغ حيلة
الحاسد ويعنى كيد الكائد الشانئ^(٤) لمن قد جلّ قدره عن النقص ، وأضاءت فضائله
إضاءة الشمس ! وأين قول الجاحظ ، من دلائل السماء ، وبراهين الأنبياء ، وقد علم

(١) العيسيف : الأجير .

(٢) من عرض قريش ؛ أى من دهماتهم

(٣) العثمانية ٢٢ - ٢٤ ، مع تصرف واختصار كبير (٤) ب « الثانى » ، تحريف وصوابه من ا .

الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ، بمن بلغه ذكرُ عليّ عليه السلام ، وعلم مبعثِ النبيّ صلى الله عليه وآله أن عليا عليه السلام لم يولد في دارِ الإسلام ، ولا غُدّي في حجر الإيمان ، وإنما استضافه رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سنة القحط والحجامة ، وعمره يومئذ ثمانى سنين ، فكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرائيل بالرسالة ، فدعاه وهو بالغ كاملُ العقل إلى الإسلام ، فأسلمَ بعد مشاهدة المعجزة ، وبعد إعمال النظر والفكرة ، وإن كان قد ورد في كلامه أنه صلى سبع سنين قبل الناس كلهم ، فإنما يعنى ما بين الثمان والخمس عشرة ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ، ولا ادعاء نبوة؛ وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعبد على ملة إبراهيم ودين الحنيفية ، ويتحنن ويحانب الناس ، ويعزل ويطلب الخلوة ، وينقطع في جبل حراء ، وكان عليّ عليه السلام معه كالتابع والتلميذ ، فلما بلغ الحلم ، وجاءت النبيّ صلى الله عليه وآله الملائكة ، وبشّرت بالرسالة ، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة ؛ فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضبا ! وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في الفضيلة لِمَا كان يمرن عليه من التعبد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدعوة ، لتكون طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين ، لأن العصمة عند أهل العدل لطف يمنع من اختصاص به من إرتكاب القبيح ، فمن اختص بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابه أنقص من ثواب من أطاع مع تلك الألفاظ ! وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره ، وقد جاء في الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء ، واستنبي النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سماعه ، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخف محنته ، ويسقط ثقل تكليفه ، بل بان فضله ، وظهر حسن اختياره لنفسه ، إذ أسلم في حال بلوغه ، وعانى نوازغ طبعه ، ولم يؤخر ذلك بعد سماعه .

وقد غمر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورا ، ورئيسا
معروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ، ويتذاكرون الأخبار ، ويشربون
الخمر ، وقد كان سمع دلائل النبوة ، وحُجج الرسل ، وسافر إلى البلدان ، ووصلت إليه
الأخبار ، وعرف دعوى الكهنة وحيل السحرة ؛ ومن كان كذلك كان انكشافُ
الأمور له أظهر والإسلامُ عليه أسهل ، وانخراط على قلب أقلّ اعتلاجا ، وكلُّ ذلك
عَوْنُ لأبي بكر على الإسلام ، ومسهلٌ إليه سبيله ، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه
 وآله : « أتيتُ بيتَ المقدس » سأله أبو بكر بن المسجد ومواضعه ، فصدقه وبان له أمره ،
 وخفت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت ، فخرج إذاً إسلام أبي بكر على قول الجاحظ
 من معنى المقتضب . وفي ذلك رويم عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : مادعوتُ أحداً
 إلى الإسلام إلا وكان له تردد ونبوة ، إلا ما كان من أبي بكر ، فإنه لم يتلعم حتى هجم
 به اليقين إلى المعرفة والإسلام ، فأين هذا وإسلام من خلى وعقله ، وألقى إلى نظره ،
 مع صغر سنه ، واعتلاج انخراط على قلبه ونشأته ، في ضد ما دخل فيه ، والغالب على
 أمثاله وأقرانه حبُّ اللعب واللهو ، فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدعوة ، ولم يتأخر
 إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية ، فقهر شهوته ، وغالب خواطره ، وخرج من عادته وما كان
 غُدَى به لصحة نظره ، ولطافة فكره ، وغامض فهمه ، فعظم استنباطه ، ورجح فضله ،
 وشرف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ؛ ولا تنعم فيها بنعيم حدّثا ولا كبيراً ،
 وحى نفسه عن الهوى ، وكسر شرّة حدائته بالتقوى ، واشتغل بهمّ الدين عن نعيم
 الدنيا ، وأشغل همّ الآخرة قلبه ، ووجه إليه رغبته ؛ فإسلامه هو السبيل الذي لم يُسلم
 عليه أحدٌ غيره ، وما سبيله في ذلك إلا كسبيل الأنبياء ، ليعلم أن منزلته من النبي
 صلى الله عليه وآله كمنزلة هارون من موسى ، وأنه وإن لم يكن نبياً ؛ فقد كان في سبيل
 الأنبياء سالكا ، ولتهاجم متبعا ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام ؛ فإن

أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه في سَرَب لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : مَنْ رَبِّي؟ قالت : أبوك ، قال : فمن ربّ أبي؟ فزبرته ونهرته؛ إلى أن طلع من شقّ السَّرَب ، فرأى كوكبا ، فقال : هذا ربّي ، فلما أفل قال : لا أحبّ الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربّي ، فلما أفل قال : لئن لم يهتدي ربّي لأكوننّ من القوم الضالّين؛ فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربّي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَليَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾^(١) ، وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام ، لسنا نقول إنه كان مساويا له في الفضيلة ، ولكن كان مقتدياً بطريقه على ما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) . وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبي طالب وردّه كبنّي هاشم ، فإنه يوجب عليه أن تكون محنة أبي بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنّ أبا طالب ظهروه ، وبنّي هاشم ردّوه؛ وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حطّ قدر عليّ عليه السلام إلا بحطّه من قدر رسول الله صلى الله عليه وآله ! ولم يكن أحداً أشدّ على رسول الله صلى الله عليه وآله من قراباته ، الأذنى منهم فالأذنى ، كأبي لهب عمّه وامرأة أبي لهب؛ وهي أمّ جميل بنت حرب بن أميّة وإحدى أولاد عبد مناف ، ثم ما كان من عتبة بن أبي معيط ، وهو ابن عمّه ، وما كان من النضر بن الحارث ، وهو من بنّي عبد الدار بن قصيّ ، وهو ابن عمّه أيضاً ، وغير هؤلاء بمن يطول تعدادهم ، وكلّهم كان يطرح الأذى في طريقه ، وينقل أخباره ، ويرميه بالحجارة ، ويرمي الكرش

(١) سورة الأنعام ٧٥

(٢) سورة آل عمران ٦٨

والفرث عليه ، وكانوا يؤذون علياً عليه السلام كأذاه ، ويجهدون في غمته ويستهنئون به ، وما كان لأبي بكر قرابة تؤذيه كقرابة عليّ ، ولما كان بين عليّ وبين النبي صلى الله عليه وآله من الاتحاد والإلف والاتفاق ، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفاً من سيفه ، ولأنه صاحب الدار والجيش ، وأمره مطاع ، وقوله نافذ ، فخافوا على دمائهم منه ، فاتقوه ، وأمسكوا عن إظهار بغضه ، وأظهروا بغضَ عليّ عليه السلام وشنآنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقه في الخبر الذي روى في جميع الصحاح : « لا يحبُّك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » . وقال كثير من أعلام الصحابة - كما روي في الخبر المشهور بين المحدثين : « ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضِ عليّ ابن أبي طالب » . وأين كان ظهر أبي طالب عن جعفر ؛ وقد أزعجه الأذى عن وطنه ؛ حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر ، أيتوهم الجاحظ أن أبا طالب نصر علياً ، وخذل جعفراً !

قال الجاحظ: ولأبي بكر فضيلة في إسلامه أنه كان قبل إسلامه كثير الصديق ، عريض الجاه ، ذا يسارٍ وغنى ، يعظم لماله ، ويستفاد من رأيه ، فخرج من عزِّ الغنى وكثرة الصديق إلى ذلِّ الفاقة وعجز الوحدة ، وهذا غير إسلام من لا حرَّاك به ، ولا عزَّ له ، تابع غير متبوع ، لأن من أشد ما يبتلى الكريم به ، السب بعد التحية ، والضرب بعد الهيبة ، والعسر بعد اليسر . ثم كان أبو بكر داعية من دعاة الرسول ، وكان يتلوه في جميع أحواله ؛ فكان الخوف إليه أشد ، والمكروه نحوه أسرع ، وكان ممن تحسَّن مطالبته ، ولا يستحي من إدراك الثأر عنده ، لنباهته ، وبعد ذكره ، والحديث الصغير يزدرى ويحتقر لصغر سنه ونحول ذكره^(١) .

(١) العنائة ٢٥ ، ٢٦ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما ما ذكر من كثرة المال والصديق ، واستفاضة الذِّكْر وبعد الصَّيْت وكِبَر السنِّ ، فكلُّه عليه لاله ، وذلك لأنه قد عِلِم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظُ الصديق والوفاء بالذِّمام والتهيب لذي التَّزْوَة واحترام ذى السنِّ العالية ، وفي كلِّ هذا ظهر شديد ، وسنَد وثقة يعتمد عليها عند المحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكَّن من صديقه أبقى عليه ، واستحيا منه ، وكان ذلك سبباً لنجاته والعفو عنه ، عَلَى أنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام إن لم يكن شهره سنَّه ، فقد شهره نسبه وموضعه من بني هاشم ، وإن لم يستفيض ذكره بقاء الرجال ، وكثرة الأسفار استفاض بأبي طالب ، فاتم تعلمون أنه ليس تيمُّ في بعد الصَّيْت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبي طالب ، وعلى حَسَب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذى السنِّ ويبعد صيْت الحدِّث على الشيخ ، ومعلومٌ أيضاً أنَّ علياً على أعناق المشركين أثقلُ إذ كان هاشمياً ، وإن كان أبوه حامى رسول الله صلى الله عليه وآله ، والممانع لحوزته ، وعليُّ هو الَّذي فتجَّحَّى العرب باب الخلاف ، واستهان بهم ، بما أظهر من الإسلام والصلاة ، وخالف رهطه وعشيرته ، وأطاع ابن عمه فيما لم يعرف من قبل ، ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) . ثم كان بعدُ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومشتكى حَزَنه ، وأنيسه في خَلوته ، وجليسه وأليفه في أيامه كلَّها ، وكلِّ هذا يوجب التحريضَ عليه ، ومعاداة العرب له ، ثم أتمَّ معاشرَ العنمانيَّة ، تُنذِبُونَ لأبي بكر فضيلةً بصحبة الرسول صلى الله عليه وآله من مكَّة إلى يثرب ، ودخوله معه في الغار ، فقلتم : مهتبه شريفة وحالة جليلة ، إذ كان شريكه في الهجرة ، وأنيسه في الوحشة ، فأين هذه من صحبة عليَّ عليه السلام له في خَلوته ، وحيث لا يجد أنيساً غيره ؛ ليَّه ونهاره ، أيام مقامه بمكَّة يعبد الله

معه سرّاً، ويتكأف له الحاجة جَهراً ، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ، ويشفقُ عليه ويحوطه ، وكالولد يبرّ والده ، ويعطف عليه . ولما سئلت عائشة مَنْ كان أحبّ الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : أما من الرجال فعلى ، وأما من النساء ففاطمة .

قال الجاحظ : وكان أبو بكر من المفتونين المذّبين بمكة قبل الهجرة ، فضر به نوفل ابن خويلد المعروف بابن العدوية مرتين ، حتى أدماه وشده مع طلحة بن عبيدالله في قرآن ، وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، ولذلك كانا يُدعيان القرينين ، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً ، وبلوغ منزلته شديداً ، ولو كان يوماً واحداً لكان عظيماً ، وعلى بن أبي طالب رافهٌ وادع ، ليس بمطلوب ولا طالب ، وليس أنه لم يكن في طبعه الشّهامه والنّجدة ، وفي غريزته البسالة في الشّجاعة ، لكنّه لم يكن قد تمت أدواته ، ولا استكملت آلته ، ورجال الطلب وأصحاب النار يُفمّصون ذا الحدّانة ويزدرون بذى الصّبأ والغرارة ، إلى أن يلحق بالرجال ، ويخرج من طَبَع الأطفال^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما القولُ فممكن والدعوى سهلة ؛ سيما على مثل الجاحظ ، فإنه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب ؛ وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد ، فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ؛ وكلامه لمبٌ وهو ؛ يقول الشيء وخلافه ، ويحسّن القول وضده ؛ ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حدٌّ قائم ، وإلا فكيف تجاسر على القول بأنّ علياً حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالباً ؛ وقد يتنا بالأخبار الصحيحة ، والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملاً منابذاً بلسانه وقلبه لمشركي قريش ، ثقيلًا على قلوبهم ؛

وهو المخصوص دون أبي بكر بالحِصَار في الشَّعب ؛ وصاحب الخِلاوات برسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الظلمات ، المتجرِّع لُغصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما ، والمصطلي لسكل مكرهه ، والشَّرِيك لنبِيه في كلِّ أذى ؛ قد نهض بالحِمل النَّقِيل ، وبان بالأمر الجليل ؛ ومَن الذي كان يخرج ليلا من الشَّعب على هيئة السارق ، ويخفي نفسه ، ويضائل شخصه ؛ حتى يَأْتِيَ إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبراء قريش ، كطيم بن عدي وغيره ؛ فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدل الدقيق والقمح ؛ وهو على أشدِّ خوف من أعدائهم ، كأبي جهل وغيره ، لو ظفروا به لأراقوا دمه . أعلى كان يفعل ذلك أيام الحصار في الشَّعب ، أم أبو بكر ؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ ، فقال في خطبة له مشهورة : فتعاقدوا ألا يعاملونا ولا ينادوا بنا كحونا ، وأوقدت الحرب علينا نيرانها ، واضطرونا إلى جبل وعمر ؛ مؤمننا برجو الثواب ، وكافرنا يحامي عن الأصل ؛ ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم ، وقطعوا عنهم المارة والميرة ، فكانوا يتوقعون الموت جوعاً ، صباحاً ومساءً ؛ لا يرون وجهاً ولا فرجاً ، قد اضمحلَّ عزمهم ، وانقطع رجاؤهم ، فَمَن الذي خلس إليه مكرهه تلك المحن بعد محمد صلى الله عليه وآله إلا عليٌّ عليه السلام وحده ! وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه الفضيلة ، مِن تقصى معانيها ، وبلوغ غاية كُنْهها ؛ وفضيلة الصابر عندها ! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين ، حتى انفرجت عنهم بقصة الصحيفة ، والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول في عليٍّ عليه السلام : إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً ، لم يكن مطلوباً ولا طالبا ، وهو صاحب الفراش الذي فدَى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، ووقاه بمهجته ، واحتمل السيوف ورضخ الحجارة دونه . وهل ينتهي الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح بمزية هذه الخصيصة !

فأما قوله : إن أبا بكرٍ عُدَّ بِمَكَّةَ ، فإننا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا بعبدٍ أو عسيفٍ^(١) ، أو لمن لا عشيرة له تمنعه ، فأتم في أبي بكر بين أمرين : تارة يجعلونه دخيلاً ساقطاً ، وهجينا رذيلًا مستضعفًا ذليلاً ، وتارة يجعلونه رئيساً متبعا ، وكبيراً مطاعاً ، فاعتمدوا على أحد القولين لنكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم . ولو كان الفضلُ في الفتنة والعذاب ، لكان عمار وخبَّاب وبلال وكلّ معذب بمكَّة أفضل من أبي بكر ، لأنهم كانوا من العذاب في أكثر مما كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾^(٢) ؛ قالوا : نزلت في خبَّاب وبلال ، ونزل في عمار قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(٣) ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ على عمار وأبيه وأمه ، وهم يعدّون ، يعدّ بهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ؛ وكان بلال يقبّ على الرّمضاء ، وهو يقول : أحد أحد ! وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكرا ، ولقد كان لعلي عليه السلام عنده يد غراء ، إن صحّ ما روّيته في تعذيبه ، لأنه قتل نوفل بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بدر ، ضرب نوفلا فقطع ساقه ، فقال : أذگرك الله والرحم ! فقال : قد قطع الله كلّ رحيمٍ وصهرٍ إلا من كان تابعا لحمد ، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسه ، وصمد لعمر بن عثمان التميمي ، فوجده يروم الهرب ، وقد ارتجّ عليه المسلك ، فضربه على شراسيف صدره ، فصار نصفه الأعلى بين رجله ، وليس أن أبا بكر لم يطلب بثأره منها ، ويحتهد ؛ لكنّه لم يقدر على أن يفعل فعل علي عليه السلام ، فبان على عليه السلام بفعله دونه .

قال الجاحظ : ولأبي بكر مراتبٌ لا يشركه فيها علي ولا غيره ، وذلك قبل الهجرة

(٢) سورة النحل ٤١

(١) العسيف : الأجير .

(٣) سورة النحل ١٠٦

فقد علم الناس أن عليا عليه السلام إنما ظهر فضله ، وانتشر صيته ، وامتحن ولقى المشاق منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل في الزمان الذي استوفى فيه أهل الإسلام ، وأهل الشرك ، وطمعوا في أن يكون الحرب بينهم سجالا ، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين ، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذبا ومطرودا مشردا ، في الزمان الذي ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر في خلافته : طوبى لمن مات في فآفة الإسلام ! يقول : في ضعفه (١) .

قال أبو جعفر رحمه الله : لا أشك أن الباطل خانَ أبا عثمان ، والخطأ أعمده ، والخذلان أصاره إلى الخيرة ، فما علم وعرف حتى قال مقال ، فزعم أن عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاق ؛ وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسى الحصار في الشعب ، وما مني به منه ، وأبو بكر وادع رافيه ، يأكل ما يريد ، ويجلس مع من يحب ؛ مخلى سربه ، طيبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلى يقامى الغمرات ، ويكابد الأهوال ، ويجوع ويظما ، ويتوقع القتل صباحا ومساء ، لأنه كان هو المتوصل المحتال في إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرا ، ليقم به رفق رسول الله صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهم في الحصار ، ولا يأمن في كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله له بالقتل ، كأبي جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط ، والوليد بن المغيرة ، وعتبة ابن ربيعة وغيرهم من فراغنة قريش وجبارتها ، ولقد كان يجيع نفسه ويطعم رسول الله صلى الله عليه وآله زاده ، ويظمئ نفسه ويسقيه ماءه ، وهو كان المثل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش ؛ وأبو بكر بنجوة عن ذلك لا يمسه مما يمسه ألم ؛ ولم يلحقه مما يلحقهم مشقة ، ولا يعلم بشيء من أخبارهم وأحوالهم ، إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل ؛ ثلاث سنين ، محرمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم ، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج

(١) العثمانية ٣٩ ، ٤٠ مع تصرف واختصار .

والتصرف في أنفسهم ، فكيف أهل الجاحظ هذه الفضيلة ، ونسى هذه الخصيصة ،
ولا نظير لها ! ولكن لا يبالي الجاحظ بعد أن يسوغ له لفظه ، وتنسق له خطابه ، ماضٍ
من المعنى ، ورجع عليه من الخطأ !

فأما قوله : واعلموا أن العاقبة للمتقين ، ففيه إشارة إلى معنى غامضٍ قصده الجاحظ -
يعنى أن لا فضيلة لعلي عليه السلام في الجهاد ؛ لأن الرسول كان أعلمه أنه منصور ، وأن
العاقبة له - وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولمزاته ، وليس بحق ما قاله ، لأن رسول
الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابه جملةً أن العاقبة لهم ؛ ولم يعلم واحدا منهم بعينه أنه لا يُقتل ،
لا عليا ولا غيره ، وإن صح أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل ، فلم يعلمه أنه لا يقطع عضو من
أعضائه ؛ ولم يعلمه أنه لا يمس ألم الجراح في جسده ، ولم يعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد .
وعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر - وهو يومئذ بمكة -
أن العاقبة لهم ، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك ، فإن لم يكن لعلي والمجاهدين فضيلة في
الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم ذلك ؛ فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال المشاق قبل
الهجرة ، لإعلامه إياهم بذلك ، فقد جاء في الخبر أنه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر ، وأنه
قال له : أرسلت إلى هؤلاء بالذبح ، وإن الله تعالى سيفتقنا أموالهم ، ويمسكنا ديارهم ،
فالتقول في الموضعين متساوٍ ومتفق .

قال الجاحظ : وإن بين المحنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله
وآله مقرنين لأهل مكة ومشركي قريش ، ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والأطام
والشجاعة والصبر والمواساة ، والإيثار والحمامة والمدد الدثر ، والفعل الجزل ، وبين الدهر
الذي كانوا فيه بمكة يُفتنون ويُشتمون ، ويضربون ويشردون ، ويجوعون ويمطشون ،

مقهورين لاجراك بهم ، وأذلاء لا عز لهم ، وفقراء لا مالَ عندهم ، ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ؛ لفرقاً واضحاً ؛ ولقد كانوا في حالٍ أحوجت لوطاً وهو نبيّ إلى أن قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ^(١) ؛ وقال النبي صلى الله عليه وآله : «عجبت من أخى لوط ، كيف قال : أو آوى إلى ركن شديد ، وهو يآوى إلى الله تعالى !» ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ولا شهراً ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السنين بعد السنين . وكان أغلظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، لأنه أقام بمكة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة ، وهو أوسط ما قالوا في مقام النبي صلى الله عليه وآله ^(٢) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما نرى الجاحظ احتجّ لكون أبي بكر أغلظهم وأشدّهم محنة ، إلا بقوله : لأنه أقام بمكة مدة مقام الرسول صلى الله عليه وآله بها ، وهذه الحجّة لا تخصّ أبا بكر وحده ، لأنّ علياً عليه السلام أقام معه هذه المدة ، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخبّاب وغيرهم ، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحده بحجّة تدلّ على أنه كان أغلظ الجماعة ، وأشدّهم محنةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالاحتجاج في نفسه فاسد .

ثم يقال له : ما بالك أهملت أمر مبيت عليّ عليه السلام على الفراش بمكة ليلة الهجرة ! هل نسيت أم تناسيت ! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التي متى امتحنها الناظر ، وأجال فكره فيها ، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة ، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يجمع على الخروج من بينهم للهجرة

(٢) العنانية ٤١

(١) سورة هود ٨٠

إلى غيرهم قصدوا إلى معاجلته ، وتعاهدوا على أن يبيتوه في فراشه ، وأن يضربوه بأسيايف كثيرة ، بيد كل صاحب قبيلة من قريش سيف منها ، ليضيع دمه بين الشعوب ، ويتفرق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك الليلة ، واجتمعوا عليها ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من أمرهم ، دعا أوثق الناس عنده ، وأمثلهم في نفسه ، وأبذلهم في ذات الإله لمهجته ، وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إن قريشا قد تحالفت على أن تبينتنى هذه الليلة ، فامض إلى فراشي ، وتم في مضجعي ، والتف في بردي الحضرمي ليروا أني لم أخرج ، وإني خارج إن شاء الله ، فمنعه أولاً من التحرز وإعمال الخيلة ، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكاييد والجهات التي يحتاط بها الناس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يمرض نفسه لظلمات السيوف الشحيذة من أيدي أرباب الحنق والغيظة ، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً طيبة بها نفسه ، ونام على فراشه صابراً محتسباً ، واقياً له بمهجته ، ينتظر القتل ، ولا تعلم فوق بذل النفس درجةً يلتمسها صابر ، ولا يبلغها طالب ؛ « والجلود بالنفس أقصى غاية الجود » ؛ ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم أنه أهل لذلك ، لما أهله ، ولو كان عنده نقص في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمه ، واختير لذلك لكان من اختاره صلى الله عليه وآله منقوضاً في رأيه ، مضرّاً في اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام ، وكلّهم مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وآله عمل الصواب ، وأحسن في الاختيار .

ثم في ذلك - إذا تأمله المتأمل - وجوه من الفضل :

منها أنه وإن كان عنده في موضع الثقة فإنه غير مأمون عليه ألا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يليه إلى الأعداء .

ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسر وثقة عند من اختاره ؛ فغير مأمون عليه الجبن عند

مكجأة المكروه ، ومباشرة الأهوال ، فيفرّ من الفراش فيفطن لموضع الخيلة ؛ ويطلب رسول الله صلى الله عليه وآله فيظفر به .

ومنها أنه وإن كان ثقةً ضابطاً للسرّ ، شجاعاً مجتهداً ؛ فله غير محتمل للمبيت على الفراش ؛ لأنّ هذا أمرٌ خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف المنوع ؛ بل هو أشدّ مشقة من المكتوف المنوع ؛ لأنّ المكتوف المنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل له إلى الهرب ، وهذا يجدّ السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه ، ولا يهرب ولا يدافع .

ومنها أنه وإن كان ثقةً عنده ، ضابطاً للسرّ ، شجاعاً محتملاً للمبيت على الفراش ، فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة ، والمذاب النازل بساحته ، حتى يبوح بما عنده ؛ ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنه أخذ طريق كذا فيطلب فيؤخذ ، فهذا قال علماء المسلمين : إن فضيلة عليّ عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها ، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذبح ، ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم قلنا : إن محنة عليّ أعظم ، لأنه قد روى أن إسحاق تملكاً لما أمره أن يضطجع ، وبكى على نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أن عنده في ذلك وقفة ، ولذلك قال له : ﴿ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى ﴾^(١) ؛ وحال عليّ عليه السلام بخلاف ذلك ، لأنه ماتلكاً ولا تتمتع ، ولا تغير لونه ، ولا اضطربت أعضاؤه ، ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يُشيرون عليه بالرأي المخالف لما كان أمر به ، وتقدّم فيه ، فيتركه ويعمل بما أشاروا به ، كما جرى يوم الخندق في مصانعة الأحزاب بثلك تمر المدينة ، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك ، فتركه ، وهذه كانت قاعدته معهم ، وعادته بينهم ، وقد كان لعليّ عليه السلام أن يمتلّ بعلّة ، وأن يقف ويقول : يا رسول الله ، أكون معك أحميك من العدو ، وأذبّ بسيفي عنك ، فليست

مستغنياً في خروجك عن مثلي ، ونجعلُ عبداً من عبيدنا في فراشك ، قائماً مقامك ، يتوهم القوم - برؤيته نائماً في بُردك - أنك لم تخرج ، ولم تفارق مركزك ؛ فلم يقل ذلك ، ولا تحبس ولا توقف ، ولا تعلم ، وذلك لعلم كل واحدٍ منهما صلى الله عليه وآله أن أحداً لا يبصر على ثقل هذه الحنة ، ولا يتورط هذه الهلكة ؛ إلا من خصه الله تعالى بالصبر على مشقتها ، والنور بفضيلتها ، وله من جنس ذلك أفعال كثيرة ، كيوم دعا عمرو بن عبدود المسلمين إلى المبارزة ، فأحجم الناس كلهم عنه ، لما علموا من بأسه وشدته ، ثم كرر النداء ، فقام على عليه السلام ، فقال : أنا أبرزُ إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : إنه عمرو ! قال : نعم ، وأنا على ! فأمره بالخروج إليه ، فلما خرج قال صلى الله عليه وآله : « برز الإيمان كله إلى الشرك كله » ، وكيوم أحد حيث سمى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبطال قريش وهم يقصدون قتله ، فقتلهم دونه ، حتى قال جبريل عليه السلام : « يا محمد إن هذه هي المواساة » ، فقال : « إنه مني وأنا منه » ، فقال جبريل : « وأنا منكما » .

ولو عددنا أيامه ومقاماته التي شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا .

قال الجاحظ : فإن احتج محتج لملي عليه السلام بالمبيت على الفراش ، فبين الغار والفراش فرق واضح ، لأن الغار وصحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله قد نطق به القرآن ، فصار كالصلاة والزكاة وغيرها ، مما نطق به الكتاب ، وأمر على عليه السلام ونومه على الفراش ، وإن كان ثابتاً صحيحاً ، إلا أنه لم يذكر في القرآن ، وإنما جاء بحجج الروايات والسير ، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا فرق غير مؤثر ، لأنه قد ثبت بالتواتر حديث

(١) العنانية ٤٤ :

الفِراش ، فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نص الكتاب ، ولا يحدّه إلا مجنون أو غير مخالطٍ لأهل اللثة ، رأيت كون الصلواتِ خمساً ، وكون زكاة الذهب ربع العشر ، وكون خروج الريح ناقضاً للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه ؟ هل هو مخالف لما نصّ في الكتاب عليه من الأحكام ! هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل ، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي بكر في الكتاب ، وإنما قال : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾^(١) ، وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد في السيرة ، وقد قال أهل التفسير : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ أَلْمَا كَرِينِ ﴾^(٢) كناية عن عليّ عليه السلام ، لأنه مكر بهم ، وأول الآية : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ أَلْمَا كَرِينِ ﴾^(٣) ، أنزلت في ليلة الهجرة ، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش ، ومكر الله تعالى هو منامُ عليّ عليه السلام على الفِراش ، فلا فرق بين الموضعين في أنهما مذكوران كناية لا تصریحاً . وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتَعَاءً مَّرَضَاتِ اللَّهِ ﴾^(٤) ، أنزلت في عليّ عليه السلام ليلة المبيت على الفِراش ، فهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ ، لا فرق بينهما .

قال الجاحظ : وفرق آخر ، وهو أنه لو كان مبيتُ عليّ عليه السلام على الفِراش ، جاء مجيء كونه أبي بكر في الغار ، لم يكن له في ذلك كبير طاعة ، لأن الناقلين نقلوا أنه صلى الله عليه وآله قال له : « نَمَّ فَلَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ » ، ولم ينقل ناقل أنه

(٢) سورة الأنفال ٣٠

(١) سورة التوبة ٤٠

(٣) سورة البقرة ٢٠٧

قال لأبي بكر في صحبته إياه وكونه معه في الغار مثل ذلك ، ولا قال له : أنفق وأعتق ، فإنك لن تفتقر ، ولن يصل إليك مكروه^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله ، هذا هو الكذب الصراح ، والتحرير والإدخال في الزوايا مالم يس منها ، والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له : اذهب فاضطجع في مضجعي ، وتغش ببردِي الحضرمي ، فإن القوم سيفقدونني ، ولا يشهدون مضجعي ، فاعلمهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا ، فإذا أصبحت فاغدُ في أداء أمانتي ؛ ولم ينقل ما ذكره الجاحظ ، وإنما ولده أبو بكر الأصبم ، وأخذه الجاحظ ، ولا أصل له ، ولو كان هذا صحيحا لم يصل إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتفاق على أنه ضرب ورمى بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تصور ، وأنهم قالوا له : رأينا تصورك ، فإننا كنا نرمى محمدا ولا يتصور ، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل ، فهب أنه أمن القتل ، كيف يأمن من الضرب والهوان ، ومن أن ينقطع بعض أعضائه ، وبأن سلمت نفسه ! أليس الله تعالى قال لنبيه : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾^(٢) ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشج وجهه ، وأدميت ساقه ، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة ، وكذلك المكروه الذي أو من على عليه السلام منه - إن كان صح ذلك في الحديث - إنما هو مكروه القتل .

ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضا في كونه في الغار ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، ومن يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كل سوء ، فكيف قلت : ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك ! فكل ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عما أوردته ، فنقول له : هذا ينقلب عليك في النبي صلى الله عليه

وآله ، لأن الله تعالى وعده بظهور دينه ، وعاقبة أمره ، فيجب على قولك ألا يكون مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه ، ولا ما يصيبه من الأذى ، إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح في عِدَّتِهِ .

قال الجاحظ : ومن جحد كون أبي بكرٍ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كفر ، لأنه جحد نص الكتاب ، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾^(١) من الفضيلة لأبي بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله في كون الله تعالى معه وإنزال السكينة ، قال كثير من الناس : إنه في الآية مخصوص بأبي بكر ، لأنه كان محتاجاً إلى التكينه لما تداخله من رقة الطبع البشري ، والنبي صلى الله عليه وآله كان غير محتاج إليها ، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليه ، وهذه فضيلة ثلاثة لأبي بكر .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إن أبا عثمان يجر على نفسه مالا طاقة له به من مطاعن الشيعة ، ولقد كان في غنية عن التعلق بما تعلق به ، لأن الشيعة تزعم أن هذه الآية ، بأن تكون طعناً وعيباً على أبي بكر ، أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له ، لأنه لما قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ دل على أنه قد كان حزيناً وقنطاً وأشفق على نفسه ، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين ، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة ، لأن الله تعالى لا ينهى عن الطاعة ، فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ أى إن الله عالم بحالنا وما نضمه من اليقين أو الشك ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرن سوءاً ولا تنوين قبيحاً ، فإن الله تعالى يعلم مانسره وما نعلنه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾^(٢) ، أى هو عالم بهم ، وأما التكينه

فكيف يقول : إنها ليست راجعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وبعدها قوله : ﴿ وَأَيْدُهُ
يَجْنُودٍ لَمْ تَرَوهَا ﴾ ، أتري المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله
عليه وآله !

وقوله : إنه مستغن عنها ، ليس بصحيح ولا يستغنى أحد عن أطفاف الله وتوفيقه
وتأييده وتثبيت قلبه ، وقد قال الله تعالى في قصة حنين : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحِبْتُمْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ (١) صلى الله
عليه وآله .

وأما الصحبة فلا تدلّ إلّا على المرافقة والاصطحاب لا غير ، وقد يكون حيث
لا إيمان ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ ،
ونحن وإن كنا نعتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصحيح السليم وفضيلته التامة ، إلّا
أننا لا نحتج له بمثل ما احتج به الجاحظ من الحجج الواهية ، ولا تتعلق بما يجرّ علينا
دواهي الشيعة ومطاعنها .

قال الجاحظ : وإن كان المبيت على الفراش فضيلة ، فأين هي من فضائل أبي بكر
أيام مكة ، من عتق المعتدّين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين ، مع فرق ما بين الطاعتين ،
لأنّ طاعة الشابّ الفرير والحدث الصغير الذي في عزّ صاحبه عزّه ، ليست كطاعة
الحليم الكبير الذي لا يرجع تسويد صاحبه إلى رهطه وعشيرته .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا كثرة المستجيبين ، فالفضل فيها راجع إلى المحيّب

لا إلى الحجاب ، على أننا قد علمنا أن من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممن استجاب لنوح عليه السلام ، وثواب نوح أكثر ، لصبره على الأعداء ، ومقاساة خلافهم وعنتهم . وأما إنفاق المال ؛ فأين محنة الغني من محنة الفقير ! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غني ؛ إن جاع أكل ، وأن أعيار كعب ، وإن عرى لبس ، قد وثق بيساره واستغنى بماله ، واستعان على نوائب الدنيا بثروته ، ممن لا يجد قوت يومه ، وإن وجد لم يستأثر به ، فكان الفقر شعاره ، وفي ذلك قيل : الفقر شعار المؤمن . وقال الله تعالى لموسى : « يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين » ، وفي الحديث : « إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » ، وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول : « اللهم احشرنى فى زمرة الفقراء » ، ولله أن يرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً ، وكان بالفقر سعيداً ، فقاسى محنة الفقر ومكابدة الجوع ، حتى شدة الحاجر على بطنه ، وحسبك بالفقر فضيلة فى دين الله لمن صبر عليه ، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه ، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها : وإنما هو شعار أهل الآخرة .

وأما طاعة علي عليه السلام ، وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن فى عز محمد عزه وعز رهطه ، بخلاف طاعة أبي بكر ، فهذا يفتتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عبدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة ؛ بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانت لأن فى دولته دولتهم ، وفى نصرته استجداد ملك لهم ، وهذا يجر إلى الإلحاد ، ويفتح باب الزندقة ، ويُفضى إلى الطعن فى الإسلام والنبوة .

قال الجاحظ : وعلى أننا لو نزلنا إلى ما يريدونه ، جعلنا الفراش كالغار ، وخلصت فضائل أبي بكر فى غير ذلك عن معارض .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : قد بينا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصحبة

في الغار ، بما هو واضح لمن أنصف ، ونزيد هاهنا تأكيداً بما لم نذكره فيما تقدم ، فنقول :
إن فضيلة المبيت على الفراش على الصُّحبة في الغار لوجهين :
أحدهما : أن علياً عليه السلام قد كان أنس بالنبي صلى الله عليه وآله وحصل له
بمصاحبته قديماً أنسٌ عظيم ، وإلف شديد ، فلما فارقه عُدِم ذلك الأنس ، وحصل به
أبو بكر ، فكان ما يجده على عليه السلام من الوَحشة وألم الفرقة موجباً زيادة ثوابه ، لأنَّ
الثواب على قدر المشقة .

وثانيهما : أن أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة ، وقد كان خرج من قبل فرداً ،
فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ،
ومحبوب نفسه ، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازى فضيلة من احتمل المشقة العظيمة ،
وعرض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضخ الحجارة ، لأنه على قدر سهولة العبادة يكون
نقصان الثواب .

قال الجاحظ : ثم الذي لقي أبو بكر في مسجده الذي بناه على بابه في بني بُجَمح ، فقد
كان بنى مسجداً يصلى فيه ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، وكان له صوتٌ رقيق ، ووجه
عتيقٌ ، وكان إذا قرأ بكى ، فيقف عليه المارة من الرجال والنساء والصبيان والعبيد ، فلما
أوذى في الله ، ومُنِع من ذلك المسجد ، استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله في الهجرة ،
فأذن له ، فأقبل يريد المدينة ، فتلقاه الكنانى^(١) ، فمعد له جواراً ، وقال : والله لا أدعُ مثلك
يخرج من مكة ، فرجع إليها وعاد لصنيعه في المسجد ، فمشت قریش إلى جاره الكنانى ،
وأجلبوا عليه ، فقال له : دع المسجد وادخل بيتك ، واصنع فيه ما بدا لك^(٢) .

(١) الكنانى ؟ هو مالك بن الدغنة ، أحد بني الحارث بن بكر بن عبد مناة .
(٢) الثمانية ٢٨ ، ٢٩ مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كيف كانت بنو جُمَح تُوذِي عثمان بن مظعون وتضربه ، وهو فيهم ذو سَطْوَة وَقَدْر ، وتترك أبا بكر بيني مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم ، وأنتم الذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال : «ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب» ، والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ، فكيف هذا !
وأما ما ذكرتم من رقة صوته وعَتَاق وجهه ، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدي وغيره أن عائشة رأيت رجلاً من العرب خفيف العارضين ، معروق الخدين ، غائر العينين ، أجنأ^(١) لا يمك إزاره ، فقالت : ما رأيت أشبه بأبي بكر من هذا ؟ فلا تراها دلت على شيء من الجمال في صفته !

قال الجاحظ : وحيث ردّ أبو بكر جوار الكناني ، وقال : لا أريد جاراً سوى الله ، لقي من الأذى والذل والاستخفاف والضرب ما بلغكم ، وهذا موجود في جميع السير ، وكان آخر مالقي هو وأهله في أمر الغار ، وقد طلبته قريش وجعلت فيه مائة بعير ، كما جعلت في النبي صلى الله عليه وآله ، فلقي أبو جهل أسماء بنت بكر ، فسألها فكتمته ، فلطمها حتى رمت قرطاً كان في أذنها^(٢) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا الكلام وهُجِرَ السَّكران سواء ، في تقارب المخرج ، واضطراب المعنى ، وذلك أن قريشاً لم تقدر على أذى النبي صلى الله عليه وآله ، وأبو طالب حتى يمنعه ؛ فلما مات طلبته لتقتله ، فخرج تارة إلى بني عامر ، وتارة إلى ثقيف ، وتارة إلى بني شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستتراً ، حتى أجاره مطعم بن عدي ، ثم خرج إلى المدينة ، فبذلت فيه مائة بعير لشدة حنقها عليه حين فاتها ، فلم تقدر عليه ، فسا بالها بذلت في أبي بكر مائة بعير أخرى ، وقد كان ردّ الجوار ، وبقي بينهم فرداً لا ناصر له

(١) الأجنأ ، من الجنأ وهو ميل الظهر (٢) الثمانية ٢٩ ، مع تصرف واختصار .

ولاً دافع عنده ، يصنعون به ما يريدون ! إنا أن يكونوا أجهل البرية كلها أو يكون العثمانية
أ كذب جيل في الأرض وأوقحه وجها ! فهذا مما لم يذكر في سيرة ولا روى في أثر ،
ولا سمع به بشر ، ولا سبق الجاحظ به أحد !

قال الجاحظ : ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه ؛ حتى أسلم على
يديه طلحة والزبير وسعد وثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلم دعا إلى الله
وإلى رسوله (١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما أعجب هذا القول ؛ إذ تدعى العثمانية لأبي بكر
الرفق في الدعاء وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه في منزله ابنه عبد الرحمن ، فما قدر أن
يدخله في الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كرها بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه
عليه ، ولا كان لأبي بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطيعه فيما يأمره به ، ويدعوه
إليه ؛ كما روى أن أبا طالب فقد النبي صلى الله عليه وآله يوماً ، وكان يخاف عليه من
قريش أن يقتلوه ، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبان النبي صلى الله عليه وآله ، فوجده
قائماً في بعض شعاب مكة بصلي ، وعلى عليه السلام معه عن يمينه ، فلما رآها أبو طالب ،
قال لجعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك ، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه
وآله ، فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وتأخر الأخوان ، فبكى
أبو طالب ، وقال :

إن علياً وجعفرًا ثقتي عند مُلِمِّ الخطوب والنَّوَبِ
لا تخذلا ، انصرا ابن عمك أنى دُئِمَى من بينهم وأبي
والله لا أخذل نبي ولا يخذله من بنى ذو حَسَبِ

(١) العثمانية ٣١ مع تصرف واختصار .

فتذكر الرواة أن جعفرًا أسلم منذ ذلك اليوم؛ لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره؛ وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن في الإسلام حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أُحُد في عسكر المشركين ينادى: أنا عبد الرحمن بن عتيق، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره، حتى أسلم عام الفتح، وهو اليوم الذي دخلت فيه قریش في الإسلام طوعا وكرها، ولم يجد أحدًا منها إلى ترك ذلك سبيلا! وأين كان رفق أبي بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبي قحافة وهما في دار واحدة! هلا رفق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم! وقد علمتم أنه بقي على الكفر إلى يوم الفتح، فأحضره ابنه عند النبي صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير رأسه كالنعام^(١)، فنفر رسول الله صلى الله عليه وآله منه، وقال: غيروا هذا؛ فغضبوه، ثم جاءوا به مرة أخرى، فأسلم. وكان أبو قحافة فقيرا مدقما سيئا الحال، وأبو بكر عندهم كان مثريا فأنض المال، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنفقة والإحسان، وقد كانت امرأة أبي بكر أم عبد الله ابنة - واسمها نملّة بنت عبد العزى بن أسعد عبد بن ودّ العامرية - لم تسلم، وأقامت على شركها بمكة، وهاجر أبو بكر وهي كافرة، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾^(٢)، فطلقها أبو بكر، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرماء أعجز، ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا يرفق واحتجاج، ولا خوفا من قطع النفقة عنهم، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقل قبولاً منه، وأكثر خلافا عليه!

قال الجاحظ: وقالت أسماء بنت أبي بكر: ما عرفتُ أبي إلّا وهو يَدِين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلم، فدعانا إلى الإسلام، فما رَمْنَا حتى أسلَمْنَا، وأسلم أكثر جلسائه، ولذلك قالوا: مَنْ أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد؛ بل عنوا الكثرة في القدر، لأنه أسلم على يديه خمسة من أهل الشورى،

(١) الثعام: كسحاب: ضرب من النبات أبيض. (٢) سورة المتحنة ١٠

كلهم يصلح للخلافة ، وهم أكفأ على عليه السلام ، ومنازعه الرياسة والإمامة ، فهؤلاء
أكثر من جميع الناس^(١) :

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا من هذا الذي أسلم ذلك اليوم من أهل بيت
أبي بكر؟ إذا كانت امرأته لم تسلم وابنه عبد الرحمن لم يسلم ، وأبوقحافة لم يسلم ، وأخته أم فروة
لم تسلم ، وعائشة لم تكن قد ولدت في ذلك الوقت ، لأنها ولدت بعد مبعث النبي صلى الله
عليه وآله بخمس سنين ، ومحمد بن أبي بكر ولد بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث
وعشرين سنة ، لأنه ولد في حجة الوداع ، وأسماء بنت أبي بكر التي قد روى الجاحظ
هذا الخبر عنها كانت يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنت أربع سنين - وفي رواية
من يقول : بنت سنتين - فمن الذي أسلم من أهل بيته يوم أسلم ! نعوذ بالله من الجهل
والكذب والمكابرة ! وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من
رهطه ولا من أتريابه ولا من جلسائه ، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة ، ولا أنس
وكيد ! وكيف ترك أبو بكر عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، لم يدخلهما في الإسلام
برفقته وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنهما كانا يجلسان إليه لعله وطريف حديثه ! وما باله
لم يدخل جبير بن مطعم في الإسلام ، وقد ذكرتم أنه أدبه وخرجه ، ومنه أخذ جبير العلم
بأنساب قريش ومآثرها ! فكيف مجز عن هؤلاء الذين عدّناهم ، وهم منه بالحال التي
وصفنا ، ودعا من لم يكن بينه وبينه أنس ولا معرفة ، إلا معرفة عيان ! وكيف لم يقبل منه
عمر بن الخطاب ، وقد كان شكله ، وأقرب الناس شهباً به في أغلب أخلاقه ! ولئن رجعت
إلى الإنصاف لتعلمن أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله لهم ،
وعلى يديه أسلموا ، ولو فكركم في حسن التأني في الدعاء ؛ ليصحن لأبي طالب في ذلك

(١) انعمانية ٣١-٣٢ ، مع تصرف واختصار .

على شير، كه أضعاف ما ذكرتموه لأبي بكر ، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام : يا بني الزمه ، فإنه لن يدعوك إلا إلى خير ، وقال الجعفر : صل جناح ابن عمك ، فأسلم بقوله ، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من بني مخزوم ، وبني سهم ، وبني جحج ، ولأجله صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب ، وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه وآله أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد ، فهو أحسن رفقاً ، وأمين تقيته من أبي بكر وغيره ، وإنما منعه عن الإسلام أن ثبت أنه لم يسلم إلا تقيته ، وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد ، وهو عبد الرحمن ، فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام ، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أنزل : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَا وَيْلَيْهِ أَف لَيْسَ لَكُمْ أَنْتَدَاءُ مِنِّي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَمَا يَسْتَعِينَانِ اللَّهُ وَيَلْتَكِ آمِنٌ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) ، وإنما يعرف حسن رفق الرجل وتأتيه بأن يصلح أولاً امرأته وأهله ، ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بعث كان أول من دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمه عليا عليه السلام ، ثم مولاه زيدا ، ثم أم أيمن خادمته ؛ فهل رأيتم أحدا ممن كان يأوي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسارع! وهل التأت عليه أحد من هؤلاء ! فهكذا يكون حسن التأتى والرفق في الدعاء ! هذا ورسول الله مُقِلٌّ ، وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كان مُوسِراً ، وكان أبوه مقترا ، وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله ، والموسر في فطرة العتول أولى أن يتبع من المقتر ، وإنما حسن التأتى والرفق في الدعاء ما صنعه مُصعب بن عمير لسعد بن معاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن معاذ بيني عبد الأشهل لما دعاهم وما صنع بُريدة بن الحصيبي بأسلم لما دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه ،

وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعدٍ في يوم واحد ، وأما من لم يسلم ابنه ولا امرأته ، ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيهات أن يوصفَ ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأتى والأناة !
قال الجاحظ : ثم أعتق أبو بكرٍ بعد ذلك جماعةً من المعتدين في الله ، وهم ستّ رقاب ، منهم بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزبيدة النهديّة ، وابنتها . ومرّ بجارية يعذبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه ، وأعتقها ، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ... ﴾ ^(١) ، إلى آخر السورة .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما بلال وعامر بن فهيرة ، فإنما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، روى ذلك الواقدي وابن إسحاق وغيرهما ، وأما باقى مواليتهم الأربعة ، فإن سألناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدة بغض مواليتهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها ، فأى فخر في هذا ! وأما الآية فإن ابن عباس قال في تفسيرها : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، أى لأن يعود .
وقال غيره : نزلت في مُصعب بن عمير .

قال الجاحظ : وقد علمت ما صنع أبو بكر في ماله ، وكان ماله أربعين ألف درهم ؛ فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيف الظهر ، قليل العيال والنسل ، فيكون فاقداً جميع اليسارين ، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم ، ويعول والديه وما ولدا ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وآله قبل ذلك عنده مشهوراً ، فيخاف العار في ترك مواساته ، فكان إنفاقه على الوجه الذى لا نجد في غاية الفضل مثله ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « ما نفعنى مال كما نفعنى مال أبى بكر » .

(١) سورة الليل ٥

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا على أي نواصب الإسلام أنفق هذا المال ،
 وفي أي وجه وضعه ؟ فإنه ليس بجائز أن ينفق ذلك ويدرس حتى يفوت حفظه ، وينسى
 ذكره ، وأنتم فلم تفقوا على شيء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها
 في ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدعى له الإنفاق الجليل ، وقد باع من رسول الله صلى
 الله عليه وآله بعيرين عند خروجه إلى يثرب ، وأخذ منه الثمن في مثل تلك الحال ، وروى
 ذلك جميع المحدثين ، وقد رويت أيضا أنه كان حيث كان بالمدينة غنيا موسرا ، ورويت
 عن عائشة أنها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم ، وقتلتم إن الله تعالى أنزل
 فيه : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى ﴾ ^(١) ، قلت : هي
 في أبي بكر ومسطح بن أثانة ، فأين الفقر الذي زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة ! ورويت
 أن الله تعالى في سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة . وأن النبي صلى الله عليه وآله رأى ليلة
 الإسراء ، فسأل جبرائيل عنهم فقال : هؤلاء ملائكة تأسوا بأبي بكر بن أبي قحافة
 صديقك في الأرض ، فإنه سينفق عليك ماله ، حتى يخلل عباءه في عتقه ، وأنتم أيضا
 رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ
 فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ^(٢) ، الآية لم يعمل بها إلا على
 ابن أبي طالب وحده ، مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده ، وأبو بكر في الحال التي ذكرنا
 من السعة أمسك عن مناجاته ، فعاتب الله المؤمنين في ذلك ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا
 بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فجعله سبحانه ذنبا
 يتوب عليهم منه ، وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة ، فكيف سخط نفسه بإنفاق أربعين
 ألفا ، وأمسك عن مناجاة الرسول ، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين !
 وأما ما ذكر من كثرة عياله ونفقته عليهم ، فليس في ذلك دليل على تفضيله ، لأن

نفقته على عياله واجبة ، مع أن أرباب السيرة ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئاً ، وأنه كان أجيراً لابن جُدعان على مائدته يطرد عنها الذبان .

قال الجاحظ : وقد تعلمون ما كان يلقي أصحاب النبي صلى الله عليه وآله بيطن مكة من المشركين ، وحسن صنيع كثير منهم ؛ كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه فقتل هامته ، وأبو جهل يومئذ سيد البطحاء ورئيس الكفر ، وأمنع أهل مكة ، وقد عرفتم أن الزبير سل سيفه ، واستقبل به المشركين ، لما أُرِجِفَ أن محمداً صلى الله عليه وآله قد قتل ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يعبد الله سرّاً بعد اليوم ، وأن سعدا ضرب بعض المشركين بلحى جهل ، فأراق دمه ، فكل هذه الفضائل لم يكن لعلي بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ ^(١) ؛ فإذا كان الله تعالى قد فضّل مَنْ أنفق قبل الفتح ، لأنه لا هجرة بعد الفتح ، على مَنْ أنفق بعد الفتح ، فما ظنكم بمن أنفق من قبل الهجرة ، ومن لدُنْ مَبَعَثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الْهَجْرَةِ وَإِلَى بَعْدِ الْهَجْرَةِ ^(٢) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم ، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المألومة ، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على علي بن أبي طالب ، ولسنا ننكر غير ذلك ، وننكر تعصب الجاحظ للعبانية ، وقصده إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والإبطال . وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل عظيم ، ومقام جليل ، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله

(٢) العنانية ٣٧ ، مع تصرف واختصار

(١) سورة الحديد ٢٠

صلى الله عليه وآله ، وأما فضل عمر فغير منكر ، وكذلك الزبير وسعد ، وليس فيما ذكر ما يقتضى كون علي عليه السلام مفضولاً لهم أو لغيرهم ، إلا قوله : « وكل هذه الفضائل لم يكن لعلّي عليه السلام فيها ناقة ولا جمل » ، فإن هذا من التعصب البارد ، والخيف الفاحش ، وقد قدمنا من آثار علي عليه السلام قبل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ، ما هو أفضل وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء ، على أن أرباب السيرة يقولون : إن الشجّة التي شجّها سعد ، وإن السيف الذي سلّه الزبير ، هو الذي جلب الحصار في الشعب على النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهو الذي سير جعفر وأصحابه إلى الحبشة ، وسلّ السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (١) ، فتبين أن التكليف له أوقات ، فمنها وقت لا يصلح فيه سلّ السيف ، ومنها وقت يصلح فيه ويجب ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ ﴾ ، فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبي بكر إنفاق المال . وأيضاً فإن الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفرداً ، وإنما قرن به القتال ، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحرب ، فلا تشمل الآية ، وكان علي عليه السلام صاحب قتال وإنفاق قبل الفتح ، أما قتاله فمعلوم بالضرورة ، وأما إنفاقه فقد كان على حسب حاله وفقره ، وهو الذي أطعم الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورة (٢) كاملة من القرآن ، وهو الذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهماً سرّاً ودرهماً علانية ليلاً ، ثم أخرج منها في النهار درهماً سرّاً ودرهماً علانية ، فأُنزل فيه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٣) ، وهو الذي قدم بين يدي نجواه صدقة

(٢) زعم بعض غلاة الشيعة ، أنه أنزلت فيهم سورة مختلفة ،

(١) سورة النساء ٧٧

واقطر فصل الخطاب لحسين بن محمد الطبرسي ١٥٦ ، وحواشي ملحق العثمانية ٣١٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٤٧

دون المسلمين كافة ، وهو الذي تصدق بخاتمه وهو راحم ، فانزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
رَاكِعُونَ ﴾ (١) .

قال الجاحظ : والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي عليه السلام قتله الأقران ،
وخوضه الحرب ، وليس له في ذلك كبير فضيلة ؛ لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى
الأقران ، لو كان من أشد الحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم ،
لوجب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة ، وابن عفراء ، والبراء بن مالك
من الفضل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا
ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلا عنهم في العريش
ومعه أبو بكر ، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران ، ويجندل الأبطال ، وفوقه من
العسكر من لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذو الرأي ، والمستشير في الحرب ، لأن
لرؤساء من الأكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم ، ولأن الرئيس
هو المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدار الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ، ويستنصر ، وباسمه ينهزم
العدو ، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفرّ هو لم يغب ثبوت الجيش كله ، وكانت
الدبرة عليه ولو ضيع القوم جميعا وحفظ هو لا تنصر وكانت الدولة له ، ولهذا لا يضاف
النصر والهزيمة إلا إليه ، ففضل أبي بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من
جهاد علي عليه السلام ذلك اليوم ، وقتله أبطال قریش .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : لقد أعطى أبو عثمان مقولا ، وحرّم مقولا ، إن كان

يقول هذا على اعتقاد وجدّ ، ولم يذهب به مذهب اللّعب والهزل ، أو على طريق التّفاسيح والتّشادق وإظهار القوّة ، والسلاطة وذلاّقة اللسان وحدّة الخاطر والقوّة على جدال الخصوم ؛ ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أشجع البشّر ، وأنه خاض الحروب ، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الأبواب ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ فمنها يوم أحد ، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم ، ولم يبق معه إلا أربعة : عليّ ، والزبير ، وطلحة ، وأبو دُجّانة ، فقاتل ورمى بالنّبل حتى فنيت نبله ، وانكسرت سيّة قوسه ، وانقطع وتره ، فأمر عكاشة بن محصن أن يوترها ، فقال : يا رسول الله : لا يبلغ الوتر ، فقال : أوتر ما بلغ . قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحقّ لقد أوترت حتى بلغ ، وطويت منه شبراً على سيّة القوس ، ثم أخذها فما زال يرميهم ، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطّمت . وبارز أبيّ بن خلف ، فقال له أصحابه : إن شئت عطف عليه بعضنا ! فأبى ، وتناول الحربه من الحارث بن الصّمة ثم انتقض بأصحابه ، كما ينتقض البعير ، قالوا : فتطايرنا عنه تطاير الشعارير^(١) ، فطعننه بالحربة ، فجعل يخور كما يخور الثور ، ولو لم يدلّ على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ﴾^(٢) ، فكونه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون ، هار بين ؛ دليل على أنّه ثبت ولم يفرّ ، وثبت يوم حنين في تسعة من أهله ورهطه الأذنين ، وقد فرّ المسلمون كلّهم والنفر التسعة محذقون به : العباس أخذ بحكّمة بغلته ، وعليّ بين يديه مصليّ سيفه ، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يمينه وبسرة ، وقد انهزم المهاجرون والأنصار ، وكلّما فرّوا أقدم هو صلى الله عليه وآله وصمّ مستقديماً ، يلتقي السيوف والنبال بنحره وصدره ، ثم أخذ كفاً من

(١) الشعارير : ما يجتمع على دبرة البعير من الذبان ، فإذا هيجت تطايرت عنها .

(٢) سورة آل عمران ١٥١

البطحاء ، وحصب المشركين ، وقال : شأهت الوجوه ! والخبر المشهور عن عليّ عليه السلام ، وهو أشجع البشر : « كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ ، وَحَمِيَ الْوَطَيْسُ ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَدَانَا بِهِ » ، فكيف يقول الجاحظ : إنه ما خاض الحرب ، ولا خالط الصّوفاء ، وأى فرية أعظم من فرية من نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإخجام واعتزال الحرب ! ثم أى مناسبة بين أبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى ليقبسه وينسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدعوة ، ورئيس الإسلام والملة ، والملاحظ بين أصحابه وأعدائه بالسيادة ، وإليه الإيحاء والإشارة ، وهو الذى أحقّ قریشاً والعرب ، وورى أكيادهم بالبراءة من آلهتهم ، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعد بقتل رؤسائهم وأكابريهم ! وحقّ لمثله إذا تنحى عن الحرب واعتزلها أن ينحى ويعتزل ، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء ، إذا كان الجيش منوطاً بهم وبيقاتهم ، فمتى هلك الملك هلك الجيش ، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه ، وإن عطب جيشه فإنه يستجدّ جيشاً آخر ؛ ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه ، وخطئوا الإسكندر لما بارز قوسراً ملك الهند ، ونسبوه إلى مجانبية الحكمة ومفارقة الصواب والحزم ، فليقلّ لنا الجاحظ : أى مدخل لأبي بكر في هذا المعنى ؟ ومن الذى كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحد من عرض المهاجرين ، حكمه حكم عبد الرحمن بن عوف ، وعمان بن عفان ، وغيرها ! بل كان عثمان أكثر منه صيتاً ، وأشرف منه سركباً ، والعيون إليه أطمح ، والعدو إليه أحقّ وأكلب ؛ ولو قتل أبو بكر في بعض تلك المعارك ، هل كان يؤثر قتله في الإسلام ضعفاً ، أو يحدث فيه وهناً ! أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تندرس وتعسّف آثارها ، وينطمس منارها ! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله في مجانبية الحروب واعتزالها ، نعوذ بالله من الخذلان ! وقد علم العقلاء كلهم ممن له

بالسير معرفة، وبالآثار والأخبار ممارسة، حال حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت، وحاله عليه السلام فيها كيف كان، ووقوفه حيث وقف، وحربه حيث حارب، وجلوسه في العريش يوم جلس، وإن وقوفه صلى الله عليه وآله وقوف رياسة وتديير، ووقوف ظهر وسند؛ يتعرف أمور أصحابه، ويحرس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم، وتخلفه عن التقدم في أوائلهم، لأنهم متى علموا أنه في أخراهم اطمأنت قلوبهم، ولم تتعلق بأمره نفوسهم، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوهم، ولا يكون لهم فئة يلجئون إليها، وظهر يرجعون إليه، ويعلمون أنه متى كان خلفهم تفقد أمورهم، وعلم مواقفهم، وآوى كل إنسان مكانه في الحماية والنكاية وعند المنازلة في الكرّ والحمل، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم، وأحمى وأحرس لبيضتهم؛ ولأنه المطلوب من بينهم؛ إذ هو مدبر أمورهم، ووالى جماعتهم؛ ألا تزون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف، وأن صلاح الحرب في وقوفه، وأن فضيلته في ترك التقدم في أكثر حالاته؛ فلارئيس حالات:

الأولى: حالة يتخلف ويقف آخرًا ليكون سنداً وقوة، وردءاً وعدة، وليتولى تديير الحرب، ويعرف مواضع الخلل.

والحالة الثانية: يتقدم فيها في وسط الصف ليقوى الضعيف، ويشجع الناكس^(١).
وحالة ثالثة: وهي إذا اصطدم الفيلقان، وتكافح السيفان، اعتمد ما تقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح، أو من مباشرة الحرب بنفسه؛ فإنها آخر المنازل؛ وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجد، وفسالة الجبان المموه.

فأين مقام الرئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله! وأين منزلة أبي بكر ليسوئى بين المنزلتين، ويناسب بين الحاليتين!

ولو كان أبو بكر شريكاً لرسول الله صلى الله عليه وآله في الرسالة، ومنوحاً من الله

(١) ب: «الناكس».

بفضيلة النبوة، وكانت قُرَيْش والعرب تطلبه كما تطلب محمدًا صلى الله عليه وآله، وكان يدبر من أمر الإسلام وتَسْرِيْب العساكر وتجهيز السَّرَايَا، وقتل الأعداء، ما يدبره محمد صلى الله عليه وآله، لكان للجاحظ أن يقول ذلك، فأما وحاله حاله، وهو أضعف المسلمين جنانا، وأقلهم عند العرب ترةً، لم يَرَمِ قَطُّ بِسَهْمٍ، ولا سلَّ سَيْفًا، ولا أراق دما؛ وهو أحد الأتباع، غير مشهور ولا معروف، ولا طالب ولا مطلوب؛ فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلته! ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فرآه أبو بكر؛ فقام معيظاً عليه، فسَلَّ من السَّيْف مقدار أصبع؛ يريد البروز إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا بكر، شَمِّ سيفك»^(١) وأمتنعنا بنفسك»، ولم يقل له: «وأمتنعنا بنفسك» إلا لعله بأنه ليس أهلاً للحرب وملافاة الرجال، وأنه لو بارز لقتل.

وكيف يقول الجاحظ: لافضيلة لمباشرة الحرب، ولقاء الأفران، وقتل أبطال الشرك! وهل قامت محمد الإسلام إلا على ذلك! وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك! أترأه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَرْصُوصًا﴾^(٢)! والحجة من الله تعالى هي إرادة الثواب؛ فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً، كان أحب إلى الله؛ ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً، فعلى عليه السلام إذا هو أحب المسلمين إلى الله، لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص، لم يفر قط بإجماع الأمة، ولا بارزه قرن إلا قتله.

أترأه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ

(١) شَمِّ سيفك، أى أغمده؛ وهو من الأضداد.

(٢) سورة الصف؛ .

(٣) سورة النساء ٩٥.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴿١١﴾ ،
ثم قال سبحانه مؤكدا لهذا البيع والشراء : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِنًا يَنْفِظُ
الْكُفْرَانَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ (٢) .

فمواقف الناس في الجهاد على أحوال ؛ وبعضهم في ذلك أفضل من بعض ؛ فمن
دلف إلى الأقران ، واستقبل الشيوف والأسنة ؛ كان أثقل على أكتاف الأعداء ، لشدة
نكايته فيهم ، ممن وقف في المعركة ، وأعان ولم يُقدِّم ، وكذلك ممن وقف في المعركة ،
وأعان ولم يُقدِّم ؛ إلا أنه بحيث تناله سهام والنبل أعظم غناء ، وأفضل ممن وقف حيث
لا يناله ذلك ، ولو كان الضعيف والجبان يستحقان الرياسة بقلة بسط الكف وترك
الحرب ؛ وأن ذلك يشا كل فعل النبي صلى الله عليه وآله ، لكان أوفر الناس حفظاً
في الرياسة ، وأشدَّهم لها استحقاقا حسَّان بن ثابت ، وإن بطل فضل علي عليه السلام
في الجهاد ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله كان أقلهم قتالاً ، كما زعم الجاحظ لبيطلن
على هذا القياس فضل أبي بكر في الإنفاق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان
أقلهم مالا !

وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ، ونظرت السير ، وقرأت الأخبار ، عرفت
أنها كانت تطلب محمداً صلى الله عليه وآله وتقصده قَصْدَهُ ، وتروم قتله ، فإن أعجزها وفاتها
طلبت علياً عليه السلام ، وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً ، وأقربهم
منه قرباً ، وأشدَّهم عنه دفعا ، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى
الله عليه وآله وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة

والتجدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عتبة بن ربيعة يوم بدر ، وقد خرج هو وأخوه شَيْبَةَ وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليه الرسولُ نفرًا من الأنصار ، فاستنصبوهم فانتصبوا لهم ، فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا : يا عمَدُ أخرج إلينا أ كفاءنا من قومنا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله لأهله الأذنين : قوموا يا بني هاشم ، فانصروا حقَّكم الذي آتاكم الله على باطل هؤلاء ، قُمْ يا علي ، قُمْ يا حمزة ، قُمْ يا عبيدة ، ألا ترى ما جعلتُ هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد ؛ لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر ؛ ألم تسمع قولَ هند ترضى أهلها :

مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرٍ أَبِي وَعَمِّي وَشَقِيقِ صَدْرِي
أَخِي الَّذِي كَانَ كضوءِ البدرِ بِهِمْ كَسَرْتَ يَا عَلِيُّ ظَهْرِي

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة ، وشرك في قتل أبيها عتبة ، وأما عمها شيبه ، فإن حمزة تفرّد بقتله .

وقال جُبَيْر بن مطعمٍ لوحشى مولاة يوم أحد : إن قتلت محمدًا فأنت حرٌّ ، وإن قتلت عليًا فأنت حرٌّ ، وإن قتلت حمزة فأنت حرٌّ ، فقال : أما محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما عليٌّ فرجلٌ حذر كثير الالتفات في الحرب ، ولكنى سأقتل حمزة ، فقعد له ووزرته بالحرية فقتله .

ولما قلنا من مقاربة حال علي عليه السلام في هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وآله ومُناسبتها إياها ما وجدناه في السِّير والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله وحذره عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة ، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق ، وقد برز عليٌّ إلى عمرو ، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه : « اللهم إنك أخذت مني

حمزة يوم أحد ، وعُبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم على علياً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾^(١) ، ولذلك ضنَّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو والناس إلى نفسه
ساراراً ، في كلِّها يجمعون ويُقدِّم عليّ ، فيسأل الإذنَ له في البراز حتى قال له رسول
الله صلى الله عليه وآله : « إنَّه عمرو ! » ، فقال : « وأنا عليّ » ، فأدناه وقبله وعممه بعمامته ،
وخرج معه خطواتٍ كالمودع له ، القليق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل صلى الله عليه
وآله رافعا يديه إلى السماء ، مستقبلاً لها بوجهه ، والمسلمون صُموتٌ حوله ؛ كأنَّما على رؤوسهم
الطَّيْر ، حتى ثارت الغَبْرَة ، وسمعوا التَّكبير من تحتها ، فعلموا أنَّ علياً قتلَ عمرًا ، فكبَّر
رسول الله صلى الله عليه وآله وكبَّر المسلمون تكبيراً سمعها من وراء الخندق من عساكر
المشركين ، ولذلك قال حذيفة بن اليمان : لو قُسمت فضيلة عليّ عليه السلام بقتل عمرو يوم
الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ ؛ قال : بعليّ بن أبي طالب^(٢) .

قال الجاحظ : صَلَّى أَنْ مَشَى الشَّجَاعَ بِالسَّيْفِ إِلَى الْأَقْرَانِ ، لَيْسَ عَلَى مَاتُوْتَمِهِ مِنْ لَا يَعْلَمُ
بِاطْنِ الْأَمْرِ ، لِأَنَّ مَعَهُ فِي حَالِ مَشِيهِ إِلَى الْأَقْرَانِ بِالسَّيْفِ أُمُورًا أُخْرَى لَا يَبْصُرُهَا النَّاسُ ،
وإِنَّمَا يَقْضُونَ عَلَى ظَاهِرِ مَا يَرَوْنَ مِنْ إِقْدَامِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، فَرَبَّمَا كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ الْهُوَجِ ،
وَرَبَّمَا كَانَ الْغَرَارَةُ وَالْحَدَاثَةُ ، وَرَبَّمَا كَانَ الْإِحْرَاجُ وَالْحَمِيَّةُ ، وَرَبَّمَا كَانَ لِحَبَّةِ النَّفْخِ
وَالْأَحْدُوْتَةُ ، وَرَبَّمَا كَانَ طَبَاعًا كَطَبَاعِ الْقَاسِي وَالرَّحِيمِ وَالسَّخِيِّ وَالْبَخِيلِ^(٣) .

(٢) سورة الأحزاب ٢٥ .

(١) سورة الأنبياء ٨٩ .

(٣) العنانية ٤٧ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال للجاحظ: فعلى أيها كان مشى على بن أبي طالب إلى الأقران بالسيف؟ فأيا ما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ورسوله، وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت، وإيما كان على وجه النصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة، والجهاد في سبيل الله، وإعزاز الدين، كنت بجميع ما قلت معانداً، وعن سبيل الإنصاف خارجاً، وفي إمام المسلمين طاعناً، وإن تطرق مثل هذا الوهم على علي عليه السلام ليتطرقن مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهم ووقوه بمهجهم، وفدوه بأبنائهم وآبائهم، ففعل ذلك كان لعلته من العلل المذكورة، وفي ذلك الطعن في الدين، وفي جماعة المسلمين.

ولو جاز أن يتوهم هذا في علي عليه السلام وفي غيره، لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى لأهل بدر: «أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، ولا قال لعلي عليه السلام: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، ولا قال: «أوجب طلحة»^(١).

وقد علمنا ضرورةً من دين الرسول صلى الله عليه وآله تعظيمه لعلي عليه السلام تعظيماً دينياً، لأجل جهاده ونصرته، فالطاعن فيه طاعن في رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ زعم أنه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله تعالى؛ بل لأمر آخر من الأمور التي عدّها، وبعثه على التفوّه بها إغواء الشيطان وكيدّه، والإفراط في عداوة من أمر الله بمحبّته، ونهى عن بغضه وعداوته.

(١) أوجب طلحة، أي عمل عملاً يدخله الجنة.

أترى رسول الله صلى الله عليه وآله خفي عليه من أمر عليّ عليه السلام ملاح للجاحظ
والعثمانية ، فمدحه وهو غير مستحقّ للمدح !

قال الجاحظ : فصاحبُ النفس المختارة المعتدلة يكون قتالُه طاعة ، وفراره معصية ،
لأنّ نفسه معتدلة ، كالميزان في استقامة لسانه وكفّتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه
طباعاً ، وفراره طباعاً^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال له : فعملُ إنفاق أبي بكر على ما تزعم أربعين
ألف درهم لا ثوابَ له ، لأنّ نفسه ربّما تكون غير معتدلة ، لأنّه يكون مطبوعاً
على الجود والسّخاء ، ولعلّ خروجه مع النبي صلى الله عليه وآله يوم الهجرة إلى الغار
لا ثوابَ له فيه ، لأن أسبابه كانت له مهيّجة ، ودواعيه غالبية ، محبّة الخروج ، وبغض
المقام ؛ ولعلّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات
الخمسة في جوف الليل ، وتدييره أمرَ الأمة لا ثوابَ له فيه ، لأنّه قد تكون نفسه غير
معتدلة ، بل يكون في طباعه الرياسة وحبّها ، والعبادة والالتذاذ بها ، ولقد كنّا نعجب
من مذهب أبي عثمان أنّ المعارف ضرورة ، وأنّها تقعُ طباعاً ؛ وفي قوله بالتولد وحركة الحجر
بالطبع ! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه ، فزعم أنّه ربّما يكون جهادُ عليّ عليه السلام
وقتلُ المشركين لا ثوابَ له فيه ؛ لأنه فعلةُ طباعاً ، وهذا أطرف من قوله في المعرفة
وفي التولد .

قال الجاحظ : ووجهُ آخر أنّ علياً لو كان كما يزعمُ شيعتُه ، ما كان له بقتل الأقران
كبير فضيلة ، ولا عظيم طاعة ، لأنّه قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال له :

(١) انظر العثمانية ٤٧ ، ٤٨ .

« ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين » ، فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه ^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا راجع على الجاحظ في النبي صلى الله عليه وآله ، لأن الله تعالى قال له : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(٢) ، فلم يكن له في جهاده كبير طاعة ، وكثير طاعة ، وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وآله : « اقتدوا باللذين من بعدى أبي بكر وعمر » ، فوجب أن يبطل جهادهما ، وقد قال للزبير : « ستقاتل علياً ، وأنت ظالم له » ، فأشعره بذلك أنه لا يموت في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال في الكتاب العزيز لطلحة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ قالوا : نزلت في طلحة ، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده ، فوجب ألا يكون لها كبير ثواب في الجهاد ، والذي صحّ عندنا من الخبر وهو قوله : « ستقاتل بعدى الناكثين » ، أنه قاله لما وضعت الحرب أوزارها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ووضعت الجزية ، ودانت العرب قاطبة .

قال الجاحظ : ثم قصد الناصرون لعليّ ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم ، وليسوا هناك ! فمنهم عمرو بن عبد ود تركتموه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس ، وقد سمعنا بأحاديث حروب الفجار وما كان بين قريش ودؤس وحلف الفضول ، فما سمعتُ لعمرو بن عبدود ذكرًا في ذلك ^(٣) .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(١) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمرُ عمرو بن عبدودَ أشهر وأكثَر من أن يُحتجَ له ، فلتلتمَح كتب المغازي والسَّير ، ولينظر مآرثته به شعراء قريش لما قتل ، فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه ، قال : وقال مُسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن جُحجح يبكي عمرو بن عبد الله بن عبد ودحين قتله علي بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد^(١) أي قطع الخندق .

عمرُ بن عبدِ كان أول فارسٍ	جَزَع المذاد وكان فارس مَلِيل ^(٢)
سمعُ الخلائق ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ	يبغى القتالَ بشكَّة لم يَنكُل ^(٣)
ولقد علمتم حينَ ولَّوا عنكمُ	أن ابن عبدٍ منهم لم يَعَجَل ^(٤)
حتَّى تَكْنَفَهُ الكِماءُ وكلُّهمُ	يبغى القتال له وليس بمؤتل ^(٥)
ولقد تَكْنَفَت الفوارسُ فارساً	بجنوبِ سَلعٍ غيرِ نَكسٍ أَمِيل ^(٦)
سالَ النزالَ هناك فارسٍ غالبٍ	بجنوبِ سَلعٍ ليتَه لم ينزلَ
فاذهب عليٌّ ماظفرتَ بِمِثْلِهَا	فخرأً ولولا قيت مثل المعضَل ^(٧)
نفسى الفداء لفارسٍ من غالب	لا قى حمَام الموت لم يتحلَّجَل ^(٨)
أعني الذي جَزَع المذاد ولم يكن	فشِلاً وليس لَدَى الحروبِ بزَمَل ^(٩)

وقال هُبيرة بن أبي وهب الخزومي ، يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب ، وتركه عمراً يوم الخندق ويبيكيه :

(١) المذاد ، بالتال المعجمة : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وفي ط : « الزار » تصحيف ، وجزع ، أي قطع .
(٢) مليل ، واد بيدر .
(٣) اللرة : القوة ، والشكَّة : السلاح .
(٤) ابن هشام : « فيهم » .
(٥) تَكْنَفَهُ الكِماءُ : أحاطوا به والتفوا حوله . وليس بمؤتل ؛ أي ليس بمقصر .
(٦) سلع : جبل بالمدينة . والنكس : الدنى من الرجال . والأميل : الذي لا رمح معه .
(٧) المعضَل : الأمر الشديد .
(٨) لم يتحلَّجَل : لم يبرح مكانه .
(٩) الزمل : الضعيف الجبان .

لعمرك ما ولّيت ظهري محمداً
ولكنني قلبت أمري فلم أجِدْ
وقفتُ فلما لم أجِدْ لي مقدّماً
ثني عطفه عن قرنه حين لم يجد
فلا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً
ولا تبعدن يا عمرو حياً وهالكا
فن لطراد الخيل تقدع بالقتال
هنالك لو كان ابن عمرو لزارها
كفتك عليّ لن ترى مثل موقف
فاظفرت كفاك يوماً بمنتهى

وقال هُبيرة بن أبي وهب أيضاً، يرثي عمراً وبيكبه:

لقد علمتُ علياً لؤي بن غالب
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه
عشيّة يدعو عليّ وإنه
لقد علمتُ علياً لؤي بن غالب
وفارسها عمرو، إذا ناب نائباً (٧)
عليّ بموإن الموت لاشك طالب (٨)
لقد علمتُ علياً لؤي بن غالب
وفارسها عمرو، إذا ناب نائباً (٧)
عليّ بموإن الموت لاشك طالب (٨)
عشيّة يدعو عليّ وإنه (٩)

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٢) مقدماً، أي لم أجِدْ من يقدمني . وصدرت: رجعت . الضرغام: الأسد . الهزير: الشديد . والشبل: ابن الأسد .

(٣) ابن هشام : « لم يجد مكرًا » .

(٤) الثنا : التذکر الطيب . والملاجد : الشريف .

(٥) تقدع : تكف . والقرقرة : أصوات غول الإبل . والبزلة : جمع بازل ؛ وهو في الأصل البعير الذي

فطر نابه ، وذلك زمان اكتمال قوته .

(٦) ابن هشام : « فعنك علي » .

(٧) إذا ناب نائباً ، أي إذا عرض أمر مكروه .

(٨) ابن هشام : « لفارسها عمرو إذا ما يسومه » .

(٩) خام : جبن ورجع هيبة وخوفاً .

فيالهف نفسي ، إنَّ عمراً لكائنٌ
بيثرب ، لا زالت هناك المصائبُ
لقد أحرز العَلْيَا على بقتله
وللخير يوماً لا محالة جالبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمرا :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ناظراً
كيف العُبُور وليتته لم ينظُر^(١)
ولقد وجدت سيوفنا مشهورةً
ولقد وجدت جيادنا لم تقصُر^(٢)
ولقد لقيتَ غداة بدرٍ عَصْبَةً
ضَرْبُوكَ ضَرْباً غَيْرَ ضَرْبِ الحَسْرِ
أصبحتَ لا تُدْعَى ليومٍ عظيمةٍ
يا عمرو أو لجسيمٍ أمرٍ مُنْكَرٍ^(٣)
وقال حسان أيضا :

لقد شقيتَ بنو جَمَحِ بنِ عمرو
ومخزومٍ وتيمٍ ما تُقِيلُ
وعمر و كالحسامِ فتى قريش
كأن جبينه سيفٌ صقيلُ
فتى من نسلِ عامرٍ أريحيُّ
تطاوله الأسنَّةُ والنُّصُولُ
دعاه الفارسُ المقدامَ لَمَّا
تكشفتِ المقانِبُ وألخِيُولُ
أبو حسنٍ فقتنه حُسَامَا
جُرَازَا لا أَفْلُ ولا نَكُولُ
ففادره مكبًا مُسَلَّجِيًّا
على عَفْرَاءٍ ، لا بَعْدَ القَتِيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض^(٥) ما قيل فيه .

وأما الآثار والأخبار ، فموجودة في كتب السِّيرِ وأيام الفرسان ووقائعهم ، وليس

(١) رواية البيت في ابن هشام :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ يبتغي
بجنوبٍ يثربَ نَارَهُ لم ينظُرِ

(٢) مشهورة أي قد شهرها أصحابها . ولم تقصر : لم تكف ولم تحبس عن التجوال .

(٣) قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » .

(٤) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٩٨ - ٣٠٤ (نشرة المكتبة التجارية) .

أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال : كان فارسَ قریش وشُجاعها ، وإنما قال له حسان :

❖ ولقد لقيتَ غداةَ بدرٍ عصبه ❖

لأنه شهد مع المشركين بدرًا ، وقتل قومًا من المسلمين . ثم فرّ مع مَنْ فرّ ، ولحق بمكة ، وهو الذي كان قال وعاهد الله عند الكعبة ألا يدعوه أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه . وآثاره في أيام الفجر مشهورة تنطق بها كتب الأيام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم : عتبة وبسطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحاب غاراتٍ ونهبٍ ، وأهل بادية ، وقریش أهل مدينة وساكنو مدّر وحجر ، لا يروون الغارات ، ولا ينيهون غيرهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرّمتهم ؛ فذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء .

ويقال له : إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك ، فما باله لما جزع الخندق في ستة فرسان هو أحدٌم ، فصار مع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله على أرض واحدة ، وهم ثلاثة آلاف ، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحدٌ منهم للخروج إليه ، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه ، حتى وبخهم وقرّعهم ، وناداهم : ألسم تزعمون أنه من قُتل منا فإلى النار ، ومن قُتل منكم فإلى الجنة ! أفلا يشتاق أحدٌكم إلى أن يذهب إلى الجنة ، أو يقدم عدوه إلى النار ! فجنوا كلهم ونكّلوا ، وملكهم الرعب والوهل ، فإما أن يكون هذا أشجع الناس كما قد قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم ! وقد روى الناس كلهم الشعر الذي أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه ، وأنه جال بفرسه واستدار وذهب يئمة ، ثم ذهب يسرة ، ثم وقف تُجاه القوم ، فقال :

ولقد بحتُ من النداء . بجمعهم : هل من مبارز!

ووقفتُ إذْ جَبْنُ المشيِّعِ وِقْفَةُ القِرْنِ المناجِزِ
وكذاكِ أني لم أزلْ متسرِّعاً نحو المِزَاهِرِ
إن الشجاعة في الفتيِّ والجود من خيرِ الفرائِزِ
فلما برز إليه على أجابه ، فقال له :

لا تعجلنَ فقد أنا لك مجيب صوتك غير عاجز
ذونيةٍ وبصيرةٍ يرجو الغداةَ نِجاةَ فائِزِ
إني لأرجو أن أوفِّيمَ عليك نائمةَ الجنائِزِ
من ضربةٍ تفتني ويبةً متى ذكرها عند المِزائِزِ

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جهالِ الأنصارى ، لما رجع رسول الله من بدر ،
وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرًا : إن قتلنا إلا بمجائز صلِّعنا ! فقال له النبي صلى الله عليه
 وآله : « لا تقل ذلك يا بن أخ ، أولئك للملأ ! » .

قال الجاحظ : وقد أكثروا في الوليد بن عتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر ، وما علمنا
الوليد حضر حرباً قطاً قبلها ، ولا ذكر فيها (١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كلُّ من دون أخبارِ قريش وآثارِ رجالها ، وصف
الوليد بالشجاعة والبسالة ، وكان مع شجاعته أنه يصارع القتبان فيصرعهم ، وليس لأنه
لم يشهد حرباً قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعاً؛ فإن علياً عليه السلام لم يشهد قبل بدرٍ
حرباً ، وقد رأى الناس آثاره فيها .

قال الجاحظ: وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وآله يوم أحد، كما ثبت على، فلا فخر لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم^(١).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما ثباته يوم أحد، فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونه، وجمهورهم يروى أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلا على وطلحة والزبير، وأبو دُجانة، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: ولم خامس وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم من أثبت سادساً، وهو المقداد بن عمرو، وروى يحيى بن سلمة بن كهيل قال: قلت لأبي، كم ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد؟ فقال: اثنان، قلت: من؟ هما؟ قال: على وأبو دُجانة.

وهب أن أبا بكر ثبت يوم أحد كما يدعيه الجاحظ، أيحوز له أن يقول ثبت: كما ثبت على، فلا فخر لأحدهما على الآخر، وهو يعلم آثار على عليه السلام ذلك اليوم، وأنه قتل أصحاب الألوية من بني عبد الدار؛ منهم طلحة بن أبي طلحة، الذي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه أنه مردف كبشا، فأوله وقال: كبش الكتيبة تقتله. فلما قتله على عليه السلام مبارزة - وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم - كبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: «هذا كبش الكتيبة».

وما كان منه من الحماسة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد فرّ الناس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قریش، فيقول: «يا على، ا كفتى هذه» فيحمل عليها فيهرزمها، ويقتل عميدها، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قبل السماء.

لا سَيْفَ إِلا ذُو الْفَقَارِ وَلا فَتَى إِلا عَلِيٌّ

وحتى قال النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ما قال.

أتكون هذه آثاره وأفعاله، ثم يقول الجاحظ: لا فخر لأحدهما على صاحبه!

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾^(١)

قال الجاحظ : ولأبي بكر في ذلك اليوم مقام مشهور ، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفراً^(٢) في الحديد ، يسأل المبارزة ، ويقول : أنا عبدُ الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يسعى بسيفه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : « شم سيفك وارجع إلى مكانك ، ومتعنا بنفسك^(٣) » .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر ، فإنه لو سمعه الإمامية لضافته إلى ما عندها من المثالب ، لأن قول النبي صلى الله عليه وآله : « ارجع » دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحدٍ ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه ، وأنت تعلم حنو الابن على الأب وتبجيله له ، وإشفاقه عليه وكفه عنه ، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبي .

وقوله له : « ومتعنا بنفسك » ؛ إيذان له بأنه كان يقتل لو خرج ، ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ ، فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذي صلي بالحرب ، ومشى إلى السيف بالسيف ، فقتل السادة والقادة والفرسان والرجالة !

قال الجاحظ : على أن أبا بكر - وإن لم تكن آثاره في الحرب كأثار غيره - فقد بذل الجهد ، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوته ، وإذا بذل المجهود فلا حال أشرف من حاله^(٤) .

(٢) أي مستترا .

(٤) العثمانية ٦٢ .

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٣) العثمانية ٦٢ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما قوله إنه بذل الجهد ، فقد صدق ، وأما قوله :
« لا حال أشرف من حاله » ؛ فخطأ ، لأنَّ حال من بلغت قوته فأعملها في قتل المشركين
أشرفُ من حال من نقَّصت قوته عن بلوغ الغاية ؛ ألا ترى أن حال الرجل أشرفُ في
الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأيِّد أشرف من حال الصبيِّ الضعيف !

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي رحمه الله في نقض
العثمانية ، اقتصرنا عليها هاهنا ؛ وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه ، إذا
اقتضت الحال ذكره^(١) .

(١) قام الأستاذ عبد السلام هارون بطبع كتاب العثمانية ، طبعة علمية محققة ، وألحق بها ما عثر عليه
من نقضها للإسكافي ؛ وطلعت في دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٥ .

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله لعبد الله بن عباس ، وقد جاءه برسالة من عثمان ، وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله ينبع ، ليقبل هتف الناس باسمه للخلافة ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل .

فقال عليه السلام :

يأبن عباس ، ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناصحاً بالقرب ، أقبل وأذبر !
بعث إلي أن أخرج ، ثم بعث إلي أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلي أن أخرج !
والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آيماً .

البنج :

ينبع على « يفعل » مثل يحلم ويحكم : اسم موضع ، كان فيه نخل لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وينبع الآن بلد صغير من أعمال المدينة .

وهتف الناس باسمه : نداؤهم ودعاؤهم ، ولعله الصوت ، يقال : هتف الحمام يهتف هتفاً ، وهتف زيد بعمره هتافاً ، أى صاح به ، وقوس هتافة وهتفى ، أى ذات صوت .

والناضح : البعير يستقى عليه ، وقال معاوية لقيس بن سعد - وقد دخل عليه

في رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ - : ما فعلت نواضحكم ! يهزأ به ، فقال : أنصبتها في طلب أبيك
يوم بدر .

والغرب : الدلو العظيمة .

قوله : أقبل وأدبر ، أى يقول لى ذلك ، كما يقال : للناضح ، وقد صرح العباس بن
مِرْدَاس بهذه الألفاظ فقال :

أرأكَ إِذَا أَصْبَحْتَ لِلْقَوْمِ نَاضِحًا يُقَالُ لَهُ بِالْغَرْبِ أَدْبَرَ وَأَقْبَلَ

قوله : « لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكونَ آثمًا » ، يحتمل أن يريدَ بالفتُ
واجتهدت في الدفاع عنه ، حتى خشيتُ أن أكونَ آثمًا في كثرةِ مبالغتي واجتهادى في
ذلك ، وإنه لا يستحق الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه ، وهذا تأويلٌ من ينحرف عن عثمان ،
ويحتمل أن يريد : لقد دفعتُ عنه حتى كدت أن ألقىَ نفسى في الهلكة ؛ وأن يقتلنى الناس
الذين ثاروا به ، فخِفتُ الإثمَ في تعريرى بنفسى وتوريطها في تلك الورطة العظيمة ، ويحتمل
أن يريد : لقد جاهدت الناس دونه ودفعتهم عنه ، حتى خشيتُ أن أكونَ آثمًا بما نلتُ
منهم من الضرب بالسَّوط ، والدفع باليد ، والإعانة بالقول ، أى فعلت من ذلك
أكثر مما يجب .

[وصية العباس قبل موته لعلی]

قرأتُ في كتابِ صَنَفِهِ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ فِي تَقْرِيبِ الْجَاهِظِ ، قَالَ : نَقَلْتُ مِنْ
خَطِّ الصَّوَلِيِّ : قَالَ الْجَاهِظُ : إِنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلِبِ أَوْصَى عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ فِي عِلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، فَقَالَ : أَيُّ بَنِي إِيَّيْ مُشْفٍ عَلَى الظَّنِّ عَنِ الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ ،
الَّذِي فَاقَتِي إِلَى عَفْوِهِ وَتَجَاوَزَهُ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِي إِلَى مَا نَصَحَكَ فِيهِ ، وَأَشِيرَ عَلَيْكَ بِهِ ،

ولكن العرق نبوض^(١) ، والزحم عروض ، وإذا قضيتُ حق العمومة ، فلا أبالي بعدُ
إن هذا الرجل - يعنى عثمان - قد جاءنى مراراً بمحدثك ، وناظرنى ملايناً ومخاشناً فى أمرى ؛
ولم أجدُ عليك إلا مثل ما أجد منك عليه ، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ما أجدُ منك له ،
ولست تؤتى من قلة علم ، ولكن من قلة قبول ، ومع هذا كله فالرأى الذى أودعك به
أن تمسك عنه لسانك ويدك ، وهمزك وغمزك ، فإنه لا يبدوك مالم تبدأه ، ولا يجيبك
عما لم يبلغه ، وأنت المتجنى وهو المتأنى ، وأنت العائب وهو الصامت . فإن قلت : كيف
هذا وقد جلس مجلساً أنا به أحق ، فقد قاربت ! ولكن ذلك بما كسبت يدك ، ونكص
عنه عقبك ، لأنك بالأمس الأذى ، هرولت إليهم تظن أنهم يُحكون جيدك ، ويحتمون
أصبعك ، ويطنون عقبك ، ويرون الرشد بك ، ويقولون : لا بد لنا منك ، ولا معدل
لنا عنك ، وكان هذا من هفواتك الكبر ، وهناتك التى ليس لك منها عذر ، والآن بعد
ماثلت عرشك بيدك ، ونبذت رأى عمك فى البيداء يتدهده^(٢) فى السافياء^(٣) ؛ خذ
بأحزم مما يتوضح به وجه الأمر ، لا تشار^(٤) هذا الرجل ولا تماره^(٥) ، ولا يبلغنه عنك
ما يحققه عليك ، فإنه إن كاشفك أصاب نصارا ، وإن كاشفته لم تر إلا ضاراً ، ولم تستلج^(٦)
إلا عثارا ، واعرف من هو بالشام له ، ومن هاهنا حوله من يطيع أمره ، ويمتثل قوله ،
لا تغتر بناس يطيفون بك ، ويدعون الخنوع عليك والحب لك ، فإنهم بين مولى جاهل ،
وصاحب متمن ، وجليس يرعى العين ويتندر المحضر ، ولو ظن الناس بك ما ظن بنفسك
لكان الأمر لك ، والزمام فى يدك ، ولكن هذا حديث يوم مرض رسول الله صلى الله
عليه وآله فات ، ثم حرّم الكلام فيه حين مات ، فعليك الآن بالعزوف عن شىء عرتك

(١) كذا فى ١ ، ونبوض : من نبض العرق يتبض نبوضاً ، وهو ضربانه وفى ب : « نبوض » .

(٢) يتدهده : يتدحرج . (٣) السافياء : الريح التى تحمل التراب .

(٤) يقال : شاراه مشاركة ، إذا لاجه . (٥) تماره : تجادله . (٦) تستلج : تدخل

له رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فلم يتم ، وتصديت له مرة بعد مرة فلم يستقم ، ومن ساور الدهر غلب ، ومن حرص على ممنوع نعب ، فعلى ذلك فقد أوصيتُ عبد الله بطاعتك ، وبعثته على متابعتك ، وأوجرتُه محبتك ، ووجدت عنده من ذلك ظني به لك ، لا توتر قوتك إلا بعد الثقة بها ، وإذا أعجبتك فانظر إلى سيئتها ، ثم لا تفوق إلا بعد العلم ولا تفرق في النزاع إلا لتصيب الرمية ، وانظر لا تطرف يمينك عينك ، ولا تجن شمالك شينك ، ودعني بآيات من آخر سورة الكهف ، وقم إذا بدا لك .

قلت: الناس يستحسنون رأى العباس لعلى عليه السلام في ألا يدخل في أصحاب الشورى ؛ وأما أنا فإني استحسنه إن قصد به معنى ، ولا أستحسنه إن قصد به معنى آخر ، وذلك لأنه إن أجرى بهذا الرأي إلى ترفعه عليهم ، وعلو قدره عن أن يكون مماثل لهم ، أو أجرى به إلى زهده في الإمارة ، ورغبته عن الولاية ؛ فكل هذا رأى حسنٌ وصواب ، وإن كان منزعه في ذلك إلى أنك إن تركت الدخول معهم ، وانفردت بنفسك في دارك ، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك ، فإنهم يطلبونك ، ويضربون إليك آباط الإبل ، حتى يولوك الخلفة ؛ وهذا هو الظاهر من كلامه ، فليس هذا الرأي عندي بمستحسن ، لأنه لو فعل ذلك لولوا عثمان أو واحداً منهم غيره ، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبعثهم على طلبه ، بل كان تأخره عنهم قرّة أعينهم ، وواقعاً يبارهم ، فإن قريشا كلها كانت تبغضه أشد البغض ، ولو عمر عمر نوح ، وتوصل إلى الخلفة بجميع أنواع التوصل ، كالزهد فيها تارة ، والمناشدة بفضائله تارة ، وبما فعله في ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلاً إلى بيوت الأنصار ، وبما اعتمده إذ ذاك من تخلفه في بيته ، وإظهار أنه قد انعكف على جمع القرآن ، وبسائر أنواع الحيل فيها ، لم تحصل له إلا بتجر يد السيف ، كما فعل في آخر الأمر ، واست ألوم العرب ، لا سيما قريشا في بغضها له ، وانحرافها عنه ، فإنه وترها ، وسفك دماها ، وكشف القناع في منابذتها ، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم ،

وليس الإسلام بمنع من بقاء الأحقاد في النفوس ، كما نشاهده اليوم عيانا ، والناس كالناس الأول ، والطبائع واحدة ، فأحسب أنك كنت من سنتين أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم ، وقد قتل واحداً من المسلمين ابنك أو أخاك ، ثم أسلمت ، أكان إسلامك يُذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشفائنه ؟ كلاً إن ذلك لغير ذاهب ، هذا إذا كان الإسلام صحيحاً ، والعقيدة محققة ، لا كإسلام كثير من العرب ، فبعضهم تقليداً ، وبعضهم للطمع والكسب ، وبعضهم خوفاً من السيف ، وبعضهم على طريق الحمية والانتصار ، أو لعداوة قوم آخرين من أصدقاء الإسلام وأعدائه .

واعلم أن كل دم أراقه رسول الله صلى الله عليه وآله بسيفٍ على عليه السلام وبسيف غيره ، فإن العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب عليه السلام وحده ، لأنه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وستهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلي وحده ، وهذه عادة العرب إذا قتل منها قتلى طالبت بتلك الدماء القاتل ، فإن مات ، أو تعذرت عليها مطالبته ، طالبت بها أمثال الناس من أهله .
لما قتل قوم من بني تميم أخاً لعمر بن هند ، قال بعض أعدائه يحرّض عمراً عليهم^(١) :

مَنْ مَبْلَغُ عَمْرًا بَأْتِ الْمَرْءَ لَمْ يُخْلَقْ صُبَارَةً^(٢)
وَحُودَاثُ الْأَيَّامِ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَّا الْحِجَارَةُ
هَا إِنْ مَجْزَةَ أُمِّهِ بِالسَّفْحِ اسْفَلَ مِنْ أَوَارَةٍ^(٣)
تَسْفِي الرِّيَّاحُ خِلَالَ كَشْحِيهِ وَقَدْ سَلَبُوا إِزَارَةَ
فَأَقْتُلْ زُرَّارَةَ لَا أَرَى فِي الْقَوْمِ أَمْثَلَ مِنْ زُرَّارَةَ

(١) هو عمرو بن ملقط الطائي ، والأبيات في تاريخ ابن الأثير ١ : ٣٣٥ ، ضمن خبره عن يوم أواره الثاني ، وهي أيضا في اللسان ٦ : ١١١ .
(٢) الصبارة : الحجارة الملس ، كأنه يقول : ليس الإنسان بحجر فيصبر على مثل هذا .
(٣) أول ولد المرأة يقال له زكوة ، والآخر مجزة .

فأمره أن يقتل زُرارة بن عُدس رئيس بني تميم ، ولم يكن قاتلاً أخا الملك
ولا حاضراً قتله .

ومن نظر في أيام العرب ووقائعها ومقائِلها عرف ما ذكرناه .

سألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبي زيد رحمه الله ، فقلت له : إني لأعجبُ من عليّ
عليه السلام كيف بقيَ تلك المدة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكيف ما اغتيل^(١)
وفتِكَ به في جوف منزله ، مع تَلظّي الأَكباد عليه !

فقال : لولا أنه أرغم أنفه بالتراب ، ووضع خَدَه في حضيض الأرض لقتل ، ولكنه
أخَلَ نفسه ، واشتغل بالعبادة والصلاة والنظر في القرآن ، وخرج عن ذلك الزمّ الأول ؛
وذلك الشعار ونسيّ السيف ، وصار كالفاتك يتوب ويصير سائحاً في الأرض ، أوراهاً في
الجبال ، ولما أطاع القوم الذين ولّوا الأمر ، وصار أذلّ لهم من الحذاء ، تركوه وسكتوا
عنه ، ولم تكن العرب لتقدم عليه إلا بمواطأة من متولّي الأمر ، وباطنٍ في السرّ منه ،
فلما لم يكن لولاء الأمر باعثٌ وداعٌ إلى قتله وقَعَ الإمساك عنه ، ولولا ذلك لقتل^(٢) ، ثم
أجلَ بعد مقل حصين .

فقلت له : أحق ما يقال في حديث خالد ؟ فقال : إن قوما من العلوية
يذكرون ذلك .

ثم قال : وقد روى أن رجلاً جاء إلى زفر بن الهذيل ، صاحب أبي حنيفة ، فسأله
عما يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم ، نحو الكلام والفعل
الكثير أو الحدث ! فقال : إنه جائز ، قد قال أبو بكر في تشهده ما قال ، فقال الرجل :

(١) ب : « ما قتل » ، وأثبت ما في أ

(٢) ب : « لقتله » .

وما الذي قاله أبو بكر؟ قال: لا عليك، فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة، فقال: أخرجوه أخرجوه، قد كنت أحدث أنه من أصحاب أبي الخطاب.

قلت له: فما الذي تقوله أنت! قال: أنا استبعد ذلك وإن روثه الإمامية.

ثم قال: أما خالدٌ فلا استبعد منه الإقدام عليه بشجاعته في نفسه، ولبغضه إياه، ولكنني استبعدته من أبي بكر، فإنه كان ذا ورع، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فدك، وإغضاب فاطمة وقتل علي عليه السلام؛ حاش لله من ذلك! فقلت له: أكان خالدٌ يقدر على قتله؟ قال: نعم؛ ولم لا يقدر على ذلك، والسيوف في عنقه، وعلى أعزله غافل عما يراد به، قد قتله ابن ملجم غيلة، وخالد أشجع من ابن ملجم! فسألته عما ترويه الإمامية في ذلك، كيف ألفاظه؟ فضحك وقال:

* كم عالم بالشيء وهو يسائل *

ثم قال: دعنا من هذا، ما الذي تحفظ في هذا المعنى؟ قالت: قول أبي الطيب:

نَحْنُ أَدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطْوَيْلُ طَرِيقُنَا أَمْ يَطْوُلُ^(١)

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تليل

فاستحسن ذلك، وقال: لمن عجز البيت الذي استشهدت به؟ قلت: لمحمد بن هاني

المعربي، وأوله:

في كل يوم أستزيد تجارياً كم عالم بالشيء وهو يسائل^(٢)!

فبارك على مرارا، ثم قال: نترك الآن هذا ونتم ما كنا فيه، وكنت أقرأ عليه في

ذلك الوقت "جمهرة النسب" لابن الكلبي، فعدنا إلى القراءة، وعدنا عن الخوض

عما كان اعترض الحديث فيه.

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام افصح فيه ذكر ما لاه منه بعد هجرة النبي صلى
الله عليه وآله ثم لحاقه به :

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَا خَذَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى
انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ .

في كلام طويل

قال الرضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَأَطَأُ ذِكْرَهُ » ، مِنْ
الْكَلَامِ الَّذِي رُمِيَ بِهِ إِلَى غَايَتِي الْإِيْجَازِ وَالْفَصَاحَةِ ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُغَطِّي خَبْرَهُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْوِ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَكُنِّي عَنْ
ذَلِكَ بِهَذِهِ السِّكْنَايَةِ الْعَجِيبَةِ .

البنخ :

العرج : منزل بين مكة والمدينة ، إليه ينسب العرجي الشاعر ، وهو عبد الله بن عمرو
ابن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس .

قال محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " : قال لم يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله
أحدًا من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجرة إلا علي بن أبي طالب وأبا بكر بن أبي
قحافة ، أما علي ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بخروجه ، وأمره أن يبيت على

فراشه ، يُخادع المشركين عنه ليرؤا أنه لم يبرح فلا يطلبوه ، حتى تبعد المسافة بينهم وبينه ، وأن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدّي عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع التي عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله استودعه رجال من مكة ودائع لهم ، لما يعرفونه من أمانته ، وأما أبو بكر فخرج معه .

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسني ، رحمه الله فقلت : إذا كانت قريش قد محصت رأيها ، وألقت إليها إبليس - كما روي - ذلك الرأي ، وهو أن يضر بوه بأسياف من أيدي جماعة من بطون مختلفة ، ليضيع دمه في بطون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف ، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصبح ! فإن الرواية جاءت بأنهم كانوا تسوروا الدار ، فعابنوا فيها شخصاً مسجياً بالبرد الحضرمي الأخضر ، فلم يشكوا أنه هو فرصدوه إلى أن أصبحوا ، فوجدوه علياً ، وهذا طريف ، لأنهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة ، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجى ، وانتظارهم به النهار دليل على أنهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة ؟

فقال في الجواب : لقد كانوا هموا من النهار بقتله تلك الليلة ، وكان إجماعهم على ذلك ، وعزمهم في حقه من بني عبد مناف ، لأن الذين محصوا هذا الرأي وانفقوا عليه : النضر بن الحارث من بني عبد الدار ، وأبو البختری بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وزمعة بن الأسود ابن المطلب ؛ هؤلاء الثلاثة من بني أسد بن عبد العزى ، وأبو جهل بن هشام ، وأخوه الحارث ، وخالد بن الوليد بن المغيرة ، هؤلاء الثلاثة من بني مخزوم ، وبنيه ومنبه ابنا الحجاج ، وعمر بن العاص ؛ هؤلاء الثلاثة من بني سهم ، وأمّية بن خلف وأخوه أبي بن خلف ، هذان من بني جحج ، فمأ هذا الخبر من الليل إلى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فلقى منهم قوماً ، فنهاهم عنه ، وقال : إن بني عبد مناف لا تمسك عن دمه ، ولكن صفدوه

في الحديد ، واحبسوه في دارٍ من دوركم ، وترَبَّصُوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء . وكان عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس ورئيسهم ، وهم من بني عبد مناف ، وبنو عم الرجل ورهطه ، فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً ، ثم تسوَّروا عليه ، وهم يظنونونه في الدار ، فلما رأوا إنساناً مسجى بالبُرد الأخضر الحضرمي لم يشكُّوا أنه هو ؛ واثمروا في قتله ، فكان أبو جهل يذمُّهم ^(١) عليه فيهمثون ثم يجمعون . ثم قال بعضهم لبعض : ارموه بالحجارة ، فرموه ، فجعل على يتصور منها ، ويتقلب ويتأوه تأوهاً خفيفاً ، فلم يزالوا كذلك في إقدامٍ عليه وإحجامٍ عنه ، لما يريد الله تعالى من سلامته ونجاته ، حتى أصبح وهو وقيذ ^(٢) من رمي الحجارة ، ولو لم يخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وأقام بينهم بمكة ، ولم يقتلوه تلك الليلة ، لقتلوه في الليلة التي تليها ، وإن شئت الحرب بينهم وبين عبد مناف ، فإن أبا جهل لم يكن بالذي لميسك عن قتله ، وكان فاقد البصيرة ، شديد العزم على الولوغ في دمه !

قلت للنقيب : أفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام بما كان من نهى عتبة لهم ؟ قال : لا ، إنهما لم يعلما ذلك تلك الليلة ، وإتما عرفاه من بعد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، لما رأى عتبة وما كان منه : «يكن في القوم خيرٌ في صاحب الجمل الأحمر» ، ولو قدرنا أن علياً عليه السلام علم ما قال لهم عتبة لم يسقط ذلك فضيلته في المبيت ، لأنه لم يكن على ثقة من أنهم يقبلون قول عتبة ، بل كان ظنَّ الهلاك ، والقتل أغلب .

وأما حالُ علي عليه السلام ، فلما أدَّى الودائع ، خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النبي

(١) يذمهم : يحضهم .

(٢) الوقيذ : المشرف على الهلاك .

صلى الله عليه وآله ، فجاء إلى المدينة راجلا قد تورّمت قدماه ، فصادف رسول الله صلى الله عليه وآله نازلا بقباء على كُثَوم بن الهدم ، فنزل معه في منزله ، وكان أبو بكر نازلا بقباء أيضا في منزل حبيب بن يساف ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ومهما معه من قُباء ، حتى نزل بالمدينة على أبي أيوب خالد بن يزيد الأنصاري ، وابتقى المسجد .

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ ، وَاللِّدْبِيرُ
يُدْعَى ، وَالْمَسِيءُ يُرْجَى ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَمَرَ الْعَمَلُ ، وَيَنْقَطِعَ اللَّهْلُ ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ ،
وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ، وَتَصْعَدَ اللَّائِيكَةُ ، فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَأَخَذَ مِنْ
حَيِّ لَمِيَّتٍ ، وَمِنْ فَنٍ لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ ، امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ . وَهُوَ مُعَمَّرٌ
إِلَى أَجَلِهِ ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا ، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا ، فَاْمَسَكَهَا
بِلِجَامِهَا ، عَنِ مَعَاصِي اللَّهِ ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ .

الشنخ :

في نفس البقاء ، بفتح الفاء ، أى في سعة ، تقول : أنت في نفسٍ من أمرك ، أى
في سعة .

والصحف منشورة ، أى وأنتم بعد أحياء ؛ لأنه لا تطوى صحيفة الإنسان إلا إذا مات .
والتوبة مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم ، ولا مردودة عليكم إن فعلتم ، كما ترد على
الإنسان توبته إذا احتضر .

والدبر يدعى ، أى من يدبر منكم ، ويولى عن الخير يدعى إليه ، وينادى : يا فلان

أقبل على ما يصلحك !

والمسيء يُرَجَى ، أى يرجى عوده وإقلاعه .

قبل أن يجمد العمل ، استعارة مليحة ، لأن الميت يجمد عمله ويقف . ويروى « يجمد »
بالحاء ، من خدمت النار ، والأول أحسن .

وينقطع المهل ، أى العمر الذى أمهلت فيه .

وتصعد للملائكة ، لأن الإنسان عند موته تصعد حفظته إلى السماء ، لأنه لم يبق
لهم شغل فى الأرض .

قوله : « فأخذ امرؤ » ماض يقوم مقام الأمر ، وقد تقدم شرح ذلك ، والمعنى أن
مَنْ يصوم ويصلى فإنما يأخذ بعض قوة نفسه بما يلقى من المشقة . لنفسه أى عدة وذخيرة
لنفسه يوم القيامة ، وكذلك مَنْ يتصدق ، فإنه يأخذ من ماله ، وهو جار مجرى
نفسه لنفسه .

وأخذ من حى لميت ، أى من حال الحياة لحال الموت ، ولو قال : من مَيّت حى ،
كان جيّدا أيضا ، لأن الحى فى الدنيا ليس بحى على الحقيقة وإنما الحياة حياة الآخرة ،
كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾^(١) .

وروى : « أمسكها بلجامها » بغير فاء .

الأضل :

ومنه خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وزم أهل الشام :

جُفَاءُ طِفَامٌ ، عَبِيدُ أَقْرَامٍ ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَتَلَقُّوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ ،
 مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهُ وَيُؤَدِّبَ ، وَيُعَلِّمَ وَيُدْرِبَ ، وَيُؤَلِّيَ عَلَيْهِ ، وَيُؤْخَذَ عَلَى
 يَدَيْهِ ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ .

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ
 لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ . وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ،
 بِالْأَمْسِ ، يَقُولُ : إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ ، فَإِنْ كَانَ
 صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمْتَهُ التُّهْمَةُ .

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَخُذُوا مَهَلَّ
 الْأَيَّامِ ، وَخُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُفْزَى ، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى !

الشيخ :

جفأة : جمع جافٍ ، أى هم أعراب أجلاف . والطفام : أوغاد الناس ، الواحد

والجمع فيه سواء .

ويقال للأشرار واللثام : عبيد ، وإن كانوا أحراراً .

والأقزام ، بالزاي : رذال الناس وسفلتهم ، والمسموع قَزَم ، الذَّكْر والأُنثى والواحد والجمع فيه سواء ، لأنه في معنى المصدر قال الشاعر :

وَهُمْ إِذَا الْخَلِيلُ جَالُوا فِي كِتَابِهَا فَوَارِسُ الْخَلِيلِ لَا مِيلٌ وَلَا قَزَمٌ^(١)

ولكنه عليه السلام قال : « أقزام » ليوازن بها قوله : « طغام » ، وقد روى : « قَزَام » ، وهي رواية جيدة ، وقد نطقت العرب بهذه اللفظة وقال الشاعر :

أَحْصَنُوا أَمَّهُمْ مِنْ عَبْدِهِمْ تِلْكَ أَعْمَالُ الْقِرَامِ الْوَكَّه^(٢)

وَجُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، أَيُّ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ .

وَتُلَقَّطُوا مِنْ كُلِّ شُوبٍ ، أَيُّ مِنْ فِرْقٍ مَخْتَلِطَةٍ .

ثم وصف جهلهم وبعدهم عن العلم والدين ، فقال : تمنى ينبغي أن يفقه ويؤدب ، أى يعلم الفقه والأدب . ويدرب ، أى يعود اعتماد الأفعال الحسنة والأخلاق الجميلة . ويولّى عليه ، أى لا يستحقون أن يولّوا أمراً ، بل ينبغي أن يحجر عليهم كما يحجر على الصبي والتفنيه لعدم رشدته .

وروى : « ويولّى عليه » بالتخفيف . ويؤخذ على يديه ، أى يمنع من التصرف .

قوله عليه السلام : « ولا الذين تبوءوا الدار والإيمان » ، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين ، لأن الذين تبوءوا الدار والإيمان الأنصار ، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيداً ، وأيضاً فإن لفظة « الأنصار » واقعة على كل من كان من الأوس والخزرج ، الذين أسلموا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والذين تبوءوا الدار

(١) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، ونسبه إلى زياد بن منقذ .

(٢) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، من غير لسة ، وأحصنوا ، أى زوجوا .

والإيمان في (١) الآية ، قوم مخصوصون منهم ، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام فصار ذكرُ الخاص بعد العام ، كذكره تعالى جبريل وميكائيل ؛ ثم قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٢) ، وهما من الملائكة . ومعنى قوله : « تبوءوا الدار والإيمان » سكنوها ، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن للنازل ، لكنهم لما ثبتوا عليه ، واطمأنوا سماه منزلاً لهم ومتبوءاً ، ويجوز أن يكون مثل قوله :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الْوَعَى مُتَقَلِّداً سَيْفًا وَرُمْحًا

ثم ذكر عليه السلام أن أهل الشام اختاروا لانفسهم أقرب القوم مما يحبونه ، وهو عمرو بن العاص ، وكرّر لفظة « القوم » ، وكان الأصل أن يقول : ألا وإن القوم اختاروا لانفسهم أقربهم مما يحبون ، فأخرجه مخرج قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣) . والذي يحبه أهل الشام هو الانتصار على أهل العراق والظفر بهم ، وكان عمرو بن العاص أقربهم إلى بلوغ ذلك ، والوصول إليه بمكره وحيلته وخدايته .

والقوم في قوله ثانياً « أقرب القوم » ، بمعنى الناس كأنه قال : واخترتم لانفسكم أقرب الناس ، مما تكرهونه ، وهو أبو موسى الأشعري ، واسمه عبد الله بن قيس ، والذي يكرهه أهل العراق هو ما يحبه أهل الشام ، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم ، واستيلاء أهل الشام عليهم ، وكان أبو موسى أقرب الناس إلى وقوع ذلك ، وهكذا وقع لبليبه وغفلة وفساد رأيه ، وبنفضه عليا عليه السلام من قبل .

ثم قال : أنتم بالأمس ، يعني في واقعة الجمل ، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة

(١) وهو قوله تعالى في سورة المشر ٩ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

(٢) سورة التحريم ٤ .

(٣) سورة المائدة ٧ .

عن نُصْرَتِي ، ويقول لهم : هذه هي الفتنة التي وعدنا بها ، فقطعوا أوتار قسيِّكم . وشيئوا سيوفكم ، أي أغمدوها فإن كان صادقا فما باله سار إلى ، وصار معي في الصف ، وحضر حرب صفين ، وكثر سواد أهل العراق وإن لم يحارب ، ولم يسلّ السيف ، فإنّ مَنْ حضر في إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب ، وإن كان كاذبا فيما رواه من خبر الفتنة فقد لزمته التهمة وقُبِّح الاختلاف إليه في الحكومة ، وهذا يؤكّد صحة إحدى الروايتين في أمر أبي موسى ، فإنه قد اختلفت الرواية : هل حضر حرب صفين مع أهل العراق أم لا ؟ فن قال : حضر ، قال : حضر ولم يحارب ، وماطلبه اليمانيون من أصحاب علي عليه السلام ليجعلوه حاكما كالأشعث بن قيس وغيره إلا وهو حاضر معهم في الصف ، ولم يكن منهم على مسافة ، ولو كان على مسافة لما طلبوه ، ولكن لم فيمن حضر غناء عنه ، ولو كان على مسافة لمّا وافق عليّ عليه السلام على تحكيه ، ولا كان عليّ عليه السلام ممن يحكم من لم يحضر معه .

وقال الآكثرون ، إنّه كان معتزلا للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام .

فإن قلت : فلم لا يحملُ قوله عليه السلام : « فإن كان صادقا فقد أخطأ بسيره غير مستكره » على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه ليفوضوا إليه أمر الحكومة ؟

قلت : لو حملنا كلامه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبي موسى ، وكان الجواب عنه هيئاً ، وذلك لأنّ أبا موسى يقول : إنما أنكرت الحرب وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب ، ولا لأغري بالحرب ، وإنما سرت للإصلاح بين الناس ، وإطفاء نائرة الفتنة ، فليس يناقض ذلك ما روئته عن الرسول من خبر الفتنة ، ولا ماقلته في الكوفة في واقعة الجمل : « قطعوا أوتار قسيِّكم » .

قوله عليه السلام : « فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس » ، يقال لمن يرام كفه عن أمر يتناول له : ادفع في صدره ، وذلك لأن من يقدم على أمر يبدنه فيدفع دافع في صدره حقيقة فإنه يردّه أو يكاد ، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوي .

قوله عليه السلام : « وخذوا مهل الأيام » ، أي اغتنموا سعة الوقت . وخذوه مناهبة قبل أن يضيق بكم أو يفوت .

قوله عليه السلام : « وحوطوا قواصي الإسلام » : مأبعد من الأطراف والنواحي . ثم قال لهم : « ألا ترون إلى بلادكم تُغزى ! » ، هذا يدل على أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمر التحكيم ، لأن معاوية بعد أن تم على أبي موسى من الخديعة ماتم استعجل أمره ، وبعث السرايا إلى أعمال أمير المؤمنين على عليه السلام .

وتقول : قد رمى فلان صفاة فلان ، إذا دهاه بداهية قال الشاعر :

والدَّهْرُ يُؤْتِرُ قَوْسَهُ يرمى صفاتك بالمعابيل

وأصل ذلك الصخرة للمساء ، لا يؤثر فيها السهام ولا يرميها الرامي ، إلا بعد أن تنبل غيرها ، يقول : قد بلغت غارات أهل الشام حدود الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة ، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف .

[فصل في نسب أبي موسى والرأى فيه عند المعتزلة]

ونحن نذكر نسب أبي موسى وشيئا من سيرته وحاله نقلا من كتاب " الاستيعاب " لابن عبد البر المحدث ، وتنبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور . قال ابن عبد البر : هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضاره بن حرب بن عامر بن عاز بن بكر بن عامر

ابن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر ، وهو نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن
عرب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وأمّه امرأة من عك ،
أسلمت وماتت بالمدينة ، واختلف في أنه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا ؟ والصحيح أنه
ليس منهم ، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه ، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من
الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوافق قدمهم قدم أهل السفينتين جعفر
ابن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة ، فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر ،
فظن قوم أن أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر .

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة ، وإنما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعريين ، فرمت
الريح سفينتهم إلى أرض الحبشة ، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه ، فكان قدمهم
معاً ، فظن قوم أنه كان من مهاجرة الحبشة .

قال : وولاه رسول الله صلى الله عليه وآله من مخالفين اليمن زبيد ، وولاه عمر
البصرة ، لما عزل المغيرة عنها ، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها ، وولاهما
عبد الله بن عامر بن كرز ، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ ، وسكنها ، فلما كره أهل
الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها ، ولوا أبا موسى ، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن
يوليّه ، فأقرّه على الكوفة ، فلما قتل عثمان عزله على عليه السلام عنها ، فلم يزل واجداً
لذلك على على عليه السلام ، حتى جاء منه ماقال حذيفة فيه ، فقد روى حذيفة فيه كلاماً
كرهت ذكره والله يفر له (١)

قلت : الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البر ولم يذكره قوله فيه ، وقد
ذكر عنده بالدين ، أما أتم فتقولون ذلك ، وأما أنا فأشهد أنه عدوّ لله ورسوله ، وحرب
لها في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم

سوء الدار ، وكان حذيفة عازفاً بالمنافقين ، أسرّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم ، وأعلمه أسماءهم .

وروى أن عمّاراً سئل عن أبي موسى ، فقال : لقد سمعتُ فيه من حذيفة قولاً عظيماً ، سمعته يقول : صاحب البُرْنس الأسود ، ثم كَلَحَ كُلوْحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

وروى عن سويد بن عفلة : قال : كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان ، فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعته يقول : « إن بني إسرائيل اختلفوا ؛ فلم يزل الاختلاف بينهم ، حتى بعثوا حكّمين ضالّين ضلّوا وأضلّوا من اتبعهما ، ولا ينفك أمر امتي حتى يبعثوا حكّمين يضلّان ويُضلّان من تبعهما » ، فقلت له : احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما ! قال : فخلع قميصه ، وقال : أبرأ إلى الله من ذلك ، كما أبرأ من قميصي هذا .

فأما ما تعتقده المعتزلة فيه ، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متويه في كتاب " الكفاية " :
قال رحمه الله :

أما أبو موسى فإنه عظم جُرمه بما فعله ، وأدّى ذلك إلى الضرر الذي لم يخف حاله ، وكان على عليه السلام يقنتُ عليه وعلى غيره ، فيقول : اللهم العن معاوية أولاً وعمراً ثانياً ، وأبا الأعور السلمي ثالثاً ، وأبا موسى الأشعري رابعاً .

وروى عنه عليه السلام : أنه كان يقول في أبي موسى : صبغ بالعلم صبغاً وسلخ منه سلخاً .

قال : وأبو موسى هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : كان في

بني إسرائيل حكام ضالان ، وسيكون في أمتي حكام ضالان ، ضال من اتبعهما ، وأنه قيل له : ألا يجوز أن تكون أحدهما ؟ فقال : لا أو كلاماً ، ماهذا معناه ، فلما بُليَ به ، قيل فيه : البلاء موكل بالمنطق ، ولم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره ، وإن كان الشيخ أبو علي قد ذكر في آخر كتاب الحكمين أنه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام في مرض الحسن بن عليّ ، فقال له : أجتنا عائدا أم شامتا ؟ فقال : بل عائدا ، وحدّث بحديث في فضل العيادة .

قال ابن متويه : وهذه أماره ضعيفة في توبته .

اتهمى كلام ابن متويه ، وذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر ، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها .

قال أبو عمر بن عبد البرّ : واختلف في تاريخ موته ، فقيل : سنة اثنتين وأربعين ، وقيل : سنة أربع وأربعين ، وقيل : سنة خمسين ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين . واختلف في قبره ، فقيل : مات بمكة ودفن بها ، وقيل مات بالكوفة ودفن بها^(١) .

الأضل :

ومن فطنة له عليه السلام بذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله :

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ، يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنِ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنِ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَا تُجُ الْاِغْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَانزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنبَتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةً وَرِعَايَةً، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرَوَايَةً، فَإِنْ رُوِيَ الْعِلْمُ كَثِيرًا، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلًا.

الشنخ :

يقول : بهم يحيا العلم ويموت الجهل : فتمام حياة ذاك ، وموت هذا ، نظرا إلى السببية ؛ يدلكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم ، ويدلكم ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة ، على ما بطن من إخلاصهم ، ويدلكم صمتهم وسكوتهم عمّا لا يعنيه ، عن حكمة منطقتهم .

ويروى : « ويدلكم صمتهم على منطقتهم » ؛ وليس في هذه الرواية لفظة « حكم » .

لا يخالفون الحق : لا يسنون عنه ، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب ؛ فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر ، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه ، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه .

ودعائم الإسلام : أركانه .

والولائج : جمع وليجة ، وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه ، ويعتصم به .
وعاد الحق إلى نصابه : رجع إلى مستقره وموضعه : وانزاح الباطل : زال . وانقطع
لسانه : انقطعت حجته .

عقلوا الدين عقل رعاية ، أى عرفوا الدين وعلومه معرفة من وعى الشيء
وفهمه وأتقنه .

ووعاية ، أى وعوا الدين وحفظوه وحاطوه ، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية ،
فإن من يروى العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير ، ومن يحفظ العلم
حفظ فهم وإذراك ، أصالة لا تقليداً قليل .

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ؛

وبلغ الجزء الرابع عشر

فهرس الموضوعات

صفحة	
٣	٢٢٤ - من كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة
٨٥	٢٢٥ - من خطبة له عليه السلام بحث فيها على التقوى ويستطرد إلى وصف الزهاد
٩	٢٢٦ - من خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار وهو متوجه إلى البصرة
١٠	٢٢٧ - من كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة على إثر خلافته
١٢	٢٢٨ - من كلام له عليه السلام في وصف اللسان، واستطرد إلى وصف زمانه
١٧-١٣	ذكر من أرتج عليهم أو حصرو عند الكلام
١٨	٢٢٩ - من كلام له عليه السلام ، وقد ذكر عنده اختلاف الناس
٤٣-٢٧	٢٣٠ - من كلام له عليه السلام قاله وهو يلى غسل رسول الله وتجهيزه
٤٣-٢٧	ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته
	٢٣١ - من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وتوحيده، وذكر رسالة محمد
٦٦-٤٤	عليه السلام ، ثم استطرد إلى عجيب خلق الله لأصناف الحيوان
٥٤-٥٠	من أشعار الشارح في المناجاة
٦٣-٥٧	فصل في ذكر أحوال الترة وعجائب النملة
٦٨-٦٧	ذكر غرائب الجرادة وما احتوت عليه من صنوف الصنعة
٩١-٦٩	٢٣٢ - من خطبة له عليه السلام في التوحيد
٩٥	٢٣٣ - من خطبة له عليه السلام تختص بالملاحم
	٢٣٤ - من خطبة له عليه السلام يوصى الناس فيها بالتقوى، ويذكرهم
٩٩	الموت ويحذرهم الغفلة
١٠١	٢٣٥ - من كلام له عليه السلام في الإيمان
١٠٩-١٠٧	قصة وقعت لأحد الوعاظ ببغداد

صفحة	
	٢٣٦ - من خطبة له عليه السلام في الحث على التقوى و يذكر الناس بأمر الآخرة
١١١-١١٠	
	٢٣٧ - من خطبة له عليه السلام في حمد الله وتمجيده والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة
١١٦-١١٥	
	٢٣٨ - من خطبة له عليه السلام ؛ وهي التي تسمى الخطبة القاصعة ؛ وتتضمن ذم إبليس ، ويحذر الناس من سلوك طريقته
١٢٧	
١٧٧-١٧٤	فصل في ذكر الأسباب التي دعت العرب إلى وأد البنات
٢٠١-١٩٨	ذكر ما كان من سنة علي برسول الله في صغره
٢١٢-٢٠١	ذكر حال رسول الله عند نشوته
٢٩٥-٢١٥	القول في إسلام أبي بكر وعلي وخصائص كل منه
٢٩٦	٢٣٩ - من كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن ، وقد جاء برسالة من عثمان وهو محصور
٢٩٩-٢٩٧	وصية العباس قبل موته لعلي
	٢٤٠ - من كلام له عليه السلام اقتصر فيه ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم لحاقه به
٣٠٣	
٣٠٧	٢٤١ - من خطبة له عليه السلام في الزهد
٣٠٩	٢٤٢ - من خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام
٣١٦-٣١٣	فصل في نسب أبي موسى والرأي فيه عند المعزلة
٣١٧	٢٤٣ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد عليه السلام

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

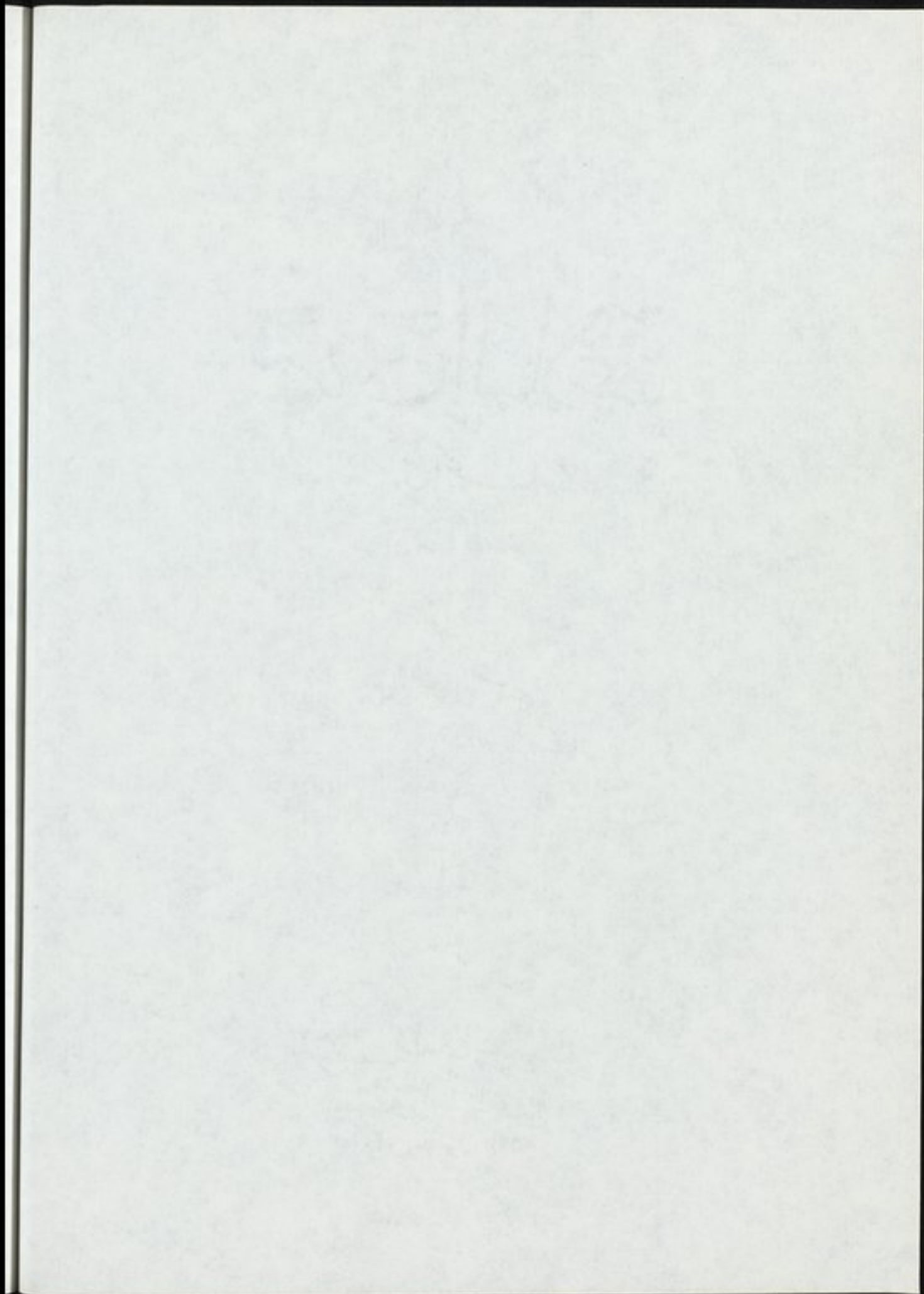
محمد أبو الفضل هاشم

الجزء الرابع عشر

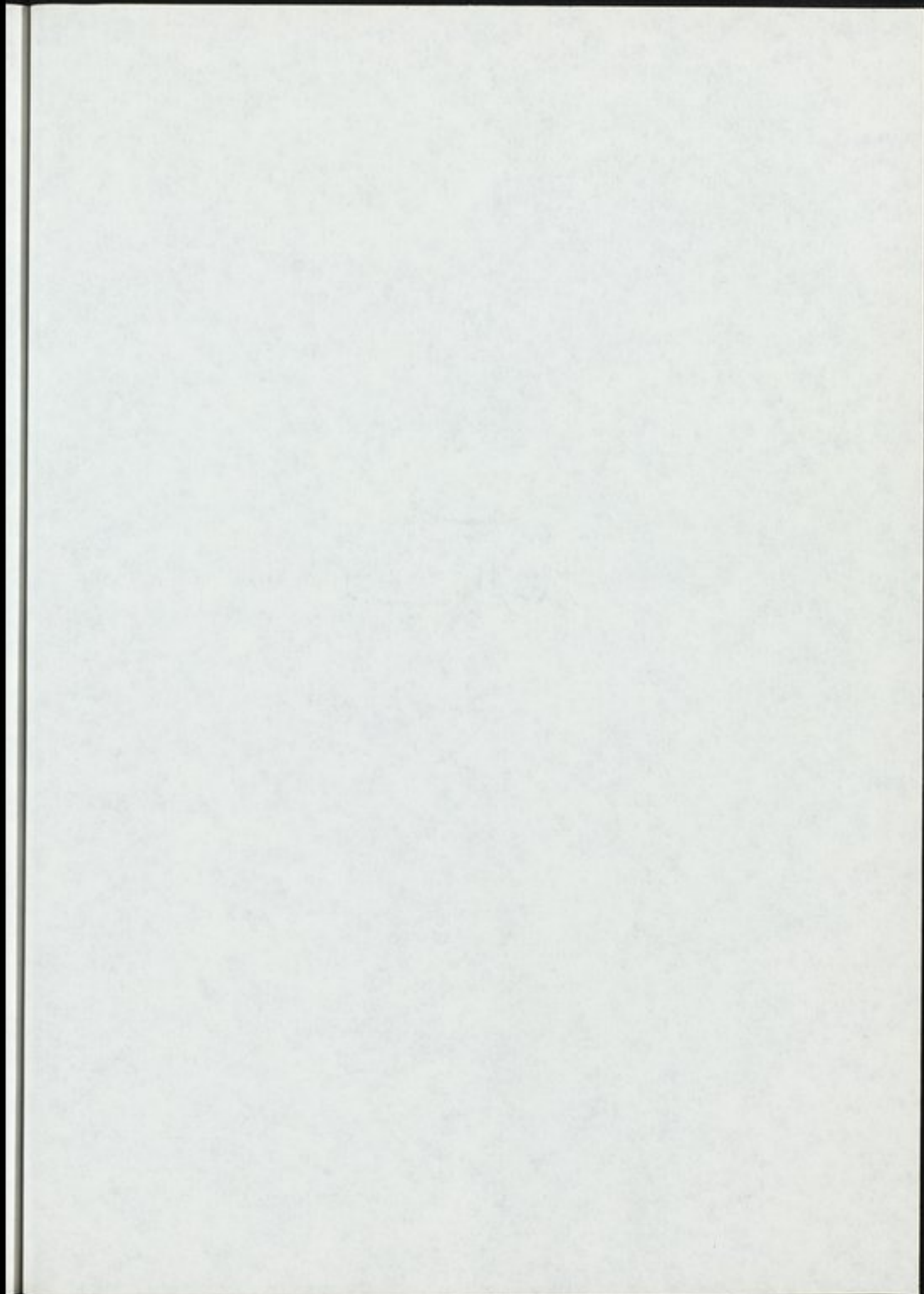
مؤسسة اسماعيليان

للطباعة والنشر والتوزيع

قم إيران - تلفون ٢٥٢١٣



باب
الكتب والرسائل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد المعدل

الأصل :

باب المختار من كتب موروثنا أمير المؤمنين علي عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياءه^(١) ببلاده، ويدخل في ذلك ما اغتبر من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه

الشرح :

لما فرغ من إيراد المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجاري تجرّي الخطب من المواعظ والزواجر ، شرع في إيراد باب من مختار كلامه عليه السلام ، وهو ما كان جارياً تجرّي الرسائل والكتب ، ويدخل في ذلك العهود والوصايا . وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأول أشبه ، نحو كلامه عليه السلام لشريح القاضي لما اشترى داراً ، وكلامه لشريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام .
وسمى ما يكتب للولاية عهداً اشتقاقاً من قولهم : عهدت إلى فلان ، أي أوصيته .

(١) ١ : « وأمرأه بلاده » .

الأضل :

من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ ، جَبْهَةَ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ .
 أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعْيَانِهِ .
 إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرُ اسْتِعْتَابَهُ . وَأَقِيلُ^(١)
 عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ أَهْوَنُ سَيْرِهَا فِيهِ الْوَجِيفُ ، وَأَرْفَقُ حِدَايَهُمَا الْعَنِيفُ . وَكَانَ
 مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةٌ غَضَبٍ ، فَأَتَيْحَ لَهُ قَوْمٌ قَتَلُوهُ ، وَبَايَعِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ ،
 وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجَلِ ،
 وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ ، فَأَنْسِرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ .
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشيخ :

قوله : « جبهة الأنصار » ؛ يمكن أن يريد جماعة الأنصار ، فإن الجبهة في اللغة الجماعة ،
 ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرفهم ، لأن جبهة الإنسان أعلى أعضائه ، وليس
 يريد بالأنصار هاهنا بنى قبيلة^(٢) ، بل الأنصار هاهنا الأعوان .

(١) مخطوطه النهج : « فأقل » . (٢) هي قبيلة أم الأوس والمزرج .

قوله عليه السلام : « وسنام العرب » ؛ أي أهل الرفعة والعلو منهم ، لأن السنام أعلى أعضاء البعير .

قوله عليه السلام : « أ كثر استعبابه وأقل عتابه » ، الاستعباب: طلب العتبي، وهي الرضا، قال : كنت أ كثر طلبَ رضاه ، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور ، وأما طلحة والزبير فكانا شديدين عليه .

والوجيف : سير سريع ، وهذا مثلٌ للشمرين^(١) في الطعن عليه ، حتى إن السير السريع أبطأ ما يسيران في أمره ، والحذاء العنيف أرفق ما يجرّضان به عليه .
ودار الهجرة : المدينة .

وقوله : « قد قلمت بأهلها وقلعوا بها » ، الباء هاهنا زائدة في أحد الموضعين ، وهو الأول ، وبمعنى « من » في الثاني ، يقول : فارقت أهلها وفارقوها ، ومنه قولهم : « هذا منزل قلعة » أي ليس بمستوطن .

وجاشت : اضطربت . والمرجل : القدر .

ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام : « فكنت رجلا من المهاجرين » ، فإن في ذلك من التخلص والتبرّي مالا يخفى على المتأمل ، ألا ترى أنه لم يبق عليه في ذلك حجة لطاعن ، حيث كان قد جعل نفسه كواحدٍ من عرض المهاجرين ، الذين بنفسي يسير منهم انعقدت خلافة أبي بكر ، وهم أهل الحل والعقد ، وإنما كان الإجماع حجة لدخولهم فيه .
ومن لطيف الكلام أيضا قوله : « فأتيت له قوم قتلوه » ، ولم يقل : « أتاح الله له قوما » ، ولا قال : « أتاح له الشيطان قوما » ، وجعل الأمر مبهما .

وقد ذكر أن خط الرضى رحمه الله « مستكرهين » بكسر الراء ، والفتح أحسن وأصوب ، وإن كان قد جاء : استكرهت الشيء بمعنى كرهته .

(١) : « وهذا مثل في العرب للمشمر في الطعن عليه » .

وقال الراوندى : المراد بدار الهجرة هاهنا الكوفة التي هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها ، وليس بصحيح ، بل المراد المدينة ، وسياق الكلام يقتضى ذلك ، ولأنه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم ، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم .

[أخبار عليّ عند مسيره إلى البصرة ، ورسله إلى أهل الكوفة]

وروى محمد بن إسحاق عن عمه عبد الرحمن بن يسار القرشى ، قال : لما نزل عليّ عليه السلام الرّبذة متوجّهاً إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق ، وكتب إليهم هذا الكتاب ، وزاد في آخره :
فحسبي بكم إخواناً ، وللدّين أنصاراً ، ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وروى أبو مخنف ، قال : حدّثني الصّنعبي ، قال : سمعتُ عبد الله بن جُنادة يحدث أن علياً عليه السلام لما نزل الرّبذة بعث هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص إلى أبي موسى الأشعري ، وهو الأمير يومئذ على الكوفة ، لينفِر إليه الناس ، وكتب إليه معه :
من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . أما بعد ، فإني قد بعثت إليك هاشم بن عُتبة لتُشخِصَ إليّ مَنْ قَبْلَكَ من المسلمين ليتوجّهوا إلى قوم نكثوا بيعتي ، وقتلوا شيعتي ، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدّث العظيم ، فاشخِصْ بالناس إلىّ معه حين يقدم عليك ، فإني لم أولك المنصر الذي أنت فيه ، ولم أقرّك عليه إلا لتكون من أعوانى على الحقّ ، وأنصاري على هذا الأمر ، والسّلام .

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال : لما قدم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفة ، استنفرا^(١) الناس ، فدخل قوم منهم على أبي موسى ليلاً ، فقالوا له : أشير علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى عليّ عليه السلام ، فقال : أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معهما . فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج . وبلغ ذلك الحمدين ، فأغظا لأبي موسى ، فقال أبو موسى : والله إن بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقي وأعناقكما ، ولو أردنا قتالاً ما كنا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان . فخرجا من عنده ، فلحقا بعليّ عليه السلام ، فأخبراه الخبر .

وأما رواية أبي مخنف ؛ فإنه قال : إن هاشم بن عتبة لما قدم الكوفة ، دعا أبا موسى السائب بن مالك الأشعري ، فاستشاره ، فقال : اتبع ما كتب به إليك . فأنى ذلك ، وحبس الكتاب ، وبعث إلى هاشم يتوعده ويخوفه .

قال السائب : فأتيت هاشمًا فأخبرته برأى أبي موسى ، فكتب إلى عليّ عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من هاشم بن عتبة . أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإني قدمت بكتابك على امرئ مشاق بعيد الود ، ظاهر الغل والشنان ، قتهدني بالسجن ، وخوفني بالقتل ، وقد كتبت إليك هذا الكتاب مع المحل بن خليفة ، أخي طيبي ، وهو من شيعتك وأنصارك ، وعنده علم ما قبلنا ، فأسأله عما بدا لك ، واكتب إلى رأيك والسلام .

قال : فلما قدم المحل بكتاب هاشم على عليّ عليه السلام سلم عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي أدى الحق إلى أهله ، ووضع موضعه ؛ فكرر ذلك قوم قد والله كرهوا نبوة محمد صلى الله عليه وآله ، ثم بارزوه وجاهدوه ، فرد الله عليهم كيدهم في نحورهم ، وجعل دائرة السوء عليهم . والله يا أمير المؤمنين لنجاهدنيهم معك في كل موطن ؛ حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، إذ صاروا أعداء لهم بعده .

(١) : « واستنفرا » ، وما أثبتته من ب .

فرحّب به عليّ عليه السلام ، وقال له خيرا ، ثمّ أجلسه إلى جانبه ، وقرأ كتاب هاشم ، وسأله عن الناس وعن أبي موسى ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أتقُ به ولا آمنه على خلافك ، إن وجد من يساعده على ذلك . فقال عليّ عليه السلام : والله ما كان عندي بمؤمن ولا ناصح ، ولقد أردت عزّله فأتاني الأشر ، فسألني أن أقرّه ، وذكر أن أهل الكوفة به راضون فأقرته .

وروى أبو مخنف ، قال : وبعث عليّ عليه السلام من الرّبذة بعد وصول المحلّ بن خزيمة ، "أخى طيّب" ، عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى ؛ وكتب معهما : . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، أمّا بعد يا ابن الخائنك ، يا عاضّ أير أبيه ، فوالله إني كنت لأرى أن بُعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلا ، ولا جعل لك فيه نصيبا ، سيمنعك من ردّ أمرى والانتزاع^(٢) عليّ ، وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبي بكر فخلفهما والمصر وأهله ، واعتزل عملنا مذهبنا ومدحورا . فإن فعلت وإلا فإنّي قد أمرتهما أن ينابذاك على سواء ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين . فإذا ظهرا عليك قطعك إربابا إربابا ، والسلام ، على من شكر النعمة ، ووفى بالبيعة ، وعمل برجاء العافية .

قال أبو مخنف : فلما أبطأ ابن عباس وابن أبي بكر عن عليّ عليه السلام ، ولم يدر ما صنعنا ، رحل عن الرّبذة إلى ذي قار فنزلها ، فلما نزل ذا قار ، بعث إلى الكوفة الحسن ابنه عليه السلام ، وعمار بن ياسر وزيد بن صوحان ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ومعهم كنفاب إلى أهل الكوفة . فأقبلوا حتى كانوا بالقادسية ، فتلقاهم الناس ، فلما دخلوا الكوفة قرءوا كتاب عليّ ، وهو :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين ، إلى من بالكوفة من المسلمين .

أما بعد ؛ فإني خرجت مخرجي هذا ؛ إماماً ظالماً، وإماماً مظلوماً، وإماماً باغياً ، وإماماً مبغياً
على ، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلا نفر إلى ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت
ظالماً استعثنني . والسلام .

قال : أبو مخنف : فحدثني موسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيه ، قال : أقبلنا
مع الحسن وعمر بن ياسر من ذي قار ، حتى نزلنا القادسية ، فنزل الحسن وعمر ، ونزلنا
معهما ، فاحتبى عمر بحمائل سيفه ، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم ،
ثم سمعته يقول : ما تركت في نفسي حزة أهم إلى من إلا نكون نبشنا عثمان من قبره ،
ثم أحرقناه بالنار .

قال : فلما دخل الحسن وعمر الكوفة ، اجتمع إليهما الناس ، فقام الحسن ، فاستنفر
الناس ، فحمد الله وصلى على رسوله ، ثم قال : أيها الناس ، إننا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى
كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين ، وأعدل من تعدلون ، وأفضل من
تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم يُجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة ،
إلى من قر به الله تعالى إلى ^(١) رسوله قرابتين : قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى
كل ما أثره ، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ؛ ففقر منه وهم متباعدون ، وصلى
معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجّمون ، وصدقه وهم
يكذبون . إلى من لم ترد له رواية ولا تكافأ له سابقة ، وهو بسألكم النصر ، ويدعوكم إلى
الحق ، ويأمركم بالمسير إليه ، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا أهل
الصلاح من أصحابه ، ومثّلوا بعماله ، واتهبوا بيت ماله . فاشخصوا إليه رحمكم الله ، ففروا
بالمعروف وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون ^(٢) .

قال أبو مخنف : حدثني جابر بن يزيد ، قال حدثني تميم بن حذيم الناجي ، قال : قدم علينا

(١) : « ورسوله » .

(٢) تاريخ الضبى . . .

الحسن بن علي عليه السلام وعمار بن ياسر، يستنفران الناس إلى علي عليه السلام، ومعهما كتابه، فلما فرغ من قراءة كتابه، قام الحسن - وهو فتى حَدَثَ ، والله إني لأرثي له من حداثة سنه وصعوبة مقامه - فرماه الناس بأبصارهم وهم يقولون : اللهم سدّد منطق ابن بنت نبيّنا ! فوضع يده على عمود يتساند إليه ، وكان عليلاً من شكوى به ، فقال : الحمد لله العزيز الجبار ، الواحد القهار ، الكبير المتعال ، ﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٍ بالنهار﴾ . أحمدُه على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، امتنّ علينا بنبوته ، واختصه برسالته ، وأنزل عليه وحياً ، واصطفاه على جميع خلقه ، وأرسله إلى الإنس والجن ، حين عُبدت الأوثان وأطبع الشيطان ، وجُحد الرحمن ، فصلى الله عليه وعلى آله وجزاه أفضل ماجزى المسلمين . أما بعد فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون ، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - أرشد الله أمره ، وأعزّ نصره - بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب ، وإلى العمل بالكتاب ، والجهاد في سبيل الله ، وإن كان في عاجل ذلك ماتكروهون ، فإن في آجله ماتحبون إن شاء الله . ولقد علمت أنّ علياً صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحده ، وإنه يوم صدّق به لفي عاشره من سنه ، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع مشاهدته . وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم ، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه ، حتى غمّضه بيده وغسله وحده ، والملائكة أعوانه ، والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء ، ثم أدخله حفرته ، وأوصاه بقضاء دينه وعِدّاته ، وغير ذلك من أموره ، كل ذلك من منّ الله عليه . ثم والله مادعا إلى نفسه ، ولقد تذاك الناس عليه تذاك الإبل الهيم عند وزودها ، فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم نا كثون بلا حدّثٍ أحدثه ، ولا خلافٍ أتاه ، حسداً له وبنياً عليه . فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته ، والجدّ والصبر والاستعانة بالله ،

والخفوف إلى مادعاكم إليه أمير المؤمنين . عَصَمْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِمَا عَصِمَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ ، وَالْهَمْنَاوِ إِيَّاكُمْ تَقْوَاهُ ، وَأَعَانْنَاوِ إِيَّاكُمْ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ . وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ .
ثم مضى إلى الرحبة فهبياً منزلاً لأبيه أمير المؤمنين .

قال جابر : فقلت لثميم : كيف أطاق هذا الغلام ما قد قصصته من كلامه ؟ فقال : ولما سقط عني من قوله أكثر ، ولقد حفظت بعض ما سمعت .

قال : ولما نزل علي عليه السلام ذا قارٍ ، كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر : أما بعد ، فإني أخبرك أن علياً قد نزل ذا قارٍ ، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا ، فهو بمنزلة الأشقر ؛ إن تقدم عُقْر ، وإن تأخر نُحْر ، فدعت حفصة جوارى لها يتغنين ويضربن بالدفوف ، فأمرتهن أن يقلن في غنائهن : ما الخبر ما الخبر ، علي في السفر ، كالفرس الأشقر ، إن تقدم عُقْر ، وإن تأخر نُحْر .

وجعلت بنات الطلقاء يدخلن على حفصة ، ويحتمعن لسماع ذلك الغناء .

فبلغ أم كلثوم بنت علي عليه السلام ، فلبست جلابيبها ، ودخلت عليهن في نسوة متكبرات ، ثم أسفرت عن وجهها ، فلما عرفتها حفصة خجلت ، واسترجعت ، فقالت أم كلثوم : لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم ، لقد تظاهرتما علي أخيه من قبل ، فأنزل الله فيكما ما أنزل !

فقالت حفصة : كفى رحمك الله ، وأمريت بالكتاب فزقي ، واستغفرت الله .

قال أبو مخنف : روى هذا جرير بن يزيد ، عن الحكم ، ورواه الحسن بن دينار ، عن الحسن البصري .

وذكر الواقدي مثل ذلك ، وذكر المدائني أيضاً مثله ، قال : فقال سهل بن حنيف في ذلك هذه الأشعار :

عَدَرْنَا الرَّجَالَ بِحَرْبِ الرَّجَالِ فَمَا لِلنَّسَاءِ وَمَا لِلسَّبَابِ !
أَمَا حَسْبُنَا مَا أَتَيْنَا بِهِ ؟ لَكَ الْخَيْرُ مِنْ هَتَّكَ ذَاكَ الْحِجَابِ
وَمَخْرَجُهَا الْيَوْمَ مِنْ بَيْتِهَا يُعَرِّفُهَا الذَّنْبَ نَبِيْحُ الْكِلاَبِ
إِلَى أَنْ أَتَانَا كِتَابٌ لَهَا مَشُومٌ ، فَيَاقِيحَ ذَاكَ الْكِتَابِ !

قال : حَدَّثَنَا الْكَلْبِيُّ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لَمَّا نَزَلَ ذَا قَارٍ فِي قَلَّةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ ، صَعِدَ الزُّبَيْرُ مِنْبَرَ الْبَصْرَةِ ، فَقَالَ : أَلَا أَلْفَ فَارِسٍ أُسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَلِيٍّ ، فَأَيُّتَهُ بِيَاتَانَا ، وَأَصْبَحَهُ صَبَاحًا ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الْمُدَدُ ! فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ ، فَنَزَلَ وَاجِمًا ، وَقَالَ : هَذِهِ وَاللَّهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُنَّا نَحَدِّثُ بِهَا ! فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَوَالِيهِ : رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ! تَسْمِيهَا فِتْنَةً ثُمَّ تَقَاتِلُ فِيهَا ! فَقَالَ : وَيْحَكَ ! وَاللَّهِ إِنْ لُنْبِصِرْ ثُمَّ لَا نَصْبِرْ . فَاسْتَرَجَعَ الْمَوْلَى ثُمَّ خَرَجَ فِي اللَّيْلِ فَارًّا إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِهِ !

قال أبو مخنف : وَلَمَّا فَرَّغَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خُطْبَتِهِ ، قَامَ بَعْدَهُ عَمَّارٌ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَخُو نَبِيِّكُمْ وَابْنُ عَمَةٍ يَسْتَنْفِرُكُمْ لِنَصْرِ دِينِ اللَّهِ ، وَقَدْ بَلَغَكُمْ اللَّهُ بِحَقِّ دِينِكُمْ ، وَحَرَمَةَ أُمَّكُمْ ، فَحَقُّ دِينِكُمْ أَوْجِبُ ، وَحَرَمَتُهُ أَعْظَمُ . أَيُّهَا النَّاسُ ، عَلَيْكُمْ بِإِمَامٍ لَا يُؤَدَّبُ ، وَفَقِيهٍ لَا يَعْلَمُ ، وَصَاحِبٍ بَأْسٍ لَا يَنْكِلُ ، وَذِي سَابِقَةٍ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ لِأَحَدٍ ، وَإِنْسِكُمْ لَوْ قَدْ حَضَرَ تَمَوَّهُ بَيْنَ لَكُمْ أَمْرًا كَمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قال : فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو مُوسَى خُطْبَةَ الْحَسَنِ وَعَمَّارَ ، قَامَ فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِمُحَمَّدٍ ، فَجَمَعَنَا بَعْدَ الْفُرْقَةِ ، وَجَعَلَنَا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ ، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا دِمَاءَنَا وَأَمْوَالَنَا ، قَالَ اللَّهُ تَبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ ^(١) . فاتقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال إخوانكم .

أما بعد يا أهل الكوفة ، إن تطيعوا الله باديًا ، وتطيعوني ثانيا ، تكونوا جُرثومة من جرائيم العرب ، ياوئى إليكم المضطر ، ويأمنُ فيكم الخائف . إن عليا إنما يستنفركم لجهاد أمكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومن معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفتن أنها إذا أقبلت شَبَّهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إني أخاف عليكم أن يلتقى غارًا منكم فيقتتلوا ثم يتركا كالأحلاس الملقاة بنجوة من الأرض ، ثم يبقى رَجْرَجَةٌ ^(٢) من الناس ، لا يأمرُونَ بالمعروف ، ولا ينهاون عن منكر . إنها قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى ! تترك الحليم حيران ! كأتى أسمعُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفتن ، فيقول : « أنت فيها قائمًا خيرٌ منك قاعدا ، وأنت فيها جالسًا خير منك قائمًا ، وأنت فيها قائمًا خيرٌ منك ساعيًا » . فتلموا سيوفكم وانصلوا ^(٣) وقصفوا رماحكم ، سهاكم ، وقطعوا أوتاركم ، وخلوا قريشا ترتق فتقها ، وترأب صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها ما فعلت ، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت ، سمها في أديمها . استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني ولا تعصوني ، يتبين لكم رشدكم ، ويصلى هذه الفتنه من جناها .

فقام إليه عمار بن ياسر ، فقال : أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك ! قال : نعم هذه يدى بما قلت ، فقال : إن كنت صادقًا فأتما عناك بذلك وحدك ، واتخذ عليك الحجّة ، فالزم بيتك ولا تدخلن في الفتنة ، أما إني أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر عليًا بقتال الناكثين ، وسمى له فيهم من سمي ، وأمره بقتال القاسطين ، وإن شئت لأقيمَنَّ لك شهودا يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) سورة النساء ٩٣ (٢) الرجرجة : البقية ، وأصله في الماء .

(٣) أنصل السهم : أزال عنه النصل .

لَمَّا نَهَاكَ وَحَدَّكَ ، وَحَدَّرَكَ مِنَ الدَّخُولِ فِي الْفِتْنَةِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَعْطِنِي يَدَكَ عَلَى مَا سَمِعْتَ ، فَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَمَّارٌ : غَلَبَ اللَّهُ مَنْ غَالِبَهُ وَجَاهَدَهُ ! ثُمَّ جَذَبَهُ فَزَلَّ عَنِ الْمَنْبَرِ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ فِي " التَّارِيخِ " قَالَ : لَمَّا أَتَى عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخَبِرُ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ بِأَمْرِ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ، وَأَنْتَهُمْ قَدْ تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْعِرَاقِ ، خَرَجَ يُبَادِرُ^(١) ، وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَدْرِكَهُمْ وَيُرَدِّعُهُمْ ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ إِلَى الرَّبَذَةِ أَتَاهُ عَنْهُمْ أَنْتَهُمْ قَدْ أَمْعَنُوا ، فَأَقَامَ بِالرَّبَذَةِ أَيَّامًا ، وَأَتَاهُ عَنْهُمْ أَنْتَهُمْ يَرِيدُونَ الْبَصْرَةَ ، فَسُرَّ بِذَلِكَ ، وَقَالَ : إِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ أَشَدُّ لِي حُبًّا ، وَفِيهِمْ رُؤَسَاءُ الْعَرَبِ وَأَعْلَامُهُمْ . فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ : إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكُمْ عَلَى الْأَمْصَارِ ، وَإِنِّي بِالْأَثَرِ^(٢) .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : كَتَبَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الرَّبَذَةِ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ : أَمَا بَعْدَ ، فَإِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكُمْ ، وَأَثَرْتُ النُّزُولَ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ، لَمَّا أَعْرَفَ مِنْ مَوَدَّتِكُمْ وَحُبِّكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَمَنْ جَاءَنِي وَنَصَرَنِي فَقَدْ أَجَابَ الْحَقَّ ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : فَأَوَّلُ مَنْ بَعَثَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الرَّبَذَةِ إِلَى الْكُوفَةِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، فَجَاءَ أَهْلَ الْكُوفَةِ إِلَى أَبِي مُوسَى ، وَهُوَ الْأَمِيرُ عَلَيْهِمْ لِيَسْتَشِيرُوهُ^(٣) فِي الْخُرُوجِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا سَبِيلُ الْآخِرَةِ فَانْ تَقَعُدُوا وَأَمَّا سَبِيلُ الدُّنْيَا فَانْ تَخْرُجُوا .

وَبَلَغَ الْمُحَمَّدِينَ قَوْلُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، فَاتِيَاهُ وَأَغْلَظَالَهُ ، فَأَغْلَظَ لَهَا ، وَقَالَ :

(٢) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ ١ : ٣١٠٦

(١) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ يُبَادِرُهُم

(٣) ب : « يَسْتَشِيرُوهُ » .

لا يحل لك القتال مع عليّ حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان .
وقالت أخت عليّ بن عدى ، من بنى عبد العزى بن عبد شمس ، وكان أخوها عليّ
ابن عدى من شيعة علي عليه السلام ، وفي جملة عسكره :

لاهم فاعقر بعليّ جملة ولا تبارك في بعير حمله
* ألا عليّ بن عدى ليس له ^(١) *

قال أبو جعفر : ثم أجمع عليّ عليه السلام على المسير من الرّبذة إلى البصرة ، فقام إليه
رفاعة بن رافع ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أى شيء تريد ؟ وأين تذهب بنا ؟ قال :
أما الذى نريد وننوى فإصلاح ؛ إن قبلوا منا وأجابوا إليه ، قال : فإن لم يقبلوا ، قال :
ندعوهم ونعطهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به ^(٢) ، قال فإن لم يرضوا ، قال : ندعوهم
ما تركونا : قال : فإن لم يتركونا ، قال : نمتنع منهم ، قال : فنعم إذا .
وقام الحجاج بن غزيرة الأنصارى ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لأرضينك بالفعل ،
كما أرضيتنى منذ اليوم بالقول . ثم قال :

دَرَاكِهَا دَرَاكِهَا قَبْلَ الْقَوْتِ وانفر بنا واسمُ بنا نحو الصوت
* لا وأت نفسى إن خفت الموت *
والله لننصرن الله عز وجل كما سمانا أنصارا .

قال أبو جعفر رحمه الله : وسار عليّ عليه السلام نحو البصرة ، ورايته مع ابنه محمد
ابن الحنفية ، وعلى ميمينته عبد الله بن عباس ، وعلى ميسرته عمر بن أبى سلمة ، وعلى
عليه السلام فى القلب على ناقة حمراء ، يقود فرساً كميّتا ^(٣) . فتلقاه بفيدي غلام من

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٣٩ ، مع تصرف واختصار .

(٢) الطبرى : « وندعوهم الحق ونصبر » .

(٣) الكميّ من الخيل : الذى خالط حمرة قنوه ؛ أى سواد غير خالص .

بنى سعد بن ثعلبة ، يدعى مُرّة ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قيل : هذا أمير المؤمنين ، فقال :
سفرة قانية ، فيها دماء من نفوس قانية . فسمعها على عليه السلام فدعاه ، فقال : ما اسمك ؟
قال : مُرّة ، قال : أمر الله عيشك ! أكاهن سائر اليوم ؟ قال : بل عائف ، فخلّى سبيله . ونزل بَقِيد
فأنته أسدٌ وطِيءٌ ، فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : الزموا قراركم ، ففي المهاجرين كفاية .
وقدم رجلٌ من الكوفة فيداً ، فأتى عليا عليه السلام ، فقال له : من الرجل ؟
قال : عامر بن مطرف ، قال : الليثي ؟ قال : الشيباني ، قال : أخبرني عما وراءك ؟ قال :
إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبك ، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب .
فقال عليه السلام : ما أريد إلا الصلح إلا أن يُردّ علينا^(١) .

قال أبو جعفر : وقدم عليه عثمان بن حنيف ، وقد تنف طلحة والزبير شعر رأسه
ولحيته وحاجبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بعثتني ذالحية ، وجئتك أمرد ، فقال : أصبت
خيرا وأجرا . ثم قال : أيها الناس ، إن طلحة والزبير بايعاني ، ثم نكثاني بيعتي ، وألبا
عليّ الناس ، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ ، والله إنهما ليعلمان
أنّي لستُ بدونهما^(٢) . اللهم فاحلّل ماعقدا ، ولا تبرم ما أحكما في أنفسها ، وأرهما المساءة
فيما قد عملا^(٣) .

قال أبو جعفر : وعاد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى عليّ عليه السلام ، فلقياه
وقد انتهى إلى ذي قارٍ ، فأخبراه الخبر ، فقال عليّ عليه السلام لعبد الله بن العباس :
اذهب أنت إلى الكوفة ، فادعُ أبا موسى إلى الطاعة ، وحذّره من العصيان والخلاف ،
واستنفر الناس . فذهب عبد الله بن عباس حتى قدم الكوفة ، فلقى أبا موسى ، واجتمع
الرؤساء من أهل الكوفة . فقام أبو موسى فخطبهم ، وقال : إن أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم محبوبوه في مواطن كثيرة ، فهم أعلم بالله ممن لم يصحبوه ، وإن لكم عليّ حقاً ،

(١) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤١ - ٣١٤٣ (٢) الطبري : « بدون رجل » .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤٣ ، ٣١٤٤ .

وأنا مؤذيه إليكم ، أمر ألا تستخفوا بسلطان الله ، وألا تجترثوا [على الله] وأن تأخذوا كل من قدم عليكم من أهل المدينة في هذا الأمر ، فترذوه إلى المدينة ، حتى تجتمع الأمة على إمام ترضى به ؛ إنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جُرثومةً من جراثيم العرب ، أغمِدوا سيوفكم ، وأنصلوا أسنتكم ، واقطعوا أوتار قسيكم ، حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلي هذه الفتنة .

قال أبو جعفر رحمه الله : فرجع ابن عباس إلى علي عليه السلام ، فأخبره ، فدعا الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر ، وأرسلهما إلى الكوفة ، فلما قدماها كان أول من أتاهما مسروق بن الأجدع ، فسلم عليهما ، وأقبل على عمار ، فقال : يا أبا اليقظان ، علام قتلتم أمير المؤمنين ؟ قال : على شتم أعراضنا ، وضرب أبقارنا قال : فوالله ما عاقبتم بمثل ما عاقبتم به ، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين . ثم خرج أبو موسى فلقى الحسن عليه السلام فضمه إليه ، وقال لعمار : يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن غداً على أمير المؤمنين^(١) ، وأحلت نفسك مع الفجار ؟ قال : لم أفعل ، ولم تسوءني ؟ فقطع عليهما الحسن ، وقال لأبي موسى : يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا ، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء ، قال أبو موسى : صدقت بأبي وأمي ! ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ستكون فتنة^(٢) .. » وذكر تمام الحديث . ففضب عمار وساءه ذلك ، وقال : أيها الناس ، إنما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك له خاصة ، وقام رجل من بني تميم فقال لعمار : اسكت أيها العبد ! أنت أمس مع الغوغاء ، وتسافه أميرنا اليوم ! وثار زيد بن صوحان وطبقتة ، فانتصروا لعمار ، وجعل أبو موسى يكف الناس ويردعهم عن الفتنة . ثم انطلق حتى صعد المنبر ، وأقبل زيد بن صوحان ومعه كتاب من عائشة إليه خاصة ، وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامة ، تثبطهم عن نصرة

(١) الطبري : « أعدوت فيمن عدا » (٢) بقية الحديث : « القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب » .

عليّ ، وتأمروهم بلزوم الأرض ، وقال : أيّها الناس ، انظروا إلى هذه ، أمرت أن تقرّ في بيتها ، وأمرنا نحن أن نقاتل ، حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به ، فقام إليه شبّث بن ربعيّ . فقال له : وما أنت وذلك أيها العُمانيّ الأحمق ! سرقتَ أمس بجلولاء فقطعك الله ، وتسبّ أم المؤمنين ! فقام زيد ، وشال يده المقطوعة وأوماً بيده إلى أبي موسى وهو على المنبر ، وقال له : يا عبد الله بن قيس ، أتردّ الفرات عن أمواجه ! دع عنك ما لبست تدركه ، ثم قرأ : ﴿ اَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ... ﴾^(١) الآيتين ، ثم نادى : سيروا إلى أمير المؤمنين وصراط سيّد المرسلين ، وانفروا إليه أجمعين . وقام الحسن بن عليّ عليه السلام ، فقال : أيّها الناس ، أجيئوا دعوة إمامكم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة ، وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا ، وأعينونا على أمرنا ؛ أصلحكم الله !

وقام عبد خير فقال : يا أبا موسى ، أخبرني عن هذين الرجلين ، ألم يبایعا عليا ! قال : بلى ، قال : فأحدث عليّ حدثا يحلّ به نقض بيعته . قال : لا أدري ، قال : لا دريت ولا أتيت ! إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري . أخبرني : هل تعلم أحدا خارجا عن هذه الفرق الأربع : عليّ بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة رابعة بالحجاز قعود لا يجي بهم فيء ، ولا يقاتل بهم عدو ! فقال أبو موسى : أولئك خيرُ الناس ، قال عبد خير : اسكت يا أبا موسى ، فقد غلب عليك غشك^(٢) .

قال أبو جعفر : وأتت الأخبار عليّاً عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة ، فقال للأشتر : أنت شغعت في أبي موسى أن أقرّه على الكوفة ، فاذهب فأصلح ما أفسدت ،

(١) سورة العنكبوت ١ - ٣ (٢) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤٦ - ٣١٤٢ مع تصرف واختصار .

فقام الأشر، فشخص نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمر قبيلة إلا دعاهم، وقال: اتبعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فاقتحمه وأبوموسى يومئذ يخطب الناس على المنبر، ويتبظهم، وعمار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا، لا أم لك!

قال أبو جعفر: فروى أبو مريم النقفى، قال: والله إنى لفي المسجد يومئذ إذ دخل علينا غلمان أبي موسى يشتدون ويبادرون^(١) أبا موسى: أيها الأمير، هذا الأشر قد جاء، فدخل القصر، فضر بنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى من المنبر، وجاء حتى دخل القصر، فصاح به الأشر: اخرج من قصرنا لا أم لك، أخرج الله نفسك! فوالله إنك لمن المنافقين قديماً. قال: أجلتنى هذه العشيّة، قال: قد أجلتك، ولا تبين في القصر [الليلة]^(٢). ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنهم الأشر، وقال: إنى قد أخرجته وعزلته عنكم، فكف الناس حينئذ عنه^(٣).

قال أبو جعفر: فروى الشعبي، عن أبي الطفيل، قال: قال على عليه السلام: يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد، فوالله لقد عدت على نجفة^(٤) ذى قار، فأحصيتهم واحدا واحدا، فما زادوا رجلاً، ولا نقصوا رجلاً^(٥).

[فصل في نسب عائشة وأخبارها]

وينبغى أن نذكر في هذا الموضع طرفاً من نسب عائشة وأخبارها، وما يقوله أصحابنا المتكلمون فيها، جرياً على عادتنا في ذكر مثل ذلك كلما مررنا بذكر أحد من الصحابة.

(١) الطبرى: « ينادون ». (٢) من الطبرى (٣) تاريخ الطبرى ١: ٣١٥٣، ٣١٥٤
(٤) في الأصول: « لجة »، والصواب ما أثبتته من الطبرى. والنجفة: المكان المشرف على ماحوله
من الأرض. (٥) تاريخ الطبرى ١: ٣١٧٣، ٣١٧٤.

أما نسبها ، فإنها ابنةُ أبي بكر ، وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم ، وأُمها أم رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سُبَيْع بن دُهْمَان بن الحارث بن تميم بن مالك بن كنانة . تزوجها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بمكة قبل الهجرة بسنتين - وقيل بثلاث - وهي بنت ست سنين - وقيل بنت سبع سنين - وبنى عليها بالمدينة وهي بنت تسع ، لم يختلفوا في ذلك .

وكانت تذكر لجبير بن مطعم ، وتسمى له ، وورد في الأخبار الصحيحة أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله أرى عائشة في المنام في سرقةٍ حرير ، متوفى خديجة رضي الله عنها ، فقال : إن يكن هذا من عند الله يُمضِه ؛ فتزوجها بعد موت خديجة بثلاث سنين ، وتزوجها في شوال ، وأعرس بها بالمدينة في شوال ، على رأس ثمانية عشر شهرا من مهاجرة إلى المدينة^(١) .

وقال ابن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " : كانت عائشة تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحببها في شوال على أزواجهن ، وتقول : هل كان في نساءه أحظى عنده مني وقد نكحتني وبنى علي في شوال^(١) !

قلت : قرئ هذا الكلام على بعض الناس ، فقال : كيف رأت الحال بينها وبين أحمائها وأهل بيت زوجها !

وروى أبو عمر بن عبد البر ، في الكتاب المذكور : أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله تُوفى عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة ، فكان سنها معه تسع سنين ، ولم ينكح بـكراً غيرها ، واستأذنت رسولَ الله صلى الله عليه وآله في الكنية ، فقال لها : اكتني بابنك عبد الله بن الزبير - يعني ابن أختها - فكانت كنيته أم عبد الله ، وكانت فقيهةً عالمةً بالفرائض والشعر والطب^(١) .

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله ، قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام » ، وأصحابنا يحملون لفظة النساء في هذا الخبر على زوجاته ، لأن فاطمة عليها السلام عندهم أفضل منها ، لقوله صلى الله عليه وآله : « إمتها سيّدة نساء العالمين » .

وقد فت بصفوان بن المعطل السلمي في سنة ست ، منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من غزاة بني المصطلق - وكانت معه - فقال فيها أهل الإفك ما قالوا ، ونزل القرآن ببراءتها .

وقوم من الشيعة زعموا أن الآيات التي في سورة النور لم تنزل فيها ، وإنما أنزلت في مارية القبطية ، وما قدفت به مع الأسود القبطي . وحجدهم لإنزال ذلك في عائشة حجة لما يعلم ضرورة من الإخبار المتواترة ، ثم كان من أمرها وأمر حفصة وما جرى لها مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمر الذي أسره على إحداها ما قد نطق الكتاب العزيز به . واعتزل رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه كلهن ، واعتزلها معهن ثم صالحهن ، وطلق حفصة ثم راجعها ؛ وجرت بين عائشة وفاطمة إبلاغات ، وحديث يوغر الصدور ، فتولّد بين عائشة وبين عليّ عليه السلام نوع ضعيفة ، وانضمّ إلى ذلك إشارته على رسول الله صلى الله عليه وآله في قصة الإفك بضرب الجارية وتقريرها ، وقوله : « إن النساء كثير » .

ثم جرى حديث صلاة أبي بكر بالناس ، فتزعم الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يأمر بذلك ، وأنه إمتا صلى بالناس عن أمر عائشة ابنته ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج متحاملاً وهو مثقل ، فنحاه عن المحراب . وزعم معظم المحدثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله . وقوله ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : نحاه وصلى هو بالناس ، ومنهم من قال : بل ائتم بأبي بكر كسائر الناس ، ومنهم

من قال : كان الناس يصلّون بصلاة أبي بكر ، وأبو بكر يصلّي بصلاة رسول الله صلى عليه وآله .

ثم كان منها في أمر عثمان ، وتضريب الناس عليه ، ما قد ذكرناه في مواضعه ، ثم تلا ذلك يوم الجمل .

واختلف المتكلمون في حالها وحال مَنْ حضر واقعة الجمل ، فقالت الإمامية : كَفَرَ أصحابُ الجمل كلُّهم ؛ الرؤساء والأتباع . وقال قوم من الحشوية والعمامة : اجتهدوا فلا إثم عليهم ، ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ عليّ عليه السلام وأصحابه .

وقال قوم من هؤلاء : بل نقول : أصحاب الجمل أخطئوا ، ولكنه خطأ مغفور ، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند مَنْ قال بالأشبه ؛ وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية .

وقال أصحابنا المعتزلة : كلُّ أهلِ الجمل هالكون إلا مَنْ ثبتت توبته منهم ، قالوا : وعائشة ممن ثبتت توبتها ، وكذلك طلحة والزبير ، أما عائشة فإنها اعترفت لعليّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ ، وسألته العفو ، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم ، وأنها كانت تقول : ليتّه كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة ، كلُّهم مثل عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام - وشككتهم - ولم يكن يومُ الجمل ! وأنها كانت تقول : ليتني ميتٌ قبل يوم الجمل ، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبل خمارها . وأما الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ لما أذكره على عليه السلام ما أذكره . وأما طلحة فإنه مرّ به - وهو صريع - فارس ، فقال له : قف ، فوقف ، قال : من أيّ الفريقين أنت ؟ قال : من أصحاب أمير المؤمنين ، قال : أقعدني ، فأقعده ، فقال : امدُ يدك أبايُك لأمير المؤمنين ، فبايعه .

وقال شيوخنا : ليس لقائل أن يقول : ما يروى من أخبار الآحاد بتوبتهم لا يعارض
ما علم قطعا من معصيتهم . قالوا : لأن التوبة إنما يحكم بها للمكلف على غالب الظن في جميع
المواضع ، لا على القطع ، ألا ترى أنا نجتوز أن يكون من أظهر التوبة منافقا وكاذبا ، فبان
أن المرجع في قبولها في كل موضع إنما هو إلى الظن ، فجاز أن يعارض ما علم من
معصيتهم بما يظن من توبتهم .

(٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة :

وَجَزَاكُمْ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ
بِطَاعَتِهِ ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ .

الشرح :

موضع قوله : « من أهل مصر » نصب على التمييز ، ويجوز أن يكون حالا .

فإن قلت : كيف يكون تمييزا وتقديره : وجزاكم الله متمدين أحسن ما يجزي المطيع ؛
والتمييز لا يكون إلا جامداً ، وهذا مشتقاً !

قلت : إنهم أجازوا كون التمييز مشتقاً في نحو قولهم : « ما أنت جارة » ، وقولهم :
« يا سيداً ما أنت من سيد » .

وما ، يجوز أن تكون مصدرية ، أي أحسن جزاء العاملين ، ويجوز أن تكون بمعنى
الذي ، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول ، وتقديره أحسن الذي يجزي به العاملين .

الأصل :

ومنه كتاب له عليه السلام لشريح به الحارث قاضيه :

وروي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً ؛ فبلغه ذلك ، فاستدعى شريحاً ، وقال له : بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً ، وكتبت لها كتاباً ، وأشهدت فيه شهوداً . فقال له شريح : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، قال : فنظر إليه نظر الغضب ، ثم قال له :

يا شريح ، أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ، ولا يسألك عن بينتك ، حتى يخرجك منها شاخصاً ، ويسلمك إلى قبرك خالصاً . فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك ، أو نقدت الثمن من غير حلالك ؛ فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة .

أما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت ، لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة ، فلم ترغب في شراء هذه الدار بالدرهم^(١) فما فوق ، والنسخة هذه : « هذا ما اشترى عبد ذليل ، من مئة قد أزعج للرحيل . اشترى منه داراً من دار الغرور ، من جانب الفانين ، وخطة الهالكين . وتجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات ، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات ؛ والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي ، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي . وفيه يشرع باب هذه الدار . اشترى هذا المغتر بالأمل ، من هذا

(١) مخطوطة النهج : « بدرهم » .

المزَعَجِ بِالْأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقِنَاعَةِ ، والدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ
وَالضَّرَاعَةِ ؛ فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ . فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ
الْمُلُوكِ ، وَسَالِبِ نَفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفِرَاعِنَةِ ، مِثْلِ كِشْرَى وَقَيْصَرَ ، وَتَبَعِ
وَهِمِرَ ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَكَثُرَ ، وَمَنْ بَنَى وَشَيْدَ ، وَزَخَرَفَ وَتَجَدَّ ،
وَأَدْخَرَ وَاعْتَقَدَ ، وَنَظَرَ بِرِئْمِهِ لِلْوَلَدِ - إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعًا إِلَى مَوْقِفِ الْعَرُضِ وَالْحِسَابِ ،
النَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَمَوْضِعِ إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ ، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبِطُلُونَ ﴾ .
شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مَنْ أَسْرَ الْهَوَى ، وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا .

الشُّرَيْحُ :

[نسب شريح وذكر بعض أخباره]

هو شريح بن الحارث بن المنتجع بن معاوية بن جهنم بن ثور بن عفير^(١) بن عدى
ابن الحارث بن مرة بن أدد الكندي ؛ وقيل إنه حليف لكندة من بني الرائش .
وقال ابن الكلبي : ليس اسم أبيه الحارث ، وإنما هو شريح بن معاوية
ابن ثور .

وقال قوم : هو شريح بن هاني .

وقال قوم : هو شريح بن شرّاحيل . والصحيح أنه شريح بن الحارث ، ويكنى
أبا أمية . استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة ، فلم يزل قاضيا ستين سنة ، لم يتعطل
فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ؛ امتنع فيها من القضاء ، ثم استعفى الحجاج من

(١) ب : « عقر » ، والصواب ما أنبته من الاستيعاب .

العمل فأعفاه ، فلزم منزله إلى أن مات ، وعمر عمراً طويلاً ، قيل : إنه عاش مائة سنة
وثمانيا وستين ، وقيل مائة سنة ، وتوفي سنة سبع وثمانين .

وكان خفيف الروح ، مزاحاً ، فقدم إليه رجلان فأقر أحدهما بما ادعى به خصمه ،
وهو لا يعلم ففضى عليه ، فقال لشريح : مَنْ شهد عندك بهذا ؟ قال : ابن أخت خالك .
وقيل : إنه جاءته امرأته تبكي وتنظّم على خصمها ، فارق لها حتى قال له إنسان
كان بحضرته : ألا تنظر أيها القاضي إلى بكاؤها ! فقال : إن إخوة يوسف جاءوا أباهم
عشاء يبكون .

وأقر على عليه السلام شريحاً على القضاء ، مع مخالفته له في مسائل كثيرة من الفقه
مذكورة في كتب الفقهاء .

واستأذنه شريح وغيره من قضاة عثمان في القضاء أول ما وقعت الفرقة ، فقال :
أقضوا كما كنتم تقضون حتى تكون للناس جماعة ، أو أموت كما مات أصحابي .

وسخط على عليه السلام مرة عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء ،
وأمره بالمقام ببانقيا - وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنها اليهود - فأقام بها
مدة ، حتى رضى عنه وأعادته إلى الكوفة .

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " : أدرك شريح الجاهلية ،
ولا يعد من الصحابة ، بل من التابعين ، وكان شاعراً محسناً ، وكان سناطاً لاشعر
في وجهه (١) .

قوله عليه السلام : « وَخِطَّةُ الظَّالِمِينَ » بكسر الخاء ، وهي الأرض التي يختطها الإنسان ،

(١) الاستيعاب ٥٩٠ ، وذكر أنه توفي سنة سبع وثمانين وهو ابن مائة سنة ؛ وولى القضاء ستين
سنة من زمن عمر إلى زمن عبد الملك بن مروان .

أى يُعَلِّمُ عليها علامة بِالخَطِّ ليعمرها ؛ ومنه خطط الكوفة والبصرة .
وزخرف البناء ، أى ذهب جدرانها بالزخرف ، وهو الذهب .

ونجد : فرش المنزل بالوسائد ، والنجداد : الذى يعالج الفرش والوسائد ويحيطهما ، والتنجيد :
التزيين بذلك ، ويجوز أن يريد بقوله : « نجد » رفع وعلا ، من النجد ، وهو المرتفع
من الأرض .

واعتقد : جعل لنفسه عقدة كالضيعة أو الذخيرة من المال الصامت .

« وإشخاصهم » مرفوع بالابتداء وخبره الجار المجرور المقدم ، وهو قوله : « فعلى
مبيلل أجسام الملوك » ، وموضع الاستحسان من هذا الفصل - وإن كان كله حسناً - أمران :
أحدهما : أنه عليه السلام نظر إليه نظر مغضب ؛ إنكارا لابتياعه داراً بثمانين ديناراً ،
وهذا يدل على زهد شديد في الدنيا واستكثار للقليل منها ، ونسبه هذا المشتري إلى الأسراف ،
وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام .

الثانى : أنه أملى عليه كتاباً زهدياً وعظيماً ، مماثلاً لكتب الشروط التى تكتب فى
إبتىاع الأملاك ، فإنهم يكتبون : « هذا ما اشترى فلان من فلان ، اشترى منه داراً من
شارع كذا وخطه كذا ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة ، فحد منها ينتهى إلى دار فلان ، وحد آخر
ينتهى إلى ملك فلان ، وحد آخر ينتهى إلى ما كان يعرف بفلان ، وهو الآن معروف
بفلان ، وحد آخر ينتهى إلى كذا . ومنه شروع باب هذه الدار ، وطريقها : « اشترى هذا
المشتري المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا ديناراً ،
أودرها ؛ فما أدرك المشتري المذكور من درك فرجوع به على من يوجب الشرع
الرجوع به عليه » . ثم تكتب الشهود فى آخر الكتاب . شهد فلان ابن فلان بذلك ،
وشهد فلان ابن فلان به أيضاً ؛ وهذا يدل على أن الشروط المكتوبة الآن قد كانت

في زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها ؛ إلا أنا ما سمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط
الفقهية إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام ، ولا غزو فما زال سباقاً إلى
العجائب والفرائب !

فإن قلت : لم جعل الشيطان المغوى في الحدّ الرابع ؟

قلت : ليقول : وفيه يشرع باب هذه الدار ، لأنه إذا كان الحدّ إليه ينتهي كان
أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال .

(٤)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه :

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ ، فَذَلِكَ الَّذِي نُحِبُّ ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ
إِلَى الشَّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَاسْتَعْنِ بِمَنْ أَنْقَادَ مَعَكَ ،
عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ ؛ فَإِنَّ الْمَتَكَارَةَ مَغْيِبُهُ خَيْرٌ مِّنْ مَّشْهَدِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى
مِنْ نُّهُوضِهِ .

الشرح :

انهد : أى انهض . وتقاعس ، أى أبطأ وتأخر .

والمتكاره : الذى يخرج إلى الجهاد من غير تيقن وبصيرة ، وإنما يخرج كارها مرتابا ،
ومثل قوله عليه السلام : « فَإِنَّ الْمَتَكَارَةَ مَغْيِبُهُ خَيْرٌ مِّنْ مَّشْهَدِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِّنْ
نُّهُوضِهِ » قوله تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾^(١) .

الأضل :

ومن كتاب له غلبه السلام إلى الأشعث بن قيس ، وهو عامل أذربيجان :
 وَإِنْ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ ، وَاسْكِنَهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةً ، وَأَنْتَ مُسْتَرَعَى لِمَنْ
 فَوْقَكَ ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَبِيْقَةٍ ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ
 مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنْتَ مِنْ خَزَائِنِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَى ، وَلَعَلِّي أَلَا أُكُونَ شَرًّا
 وَوَلَاتِكَ لَكَ . وَالسَّلَامُ .

الشَّيْخُ :

قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم .
 وأذربيجان : اسم أعجمي غير مصروف ، الألف مقصورة ، والذال ساكنة . قال
 حبيب :

وأذربيجان احتيال ، بعد ما كانت معرَّس عِبرَة ونكال^(١)

وقال الشماخ :

تَذَكَّرْتُهَا وَهَنًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا قُرَى أذْرَبِيْجَانَ الْمَسَالِحُ وَالْجَالُ

والنسبة إليه أذرى بسكون الذال ، هكذا القياس ، ولكن المروى عن أبي بكر
 في الكلام الذي قاله عند موته : « ولتألمن النّوم على الصّوف الأذرى » بفتح الذال .
 والطّعمة بضم الطاء المهملة : المأكلة ، ويقال : فلان خيىث الطعمة ، أى ردى الكسب .
 والطّعمة بالكسر لهيئة التطعم ، يقول : إن عمّلك لم يسوّغه الشرع ، والوالى من قبلى إياه ؛

(١) ديوانه ٢٦٠

ولا جملة لك أ كلاً؛ ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين ، وفوقك سلطان أنت له رعية
فليس لك أن تفتت في الرعية الذين تحت يدك ، يقال : افتت فلان على فلان ، إذا فعل
بغير إذنه ما سبيله أن يستأذنه فيه ، وأصله من الفتوت وهو السبق ، كأنه سبقه إلى ذلك الأمر .
وقوله : « ولا تخاطروا إلا بوثيقة » ، أى لا تقدم على أمرٍ تخوف فيما يتعلق بالمال
الذى تتولاه إلا بعد أن تتوثق لنفسك ، يقال : أخذ فلان بالوثيقة في أمره ، أى احتاط .
ثم قال له : « ولعلى لا أكون شرّاً ولانك » ، وهو كلام يطيب به نفسه ويسكن به
جأشه ، لأن في أول الكلام إيماءاً له ، إذ كانت ألفاظه تدل على أنه لم يره أميناً على المال ،
فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة ، أى ربما تحمد خلافتي وولايتي عليك ، وتصادف مني
إحساناً إليك ، أى عسى ألا يكون شكرك لعثمان ومن قبله أكثر من شكرك لى ،
وهذا من باب وعدك الخفي ، وتسميه العرب الملت .

وأول هذا الكتاب :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس . أما بعد ، فلولا هَنَات
وهَنَات كانت منك ، كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس ، ولعلّ أمراً كان يحمل بعضه
بعضاً إن اتقى الله عزّ وجلّ ، وقد كان من بيعة الناس إيتاى ما قد علمت ، وكان من أمر
طلحة والزبير ما قد بلغك ، فخرجت إليهما ، فأبلغت في الدعاء ، وأحسنيت في البقية ،
وإن عملك ليس لك بطعمة ... » ، إلى آخر الكلام ، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث
ابن قيس ، بعد انقضاء الجمل .

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ،
فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ ، فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا ، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ
أَمْرِهِمْ خَارِجٌ يَطْعَنُ أَوْ يَدْعُو رَدُّهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى .

وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةَ ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ ، لَتَجِدَنِي أَيْبَرُ النَّاسِ
مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عِزْلَةٍ عَنْهُ ، إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّبَنِي ؛ فَتَجَنَّبَنَّ
مَا بَدَأَ لَكَ ! وَالسَّلَامُ .

الْبَيْعُ :

قد تقدم ذكر هذا الكلام في أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام
معاوية بجزير بن عبد الله البجلي ، وقد ذكره أرباب السيرة كلهم ، وأورده شيوخنا
المتكلمون في كتبهم احتجاجا على صحة الاختيار ، وكونه طريقا إلى الإمامة ،
وأول الكتاب :

« أما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا . . » ،
إلى آخر الفصل .

والمشهور المرويّ : « فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن أو رغبة » ، أى رغبة عن ذلك الإمام الذى وقع الاختيار له .

والررويّ بعد قوله : « وآله الله بعدما تولى » : « وأصله جهنمّ وساءت مصيرا . وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضاً بيعتى ، فكان نقضهما كرهتهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحبّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكرهت في قتل عثمان ، فادخل فيما دخل الناس فيه ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التي تريدها فخذعة الصبيّ عن اللبن ، ولعمريّ يامعاوية إن نظرت بعقلك . . . » إلى آخر الكلام .

وبعده : « واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرض بهم الشورى ، وقد أرسلتُ إليك جرير بن عبد الله البجليّ ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله » .

واعلم أنّ هذا الفصل دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقا إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلمون ، لأنه احتجّ على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعقد له ، ولم يراع في ذلك إجماع المسلمين كلّهم ، وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقد لأبي بكر ، فإنه ما رويّ فيها إجماع المسلمين ، لأنّ سعد بن عبادة لم يبايع ، ولا أحدٌ من أهل بيته وولده ، ولأنّ عليّاً وبنى هاشم ومن انصوى إليهم لم يبايعوا في مبدأ الأمر ، وامتنعوا ؛ ولم يتوقف المسلمون في تصحيح إمامة أبي بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم ، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقا إلى الإمامة ، وأنه لا يقدر في إمامته عليه السلام امتناع معاوية من البيعة وأهل الشام ؛ فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقيّة ، وتقول : إنه ما كان يمكنه

أن يصرّح معاوية في مكتوبه بباطن الحال ، ويقول له : أنا منصوص على من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفةً فيهم بلا فصل ، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدّمين ، وتفسد حاله مع الذين يبعوه من أهل المدينة ؛ وهذا القول من الإمامية دعوى لو عضّدها دليل لوجب أن يقال بها ، ويصار إليها ؛ ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأصول التي تسوقهم إلى تحمّل هذا الكلام على التقية .

فأما قوله عليه السلام : « وقد أكرت في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى أحلك وإياهم على كتاب الله » ، فيجب أن يذكر في شرحه ما يقول المتكلمون في هذه الواقعة .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : هذا الكلام حقّ وصواب ، لأن أولياء الدم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته ، ثم يرفعوا خصومهم إليه ، فإن حَكَمَ بالحقّ استديمت إمامته ، وإن حادّ عن الحقّ انقضت خلافته ، وأولياء عثمان الذين هم بنوه لم يبايعوا عليّاً عليه السلام ، ولا دخلوا تحت طاعته ثمّ ، وكذلك معاوية ابن عمّ عثمان لم يبايع ولا أطاع ؛ فطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان .

فإن قلت : هب أن القصاص من قتلة عثمان موقوف على ما ذكره عليه السلام ؛ أما كان يجب عليه لامن طريق القصاص أن ينهى عن المنكر ! وأتمّ تذهبون إلى أن النهي عن المنكر واجب على من هو سؤفة ، فكيف على الإمام الأعظم !

قلت : هذا غير وارد ها هنا ، لأنّ النهي عن المنكر إنّما يجب قبل وقوع المنكر ، لكيلا يقع ، فإذا وقع المنكر ، فأىّ نهى يكونُ عنه ! وقد نهى على عليه السلام أهل مصر وغيرهم عن قتل عثمان قبل قتله سرازا ، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغنِ

شيئاً ، وتفانم الأمر حتى قُتِل ؛ ولا يجب بعد القتل إلا القصاص ، فإذا امتنع أولياءه
الدم من طاعة الإمام لم يجب عليه أن يقتص من القاتلين ، لأن القصاص حقهم ، وقد
سقط بينهم على الإمام وخروجهم عن طاعته . وقد قلنا نحن فيما تقدم : إن القصاص
إنما يجب على مَنْ باشر القتل ؛ والذين باشروا قتل عثمان قتلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان ،
والذين كان معاوية يطالبهم بدم عثمان لم يباشروا القتل ، وإنما كثروا السواد وحصروا
عثمان في الدار ، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعده ، ومنهم مَنْ تسور عليه داره ولم ينزل
إليه ، ومنهم مَنْ نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه ، وكل هؤلاء لا يجب عليهم
القصاص في الشرع .

[جرير بن عبد الله البجلي عند معاوية]

وقد ذكرنا فيما تقدم شرح حال جرير بن عبد الله البجلي في إرساله على عليه السلام
إتيانه إلى معاوية مستقصي . وذكر الزبير بن بكار في "الموفقيات" ، أن عليا عليه السلام
لما بعث جريرا إلى معاوية ، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه ، قال : فقدمت على
معاوية فوجدته يخطب الناس وهم حوله يبكون حول قميص عثمان وهو معلق على رُمح
مخضوب بالدم ؛ وعليه أصابع زوجته نائلة بنت الفرافصة مقطوعة ، فدفعت إليه كتاب
علي عليه السلام ، وكان معي في الطريق رجل يسير بسيري ، ويقم بمقامي ، فمُثل بين
يديه في تلك الحال وأنشده :

إن بني عمك عبد المطلب هم قتلوا شيخكم غير كذب

* وأنت أولى الناس بالوثب فثب *

وقد ذكرنا تمام هذه الأبيات فيما تقدم .

قال ثم دفع إليه كتابا من الوليد بن عتبة بن أبي معيط ؛ وهو أخو عثمان لأمه ،
كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سرا أوله :

* معاويَ إنَّ الملكَ قد جُبَّ غَارُبهُ *

الآيات التي ذكرنا فيما تقدم .

قال : فقال لي معاوية : أقم فإنَّ الناس قد نفروا عند قتل عثمان حتى يسكنوا .
فأقت أربعة أشهر ، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عتبة ، أوله :

ألا أبلغ معاوية بنَ حَرْبٍ فإنَّك من أخِي ثقةٍ مُلِيمٍ^(١)
قَطَعْتَ الدَّهْرَ كَالسَّدِيمِ المَعْنَى تهدر في دمشق ولا تريمٍ^(٢)
وإنَّك والكتابَ إلى عليٍّ كدأبغةٍ وقد حلِم الأديم^(٣)
فلو كنتَ القتييلَ وكانَ حيًّا لشمرَ لا ألفٌ ولا سَومٍ^(٤)

قال : فلما جاءه هذا الكتاب وصل بين طومارين^(٥) أبيضين ، ثم طواها
وكتب عنوانهما .

(١) الليم : من وقع منه ما يلام عليه .

(٢) السدم في الأصل : الذي يرغب عن غلته ، فيحال بينه وبين الآفة ؛ والبيت في اللسان ١٥ : ١٧٦

(٣) يقول : أنت تسمى في إصلاح أمر قد تم فساده كالمرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلة
(وهي دودة) فنقته وأفسدته فلا ينفع به . وقد وردت الأربعة في اللسان (حلم) ، وذكر بعدها :

لَكَ أَوْلِيَّاتٌ أَقْحَمَهَا عَلَيْهِمْ فَخَيْرُ الطَّالِبِي التَّرَةِ الْعَشُومُ
فَقَوْمُكَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ تَرَدَّوْا فَهَمُّ صَرَغِي كَأَنَّهِنَّ الْهَشِيمُ

(٤) رواية هذا البيت في اللسان :

فَلَوْ كُنْتَ الْمُصَابَ وَكَانَ حَيًّا تَجَرَّدَ ، لا ألفٌ ولا سَومُ

(٥) الطومار : الصحيفة .

« من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب » .

ودفعهما إلى ، لا أعلم ما فيهما ، ولا أظنهما إلا جواباً ، وبعث معي رجلاً من بني عَبَسَ لا أدرى مامعه ، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة ، واجتمع الناس في المسجد ، لا يشكُّون أنها بيعة أهل الشام ؛ فلما فتح علي عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً ، وقام العباسي ، فقال : مَنْ هاهنا من أحياء قيس ، وأخص من قيس غطفان ، وأخص من غطفان عَبَسَا ؟ إني أحلف بالله لقد تركت تحت قبيص عثمان أكثر من خمسين ألف شيخ خاضعي لحاهم بدموع أعينهم ، متعاقدين متحالفين ، ليقْتُلن قَتَلته في البر والبحر ، وإني أحلف بالله ليقْتَحِمَنَّها عليكم ابنُ أبي سفيان بأكثر من أربعين ألفاً من خِصيان الخليل ، فما ظنكم بعد بما فيها من الفحول . ثم دفع إلى علي عليه السلام كتاباً من معاوية ففتحه فوجد فيه :

أتاني أمرٌ فيه للنفس نعمةٌ وفيه اجتداعٌ للأنوف أصيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وهدةٌ تكادُ لها صمُّ الجبالِ تزولُ
وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

(٧)

الأصل :

ومن كتاب من عليه السلام إليه أيضا :

أَمَا بَعْدُ فَقَدْ أَتَنَّبَنِي مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ، وَرِسَالَةٌ مُخَبَّرَةٌ ، تَمَقَّتْهَا بِضَالَلِكَ ، وَأَمَضَّيْتَهَا
بِسُوءِ رَأْيِكَ . وَكِتَابٌ أَمْرِي لَيْدَسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ ، قَدْ دَعَاهُ
الْهُوَى فَاَجَابَهُ ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ ، فَهَجَرَ لَا غَطَاءَ ، وَضَلَّ خَابِطًا .

الشرح :

موعظة موصلة ، أى مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا ، وذلك عيب فى الكتابة
والخطابة ، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً ، أو يروى فيأتى بالبديع المستحسن
وهو فى الحالين كلاهما يُنفق من كَيْسِهِ ، ولا يستعير كلامَ غيره .

والرسالة المخبرة : المزيّنة الألفاظ ؛ كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها
أثر التكلف والتصنع .

والتنميق : التزيين أيضاً .

وهجر الرجل ، أى هذى ، ومنه قوله تعالى فى أحد التفسيرين : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا
هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (١) .

واللأغظ : ذو اللغظ ، وهو الصوت والجلبة .

وخبط البعير فهو خابط ، إذا مشى ضالاً فخبط بيديه كل ما يلقاه ،
لا يتوقى شيئاً .

وهذا الكتاب كتبه علي عليه السلام جواباً عن كتاب كتبه معاوية إليه في أثناء
حرب صفين بل في أواخرها ، وكان كتاب معاوية :

« من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، أما بعد ، فإن
الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ
أَشْرَكَتَ لَيْحَبْطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِصِينَ ﴾ ^(١) ، وإنى أحذرك الله أن
تجبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها ، فاتق الله واذكر موقف
القيامة ، وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين ، وإنى سمعت رسول الله
صلى الله عليه وآله يقول : « لو تمألاً أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين
لأكتبهم الله على مناخرهم في النار » ، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات
المهاجرين ، بله ما طحنت راحاً حربيه من أهل القرآن ، وذى العبادة والإيمان ، من شيخ
كبير ، وشاب غرير ، كلهم بالله تعالى مؤمن ، وله مخلص ، ورسوله مقرر عارف ! فإن كنت
أبا حسن إنما تحارب على الإمرة والخلافة ، فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريباً
من أن تعذر في حرب المسلمين ، ولكنها ما صحت لك ؛ أنى بصحتها وأهل الشام لم
يدخلوا فيها ، ولم يرتضوا بها ! وخف الله وسطواته ، واتق بأسه ، ونكاله ، وأحمد سيفك
عن الناس ، فقد والله أكلتهم الحرب ، فلم يبق منهم إلا كالثمد في قرارة الغدير
والله المستعان .»

فكتب علي عليه السلام إليه جواباً عن كتابه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان : « أما بعد فقد أتتني منك موعظةٌ موصلة ، ورسالةٌ محببة ، نمتها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك ، وكتاب امرئ ليس له بصيرٌ يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فاتبعه ، فهجر لاغطاً ، وضلّ خابطاً ، فأما أمرُك لي بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها ، وأستعيز بالله من أن أكون من الذين إذا أمرُوا بها أخذتهم العزة بالإثم . وأما تحذيرُك إيتاي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام ، فلمعمرى لو كنتُ الباغى عليك ، لكان لك أن تحذرنى ذلك ، ولكنى وجدت الله تعالى يقول : ﴿ فَقَاتِلُوا آلَ ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ فَإِنَّ سَفْيَانَ كَانَ فِي الْكُفْرِ شَرًّا لَكُمْ مِنْ سَفْيَانَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (١) ، فنظرنا إلى الفئتين ، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها ، لأن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، كما لزمك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام ، وكما لزمك يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام . وأما شق عصا هذه الأمة ، فأنا أحق أن أنهك عنه . فأما تخويفك لي من قتل أهل البني ، فإن رسول الله صلى عليه وآله أمرني بقتالهم وقتلهم ، وقال لأصحابه : « إن فيكم من يقاتل عليّ تأويل القرآن كما فانت على تنزيله » ، وأشار إليّ وأنا أولي من اتبع أمره .

وأما قولك : إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها ! كيف وإنما هي بيعة واحدة ، تلزم الحاضر والغائب ، لا يُبَيِّنُ فيها النظر ، ولا يستأنف فيها الخيار ، الخارج منها طاعنٌ ، والمرؤى فيها مُداهن . فاربِعٌ على ظلمك ، وانزع سربال غيِّك ، واترك مالا جدوى له عليك ، فليس لك عندي إلا السيف ، حتى تنفيء إلى أمر الله صاغراً ، وتدخل في البيعة راغماً . والسلام .

الأصل :

ومن هذا الكتاب :

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُتَنَّى فِيهَا النَّظَرُ ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ ، ائْتِجَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ ، وَالْمَرْوَى فِيهَا مُدَاهِنٌ .

الشرح :

لا يتنى فيها النظر ، أى لا يعاود ولا يراجع ثانية . ولا يستأنف فيها الخيار : ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم ، لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين ، فيسقط الخيار فيها ، الخارج منها طاعن على الأمة ، لأنهم أجمعوا على أن الاختيار طريق الإمامة . والمروى فيها مداهن ، أى الذى يرتنى ويبطىء عن الطاعة ويفسكّر ، وأصله هـن الروية ، والمداهن : المنافق .

(٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسده إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ ،
ثُمَّ خَيْرُهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِّيَةٍ ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ ، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَأَنْبِذْ إِلَيْهِ ،
وَإِنْ اخْتَارَ السَّلْمَ فَخُذْ بَبِعْتَهُ . وَالسَّلَامُ .

الشَّيْخُ :

قد تقدم ذكر نسب جرير بن عبد الله البجلي .

وقوله عليه السلام : « فاحمل معاوية على الفصل » ، أى لا تتركه متلكننا مترددا ،
يَطْعَمُكَ تَارَةً وَيُؤْيِسُكَ أُخْرَى ، بل احمله على أمر فيصّل ، إمّا البيعة ، أو أن
يأذن بالحرب .

وكذلك قوله : « وخذه بالأمر الجزم » ، أى الأمر المقطوع به ، لا تكن ممن يُقَدِّمُ
رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى ، وأصل الجزم القطع .

وحرب مُجَلِّيَّة : مُجَلِّي المَقْهُورِينَ فِيهَا عَنْ دِيَارِهِمْ ، أى تُخْرِجُهُمْ .

وسِلْمٍ مُخْزِيَةٍ ، أى فاضحة ؛ وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولا من البيعة ؛
فإذا دخل في السِّلْمِ فإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيهَا بِالْبَيْعَةِ ، وإذا بايع بعد الامتناع ؛ فقد دخل تحت
الهِضْمِ وَرَضِيَ بِالضَّمِّ ؛ وذلك هو الخِزْيُ .

قوله « فَاَنْبِذْ اِلَيْهِ » من قوله تعالى: ﴿ فَاَنْبِذْ اِلَيْهِمْ كُلِّي سِوَاةٍ ﴾^(١) وأصله العهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين ، ثم يبدولها في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدهما إلى الآخر عهده ، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدهما يوم الحرب وأبطله ، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة ، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا ، وَأَجْتِيَاحَ أَصْلِنَا ، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ ، وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ ،
وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ ، وَأَضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَغَيْرِ ، وَأَوْقَدُوا لَنَا
نَارَ الْحَرْبِ .

فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الْأَذْبِ عَنِ حَوَزَتِهِ ، وَالرَّمِي مِنْ وَرَاءِ حَوْمَتِهِ ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي
بِذَلِكَ الْأَجْرَ ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوًا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ
يَحِلْفُ يَمْنَعُهُ ، أَوْ عَشِيرَةَ تَقُومُ دُونَهُ ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمِنٍ .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ ، قَدَّمَ
أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَ يَمِينِ أَصْحَابِهِ حَرَ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْأُخَارِثِ يَوْمَ
بَدْرٍ ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُوتَنَةَ ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ
أَسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَلَكِنَّ أَجَالَهُمْ عَجَلَتْ ، وَمَنِيتُهُ أُخْرَتْ .

فِيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَا بَقِي
الَّتِي لَا يُدْنِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا ، إِلَّا أَنْ يَدْعِيَ مُدْعٍ مَالًا أَعْرِفُهُ ، وَلَا أُظْنُ اللَّهَ يَعْرِفُهُ .
وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ
أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنِّي وَشِقَاقِكَ ،
لَتَعْرِفَهُمْ عَن قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ ، وَلَا جَبَلٍ

وَلَا سَهْلٌ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبُ يَسُوكَ وَجِدَانَهُ ، وَزَوْزٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ .
وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

الشَّيْخُ :

قوله عليه السلام : « فأراد قومنا » ، يعنى قريشا .
والاجتياح : الاستئصال ، ومنه الجائحة وهى السنّة ، أو الفتنة التى تجتاح المال
أو الأنفس .

قوله : « ومنعونا العذب » ، أى العيش العذب . لا أنهم منعوا الماء العذب ، على
أنه قد نقل أنهم منعوا أيام الحصار فى شُعب بنى هاشم من الماء العذب .
وسنذكر ذلك .

قوله : « وأحلسونا الخوف » ، أى ألزموناه . والحلس : كساء رقيق يكون تحت
برذعة البعير .

وأحلاس البيوت : ما يبسط تحت حُرِّ الثياب ، وفى الحديث : « كن حلس بيتك » ،
أى لا تتخالط الناس واعتزل عنهم ، فلما كان الحلس ملازماً ظهر البعير ، وأحلاس البيوت
ملازمة لها ، قال : « وأحلسونا الخوف » ؛ أى جعلوه لنا كالحلس للملازم .

قوله : « واضطرونا إلى جبل وعر » ، مثل ضربته عليه السلام لخشونة مقامهم
وشظف منزلهم ، أى كانت حالنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وعر ، ويجوز
أن يكون حقيقة لا مثلاً ، لأن الشعب الذى حصروهم فيه مضيق بين جبلين .

قوله : « فعزم الله لنا » ، أى قضى الله لنا ، ووقفنا لذلك ، وجعلنا عازمين عليه .
والحوزة : الناحية ، وحوزة الملك : بيضته .

وحومة للماء والرمل : معظمه .

والرمى عنها : المناضلة والحمامة ، ويروى : « والرمى من وراء حرمة » ، والضمير في « حوزته » و « حومته » راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وقد سبق ذكره ، وهو قوله : « نبينا » ، ويروى « والرّمياً » .

وقال الراوندى : « وهموا بنا المهموم » ، أى هموا نزولهم بنا ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وليس ما قاله بجيد بل « المهموم » منصوب هاهنا على المصدر ، أى هموا بنا هموماً كثيرة ، وهموا بنا أى أرادوا نهبنا ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِهَا ﴾^(١) ، على تفسير أصحابنا ، وإنما أدخل لام التعريف في المهموم ، أى هموا بنا تلك المهموم التي تعرفونها ، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر في الصدور من تنكيرها ، أى تلك المهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين في أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع .

وقوله : « وفعلوا بنا الأفاعيل » ، يقال لمن أثاروا آثاراً منكراً : فعلوا بنا الأفاعيل ، وقل أن يقال ذلك في غير الضرر والأذى ، ومنه قول أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف وهو يذكر حمزة بن عبد المطلب يوم بدر : « ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل » .

قوله : « يحامى عن الأصل » ، أى يدافع عن محمد ويذبُّ عنه حميةً ومحافظة على النسب .

قوله : « خِلُوْما نحن فيه » ، أى خال . والحلف : العهد .

واحمرّ البأس ، كلمة مستعارة ، أى اشتدّت الحرب حتى احمرّت الأرض من الدم ، فجعل البأس هو الأحمر مجازاً ، كقولهم : الموت الأحمر .

(١) سورة يوسف ٢٤ .

قوله : « وأحجم الناس » ، أى كَفُّوا عن الحرب وجَبُّنوا عن الإقدام ، يقال : حجمت فلانا عن كذا أحجمه بالضم ، فأحجم هو ، وهذه اللفظة من النوادر ، كقولهم : « كيبته فأكب » .

ويوم مؤتة بالهمز ، ومؤتة : أرض معروفة .

وقوله : « وأرادَ مَنْ لوشنتُ لذكرت اسمه » ، يعنى به نفسه .

قوله : « إذ صرتُ يقرنُ بى مَنْ لم يسعَ بقدى » إشارة إلى معاوية فى الظاهر ، وإلى مَنْ تقدّم عليه من الخلفاء فى الباطن ، والدليل عليه قوله : « التى لا يدلى أحدٌ بمنلها » ، فأطلق القول إطلاقاً عاماً مستغرقاً لكلّ الناس أجمعين .

ثم قال : « إلا أن يدعى مدعى مالا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه » ، أى كلّ من ادعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب ، لأنه لو كان صادقا لكان علىّ عليه السلام يعرفه لا محالة ، فإذا قال عن نفسه : إن كل دعوى تخالف ما ذكرت فإى لا أعرف صحتها ، فعناه أنها باطلة .

وقوله : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، فالظنّ هاهنا بمعنى العلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ (١) ، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) ، وليس المراد سلب العلم بل العلم بالسلب ، كذلك ليس مراده عليه السلام سلب الظنّ الذى هو بمعنى العلم ، بل ظنّ السلب ، أى علم السلب ، أى واعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه ، وكلّ ما يعلم الله انتفاءه فليس بثابت .

وقال الراوندى : قوله عليه السلام : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبِّئَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

(٢) سورة يونس ١٨

(١) سورة الكهف ٥٣

(٣) سورة محمد ٣١ .

والله يعلم كل شيء قبل وجوده ، وإنما معناه : حتى نعلم جهادهم موجودا ، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثالا لها ، ولكن الراوندى يتكلم بكل ما يخطر له من غير أن يميز ما يقول .

وتقول : أدلى فلان بحجته ، أى احتج بها ، وفلان مُدْلِ بِرَحْمِهِ ، أى مَتَّ بها . وأدلى بماله إلى الحاكم : دفعه إليه ليحمله وسيلة إلى قضاء حاجته منه ، فأما الشفاعة فلا يقال فيها : « أدليت » ، ولكن « دلوت بفلان » أى استشفعت به ، وقال عمر لما استسقى بالعباس رحمه الله : الليم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وفتية آبائه ، وكبير رجاله ، دلونا به إليك مستشفعين ^(١) .

قوله عليه السلام : « فلم أره يسعنى » ، أى لم أر أنه يحل لى دفعهم إليك . والضمير فى « أره » ضمير الشأن والقصة ، و « أره » من الرأى لا من الرؤية ، كقولك : لم أر الرأى الفلانى .

ونزع فلان عن كذا ، أى فارقه وتركه ، ينزع بالكسر ، والنى : الجهل والضلال . والشقاق : الخلاف .

والوجدان : مصدر وجدت كذا ، أى أصبته . والزور : الزائر .

واللقيان : مصدر لقيت ، تقول : لقيته لقاء ولقيانا .

ثم قال : « والسلام لأهله » لم يستجز فى الدين أن يقول له : « والسلام عليك » لأنه عنده فاسق لا يجوز إكرامه ، فقال : « والسلام لأهله » ، أى على أهله .

ويجب أن تتكلم فى هذا الفصل فى مواضع :

منها ذكر ماجاء فى السيرة من إجلاب قریش على رسول الله صلى الله عليه وآله وبني هاشم وحصرهم فى الشعب .

(١) الفائق ٢ : ٣٦٦ . قفية آبائه : تلوم . وكبر قومه أقدم فى النسب .

ومنها: الكلام في المؤمنين والكافرين من بني هاشم الذين كانوا في الشعب
محصورين معه صلى الله عليه وآله مَنْ هُمْ .

ومنها: شرح قصة بدر .

ومنها: شرح غزاة أُحُد .

ومنها: شرح غزاة مؤتة .

[إجلاب قریش علی بنی هاشم وحصرهم فی الشعب]

فأما الكلام في الفصل الأول فنذكر منه ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب
"السيرة"، والمغازي، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرخين، ومصنفه شيخ
الناس كلهم .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: لم يسبق عليا عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد
صلى الله عليه وآله أحد من الناس، اللهم إلا أن تكون خديجة زوجة رسول الله صلى الله
عليه وآله . قال: وقد كان صلى الله عليه وآله يخرج ومعه عليّ مستخفين من الناس،
فيصليان الصلوات في بعض شعاب مكة، فإذا أمسيا رجعا فمكثنا بذلك ماشاء الله أن
يمكثا، لا ثالث لهما . ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لمحمد صلى الله
عليه وآله: يا ابن أخي، ما هذا الذي تفعله! فقال: «أى عمّ هذا دين الله ودين ملائكته
ورسوله، ودين أئينا إبراهيم - أو كما قال عليه السلام - بعنى الله به رسولا إلى العباد،
وأنت أى عمّ أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجاوبني
إليه، وأعانتني عليه». أو كما قال . فقال أبو طالب: إني لا أستطيع يا ابن أخي أن أفارق

«دينى ودين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص^(١) إليك شئٌ تكسر به ما بقيتُ .
فرعموا^(٢) أنه قال لعلى : أى بنى ، ما هذا الذى تصنع ؟ قال : يا ابتاه ، آمنتُ بالله ورسوله
وصدقتهُ فيما جاء به ، وصليتُ إليه ، واتبعت قول نبيه . فرعموا أنه قال له : أما إنه لا
يدعوك - أولن يدعوك - إلا إلى خير ، فالزمه .

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان
أول من أسلم ، وصلى معه بعد على بن أبى طالب عليه السلام .

ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة ، فكان ثالثهما ، ثم أسلم عثمان بن عفان ، وطلحة ،
والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعد بن أبى وقاص ، فصاروا ثمانية ؛ فهم الثمانية الذين سبقوا الناس
إلى الإسلام بمكة ، ثم أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد
وأرقم بن أبى أرقم ، ثم انتشر الإسلام بمكة ، وفشا ذكره ، وتحدث الناس به ، وأمر الله
رسوله أن يصدع بما أمر به ، فكانت مدة إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه
وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين فيما بلغنى^(٣) .

قال محمد بن إسحاق : ولم تكن قريش تفكر أمره حينئذ كل الإنكار ، حتى
ذكر آلهتهم وعابها ، فأعظموا ذلك وأنكروه ، وأجمعوا على عداوته وخلافه ، وحذب عليه
عمه أبو طالب فمنعه ، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يردّه عنه شئٌ . قال : فلما
رأت قريش محاماة أبى طالب عنه وقيامه دونه ، وامتناعه من أن يسلمه ، مشى إليه رجالٌ
من أشرف قريش ؛ منهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ،
وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل عمرو بن هشام ،

(١) لا يخلص إليك بشئ : أى لا يوصل إليك ؛ يقال : خلصت إليه ، أى وصلت إليه .

(٢) فرعموا : سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٥

(٣) وذكروا «

والعاص بن وائل ، ونبیه ومنتبه ابنا الحجاج؛ وأمثالهم من رؤساء قریش . فقالوا: یاأبا طالب، إن ابن أخیک قد سب آلهتنا ، وطاب دیننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آراءنا؛ فإما أن تکفه عنا ، وإما أن تُخَلِّيَ بیننا وینه . فقال لهم أبو طالب قولاً رفیقاً ، وردّهم ردّاً جمیلاً ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسولُ الله صلی الله علیه وآله علی ما هو علیه ، بظهور دین الله ، ویدعو إليه ، ثم شرّق^(١) الأمرُ بینه و بینهم ، تباعداً وتضاعفاً^(٢) ، حتى أکثرت قریش ذکر رسول الله صلی الله علیه وآله بینها ، وتذا مروا فيه ، وحضّ بعضهم بعضاً علیه ، فمشوا إلى أبي طالب مرةً ثانية ، فقالوا : یاأبا طالب ، إن لك سنّاً وشرّاً ومنزلةً فینا ، وإنا قد استنهبناک من ابن أخیک فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر علی شتم آبائنا ، وتسفیه أحلامنا ، وعیب آلهتنا ، فإما أن تکفه عنا أو ننازله وإیاک^(٣) حتى یهلك أحدُ الفريقین . ثم انصرفوا ، فعظم علی أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم ، ولم تطب نفسه بإلام ابن أخیه لهم وخذلانه ، فبعث إليه فقال : یا بن أخی ، إن قومک قد جاءونی ، فقالوا لی کذا وکذا - للذی قالوا - فأبق علیّ وعلیّ نفسك ، ولا تحمّلنی من الأمر ما لا أطیقه . قال : فظن رسولُ الله صلی الله علیه وآله أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلبه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقیام دونه ، فقال : یاعم ، والله لو وضعوا الشمس فی یمینی والقمر فی شمالی علی أن أترك هذا الأمر ما ترکته حتى یظهره الله أو أهلك . ثم استعبر باکیاً وقام ، فلما ولی ناداه أبو طالب : أقبل یا بن أخی ، فأقبل راجعاً ، فقال له : اذهب یا بن أخی فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمک لشیء أبداً^(٤) .

(١) ابن هشام : « ثم شرى الأمر بینه و بینهم » ، قال أبو ذر : معناه « کثر وترايد » ، وأسله فی

البرق ، یقال : شرى البرق : اذا کثر لمعانه .

(٢) التضاضن : المعادة .

(٣) تنازله وإیاک : أى نماربکما .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ - ٢٧٨

قال ابن إسحاق: وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قریش من حربٍ به لما تمام بنصر
محمد صلى الله عليه وآله :

والله لن يَصِلُوا إليك بجمعهم^(١) حتى أوسدَ في الترابِ دفيناً^(١)
فانفذُ لأمرِك ما عليك مخافةً وابشروقرّ بذاك منه عيوننا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنه من خيرِ أديان البريةِ ديناً
لولا الملامةُ أو حذارى سببةً لوجدتني سمحاً بذاك مييناً

قال محمد بن إسحاق: ثم إن قریشا حين عرفت أن أبا طالب قد أباي خذلان
رسول الله صلى الله عليه وآله وإسلامه إليهم ورأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم، مشوا
إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان أجمل فتى في قریش - فقالوا له: يا أبا طالب،
هذا عمارة بن الوليد، أهبى^(٢) فتى في قریش وأجمله، نخذه إليك^(٣)، فاتخذوه ولداً فهو
لك، وأسلم لنا هذا ابن أخيك الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرقت جماعة قومك
لنقتله، فإتأما هو رجلٌ برجل. فقال أبو طالب! والله ما أنصفتموني^(٤)! تعطوني ابنكم
أغذوه لكم، وأعطيتكم ابني تقتلونه! هذا والله مالا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن
نوفل - وكان له صديقاً مصافياً - والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً! لعمري
قد جهدوا في التخلص مما تكره وأراك لا تُنصفهم! فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني
ولا أنصفتني؛ ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة^(٥) القوم علي! فاصنع
ما بدا لك^(٦)!

(٢) ابن هشام: «أنهد فتى» أي أشده وأقواه.

(١) ديوانه ١٧٦، ١٧٧.

(٣) ابن هشام: «نخذه فلك عقله ونصره».

(٤) ابن هشام: «والله لبئس ما تسوموني».

(٥) مظاهرة التوم، يريد إعانتهم. (٦) سيرة ابن هشام ١: ٢٧٥.

قال : فعند ذلك تنابذ القوم وصارت الأحقاد ، ونادى بعضهم بعضاً ، وتذامروا بينهم على من في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله . فوثبت كل قبيلة على من فيها منهم ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب ، وقام في بني هاشم وبني عبد المطلب حين رأى قریشاً تصنع ما تصنع ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى مادعاهم إليه من الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ما كان من أبي لهب ، فإنه لم يجتمع معهم على ذلك ، فكان أبو طالب يرسل إليه الأشعار ، ويناشده النصر ، منها القطعة التي أولها :

حديث عن أبي لهب أتانا وكانفه على ذاكم رجال

ومنها القطعة التي أولها :

أظننت عني قد خذات وغالني منك الغوائل بعد شيب المكبر

ومنها القطعة التي أولها :

تستعرض الأقبام توسعهم عذراً وما إن قلت من عذري

قال محمد بن إسحاق : فلم يؤثر عن أبي لهب خير قط إلا ما يروى أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ؛ لما وثب عليه قومه ليعذبوه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم ؛ فاستجار بأبي طالب ، وأم أبي طالب مخزومية ، وهي أم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وآله فأجاره ، فمشى إليه رجال من بني مخزوم ، وقالوا له : يا أبا طالب ، هبك منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ! قال : إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنالمت منع ابن أختي لم أمنع ابن أختي ؛ فارتفعت أصواتهم وأصواته ، فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها ، فقال : يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا

الشيخ ، لا تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه ! أما والله لتذنهن عنه أولنقومن معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أَرَادَ . فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة : فقاموا فانصرفوا ، وكان ولياً لهم ومعينا على رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي طالب ، فاتقوه وخافوا أن تحمله الحمية على الإسلام ، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال ، وأمل أن يقوم معه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال يجرّضه على ذلك :

وإن امرأ أبو عتبة عمّه
ولا تقبان الدهر ما عشت خطّة
أقول له وأين منه نصيحتي
وول سبيل العجز غـيرك منهم
وحارب فإن الحرب نصف وإن ترى
كذبتهم وبيت الله نبزى محمدا
وقال يخاطب أبا لهب أيضاً :

تجبت لحلم يا بن شيبه عازب
يقولون شايع من أراد محمدا
أضاميم إمام حاسد ذو خيانة
فلا تركبن الدهر منه ذمامة
ولا تتركنه ما حييت لمعظم
يدود العدا عن ذروة هاشمية
فإن له قرّبي لديك قريبة
ولكنه من هاشم ذي صميمها

وأحلام أقوام لديك يخاف^(٣)
بظلم وقم في أمره بخلاف
وإما قريب عنك غير مصاف
وأنت امرؤ من خير عبد مناف
وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف
إلافهم في الناس خير إلاف
وليس بذى حلف ولا بمضاف
إلى أبحر فوق البحور طواف

(٣) ديوانه : « أبا معتب » .

(٢) ديوانه ٩٠

(١) ديوانه ١٦٢ ، ١٦٣

وزاحم جميع الناس عنه وكن له وزيراً على الأعداء غير مجافٍ
وإن غضبت منه قريش فقل لها بنى عمنا ما قومكم بضفافٍ
وما بالكم تفشون منه ظلامَةً وما بال أحقادٍ هناك خوافي
فما قومنا بالقوم يخشون ظلمنا وما نحن فيما ساءم بخفافٍ
ولكننا أهل الحفاظ والنهي وعزّ ببطحاء المشاعر وافٍ

قال محمد بن إسحاق : فلما طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب ، وارتد كثير عن الدين باللسان لا بالقلب ، كانوا إذا عذبوهم يقولون : نشهد أن هذا الله ، وأن الآلات والعزى هي الآلهة ، فإذا خلوا عنهم عادوا إلى الإسلام ، فخبسوم وأوثقوم بالقد ، وجعلوهم في حرّ الشمس على الصخر والصفاء ، وامتدت أيام الشقاء عليهم ولم يصلوا إلى محمد صلى الله عليه وآله لقيام أبي طالب دونه ، فأجمعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بنى هاشم مميقةً يتعاقدون فيها ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ؛ فكتبوها وعلقوها في جوف الكعبة تا كيداً على أنفسهم ؛ وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي . فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطلب ، فدخلوا كلهم مع أبي طالب في الشعب ، فاجتمعوا إليه ، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهاها على قومه .

قال محمد بن إسحاق : فضاق الأمر بيني هاشم وهدموا القوت ، إلا ما كان يحمل إليهم سرّاً وخفية ؛ وهو شيء قليل لا يُنمّسك أرماقهم ، وأخافتهم قريش ؛ فلم يكن يظهر منهم أحدٌ ، ولا يدخل إليهم أحدٌ ، وذلك أشدّ مالتى رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بمكة .

قال محمد بن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ألا يصل إليهم

شيء إلا القليل سرّاً ممن يريد صلّتهم من قريش ؛ وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حَكِيم
ابن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّي ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة
بنت خويلد - وهي عند رسول الله محاصرة في الشعب - فتعلق به ، وقال : أتحمّل الطّعام إلى
بنّي هاشم ! والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ! فجاءه أبو البخترى العاص
ابن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّي ، فقال : مالك وله ! قال : إنه يحمل الطّعام
إلى بنّي هاشم ، فقال أبو البخترى : يا هذا ، إن طعاما كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ؛ أفتمنعه
أن يأتيها بطعامها ! خلّ سبيل الرّجل ، فأبى أبو جهل حتى نال كلّ منهما من صاحبه ،
فأخذ له أبو البخترى لحيّاً بعيرٍ فضر به به فشجّه ووطئه وطأ شديداً . فانصرف وهو يكره
أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو هاشم بذلك ، فيشتتوا ، فلما أراد الله تعالى من
إبطال الصّحيفة ، والفرّج عن بنّي هاشم من الضيق والأزّل الذي كانوا فيه ، قام هشام بن
عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي في ذلك
أحسن قيام ، وذلك أن أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضلة بن هاشم بن عبد مناف بن
قصي من أمه ، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلاً بيني هاشم ؛ وكان ذا شرفٍ
في قومه بنّي عامر بن لؤي ، فكان يأتي بالبعير ليلاً وقد أوقره طعاما ، وبنو هاشم
وبنو المطلب في الشعب ، حتى إذا أقبل به فم الشعب فمنع بخظامه من رأسه ، ثم يضربه
على جنبه ، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به مرّة أخرى ، وقد أوقره تمرّاً ، فيصنع به
مثل ذلك .

ثم إنّه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، فقال : يا زهير ، أَرْضَيْتَ أَنْ
تأكل الطّعام وتشرب الشراب وتلبس الثياب ، وتنسكح النّساء ؛ وأخوالك حيث قد
علت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينفكحون ولا ينفكح إليهم ، ولا يواصلون
ولا يزارون ! أما إنّي أحلف لو كان أخوالك أبو الحكم بن هشام ودعوته إلى مثل ما دعاك

إليه منهم ما أجابك أبدأ . قال : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ! إنما أنا رجلٌ واحد ،
والله لو كان معي رجل آخر لقيتُ في نقض هذه الصحيفة القاطعة . قال : قد وجدت
رجلاً ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال زهير : ابغنا ثالثاً ، فذهب إلى المطعم بن عدى بن
نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا مطعم ، أَرْضِيتَ أن يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً
وجَهْداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنَّ
قريشاً إلى مساء تكم في غيره سريرة . قال : ويحك ! ماذا أصنع ! إنما أنا رجل واحد ، قال :
قد وجدتُ ثانياً ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا قال : ابغني ثالثاً ، قال : قد وجدت ، قال : مَنْ هو ؟
قال : زهير بن أمية ، قال أنا ، قال : ابغنا رابعاً ، فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال
له نحو ما قال للمطعم ، قال : وهل مِنْ أَحَدٍ يعين على هذا ؟ قال : نعم وذِكرهم ، قال : فابغنا
خامساً ، فضى إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلمه ، فقال :
وهل يعين على ذلك من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمى له القوم ، فاتعدوا حَظْمَ الحَجْجُونِ ليلاً
بأعلى مكة ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير :
أنا أبدوكم وأكون أولكم يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديةهم ، وغدا زهيراً بن
أبي أمية عليه حلة له . فطاف بالبيت سبعة ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة ،
أنا أكل الطعام ، ونشرب الشراب ، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكي ! والله لا أقعد
حتى تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! وكان أبو جهل في ناحية المسجد ، فقال : كذبت
والله لا تشقَّ ! فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل : والله أنت أ كذب ، مارضينا والله بها
حين كُتِبَتْ . فقال أبو البختري معه : صدق والله زَمْعَةَ ، لا نرضى بها ولا نفرَ بما
كتب فيها ! فقال المطعم بن عدى : صدقاً والله ، وكذب مَنْ قال غير ذلك ؛ نبرأ إلى الله
منها ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو مثل قولهم ، فقال أبو جهل : هذا أمر قِضَى
بليل ، وقام مطعم بن عدى إلى الصحيفة فحطها وشقها ، فوجد الأَرْضَةَ قد أكلتها ، إلا

ما كان من «باسمك اللهم» ، قالوا: وأما كاتبها منصور بن عكرمة فشدت يده فيما يذكره .
فلما مزقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشعب .

قال محمد بن إسحاق : فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً على نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وحايته والقيام دونه ، حتى مات في أول السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله فطمعت فيه قريش حينئذ ، ونالت منه ، فخرج عن مكة خائفاً يطلب أحياء العرب ، يعرض عليهم نفسه ، فلم يزل كذلك حتى دخل مكة في جوار المطعم بن عدى ؛ ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة .

قال : ومن شعر أبي طالب الذي يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وقيامه دونه :

أرقت وقد تصوّبت النجومُ	وبت ولا تسألك الهوم ^(١)
لظلم عشيرة ظلموا وعفوا	وغب عقوقهم لهم وخيمُ
هم اتهكوا المحارم من أخيبهم	وكل فعالم دنس ذميمُ
وراموا خطية جوراً وظلماً	وبعض القول ذو جنفٍ مُليمُ
لتخرج هاشماً فتكون منها	بلاقع بطن مكة فالخطيمُ
فملاً قومنا لا تركبونا	بمظلمة لها خطب جسيمُ !
فيندم بعضكم وبذل بعض	وليس بمفلح أبداً ظلومُ
أرادوا قتل أحمد زاعميه	وليس بقتله منهم زعيمُ
ودون محمد منا ندى	هم العرينين والعصو الصميمُ

ومن ذلك قوله :

وقالوا لأحمد أنت امرؤ
خُلوف الحديد ، ضعيف السبب

وإن كان أحمدُ قد جاءهمُ بصدقي ولم يأتهمُ بالكذبِ
فإننا ومن حجَّ من رَاكبٍ وكعبة مكة ذات الحُجُبِ
تنالون أحمدًا أو تصطلوا ظُباةَ الرَّمَّاحِ وحَدَّ القُضْبِ
وتسترفوا بين آياتِكُمُ صُدورَ العوالي وخَيْلا شُرْبِ
تراهن من بين ضاقي السَّيْبِ قصير الحزام طويل اللَّبِّبِ
عليها صناديدُ من هاشمٍ همُ الأنجُبون مع المنتجبِ

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : لما فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من قتلى بدر ، وأمر بطرحهم في القليب ، جعل يتذكر من شعر أبي طالب بيتا فلا يحضره ، فقال له أبو بكر : لعله قوله يارسول الله :

وإنَّا لعمرُ الله إنَّ جدَّ جدِّنا لتلتبسن أسيافُنَا بالأمانِلِ (١)

فسُرَّ بظفره بالبيت ، وقال : إى لعمر الله ، لقد التبت .

ومن شعر أبي طالب قوله :

ألا أبلغاً عني لؤياً رسالةً بحقٍ وما تغني رسالةً مرسلِ (٢)
بني عمنا الأذنين فيما يخصُّهمُ وإخواننا من عبدِ شمس ونوفلِ
أظاهرتُم قوما علينا سفاهةً وأمرأ غويًّا من غواةٍ وجَهْلِ
يقولون لو أنا قتلنا محمَّداً أقرت نواصي هاشم بالتذللِ
كذبتم وربَّ الهدى تدعى نحوره بمكة ، والبيت العتيق المُقبَلِ
تنالونه ، أو تصطلوا دون نَيْلِهِ صوارمَ تفرى كلَّ عُضْوٍ ومفصلِ
فهلاً ولما تنتج الحربُ بكرها بخيلى تمام ، أو بأخر مُعجَلِ

وتلقوا ربيع الأبطحين محمداً
وتأوى إليه هاشم، إن هاشما
على ربوة في رأس عنقاه عيطل
عرانين كعب آخر بعد أول
فإن كنتم ترجون قتل محمد
فرؤموا بما جمعتم نقل يذبل
فإننا سنحميه بكل طيرة
وذى مئعة نهد المراكيل هيكل
وكل رديني ظماء كعوبه
وعضب كيامض الغمامة مفصل

قلت : كان صديقنا علي بن يحيى البطريق رحمه الله ، يقول : لولا خاصة النبوة
وسرها لما كان مثل أبي طالب - وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها - يمدح ابن أخيه
محمدا ، وهو شاب قد ربي في حجره وهو يتيمه ومكفوله ، وجار مجرى أولاده بمثل قوله :

وتلقوا ربيع الأبطحين محمداً
وتأوى إليه هاشم ، إن هاشما
على ربوة في رأس عنقاه عيطل
عرانين كعب آخر بعد أول
ومثل قوله :

وأبيض يستنقى الغمام بوجهه
يُطيف به الهلاك من آل هاشم
ثمال اليتامى عصمة الأراميل
فهم عنده في نعمة وفواضل

فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذنابي من الناس ، وإنما هو من
مدح الملوك والعظماء ، فإذا تصوّرت أنه شعر أبي طالب ، ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمد
صلى الله عليه وآله ، وهو شاب مستجير به ، معتم بظله من قريش ، قد رباه في حجره
غلاما ، وعلى عاتقه طفلا ، وبين يديه شابا ، يأكل من زاده ، ويأوى إلى داره ، علمت
موضع خاصية النبوة وسرها ، وأن أمره كان عظيما ، وأن الله تعالى أوقع في القلوب
والأنفس له منزلة رفيعة ومكانا جليلا .

وقرأت في " أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب " رحمه الله ، قال : كان أبو طالب إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أحياناً يبكي ويقول : إذا رأيته ذكرت أخي ، وكان عبد الله أخاه لأبويه ، وكان شديد الحب والحنو عليه ، وكذلك كان عبد المطلب شديد الحب له ، وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله صلى الله عليه وآله البيات إذا عرف مضجعه ، فكان يقيمه ليلاً من منامه ، ويضع ابنه عالياً مكانه ، فقال له علي^١ ليلة : يا أبت ، إني مقتول ، فقال له :

اصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حى مصيره لشعوب^(١)
قدّر الله والبلاء شديد لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغرّ ذى الحسب الثا قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالتبسل تبرى فمصيب منها ، وغير مصيب
كل حى وإن تملى بعمر آخذ من مذاقها بنصيب
فأجاب على عليه السلام ، فقال له :

أتأمرنى بالصبر في نصر أحمدٍ ووالله ما قلت الذى قلت جازعاً^(٢)
ولكننى أحببت أن ترى نصرتى وتعلم أنى لم أزل لك طائعاً
سأسمى لوجه الله في نصر أحمدٍ نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً

[القول في المؤمنين والكافرين من بنى هاشم]

الفصل الثانى : فى تفسير قوله عليه السلام « مؤمننا يعنى بذلك الأجر ، وكافرنا يحامى عن الأصل ، ومن أسلم من قريش خلوت مما نحن فيه لخلق يمنعه ، أو عشيرة تقوم دونه ،

(١) ديوانه ٤١ ، وشعوب : النبى .

(٢) ديوان أبي طالب ٤١

فهم من القتل بمكان آمن » ، فنقول : إن بني هاشم لما حُصروا في الشعب بعد أن منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قریش ، كانوا صنفين : مسلمين وكفاراً ، فكان على عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمين .

واختلف في جعفر بن أبي طالب : هل حُصر في الشعب معهم أم لا ؟ فقيل : حُصر في الشعب معهم ، وقيل : بل كان قد هاجر إلى الحبشة ، ولم يشهد حصار الشعب ، وهذا هو القول الأصح . وكان من المسلمين المحصورين في الشعب مع بني هاشم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ؛ وهو وإن لم يكن من بني هاشم إلا أنه يجرى مجراهم ، لأن بني المطلب وبني هاشم كانوا يداً واحدة ، لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام .

وكان العباس رحمه الله في حصار الشعب معهم إلا أنه كان على دين قومه ، وكذلك عقيل بن أبي طالب ، وطالب بن أبي طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبوسفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وكان شديداً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، يُبفضه ويهجوهُ بالأشعار ، إلا أنه كان لا يرضى بقتله ، ولا يقارَ قریشاً في دمه ؛ محافظة على النسب - وكان سيد المحصورين في الشعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب ، وهو الكافل والحامي .

[اختلاف الرأي في إيمان إبي طالب]

واختلف الناس في إيمان أبي طالب^(١) ، فقالت الإمامية وأكثر الزيدية : ما مات إلا مسلماً .

(١) ب : « فيه » ، وما أتتبه من ا .

وقال بعض شيوخننا المعتزلة بذلك ، منهم الشيخ أبو القاسم البلخي وأبو جعفر الإسكافي وغيرهما .

وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعامّة من شيوخننا البصريين وغيرهم : مات على دين قومه ، ويروون في ذلك حديثا مشهورا ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عند موته : قل يا عمّ كلمة أشهد لك بها غداً عند الله تعالى ، فقال : لولا أن تقول العرب : إن أبا طالب جزع عند الموت لأقررت بها عينك .
وروى أنه قال : أنا على دين الأشياخ .

وقيل إنه قال : أنا على دين عبد المطلب . وقيل غير ذلك .

وروى كثير من المحدثين أن قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَئِمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ... ﴾ (١) الآية ، أنزلت في أبي طالب ، لأن رسول الله استغفر له بعد موته .

وروي أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (٢) نزلت في أبي طالب .

وروي أن عليا عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موت أبي طالب ،

فقال له : إن عمك الضال قد قضى ، فما الذي تأمرني فيه ؟

واحتجوا بأنه لم ينقل أحدٌ عنه أنه رآه يصلي ، والصلاة هي المفرقة بين المسلم والكافر ، وأن عليا وجمعا لم يأخذا من تركته شيئا ، ورووا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « إن الله قد وعدني بتخفيف عذابه ليما صنع في حقي ، وإنه في ضحضاح من نار » .

وروي عنه أيضا أنه قيل له : لو استغفرت لأبيك وأمك ! فقال : « لو استغفرت لهما لا استغفرت لأبي طالب ؛ فإنه صنع إلى ما لم يصنعا ، وإن عبد الله وآمنة وأبا طالب جرات من جرات جهنم » .

فأما الذين زعموا أنه كان مسلماً، فقد رووا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال لي جبرائيل: إن الله مشفعك في ستة: بطن حملتك؛ آمنة بنت وهب، وصُلب أنزلك؛ عبد الله بن عبد المطلب، وحجر كفلك؛ أبي طالب، وبيت آواك؛ عبد المطلب، وأخ كان لك في الجاهلية - قيل: يارسول الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخياً يطعم الطعام، ويمجد بالأنوال - وئذنى أَرْضعتك؛ حليلة بنت أبي ذؤيب.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد عن هذا الخبر، وقد قرأته عليه: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله أخ من أبيه أو من أمه أو منهما في الجاهلية؟ فقال: لا، إنما يعني أخاً له في المودة والصحبة، قلت له: فمن هو؟ قال: لا أدري.

قالوا: وقد نقل الناس كافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية. فوجب بهذا أن يكون أباه كلهم منزهين عن الشرك، لأنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين.

قالوا: وأما ما ذكر في القرآن من إبراهيم وأبيه آزر، وكونه كان ضالاً مشركاً، فلا يقبض في مذهبنا، لأن آزر كان عم إبراهيم؛ فأما أبوه فتارخ بن ناحور، وسمى العم أباً، كما قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾^(١)، ثم عدّ فيهم إسماعيل وليس من آباءه، ولكنه عمه.

قلت: وهذا الاحتجاج عندي ضعيف، لأن المراد من قوله: «نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية» تنزيه آباءه وأجداده وأمهاته عن السفاح لا غير؛ هذا مقتضى

سياقة الكلام ، لأنّ العرب كان يعيبُ بعضها بعضا باختلاط المياه واشتباها الأنساب
ونسكاح الشبهة .

وقولهم : لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين ؛ يقال لهم : لم قائم : إنهم لو كانوا
عبدة أصنام لما كانوا طاهري الأصلاب ! فإنه لا منافاة بين طهارة الأصلاب وعبادة
الصنم ، ألا ترى أنه لو أراد ما زعموه ما ذكر الأصلاب والأرحام ، بل جعل عوضها
العقائد . واعتذارهم عن إبراهيم وأبيه يقدح في قولهم في أبي طالب ، لأنه لم يكن أبا محمد
صلى الله عليه وآله ، بل كان عمه ، فإذا جاز عندهم أن يكون العم - وهو آزر - مشركا كما قد
اقتروه في تأويلهم ، لم يكن لهم حجة من هذا الوجه على إسلام أبي طالب .

واحتجوا في إسلام الآباء بما روى عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : يبعث
الله عبدَ المطلب يوم القيامة وعليه سبب الأنبياء وبهاء الملوك .

وروى أن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة : يا رسول
الله ، ما ترجو لأبي طالب؟ فقال : أرجو له كل خير من الله عز وجل .

وروى أن رجلاً من رجال الشيعة ، وهو أبان بن محمود كتب إلى علي بن موسى
الرضا عليه السلام : جُعِلْتُ فداك ! إني قد شككتُ في إسلام أبي طالب ! فكتب إليه :
﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) ... ﴾ الآية ،
وبعدها إنك إن لم تقرر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار .

وقد روى عن علي بن محمد الباقر عليه السلام أنه سئل عما يقوله الناس : إن أبا طالب
في ضحضاح من نار ؛ فقال : لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في
الكفة الأخرى لرجح إيمانه . ثم قال : ألم تعلموا أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام كان
يأمر أن يحجّ عن عبد الله وأبيه ^(٢) وأبي طالب في حياته ، ثم أوصى في وصيته بالحجّ عنهم !
وروى أن أبا بكر جاء بأبي قحافة إلى النبي صلى الله عليه وآله عام الفتح يقوده ،

(٢) في الأصول : « وابنه » .

(١) سورة النساء :

وهو شيخ كبير أعمى ، فقال رسول الله : ألا تركت الشيخ حتى تأتيه ! فقال : أردتُ
يارسول الله أن يأجره الله ! أما والذي بعثك بالحق لانا كنت أشد فرحاً بإسلام عمك أبي طالب
منى بإسلام أبي ، ألمس بذلك قوة عينك ، فقال : صدقت .

وروى أن علي بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا ، فقال : واعجباً ! إن الله تعالى
نهى رسوله أن يقرب مسلمة على نكاح كافر ، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى
الإسلام ، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات .

ويروى قوم من الزيدية أن أبا طالب أسند المحدثون عنه حديثاً ينتهى إلى أبي
رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعتُ أبا طالب يقول بمكة : حدثني
محمد بن أخي أن ربه بعثه بصلوة الرحم ، وأن يعبدَه وحده لا يعبد معه غيره ، ومحمد عندي
الصادق الأمين .

وقال قوم : إن قول النبي صلى الله عليه وآله : «أنا وكافلُ اليتيم كهاتين في الجنة»
إنما عني به أبا طالب .

وقالت الإمامية : إن ما يرويه العامة من أن علياً عليه السلام وجعفر الم يأخذنا من
تركة أبي طالب شيئاً حديث موضوع ، ومذهب أهل البيت بخلاف ذلك ، فإن المسلم
عندهم يرث الكافر ، ولا يرث الكافر المسلم ، ولو كان أعلى درجة منه
في النسب .

قالوا : وقوله صلى الله عليه وآله : « لا توارث بين أهل ملتين » ، نقول بموجبه ، لأن
التوارث تفاعل ، ولا تفاعل عندنا في ميراثهما ، واللفظ يستدعي الطرفين ، كالتضارب لا يكون
إلا من اثنين ، قالوا : وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي طالب معلوم مشهور ، ولو

كان كافرا ما جاز له حبه لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (١) الآية .

قالوا : وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله صلى الله عليه وآله لعقيل : « أنا أحبك حبين : حباً لك ، وحباً لحبّ أبي طالب فإنه كان يحبك » .

قالوا : وخطبة النكاح مشهورة ، خطبها أبو طالب عند نكاح محمد صلى الله عليه وآله خديجة ، وهي قوله : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله أخى من لا يوازن به فتى من قریش إلا رجح عليه برأ وفضلا ، وحزما وعقلا ، ورأيا ونبلا ، وإن كان فى المال قلٌّ فإنما المال ظلّ زائل ، وعاريةٌ مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصّدّاق فعلىّ ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل » .

قالوا : افتراه يعلم نبأه الشائع وخطبه الجليل ، ثم يعانده ويكذب به ، وهو من أولى الألباب ، هذا غير سائغ فى العقول !

قالوا : وقد روى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان ، وأظهروا الكفر فاتاهم الله أجرهم مرتين ، وإن أبا طالب أسرّ الإيمان ، وأظهر الشرك ، فاتاه الله أجره مرتين .
وفى الحديث المشهور : إن جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب : اخرج منها فقد مات ناصرك .

قالوا : وأما حديث الضحاح من النار ، فإنما يرويه الناس كلهم عن رجل واحد ، وهو المغيرة بن شعبة ، وبغضه لبنى هاشم وعلى الخصوص لعلىّ عليه السلام مشهور معلوم ، وقصته وفسقه غير خاف .

وقالوا: وقد روى بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب ، وبعضها عن أبي بكر بن أبي قحافة، أن أبا طالب مامات حتى قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . والخبر مشهور أن أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفياً ، فأصغى إليه أخوه العباس ، ثم رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا بن أخي ، والله لقد قالها عمك ، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته .

وروى عن علي عليه السلام أنه قال : مامات أبو طالب حتى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من نفسه الرضاً .

قالوا: وأشعار أبي طالب تدلّ على أنه كان مسلماً ، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمننا إقراراً بالإسلام ، ألا ترى أن يهودياً لو توسط جماعة من المسلمين ، وأنشد شعراً قد ارتجله ونظمه يتضمن الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ، لكننا نحكم بإسلامه كما لو قال : أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله ! فمن تلك الأشعار قوله^(١) :

يُرْجُونَ مَنَاخِطَةَ دُونَ نَيْلِهَا	ضِرَابٌ وَطَعْنٌ بِالْوَشِيحِ الْمَقْوَمِ
يُرْجُونَ أَنْ نَسَخَى بِقَتْلِ مُحَمَّدٍ	وَلَمْ تَحْتَضِبْ سَمْرُ الْعَوَالِي مِنَ الدِّمِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ حَتَّى تَفَلَقُوا ^(٢)	بِحَاكِمٍ تُلَقَى بِالْحَطِيمِ وَزَمَزَمِ
وَتُقَطَّعَ أَرْحَامٌ وَتَنْسَى حَلِيلَةً	حَلِيلًا ، وَيُعْشَى مُحَرَّمٌ بَعْدَ مُحَرَّمِ
عَلَى مَاضِيٍّ مِنْ مَقْتِكُمْ وَعَمُوقِكُمْ	وَعَشِيَانِكُمْ فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ مَآثِمِ
وَزَلَمَ نَبِيٌّ جَاءَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى	وَأَمْرٌ آتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ قَيِّمِ

(١) ديوانه ١٥٢ - ١٥٤ ؛ من قصيدة أولها :

أَلَا مَنْ لِيهِمْ آخِرَ اللَّيْلِ مُعْتَمِرِ
طَوَانِي وَأُخْرَى النُّجْمِ لَمَّا تَفَحَّمِ

(٢) الديوان : « تعرفوا » .

أَفَلَا تَحْسِبُونَا مُسْلِمِيهِ فِينَهُ إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ

ومن شعر أبي طالب في أمر الصحيفة التي كتبتها قريش في قطيعة بني هاشم :
أَلَا أبلغَا عَنِّي عَلَى ذَاتِ بَيْنِهَا لَوِيًّا وَخُصًّا مِنْ لَوِيِّ بَنِي كَعْبٍ ^(١)
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا رَسُولًا كَمُوسَى خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ
وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً وَلَا حَيْفَ فِيمَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ ^(٢)
وَأَنَّ الَّذِي رَقَّشْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمًا كِرَاعِيَةَ السَّقْبِ ^(٣)
أَفَيْقُوا أَفَيْقُوا قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ الرَّبِّي وَيَصْبَحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَبْدَى ذَنْبِ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْعِوَاءِ وَتَقْطَعُوا وَأُوصِرْنَا بِهِ الْمُوَدَّةَ وَالْقُرْبَ
وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْبًا عَوَانًا وَرَبْمَا أَمَرَ عَلَى مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الْحَرْبِ
فَلَسْنَا وَبَيْتِ اللَّهِ نُسْلِمُ أَحْمَدًا لِعَرَاءٍ مِنْ عَضِّ الزَّمَانِ وَلَا كَرْبِ
وَلَمَّا تَبَيَّنَ مِنَّا وَمِنْكُمْ سِوَالْفُ وَأَيْدٍ أُتْرِتَ بِالْمُهَنْدَةِ الشُّهْبِ ^(٤)
بِمَعْرَكِ ضَيْقِ تَرَى قِصْدَ الْقَنَا بِهِ وَالضَّبَاعَ الْعُرْجَ تَعَكِّفُ كَالشَّرْبِ ^(٥)
كَأَنَّ مَجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَاتِهِ وَغَنَمَةِ الْأَبْطَالِ مَعْرَكَةَ الْحَرْبِ
أَلَيْسَ أَبُوْنَا هَاشِمٌ شَدَّ أَرْزَهُ وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطَّعَانِ وَبِالضَّرْبِ !
وَاسْنَا نَمَلُ الْحَرْبِ حَتَّى تَمَلَّنَا وَلَا نَشْتَكِي مِمَّا يَنْوِبُ مِنَ النُّكْبِ ^(٦)

(٢) الديوان : « ولا خير بمن خصه الله » .

(١) ديوانه ٢٠ - ٢٤

(٣) الرغاء : صوت الإبل . والسحب : ولد الناقة .

(٤) أترت : قطعت . والمهنية : السيوف .

(٥) قصد القنا : قطع الرماح المتكسرة .

(٦) النكب والنكبة : الصينة .

ولكننا أهل الحفايظ والنهى
وإذا طار أرواح الكهامة من الرعب
ومن ذلك قوله :

فلا تُسفيها أحلامكم في محمد
تمنيتم أن تقتلوه وإتتما
وإناكم والله لا تقتلونه
زعمتم بأنا مسلمون محمداً
من القوم مفضل أبي علي العدا
أمين حبيب في العباد مسوم
يرى الناس برهانا عليه وهيبة
نبي أتاه الوحي من عند ربه
ولا تُتبعوا أمر العوامة الأشائم^(١)
أمانيتكم هذي كأحلام نائم
ولما تروا قطف اللحي والجماح^(٢)
ولما نقاذف دونه وتراحم
تمكن في الفرعين من آل هاشم
بخاتم رب قاهر في الخواتم
وما جاهل في قومه مثل عالم
ومن قال لا يقرع بها سن نادم

ومن ذلك قوله - وقد غضب لعثمان بن مظعون الجحى ، حين عدبته قريش
ونالت منه :

أصبحت مكتئبا تبكي كحزون^(٣)
يفشون بالظلم من يدعو إلى الدين
أنا غضبنا لعثمان بن مظعون
بكل مطرد في الكف مسنون
بشفي بها الداء من هام المجانين
بمد الصعوبة بالإسماح واللين
أمن تذكر دهر غير مأمون
أمن تذكر أقوام ذوى سفه
ألا ترون - أذل الله جمعكم
ونمنع الضيم من يبغى مضامتنا
ومرهفات كان الملح خالطها
حتى تقر رجال لا حلوم لها

(١) ديوانه ١٥٥ - ١٥٨ ، من قصيدة مطلعها :

لَمَنْ أَرْبُعُ أَقْوِينَ بَيْنَ الْقَوَائِمِ
أَقَمْنَ بِمَدْحَةِ الرِّيحِ التَّوَائِمِ

(٢) ديوانه ١٧٣ .

(٣) الديوان : « النلاص » .

أو تؤمنوا بكتابٍ مُنزلٍ نَحْبِ عَلَى نَبِيٍّ كَمُوسَىٰ أَوْ كَذِي النُّونِ (١)
قالوا : وقد جاء في الخبر أن أبا جهل بن هشام جاء مرة إلى رسول الله صلى الله
عليه وآله وهو ساجد ويده حَجَرٌ يريد أن يَرَضِّخَ به رأسه، فلصق الحجرُ بكفِّه فلم يستطع
ما أراد ، فقال أبو طالب في ذلك من جملة آيات :

أَفِيقُوا بَنِي عَمَّنَا وَاتَّهُوا عَنْ النَّطْقِ (٢)
وَأِلَّا فَإِنِّي إِذَا خَافْتُ بَوَائِقَ فِي دَارِكُمْ تَلْتَقِي (٣)
كَمَا ذَاقَ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمُودَ وَعَادَ وَمَاذَا بَقِيَ !
ومنها :

وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ فِي أَمْرِكُمْ عَجَائِبَ فِي الْحَجَرِ الْمُلْصَقِ
بَكَفِّ الَّذِي قَامَ مِنْ حِينِهِ إِلَى الصَّابِرِ الصَّادِقِ الْمُتَّقِي
فَأَثَبَهُ اللَّهُ فِي كَفِّهِ عَلَى رَغْمَةِ الْخُلَّانِ الْأَحْمَقِي
قالوا : وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنه كان يقول : أسلم أبو طالب
والله بقوله :

نصرت الرسولَ رسولَ الملليكَ بِيضِ تَلَالَا كَلْعِ الْبُرُوقِ (٤)
أَذُبُّ وَأُحْمِي رَسُولَ الْإِلَهِ حَمَاةَ حَامٍ عَلَيْهِ شَفِيقُ
وَمَا إِنْ أَذُبُّ لِأَعْدَانِهِ دَيْبَبَ الْبِكَارِ حَذَارِ الْفَنِيقِ (٥)
وَلَكِنْ أَزِيرُ لَهُمْ سَامِيَا كَمَا زَارَ لَيْثٌ يَفِيعِلُ مَضِيقُ

(١) بعده في الديوان :

يَأْتِي بِأَمْرِ جَلِيٍّ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ كَمَا تَبَيَّنَ فِي آيَاتِ يَاسِينَ

(٢) بعده في الديوان :

(٣) ديوانه ٩٤

تَكُونُ لَغَيْرِكُمْ عِبْرَةً وَرَبُّ الْمَغَارِبِ وَالْمَشْرِيقِ

(٤) ديوانه ٩٨

(٥) الفنيق : الفحل المكرم على أهله .

قالوا: وقد جاء في السيرة، وذكره أكثر المؤرخين، أن عمرو بن العاص لما خرج إلى بلاد الحبشة ليكيّد جعفر بن أبي طالب وأصحابه عند النجاشي، قال:

تقول ابنتي أين أين الرحيلُ وما البينُ مني بمستنكرٍ
فقلتُ دعيني فإني امرؤُ أريدُ النجاشيَ في جعفرٍ
لأكويه عنده كيةً أقيمُ بها نحوه الأصغرِ
ولن أنثني عن بني هاشمٍ بما سطعت في الغيب والمحضرِ
وعن عائب اللات في قوله ولولا رضا اللات لم تمطرِ
وإني لأشنى قريشٍ له وإن كان كالذهب الأحمرِ

قالوا: فكان عمرو يُسمى الشاني* ابن الشاني*، لأن أباه كان إذا مرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة يقول له: والله إني لأشنوئك، وفيه أنزل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١). قالوا: فكتب أبو طالب إلى النجاشي شعرا يحرّضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عمّا يقوله عمرو فيه وفيهم، من جملته:

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفرٌ وعمرو وأعداء النبي الأقارب! ^(٢)
وهل نال إحسان النجاشي جعفرا وأصحابه، أم عاق عن ذلك شاغب!
في أبيات كثيرة.

قالوا: وروى عن علي عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بني الزم ابن عمك، فإنك تسلم به من كل بأس عاجل وآجل، ثم قال لي:

إن الوثيقة في لزوم محمد فاشدد بصحبته على أيديكا

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله :

إن عليا وجعفرًا ثقتي عند ملام الزمان والنوب^(١)
لا تحذلا وانصرا ابن عمكما أخى لأمتى من بينهم وأبى
والله لا أخذل النبي ولا يحذله من بنى ذو حسب

قالوا : وقد جاءت الرواية أن أبا طالب لما مات جاء علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأذنه بموته ، فتوجع عظيمًا وحزن شديدًا ، ثم قال له : امض فتول غسله ، فإذا رفعته على سريريه فأعلمني ، ففعل فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رءوس الرجال ، فقال : وصلتك رحم ياعم ، وجزيت خيرا ! فلقد رببت وكفلت صغيرا ، ونصرت وآزرت كبيرا ؛ ثم تبعه إلى حفرتة ، فوقف عليه ، فقال : أما والله لأستغفرن لك ، ولأشفن فيك شفاعةً يعجب لها النقلان .

قالوا : والمسلم لا يجوز أن يتولى غسل الكافر ، ولا يجوز للنبي أن يرق لكافر ، ولا أن يدعو له بخير ، ولا أن بعده بالاستغفار والشفاعة ، وإنما تولى علي عليه السلام غسله ، لأن طالبا وعقيلًا لم يكونا أسلمًا بعد ، وكان جعفر بالحبشة ، ولم تكن صلاة الجنائز شرعت بعد ، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله على خديجة ، وإنما كان تشييع ورقة ودعاء .

قالوا : ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة ، وكان يكنى أبا يعلى :

فصبرا أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهرًا للدين وقفت صابرا
وحط من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حمز كافرا
فقد سرتني إذ قلت إنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصرا

فإن كَفَّكَ كفى إن بليت بهم ودون نفسك نفسى فى اللغاتِ
ومن ذلك قوله ، ويقال إنها لطالب بن أبى طالب :

إذا قيل من خيرُ هذا الورى قبيلاً وأكرمهم أسره^(١) ؟
أناف لعبدٍ مناف أبٌ وفضلاً هاشم العزة
لقد حلّ مجد بنى هاشم مكان النعائم والنثرة
وخير بنى هاشم أحمد رسول الإله على فترة
ومن ذلك قوله :

لقد أكرم الله النبيَّ محمداً فأكرمُ خلق الله فى الناس أحمد^(٢)
وشقّ له من اسمه ليحبه فذو العرش محمود وهذا محمد
وقوله أيضاً ، وقد يروى لعلّى عليه السلام :

يا شاهد الله علىّ فاشهد^(٣) أنى على دين النبيّ أحمد

* من ضلّ فى الدين فإنى مهتدٍ *

قالوا : فكلّ هذه الأشعار قد جاءت بحجىء التواتر ، لأنه إن لم تكن آحادها متواترة ،
فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك ؛ وهو تصديق محمد صلى الله عليه وآله ، ومجموعها
متواتر كما أن كلّ واحدة من قتلات على عليه السلام الفرسان منقولة آحاداً ، ومجموعها
متواتر ، يفيدنا العلم الضرورى بشجاعته ، وكذلك القول فيما روى من سخاء حاتم ،
وحلم الأحنف ومعاوية ، وذكاء إياس وخلاعة أبى نواس ، وغير ذلك ، قالوا : واتركوا
هذا كلّ جانباً ، ما قولكم فى القصيدة الألامية التى شهرتها كشمرة " قفانبك " ، وإن
جاز الشكّ فيها أوفى شىء من أبياتها ، جاز الشكّ فى " قفانبك " ، وفى بعض أبياتها ، ونحن
نذكر منها هاهنا قطعة وهى قوله :

(٢) ديوانه ٧٥

(١) ديوانه ٥٠

(٣) ديوانه ٧٥

أَعُوذُ بِرَبِّ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ
وَمَنْ فَاجِرٍ يَفْتَابُنَا بِمَغْيِبَةٍ
كَذَّبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ يُبْزَى
وَتَنْصِرُهُ حَتَّى نَصْرَعَ دُونَهُ
وَحَتَّى نَرَى ذَا الرَّدْعِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
وَإِنَّا وَبَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَدِّ جَدَّنَا
بِكُلِّ فَتَى مِثْلِ الشَّهَابِ سَمِيدِعٍ
وَمَا تَرَكَ قَوْمٍ لَا أَبَالِكَ سَيِّدًا
وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
يَلْوُذُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَمِيزَانُ صِدْقٍ لَا يَخِيْسُ شَعْبِرَةٌ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنْ أَبْنَانَا لَا مَكْذَبَ
لِعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجْدًا بِأَحْمَدٍ
وَجُدْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ فَحْمِيْتُهُ
فَلَا زَالَ لِلدَّيْنِ جَمَالًا لِأَهْلِهَا
وَأَيْدِي رَبِّ الْعِبَادِ بَنْصِرِهِ

علينا بسوء أو يلوح بباطل^(١)
ومن ملحق في الدين ما لم نحاول^(٢)
ولما نطاعن دونه وتناضل^(٣)
ونذهل عن أبنائنا والحلائل^(٤)
من الطعن فعل الأنكب للتحامل^(٥)
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل^(٦)
لتلتبسن أسيافنا بالأمانل^(٧)
أخي ثقة عند الحفيظة باسل^(٨)
يحوط الذمار غير نكس مواكل^(٩)
ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(١٠)
فهم عنده في نعمة وفواضل^(١١)
ووزان صدق وزنه غير عائل^(١٢)
لديننا، ولا يعبا بقول الأباطل !
وأحبيته حب الحبيب المواصل
ودافعت عنه بالذرى والكواهل
وشيناً لمن عادى وزين الحافل
وأظهر ديناً حقه غير باطل

- (١) ديوانه ١٠٠ - ١٣٤
(٢) نبزى ، أى نغلب
(٣) يركب ردهه : يختر لوجهه على دمه ، والرذع : اللطخ والأثر من الدم .
(٤) الروايا : جم رواية ؛ وهو التعبير يستق عليه . وذات الصلاصل : الزادة التي ينقل فيها الماء ،
والصلاصل جمع صلصلة ، وهى بقية الماء في الإداوة .
(٥) الأمانل : الأشراف
(٦) الديوان : « غير ذرب » .
(٧) ثمال اليتامى : عمادهم .
(٨) يقال : عال الميزان يعمل ، إذا مال .

وورد في السيرة والمعازي أن عتبة بن ربيعة أو شيبه لما قطع رجل عبدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر أشبل^(١) عليه عليّ وحمزة فاستنقذاه منه وخطبا عتبة بسيفهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش ، فألقياه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ مخّ ساقه ليسيل ، فقال : يا رسول الله ، لو كان أبو طالب حيّاً لعلم أنه قد صدق في قوله :

كذبتُم وبيتِ الله نُحلي محمداً ولما نطاعين دُونه ونناضل
ونفصره حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله استغفر له ولأبي طالب يومئذ ، وبلغ عبدة مع النبي صلى الله عليه وآله إلى الصّفراء فمات فدفن بها .

قالوا : وقد روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في عام جدب ، فقال : أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبيٌّ يرضع ، ولا شارب^(٢) يجتر ثم أنشده :

أتيناك والمذراء تدمى لبانها وقد شغلت أم الرضيع عن الطفل
وأتى بكفيه الفتى لاستكانة من الجوع حتى ما يمرُّ ولا يُحلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندهنا سوى الحنظل العامى والعليهز القسل
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل !

فقام النبي صلى الله عليه وآله يجرّ رداءه ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريثا هنيئنا ، مريعا سحّا سجّالا ، غدقاً طبقاً قاطباً ، دائماً درّاً تحيي به الأرض ، وتنبث به الزرع ، وتدرّ به الصّرع ، واجعله سقياً نافعا عاجلاً غير راث » . فوالله ، مارد رسول الله صلى الله عليه وآله يده إلى نحره حتى أقت السماء

(١) أشبل : عطف

(٢) الشارف : الناقة .

أرواقها ، وجاء الناس يضحون: الفرق الفرق يارسول الله ! فقال : اللهم حوالينا ولا علينا،
فانجباب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل .

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : لله درُّ أبي طالب ! لو كان حيًّا
لقرت عينه . من يُشِدنا قوله ؟ فقام عليّ فقال : يارسول الله ، لعلك أردت :
* وأبيضُ بسدسقى الغمامُ بوجهه *

قال : أجل ، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة ، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على
المنبر ؛ ثم قام رجل من كفاة فأنشده :

لك الحمدُ والحمدُ ممن شكرُ سُقِينَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطْرُ
دعا الله خالقَه دعوةً إليه ، وأشخصَ منه البصرُ
فا كانَ إلا كما ساعةٍ أو أقصرَ حتى رأينا الدررَ
دِفاقَ العزالي وَجَمَ البعاق^(١) أغاثَ به الله علينا مُضَرَ
فكان كما قاله نَعْمه أبو طالبِ ذُو رِوَاهِ غُرَزِ
به يَسر الله صَوَّبَ الغمامِ فهذا العيانِ وذاك الخَبَرِ
فمن يَشكر الله يَلقَ المزيدَ وَمَنْ يَكْفِر الله يَلقَ الْغَيْزِ

فقال رسول الله : إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت .

قالوا : وإنا لم يظهر أبو طالب الإسلامَ ويجاهر به ، لأنه لو أظهره لم يتهماً له من
نُصرة النبي صلى الله عليه وآله ما تهياً له ، وكان كواحدٍ من المسلمين الذين اتبعوه ، نحو
أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرها ممن أسلم ، ولم يتمكن من نُصرته والقيام دونه

(١) العزالي : جمع عزلاء ، وهي في الأصل : مصب الماء من القرية والراوية ، ويقال للسحابة إذا انهمرت
بالمطر : قد حلت عزاليها ، وأرسلت عزاليها . والبعاق : المطر الذي ينبت بالماء .

حينئذ، وإِنَّمَا تَمَكَّنَ أَبُو طَالِبٍ مِنَ الْحَمَامَةِ عَنْهُ بِالثَّبَاتِ فِي الظَّاهِرِ عَلَى دِينِ قُرَيْشٍ وَإِنِ
أَبْطَنَ الْإِسْلَامَ؛ كَمَا لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا كَانَ يُبْطِنُ التَّشْيِيعَ مِثْلًا، وَهُوَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْكِرَامِيَّةِ،
وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ وَجَاهَةٌ وَقَدَمٌ، وَهُوَ يُظْهِرُ مَذْهَبَ الْكِرَامِيَّةِ، وَيَحْفَظُ نَامُوسَهُ بَيْنَهُمْ بِذَلِكَ،
وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ نَفَرٌ يَسِيرُ مِنَ الشَّيْعَةِ لَا يَزَالُونَ يُنَالُونَ بِالْأَذَى وَالضَّرْرَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ
الْبَلَدِ وَرُؤْسَانِهِ، فَإِنَّهُ مَا دَامَ قَادِرًا عَلَى إِظْهَارِ مَذْهَبِ أَهْلِ الْبَلَدِ، يَكُونُ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنَ
لِلدَّفَاعَةِ وَالْحَمَامَةِ عَنِ أَوْلِيئِكَ النَّفَرِ، فَلَوْ أَظْهَرَ مَا يَجُوزُ مِنَ التَّشْيِيعِ، وَكَاشَفَ أَهْلَ الْبَلَدِ بِذَلِكَ،
صَارَ حَكْمُهُ حَكْمَ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلِيئِكَ النَّفَرِ، وَلِحَقِّهِ مِنَ الْأَذَى وَالضَّرْرَ مَا يَلْحَقُهُمْ، وَلَمْ يَتِمَكَّنْ
مِنَ الدَّفَاعِ أَحْيَانًا عَنْهُمْ كَمَا كَانَ أَوْلًا.

قلت: فأما أنا فإنَّ الحالَ ملتبسةٌ عندي، والأخبارُ متعارضةٌ؛ واللهُ أعلمُ بحقيقةِ حاله
كيف كانت^(١).

ويقف في صدرى رسالة النفس الزكية^(٢) إلى المنصور، وقوله فيها: «فأنا ابنُ
خير الأختيار، وأنا ابنُ شرِّ الأشرار، وأنا ابنُ سيِّدِ أهلِ الجنة، وأنا ابنُ سيِّدِ أهلِ النار». فإنَّ
هذه شهادة منه على أبي طالبٍ بالكُفْرِ، وهو ابنه وغيرُ مَنَّهُم عليه، وعهده
قريب من عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لم يطل الزمانُ فيكون الخبرُ مفتعلًا.

وجملة الأمر أنه قد رُوِيَ في إسلامه أخبار كثيرة، وروى في موته على دين قومه أخبار
كثيرة، فتعارض الجرح والتعديل، فكان كتعارض البيئتين عند الحاكم، وذلك يقتضى
التوقف، فأنا في أمره من المتوقفين.

(١) وضع الشيخ المفيد رسالة في إيمان أبي طالب، طبعت في مجموعة نقائس المخطوطات، العدد الثالث
من المجموعة الأولى. طبعت في النجف سنة ١٩٥٦.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالأرقط وبالمهدى وبالنفس
الزكية، خرج على المنصور نائرا لقتل أبيه بالكوفة في مائتين وخمسين رجلا، فقبض على أمير المدينة،
وبايه أهلها فانتدب المنصور لقتاله ولحقه عهده عيسى بن موسى، فسار إليه، وانتهى الأمر بمقتله سنة ١٤٥هـ.
(مقاتل الطالبين ٢٣٢).

فأما الصلاة وكونه لم يُنقل عنه أنه صلى ، فيجوز أن يكون لأن الصلاة لم تكن بعد قد فرضت ، وإِنما كانت نفلا غير واجب ، فمن شاء صلى ، ومن شاء ترك ، ولم تفرض إلا بالمدينة ، ويمكن أن يقول أصحاب الحديث : إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه ، فالترجيح عند أصحاب أصول الفقه لجانب الجرح ، لأن الجرح قد اطلع على زيادة لم يطلع عليها المعدل .

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول : إن هذا إنما يقال ويذكر في أصول الفقه في طعن مفصل في مقابلة تعديل مجمل ، مثاله أن يروى شعبةٌ مثلاً حديثنا عن رجل ، فهو بروايته عنه قد وثقه ، ويكفي في توثيقه له أن يكون مستور الحال ، ظاهره العدالة ، فيطعن فيه الدارقطني مثلاً بأن يقول : كان مدلساً ، أو كان يرتكب الذنب الفلاني ، فيكون قد طعن طعناً مفصلاً في مقابلة تعديل مجمل ، وفيما نحن فيه وبصدده الروايتان متعارضتان تفصيلاً لا إجمالاً ، لأن هؤلاء يروون أنه تلفظ بكلمتي الشهادة عند الموت ، وهؤلاء يروون أنه قال عند الموت : أنا على دين الأشياخ .

وبمثل هذا يجاب من يقول من الشيعة : روايتنا في إسلامه أرجح ، لأننا نروى حكماً إيجابياً ونشهد على إثبات ، وخصومنا يشهدون على النفي ، ولا شهادة على النفي ، وذلك أن الشهادة في الجانبين معا ، إنما هي على إثبات ، ولكنه إثبات متضاد .
وصنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في إسلام أبي طالب ، وبعثه إلى ، وسألني أن أكتب عليه^(١) بخطي نظماً أو نثراً أشهد فيه بصحة ذلك ، وبوثاق الأدلة عليه ، فتحررت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً ، لما عندي من التوقف فيه ، ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالب ، فإني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دعامة . وأعلم أن حقه واجب على كل مسلم في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، فكتبت على ظاهر المجلد :

(١) ساقطة من ب .

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاماً
 فذاك بمكة آوى وحامى وهذا بيثرب جسد الحماما^(١)
 تكفل عبد مناف بأمره وأودى فكان على تمام
 قفل في ثبير مضى بعد ما قضى ما قضاه وأبقى كتماما
 فله ذا فاتحاً للهدى ولله ذا للمعالى ختاماً
 وما ضرَّ مجدّ أبي طالب جهولٌ لفاً أو بصيرٌ تعامى
 كما لا يضرّ إياة الصباح^(٢) من ظنّ ضوء النهار الظلاما
 فوفيته حقّه من التعظيم والإجلال ، ولم أجزم بأمر عندي فيه وقفة .

[قصة غزوة بدر]

الفصل الثالث : في شرح القصة في غزاة بدر ، ونحن نذكر ذلك من كتاب " المغازى " لمحمد بن عمر الواقدي ، ونذكر ما عساه زاده محمد بن إسحاق في كتاب " المغازى " ، وما زاده [أحمد بن]^(٣) يحيى بن جابر البلاذري في " تاريخ الأشراف " .

قال الواقدي : بلغ^(٤) رسول الله صلى الله عليه وآله أن عير قريش قد فصلت من مكة تريد الشام ، وقد جمعت قريش فيها أموالها ، فندب لها أصحابه ، وخرج يعترضها على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره عليه السلام ، فخرج في خمسين ومائة - ويقال في مائتين - فلم يلق العير ؛ وفاتته ذاهبة إلى الشام . . وهذه غزاة ذى العُشيرة ، رجع منها إلى المدينة فلم يلق حرباً ، فلما تحين انصراف العير من الشام قافلة ندب أصحابه لها ، وبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قبيل خروجه من المدينة بعشر ليل ،

(٢) إياة الصبح : ضوءه ، وأصله في الشمس .

(٤) مغازى الواقدي ص ١١ وما بعدها .

(١) : « حسن » .

(٣) من ١

يتجسسان خبر العير ، حتى نزلًا على كشد^(١) الجهني بالموضع المعروف بالنخبار^(٢) ، وهو من وراء ذى المروة على الساحل ، وفأجارها وأنزلها ، فلم يزالا مقيمين في خباء وبر حتى مرت العير ، فرفعهما على نشز من الأرض ، فنظرا إلى القوم وإلى ما تحمل العير ، وجعل أهل العير يقولون لكشد : يا كشد ، هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟ فيقول : أعوذ بالله ، وأنى لحم عيون بالنخبار ! فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا ، وخرج معهما كشد خفيرا ، حتى أوردهما ذا المروة ، وساحت العير فأسرعت ، وسار بها أصحابها ليلا ونهارا ، فرقا من الطلب ، وقدم طلحة وسعيد المدينة في اليوم الذي أتى رسول الله صلى الله عليه وآله قريشا بيدر ، فخرجا بعتريضان رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلقياه بتربان - وتربان بين ممل والسالة على الحجية ، وكانت منزل عمرو ابن أذينة الشاعر - وقدم كشد بعد ذلك على النبي صلى الله عليه وآله ، وقد أخبر طلحة وسعيد رسول الله صلى الله عليه وآله بما صنع بهما ، فخباه وأكرمه ، وقال : ألا أقطع لك ينبع ؟ قال : إني كبير : وقد نفذ عمري ، ولكن أقطعها لابن أخي ، فأقطعها له^(٣) .

قالوا : وندب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين ، وقال : هذه عير قريش ، فيها أموالهم : لعل الله أن يغنمكموها ، فأسرع من أسرع ، حتى إن كان الرجل ليساهم أباه في الخروج ، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيثة ، فقال سعد لأبيه : إنه لو كان غير الجنة آترتك به ، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا ، فقال خيثة : آترني وقر مع نسائك ، فأبى سعد ، فقال خيثة : إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فقتل بيدر . وأبطأ عن النبي صلى الله عليه وآله بشر كثير من أصحابه ، وكرهوا خروجه ، وكان في ذلك كلام كثير ، واختلاف ، وبعضهم تخلف من أهل النيات والبصائر ، لم يظنوا أنه يكون قتال ، إنما هو الخروج للغنيمة ، ولو ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا ؛ منهم أسيّد

(١) في الإصابة : كشد بالسین المهملة وما أنبته من الأصول يوافق ما في المغازي .

(٢) في مغازي الواقدي : « النخبار من وراء ذى المروة على الساحل » .

(٣) الخبر في الإصابة ٣ : ٣٧٧ .

ابن حُصَير ، فلما قدِم رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال أُسَيد : الحمد لله الذى سرك وأظهركَ على عدوك ، والذى بعثك بالحق ما تخلفتُ عنك رغبةً بنفسى عن نفسك ، ولا ظننتُ أنك تلاقى عدوًا ، ولا ظننتُ إلا أنها العير ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : صدقت .

قال : وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، حتى انتهى إلى المكان المعروف بالْبُقْع^(١) وهى بيوت السُّقيا^(٢) ، وهى متصلة ببيوت المدينة ، فضرب عسكره هناك ، وعرض المقاتلة ، فعرض عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأُسَيد بن ظُهَير ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، فردَّهم ولم يُجزِّهم .

قال الواقدي : فحدثني أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : رأيتُ أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يتوارى ، فقلت : مالك يا أخي ؟ قال : إني أخافُ أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرنى ، فيردنى ، وأنا أحبُّ الخروج ، لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة . قال : فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستصغره ، فقال : ارجع ، فبكى [عمير]^(٣) ، فأجازه . قال : فكان سعد يقول : كنت أعقده له حائلَ سيفه من صغره ، فقتل بيدر وهو ابن ستِّ عشرة سنة .

قال : فلما نزل عليه السلام بيوت السُّقيا أمر أصحابه أن يستقوا^(٤) من بئرهم ، وشرب عليه السلام منها ، كان أول مَنْ شرب وصلى عندها ، ودعا يومئذ لأهل المدينة ، فقال :

(١) قال ياقوت « البقع : اسم بئر بالمدينة » ، وقال الواقدي : « البقع من السقيا التي بنى بيزنار بالمدينة »
(٢) فى ياقوت : « عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقى الماء العذب من بيوت السقيا ، وفى حديث آخر : كان يستعذب الماء العذب من بيوت السقيا ، والسقيا : قرية جامعة من عمل القرع ، بينهما مما بلى الحجة تسعة عشر ميلا ... » وقال ابن الفقيه : السقيا من أسافل أودية تهامة .
(٣) من الواقدي .
(٤) ب : « يستقوا » ، وأثبت ما فى الواقدي .

اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونبيتك ، دعاك لأهل مكة ، وإني محمد عبدك ونبيتك ،
أدعوك لأهل المدينة ، أن تبارك لهم في صاعهم ومُدَّهم وثمارهم ، اللهم حبِّب إلينا المدينة ،
واجعل ما بها من الوباء بئس . اللهم إني حرمت ما بين لابتيها ، كما حرمت إبراهيم
خليتك مكة .

قال الواقدي : وخم على ميلين من الحجة .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وآله أمامه عدى بن أبي الزغباء ، وبسيس بن عمرو ،
وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حزام ، فقال : يا رسول الله ، لقد سررتي منزلتك هذا ،
وعرضك فيه أصحابك ، وتفاءلت به ، إن هذا منزلنا بنى سلعة ، حيث كان بيننا وبين أهل
حُسيكة ما كان .

قال الواقدي : هي حُسيكة^(١) الذباب ، والذباب^(٢) : جبل بناحية المدينة ، وكان
بِحُسيكة يهود ، وكان لهم بها منازل .

قال عبد الله بن عمرو بن حزام : فعرضنا يا رسول الله هاهنا أصحابنا ، فأجزنا من كان
يطيق السلاح ، ورددنا من صغر عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حُسيكة ، وهم أعز
يهود كانوا يومئذ ، فقتلناهم كيف شئنا ، فذلت لنا سائر^(٣) يهود إلى اليوم ، وأنا أرجو
يا رسول الله أن نلتقي نحن وقريش ، فيقر الله عينك منهم .

قال الواقدي : وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله
بخرُباء ، فقال له أبوه عمرو بن الجموح : ما ظننت إلا أنكم قد سرتتم ، فقال : إن رسول
الله صلى الله عليه وآله يعرض الناس بالبيع ، فقال عمرو : نعم الفأل ! والله إني لأرجو أن
تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش ، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حُسيكة . قال : فإن

(١) حسيكة ، ضبطه باقوت بالتصغير ، وقال : هو موضع بالمدينة في طرق ذباب .

(٢) ضبطه باقوت : « بكسر أوله وباءين » ، وقال : جبل بالمدينة له ذكر في المغازي والأخبار .

(٣) ب : « اليهود » .

رسول الله صلى الله عليه وآله قد غير اسمه ، وسماه السقيا . قال : فكانت في نفسى أن اشتريها ، حتى اشتراها سعد بن أبي وقاص ببيكرين ، ويقال بسبع أواق ، فذكر للنبي صلى الله عليه وآله أن سعدا اشتراها ، فقال : ربح البيع !

قال الواقدي : فراح رسول الله صلى الله عليه وآله من بيوت السقيا ، لاثنتي عشرة ليلة^(١) مضت من رمضان ، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة ، وتختلف ثمانية ، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، فكانت الإبل سبعين بعيراً ، وكانوا يتعاقبون الإبل : الاثنان ، والثلاثة ، والأربعة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى بن أبي طالب عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد - ويقال زيد بن حارثة مكان مرثد - يتعاقبون بعيراً واحداً ، وكان حمزة بن عبدالمطلب ، وزيد ابن حارثة ، وأبو كبشة ، وأنسة ، موالى النبي صلى الله عليه وآله على بعير ، وكان عبدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث ، ومسطح بن أثاثة على بعير لعبدة بن الحارث ناضح^(٢) ابتاعه من أبي داود المازني ، وكان معاذ وعوف ومعوذ بنو عفراء ومولاهم أبو الحمراء على بعير ، وكان أبي بن كعب ومحمارة بن حزام وحارثة بن النعمان على بعير ، وكان خراش ابن الصمة وقطبة بن عامر بن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير ، وكان عتبة ابن غزوان وطليب بن عمير على جمل لعتبة بن غزوان يقال له العبس ، وكان مصعب ابن عمير وسويبط بن حرملة ومسعود بن ربيع على جمل لمصعب ، وكان عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود على بعير ، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازني وسليط بن قيس على جمل لعبد الله بن كعب ، وكان عثمان بن عفان وقدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون والسائب بن عثمان على بعير يتعاقبون ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف على بعير ، وكان سعد بن معاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوس والحارث بن أنس على جمل لسعد بن معاذ ناضح . يقال له الذبئال ، وكان سعيد بن زيد ، وسلمة بن

(١) ساقطة من ب

(٢) الناضح : البعير يستقى عليه الماء .

سلامة بن وقش ، وعباد بن بشر ، ورافع بن يزيد على ناضح لسعيد بن زيد ، ماتزودوا
إلا صاعاً من نمر .

قال الواقدي : فروى مُعاذ بن رفاعه ، عن أبيه ، قال : خرجت مع النبي صلى الله
عليه وآله إلى بدر ، وكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيراً ، فكنت أنا وأخي خلاد بن رافع
على بكرٍ لنا ومعنا عبيدة بن يزيد بن عامر ، فكنتا نتعاقب ، فسِرْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالرَّوْحَاءِ
إِذْ مَرَّ بِنَا بَكْرُنَا وَبَرَكْ عَلَيْنَا وَأَعْيَا ، فَقَالَ أَخِي : اللَّهُمَّ إِنْ لَكَ عَلَيَّ نَذْرًا ، لئن رددتنا إلى
المدينة لأخترته ، فمر بنا النبي صلى الله عليه وآله ونحن على تلك الحال ، فقلنا : يا رسول الله
برك علينا بكرنا ، فدعا بماء فتمضمض وتوضأ في إناء ، ثم قال : افتحاً فاه ، ففعلنا فصبه
في فيه ، ثم على رأسه ثم على عنقه ، ثم على حارِكه ، ثم على سَنَامِهِ ، ثم على عَجْزِهِ ، ثم
على ذَنَبِهِ ، ثم قال : اركبا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله فالحقناه أسفل من
المنصرف ، وإن بكرنا لينفر بنا ، حتى إذا كنا بالمصلى راجعين من بدر ، برك علينا ،
ففحره أخى ، فقسم لحمه وتصدق به .

قال الواقدي : وقد روى أن سعد بن عبادة حمل في بدر على عشرين جملاً .

قال : وروى عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال : فخرجنا إلى بدرٍ مع رسول الله
صلى الله عليه وآله ومعنا سبعون بعيراً فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على
بعير ، وكنتُ أنا من أعظم أصحاب النبي عليه السلام عنه غَنَاءً ، وأرجلهم رُجْلَةٌ (١) ،
وأرمامهم لِسْتَهُمْ ، لم أركب خطوة ذاهباً ولا راجعاً .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين فصل من بيوت السقيا :
اللهم إنهم حُفَاءٌ فَاحْمِلْهُمْ ، وعِزَّةٌ فَاكْسُهُمْ ، وجِياعٌ فَاشْبِعْهُمْ ، وعَالَةٌ فَاغْنِهِمْ من فضلك ؛
فارجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً ، للرجل البعير والبعيران ، واكتسى

(١) الرجلة بالضم : القوة على المشي

مَنْ كَانَتْ عَارِيًا ، وَأَصَابُوا طَعَامًا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ ، وَأَصَابُوا فِدَاءَ الْأَسْرَى^(١) ، فَأَغْنَى بِهِ كُلَّ عَائِلٍ .

قال : واستعمل رسولُ الله صلى الله عليه وآله على المشاة قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبذول - وأمره النبي صلى الله عليه وآله حين فَصَلَ من بُيُوت السُّقْيَا أن يَعدَّ للمسلمين ، فوقف لهم بيئر أبي عبيدة يَعدُّهم ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وآله ، وخرج من بُيُوت السُّقْيَا ، حتى سلك بطن العقيق ، ثم سلك طريق المكثمين^(٢) ، حتى خرج على بطحاء بن أزهر ؛ فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك ، فبنى منها مسجدا ، فصلى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ؛ ثم صار إلى بطن مَلَلٍ وتُرْبَانٍ بين الحفيرة ومَلَلٍ .

قال الواقدي : فكان سعد بن أبي وقاص ، يقول : لما كنَّا بترَبَّانٍ ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : يا سعد ، انظر إلى الظبي ، فأفوتَّ له بسهم ، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله فوضع رأسه بين منكبَي وأذني ، ثم قال : اللهم سَدِّدْ رَمِيَّتَهُ - قال : فما أخطأ سهمي عن نحره ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرجت أعدُو فأخذته وبه رَمَقٌ فذَكَيْتَهُ^(٣) ، فحماناه حتى نزلنا قريبا ، أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله فقسِمَ بين أصحابه .

قال الواقدي : وكان معهم فرسان : فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وفرس للمقداد ابن عمرو البهراني ، حليف بني زُهرة ، ويقال فرس للزبير ؛ ولم يكن إلا فرسان لا اختلاف عندهم^(٤) ، أن المقداد له فرس ؛ وقد روى عن ضباعة بنت الزبير عن المقداد ،

(١) : « للاسرى » .

(٢) المكثمين ، ضبطه ياقوت على التصغير ، وقال : « عقيق المدينة » وفي الواقدي : « المكثمن » .

(٣) ذكيتته . ذبحته . (٤) الواقدي : « عندهم » .

قال : كان معي يوم بدر فرس يقال له سبعة . وقد روى سعد بن مالك الغنوي عن آباه أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي شهد بدرأ على فرس له يقال له السيل .

قال الواقدي : ولحقت قريش بالشام في غيرها ، وكانت العير ألف بعير ، وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشيته له منقال فصاعدا إلا بعث به في العير ؛ حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه ، وكان يقال : إن فيها لمخمين ألف دينار . وقالوا : أقل ، وإن كان ليقال : إن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة إماما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف ، وكان عامة العير لهم ؛ ويقال : بل كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف منقال ذهبا ، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا منقال .

قال الواقدي : وحدثني هشام بن عمار بن أبي الحويرث ، قال : كان لبني عبدمناف فيها عشرة آلاف منقال ، وكان متجروهم إلى غزاة من أرض الشام .

قال الواقدي : وحدثني عبد الله بن جعفر ، عن أبي عون مولى المسور ، عن مخزومة ابن نوفل ، قال : لما لحقنا بالشام أدرگنا رجل من جذام ، فأخبرنا أن محمدا قد كان عرض لعيرنا في بدأتنا ، وأنه تركه مقيا ينتظر رجعتنا ، قد حالف علينا أهل الطريق ووادعهم . قال مخزومة : فخرجنا خائفين نخاف الرصد ، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فصلنا من الشام .

قال الواقدي : وكان عمرو بن العاص مع العير ، وكان يحدث بعد ذلك يقول : لما كنا بالزرقاء - والزرقاء بالشام من أذريعات على مرحلتين - ونحن منحدرون إلى مكة لقينا رجلا من جذام ، فقال : قد كان عرض محمدا لكم في بدأتكم في أصحابه ، فقلنا : ما شعرنا ، قال : بلى ، فأقام شهرا ، ثم رجع إلى يثرب ، وأتم يوم عرض محمدا لكم مخفون فهو الآن أحرى أن يعرض لكم ؛ إنما يعد لكم الأيام عددا ، فاحذروا على عبيركم ،

وارتثوا آراءكم ، فوالله ما أرى من عدد ولا كراع ولا حلقة^(١) . فأجمع القوم أمرهم ، فبعثوا ضمضم بن عمرو ، وكان في العير ، وقد كانت قريش مرت به وهو بالساحل ، معه بكران ، فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أن محمداً قد عرض لعيرهم ، وأمره أن يمدح بعيره إذا دخل ، ويحول رحله ، ويشق قميصه من قبله ودبره ، ويصيح : الغوث الغوث ! ويقال : إنما بعثوه من تبوك ، وكان في العير ثلاثون رجلاً من قريش ؛ فيهم عمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل .

قال الواقدي : وقد كانت عائكة بنت عبد المطلب رأت قبل مجيء ضمضم بن عمرو رؤيا أفرعتها ، وعظمت في صدرها ، فأرسلت إلى أخيها العباس ، فقالت : يا أخي ، لقد والله رأيت رؤيا أفرعتني^(٢) وتخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌ ومصيبة ، فآتكم على ما أحدثك منها ، رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته يا آل غدَر ، أنفروا إلى مصارعكم في ثلاث ، فصرخ بها ثلاث مرات : فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد ، والناس يتبعونه إذ مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، فصرخ مثلها ثلاثاً ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ثلاثاً ، ثم أخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها ، فأقبلت تهوي ، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضت ، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دارٌ من دورها إلا دخلته منه فلذة^(٣) .

قال الواقدي : وكان عمرو بن العاص يحدث بعد ذلك فيقول : لقد رأيتُ كل هذا ، ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انفلتت من أبي قبيس ، ولقد كان ذلك عبرة ، ولكن الله لم يرد أن نسلم يومئذ ، لكنه أخرجنا إلى ما أراد .

قلت : كان بعض أصحابنا يقول : لم يكفِ عمرأ أن يقول : رأيتُ الصخرة في دور مكة عياناً ، فيخرج ذلك مخرج الاستهزاء باطننا على وجه النفاق واستخفافه بقول المسلمين ،

(٢) الواقدي : « أفضعتها » .

(١) الحلقة هنا : السلاح .

(٣) الفلذة : القطعة من الحجارة

زعم حتى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصراح فيقول : إن الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذ .

قال الواقدي : قالوا : ولم يدخل دارا ولا بيتا من دُور بني هاشم ولا بني زُهرة من تلك الصخرة شيء ! قال : فقال العباس : إن هذه لرؤيا ، فخرج مغتما ، حتى لقي الوليد بن عتبة ابن ربيعة - وكان له صديقاً - فذكرها له واستكتمه ؛ ففشا الحديث في الناس ، قال العباس : فغدوت أطوف بالبيت ، وأبو جهل في رهطٍ من قريش يتحدّثون برؤيا عاتكة ، فقال أبو جهل : ما رأت عاتكة هذه ؟ فقلت : وما ذلك ؟ فقال : يا بني عبد المطلب ، أما رضيتم بأن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ! زعمت عاتكة أنها رأت في المنام كذا وكذا - للذي رأت - فسنتر بص بكم ثلاثا ، فإن يكن ما قالت حقاً فيكون ، وإن مضت الثلاث ولم يكن ، نكتب عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب ! فقال له العباس : يامصفر استه ، أنت أولى بالكذب واللؤم منا ! فقال أبو جهل : إنا استبقنا المجد وأتم ، فقلتم : فينا السقاية ، فقلنا : لانبألى ، تسقون الحججاج ، ثم قلتم : فينا الحجابة ، فقلنا : لانبألى تحجبون البيت ، ثم قلتم : فينا الندوة ، قلنا : لانبألى يكون الطعام فتطعمون الناس . ثم قلتم : فينا الرقادة ، فقلنا : لانبألى ، تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف ، فلما أطعمنا الناس وأطعمتم ، وازدحمت الركب واستبقنا المجد ، فكنا كفرسى رهان ، قلتم : منا نبي ، ثم قلتم : منا نبيّة ! فلا واللآت والعزى لا كان هذا أبدا !

قلت : لا أرى كلام أبي جهل منتظما ؛ لأنه إذا سلم للعباس أن هذه الخصال كلها فيهم ، وهي الخصال التي تشرف بها القبائل بعضها على بعض ، فكيف يقول : لانبألى لانبألى ! وكيف يقول : فلما أطعمنا للناس وأطعمتم ، وقد كان الكلام منتظما ، لو قال : ولنا بإزاء هذه المفاخر كذا وكذا ، ثم يقول بعد ذلك : استبقنا المجد فكنا كفرسى رهان ، وازدحمت الركب ؛ ولم يقل شيئا ولا عدّ مآثره ، ولعلّ أبا جهل قد قال ما لم ينقل .

قال الواقدي : قال العباس : فوالله ما كان مني غير أنني جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً ، فلما أمسيت لم تبق امرأة أصابتها ولادة عبد المطلب إلا جاءت ، فقلن لي : أرضيتم بهذا الفاسق الخبيث يقع في رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم ! ولم تكن لك عند ذلك غيره ! فقلت : والله ما قلت إلا لأنني لا أبالي به ، ولأيم الله لأعريضن له غدا ، فإن عاد كفيئتكُن إياه . فلما أصبحوا من ذلك اليوم الذي رأت فيه عاتكة ما رأت ، قال أبو جهل : هذه ثلاثة أيام مابقي . قال العباس : وغدوت في اليوم الثالث ، وأنا حديد مغضب ، أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه ، وأذكر ما أحفظني به النساء من مقاتهن ، فوالله إنني لأمشي نحوه - وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر - إذ خرج نحو باب بني سَهْم يشتد ، فقلت : ما بانه لعنه الله ! أكل هذا فرقا من أن أشاتم ! فإذا هو قد سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يقول : يا معشر قريش ، يا آل لؤي بن غالب ، اللطيمة قد عرض لها محمد في أصحابه ! الغوث الغوث ! والله ما أرى أن تدركوها ، وضمضم ينادي بذلك في بطن الوادي ، وقد جدع أذني بعيره وشق قميصه قبلاً ودبراً ، وحوّل رحله ، وكان يقول : لقد رأيتني قبل أن أدخل مكة وإنني لأرى في النوم وأنا على راحتي كأن وادي مكة يسيل من أسفله إلى أعلاه دماً ، فاستيقظت فرعاً مذعوراً ، فكرهتها لقريش ، ووقع في نفسي أنها مصيبة في أنفسهم .

قال الواقدي : وكان عمير بن وهب الجحفي يقول : ما رأيت أعجب من أمر ضمضم قط ، وما صرح على لسانه إلا شيطان ! كأنه لم يملكنا من أمورنا شيئاً ، حتى نفرنا على الصعب والذلول ، وكان حكيم بن حزام يقول : ما كان الذي جاءنا فاستنفرنا إلى العير إنساناً ! إن هو إلا شيطان ، قيل : كيف يا أبا خالد ؟ قال : إني لأعجب منه ، ما ملكنا من أمرنا شيئاً . قال الواقدي : فجهز الناس وشغل بعضهم عن بعض ، وكان الناس بين رجلين : إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة ، وسرّ بنو هاشم .

وقال قائلهم : كلاً ، زعمتم أنا كذبنا وكذبت عاتكة ! فأقامت قريش ثلاثاً تتجهز -
ويقال : يومين - وأخرجت أسلحتها واشترتوا سلاحاً ، وأعان قوئهم ضعيفهم ، وقام سهيل
ابن عمرو في رجال من قريش ، فقال : يامعشر قريش ، هذا محمد والصبابة معه من شبانكم
وأهل يثرب قد عرضوا العيركم ولطيبتكم^(١) ، فمن أراد ظهراً فهذا ظهر ، ومن أراد قوّة فهذه
قوّة . وقام زمعة بن الأسود ، فقال : إني واللآلئ والعزى ما نزل بكم أمر أعظم من أن
طلع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم ؛ فأوعبوا^(٢) ولا يتخلف منكم
أحد ، ومن كان لا قوّة له فهذه قوّة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروعكم منهم
إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم . وقال طعيمة بن عدى : يامعشر قريش ، والله ما نزل بكم
أمر أجل من هذه ! أن يستباح عيركم ، ولطيمة قريش فيها أموالكم و خزائنكم ؛ والله ما أعرف
رجلاً ولا امرأة من بنى عبدمناف له نش^(٣) فصاعداً إلا وهو في هذه العير ، فمن كان لا قوّة به
فعندنا قوّة نحمله وتقوية . فحمل على عشرين بعيراً وقوى بهم ، وخلفهم في أهلهم بمعونة . وقام
حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحضا الناس على الخروج ، ولم يدعوا إلى قوّة
ولا حُملان ؛ فقيل لهما : ألا تدعوان إلى مادعا إليه قومكما من الحملان ؟ قالوا : والله ما لنا
مال ، وما للمال إلا لأبي سفيان . ومشى نوفل بن معاوية الديلمي إلى أهل القوّة من قريش ،
وكلمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج ، فكلم عبد الله بن أبي ربيعة ، فقال : هذه
خمسائة دينار تضعها حيث رأيت ، وكلم حويطب بن عبد العزى ، فأخذ منه مائتي دينار
أو ثلثائة ، ثم قوى بها في السلاح والظهر .

قال الواقدي : وذكروا أنه كان لا يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعثاً ،
فشت قريش إلى أبي لهب ، فقالوا له : إنك سيد من سادات قريش ، وإنك إن تخلفت عن

(١) اللطيمة : التجارة ؛ وقيل : اللطيمة : العطر خاصة .

(٢) أوعبوا : استعدوا .

(٣) النش : وزن نواة من ذهب .

النفير يعتبر بك غيرك من قومك، فأخرج أو ابعث رجلاً ، فقال : واللآلئ والعزى لا أخرجُ ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال : أقم يا أبا عتبة ، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لديك ودين آباءك ! وخاف أبو جهل أن يُسلم أبو لهب ، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث ، وما منع أبا لهب أن يخرج إلا الإشفاقُ من رؤيا عاتكة ، كان يقول : إنما رؤيا عاتكة أخذ باليد ، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه دين ، فقال : اخرج وديني عليك لك ، فخرج عنه .

وقال محمد بن إسحاق في المغازي : كان دين أبي لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم ، فمظله بها ، وأفلس فتركها له على أن يكون مكانه ، فخرج مكانه .

قال الواقدي : وأخرج عتبة وشيبة دروعاً لهما فنظر إليهما مولاهما عداس وهما يصلحان دروعهما وآله حربهما ، فقال : ماتريدان ؟ فقالا : ألم تر إلى الرجل الذي أرسلناك إليه بالعنب في كرمنا بالطائف ؟ قال : نعم ، قال : نخرج فنقاتله ، فبكي ، وقال : لا تخرجا فوالله إنه لنبي ، فأبيا فخرجا ، وخرج معهما فقتل بيدر معهما .

قلت : حديث العنب في كرم ابني ربيعة بالطائف ، قد ذكره أرباب السيرة ، وشرحه الطبري في التاريخ ، قال : لما مات أبو طالب بمكة طمعت قريش في رسول الله صلى الله عليه وآله ونالت منه ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب ، فخرج من مكة خائفاً على نفسه مهاجراً إلى ربه يؤم الطائف ، راجياً أن يدعو أهلها إلى الإسلام فيجيبوه ، وذلك في شوال من سنة عشر من النبوة ، فأقام بالطائف عشرة أيام ، وقيل شهراً ، لا يدع أحداً من أشرف ثقيف إلا جاءه وكلمه ، فلم يجيبوه ، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم ، ويلحق بمجاهل الأرض وبحيث لا يعرف ، وأغروا به سفهاءهم ، فرموه بالحجارة ، حتى إن رجله لتدميان ، فكان معه زيد بن حارثة ، فكان يقيه بنفسه ، حتى لقد سُجَّ في رأسه .

والشَّيعة تروى أن علي بن أبي طالب كان معه أيضا في هجرة الطائف ، فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وآله عن تقيف وهو محزون ، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب بن عمرو بن عمير ، وهم يومئذ سادة تقيف ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله وإلى نصرته والقيام معه على قومه ، فقال له أحدهم : أنا أمرط^(١) بباب الكعبة ، إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحدا أرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلِّك كلمة أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لآنت أعظمُ خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت كاذبا على الله ما ينبغي أن أكلِّك . فقام رسول الله صلى الله عليه وآله من عندهم ، وقد ينس من خير تقيف ، واجتمع عليه صبيانهم وسفهاؤهم ، وصاحوا به وسبوه وطرده ، حتى اجتمع عليه الناس يعجبون منه ، وأجؤوه بالحجارة والطرْد والشتم إلى حائط^(٢) لعُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما يومئذ في الحائط ، فلما دخل الحائط رجع عنه سفهاء تقيف ، فعمد إلى ظل حَبْلة^(٣) منه فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران ويريان مالتى من سفهاء تقيف .

قال الطبري : فلما اطمأن به قال - فيما ذكر لي : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ؛ يا أرحمَ الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى من تكلّني ! إلى بعيد فيتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، فإن لم يكن منك غضب على فلا أبالي ! ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصدح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك !

فلما رأى عتبة وشيبة مالتى تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما نصرانيا لها ، يقال له

(١) في الطبري : « هو يمرط نيب الكعبة » ، أي يمزقها . (٢) الحائط هنا : البستان .

(٣) الحبلية : الكرمة .

عدّاس ، فقالا له : خذ قِطْفاً^(١) من هذا العنب وضعه في ذلك الطَبَق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، وقل له فليأكل منه ، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه ، فوضع يده فيه ، فقال : بسم الله ، وأكل ، فقال عدّاس : والله إن هذه الكلمة لا يقولها أهل هذه البلدة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : من أيّ البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصرانيّ من أهل نينوى ، قال : أم من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال : وما يدريك من يونس بن متى ؟ قال : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبيّ . فأكبّ عدّاس على يديه ورجليه ورأسه يقبلها ، قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك ، فلمّا جاءها قالا : ويلك يا عدّاس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ! قال : يا سيدي ، ما في الأرض خير من هذا ، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبيّ^(٢) .

قال الواقديّ : واستقسمت قريش بالأزلام عند هُبل للخروج ، واستقسم أمية بن خلف وعُتبة وشيبة بالآمر والنهي ، فخرج القِدْح^(٣) الناهي ، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل ، فقال : ما استقسمتُ ولا تتخلف عن غيرنا .

قال الواقديّ : لما توجه زُمنة بن الأسود خارجاً ، فكان بذى طُوًى أخرج قِداحه ، واستقسم بها فخرج الناهي عن الخروج ، فلقى غيظاً ، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فكسرها ، وقال : ما رأيت كاليوم قِدحاً أكذب ! ومرّ به سُهَيْل بن عمرو وهو على تلك الحال ، فقال : مالي أراك غضبان يا أبا حُكَيْمة ؟ فأخبره زُمنة ، فقال : امض عنك أيها الرجل ، قد أخبرني عُمير بن وهب أنه لقيته مثل الذي أخبرني ، فمضوا على هذا الحديث^(٤) .

(١) القطف : عنقود العنب . وهو في الأصل : اسم لكل ما يقطف .

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ٣٤٥ ، ٣٤٦ (طبعة المعارف) .

(٣) القدح هنا : السهم الذي كانوا يستقسمون به . (٤) مغازي الواقدي ٢٧ .

قال الواقدي: وحدثني موسى بن ضمرة بن سعيد، عن أبيه، قال: قال أبو سفيان بن حرب لضمضم: إذا قدمت على قريش فقل لها: لا تستقسم بالأزلام.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن أبي بكر بن سليم بن أبي خيثمة، قال: سمعتُ حكيم بن حزام يقول: ما توجهتُ وجها قطّ كان أكرة إلى من مسيرى إلى بدر ولا بان لي في وجه قطّ ما بان لي قبل أن أخرج، ثم قال: قدم ضمضم فصاح بالتغير فاستقسم بالأزلام، كلُّ ذلك يخرج الذي أكره، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مرّ الظهران، فنحّر ابنُ الحنظلية جَزورا منها بها حياة، فما بقي خِباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها، فكان هذا بين^(١)، ثم همتُ بالرجوع، ثم أذكر ابن الحنظلية وشؤمه؛ فبردتني حتى مضيت لوجهي. وكان حكيم يقول: لقد رأينا حين بلغنا الثنية البيضاء - وهي الثنية التي تهبطك على فتح وأنت مقبل من المدينة - إذا عدّاس جالس عليها، والناس يمرّون، إذ مرّ علينا ابنا ربيعة، فوثب إليهما، فأخذ بأرجلهما في غرّزهما، وهو يقول: بأبي أنما وأمتي! والله إنه لرسولُ الله صلى الله عليه، وما تساقان إلا إلى مصارعكما! وإن عينيه لتسيل دما على خديه، فأردت أن أرجع أيضا، ثم مضيت، ومرّ به العاص بنُ منبّه بن الحجاج، فوقف عليه حين ولى عُتْبة وشَيْبة، فقال: ما بيكيك؟ قال: بيكيني سيدي - أو سيّدا أهل^(٢) الوادي - يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله صلى الله عليه وآله! فقال العاص: وإن محمدا لرسول الله! فانتفض عدّاس انتفاضة واقشعر جلدُه، ثم بكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة. قال: فأسلم العاص بن منبّه، ومضى وهو على الشك، حتى قُتِل مع المشركين على شك وارتياب. ويقال: رجع عدّاس ولم يشهد بدرا، ويقال: شهد بدرا وقتل.

قال الواقدي: والقول الأوّل أثبت عندنا.

(١) في الأصول: «بينه» والتصويب من الواقدي.

(٢) الواقدي ٢٨: «بيكيني سيدي وسيّدا أهل الوادي»

قال الواقدي : وخرج سعد بن معاذ معتمرا قبل بدر ، فنزل على أمية بن خلف ، فأتاه أبو جهل ، وقال : أتترك هذا وقد آوى محمدا وآذنتنا بالحرب ! فقال سعد بن معاذ : قل ماشئت ، أما إن طريق غيركم علينا ، قال أمية بن خلف : مه ! لا تقل هذا لأبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي . قال سعد بن معاذ : وأنت تقول ذلك يا أمية ؟ أما والله لسمعت محمدا يقول : لأقتلن أمية بن خلف ، قال أمية : أنت سمعته ؟ قال سعد بن معاذ : فقلت : نعم ، قال : فوق في نفسه ، فلما جاء النفي أبي أمية أن يخرج معهم إلى بدر ، فأتاه عقبه بن أبي مغيط وأبو جهل ، ومع عقبه بجمرة فيها بنحور ، ومع أبي جهل مكحلة ومروء ، فأدخلها عقبه تحته ، فقال : تبخر ، فإنما أنت امرأة ، وقال أبو جهل : اكنحل فإنما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي ، فابتاعوا له جملا بثمانمائة دينار من نعم بني قشير ، فغنمه المسلمون يوم بدر ، فصار في سهم حبيب^(١) بن يساف .

قال الواقدي : وقالوا ما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث ابن عامر ، وقال : ليت قر يشا تعزم على التعمود وأن مالي في العير تلف ومال بني عبد مناف أيضا ، فيقال له : إنك سيد من ساداتها ، أفلا تردعها عن الخروج ؟ قال : إنني أرى قر يشا قد أزمعت على الخروج ، ولا أرى أحدا به طريق^(٢) تخلف إلا من علة ، وأنا أكره خلافها ، وما أحب أن تعلم قر يش ما أقول ، على أن ابن الحنظلية رجل مشثوم على قومه ، ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب ، ولقد قسم الحارث^(٣) مالا من ماله بين ولده ، ووقع في نفسه أنه لا يرجع إلى مكة ، وجاءه ضمضم بن عمرو ، وكانت للحارث عنده أباد ، فقال : أبا عامر ، إنني رأيت رؤيا كرهتها ، وإنني لك أليقظان على راحلتى وأراكم أن واديكم بسيل دما من أسفله إلى أعلاه ، فقال الحارث : ما خرج أحد وجهاً من الوجوه أكره له من وجهي هذا ، قال : يقول ضمضم : والله إنني لأرى لك أن تجلس ، فقال الحارث : لو سمعت

(١) الواقدي ٢٩ ، وفي الأصول « حبيب » ، والتصويب من الواقدي والإصابة .

(٢) ساقطة من الواقدي .

(٣) أي قوة

هذا منك قبل أن أخرج ماسرت خطوة ، فاطو هذا الخبر أن تعلمه قر يش ، فإنها
تتهم كل من عوتها عن المسير - وكان ضمضم قد ذكر هذا الحديث للحارث يبطن
يأجج^(١) - قالوا : وكرهت قر يش أهل الرأي منهم المسير ، ومشى بعضهم إلى بعض ، وكان
تمن أبطأ بهم من ذلك الحارث بن عامر ، وأمّية بن خلف ، وعُتْبة وشيبة ابنا ربيعة ،
وحكيم بن حزام وأبو البختري ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه ، حتى بكتهم
أبو جهل بألبين ، وأعانه عُتْبة بن أبي مُعَيْط والنضر بن الحارث بن كلدة ، وحضوهم على
الخروج ، وقالوا : هذا فعل النساء . فأجمعوا المسير ، وقالت قر يش : لا تدعوا أحدا من
عدوكم خلفكم^(٢) .

قال الواقدي : ومما استدلت به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعُتْبة وشيبة ،
أنه ما عرض رجل منهم لحملانا ، ولا حملوا أحدا من الناس ، وإن كان الرجل لياتيهم
حليفاً أو عديدا ، ولا قوة له ، فيطلب الحملان منهم ، فيقولون : إن كان لك مال وأحببت
أن تخرج فافعل وإلا فأقم ، حتى كانت قر يش تعرف ذلك منهم .

قال الواقدي : فلما اجتمعت قر يش إلى الخروج والمسير ، ذكروا الذي بينهم وبين
بني بكر من العداوة ، وخافوهم على من يخلفونه ، وكان أشدّهم خوفاً عُتْبة بن ربيعة ،
وكان يقول : يامعشر قر يش ، إنكم وإن ظفرتتم بالذي تريدون ، فإننا لا نأمن على من
نخلف ، إنما نخلف نساء ولا ذرية ومن لا طعم به فارتثوا آراءكم^(٣) ، فتصوّر لهم إبليس في
صورة سُرّاقة بن جعشم المدلجي فقال : يامعشر قر يش ، قد عرفتم شرفي ومكائي في قومي ،
أنا لكم جار أن تأتيكم كناية بشي تكرهونه ، فطابت نفس عُتْبة ، وقال له أبو جهل :

(١) الأصول : « تأجج » ، وأثبت ما في الواقدي .

(٢) الواقدي : « رأيكم » .

(٣) الواقدي ٣٠

فما تريد؟ هذا سيد كنانة ، هولنا جارٌ عليّ^(١) من نخلف ، فقال عتبة : لا شيء
أنا خارج^(٢) .

قال الواقدي : وكان الذي بين بني كنانة وقريش أن ابناً لحفص بن الأحنف أحد
بني مُعيط بن عامر بن لؤي ، خرج يبغى ضالّة ، وهو غلام في رأسه ذؤابة ، وعليه حُلّة ،
وكان غلاماً وضيئاً ، فمرّ بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح بن يعمر ، أحد رؤساء بني كنانة -
وكان بضجّنان - فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : ابن لحفص بن الأحنف ، فقال : يا بني
بكر ، ألكم في قریش دم ؟ قالوا : نعم قال : ما كان رجل يقتل هذا برجله إلا استوفى ،
فاتبعه رجلٌ من بني بكر فقتله بدمٍ له في قریش ؛ فتكلمت فيه قریش ، فقال عامر
ابن يزيد : قد كانت لنا فيكم دماء ، فإن شئتم فأدّوا مالنا قبلكم ونؤدّي إليكم ما كان
فيها ، وإن شئتم فإنّما هو الدّم ؛ رجل برجل ؛ وإن شئتم فتجافوا عنا فيما قبلنا ، وتجافي
عنكم فيما قبلكم . فهان ذلك الغلام على قریش ، وقالوا : صدق ! رجل برجل ؛ فلهوا
عنه أن يطلبوا بدمه ، فبينما أخوه مكرز بن حفص بمرّ الظّهّران ، إذ نظر عامر بن يزيد
وهو سيد بني بكر على جمل له ؛ فلما رآه قال : ما أطلب أثراً بعد عين ! وأناخ بعيره ، وهو
متوشح سيفه ، فعلاه به حتى قتله ، ثم أتى مكة من الليل ، فعلق سيف عامر بن يزيد
بأستار الكعبة ، فلما أصبحت قریش رأوا سيف عامر بن يزيد ، فعرفوا أن مكرز بن
حفص قتله ، وقد كانت تسمع من مكرز في ذلك قولاً ، وجزعت بنو بكر من قتل سيدها ،
فكانت معدّة لقتل رجلين من قریش سيدين أو ثلاثة من ساداتها ، فجاء النّفير وهم على
هذا الأمر ، فخافوهم على من نخلف بمكة من ذراريهم ، فلما قال سراقه ماقال ، وهو ينطق
بلسان إبليس شجّع القوم^(٣) .

قال الواقدي: وخرجت قريش سراعا، وخرجوا بالقيان والدقوف؛ سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزة مولاة أسود بن المطلب، وفلانة مولاة أمية بن خلف، يفتنين في كل منهل، وينحرون الجزر، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحراب، وخرجوا بتسمائة وخمسين مقاتلا، وقادوا مائة فرس، بطراً ورتاء الناس؛ كما ذكر الله تعالى في كتابه^(١)؛ وأبو جهل يقول أبيض محمد أن يصيب منا ما أصاب بنخلة وأصحابه؛ سيعلم أمنع^(٢) غيرنا أم لا^(٣).

قلت: سرية نخلة سرية قبل بدر، وكان أميرها عبد الله بن جحش قتل فيها عمرو ابن الحضرمي، حليف بني عبد شمس، قتله واقد بن عبد الله التيمي؛ رماه بسهم فقتله، وأسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، واستاق المسلمون العير؛ وكانت خمسمائة بعير فحتمها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقسم أربعين فيمن شهدا من المسلمين؛ وهم مائتا رجل، فأصاب كل رجل بعيران.

قال الواقدي: وكانت الخيل لأهل القوة منهم، وكان في بني مخزوم منها ثلاثون فرسا، وكانت الإبل سبعمائة بعير، وكان أهل الخيل كلهم دارع، وكانوا مائة؛ وكان في الرجالة دروع سوى ذلك^(٣).

قال الواقدي: وأقبل أبو سفيان بالعير، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة، واستبطثوا ضمضاً والتفيرا، فلما كانت الليلة التي يُصبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبلُ بوجوها إلى ماء بدر؛ وكانوا باتوا من وراء بدر آخرَ ليلتهم، وهم على

(١) ذكر الواقدي بعدها الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ...﴾. إلى آخر الآية.

(٢) الواقدي ٣٢، ٣٣

(٣) الواقدي: «أمنع».

أن يُصبحوا بدرًا ؛ إن لم يعترض لهم ؛ فما أقرتهم العير حتى ضربوها بالعقل^(١) على أن بعضها ليثني بعقالين ، وهي ترجع^(٢) الحنين ، تواردا إلى ماء بدر ؛ وما إن بها إلى الماء من حاجة ، لقد شربت بالأمس ؛ وجعل أهل العير يقولون : إن هذا شيء ما صنعتَه الإبل منذ خرجنا ، قالوا : وغشينا تلك الليلة ظلمة شديدة حتى ما نبعثر شيئا^(٣) .

قال الواقدي : وكان بسبس بن عمرو وعدى بن أبي الزغباء ورَدَا على مجدي بدرًا يتجسسان^(٤) الخبر ، فلما نزل ماء بدر ، أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء ، ثم أخذتا أسقيتهما ، يسقيان من الماء ، فسمعا جاريتين من جوارى جهينة ، يقال لإحدهما برزة وهي تلزم صاحبتهما في درهم ، كان لها عليها وصاحبتهما تقول : إنما العير غدًا أو بعد غد قد نزلت ؛ ومجدي بن عمر يسمعها ، فقال : صدقت ، فلما سمع ذلك بسبس وعدى انطلقا راجعين إلى النبي صلى الله عليه وآله حتى أتياه بعرق الظبية ، فأخبراه الخبر^(٥) .

قال الواقدي : وحدثني كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف العزني ، عن أبيه ، عن جده - وكان أحد البكائين - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لقد سلك فجع الروحاء موسى النبي عليه السلام في سبعين ألفًا من بني إسرائيل وصلوا في المسجد الذي بعرق الظبية^(٦) .

قال الواقدي : وهي من الروحاء على ميلين مما يلي المدينة ؛ إذا خرجت على يسارك .

قال الواقدي : وأصبح أبو سفيان بيدر ، قد تقدم العير وهو خائف من الرصد فقال : يا مجدي ، هل أحسست أحدًا ! تعلم والله ما بمكة قرشي ولا قرشية له نش^(٦)

(١) العقل : جمع عقال ؛ وهو الرباط الذي تعقل به الدابة . (٢) الواقدي : « ترجع » .

(٣) الواقدي ٣٣ ، ٣٤ (٤) الواقدي : « يتجسسان » .

(٥) قال الواقدي : « وهي من الروحاء على ميلين مما يلي المدينة إذا خرجت على يسارك .

(٦) قال الواقدي : « والنش : نصف أوقية ، وزن عشرين درهما » .

فصاعدا - والنش نصف أوقية وزن عشرين درهما - إلا وقد بعث به معنا ! ولئن كتمتناه
شأن عدونا لا يصلحك رجل من قريش ما بل بحر صوفة^(١) . فقال مجدي : والله ما رأيت
أحدا أنكره ، ولا بينك وبين يثرب من عدو ، ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا ،
وما كنت لأخفيه عنك ؛ إلا أني قد رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان - وأشار إلى مناخ
عدى وبسبس - فأناخا به ، ثم استقيا بأسقيتهما ؛ ثم انصرفا . فجاء أبو سفيان مناخهما ،
فأخذ أبعارا من أبعار بعيريهما فقتها ؛ فإذا فيها نوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب !
هذه والله عيون محمد وأصحابه ؛ ما أرى القوم إلا قريبا ، فضرب وجه غيره فساحل^(٢) بها ،
وترك بدرا يسارا وانطلق سريعا ، وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل يطعمون
الطعام من أتام ، وينحرون الجزور ، فينأون كذلك في مسيرهم إذ تخلف عتبة وشيبة ؛ وهما
يترددان ، قال أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ! لقد خشيت^(٣)
منها ؛ قال الآخر : فاذكرها ؛ وذكرها ، فأدركهما أبو جهل ، فقال : ما تتحدثون به ؟ قالوا :
نذكر رؤيا عاتكة ، قال : يا عجبا من بني عبد المطلب ! لم يرضوا أن تتبأ علينا رجالهم
حتى تتبأت علينا النساء ! أما والله لئن رجعنا إلى مكة لنفعلن بهم ولنفعلن ! قال عتبة :
إن لهم أرحاما وقرابة قريبة . ثم قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن ترجع ؟ قال أبو جهل :
أترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما ، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم ثاركم بأعينكم ! أنظننا
أن محمدا وأصحابه يلاقونكما ! كلا والله ، إن معي من قومي مائة وثمانين كلهم من أهل
بيتي يحلون إذا أحلت ، ويرحلون إذا رحلت ، فارجعا إن شئنا . قالوا : والله لقد
هلك وأهلك قومك .

ثم قال عتبة لأخيه شيبة : إن هذا رجل مشنوم - يعني أبا جهل - وإنه لا يمسه من قرابة
محمد ما يمسننا ؛ مع أن محمدا معه الولد فارجع بنا ودع قوله^(٤) .

(١) في اللسان : « صرف البحر شيء على شكل هذا الصوف الحيواني واحده صوفة ، ومن الأبيات
قولهم : « لا آتيك ما بل بحر صوفة » . (٢) سار بها نحو الساحل .
(٣) ب : « سمعت » وأثبت ما في الواقدى (٤) الواقدى ٣٣ ، ٣٥

قلت : مراده بقوله « مع أن محمداً معه الولد » ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، كان أسلم وشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدي : فقال شيبه : والله تكون علينا سبة يا أبا الوليد أن نرجع الآن بعد ماسرنا فمضينا . ثم انتهى إلى الجحفة عشاء ، فنام جهيم بن الصلت بن محرمة بن عبد المطلب ابن عبد مناف ، فقال : إني لأرى بين النائم واليقظان ؛ أنظرُ إلى رجل أقبل على فرسٍ معه بعيره ، حتى وقف على ، فقال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبه بن ربيعة وزمعة بن الأسود ، وأمّية بن خلف ، وأبو البختري ، وأبو الحكم ، ونوفل بن خويلد ، في رجال سبّاهم من أشرف قريش ؛ وأسر سهيل بن عمرو ، وفرّ الحارث بن هشام عن أخيه ، قال : وكان قائلاً يقول : والله إني لأظنهم الذين يخرجون إلى مصارعهم . ثم قال : أراه ضرب في كبة بعيره فأرسله في العسكر ، فقال أبو جهل : وهذا نبي آخر من بني عبد مناف ! ستعلم غداً من المقتول ؛ نحن أو محمد وأصحابه ! وقالت قريش لجهيم : إنما يلعب بك الشيطان في منامك ، فسترى غداً خلاف ما رأيت ! يُقتل أشرف محمد ويؤسرون . قال : فخلا عتبة بأخيه شيبه ، فقال له : هل لك في الرجوع ؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتكة ، ومثل قول عدّاس ، والله ما كذبنا عدّاس ؛ ولعمري لئن كان محمد كاذباً إن في العرب لمن يكفيناه ، ولئن كان صادقاً إنا لأسعد العرب به للحمته . فقال شيبه : هو على ماتقول ؛ أفرجع من بين أهل العسكر ؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال : ماتريدان ؟ قالا : الرجوع ؛ ألا ترى إلى رؤيا عاتكة ؛ وإلى رؤيا جهيم بن الصلت مع قول عدّاس لنا ! فقال : تتخذلان والله قومكما وتقطعان بهم . قالا : هلكت والله وأهلكت قومك ! فضيا على ذلك .

قال الواقدي : فلما أفلت أبو سفيان بالخير ، ورأى أن قد أحرزها وأمن عليها ، أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس - وكان مع أصحاب العير - خرج معهم من مكة ، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع ، ويقول : قد نجت عيركم وأموالكم ، فلا تحرزوا أنفسكم

أهل يثرب ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، إنما خرجتم لتمنعوا غيركم وأموالكم ، وقد نجّأها الله . فإن أبوا عليك فلا يابون خصلة واحدة ؛ يردون القيان ^(١) . فعالج قيس بن امرئ القيس قريشاً ، فأبت الرجوع . قالوا : أما القيسان فسندهن ؛ فردهن من الجحفة ^(٢) .

قلت : لا أعلم مراد أبي سفيان برد القيان ، وهو الذي أخرجهم مع الجيش يوم أحد يحرّضن قريشاً على إدراك النار ، ويغتنين ، ويضربن الدفوف ، فكيف نهى عن ذلك في بدر وفعله في أحد ! وأقول : من تأمل الحال علم أن قريشاً لم يمكن أن تنتصر يوم بدر ، لأن الذي خالطها من التغاذل والتواكل وكرهية الحرب وحب الرجوع وخوف اللقاء وخفوق اليهم وفتور العزائم ، ورجوع بني زهرة وغيرهم من الطريق ، واختلاف آرائهم في القتال ، يكفي بعضه في هلاكهم وعدم فلاحهم ، لو كانوا قد لقوا قوماً جبناءً ، فكيف وإنما لقوا الأوس والخزرج ، وهم أشجع العرب ، وفيهم علي بن أبي طالب عليه السلام وخمزة بن عبد المطلب ، وهما أشجع البشر ، وجماعة من المهاجرين أنجاد أبطال ، ورئيسهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، الداعي إلى الحق والعدل والتوحيد ، المؤيد بالقوة الإلهية ، دع ما أضيف إلى ذلك من ملائكة السماء ، كما نطق به الكتاب !

قال الواقدي : ولحق الرسول أبا سفيان بالهدة - والهدة على سبعة أميال من عتبة عسفان ، على تسعة وثلاثين ميلاً من مكة - فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام ، يكره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس وبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، والله لئن أصاب أصحاب محمد التنفير ذلنا إلى أن يدخل مكة علينا .

قال الواقدي : وقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكانت بدر موسماً

(١) بعدها في الواقدي : « فإن الحرب إذا أكلت انكلت » .

(٢) الواقدي ٣٦

من مواسم العرب في الجاهلية ، يجتمعون بها وفيها سوق - تسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فنقيم على بَدْر ثلاثاً ، ننحر الجزر وننطم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، فلن تزال العرب تهابنا أبداً .

قال الواقدي : وكان الفرات بن حيان العجلي أرسلته قريش حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها ، وما قد حشدت ، فخالف أبو سفيان في الطريق ، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر ، ولزم الفرات بن حيان الحجّة ، فوافى المشركين بالجحفة ، فسمع كلام أبي جهل ، وهو يقول : لا نرجع ، فقال : ما بأنفسهم عن نفسك رغبة ! وإن الذي يرجع بعد أن رأى ثاره من كئيب لضعيف ، فمضى مع قريش ، فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بَدْر جراحات كثيرة ، وهرب على قدميه ، وهو يقول : ما رأيت كالأيوم أمراً أنكد ^(١) ! إن ابن الحنظلية لغير مُبارك الأمر .

قال الواقدي : وقال الأحنس بن شريق ^(٢) - واسمه أبي - ، وكان حليفاً لبني زهرة : يا بني زهرة ، قد نجى الله عيركم ، وخلّص أموالكم ، ونجى صاحبكم تحرمه بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعه وماله ، وإنما محمد رجل منكم ، ابن أختكم ؛ فإن يك نبياً فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خبيها لي ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا في غير ما يهتكم ، ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعني أبا جهل - فإنه مهلك قومه ، سريع في فسادهم ، فأطاعته بنو زهرة ، وكان فيهم مُطاعا ، وكانوا يتيمنون به ، فقالوا : فكيف نضنع بالرجوع حتى نرجع ؟ فقال الأحنس : نسير مع القوم ، فإذا أمسيت سقطت عن بعيري ، فيقولون : نحل ^(٣) الأحنس ، فإذا أصبحوا فقالوا : سيروا ، فقولوا : لا تفارق صاحبنا ، حتى نعلم أحي هو أم ميت ،

(١) في الأصول آكد ، وأثبت ما في الواقدي ٣٦

(٢) الواقدي : « وكان أعراياً » . (٣) الواقدي : « نهش » .

فخندقه ، فإذا مضوا رجعنا إلى مكة . ففعلت بنو زهرة ذلك ، فلما أصبحوا بالأبواء راجعين
تبين للناس أن بنى زهرة رجعوا فلم يشهدوا زهري^(١) البتة ، وكانوا مائة ، وقيل : أقل
من مائة وهو أثبت . وقال قوم : كانوا ثلثمائة ولم يثبت ذلك .

قال الواقدي : وقال عدى بن أبي الزغباء منحدره^(٢) من بدر إلى المدينة ؛ [وانتشرت
الركاب عليه ، فجعل عدى يقول]^(٣) :

أقم لها صدورها يابسُ إن مطايا القوم لا تحبسُ
وحملها على الطريق أكيسُ قد نصر الله وفر الأخنس^(٤)

قال الواقدي : وذكر أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ،
أن بنى عدى خرجوا من النفيير حتى كانوا بثنية لقت^(٥) ، فلما كان في السحر عدلوا في
الساحل منصورين إلى مكة ، فصادفهم أبو سفيان ، فقال : كيف رجعت يا بنى عدى !
ولا في العير ولا في النفيير ! قالوا : أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، فرجع من رجع
ومضى من مضى ، فلم يشهدوا أحد من بنى عدى . ويقال : إنه لاقاهم بمر الظهران ، فقال
تلك المقالة لهم .

قال الواقدي : وأما رسول الله صلى الله عليه وآله^(٥) ، فكان صبيحة أربع عشرة
من شهر رمضان بعرق الظبية ، فجاء أعرابي قد أقبل من تهامة ، فقال له أصحاب النبي
صلى الله عليه وآله : هل لك علم بأبي سفيان بن حرب ؟ قال : مالي بأبي سفيان علم ، قالوا :
تعال ، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : أوفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ،
قال : فأبكم رسول الله ؟ قالوا : هذا ، فقال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم ، قال فما في

(١) الواقدي : « أحد من بنى زهرة » . (٢) الواقدي : « في منحدره » .

(٣) من الواقدي

(٤) الواقدي ٣٨

(٥) الواقدي : « ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بطن ناقتي هذه إن كنت صادقاً؟ فقال سلمة بن سلامة بن وقش : نسكحتها وهي حُبلى منك ! فكره رسول الله صلى الله عليه وآله مقاتله وأعرض عنه .

قال الواقدي : وسار رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أتى الرّوحاء ليلة الأربعاء ، للنّصف من شهر رمضان ؛ فقال لأصحابه : هذا سجاسج - يعني وادي الروحاء - هذا أفضل أودية العرب^(١) .

قال الواقدي : وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالرّوحاء ، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره لعن الكفرة ، ودعا عليهم ، فقال : اللهم لا تغلتنّ أبا جهل ابن هشام فرعون هذه الأمة ، اللهم لا تغلتنّ زَمْعَةَ بن الأسود ، اللهم أسخِنْ عين أبي زَمْعَةَ ! اللهم أعم بصر أبي ذبيلة^(٢) . اللهم لا تغلتنّ سهيل بن عمرو ! ثم دعا لقوم من قريش ، فقال : اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ؛ ولم يدع للوليد بن المغيرة يومئذ ؛ وأسر بيدر ، ولكنه لما رجع إلى مكة بعد بدر أسلم وأراد أن يخرج إلى المدينة فحبس ، فدعاه النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك .

قال الواقدي : وكان خُبَيْب بن يساف رجلاً شجاعاً ، وكان يابى الإسلام ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وآله إلى بدر خرج هو وقيس بن محرث - ويقال ابن الحارث - وهما على دين قومهما ؛ فأدركا رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقيق ؛ وخُبَيْب مَقْتَعٌ في الحديد ، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من تحت المغفر ، فالتفت إلى سعيد بن معاذ وهو يسير إلى جنبه ، فقال : أليس بخُبَيْب بن يساف ؟ قال : بلى ، فأقبل خُبَيْب حتى أخذ

(١) الواقدي ٣٩

(٢) الواقدي : « واعم بصر أبي زمعة » .

بِبطان^(١) ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال له ولقيس بن محرث : ما أخرجكما ؟ قال : كنت ابن اختنا وجارنا ، وخرجنا مع قومنا للغنيمة ، فقال صلى الله عليه وآله : لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا ، فقال خُبَيْب : لقد علم قومي أنني عظيم الغناء في الحرب ، شديد النكابة ، فأقاتل معك للغنيمة ولا أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا ولكن أسلم ثم قاتل ؛ فلما كان بالروحاء جاء فقال : يا رسول الله ، أسلمت لرب العالمين ، وشهدت أنك رسول الله ، فسرّ بذلك ، وقال : امضيه ، فكان عظيم الغناء في بدر وفي غير بدر . وأما قيس بن الحارث فأبى أن يُسلم ، فرجع إلى المدينة ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله من بدر أسلم وشهد أحدا فقتل .

قال الواقدي : ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله صام يوما أو يومين ، ثم نادى مناديه : يا معشر العصاة ، إني مفطر ، فأفطروا ؛ وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذلك : أفطروا فلم يفعلوا^(٢) .

قلت : هذا هو سرّ النبوة وخاصيتها ؛ إذا تأمل المتأملون ذلك ، وهو أن يبلغ بهم حبه وطاعته وقبول قوله على أن يكلفهم ما يشقّ عليهم فيمتثلوه امتثالا صادرا عن حب شديد وحرص عظيم على الطاعة ، حتى إنه لينسخه عنهم ويسقط وجوبه عليهم ، فيكفرون ذلك ولا يسقطونه عن أنفسهم ، إلا بعد الإنكار التام ؛ وهذا أحسن من المعجزات الخارقة للعادات ، بل هذا بعينه معجزة خارقة للعادة أقوى وآكد من شقّ البحر وقلب العصا حية !

قال الواقدي : ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إذا كان دُوَيْنَ بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بمسيرهم ، واستشار الناس

(٢) الواقدي ٤٠ ، ٤١

(١) البطان : حزام القتب .

فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قال : يا رسول الله ؛ إنها قریش وعزها والله ماذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزها أبدا ، ولتقاتلنك فآهت لك أهدت ، وأعدت عدته ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله لأمر الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا .

قال الواقدي : برك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر ، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله خيرا ، ودعاه بخير ، ثم قال صلى الله عليه وآله : أشيروا علي أيها الناس - وإنما يريد الأنصار ، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا في الدار ، وذلك أنهم شرطوا أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أشيروا علي ، فقام سعد بن معاذ ، فقال : أنا أجيب عن الأنصار ، كأنك يا رسول الله تريدنا ! قال : أجل ، قال : إنك عسى أن تكون خرجت عن أمر قد أوحى إليك ، وإنا قد آمنا بك وصدقتناك وشهدنا أن ما جئت به حق ، وأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبي الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقى متارجل ، وصل من شئت ، وخذ من أموالنا ما أردت ، فما أخذته من أموالنا أحب إلينا مما تركت ، والذي نفسي بيده ما سلكت هذه الطريق قط ، ومالي بها من علم ، وإنا لا نكره أن نلقى عدونا غدا ؛ إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا بعض ماتقر به عينك ^(١) .

(١) الواقدي ٤٤ وفيه : « ما تقر به عينك » .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد قال : قال سعد بن معاذ يومئذ : يا رسول الله ، إنا قد خَلَفْنَا من قومنا قوماً ما نحن بأشدَّ حباً لك منهم ، ولا أطوعَ لهم رغبةً ونيةً في الجهاد ، ولو ظننَّا أنك يا رسول الله ملاقي عدوًّا ما تخلفوا عنك ، ولكن إنا ظننَّا أنها العير . نبي لك عريشا ، فتكون فيه ونُعدُّ عندك رواحلك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن تكن الأخرى ، جلست على رواحلك ، فلحقت من وراءنا . فقال له النبي صلى الله عليه وآله خيرا ، ثم قال : أو يقضى الله خيرا ياسعد^(١) !

قال الواقدي : فلما فرغ سعد من المشورة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سيرُوا على بركة الله ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

قال الواقدي : وقالوا : لقد أَرَانَا رسول الله صلى الله عليه وآله مصارعهم يومئذ ، هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، فما عدا كل رجل منهم مصرعه ، قال : فعلم القوم أنهم يلاقون القتال ، وأن العير تفلت ، ورجا القوم النصر لقول النبي صلى الله عليه وآله^(١) .

قال الواقدي : فمن يومئذ عَقَد رسول الله صلى الله عليه وآله الألوية ، وكانت ثلاثة ، وأظهر السلاح ، وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود ، وسار فلقى سُفْيَانَ الضَّمْرِي ، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله قتادة بن النعمان ومعاذ بن جبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من الرجل ؟ فقال الضمري : بل ومن أتم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فاسألوا عما شئتم ، فقال له صلى الله عليه وآله : أخبرنا عن قريش ، قال الضمري : بلغني أنهم خرجوا يوم كذا من مكة ، فإن كان الخبر صادقا ، فإنهم يجنب هذا الوادي ، ثم قال

(١) مغازي الواقدي ٤٥

الضَّمْرِي: فمن أتم؟ فقال النبي: لي الله عليه وآله: نحن من ماء، وأشار بيده نحو العراق، فجعل الضَّمْرِي يقول: من ماء. من أي ماء؟ من العراق أم من غيره؟ ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أصحابه.

قال الواقدي: فبات الفريقان كل منهم لا يعلم بمنزل صاحبه، إنما بينهم قَوْز^(١) من رمل^(٢).

قال الواقدي: ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بجبلين، فسأل عنهما فقالوا: هذا مُسْلِح^(٣) ومُخْرِي، فقال: مَنْ ساكنهما؟ فقيل: بنو النَّار وبنو حَرّاق، فانصرف عنهما وجعلهما يساراً^(٤)، ولقيه بسبس بن عمرو وعدى بن أبي الزغباء فأخبراه خبر قريش، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، فبعث علياً عليه السلام والزبير وسعد بن أبي وقاص وسبس بن عمرو ويتحسسون^(٥) على الماء، وأشار لهم إلى ظُرب^(٦)، وقال: أرجو أن تجدوا الخير عند القليب الذي^(٧) يلي هذا الظُرب^(٨)، فاندفعوا تلقاه، فوجدوا على تلك القليب رِوَايا قريش فيها سقّاؤهم، فأسروهم، وأفلت بعضهم، فكان يَمَن عرف أنه أفلت عجيب، فكان أول مَنْ جاء قريشا بخبر النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، فنادى: يا آل غالب! هذا ابنُ أبي كبشَة وأصحابه، وقد أخذوا سقّاءكم، فجاج العسكر وكرهُوا ما جاء به^(٩).

- (١) الفوز من الرمل: العالى كأنه جبل، وتشبه به أرداف النساء.
- (٢) الواقدي ٤٦، وبعدها: « وكان قد صلى بالديبة، ثم صلى بسير، ثم صلى بذات أجدال، صلى بخيف عين العلا، ثم صلى بالخبيرين، ثم نظر إلى جبلين... »
- (٣) الأصول: « مصلح »، والتصويب من الواقدي.
- (٤) الواقدي: « فانصرف من عند الخبرين، فضى حتى قطع الخيف، وجعلها يسارا حتى سلك في المعرضة ».
- (٥) كذا في الواقدي: وفي الأصول « يتحسون » بالجيم، تصحيف.
- (٦) كذا في الواقدي.
- (٧) الأصول: « التي »، والتصويب من الواقدي.
- (٨) قال الواقدي: « والقليب: بئر بأصل الظُرب، والظُرب: جبل صغير ».
- (٩) الواقدي ٤٦، ٤٧.

قال الواقدي : فكان حكيم بن حزام يحدث ، قال : كنا يومئذ في خيباء لنا على جزور نشوي من لحمها ، فما هو إلا أن سمعنا الخبر ، فامتنع الطعام منا ، ولقي بعضنا بعضا ، ولقيني عتبة بن ربيعة ، فقال : يا أبا خالد ، ما أعلم أحداً يسير أعجب من مسيرنا ، إن غيرنا قد نجت ، وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغياً عليهم ، فقلت : أراه لأمرٍ حم ، ولا رأي لمن لا يطاع ! هذا شوم ابن الحنظلية ، فقال عتبة : أبا خالد ، أخاف أن تبيننا القوم ؟ قلت : لأنت آمن من ذلك ، قال : فما الرأي يا أبا خالد ؟ قلت : نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم .

قال عتبة : هذا الرأي ، قال : فتحارسنا حتى أصبحنا ، فقال أبو جهل : هذا عن أمرٍ عتبة كره قتال محمد وأصحابه ، إن هذا هو العجب ، أتظنون أن محمداً وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله لأنتحين ناحية بقومي فلا يحرسنا أحد ، ففتحت ناحية ، وإن السماء لتمطرُ عليه ، قال : يقول عتبة : إن هذا هو النكد^(١) .

قال الواقدي : أخذ من السقاء من على القليب يسار غلام سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبه بن الحجاج ، وأبورافع غلام أمية بن خلف ، فأتى بهم النبي صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلي ، فسألهم المسلمون ، فقالوا : نحن سقاء قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهم ، ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان وأصحاب العير ، فضر بهم ، فلما أذلقوهم^(٢) بالضرب ، قالوا : نحن لأبي سفيان ، ونحن في العير ، وهذا العير بهذا القوز ، فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وآله من صلاته ، ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم ! فقال أصحابه عليه السلام : إنهم يارسول الله يقولون : إن قريشا قد جاءت ، فقال : لقد صدقوكم ! خرجت قريش تمنع غيرها وخافوكم عليها ، ثم أقبل صلى الله عليه وآله على السقاء ، فقال : أين

(٢) أذلقوهم : أوجعهم ضرباً .

(١) الواقدي ٤٧

قريش؟ فقالوا: خلف هذا الكئيب الذي ترى، قال: كم هم؟ قالوا: كثير، قال: كم عددهم؟ قالوا: لا ندري، قال: كم ينجرُّون؟ قالوا: يوماً عشرة ويوما تسعة، فقال: القوم ما بين الألف والتسعمائة، ثم قال للشَّقاء: كم خرج من أهل مكة؟ قالوا: لم يبق أحدٌ به طعم إلا خرج، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على الناس، فقال: هذه مكة قد ألت إليكم أفلاذ كبدها، ثم سألم رسول الله صلى الله عليه وآله: هل رجع منهم أحد؟ قالوا: نعم رجع ابن أبي شريق بن زهرة، فقال صلى الله عليه وآله: راشد^(١)، وما كان برشيد، وإن كان ما علمت لمعادياً لله ولكتابه. ثم قال: فأحد غيرهم؟ قالوا: نعم بنو عدي بن كعب، فتركهم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال لأصحابه: أشيروا عليّ في المنزل، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، رأيت منزلك هذا، أهو منزل أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، قال: فإن هذا ليس بمنزل! انطلق بنا إلى أدنى مياه القوم، فإني عالم بها وبقلبها، فإن بها قلبياً قد عرفت عذوبة مائها، وماؤها كثير لا ينزح؛ نبي عليها حوضاً، وتغذف فيها بالآنية فنشرب، ونقاتل، ونعور^(٢) ما سواها من القلب.

قال الواقدي: فكان ابن عباس يقول: نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وآله فقال: الرأى ما أشار به الحُباب فقال: يا حباب، أشرت بالرأى، ونهض، وفعل كل ذلك^(٣).
قال الواقدي: وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً، أي كثير الرمل، فأصاب المسلمين ما لبد الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا معه أن يرتحلوا منه، وإنما بين الطائفتين قوز من رمل.

قال الواقدي: وأصاب المسلمين تلك الليلة الثعاس التي عليهم، فناموا ولم يصبهم من المطر ما يؤذيهم.

(٢) يقال: عور البئر؛ إذا كيسها بالتراب.

(١) الواقدي: «أرشدتم».

(٣) الواقدي ٤٨

قال الزبير بن العوام : لقد سَاطَ اللهُ عليهم النعاس تلك الليلة ، حتى إنى كنت لأتشدد ، والنعاس يجلد بي الأرض فما أطيع إلا ذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه على مثل ذلك الحال . وقال سعد بن أبي وقاص : لقد رأيتنى ، وإن ذقنى بين يدي ، فما أشعر حتى أقع على جنبي .

وقال رفاعة بن رافع بن مالك : لقد غلبنى النوم ، فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل^(١) .

قال الواقدي : فلما تحول رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المنزل بعد أن أخذ السقاء ، أرسل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، فأطافا بالقوم ، ثم رجعا إليه فقالا له : يا رسول الله ، القوم مذعورون فزعون ، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه ، مع أن السماء تسح عليهم^(٢) .

قال الواقدي : فلما أصبحوا قال منبه بن الحجاج - وكان رجلاً يبصر الأثر - هذا والله أثر ابن سُمَيَّة ، وابن أم عبد ، أعرفهما ، لقد جاءنا محمد بسفهاننا وسفهاء أهل يثرب ، ثم قال :

لم يترك الجوع لنا مبيتاً لا بد أن نموت أو نُميتاً^(٣)

يامعشر قر يش ، انظروا غداً إن لقينا محمد وأصحابه ، فاتقوا على شبانكم وفتيانكم ،

(٢) الواقدي ٥٠

(١) الواقدي ٤٩ ، ٥٠

(٣) بعدها في الواقدي : قال أبو عبد الله : قد ذكرت قول منبه بن الحجاج :

لَمْ يَتْرُكِ الْجُوعُ لَنَا مَبِيَّتًا *
* * *

لمحمد بن يحيى بن سهل بن أبي حنيفة ، فقال : لعمري لقد كانوا شباعاً ؛ لقد أخبرني أبي أنه سمع نوفل ابن معاوية يقول : نحرنا تلك الليلة عشر جزائر ؛ فنحن في خباء من أخبيتهم نشوى السنام والكبد وطيبة اللحم ونحن نخاف من البيات فنحن نتعارس إلى أن أضاء الفجر ، فأسمع منها يقول بعد أن أسفر : هذا ابن سمية وابن مسعود ، وأسمعه يقول :

لم يترك الخوف لنا مبيتاً لا بد أن نموت أو نُميتاً

بأهل يثرب ، فإننا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا من ضلالتهم مافارقوا من دين آباؤهم^(١) .

قال الواقدي : ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله على القليب بُني له عريش من جريد ، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً سيفه ، فدخل النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر^(١) .

قلت : لأعجب من أمر العريش ، من أين كان لهم ، أو معهم من سَعَفِ النَّخْلِ ما يبنون به عريشا ، وليس تلك الأرض - أعني أرض بدر - أرض نخل ؛ والذي كان معهم من سَعَفِ النَّخْلِ يجرى مجرى السلاح كالتيسيرا جدا ! قيل إنه كان بأيدي سبعة منهم سِعا فَعَوْضَ السِّيفِ ، والباقيون كانوا بالسِّيفِ والسِّهَامِ والقِسيِّ ، هذا قول شاذ ، والصحيح أنه ما خلا أحد منهم عن سلاح ، اللهم إلا أن يكون معهم سَعَفَاتٌ يسيرة ، وظلل عليها بثوب أو سِتْرٍ ، وإلا فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجها !

قال الواقدي : وصف رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه قبل أن تنزل قریش ، فطلعت قریش ورسول الله صلى الله عليه وآله يصف أصحابه ، وقد أترعوا حوضاً يفرطون فيه من السحر ، وقذفت فيه الآنية ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله رايته إلى مصعب بن عمير ، فتقدم بها إلى الموضع الذي أمره أن يضعها ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى الصفوف ، فاستقبل المغرب ، وجعل الشمس خلفه ، وأقبل المشركون ، فاستقبلوا الشمس ، ونزل بالعدوة الدنيا من الوادي ، ونزلوا بالعدوة^(٢) البانئية ، وهي القصوى ، وجاءه رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله ، إن كان هذا عن وحي فامض له ، وإلا فإني

(١) الواقدي ٥٠

(٢) في الواقدي : « عدوتنا التهر والوادي : جنبناه » .

أرى أن تعلموا الوادي ؛ فإني أرى ريحاً قد هاجت من أعلاها ، وأراها بعثت بنصرِك . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « قد صفت صفوفى ووضعت رايتى ، فلا أغير ذلك » ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأمدّه الله بالملائكة^(١) .

قال الواقدي : وروى عروة بن الزبير ، قال : عدّل رسول الله صلى الله عليه وآله الصفوف يومئذ ، فتقدم سواد بن غزيرة أمام الصف ، فدفع النبي صلى الله عليه وآله بقُدْح في بطنه ، وقال : استويا سواد ، فقال : أوجعتني والذي بعثك بالحق ، أقدني ، فكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه ، وقال : استقِدْ ، فاعتنقه وقبله ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : حَضَرَ يارسول الله من أمر الله ما قد ترى ، وخشيت القتل ، فأردت أن يكون آخرَ عهدي بك ، وأن أعتنقك^(٢) .

قال الواقدي : فحدثني موسى بن يعقوب ، عن أبي الحويرث ، عن محمد بن جبير بن مُطِعم ، عن رجل من بني أود قال : سمعت علياً عليه السلام يخطب على منبر الكوفة ، ويقول بينا أنا أُمِيع^(٣) في قَلِيب بدر جاءت ريح لم أرَ مثلها قطّ شدة ، ثم ذهب فجاءت أخرى لم أرَ مثلها إلا التي كانت قبلها ، ثم جاءت ريح أخرى لم أرَ مثلها إلا الأولىين ، فكانت الأولى جبريل في ألف مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والثانية ميكائيل في ألف عن يمينه ، والثالثة إسرافيل في ألف عن يسارته ، فلما هزَمَ الله أعداءه ، حملني رسول الله صلى الله عليه وآله على فرس ، فجرت بي ، فلما جرت بي خررتُ على عنقهما ، فدعوت ربّي ، فأمسكني حتى استويتُ ، ومالي وللخيل ، وإنما كنت صاحب الحشم ، فلما استويت طعنت فيهم بيدي هذه حتى اختضبت مني^(٤) ذي - يعني إبطه^(٥) -

(١) في الواقدي ٥١ : « فنزل عليه جبريل : ﴿ إِذْ تَسْتَفِيئُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِجْرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ، بعضهم على ما روى بعض . (٢) الواقدي ٥٢ .
(٣) في الأصول : « أُمِيع » . وفي الواقدي : « أُمِيع يعني أستق ، وهو من ينزع الدلاء ، وهو المنح أيضاً » .
(٤) الواقدي : « ذه » .
(٥) الواقدي ٥٢ ، ٥٣ .

قلت : أكثر الرواة يروونه : « فحملني رسول الله على فرسه » ، والصحيح ما ذكرناه ، لأنه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله فرس يوم بدر ، وإنما حضرها ركب بعير ، ولكنه لما اصطدم الصفان ، وقتل قوم من فرسان المشركين ، حمل رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام على بعض الخيل المأخوذة منهم .

قال الواقدي : قالوا : كان على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، وكان على ميسرته علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكان على ميمنة قريش هبيرة بن أبي وهب الخزومي ، وعلى ميسرتهم عمرو بن عبد ود . قيل : كان زمعة بن الأسود على ميسرتهم ، وقيل : بل كان على خيل المشركين ، وقيل : الذي كان على الخيل الحارث بن هشام ، وقال قوم : لم يكن هبيرة على الميمنة ، بل كان عليها الحارث بن عامر بن نوفل ^(١) .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن صالح عن يزيد بن رومان وابن أبي حبيبة ، قالوا : ما كان على ميمنة النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر ولا على ميسرته أحد يسمى ، وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم ما سمعنا فيها بأحد ^(١) .

قال الواقدي : وهذا هو الثابت عندنا قال : وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ الأعظم لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، وكان مع قريش ثلاثة ألوية ، لواء مع أبي عريزة ، ولواء مع المنذر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة ^(١) .

قال الواقدي : وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين يومئذ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنها كم عما نهاكم الله عنه فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده

به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق ؛ لا يقبل الله فيه من من أحدٍ إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر في البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ، تدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمتكم عليه ، فإنه تعالى يقول : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(١) ؛ انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وما أعزكم به بعد الذلة ، فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم ، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ؛ وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم ، إليه ألقانا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لى والمسلمين^(٢) .

قال الواقدي : ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً تصوب من الوادى ، وكان أول من طلع زمعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه ، فاستجال بفرسه ، يريد أن يبنوا للقوم منزلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إنك أنزلت على الكتاب ، وأمرتني بالقتال ، ووعدتني إحدى الطائفتين ، وأنت لا تخلف الميعاد . اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرها ، تخاذل وتكذب رسولك . اللهم نصرك الذى وعدتني . اللهم أحنهم الغداة ! وطلع عتبة بن ربيعة على جمل أحمز ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن يك في أحد من القوم خير ففى صاحب الجمل الأحمز ، إن يطيعوه يرشدوا .

قال الواقدي : وكان إيمان بن رخصة قد بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر حين مرءوا به أهداها لهم ، وقال : إن أحببتكم أن يمدكم بسلاح ورجال فإننا معدون لذلك ، مؤدون فعلنا ، فأرسلوا : أن وصلتكم رحم ، قد قضيت الذى عليك ، ولعمري لئن

كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم ؛ ولئن كنا نقاتل الله بزعم محمد ، فما لأحدٍ بالله طاقة (١) .

قال الواقدي : فروى خفاف بن إيماء بن رخصة ، قال : كان أبي ليس شيء أحب إليه من إصلاح بين الناس ، موكلًا بذلك ؛ فلما مرت به قريش أرسلني بجزائر عشر هدية لها ، فأقبلت أسوقها ، وتبعني أبي ، فدفعتها إلى قريش فقبلوها ووزعوها في القبائل ، فمرّ أبي على عتبة بن ربيعة ، وهو سيّد الناس يومئذ ، فقال : يا أبا الوليد ، ما هذا المسير ؟ قال : لا أدري والله غلبت ، قال : فأنت سيّد العشيرة ، فما يمنعك أن ترجع بالناس ، وتحمل دم حليفك ، وتحمل العير التي أصابوا بنخلة ، فتوزعها على قومك ! فوالله ما يطلبون قبل محمد إلا هذا ؛ والله يا أبا الوليد ماتقتلون بمحمد وأصحابه إلا أنفسكم (٢) !

قال الواقدي : وحدّثني ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : ما سمعنا بأحدٍ سار بغير مالٍ إلا عتبة بن ربيعة (٣) .

قال الواقدي : وروى محمد بن جبير بن مطعم ، قال : لما نزل القومُ أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب إلى قريش ، فقال : ارجعوا ؛ فلأن يلي هذا الأمر مني غيركم أحبُّ إليّ من أن تلوه مني ؛ وأن أليّه من غيركم أحبُّ إليّ من أن أليّه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفًا ، فليوه (٤) ؛ والله لا تنصرون عليه بعد أن عرض عليكم من النصف ما عرض . وقال أبو جهل : لا ترجع بعد أن أمكننا الله منهم ، ولا نطلب أثرًا بعد عين ، ولا يعرض (٥) لعيرنا بعد هذا أبدا .

قال الواقدي : وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض ، منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون تنجيتهم (٥) عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : دعوهم ؛ فوردوا الماء ،

(١) مغازي الواقدي ٥٥ . (٢) الواقدي ٥٦ . (٣) الواقدي : « فقبلوه » .

(٤) الواقدي : « يعرض » . (٥) الواقدي : « تخلّيتهم » ؛ قال : « يعني طردهم » .

فشربوا ، فلم يشرب منهم أحد إلا قتل ؛ إلا ما كان من حكيم بن حزام^(١) .

قال الواقدي : فكان سعيد بن المسيّب ، يقول : نجا حكيم من الدهر مرتين ، لما أراد الله تعالى به من الخير ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على نفر من المشركين وهم جلوس يريدونه ، فقرأ « يس » ؛ ونثر على رؤوسهم التراب ، فما أفلت منهم أحدٌ إلا قتل ، ما عدا حكيم بن حزام . وورد الحوض يوم بدر مع مَنْ ورده من المشركين ، فما ورده إلا من قتل إلا حكيم بن حزام .

قال الواقدي : فلما اطمان القوم بعثوا عمير بن وهب الجُمحى ، كان صاحب قِداح ، فقالوا : أحزُر^(٢) لنا محمداً وأصحابه ، فاستجبال بفرسه حول العسكر ، وصوب في الوادي وصعد ، يقول : عسى أن يكون لهم مدد أو كمين ! ثم رجع فقال : لا مدد ولا كمين ، والقوم ثلثمائة ، إن زادوا قليلاً ، ومعهم سبعون بعيراً ومعهم فرسان ، ثم قال : يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح يئزب تحمل الموت الناقع ؛ قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ؛ ألا ترونها خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعي ! والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل رجلاً ، فإذا أصابوا منكم عددهم ؛ فما خير في العيش بعد ذلك ! فروا رأيكم^(٣) .

قال الواقدي : وحدثني يونس بن محمد الظفري ، عن أبيه ، أنه قال : لما قال لهم عمير بن وهب هذه المقالة ، أرسلوا أبا أسامة الجشمي ، وكان فارساً ، فأطاف بالنبي صلى الله عليه وآله وأصحابه ، ثم رجع إليهم ، فقالوا له : ما رأيت ؟ قال : والله ما رأيتُ جلدًا ولا عدداً ولا حلقة^(٤) ولا كراعاً ، ولكني والله رأيت قوماً لا يريدون أن يردوا إلى أهلهم ! رأيت قوماً مستميتين ، ليست معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زُرُق العيون ،

(٢) في الأصول : « احزُر » تصحيف .

(٤) الحلقة هنا : السلاح .

(١) الواقدي ٥٦

(٣) الواقدي ٥٩

كأنهم الحصا تحت الحِجَف^(١) ، ثم قال : أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد ، فصوب في الوادى ثم صعد ، ثم رجع إليهم ، فقال : لا كمين ولا مدد ! فروا رأيكم^(٢) .

قال الواقدي : ولما سمع حكيم بن حزام ما قال عمير بن وهب ، مشى في الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة ، فقال : يا أبا الوليد ، أنت كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك ألا تزال تُذكر فيها بخير آخر الدهر ، مع ما فعلت يوم عكاظ ! وعتبة يومئذ رئيس الناس ، فقال : وما ذلك يا أبا خالد ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل دم حليفك ، وما أصابه محمد من تلك العير يبطن نخلة ، إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدم والعير . فقال عتبة : قد فعلت ، وأنت على ذلك . ثم جلس عتبة على جملة ، فسار في المشركين من قريش يقول : يا قوم أطيعوني ، ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه ، واعصبوا هذا الأمر برأسي ، واجعلوا جنبها^(٣) في ، فإن منهم رجالا قرابتهم قريبة ؛ ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينكم شحناء وأضعافنا ، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم ، مع أنه لا آمن أن تكون الدائرة عليكم ، وأنتم لا تطلبون إلا دم القتل منكم ، والعير التي أصيبت ، وأنا أحتمل ذلك ، وهو على يا قوم ؛ إن يك محمد كاذبا يكفيكموه ذو بان العرب ، وإن يك مَلِكاً كنتم في ملك ابن أخيكم ، وإن يك نبياً كنتم أسعد الناس به ! يا قوم لا تردوا نصيحتي ، ولا تسفها رأبي . فحسده أبو جهل حين سمع خطبته ، وقال : إن يرجع الناس عن خطبة عتبة يكن سيد الجماعة ، وكان عتبة أنطق الناس ، وأطولهم لسانا ، وأجملهم جمالا ، ثم قال عتبة لهم : أنشدكم الله في هذه الوجوه التي كأنها المصابيح ، أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التي كأنها وجوه الحيات ! فلما فرغ عتبة من كلامه قال أبو جهل : إن عتبة يشير عليكم بهذا

(١) الحِجَف : التروس .

(٢) في الأصول : « حينها » ، وأثبت ما في الواقدي

(٣) مغازي الواقدي ٥٧ ، ٥٨ .

لأنّ محمداً ابن عمه ، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه ، امتلاً والله سحرُك يا عتبة وجبذت حين التقت حلقماً البطان^(١) . الآن نمخذل بيننا وتأمرونا بالرجوع ! لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . فغضب عتبة ، فقال : يا مصفر أسيته ، ستعلم أيتنا أجبن وأأم ! وستعلم قريش من الجبان المفسد لقومه ! وأنشد :

هَذَايَ وَأَمْرَتِ أَمْرِي فَبَشْرِي بِالشَّكْلِ أُمِّ عَمْرٍو^(٢)

قال الواقدي : وذهب أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ، أخى عمرو بن الحضرمي المقتول بنخلة ، فقال له : هذا حليفك - يعني عتبة - يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، ونمخذل بين الناس ! قد تحمل دم أخيك ، وزعم أنك قابل الدية ، ألا تستحي ؟ تقبل الدية وقد قدرت على قاتل أخيك ! قم فأنشد خُفرتك ؛ فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف^(٣) ، ثم حثا على استه التراب ، وصرخ : واعمره ! يخزى بذلك عتبة ؛ لأنه حليفه من بين قريش ، فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة ، وحلف عامر لا يرجع حتى يقتل من أصحاب محمد . وقال أبو جهل أعمير بن وهب : حرش بين الناس ، فحمل عمير فناوش المسلمين ، لأن ينفض الصف ، فنبت المسلمون على صفهم ؛ ولم يزولوا ، وتقدم ابن الحضرمي فشد على القوم ، فنشبت الحرب^(٤) .

قال الواقدي : فروى نافع بن جبير عن حكيم بن حزام ، قال : لما أفسد الرأي أبو جهل على الناس ، وحرش بينهم عامر بن الحضرمي فأقحم فرسه ، كان أول من خرج إليه من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب ، فقتله عامر ، وكان أول قتيل قتل من الأنصار حارثة ابن سراقة ، قتله حيان بن العريقة^(٥) .

قال الواقدي : وقال عمر بن الخطاب في مجلس ولايته : يا عمير بن وهب ، أنت

(١) حلقماً البطان ، كناية عن اشتداد الأمر . (٢) مغازي الواقدي ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) اكتشف : تعرى (٤) الواقدي ٥٩ .

(٥) الواقدي ٦٠ : « ويقال : عمير بن الحمام ، قتله خالد بن الأعمى العقيلي » .

حاذِرُنَا للمشركين يوم بدر ، تصعد في الوادي وتصوب ، كأنني انظر إلى فرسك تحتك
تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد ! قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، وأخرى ، أنا والله
الذى حرّشت بين الناس يومئذ ، ولكن الله جاءنا بالإسلام ، وهدانا له ؛ وما كان فينا من
الشرك أعظم من ذلك ، قال عمر : صدقت ^(١) .

قال الواقدي : وكان عتبة بن ربيعة كَلِمَ حكيم بن حزام ، وقال : ليس عند أحد
خلاف إلا عند ابن الحنظليّة ، فاذهب إليه ، فقل له : إنّ عتبة يحمل دم حليفه ، ويضمن
العير . قال حكيم : فدخلت على أبي جهل ، وهو يتخلّق بمخلوق طيب ، ودرعه موضوعة
بين يديه ، فقلت : إن عتبة بن ربيعة بعثني إليك ، فأقبل على مغضبا ؛ فقال : ما وجد عتبة
أحدًا يرسله غيرك ؛ فقلت : والله لو كان غيره أرسلني ما مشيت في ذلك ، ولكنني مشيتُ
في إصلاح بين الناس - وكان أبو الوليد سيّد العشيرة - فغضب غضبة أخرى . قال : وتقول
أيضا سيّد العشيرة ، فقلت : أنا أقوله ، وقريش كلّها تقوله ، فأمر عامرا أن يصيح بخنثته ،
واكتشف ، وقال : إنّ عُتْبَةَ جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل المشركون يقولون : عتبة
جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل أبو جهل يسرّ بما صنع المشركون بعتبة . قال حكيم :
فجئت إلى منبّه بن الحجاج فقلت له مثل ما قلت لأبي جهل ، فوجدته خيرا من أبي جهل ،
قال : نعمًا مشيت فيه ، ومادعا إليه عتبة ! فرجعت إلى عتبة فوجدته قد غضب من كلام
قريش ، فنزل عن جملة ، وقد كان طاف عليهم في عسكرهم يأمرهم بالكفّ عن القتال ،
فيأبون ، فخمي ، فنزل فلبس درعه ، وطلبوا له بيضة فلم يوجد في الجيش بيضة تسع رأسه
من عظم هامته ، فلما رأى ذلك اعتجّر ، ثم برز راجلا بين أخيه شيبه وبين ابنه الوليد
ابن عتبة ، فينا أبو جهل في الصفّ على فرس أنثى ، حاذاه عُتْبَةَ ، وسلّ سيفه ، فقيل :
هو والله يقتله ، فضرب بالسيف عُرقوب فرس أبي جهل ، فاكتسعت ^(٢) الفرس ،

(٢) اكتسعت الفرس : سقطت من ناحية مؤخرها وروت به .

(١) مغازي الواقدي ٦٠

وقال : انزل ، فإنّ هذا اليوم ليس بيوم ركوب ؛ ليس كلّ قومك راكبا ، فنزل أبو جهل وعُتْبَةُ يقول : سيعلم آيتنا شوْمُ عَشيرته الغداة ! قال حكيم : فقلت : تالله ما رأيتُ كالْيَوْمِ !

قال الواقديّ : ثم دعا عُتْبَةُ إلى المبارزة ورسول الله صلى الله عليه وآله في العَرِيش ، وأصحابه على صفوفهم ، فاضطجع ، فغشيّه النوم ، وقال : لا تقاتلوا حتى أؤذّنكم ، وإن كسبوكم فارمؤمهم ولا تسألوا السيوفَ حتى يغشوكم . فقال أبو بكر : يا رسول الله قد دنا القوم ، وقد نالوا مِنّا ، فاستيقظ وقد أراه الله إيّاهم في منامه قليلا ، وقَلل بعضهم في أعين بعض ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو رافع بديه يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : « اللهم إن تظهر على هذه العصابة يظهر الشرك ، ولا يقيم لك دين » ، وأبو بكر يقول : والله لينصرك الله وليبيّضن وجهك . قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، إنّي أشيرُ عليك ، وأنت أعظم وأعلم بالله من أن يشارَ عليك ، إن الله أجلّ وأعظم من أن ينشد وعده ! فقال عليه السلام : يا بن رواحة ، ألا أنشدُ الله وعده ، إن الله لا يخلف الميعاد ! وأقبل عُتْبَةُ يعمِد إلى القتال ، فقال له حكيم بن حزام : مهلاً مهلاً يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله ^(١) .

قال الواقديّ : قال خفاف بن إيماء : فرأيت أصحابَ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وقد تصافّ الناس وتزاحفوا ، وهم لا يسألون السيوف ، ولكنهم قد انتصوا القيس ، وقد تترس بعضهم عن بعض بصفوفٍ متقاربة ، لأُفرجَ بينها ؛ والآخرون قد سلّوا السيوف حين طلّعوا ، فعجبت من ذلك ، فسألت بعد ذلك رجلا من المهاجرين ، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله ألا نسلّ السيوف حتى يغشونا ^(٢) .

قال الواقديّ : فلما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من

الحوض : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمته أو لأموتنّ دونه. فشدّ حتى دنا من الحوض ، واستقبله حمزة بن عبد المطلب ، فضرّبه فأطنّ^(١) قدمه ، فزحف الأسود ليبرّ قسمه زعم ، حتى وقف في الحوض فهدّمه برجله الصحيحة ، وشرب منه ، وأتبعه حمزة ، فضرّبه في الحوض فقتله ، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم^(٢) .

قال الواقدي : ودنا الناس بعضهم من بعض ، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصف ، ثم دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم فتيان ثلاثة من الأنصار ، وهم بنو عَفْرَاء : مُعَاذ ومعوذ وعوف ، بنو الحارث - ويقال : إن ثالثهم عبد الله بن رواحة ، والثابت عندنا أنهم بنو عَفْرَاء - فاستحى رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ، وكره أن يكون أول قتال لِقَى المسلمون فيه المشركين في الأنصار ، وأحبّ أن تكون الشوكة لبني عمّه وقومه ، فأمرهم ، فرجعوا إلى مصافهم ، وقال لهم خيرا ، ثم نادى منادى المشركين : يا محمد ، أخرج إلينا الأَكْفَاء من قومنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : يا بني هاشم ، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله . فقام حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، فمشوا إليهم ، فقال عتبة : تكلموا نعرفكم - وكان عليهم البيض ، فأنكروهم - فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم^(٣) .

وروى محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " ، خلاف هذه الرواية ، قال : إن بني عَفْرَاء وعبد الله بن رَوَاحَة برزوا إلى عُتْبَة وشيبة والوليد ، فقالوا لهم : مَنْ أُنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا : ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ! ثم نادى مناديهم : يا محمد

(٢) على صفوفهم : أى على حالتهم التي كانوا عليها .

(١) أطنّ قدمه : قطعها

(٣) مغازي الواقدي ٦٢ ، ٦٣

أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنا مِنْ قَوْمِنَا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان (١).

قلت : وهذه الرواية أشهر من رواية الواقدي ، وفي رواية الواقدي ما يؤكد صحة رواية محمد بن إسحاق ، وهو قوله : إن منادى المشركين نادى : « يا محمد ، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا » فلو لم يكن قد كلمهم بنو عفران وكلموهم وردوهم ، لما نادى مناديتهم بذلك . ويدل على ذلك قول بعض القرشيين لبعض الأنصار في فخر فخر به عليه : أنا من قوم لم يرض مشركوهم أن يقتلوا مؤمني قومك .

قال الواقدي : فقال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ، فقال عتبة : كف يا كريم ، وأنا أسد الخلفاء ، من هذان معك ؟ قال : علي بن أبي طالب وعبيدة ابن الحارث بن المطلب ، فقال : كفان كريمان (٢) .

قال الواقدي : قال ابن أبي الزناد : حدثني أبي ، قال : لم أسمع لعُتْبَةَ كلمة قطّ أو هن من قوله : « أنا أسد الخلفاء » يعني بالخلفاء الأئمة .

قلت : قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى : « وأنا أسد الخلفاء » ، وروى : « أنا أسد الأحلاف » .

قالوا في تفسيرها : أراد أناسيد أهل الحلف المطيبين ، وكان الذين حضروه بنى عبدمناف وبنى أسد بن عبد العزى وبنى تيم وبنى زهرة وبنى الحارث بن فهر ؛ خمس قبائل . ورد قوم هذا التأويل ، فقالوا : إن المطيبين لم يكن يقال لهم : الخلفاء ولا الأحلاف ، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم ، وهم بنو عبد الدار ، وبنو مخزوم ، وبنو سهم ، وبنو بَجَح ، وبنو عدى بن كعب ؛ خمس قبائل . وقال قوم في تفسيرها : إنما عنى

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥ ، وفيها : « قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي » .

(٢) معازي الواقدي ٦٣

حَلَفَ الْفُضُولُ ، وَكَانَ بَعْدَ حَلْفِ الْمُطَيِّبِينَ بِزَمَانٍ ، وَشَهِدَ حَلْفَ الْفُضُولِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ ، وَكَانَ سَبِيهَ أَنْ رَجُلًا مِنَ الْبَيْنِ قَدِمَ مَكَّةَ بِمَتَاعٍ ، فَاشْتَرَاهُ الْعَاصِمُ بْنُ وَائِلِ السَّهْمِيِّ وَمَطَّلَهُ بِالثَّمَنِ حَتَّى أَنْعَبَهُ ، فَقَامَ بِالْحِجْرِ وَنَاشِدٌ قُرَيْشًا ظَلَامَتَهُ ، فَاجْتَمَعَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو أُسْدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزْمِيِّ وَبَنُو زَهْرَةَ ، وَبَنُو تَمِيمٍ ، فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ ، فَتَحَالَفُوا وَغَسَّوْا أَيْدِيَهُمْ فِي مَاءِ زَمْزَمَ ، بَعْدَ أَنْ غَسَلُوا بِهِ أَرْكَانَ الْبَيْتِ ؛ أَنْ يَنْصُرُوا كُلَّ مَظْلُومٍ بِمَكَّةَ ، وَيَرُدُّوْا عَلَيْهِ ظَلَامَتَهُ ، وَيَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَيَنْهَوْا عَنْ كُلِّ مَنكَرٍ ، مَا بَلَّ بِحَجْرٍ صَوْفَةً ، فَسَمِيَ حَلْفَ الْفُضُولِ لِفَضْلِهِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ : « شَهِدْتَهُ وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » . وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَيْضًا غَيْرُ صَحِيحٍ ، لِأَنَّ بَنِي عَبْدِ الشَّمْسِ لَمْ يَكُونُوا فِي حَلْفِ الْفُضُولِ ، فَقَدْ بَانَ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ أَصَحُّ وَأَثْبَتٌ .

قال الواقدي : ثم قال عتبة لابنه : قم يا وليد ، فقام الوليد وقام إليه عليّ ، وكانا أصغرَ النَّفَرِ ، فاختلفا ضربتين ، فقتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ثم قام عتبة ، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين ، فقتله حمزة رضي الله عنه ، ثم قام شيبه ، وقام إليه عبيدة ، وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فضرب شيبه رجل عبيدة بذياب السيف ، فأصاب عضلة ساقه ، فقطعها وكره حمزة وعليّ على شيبه فقتلاه ، واحتملا عبيدة فجأزاه إلى الصف ، ومخ ساقه بسيل ، فقال عبيدة : يا رسول الله ، ألسنتُ شهيداً ؟ قال : بلى ، قال : أما والله لو كان أبو طالب حياً لعلم أني أحق بما قال حين يقول :

كذبتُمُ وبيتِ اللهِ نخلي محمداً ولما نطاعنُ دونهُ وتناضلُ
وننصرُهُ حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ
ونزلت فيهم هذه الآية : ﴿ هَذَا أَنْ خَصِمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (١)

(١) سورة الحج ١٩ والخبر في الواقدي ٦٣ ، و ٦٤

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارزَ عبيدة بن الحارث ، وأن شيبَةَ بارزَ حمزة بن عبد المطلب ، فقتل حمزة شيبَةَ ، لم يمهله أن قتله ؛ ولم يمهله على الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت^(١) صاحبه ، وكرَّ حمزة وعلى عليه السلام على عتبة بأسيا فهما ، حتى وقعا عليه^(٢) ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف^(٣) .

قلت : وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه ، إذ يقول لمعاوية : وعندى السيفُ الذى أعضضتُ به أخاك وخالك وجدك يوم بدر . ويقول في موضع آخر : قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك ، وما هى من الظالمين ببيد . واختار البلاذرى رواية الواقدي : وقال : إن حمزة قتل عتبة ، وإن عليا عليه السلام قتل الوليد ، وشرك في قتل شيبَةَ^(٤) .

وهذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السن ، لأن شيبَةَ أسنّ الثلاثة ، فجعل يازاء عبيدة وهو أسنّ الثلاثة ، والوليد أصغر الثلاثة سنًا ، فجعل يازاء على عليه السلام ، وهو أصغر الثلاثة سنًا ، وعتبة أوسطهم سنًا ، فجعل يازاء حمزة وهو أوسطهم سنًا . وأيضًا فإن عتبة كان أمثلَ الثلاثة ، فمقتضى القياس أن يكونَ قرنه أمثلَ الثلاثة ، وهو حمزة إذ ذلك ، لأن عليا عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جدا ، وإنما اشتهر الشهرة التامة بعد بدر . ولمن روى أن حمزة بارزَ شيبَةَ - وهى رواية ابن إسحاق - أن ينتصر بشعر هند بنت عتبة ترى أباه :

أعيني جودا بدمع سربٍ على خير خندف لم ينقلب^(٥)
تداعى له رهطه قُصرة بنو هاشم وبنو المطلب^(٦)
يذيقونه حرَّ أسيا فهم يعلونه بعد ما قد عطب^(٧)

(١) أثبتته : جرحه
(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥
(٣) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧
(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٤١
(٥) يقال : هو ابن عمى قصرة ، أى قريب ، وفى
(٦) : ١ : « شجب » .
(٧) « غدوة »

فإذا كانت قد قالت إن عتبة أباهما أذاهم وبنو هاشم وبنو المطلب حراً أسياهم ، فقد ثبت أن المبارز لعتبة إنما هو عبدة لأنه من بني المطلب جرح عتبة ، فأثبته ثم ذفّف^(١) عليه حمزة وعلى عليه السلام . فأما الشيعة ، فإنها تروى أن حمزة بادر عتبة فقتله ، وأن اشتراك عليّ وحمزة إنما هو في دم شيبة بعد أن جرحه عبدة بن الحارث ، هكذا ذكر محمد ابن النعمان في كتاب "الإرشاد" ، وهو خلاف ما تنطق به كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية ، والأمر عندي مشتبه في هذا الموضوع .

وروى محمد بن النعمان ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه كان يذكر يوم بدر ويقول : أختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتين ، فأخطأتني ضربته ، وأضر به فاتقاني بيده اليسرى ، فأبانها السيف ، فكأني أنظر إلى وميض خاتم في شمائه ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته ، فرأيت به الردع^(٢) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

قال الواقديّ : وقد روى أنّ عتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز ، قام إليه ابنه أبو حذيفة بن عتبة يبارزه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : اجلس ، فلما قام إليه التفّر أعان أبو حذيفة على أبيه عتبة بضربة^(٣) .

قال الواقديّ : وأخبرني ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : شيبة أكبر من عتبة بثلاث سنين ، وحمزة أسنّ من النبي صلى الله عليه وآله بأربع سنين ، والعبّاس أسنّ من النبي صلى الله عليه وآله بثلاث سنين^(٤) .

قال الواقديّ : واستفتح أبو جهل يوم بدر ، فقال : اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعلم ، فأحنه الغداة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفْرُ الْفَتْحِ ... ﴾^(٥) الآية .

(١) ذفّف عليه : أي أجهز
(٢) الردع : « الزعفران » .
(٣) مغازي الواقدي ٦٤
(٤) مغازي الواقدي ٦٥ ؛ والمخبر هنا أوفى وأشمل .
(٥) سورة الأفعال ١٩ ، والمخبر في الواقدي ٦٥ ، وتاريخ الطبري ٢ : ٤٤١ (طبعة المعارف)

قال الواقدي: وروى عروة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله جعل شعار المهاجرين يوم بدر: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله.

قال وروى زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، أن شعار رسول الله صلى الله عليه وآله كان يوم بدر يا منصور أمت^(١).

قال الواقدي: ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتل أبي البختري، وكان قد لبس السلاح بمكة يوماً قبل الهجرة في بعض ما كان ينال النبي صلى الله عليه وآله من الأذى، وقال: لا يعرض اليوم أحدٌ لحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح. فشكر ذلك له النبي صلى الله عليه وآله. قال أبو داود اللانزي: فلاحقته يوم بدر، فقلت له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد نهى عن قتلك إن أعطيت بيدك، قال: وما تريد إلي! إن كان قد نهى عن قتلي، فقد كنت أبلتته ذلك، فأما أن أعطى بيدي، فواللوات والعزى لقد علمت نسوة بمكة أني لا أعطى بيدي، وقد عرفت أنك لا تدعني، فافعل الذي تريد، فرماه أبو داود بسهم، وقال: اللهم سهمك؛ وأبو البختري عبدك، فضعه في مقتله: وأبو البختري دارع، ففتق السهم الدرع فقتله.

قال الواقدي: ويقال إن المجذر بن زياد قتل أبا البختري ولا يعرفه، وقال المجذر في ذلك شعراً عرف منه أنه قاتله^(٢).

وفي رواية محمد بن إسحاق: أن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر عن قتل أبي البختري، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، لأنه كان أكف

(٢) مغازي الواقدي ٧٥

(١) مغازي الواقدي ٦٦

الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قریش على بنى هاشم ، فلقية الجذّر بن زياد البلوى حليف الأنصار ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وآله نهانا عن قتلك ، ومع أبى البخترى زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن مُليحة ، فقال أبو البخترى : وزميلي ! قال الجذّر : والله مانحن بتاركى زميلك ، مانهانا رسول الله صلى الله عليه وآله إلا عنك وحدك^(١) ، قال : إذا والله لأموتنّ أنا وهو جميعا ، لا تتحدث عنى نساء أهل مكة أنى تركت زميلي حرصا على الحياة ، فنازله الجذّر ، وارتجز أبو البخترى^(٢) فقال :
لن يُسلم ابن حرّة زميلّة حتى يموت أو يرى سيبله

ثم اقتتلا ، فقتله الجذّر ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، وقال : والذي بعثك بالحقّ لقد جهدت أن يستأسر فاتيك به ، فأبى إلا القتال فقاتلته^(٣) فقتلته^(٤) .

* * *

قال الواقدي : ونهى النبي صلى الله عليه وآله عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل ، وقال : أسروه ولا تقتلوه ، وكان كارها للخروج إلى بدر ، فلقية خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه ، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله ذلك ، فقال : لو وجدته قبل أن يقتل لتركته لنسائه . ونهى عن قتل زمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع ، ولا يعرفه .

قال الواقدي : وارتجز عدى بن أبى الزغباء يوم بدر ، فقال :

أنا عدى والسّحل أمشى بها مشى الفحل

يعنى درعه . فقال النبي صلى الله عليه وآله : من عدى ؟ فقال رجل من القوم : أنا يارسول الله ، قال : وماذا ؟ [قال : ابن فلان ، قال : لست أنت عدياً ، فقال عدى بن أبى

(١) ابن هشام : « ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك » .

(٢) ابن هشام : « فقال أبو البخترى حين نازله الجذّر ، وأبى إلا القتال » .

(٣) ابن هشام : « إلا أن يقانلى » (٤) الخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٠ ، ٢٧١

الزغباء : أنا يارسول الله عدى ، قال : وماذا [(١) ؟ قال : « والسَّحَل ، أمشى بها مشى
الفَحَل » ، قال النبي صلى الله عليه وآله : وما السَّحَل ؟ قال : درعى ، فقال صلى الله عليه
وآله « نعم العدى ، عدى بن أبى الزغباء » (٢) .

قال الواقدي : وكان عقبه بن أبى مُعَيْط قال بمكة حين هاجر رسول الله صلى الله
عليه وآله إلى المدينة :

ياراكب الناقة القصواء هاجرتنا عما قليل تراني راكب الفرس
أعلُّ رُمحِي فيكم ثم أنهلُهُ والسيفُ يأخذ منكم كلَّ ملتبسٍ

فبلغ قوله النبي صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم أكبه لمنخره واصرعه » ؛ فجمح
به فرسه يوم بدر ، بعد أن ولّى الناس ، فأخذه عبد الله بن سلمة العجلاني أسيراً ، وأمر
النبي صلى الله عليه وآله عاصم بن أبى الأفلح ، فضرب عنقه صبراً (٣) .

قال الواقدي : وكان عبد الرحمن يحدث يقول : إني لأجمع أدرعاً يوم بدر ، بعد أن
ولّى الناس ، فإذا أمية بن خلف - وكان لي صديقاً في الجاهلية ، وكان اسمي عبد عمرو ، فلما
جاء الإسلام تسميت عبد الرحمن ، فكان يلقاني بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، فلا أجيبه ،
فيقول : إني لا أقول لك عبد الرحمن ، إن مسيلة باليمامة (٤) تسمى بالرحمن ، فأنا لا أدعوك
إليه ، فكان يدعوني عبد الإله ، فلما كان يوم بدر رأيتُه وكأنه جمل يُساق ، ومعه ابنه
على ، فناداني : يا عبد عمرو ، فأبيت أن أجيبه ، فناداني : يا عبد الإله ، فأجبتُه ، فقال :
أمالك حاجة في اللبن ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ، فقلت : امضيا ، فجعلت أسوقهما
أمامي ، وقد رأيت أمية أنه قد أمن بعض الأمن ، فقال لي أمية : رأيت رجلاً فيكم اليوم
معلباً في صدره بريشة نعامة ، من هو ؟ فقلت : حمزة بن عبد المطلب ، فقال : ذلك الذي

(١) من مغازي الواقدي .

(٢) مغازي الواقدي ٧٦

(٣) مغازي الواقدي ٧٦ ، ٧٧

(٤) الواقدي « يتسمى » .

فعل بنا الأفاعيل ! ثم قال : فمن رَجُلٌ دحداح قصير معلم بمصابة حمراء ؟ قلت : ذاك رجل من الأنصار ، يقال له : سِمَاكُ بن خَرَشَةَ ، قال : وبذاك أيضاً ياعبد الإله صرنا اليوم جَزَراً لكم ! قال : فيينا هو معي أَرْجِيهِ ^(١) أُمَامِي ، ومعاه ابنه ، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجينا له ، فترك العجين ، وجعل يفتلُ يديه منه فتلاً ذريعاً ، وهو ينادى : يامعشر الأنصار ، أمية بن خلف رأس الكفر ! لا نجوتُ إن نجوتَ - قال : لأنه كان يعدّبه بمكة - فأقبلت الأنصار كأنهم عوذٌ حنّت إلى أولادها ، حتى طرحوا أمية على ظهره ، واضطجعت عليه أحبيه منهم ، فأقبل الخلباب بن المنذر ، فأدخل سيفه ، فاقطع أرنبة أنفه ، فلما فقد أمية أنفه ، قال لي : إيهأ عنك ! أي خلّ بيني وبينهم ، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان :

* أو عن ذلك الأنف جادع *

قال : ويقبل إليه خبيب بن يساف ، فضر به حتى قتله ، وقد كان أمية ضرب خبيب ابن يساف حتى قطع يده من المنكب ، فأعادها النبي صلى الله عليه وآله فالتحمت واستوت ، فتزوج خبيب بن يساف بعد ذلك ابنة أمية بن خلف ، فرأت تلك الضربة ، فقالت : لا يشل الله يد رجلٍ فعل هذا ! فقال خبيب : وأنا والله قد أوردته شعوب ، فكان خبيب يحدث يقول : فأضر به فوق العاتق ، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتزره ، وعليه الدرع ، وأنا أقول : خذها وأنا ابن يساف ! وأخذت سلاحه ودرعه ، وأقبل علي بن أمية فتعرض له الخلباب ، فقطع رجله ، فصاح صيحة ماسمعة مثلها قط ، ولقيه عمار فضر به ضربة فقتله . ويقال : إن عماراً لاقاه قبل ضربة الخلباب ، فاختلفا ضربات ، فقتله عمار . والأولى أثبت ، أنه ضر به بعد أن قطعت رجله ^(٢) .

قال الواقدي : وقد سمعنا في قتل أمية غير ذلك ، حدثني عبيد بن يحيى ، عن معاذ بن

(١) أَرْجِيهِ : أسوقه .

(٢) مغازي الواقدي ٧٧ ، ٧٨ .

رفاعة ، عن أبيه ، قال : لما كان يوم بدر وأُحِدقنا بأمية بن خلف ، وكان له فيهم شأن ، ومعى رمحي ، ومعهُ رمحه ، فتطاعنا حتى سقطت أَرْجَتُها ، ثم صرنا إلى السيفين فتضاربنا بهما حتى انثلما ، ثم بصرت بفتق في درعه تحت إبطه ، فخششت السيف فيه حتى قتلته ، وخرج السيف عليه الودك^(١) .

قال الواقدي : وقد سمعنا وجهاً آخر : حدثني محمد بن قدامة بن موسى ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قال صفوان بن أمية بن خلف يوماً : يا قدام - لقدامة بن مظعون - أنت المشلي^(٢) بأبي يوم بدر الناس ! فقال قدامة : لا والله ما فعلت ، ولو فعلت ما اعتذرت من قتل مشرك . قال صفوان : فمن يا قدام المشلي به يوم بدر ؟ قال : رأيت فتية من الأنصار أقبلوا إليه ، فيهم معمر بن خبيب بن عبيد بن الحارث ، يرفع سيفه ويضعه فيه ، فقال صفوان : أبو قرد ! وكان معمر رجلاً دميماً ، فسمع بذلك الحارث بن حاطب ، فغضب له ، فدخل على أم صفوان ، فقال : ما يدعنا صفوان من الأذى في الجاهلية والإسلام ! قالت : وما ذاك ؟ فأخبرها بمقالة صفوان لمعمر حين قال : أبو قرد ! فقالت أم صفوان : يا صفوان ، أنتقص معمر بن خبيب من أهل بدر ! والله لا أقبل لك كرامة سنة . قال صفوان : يا أمة ، لا أعود والله أبداً ، تكلمت بكلمة لم ألق لها بالاً^(٣) .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن قدامة ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قيل لأم صفوان بن أمية - ونظرت إلى الخلباب بن المنذر بمكة : هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر ، قالت : دعونا عن ذكر من قُتِلَ على الشرك ، قد أهان الله عليا بضربة الخلباب بن المنذر ، وأكرم الله الخلباب بضربته عليا ، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقتل على غير ذلك^(٤) .

(٢) المشلي : المهرض .

(١) مغازي الواقدي ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) مغازي الواقدي ٧٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٧٩ ، ٨٠ ، وانظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

فأما محمد بن إسحاق ، فإنه قال : قال عبد الرحمن بن عوف : أخذت بيد أمية بن خلف و يد ابنه علي بن أمية أسيرين يوم بدر ، فبينما أنا أمشي بينهما ، رأنا بلال - وكان أمية هو الذي يعذب بلالا بمكة ، يخرج به إلى رَمضاء ^(١) مكة إذا حميت ، فيضججه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع بجزارتها على صدره ، ويقول له : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ! فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ ! لا يزيدك علي ذلك - فلما رآه صاح : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ إن نجوتُ ! قال عبد الرحمن : فقلت أي بلال ، أسيرى ! فقال : لا نجوتُ إن نجأ ، فقلت : استمع يا ابن السوداء ، قال : لا نجوتُ إن نجأ ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، أمية بن خلف رأس الكفر ، لا نجوتُ إن نجأ ، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة ^(٢) ، وأنا أذب عنه ، ^(٣) ويحذف عمار بن ياسر عليا ابنه بالسيف ، فأصاب رجله ، فوقع وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلبها قط ^(٤) ، فخلت عنه ، وقلت : انج بنفسك ولا نجاء به ! فوالله ما أغني عنك شيئا ، قال : فهبروها ^(٥) بأسيا ففهم حتى فرغوا منها . قال : فكان عبد الرحمن بن عوف ، يقول : رحم الله بلالا ! أذهب أدرعي ، وجمعني بأسيري ^(٥) !

قال الواقدي : وكان الزبير بن العوام يحدث فيقول : لما كان يومئذ لقيت عبيدة ابن سعيد بن العاص على فرس ، عليه لأمة كاملة لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول - وكانت له صببية صغيرة ، يحملها وكان لها بطنين وكانت مقسمة : أنا أبو ذات الكرش ، أنا أبو ذات

(١) الرمضاء : الرمل الشديد الحرارة من الشمس .

(٢) المسكة : السوار .

(٣ - ٣) ابن هشام : « فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوق وصاح أمية صيحة عظيمة ما سمعت مثلبها قط » .

(٤) هبروها : قطعوا لهما ؛ تقول : هبرت اللحم إذا قطعته قطعاً .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

الكرش . قال : وفي يدي عَنزة ^(١) فأطعن بها في عينه ووقع ، وأطوه برجلي كَلَى خَدَه ، حتى أخرجت العَنزة متعقفة ، وأخرجت حدقته ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله تلك العَنزة ، فكانت تحمل بين يديه ، ثم صارت تحمل بين يدي أبي بكر وعمر وعثمان ^(٢) .

قال الواقدي : وأقبل عاصم بن أبي عوف بن صُبيرة السهمي ، لما جال الناس واختلطوا ، وكأنه ذئب ، وهو يقول : يامعشر قريش ، عليكم بالقاطع مفرق الجماعة، الآتي بما لا يعرف ، محمد ، لا نجوتُ إن نجا ! ويعترضه أبو دُجانة ، فاختلفا ضربتين ، ويضربه أبو دُجانة فقتله ، ووقف على سلبه يسلبه ، فمرّ به عمر بن الخطاب ، فقال : دع سلبه حتى يُجهض ^(٣) العدو ، وأنا أشهد لك به ^(٤) .

قال الواقدي : ويقبل معبد بن وهب ، أحد بني عامر بن لؤي ، فضرب أبا دُجانة ضربة برك منها أبو دُجانة كما يبرك الجمل ، ثم انتهض ، وأقبل على معبد ، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيأ ، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دُجانة عليه ، فذبحه ذبحاً ، وأخذ سلبه ^(٥) .

قال الواقدي : ولما كان يومئذ ، ورأت بنو مخزوم مقتل من قُتِل ، قالت : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، فإنّ ابني ربيعة بجلا وبطرا ، ولم تحام عنهما ^(٦) عشيرتهما . فاجتمعت بنو مخزوم ، فأحدقوا به ، فجعلوه [في] ^(٧) مثل الحرجة ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبي جهل رجلاً منهم ، فألبسوها عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة ، فصمد له عليّ عليه السلام ، فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول : أنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها أبا قيس بن

(١) العَنزة : شبيهة العكازة ، أطول من العصا وأقصر من الرمح ، لها زج من أسفلها .

(٢) مغازي الواقدي ٨٠ (٣) الواقدي : « تجهض » .

(٤) مغازي الواقدي ٨١ (٥) مغازي الواقدي ٨٠ ، ٨١ .

(٦) كذا في ١ ، وفي ب والواقدي : « عليهما » . (٧) من الواقدي

الفاكه بن المغيرة ، فصمده له حمزة وهو يراه أبا جهل ، فضر به فقتله وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها حرمة بن عمرو ، فصمده له علي عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعمى ، فأبى أن يلبسها ، قال معاذ بن عمرو بن الجموح : فنظرت يومئذ إلى أبي جهل في مثل الحرمة ، وهم يقولون : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، ففرفت أنه هو ، فقلت : والله لأموتنّ دونه اليوم أو لأخلصنّ إليه ، فصمده له ، حتى إذا أمكنتني منه غرة حملت عليه ، فضر به ضربة طرحت رجله من الساق ، فشبهتها النواة تنزوا من تحت المراضخ ، فأقبل ابنه عكرمة علي فضر بني علي عاتق ، فطرح يدي من العاتق ، إلا أنه بقيت جلدة ، فذهبت أسحب يدي بتلك الجلدة خلفي ، فلما آذنتي وضعت عليها رجلي ، ثم تمطيت عليها فقطعتها ، ثم لاقيت عكرمة وهو يلوذ كل ملاذ ، ولو كانت يدي معي لرجوت يومئذ أن أصيبه . ومات معاذ في زمن عثمان ^(١) .

قال الواقدي : فروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله نقل معاذ بن عمرو بن الجموح سيف أبي جهل ، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم وبه فل ، بعد أن أرسل النبي صلى الله عليه وآله إلى عكرمة بن أبي جهل ، يسأله من قتل أباك ؟ قال : الذي قطعت يده ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وآله سيفه إلى معاذ بن عمرو ، لأن عكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر ^(٢) .

قال الواقدي : وما كان بنو المغيرة يشكون أن سيف أبي الحكم صار إلى معاذ بن عمرو بن الجموح ، وأنه قاتله يوم بدر ^(٢) .

قال الواقدي : وقد سمعت في قتله وأخذ سلبه غير هذا ؛ حدثني عبد الحميد بن جعفر ، عن عمر بن الحكم بن ثوبان ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : عبأنا رسول الله صلى الله عليه وآله بليل ، فأصبحنا ونحن على صفوفنا ، فإذا بغلامين ، ليس منهما واحد إلا قد

ربطت حمائل سيفه في عنقه لصغره ، فالتفت إلى أحدهما ، فقال : يا عمّ ، أيّهم أبو جهل ؟ قال : قلت : وما تصنع به يا بن أخي ؟ قال : بلغني أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، خلقت : لئن رأيته لأقتلنه أو لأموتنّ دونه . فأشرت إليه ، فالتفت إلى الآخر ، وقال لي مثل ذلك ، فأشرت له إليه ، وقلت له : من أتما ؟ قالا : ابنا الحارث ، قال : فجعلنا لا يطران عن أبي جهل ؛ حتى إذا كان القتال حَكَصَا إليه فقتلاه وقتلها (١) .

قال الواقدي : فحدثني محمد بن عوف ، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت ، قال : لما كان يومئذ ، قال عبد الرحمن ، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله : ليته كان إلى جنبي من هو أبدن من هذين الصبيين ! فلم أنشب أن التفت إلى عوف ، فقال : أيّهم أبو جهل ؟ فقلت : ذلك حيث ترى ، فخرج يعدو إليه كأنه سبّع ، ولحقه أخوه ، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف ؛ ثم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ بهم في القتلى ، وها إلى جانب أبي جهل (٢) .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن رفاعة بن ثعلبة ، قال : سمعتُ أبي ينكر ما يقول الناس في ابني عَفْرَاء من صغرها ، ويقول : كأننا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة ، فهذا يربطُ حمائل سيفه ! قال الواقدي : والقول الأول أثبت (٣) .

وروى محمد بن عمار بن ياسر ، عن رُبَيْع بنت معوذ ، قالت : دخلتُ في نسوةٍ من الأنصار على أسماء أمّ أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب ، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعطّرٍ من اليمن ، فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فكنا نشترى منها ، فلما جعلت لي في قوار يري ، ووزنت لي كما وزنت لصواحي ، قال : اكتبني لي عليكنّ حقي ، قلت : نعم ، اكتب لها علي الربيع بنت معوذ ، فقالت : أسماء خلفي : وإنك

(٢) مغازي الواقدي ٨٣

(١) مغازي الواقدي ٨٢ ، ٨٣

(٣) مغازي الواقدي ٨٣

لابنة قاتل سيده ! فقلت : لا ، ولكن ابنة قاتل عبده ، فقالت : والله لا أبيعك شيئاً أبداً ، فقلت : أنا والله لا أشتري منك أبداً ، فوالله ما هو بطيب ولا عَرَفَ ؛ والله يا بني ما شممت عطراً قطّ كان أطيبَ منه ، ولكنيّ يا بني غضبت^(١) .

قال الواقدي : فلما وضعت الحرب أوزارها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يلتمس أبو جهل ، قال ابن مسعود : فوجدته في آخر رمق ، فوضعت رجلي على عنقه ، فقلت : الحمد لله الذي أخزأك ! قال : إنما أخزى الله العبد ابن أمّ عبد ! لقد ارتقيت يارويعي الغنم مرتقى صعباً ! لمن الدّبرة ؟ قلت : لله ولرسوله ، قال ابن مسعود : فألق بيضته عن قفاه ، وقلت : إني قاتلك ، قال : لست بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشد ما لقيته اليوم لقتلك إني ؛ ألا يكون وُلّي قتل رجلٍ من الأحلاف أو من المطيبين ! قال : فضربه عبد الله ضربةً وقع رأسه بين يديه ، ثم سلبه ، وأقبل بسلاحه ودرعه وبيضته ، فوضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال ، أبشِرْ يا نبيّ الله بقتل مدوّ الله أبي جهل ! فقال رسول الله : أحقّاً يا عبد الله ! فوالذي نفسي بيده لهو أحبُّ إليّ من حُمُر النّعم ! أو كما قال . ثم قال : إنه أصابه جَحَش^(٢) من دفعه دفعته في مأدبة ابن جدعان ، فجحشت ركبته فالتسوه ؟ فوجدوا ذلك الأثر^(٣) .

قال الواقدي : وروى أن أبا سلمة بن عبد الأسد الخزوميّ كان عند النبي صلى الله عليه وآله تلك الساعة ، فوجد في نفسه ، وأقبل على ابن مسعود ، وقال : أنت قتلتني ؟ قال : نعم ، الله قتله ! قال أبو سلمة : أنت وُلّيت قتله ؟ قال : نعم ، قال : لو شاء لجعلك في كُفّه ! فقال ابن مسعود : فقد والله قتلتُه وجرّدته ؛ فقال أبو سلمة : فما علامته ؟ قال : شامة سوداء يبطن فخذ اليمنى ؛ فعرف أبو سلمة النّعت ، فقال : أجردته ، ولم يجرّد قرشي غيره ! فقال

(٢) الجحش : المحدث ، أو فوقه دون المرح

(١) مغازي الواقدي ٨٤

(٣) الواقدي ٨٤ ، ٨٥

ابن مسعود : إنه والله لم يكن في قريش ولا في حُلُفائها أحدٌ أعدى لله ولا لرسوله منه ؛ وما أعتذر من شيء صنعته به . فأمسك أبو سلمة ^(١) .

قال الواقدي : وُسِّع أبو سلمة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه في أبي جهل ، وقال : اللهم إنك قد أنجزت ما وعدتني ، فتمم علي نعمتك . قال : وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود ، يقول : سيف أبي جهل عندنا محلي بفضة ، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذ ^(١) .

قال الواقدي : اجتمع قول أصحابنا أن معاذ بن عمرو وابني عفراء أثبتوه ، وضرب ابن مسعود عنقه في آخر رمق ، فكل شرك في قتله ^(١) .

قال الواقدي : وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف على مصرع ابني عفراء ، فقال : يرحم الله ابني عفراء ؛ فإنهما قد شركا في قتل فرعون هذه الأمة ، ورأس أمة الكفر ، فقيل : يا رسول الله ومن قتله معهما ؟ قال : الملائكة ، وذُفِّف عليه ابن مسعود ؛ فكان قد شرك في قتله ^(٢) .

قال الواقدي : وحدثني معمر ، عن الزهري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : اللهم اكفني نوفل بن العدوية - وهو نوفل بن خويلد ، من بني أسد بن عبد العزى - وأقبل نوفل يومئذ بصيح وهو مرعوب ، قد رأى قتل أصحابه ، وكان في أول ما التقوا هم والمسلمون ، بصيح بصوت له زَجَل ، رافعا عقيرته : يا معشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة . فلما رأى قريشا قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار : ما حاجتكم إلى دماننا ؟ أما ترون من تقتلون ؟ أما لكم في اللبن من حاجة ! فأسره جبَّار بن صخر ، فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ، ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه : يا أخا الأنصار ، من هذا واللوات والعزى ! إنى لأرى رجلاً ، إنه ليريدني ! قال

جبار : هذا على بن أبي طالب ، قال نوفل : تالله ما رأيتُ كالأيوم رجلاً أسرع في قومه ! فصمّد له على عليه السلام فيضربه فينشب سيفَ عليٍّ في حَجَفَتِهِ^(١) ساعة ، ثم ينزعه فيضرب به ساقيه ، ودرّعه مشتمرة ، فيقطعها ، ثم أجهز عليه فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : مَنْ له علم بنوفل بن خويلد ؟ قال عليّ عليه السلام : أنا قتلته ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه^(٢) .

قال الواقدي : وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال ، فالتقى هو وعليّ عليه السلام ، وقتله عليّ ، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص : مالي أراك معرضاً ، تظن أني قتلت أباك ! فقال سعيد : لو قتلتك لكان على الباطل وكنت على الحقّ ، قال : فقال عمر : إن قريشاً أعظم الناس أحلاماً ، وأكثرها أمانة ، لا يبغونهم أحدٌ الغوائلَ إلا كتب الله لفيه^(٣) .

قال الواقدي : وروى أن عمر قال لسعيد بن العاص : مالي أراك معرضاً كأنني قتلت أباك يوم بدر ؛ وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك ، لقد قتلت خالي بيدي العاص بن هاشم بن المغيرة .

ونقلت من غير كتاب الواقدي أن عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيام خلافته ، فجلس سعيد بن العاص حَجْرَةً^(٤) فنظر إليه عمر ، فقال : مالي أراك مُعْرِضاً كأنني قتلت أباك ! إنني لم أقتله ، ولكنه قتله أبو حسن ! وكان على عليه السلام حاضراً ، فقال : اللهم غمراً ! ذهب الشُّركُ بما فيه ، ومحا الإسلام ما قبله ؛ فلماذا تهاجُ

(٢) مغازي الواقدي ٨٦

(٤) حجرة ؛ أي ناحية .

(١) الحجفة : الترس

(٣) مغازي الواقدي ٨٦ ، ٨٧

القلوب ! فسكت عمر ، وقال سعيد : لقد قتله كفاً كريماً ؛ وهو أحبّ إليّ من أن يقتله من ليس من بني عبد مناف .

قال الواقدي : وكان عليّ عليه السلام يحدث ، فيقول : إنّي يومئذ بعد مامتع^(١) النهار ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم ، خرجت في إثر رجل منهم ، فإذا رجل من المشركين على كئيب رمل وسعد بن خيثمة ، وهما يقتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة ، والمشرك مقنّع في الحديد ، وكان فارساً ، فاقتحم عن فرسه ، فعرفني وهو معلم ، فناداني : هلمّ يا بن أبي طالب إلى البراز ! فعطفت إلى البراز ، فعطفت عليه ، فانحطّ إلى مقبلا ، وكنت رجلاً قصيراً ، فانحطت راجعاً لكي ينزل إليّ ، كرهت أن يعلوني ، فقال : يا بن أبي طالب ، فررت ! فقلت : قريباً مفرّ ابن الشتراء ، فلما استقرت قدماي وثبتت أقبل فلما دنا مني ضربني فالتقيت بالدرة ، فوقع سيفه ، فلجج^(٢) فأضربه على عاتقه وهو دارع ، فارتعش ، ولقد قطّ سيفي درعهُ ، فظننت أن سيفي سيقتله ، فإذا بريق سيف من ورأى ، فطأطأت رأسي ، ويقع السيف ، فأطنّ قحف رأسه بالبيضة ، وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ، فالتفت من ورأى ، فإذا هو حمزة عمي^(٣) ، والمقتول طعميمة ابن عدى^(٤) .

قلت : في رواية محمد بن إسحاق بن يسار أن طعميمة بن عدى قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ثم قال : وقيل : قتله حمزة^(٥) وفي رواية الشيعة قتله عليّ بن أبي طالب ، شجره بالرمح ، فقال له : والله لا نخاصمنا في الله بعد اليوم أبداً ؛ وهكذا روى محمد بن إسحاق .

(٢) الواقدي : يعني « لزوم »

(٤) مغازي الواقدي ٨٧

(١) الواقدي : « ارتفع »

(٣) الواقدي : « حمزة بن عبد المطلب » .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧

وروى محمد بن إسحاق قال ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله من العريش إلى الناس
ينظر القتال ، فخرّض المسلمين وقال : كلّ امرئ بما أصاب ، وقال : والذي نفس محمد
بيده لا يقاتلهم اليوم رجل في جملة ، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله
الجنة . فقال عمير بن الحُمام أخو بني سلمة ، وفي يده تمرّات يأكلهن : بخ بخ ! فما بيني وبين
أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل
القوم حتى قُتل ^(١) .

قال محمد بن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن الحارث - وهو
ابن عفراء - قال لرسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : يا رسول الله ، ما يُضحكُ الربّ
من عبده ؟ قال : غمسه يده في العدو حاسراً . فنزع عوف درعا كانت عليه وقذفها ،
ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل ^(٢) .

قال الواقدي وابن إسحاق : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله كفاً من البطحاء ،
فرمام بها ، وقال : شأهت الوجوه ^(٣) ! اللهم أرعب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم . فانهزم
المشركون لا يلوون على شيء ، والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون ^(٤) .

قال الواقدي : وكان هبيرة بن أبي وهب المخزومي لمسارأي الهزيمية انخزل ظهره
فغقر ، فلم يستطع أن يقوم ، فاتاه أبو أسامة الجشمي حليفه ، ففتق درعه واحتمله - ويقال :
ضرب به أبو داود المازني بالسيف فقطع درعه ، ووقع لوجهه ، وأخذ إلى الأرض ، وجاوزه
أبو داود وبصر به ابنا زهير الجشميان مالك ، وأبو أسامة ، وهما حليفاه ، فذبا عنه حتى
نجوا به ، واحتمله أبو أسامة ومالك يذب عنه ، حتى خَلصاه . فقال رسول الله صلى الله
عليه وآله : حماه كلباه الحليفان ^(٥) .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٨

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٨

(٣) بعدما في ابن هشام : « ثم بعجم بها » .

(٤) مغازي الواقدي ٨٩ مع اختلاف في الرواية

قال الواقدي : وحدثني عمر بن عثمان عن عكاشة بن محصن ، قال : انقطع سيفي يوم بدر ، فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله عوداً ، فإذا هو سيف أبيض طويل ، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين ، ولم يزل ذلك السيف عند عكاشة حتى هلك .

قال : وقد روى رجال من بني عبد الأشهل عدة ، قالوا : انكسر سيف سلمة بن أسلم^(١) بن حريش^(٢) يوم بدر ، فبقي أعزل لاسلح معه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب^(٣) ، فقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد^(٤) .

قال الواقدي : وأصاب حارثة بن سراقه ، وهو يكرع في الحوض سهم غرَب^(٥) من المشركين فوق في نحره ، فمات ، فلقد شرب القوم آخرَ النهار من دمه ؛ وبلغ أمه وأخته - وهما بالمدينة مقتله - فقالت أمه : والله لا أبكي عليه ؛ حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسأله ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإن كان في النار بكيته لعمر الله ، فأعولته ! فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله من بدر جاءت أمه إليه ، فقالت : يا رسول الله ، قد عرفت موضع حارثة في قلبي ، فأردت أن أبكي عليه ، ثم قلت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ؛ فإن كان في الجنة لم أبكيه ، وإن كان في النار بكيته فأعولته ! فقال النبي صلى الله عليه وآله : « هُبَيْتِ : أجنة واحدة ! إنها جنان كثيرة ، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى » ، قالت : فلا أبكي عليه أبداً .

قال الواقدي : ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ بماء في إناء ، فغمس يده فيه ومضمض فاه ، ثم ناول أم حارثة بن سراقه ، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت ،

(١) ب : « أشهل » ، وصوابه من الواقدي وابن هشام

(٢) ١ : « جريش » ، والصواب ما في ب والواقدي

(٣) في اللسان : « عذق ابن طالب نخلة بالمدينة ، وقيل : ابن طاب ضرب من الرطب هنالك » .

(٤) مغازي الواقدي ٨٨ (٥) سهم غرب : لا يدري راميه .

ثم أمرهما فنضحتا في جيوبهما ، ثم رجعتا من عند النبي صلى الله عليه وآله ، وما بالمدينة امرأتان أقرّ عينا منهما ولا أسر^(١) .

قال الواقدي : وكان حكيم بن حزام يقول : انهزمتنا يوم بدر ، فجعلت أسمى وأقول : قاتل الله ابن الحنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله إن النهار لسكما هو ؛ قال حكيم : وما ذاك بي إلا حباً أن يأتي الليل فيقتصر عنا طلب القوم ، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بنى العوام على جمل لها ، فقال عبد الرحمن لأخيه : انزل فاحمل أبا خالد ، وكان عبيد الله رجلاً أعرج ، لارجلة^(٢) به ، فقال عبيد الله : إنه لارجلة بي كما ترى ؛ وقال عبد الرحمن : والله أن لا بد منه ، ألا نحمل رجلاً ، إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا ، وإن عشنا حملنا كلنا ! فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج ، فحملاه ، فكانوا يتعاقبون الجمل ، فلما دنا من مكة وكان بمر الظهران ، قال : والله لقد رأيت هاهنا أمراً ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شؤم ابن الحنظلية ! إن جزورا نحرت هاهنا فلم يبق خباء إلا أصابه من دمها . فقالا : قد رأينا ذلك ؛ ولكن رأيناك وقومك قد مضيتم فضينا معكم ، ولم يكن لنا معكم أمر .

قال الواقدي : فحدثني عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف ، عن أبيه ، قال : كانت الدروع في قريش كثيرة يومئذ ؛ فلما انهزموا جعلوا يلقونها ، وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقون ما طرحوا ، ولقد رأيتني يومئذ التقت ثلاث أدرع جئت بها أهلي ، فكانت عندنا بعد ، فزعم لي رجل من قريش - ورأى درعاً منها عندنا فعرّفها - قال : هذه درع الحارث بن هشام^(٤) .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو بن أمية ، قال : أخبرني من انكشف من قريش يومئذ منهزماً ، وإنه ليقول في نفسه : ما رأيت مثل هذا فرّ منه إلا النساء^(٤) !

(٢) الرجل ؛ بالضم : القوة على المشي .

(٤) مغازي الواقدي ٩٠

(١) مغازي الواقدي ٨٨

(٣) مغازي الواقدي ٨٩ ، ٩٠

قال الواقدي : كان قَبَاثُ بن أَشِيمَ الكِنَانِيُّ يقول : شهدت مع المشركين بدرًا ، وإني لأنظر إلى قَلَّةِ أصحابِ محمد في عيني ، وكثرة مَنْ معنا من الخيل والرَّجُلِ ، فانهزمتُ فيمن انهزم ، فلقد رأيتني وإني لأنظر إلى المشركين في كلِّ وجه ، وإني لأقول في نفسي : ما رأيت مثل هذا الأمر فرَمَنه إلا النساء ! وصاحبني رجل ، فيينا هو يسير معي إذ خلفنا من خلفنا ، فقلت لصاحبي : أبلكنهوض ؟ قال : لا والله ما بي ! قال : وعُقر وترفعت ، فلقد صبحت غَيِّقَةً - قال : وغَيِّقَةٌ عن يسار السِّقْيَا بينها وبين الفرع ليلة وبين الفرع والمدينة ثمانية بُرُودٍ - قبل الشمس ؛ كنت هاديا بالطريق ؛ ولم أسلك الحاجَّ وخفت من الطَّلَبِ فتسكَّبت عنها ، فلقيتني رجل من قومي بغَيِّقَةٍ ، فقال : ما وراءك ؟ قلت : لا شيء ؟ قُتِلْنَا وأسيرنا وانهزمتنا ، فهل عندك من حُملان ؟ قال : فحمانى على بعير ، وزوَدني زادًا ، حتى لقيت الطريق بالجحفة ، ثم مضيت حتى دخلت مكة ؛ وإني لأنظر إلى الخيَّسَمَانِ بنِ حابس الخُزَاعِيِّ بالغميم ، فعرفت أنه تقدم ينعى قريشا بمكة ، فلو أردت أن أسبقه لسبقته ، فتسكَّبت^(٢) عنه حتى سبقني ببعض النهار ، فقدمت وقد اتهمى إلى مكة خبر قتلاهم ، وهم يلعنون الخُزَاعِيَّ ، ويقولون : ما جاءنا بخير ! فكثت بمكة ، فلما كان بعد الخندق ، قلت : لو قدمت المدينة ، فنظرت ما يقول محمد ! وقد وقع في قلبي الإسلام ، فقدمت المدينة ، فسألت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : هو ذاك في ظلِّ المسجد مع ملاٍّ من أصحابه ، فاتيتته وأنا لا أعرفه من بينهم ، فسألت فقال : يا قَبَاثُ بن أَشِيمَ ، أنت القاتل يوم بدر : ما رأيت مثل هذا الأمر فرَمَنه إلا النساء ! قلت : أشهد أنك رسول الله ، وأن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قط ولا ما ترممت^(٣) به ؛ إلا شيئًا حدثت به نفسي ، فلولا أنك نبي ما أظلمك الله عليه ؛ هلم حتى أبايعك فأسلمت^(٤) .

(٢) ب . « تسكبت » ، وأثبت ما في الواقدي .

(٤) مغازي الواقدي ٩٠ ، ٩١ .

(١) الواقدي : « الحاج » .

(٣) ما ترممت به ؛ أي ما نطقت به .

قال الواقدي : وقد روى أنه لما توجه المشركون إلى بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم بمكة سمّارا يسمرّون بذي طوى في القمر حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدثون ، فبيناهم كذلك إذ سمعوا صوتا قريبا منهم ولا يرون القائل ، رافعا صوته يتغنى :

أزاد الحنيفيون بدراً مصيبة سينقض منها ركن كسرى وقية سراً
أرّبت لها صمّ الجبال وأفزعت قبائل ما بين الوتير فخيبراً^(١)
أجازت جبال الأخشبين وجردت حرائر يضر بن التراب حسراً^(٢)

قال الواقدي : أنشدني^(٣) ، ورواه لي عبد الله بن أبي عبيدة ، عن محمد بن عمار بن ياسر ، قال : فاستمعوا الصوت ، فلا يرون أحداً ، فخرجوا في طلبه ، فلم يروا أحداً ، فخرجوا فزعين ، حتى جازوا الحجر ، فوجدوا مشيخة منهم جلة سمّارا ، فأخبروهم الخبر ، فقالوا لهم : إن كان ماتقولون ، فإن محمداً وأصحابه يسمون الحنيفية . قال : فلم يبق أحد من الفتيان الذين كانوا بذي طوى إلا وعك ، فما مكثوا إلا ليلتين أو ثلاثاً ، حتى قدم الحيسمان^(٤) الخزاعي بخبر أهل بدر ، ومن قتل منهم ، فجعل يخبرهم ، فيقول : قتل عبّة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابننا الحجاج وأبو البختري ، وزمعة بن الأسود . قال : وصفوان بن أمية في الحجر جالس يقول : لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلم به اسلوه عني ، فقالوا : صفوان بن أمية لك به علم ؟ قال : نعم ، هو ذلك في الحجر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين ، ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما مقرونين في الجبال^(٥) .

(١) كذا في الواقدي ، وفي ب : « وخيرا » .

(٢) كذا في ا ، وفي ب : « التراب وحسرا » . (٣) الواقدي : « أنشدني » .

(٤) في الأصول : « الحيسمان » ؛ والصواب ما أثبتته الواقدي والبلاذري وابن هشام والطبري .

(٥) مغازي الواقدي ١١٤

قال الواقدي : وبلغ النجاشي مقتل قريش وما ظفر الله به^(١) رسوله ، فخرج في ثوبين أبيضين ، ثم جلس على الأرض ، ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فقال : أيكم يعرف^(٢) بديراً ؟ فأخبروه ، فقال : أنا عارف بها ، قد رعيت الغنم [في]^(٣) جوانبها ، هي من الساحل على بعض نهار ، ولكنني أردت أن أثبت منكم ، قد نصر الله رسوله ببدر ، فاحمدوا الله على ذلك . فقال بطارقتة : أصلح الله الملك ! إن هذا شيء لم تكن تصنعه ، يريدون لبس البياض والجلوس على فالأرض ، فقال : إن عيسى بن مريم كاره إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً^(٤) .

قال الواقدي : فلما رجعت قريش إلى مكة ، قام فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال : يامعشر قريش ، لا تبكوا على قتلاكم ، ولا تنح عليهم نائحة ، ولا يندبهم شاعر ، وأظهروا الجلد والعزاء ، فإنكم إذا نمت عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلكم [ذلك]^(٥) عن عداوة محمد وأصحابه ، مع أن محمداً إن بلغه وأصحابه ذلك شتموا بكم ، فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلكم تدركون ثاركم ، فالدّهن والنساء على حرام حتى أغزو محمداً . فكثرت قريش شهراً لا يبكيهم شاعر ، ولا تنوح عليهم نائحة .

قال الواقدي : وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره ، وقد كمد على من قتل من ولده ، وكان يحب أن يبكي عليهم فتأبى عليه قريش ذلك ، فكان يقول لغلامه بين اليومين : ويلك ! احمل معي خمرًا ؛ واسلك بي الفجّ الذي سلكه أبو حكيمة - يعني زمعة ولده المقتول ببدر - فيأتي به غلامه على الطريق عند ذلك الفجّ فيجلس ، فيسقيه الخمر

(١) الواقدي : « نبيه » . (٢) الواقدي : « أين بدر » . (٣) من الواقدي

(٤) الواقدي : ١١٥ « تلبس ثوبين وتجلس على الأرض ؛ فقال : إني من قوم إذا أحدث الله لهم نعمة ازدادوا بها تواضعاً . ويقال : إنه قال : إن عيسى بن مريم عليه السلام كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً » . والمخبر في الواقدي ١١٤

(٥) من الواقدي ١١٥ .

حتى ينثشى ، ثم يبكي على أبي حَكِيمَة وإخوته ، ثم يحثى التراب على رأسه ، ويقول لغلامه : ويحك ! اكنتم على ، فإني أكره أن تعلم بي قريش ، إني أراها لم تجمع البكاء على قتلها^(١) .

قال الواقدي : حدثني مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر ، عن عباد بن عبد الله ابن الزبير ، عن عائشة قالت : قالت قريش حين رجعوا إلى مكة : لا تبكوا على قتلاكم ، فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم ، فيأرب^(٢) بكم القوم ، ألافأمسكوا عن البكاء .

قال : وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة وعقيل والحارث بن زمعة ، فكان يحب أن يبكي على قتلاه ، فيبنا هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلامه - وقد ذهب بصره - : انظر ، هل بكت قريش على قتلها ! لعلى أبكى على أبي حَكِيمَة - يعني زمعة - فإن جوفى قد احترق ، فذهب الغلام ورجع إليه ، فقال : إتمامي امرأة تبكي على بغيرها قد أضلته . فقال الأسود :

تبكى أن يضل لها بعير^(٣) ويمنعها من النوم السهود^(٤)
فلا تبكى على بكرٍ ولكن على بكرٍ تصاغرت الخدود^(٤)
فبكى إن بكيت على عقيل وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكيتهم ولا تسمى جميعاً^(٥) فما لأبي حَكِيمَة من نديد

(١) مغازي الواقدي ١١٤ (٢) فيأرب : فيشتد .

(٣) الخبر والشعر - مع اختلاف الرواية - في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩١ ، والشعر أيضاً في ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٢ : ٨٧٢ .

(٤) الحماسة : « تصاغرت الخدود » ، قال المرزوقي : « هو تفاعل من التصور والعجز ؛ لا التصرف الذي هو ضد الطول » ، وفي الواقدي عن هشام : سمعت أبي ينشد « تصاغرت الخدود » ، ولا ينكر « الخدود » .
(٥) لا تسمى ، أي لا تسمى .

على بدر مَرَاة بنى هُصَيْصٍ ومخزوم ورهط أبى الوليد
ألا قد سادَ بعدهمُ رجالٌ ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

قال الواقديّ : ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة ، فقلن : ألا تبكين على
أيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ! فقالت : حَلَّاني ^(١) أن أبكيهم ، فيبلغ محمدا وأصحابه
فيشتمتوا بنا ونساء بنى الخزرج ، لا والله حتى أنار محمدا وأصحابه ، والدّهن على حرام إن
دخل رأسى حتى نغزو محمدا ! والله لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبى لبكيتُ ، ولكن
لا يذهبه إلا أن أرى ثارى بعينى من قتلة الأحبة ، فمكثت على حالها لا تقرب الدّهن ،
ولا قربت فراش أبى سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد ^(٢) .

قال الواقديّ : وبلغ نوفل بن معاوية الذبلى وهو فى أهله - وقد كان شهد معهم بدرا -
أن قريشا بكت على قتلاها؛ فقدم مكة ، فقال : يا معشر قريش ، لقد خفت أحلامكم ، وسيفه
رأسكم ، وأطعمت نساءكم ، أمثل قتلاكم يبكى عليهم ! هم أجلّ من البكاء ، مع أن ذلك
يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم ، إلا أن
تدركوا ناركم من عدوكم . فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه ، فقال : يا أبا معاوية ، غلبت ،
والله ما ناحت امرأة من بنى عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم ، ولا بكاهم شاعر إلا نهيتُه
حتى ندرك نارنا من محمد وأصحابه ، وإني لأنا الموتور النائر ، قتل ابني حنظلة ، وسادة أهل
هذا الوادى ؛ أصبح هذا الوادى مقشعرا لقدمهم ^(٣) !

قال الواقديّ : وحدثني معاذ بن محمد الأنصارى ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال :
لما رجع للشركون إلى مكة ، وقد قتل صناديدهم وأشرفهم ، أقبل عمير بن وهب بن عمير
الجمعى حتى جلس إلى صفوان بن أمية فى الحجر ، فقال صفوان بن أمية : قُبِّح العيش

(٢) مغازى الواقدي ١١٦ ، ١١٧

(١) حلّاني : منعى

(٣) مغازى الواقدي ١١٨

بعد قتلى بدر ! قال عمير بن وهب : أجل والله ، مافى العيش بعدهم خيرٌ ، ولولا دين عليّ
لا أجد له قضاء ، وعيال لا أدع لهم شيئاً ، لرحلتُ إلى محمد حتى أقتله إن ملأتُ عيني منه ؛
فإنه بلغني أنه يطوف في الأسواق ، فإن لي عندهم علةٌ ، أقول : قدمت على ابني هذا
الأسير . ففرح صفوان بقوله ، وقال : يا أبا أمية ، وهل نراك فاعلاً ؟ قال : إي ورب هذه
البنية ! قال صفوان : فعلى دينك ، وعيالك أسوة عيالي ، فأنت تعلم أنه ليس بمكة رجل
أشدّ توسعاً على عياله مني . قال عمير : قد عرفت ذلك يا أبا وهب ، قال صفوان : فإن
عيالك مع عيالي ، لا يسعني شيءٌ ونعجز عنهم ، ودينك عليّ . فحمله صفوان على بعيره ،
وجّهزه وأجرى على عياله مثل ما يجري على عيال نفسه ، وأمر عمير بسيفه فشحذ وسمّ ،
ثم خرج إلى المدينة ، وقال لصفوان : اكنتم عليّ أياماً حتى أقدمها ، وخرج فلم يذكره
صفوان ، وقدم عمير ، فنزل على باب المسجد ، وعقل راحلته ، وأخذ السيف فتقلده ، ثم
عمد نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون^(١) ،
ويذكرون نعمة الله عليهم في بدر ، فرأى عميراً وعليه السيف ، ففزع عمر منه ، وقال
لأصحابه : دونكم الكلب ! هذا عمير بن وهب عدو الله الذي حرّش بيننا يوم بدر ،
وحزرننا للقوم ؛ وصعد فينا وصب ؛ يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كين . فقاموا إليه فأخذوه ،
فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ؛ هذا عمير بن وهب ،
قد دخل المسجد ومعه السلاح ، وهو الغادر الخبيث الذي لا يؤمن على شيء ، فقال النبي
صلى الله عليه وآله : أدخله عليّ ، فخرج عمر فأخذ بمماثل سيفه ، فقبض بيده عليها ، وأخذ
بيده الأخرى قائم السيف ، ثم أدخله على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما رآه ، قال :
يا عمر ، تأخر عنه ، فلما دنا عمير إلى النبي صلى الله عليه وآله قال : أنعم صباحاً ، فقال له
النبي صلى الله عليه وآله : قد أكرمنا الله عن تحيتك ، وجعل تحيتنا السلام ، وهي تحية
أهل الجنة . قال عمير : إن عهدك بها لحديث ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : قد أبدلنا

(١) الواقدي : « فنظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو في نفر من أصحابه يتحدثون »

الله خيرا ، فما أقدمك يا عمير ؟ قال : قدمت في أسيرى عندكم تفادونه وتغار بوننا فيه ، فإنكم العشيبة والأصل ! قال النبي صلى الله عليه وآله : فما بال سيف ! قال عمير : قبجها الله من سيوف ! وهل أغنت من شيء ، إنما نسيته حين نزلت وهو في رقبتي ، ولعمري إن لي لهما غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصدق يا عمير . ما الذي أقدمك ؟ قال : ما قدمت إلا في أسيرى ، قال صلى الله عليه وآله : فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ؟ ففرع عمير ، وقال : ماذا شرطت له ؟ قال : تحملت بقتلي ، على أن يقضى دينك ، ويمول عيالك ، والله حائل بينك وبين ذلك ! قال عمير : أشهد أنك رسول الله وأنت صادق ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كفا يارسول الله نكذبتك بالرحى ، وبما يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان كما قلت ، لم يطلع عليه غيره وغيرى ، وقد أمرته أن بكتمه^(١) ليالي ، فأطلعك الله عليه ، فأمنت بالله ورسوله ، وشهدت أن ما جئت به حق . الحمد لله الذي ساقني هذا المساق ! وفرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب : لخزير^١ كان أحب إليّ منه حين طلع ، وهو الساعة أحب إليّ من بعض ولدي . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « علموا أخاكم القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ، فقال عمير : يارسول الله ، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، فله الحمد أن هداني ، فأذن لي فألحق قريشا فأدعواهم إلى الله وإلى الإسلام ، فلعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة - فأذن له فخرج ، فلحق بمكة - وكان صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة ، يقول : هل حدث بالمدينة من حدث ؟ ويقول لقريش : أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر - فقدم رجل من المدينة ، فسأله صفوان عن عمير ، فقال : أسلم ، فلعنه صفوان ولعنه المشركون بمكة ، وقالوا : صبا عمير ، وحلف صفوان ألا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه ، وطرح عياله . وقدم عمير ، فنزل في أهله ، ولم يأت صفوان ، وأظهر الإسلام ، فبلغ صفوان : فقال : قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله ، وقد كان رجل أخبرني أنه ارتكس ، لا أكله من رأسي

(١) : « بكتم عنى » .

أبدا ، ولا أنفعه ولا عياله بِنَافِعَةٍ أَبَدًا ، فَوَقَعَ عَلَيْهِ عُمَيْرٌ وَهُوَ فِي الْحِجْرِ فَقَالَ : يَا أَبَا وَهَبٍ . فَأَعْرَضَ صَفْوَانُ عَنْهُ ، فَقَالَ عُمَيْرٌ : أَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا ، أَرَأَيْتَ الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجْرٍ ، وَالذَّبْحِ لَهُ ! أَهَذَا دِينٌ ! أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَلَمْ يَجِبْهُ صَفْوَانُ بِكَلِمَةٍ ، وَأَسْلَمَ مَعَ عُمَيْرٍ بِشَرِّ كَثِيرٍ ^(١) .

قال الواقدي : وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا ، فاحتبسهم آباؤهم ، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر ، وهم على الشك والارتياب ، لم يخلصوا إسلامهم ؛ وهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمة بن الأسود ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، فلما قدموا بدرًا ، ورأوا قلة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، قالوا : غر هؤلاء دينهم ، ففيهم أنزل : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ ^(٢) ، ثم أنزل فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ لِّلْمَلَائِكَةِ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ ^(٣) إلى تمام ثلاث آيات ^(٤) .

قال : فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلمًا ، فقال جندب بن ضمرة الخزاعي : لا عندي ولا حجة في مقامي بمكة - وكان مريضًا - فقال لأهله : أخرجوني ، لعل أجد روحًا ! قالوا : أي وجه أحب إليك ؟ قال : نعم التنعيم ! فخرجوا به إلى التنعيم ، وبين التنعيم ومكة أربعة أميال من طريق المدينة - فقال : اللهم إني خرجت إليك مهاجرًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ ^(٥) الآية ، فلما رأى ذلك من كان بمكة ممن يطبق الخروج ، خرجوا ، فطلبهم أبو سفيان في رجال من المشركين ،

(٢) سورة الأقال ٤٩

(٤) مغازي الواقدي ٦٧

(١) مغازي الواقدي ١١٧ - ١٢٣

(٣) سورة النساء ٩٧ وما بعدها

(٥) سورة النساء ١٠٠

فردُّوهم وسجنوهم ، فافتتن منهم ناس ، وكان الذين افتتنوا إنما افتتنوا حين أصابهم البلاء .
فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً
النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ... ﴾^(١) الآية وما بعدها ، فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من كان
بمكة مسلماً ، فلما جاءهم الكتاب بما أنزل فيهم ، قالوا : اللهم إن لك علينا إن . أفلتتنا
ألا نعدل بك أحدا ، فخرجوا الثانية ، فطلبهم أبو سفيان والمشركون ، فأعجزوهم هرباً في
الجبال ، حتى قدموا المدينة ، واشتدَّ البلاء على من ردُّوا من المسلمين ، فضر بومهم وآذوهم
وأكروهوم على ترك الإسلام ، ورجع ابن أبي سرح مشركاً ، فقال لقريش : ما كان يعلم
محمد إلا ابن قطة^(٢) ، عبد نصراني ، لقد كنت أكتبه فأحوَّل ما أردت ، فأنزل الله تعالى
﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ^(٣) ... ﴾ الآية^(٤) .

القول في نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتهم المشركين

اختلف المسلمون في ذلك ، فقال الجمهور منهم : نزلت الملائكة حقيقة ، كما ينزل
الحيوان والحجر من الموضع العالى إلى الموضع السافل .
وقال قوم من أصحاب المعاني غير ذلك .
واختلف أرباب القول الأوَّل ، فقال الأكثرون : نزلت وحاربت ، وقال قوم منهم :
نزلت ولم تحارب ، وروى كل قومٍ في نصرة قولهم روايات .
فقال الواقدي في كتاب " المغازي " : وحدثنى عمر بن عقبة ، عن شعبة مولى
ابن عباس ، قال : سمعت ابن عباس يقول : لما تواقف الناس أغمى على رسول الله صلى

(١) سورة العنكبوت ١٠

(٢) كذا في الأصول ومغازي الواقدي ، وفي تفسير القرطبي ١٠ : ١٧٧ ، اسمه جبر ، وقيل اسمه يعيش

(٣) سورة النحل ١٠٣ (٤) مغازي الواقدي ٦٧

الله عليه وآله ساعة ، ثم كشف عنه فبشر المؤمنين بجهنم في جند من الملائكة في ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر في ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر في ألف ، وكان إبليس قد تصور للمشركين في صورة سُرَاقَة بن جعشم المدلجى ، يذمر المشركين ، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس ، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه ، وقال : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ ، فنشبت به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سُرَاقَة لما سمع من كلامه ، فضرب في صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر ، ورفع يديه قائلاً : يا رب موعده الذي وعدتني ! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضهم على القتال وقال : لا يفرنكم خذلان سُرَاقَة بن جعشم إيانا ، وإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه ، سيعلم إذا رجعنا إلى قديد ما نصنع بقومه ! ولا يهولنكم مقتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم عجلوا و بطروا حين قاتلوا ، وإيم الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمداً وأصحابه في الجبال ، فلا ألفين أحداً منكم قتل منهم أحداً ، ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم بالذي صنعوا ، لفارقتهم دينكم ورغبتهم عما كان يعبد آباؤهم .

قال الواقدي : وحدثنى عتبة بن يحيى ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع ، عن أبيه ، قال : إن كنا لنسمع لإبليس يومئذ خواراً ودعاءً بالثبور والويل ، وتصور في صورة سُرَاقَة ابن جعشم حتى هرب ، فاقتحم البحر ، ورفع يديه ماداً لها ، يقول : يا رب ما وعدتني ! ولقد كانت قريش بعد ذلك تعبر سُرَاقَة بما صنع يومئذ ، فيقول : والله ما صنعت شيئاً !

قال الواقدي : لحدثني أبو إسحاق الأسلمى ، عن الحسن بن عبيد الله ، مولى بني العباس ، عن عمارة الليثي ، قال : حدثني شيخ صياد من الحبي - وكان يومئذ على ساحل البحر - قال : سمعت صياحاً : يا ويلاه ! يا ويلاه ! قد ملأ الوادي : يا حرباه يا حرباه ! فنظرت فإذا سُرَاقَة بن جعشم ، فدنوت منه ، فقلت : مالك فذاك أبي وأمي ! فلم يرجع إلى شيئاً ، ثم أراه اقتحم البحر ، ورفع يديه ماداً ، يقول : يا رب ما وعدتني ! فقلت

في نفسى : جُنَّ وبيت الله سراقه ! وذلك حين زاغت الشمس ، وذلك عند انهزامهم يوم بدر^(١) .

قال الواقدي : قالوا : كانت سماء الملائكة عمائم قد أرخوها بين أكتافهم ، خضراء وصفراء وحمراء من نور ، والصوف في نواصي خيلهم .

قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر ، عن محمود بن لبيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : «إن الملائكة قد سوّمت فسوّموا» ، فأعلم المسلمون بالصوف في مغائرهم وقلائسهم^(٢) .

قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح قال : كان أربعة من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يعلمون^(٣) في الزحوف : حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلماً بريشة نعامة ، وكان علي عليه السلام معلماً بصوفة بيضاء ، وكان الزبير معلماً بعصابة صفراء ، وكان أبو دجانة يعلم بعصابة حمراء وكان الزبير يحدث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير .

قال الواقدي : فروى عن سهيل بن عمرو ، قال : لقد رأيت يوم بدر رجالاً يبيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقتلون ويأسرون .

قال الواقدي : وكان أبو أسد الساعدي يحدث بعد أن ذهب بصره ، ويقول : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك فيه ولا أمتري ! قال : وكان أسيد يحدث عن رجل من بني غفار حدثه ، قال : أقبلت أنا وابن عمي لي يوم بدر ، حتى صعدنا على جبل ، ونحن يومئذ على الشرك ننظر الوقعة وعلى من تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب إذ رأيت سحابة دنت منا ، فسمعت منها

(٢) مغازى الواقدي ٧٠

(١) مغازى الواقدي ٧٠

(٣) يقال . رجل معلم بكسر اللام ؛ إذا علم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها .

همهمة الخليل ، وقمقعة الحديد ، وسمعت قائلاً يقول : أقدم حيزوم ! فأما ابنُ عمي ، فانكشف قناع قلبه ، فمات ، وأما أنا فكدت أهلك ، فتماسكت وأتبعته بصرى حيث تذهب السحابة ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وأصحابه ، ثم رجعت ، وليس فيها شيء مما كنت أسمع .

قال الواقدي : وحدثني خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل : مَنْ القائل يوم بدر : أقبل حيزوم ؟ فقال جبرائيل : يا محمد ، ما كلَّ أهل السماء أعرف .

قال الواقدي : وحدثني عبد الرحمن بن الحارث ، عن أبيه ، عن جده ، عبيدة بن أبي عبيدة ، عن أبي رهم الغفاري عن ابن عمِّ له ، قال : بينا أنا وابن عمِّ لي على ماء بدر ، فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش ، قلنا : إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه ، فانطلقنا نحو الجنبية اليسرى من أصحاب محمد ، ونحن نقول : هؤلاء ربيع قريش ، فبينما نحن نمشي في الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا ، فرفعنا أبصارنا لها ، فسمعنا أصوات الرجال والسيوف ، وسمعنا قائلاً يقول لفرسه : « أقدم حيزوم » ، وسمعناهم يقولون : « رويدا تتام أخراكم » ، فنزلوا على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبي صلى الله عليه وآله ، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذاهم على الضعف من قريش ، فمات ابن عمي ، وأما أنا فتماسكت ، وأخبرت النبي صلى الله عليه وآله بذلك ، وأسلمت .

قال الواقدي : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « مارئى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغضب منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام ، إلا مارأى يوم بدر » ، قيل : وما رأى

يا رسول الله يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبرائيل يوزع الملائكة. قال: وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال يومئذ: «هذا جبرائيل يسوق بريح، كأنه دحية الكلابي، إني نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(١).

قال الواقدي: وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: رأيت يوم بدر رجلين؛ أحدهما عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر عن يساره، يقانلان أشد القتال، ثم نلّهما ثالث من خلفه، ثم ربعهما رابع أمامه^(٢).

قال: وقد روى سعد بن أبي وقاص مثل ذلك، قال: رأيت رجلين يوم بدر، يقانلان عن النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وإني لأراه ينظر إلى ذا مرة، وإلى ذا مرة، سرورا بما فتحه^(٣) الله تعالى^(٤).

قال الواقدي: وحدثني إسحاق بن يحيى، عن حمزة بن صهيب، عن أبيه، قال: ما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يدم كعلمها يوم بدر، قد رأيتها^(٥).

قال الواقدي: وروى أبو بريدة بن نيار، قال: جئت يوم بدر بثلاثة رهوس فوضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فقتلتهم، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً أبيض ضربه فسدهده^(٦) أمامه؛ فأخذت رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاك فلان من الملائكة»^(٧).

قال الواقدي: وكان ابن عباس رحمه الله، يقول: لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر^(٧).

(٢) مغازي الواقدي ٧٣

(٤) مغازي الواقدي ٧٣

(٦) تدهده: تدرج، وفي الواقدي «تدهدي»

(١) مغازي الواقدي ٧٢

(٣) الواقدي: «ظفره الله».

(٥) مغازي الواقدي ٧٣

(٧) مغازي الواقدي ٧٣

قال : وحدّثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحُصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان الملك يتصوّر في صورة مَنْ يعرفه المسلمون من الناس ^(١) ليثبتهم ، فيقول : إني قد دنوتُ من المشركين ، فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ما ثبتنا لهم ، وليسوا بشيء ، فاحملوا عليهم ؛ وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ ^(٢) الآية ^(٣) .

قال الواقديّ : وحدّثني موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : كان السائب بن أبي حُبَيْش الأَسديّ يحدث في زمن عمر بن الخطاب ، فيقول : والله ما أسرني يوم بدر أحدٌ من النَّاس ، فيقال : فمن ؟ فيقول : لما انهزمتُ قريش انهزمتُ معها فيدركني رجل أبيض طويل ، على فرس أبلق بين السماء والأرض ، فأوثقني رباطا ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً ، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر : مَنْ أَسَرَ هَذَا ؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني ، حتى انتهى بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله : يا ابن أبي حُبَيْش ، مَنْ أَسَرَكَ ؟ قلت : لا أعرفه ، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أسره ملك من الملائكة كريم ، اذهب يا ابن عوف بأسيرك » ، فذهب بي عبدُ الرحمن . قال السائب : وما زالت تلك الكلمة أحفظها ، وتأخر إسلامي حتى كان من إسلامي ما كان ^(٤) .

قال الواقديّ : وكان حكيم بن حزام ، يقول : لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقع بوادي خلص بجاد من السماء قد سدّ الأفق - قال ووادي خلص ناحية الرُّؤَيْثة - قال : فإذا الوادي يسيل تملاً ، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء أيّد به محمد ، فما كانت إلا الهزيمة ، وهي الملائكة ^(٥) .

(١) الواقديّ : « من تعرفون من الناس » .

(٢) سورة الأفعال ١٢

(٣) مغازي الواقدي ٧٣ ، ٧٤

(٤) مغازي الواقدي ٧٤

(٥) مغازي الواقدي ٧٤ ، ٧٥

قال الواقدي: وقد قالوا: إنه لما التحم القتال، ورسول الله صلى الله عليه وآله رافع يديه يسأل الله النصر وما وعده، ويقول: اللهم إن ظهرت علي هذه العصابة، ظهر الشرك؛ ولا يقوم لك دين، وأبو بكر يقول: والله لينصرتك الله وليبيضن وجهك، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا بكر، أبشِرْ، هذا جبرائيل معتجراً بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض»، ثم قال: إنه لما نزل الأرض تعيب عني ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع، يقول: أتاك النصر من الله إذ دعوته^(١).

قال الواقدي: وحدثني موسى بن يعقوب، عن عمه، قال: سمعتُ أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، يقول: سمعتُ مروان بن الحكم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدر، فجعل الشيخ يكره ذلك، حتى ألح عليه، فقال حكيم: التقينا فاقتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة في الطست، وقبض النبي صلى الله عليه وآله القبضة، فرمى بها فانهزمتنا.

قال الواقدي: وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير، قال: سمعتُ نوفل بن معاوية الدؤلي، يقول: انهزمتنا يوم بدر، ونحن نسمع كوقع الحصى في الطساس بين أيدينا ومن خائنا، فكان ذلك أشد الرعب علينا.

فأما الذين قالوا: نزلت الملائكة ولم تقاتل، فذكر الزمخشري في كتابه في تفسير القرآن المعروف "بالكشاف" أن قوماً أنكروا قتال الملائكة يوم بدر؛ وقالوا: لو قاتل واحد من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولا ستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته، فإن جبرائيل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط - كما جاء في الخبر - على خافقة من جناحه،

(١) منازي الواقدي ٧٥، ٧٦

حتى بلغ بها إلى السماء ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، فما عسى أن يبلغ قوة ألف رجل من قريش ليحتاج في مقاومتها وحربها إلى ألف ملك من ملائكة السماء مضافين إلى ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا من بني آدم ! وجعل هؤلاء قوله تعالى : ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ... ﴾^(١) أمرا للمسلمين لا أمرا للملائكة .

وروا في نصرة قولهم روايات ، قالوا : وإنما كان نزول الملائكة ليكثرُوا سواد المسلمين في أعين المشركين ، فإنهم كانوا يرونهم في مبدأ الحال قليلين في أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ ... ﴾^(٢) ، ليطمع المشركون فيهم ويحتروا على حربهم ، فلما نشبت الحرب كثرتهم الله تعالى بالملائكة في أعين المشركين ليفرّوا ولا يثبتوا . وأيضا فإن الملائكة نزلت وتصورت بصور البشر الذين يعرفهم المسلمون ، وقالوا لهم ما جرت العادة أن يقال مثله من تثبيت القلوب يوم الحرب ، نحو قولهم : ليس المشركون بشيء ، لا قوة عندهم ، لا قلوب لهم ، لو حملتم عليهم لهزمتهم . . . وأمثال ذلك .

ولقائل أن يقول : إذا كان قادرا على أن يقلل ثلثمائة إنسان في أعين قريش حتى يظنّوهم مائة ، فهو قادر على أن يكثرهم في أعين قريش بعد التقاء حَلَقَتِي البطان ، فيظنّوهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائكة .
فإن قلت : لعل في إنزالهم لطفًا للمكافئين .

قلت : ولعل في محاربتهم لطفًا للمكافئين ؛ وأما أصحاب المعاني فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره ، ولهم في تأويله قول ليس هذا موضع ذكره .

القول فيما جرى في الغنيمة

والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى مكة

قال الواقدي : لما تصافت المشركون والمسلمون ، قال النبي صلى الله عليه وآله : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا ، وَمَنْ أَسَرَ أُسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا » ، فلما انهزم المشركون كان الناس ثلاث فرق ؛ فرقة قامت عند خيمة رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان أبو بكر معه في الخييمة - وفرقة أغارت على النهب تنهب ، وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا ، فتكلم سعد بن معاذ - وكان ممن أقام على خيمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ، مامننا أن نطلب العدو زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو ، ولكننا خفنا أن نعري موضعك ، فيميل عليك خيل من خيل المشركين ورجال من رجالهم ، وقد أقام عند خيמתك وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، والناس كثير ، ومتى نعط هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء ، والقتلى والأسرى كثير ، والغنيمة قليلة ، فاختلقوا فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ... ﴾ الآية ، فرجع المسلمون ، وليس لهم من الغنيمة شيء ثم أنزل الله فيما بعد : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ... ﴾ ^(١) فقسمه عليهم بينهم .

قال الواقدي : وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جده عبادة بن الصامت ، قال : سلمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول ، ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وآله بديراً ، ونزلت بعد : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين

أُلخِمْسَ فِيمَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ غَنِيمَةِ بَعْدِ بَدْرٍ .

قال الواقدي : وقد روى عن أبي أسيد الساعدي مثله .

وروى عكرمة ، قال : اختلف الناس في الغنائم يوم بَدْرٍ ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالغنائم أن ترد في المقسم ، فلم يبق منها شيء إلا رد . وظن أهل الشجاعة أنه صلى الله عليه وآله يخصصهم بها دون غيرهم من أهل الضعف ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تقسم بينهم على سواء ، فقال سعد بن أبي وقاص : يارسول الله تعطي فارس القوم الذي يحبهم مثل ما تعطي الضعيف ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « شكلك أمك ! وهل تنصرون إلا بضعفائكم ! » .

قال الواقدي : فروى محمد بن سهل بن خيشمة ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن ترد الأسرى والأسلاب ، وما أخذوا من اللغنم ، ثم أقرع بينهم في الأسرى ، وقسم أسلاب المقتولين الذين يُعرف قاتلوهم بين قاتليهم ، وقسم ما وجدته في العسكر بين جميع المسلمين عن فراق .

قال الواقدي : وحدثني عبد الحميد بن جعفر ، قال : سألت موسى بن سعد بن زيد ابن ثابت : كيف فعل النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر في الأسرى والأسلاب والأنفال ؟ فقال : نادى مناديه يومئذ : مَنْ قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له ، وأمر بما وجد في العسكر وما أخذ بغير قتال ، فقسمه بينهم عن فراق . فقلت لعبد الحميد : فلن أعطى سلب أبي جهل ! فقال : قد قيل : إنه أعطاه مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ ، وقيل : أعطاه ابن مسعود .

قال : وأخذ عليّ عليه السلام دِرْعَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ وَيَبِضْتَهُ وَمَغْفَرَهُ ، وَأَخَذَ حِمْزَةَ سِلَاحِ عُثْبَةَ ، وَأَخَذَ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ سِلَاحَ شَيْبَةَ ، ثُمَّ صَارَ إِلَى وَرَثَتِهِ .

قال الواقدي : فكانت القسمة على ثمانية وسبعة عشر سهما ، لأن الرجال كانت ثمانية وثلاثة عشر رجلا ، وكان معهم فرسان لها أربعة أسهم ، وقسم أيضا فوق ذلك ثمانية أسهم ، لم يحضروا ، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين لاختلاف فيهم ، وهم : عثمان بن عفان خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته رقية وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبشارة إلى المدينة ، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، بعثهما رسول الله صلى الله عليه وآله يتجسسان خبر العير . وخمسة من الأنصار هم : أبو لبابة بن عبد المنذر ، خلفه على المدينة ، وعاصم بن عدى ، خلفه على قباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمر في بني عمرو بن عوف ، وخوات بن جبير كسر بالروحاء ، والحارث بن الصمة مثله ، فلا اختلاف في هؤلاء . واختلف في أربعة غيرهم ، فروى أنه ضرب لسعد بن عباد بسهمه وأجره ، وقال : لئن لم يشهدا لقد كان فيها راعبا ، وذلك أنه كان يحض الناس على الخروج إلى بدر ، فنهش ففمه ذلك من الخروج .

وروى أنه ضرب لسعد بن مالك الساعدي بسهمه وأجره ، وكان تجهز إلى بدر ، فمرض بالمدينة ، فمات خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأوصى إليه عليه السلام .

وروى أنه ضرب لرجلين آخرين من الأنصار ولم يسمهما ، الواقدي وقال : هؤلاء الأربعة غير مجمع عليهم كإجماعهم على الثمانية .

قال : وقد اختلف : هل ضرب بسهم في الغنيمة لقتلى بدر ؟ فقال الأكثرون : لم يضرب لهم ، وقال بعضهم : بل ضرب لهم ؛ حدثني ابن أبي سبرة ، عن يعقوب بن زيد ، عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلا . قال : وقد قال عبد الله ابن سعد بن خيثمة : أخذنا ستم أبي الذي ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله حين

قسم الغنائم ، وحمله إلينا عُوَيْر بن ساعدة . قال : وقد روى السائب بن أبي لُبابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله أَسْمَهُمْ لمبشّر بن عبد المنذر ، قال : وقد قدم بسهمه علينا مَعْن بن عدى .

قال الواقدي : وكانت الإبل التي أصابوا يومئذ مائة وخمسين بعيراً ، وكان معه أدم كثير ، حملوه للتجارة ، فغنمه المسلمون يومئذ ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء ، فقال بعضهم : مالنا لا نرى القطيفة ! ما نرى رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أخذها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ ﴾ ^(١) . وجاء رجل رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : يا رسول الله ، إن فلانا غلّ قطيفة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله الرجل ، فقال : لم أفعل ، فقال الدالّ : يا رسول الله ، احفروا هاهنا ، فحفرنا فاستخرجت القطيفة ، فقال قائل : يا رسول الله ، استغفر لفلان مرّتين ؛ أو مرارا ، فقال عليه السلام : دعونا من أبي حرّ .

قال الواقدي : وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس ، وكان جمل أبي جهل فيما غنموه ، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله ، فلم يزل عنده يضرب في إبله ويفزو عليه حتى ساقه في هدى الحديبية ، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمائة بعير ، فقال : لولا أنا سميّناه في الهدى لفعلنا .

قال الواقدي : وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله صفيّ ^(٢) من الغنيمة قبل القسمة ، فتنقل سيفه ذا الفقار يومئذ ، كان لمنبه بن الحجاج . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العَصْب .

قال : وسمعت ابن أبي سبرة ، يقول : سمعت صالح بن كيسان ، يقول : خرج رسول

(١) سورة آل عمران ١٦١

(٢) الصقي من الغنيمة : نصيب الرئيس

الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وما معه سيف ، وكان أول سيف قلده سيف منبه بن الحجاج غنمه يوم بدر .

وقال البلاذري : كان ذو الفقار للعاص بن منبه بن الحجاج ، ويقال : لمنبه ، ويقال لشيبة ، والثبت عندنا أنه كان للعاص بن منبه .

قال الواقدي : وكان أبو أسيد الساعدي إذا ذكر الأرقم بن أبي الأرقم ، يقول : ما يومى منه بواحد ، فيقال : ما هذا هو ؟ فيقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله للمسلمين أن يردوا يوم بدر ما في أيديهم من المغنم ، فرددت سيف أبي عائد الخزومي - واسم السيف المرزبان ، وكان له قيمة وقدر - وأنا أطمع أن يرد إلى ، فكلم الأرقم رسول الله صلى الله عليه وآله فيه - وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمنع شيئاً يسأله - فأعطاه السيف . وخرج بنى له يفعة^(١) ، فاحتمله الغول ، فذهبت به متوركة ظهرا ، فقيل لأبي أسيد : وكانت الغيلان في ذلك الزمان ؟ فقال : نعم ، ولكنها قد هلكت ، فلقى بنى الأرقم بن أبي الأرقم ، فبهش^(٢) إليه باكيا مستجيها به ، فقال : من أنت ؟ فأخبره ، فقالت الغول : أنا حاضنته ، فلها عنه والصبي يكذبها ، فلم يعرج عليه حتى الساعة ، فخرج من دارى فرس لى ، فقطع رسنه ، فلقى الأرقم بالغابة فركبه ؛ حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إلى أنه أفلت منى ، فلم أقدر عليه حتى الساعة .

قال : وروى عاصم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر سيف العاص بن منبه ، فأعطاه ، قال : وأخذ عليه السلام ممالك حضروا بدرأ ، ولم يسهم لهم وهم ثلاثة أعبد ، غلام لحاطب بن أبي بلتعة ، وغلام لعبد الرحمن بن

(١) غلام يفع ويفعة ، إذا كان مترعراً .

(٢) بهش إليه : خف إليه .

عوف ، وغلالم لسعد بن معاذ ، واستعمل صلى الله عليه وآله شُقران غلامه على الأسرى ، فأخذوا من كل أسير ما لو كان حُرًّا ما أصابه في المقسم .

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : رميتُ سهيل بن عمرو يوم بدر فقطعت نساءه ، فاتبعت أثر الدم حتى وجدته قد أخذه مالك بن الدخشم ، وهو ممسك بناصيته ، فقلت : أسيرى رميته ! فقال : أسيرى أخذته ! فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذه منا جميعاً ، وأفلت سهيل بالزَّوحاء ، فصاح عليه السلام بالناس ، فخرجوا في طلبه ، فقال صلى الله عليه وآله : مَنْ وجدته فليقتله ، فوجده هو صلى الله عليه وآله فلم يقتله .

قال الواقدي : وأصاب أبو بردة بن نيار أسيراً من المشركين ، يقال له معبد ابن وهب ، من بني سعد بن ليث ، فلقية عمر بن الخطاب وكان عمر يحض على قتل الأسرى ، لا يرى أحداً في يديه أسير إلا أمر بقتله ، وذلك قبل أن يتفرق الناس ، فلقية معبد وهو أسير مع أبي بُرْدة ، فقال : أترون يا عمر أنكم قد غلبتم ! كلاً واللآت والعزى ! فقال عمر : عباد الله المسلمين ، أتتكلّم وأنت أسير في أيدينا ! ثم أخذه من أبي بُرْدة فضرب عنقه - ويقال : إن أبا بُرْدة قتله .

قال الواقدي : وروى أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله يومئذ : « لا تخبروا سعداً بقتل أخيه فيقتل كل أسير في أيديكم » .

قال الواقدي : ولما جرى بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : كأنه شق عليك أن يؤسروا ! قال : نعم يا رسول الله ، كانت أول

وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحببتُ أن يُذلتهم الله ، وأن يشخن فيهم القتل .

قال الواقدي : وكان النضر بن الحارث أسره المقداد يومئذ ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من بدر ، فكان الأثيل عُرِضَ عليه الأسرى ، فنظر إلى النضر بن الحارث فأبده البصر ، فقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلي ! لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت ! فقال الذي إلى جنبه : والله ما هذا منك إلا رعب ، فقال النضر لمصعب بن عمير : يامصعب ، أنت أقرب من هاهنا بي رحماً ؛ كَلِّمْ صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي ، هو والله قاتلي إن لم تفعل . قال مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله كذا كذا ، وتقول في نبيِّه كذا وكذا ، قال : يامصعب ؛ فليجعلني كأحد أصحابي . إن قتلوا قتلت ، وإن من عليهم من علي . قال مصعب : إنك كنت تعذب أصحابه ، قال : أما والله لو أسرتك قريش ما قتلت أبداً وأنا حي . قال مصعب : والله إنى لأراك صادقا ، ولكن لست مثلك قطع الإسلام اليهود .

قال الواقدي : وعرضت الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فرأى النضر ابن الحارث ، فقال : اضربو عنقه ، فقال المقداد : أسيري يارسول الله ! فقال اللهم أغنِ المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه ، فقام علي فاضرب عنقه بالسيف صبوا ، وذلك بالأثيل ، فقالت أخته^(١) :

ياراكباً إن الأثيلَ مَظِنَّةٌ مِنْ صُبْحِ خَامِسةٍ وَأَنْتِ مُوَفَّقٌ^(٢)
بَلَّغْ بِهِ مَيْتاً فَإِنَّ تَحْيِيَةً مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا الرِّكَّابُ تَمَحْفِقُ
مَنْى إِلَيْهِ وَعِبرَةٌ مَسْفُوحَةٌ جَادَتْ لِمَأْمَحِهَا ، وَأُخْرَى تَمَحْفِقُ

(١) واسمها قتيبة ، ذكرها التبريزي في الحماسة .

(٢) الأبيات في ديوان الحماسة ٣ : ١٧ - بدمرح التبريزي

فليسمعن النّضر إن ناديتُهُ إن كان يسمع ميت أو ينطقُ
 ظلّت سيوفُ بني أيبة تنوشُهُ لله أرحامٌ هناك تمزقُ !^(١)
 صبراً يقاد إلى المدينة راغماً رَسَفَ المقيّد وهو عانٍ مُوثقُ^(٢)
 أمحدٌ ولأنتَ نجملُ نجبية في قومها، والفحلُ فحلُ معرقُ^(٣)
 ما كان ضرك لو مننتَ وربّماً منّ الفتى وهو المغيظُ المحنقُ
 والنضر أقربُ من قتل وسيلةً وأحقهم إن كان عتق يُعتقُ

قال الواقدي : وروى أن النبي صلى الله عليه وآله لما وصل إليه شعرها راق له ، وقال :
 « لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلتها » .

قال الواقدي : ولما أسير سهيل بن عمرو ، قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، انزع
 نبيتيه يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :
 « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً ، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه » . فقام سهيل بن
 عمرو بمكة حين جاءه وفاة النبي صلى الله عليه وآله بخطبة أبي بكر بالمدينة ، كأنه كان
 بسمعها ، فقال عمر حين بلغه كلام سهيل : أشهد أنك رسول الله - يريد قوله صلى الله
 عليه وآله : « لعله يقوم مقاماً لا تكرهه » .

قال الواقدي : وكان على عليه السلام يحدث ، فيقول : أتى جبريل النبي صلى الله
 عليه وآله يوم بدر ، فخبّره في الأسرى أن يضرب أعناقهم ، أو يأخذ منهم الفداء ،
 ويستشهد من المسلمين في قابل عدّتهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه ، وقال :
 هذا جبريل يخبركم في الأسرى ، بين أن تضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد

(١) الحماسة : « تشق » (٢) لم يرد في رواية الحماسة .

(٣) في الحماسة : « صن كريمة » قال في شرحه : « صن نجبية » أي ولدها . ومعرق : له عرق في
 الكرم .

منكم قابلا عدتهم . قالوا : بل نأخذ الفدية ونستعين بها ، ويستشهد منا من يدخل الجنة ،
فقبل منهم الفداء وقتل من المسلمين قابلا عدتهم بأحد .

قلت : لو كان هذا الحديث صحيحا لما عوتبوا ، فقيل لهم : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ
لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْتَرِيَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (١) ،
ثم قال : ﴿ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ﴾ (٢) ، لأنه
إذا كان خيرهم ، فقد أباحهم أخذ الفداء ، وأخبرهم أنه حسن ، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره
عليهم ، ويقول إنه قبيح .

قال الواقدي : لما حبس الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله صلى الله عليه
 وآله طمِعوا في الحياة ، فقالوا : لو بعتنا إلى أبي بكر ! فإنه أوصل قريش لأرحامنا ! فبعثوا
 إلى أبي بكر ، فاتاهم فقالوا : يا أبا بكر ، إن فينا الآباء والأبناء والإخوان ، والعمومة وبنو
 العم ، وأبعدنا قريب ، كَلِمَ صَاحِبِكَ فليمنّ علينا ويفادنا ، فقال : نعم إن شاء الله ،
 لا آلوكم خيرا . ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . قالوا : وابعثوا إلى عمر بن
 الخطاب ، فإنه من قد علمتم ، ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكف عنكم ! فأرسلوا إليه ،
 فجاءهم فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر ، فقال : لا آلوكم شرًا ! ثم انصرف إلى النبي صلى الله
 عليه وآله ، فوجد أبا بكر عنده ، والناس حوله ، وأبو بكر يُبَلِّغُهُ وَيُنْشِئُهُ ، ويقول :
 يارسول الله ، بأبي أنت وأمي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم ،
 وأبعدهم عنك قريب ! فامنن عليهم ، من الله عليك ، أوفادهم قوة للمسلمين ، فلعل الله
 يقبل بقلوبهم إليك ! ثم قام : فتنحى ناحية ، وسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم
 يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر ، فقال : يارسول الله ، هم أعداء الله ، كذبوك

(٢) سورة الأنفال ٦٨ .

(١) سورة الأنفال ٦٧ .

وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم ، فهم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطيء الله بهم الإسلام ، ويذلّ بهم الشرك ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجبهه ، وعاد أبو بكر إلى مقعده الأول ، فقال : بأبي أنت وأمي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم ، وأبعدهم منك قريب ! فامنن عليهم أوفادهم . هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم ، وأن يهديهم الله خير من أن يهلكهم . فسكت صلى الله عليه وآله عنه فلم يردّ عليه شيئاً ، وقام ناحية . فقام عمر فجلس مجلسه ، فقال : يا رسول الله ، ماتنظر بهم ! اضرب أعناقهم ، يوطيء الله بهم الإسلام ، ويذلّ أهل الشرك ، هم أعداء الله ، كذبوك وأخرجوك يا رسول الله ، اشف صدور المؤمنين ، لو قدرُوا منا على مثل هذا ما أقالونا أبداً . فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجبهه ، فقام ناحية ، فجلس وعاد أبو بكر ، فكلّمه مثل كلامه الأول فلم يجبهه ، ثم تنحى ، فبنا عمر فكلّمه بمثل كلامه الأول فلم يجبهه ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخل قُبته ، فكث فيها ساعة ، ثم خرج ، والناس يخوضون في شأنهم ، يقول بعضهم : القول ما قال أبو بكر ، وآخرون يقولون : القول ما قال عمر . فلما خرج قال للناس : ماتقولون في صاحبنيكم هذين ؟ دعوها فإنّ لها مثلاً ، مثل أبي بكر في الملائكة كميكايل ينزل برضاً الله وشفوه على عباده ، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل ، أو قد له قومه النار فطرحوه فيها ، فما زاد على أن قال : ﴿ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) وقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) وكعيسى إذ يقول : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٣) . ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله ، ومثله في الأنبياء كمثل نوح ، كان أشدّ على قومه من الحجارة ، إذ يقول : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى

(١) سورة الأنبياء ٦٧ .

(٢) سورة إبراهيم ١٤ .

(٣) سورة المائدة ١١٨ .

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١﴾ فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعا ،
ومثل موسى إذ يقول : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِيهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبِيهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى
يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿٢﴾ وإن بكم عيلة ، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء
أو ضربة عنق . فقال عبد الله بن مسعود : يارسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء .

قال الواقدي : هكذا روى ابن أبي حبيبة ، وهذا وهم ، سهيل بن بيضاء مسلم من
مهاجرة الحبشة ، وشهد بدرًا ، وإنما هو أخ له . ويقال له سهيل . قال : قال عبد الله بن
مسعود : فإني رأيتُه يُظهر الإسلام بمكة - قال : فسكت النبي صلى الله عليه وآله ، قال
عبد الله : فما مرت على ساعة قط كانت أشد على من تلك الساعة ، جعلت أنظر إلى
السماء أتخوف أن تسقط على الحجارة لتتقدمي بين يدي الله ورسوله بالكلام ، فرفع رسول
الله صلى الله عليه وآله رأسه ، فقال : « إلا سهيل بن بيضاء » ، قال : فما مرت على ساعة
أقر لعيني منها ، إذ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله . ثم قال : « إن الله عز وجل ليشدد
القلب حتى يكون أشد من الحجارة ، وإنه ليلين القلب حتى يكون ألين من الزبد » ،
فقبل الفداء ثم قال بعد : « لو نزل عذاب يوم بدر لما نجا منه إلا عمر » ، كان يقول : اقتل
ولا تأخذ الفداء . وكان سعد بن معاذ يقول : اقتل ولا تأخذ الفداء .

قلت : عندي في هذا كلام ، أما في أصل الحديث فلان فيه أن رسول الله صلى الله
عليه وآله قال ، ومثابه كعيسى إذ قال : ﴿ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وهذه الآية من المائدة والمائدة أنزلت في آخر عمره ،
ولم ينزل بعدها إلا سورة براءة ، وبدر كانت في السنة الثانية من الهجرة ، فكيف هذا !
اللهم إلا أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ ... ﴾ الآيات ، قد كانت أنزلت إما بمكة أو بالمدينة قبل بدر ،

فلما جمع عثمان القرآن ضمها إلى سورة المائدة ، فعله قد كان ذلك فينبغي أن ننظر في هذا ، فهو مشكل !

وأما حديث سهيل بن بيضاء فإنه يؤم مذهب موسى بن عمران في أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحكم في الوقائع بما يشاء ، لأنه قيل له : احكم بما تشاء ؛ فإنك لا تحكم إلا بالحق ، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال : لعله لما سكت صلى الله عليه وآله عند ما قال ابن مسعود ذلك القول ، نزل عليه في تلك السكتة الوحي وقيل له : إلا سهيل بن بيضاء ، فقال حينئذ : « إلا سهيل بن بيضاء » ، كما أوحى إليه .

وأما الحديث الذي فيه : « لو نزل عذاب لما نجا منه إلا عمر » ، فالواقدي وغيره من المحدثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ما قاله عمر ؛ بل هو المبتدئ بذلك الرأي ، ورسول الله صلى الله عليه وآله بعد في العريش ، والمشركون لم ينفصوا جمعهم كل ذلك الانفصاض ؛ فكيف خص عمر بالنجاة وحده دون سعد ! ويمكن أن يقال : إنه كان شديد التأليب والتحريض عليهم ، وكثير الإلحاح على رسول الله صلى الله عليه وآله في أمرهم ، فنسب ذلك الرأي إليه لاشتهاره به ، وإن شركه فيه غيره .

قال الواقدي : وحدثني معمر عن الزهري ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : « لو كان مطعم بن عدى حياً لوهبت له هؤلاء النتنى »^(١) . قال : وكانت لمطعم بن عدى عند النبي صلى الله عليه وآله يد أجاره حين رجع من الطائف .

(١) قال ابن الأثير في النهاية ٤ : ١٢٤ : « يعنى أسارى بدر ، واحدهم نتن ؛ كرم من وزمى ، سمام تنى لكفرهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، قال :
أمّن رسولُ الله صلى الله عليه وآله من الأسرى يوم بدر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن
عمير الجَمَحِيّ ، وكان شاعراً ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال له : إن لي خمسَ
بنات ، ليس لهنّ شيء ، فتصدّق بي عليهنّ يا محمد ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله
ذلك . وقال أبو عزة : أعطيتك موثقاً ألا أقاتلك ، ولا أكره عليك أبداً . فأرسله رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فلما خرجت قريش إلى أحد ، جاء صفوان بن أمية ، فقال : اخرج
معنا ، قال : إني قد أعطيتُ محمداً موثقاً ألا أقاتله ، ولا أكره عليه أبداً . وقد منّ عليّ
ولم يمنّ عليّ غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء . فضمّن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته
إن قتل ؛ وإن عاش أعطاه مالا كثيراً لا يأكله عياله . فخرج أبو عزة يدعو العرب
ويحشرها ، ثم خرج مع قريش يوم أحد ، فأسير ولم يؤسر غيره من قريش ، فقال :
يا محمد ، إنما خرجت كرهاً ولي بنات ، فامننّ عليّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :
« أين ما أعطيتني من العهد والميثاق ! لا والله لا تمسح عارضيك بمسكة تقول : سخرتُ
بمحمد مرتين »^(١) . فقتله .

قال : وروى سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « إن
المؤمن لا يلدغ من جُحرٍ مرتين ، يا عاصم بن ثابت ، قدّمه فاضرب عنقه » ، فقدّمه
عاصم فاضرب عنقه .

قال الواقدي : وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم بدر بالقلب أن تغور^(٢) ثم
أمر بالقتل ، فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسيماً^(٣) انتفخ من يومه . فلما
أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : اتركوه^(٤) .

(٢) تغور : تملأ بالتراب .

(٤) مغازي الواقدي ١٠٦

(١) مغازي الواقدي ١٠٥

(١) السمن : السمين خلفه .

وقال ابن إسحاق : انتفح أمية بن خلف في درعه حتى ملأها ؛ فلما ذهبوا يجرّ كونه
ترايل ، فأقرّوه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيَّبه^(١) .

قال الواقدي : ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عتبة بن ربيعة يجرّ إلى القليب -
وكان رجلاً جسيماً ، وفي وجهه أثر الجدرى - فتغيّر وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة ، فقال له :
النبي صلى الله عليه وآله : مالك ! كأنك ساءك^(٢) ما أصاب أباك ! قال : لا والله يارسول الله ،
ولكنني رأيت لأبي عقلاً وشرفاً ؛ كنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما أخطأه
ذلك ، ورأيت ما أصابه غاظني . فقال أبو بكر : كان والله يارسول الله أبقى في العشرة من
غيره ، ولقد كان كارهاً لوجهه ، ولكن الخين ومصارع السوء . فقال رسول الله صلى الله
عليه وآله : « الحمد لله الذي جعل خدّ أبي جهل الأسفل وصرعه وشفاناً منه » . فلما توافوا في
القليب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطوف عليهم وهم مصرّعون ، جعل أبو بكر
يخبره بهم رجلاً رجلاً ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحمدهم ويشكرهم ويقول : الحمد لله الذي
أنجز لي ما وعدني ! فقد وعدني إحدى الطائفتين ، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً
رجلاً : « يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أباجهل بن هشام !
هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني بي حقاً ! بنس القوم كنتم لنبيكم !
كذبتُموني وصدقتني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرتني الناس ،
فقالوا : يارسول الله ، أتنادي قوماً قد ماتوا ! فقال : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقاً »^(٣) .
وقال ابن إسحاق في كتاب « المغازي » : إن عائشة كانت تروي هذا الخبر ، وتقول :
فالناس يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « لقد سمعوا ما قلت لهم » ،
وليس كذلك ، إنما قال : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقاً »^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٩ (٢) ابن هشام : « قد دخلك من أمر أهلك شيء »

(٣) مغازي الواقدي ١٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٢

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠ .

قال محمد بن إسحاق : وحدثني حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، قال : لما ناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله قال له المسلمون : يا رسول الله ؛ أتنادى قوما قد أنتنوا ! فقال : « ما أتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

قلت : لقائل أن يقول لعائشة : إذا جاز أن يعلموا وهم موتى ، جاز أن يسمعوا وهم موتى ! فإن قالت : ما أخبرت أن يعلموا وهم موتى ، ولكن تعود الأرواح إلى أبدانهم ، وهى فى القليب ، ويرؤن العذاب ، فيعلمون أن ما وعدهم به الرسول حق ! قيل لها : ولا مانع من أن تعود الأرواح إلى أبدانهم وهى فى القليب ؛ فيسمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فإذا لا وجه لإنكارها ما يقوله الناس !

ويمكن أن ينتصر لقول عائشة على وجه حكيم ، وهو أن الأنفس بعد المفارقة تعلم ولا تسمع ؛ لأن الإحساس إنما يكون بواسطة الآلة ، وبعد الموت تفسد الآلة ؛ فأما العلم فإنه لا يحتاج إلى الآلة ؛ لأن النفس تعلم بجوهرها فقط .

قال الواقدي : وكان انهزام قريش وتوليها حين زالت الشمس ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله بيد ، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها وأمر نفر من أصحابه أن يعينوه ، فصلى العصر بيد ثم راح فمر بالأنثيل قبل غروب الشمس فنزل به ، وبات به وبأصحابه جراح ، وليست بالكثيرة ، وقال : من رجل يحفظنا الليلة ؟ فأسكت القوم ، فقام رجل فقال : من أنت ؟ قال : ذكوان بن عبد قيس ، قال : اجلس ، ثم أعاد القول الثانية ، فقام رجل ، فقال : من أنت ؟ قال : ابن عبد القيس ، فقال : اجلس ؛ ثم مكث ساعة وأعاد القول ؛ فقام رجل فقال : من أنت ؟ قال : أبو سبيع^(٢) ، فسكت ثم

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠

(٢) فى الأصول : « سبيع » ، وصوابه ما فى الواقدي ؛ وانظر ما فى الاستيعاب .

مكث ساعة ، وقال : قوموا ثلاثتكم . فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له :
وأين صاحبك ؟ قال : يا رسول الله أنا الذي كنت أجيبك الليلة ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وآله : حفظك الله ! فبات ذكوان يحرس للمسلمين تلك الليلة ، حتى كان آخر
الليل فارتحل ^(١) .

قال الواقدي : وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى العصر بالأثيل ، فلما
صلى ركعة تبسم ، فلما سلم سئل عن تبسمه فقال : مرتبى ميكائيل وعلى جناحه النقع ، فتبسم
إلى ، وقال : إني كنت في طلب القوم ، وأنا ناني جبريل على فرس أنتى معقود الناصية ،
قد عمّ ثنيتيه الغبار فقال : يا محمد إن ربي بعثنى إليك ، وأمرني ألا أفارقك حتى
ترضى ، فهل رضيت ؟ فقلت : نعم ^(٢) .

قال الواقدي : وأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالأسرى ، حتى إذا كان بعرق
الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط بن أبي
عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلاني ، فجعل عقبة يقول :
يا ويلي ! علام أقتل يا معشر قریش من بين من هاهنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه
وآله : لعداوتك لله ورسوله ، فقال : يا محمد ، منك أفضل ، فاجعاني كرجل من قومي إن قتلتهم
قتلتني ، وإن مننت عليهم مننت علي ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم ، يا محمد ،
من للصبية ؟ فقال : النار ، قدمه يا عاصم ، فاضرب عنقه ، فقدمه عاصم فضرب عنقه ،
فقال النبي صلى الله عليه وآله : بنس الرجل كنت والله ما علمت كافرًا بالله وبرسوله ،
ويكتابه مؤذياً لنبيه ، فأحمد الله الذي قتلك وأقر عينى منك ^(٣) .

قال محمد بن إسحاق : وروى عكرمة مولى ابن عباس ، عن أبي رافع ، قال : كنت
غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فينا أهل البيت ، فأسلم العباس ،

(٢) مغازى الواقدي ١٠٧

(١) مغازى الواقدي ١٠٧

(٣) مغازى الواقدي ١٠٧ ، ١٠٨

وأسلمت أم الفضل زوجته ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، فكان يكتنم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرق في قومه ؛ وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش ، كبتة (١) الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً .

قال : وكنتُ رجلاً ضعيفاً ، وكنتُ أعمل القِداح (٢) ، أنحتُها في حُجْرَة زمزم ، فوالله إنني لجالسٌ أنحتُ قِداحي ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه بشرّ ، حتى جالس إلى طُنب (٣) الحجْرة ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال للناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم - وكان شهد مع المشركين بدرا - فقال أبو لهب : هلمّ يا ابن أخي فعندك والله الخبر ، قال : فجلس إليه والناس قيام حوله ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرتني كيف كان أمر الناس ؟ قال : لا شيء ، والله إن هو إلا أن لقيناهم فمحناهم أكتافنا ، فقتلونا كيف شاءوا ، وأسرونا كيف شاءوا ، وإيمُ الله مع ذلك ما ملت الناس ، لقينا رجلاً بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض . لا والله ما نبتق (٤) شيئاً ، ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : فرفعتُ طُنب الحجْرة ، ثم قلت : تلك والله الملائكة ، قال : (٥) فرفع أبو لهب يده ، فضرب بي الأرض ثم برك على يضر بني (٥) ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمُد الحجْرة ، فأخذته فضربتُه على (٦) رأسه ، فشجته شجّة منكّرة ، وقالت : استضعفته إذ غاب

(١) كبتة الله : ذله وأخزاه .

(٢) ابن هشام : الأقداح .

(٣) ابن هشام : « ما نبتق شيئاً » ، أي ما نبتق شيئاً .

(٤-٥) العبارة في ابن هشام : « فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربة شديدة » قال :

وتاورته ، فاحتملني فضرب بي الأرض ، ثم برك على يضر بني . وتاورته ، أي وثبت إليه .

(٦) ابن هشام : « فضربته به ضربة قلعت في رأسه شجّة منكّرة » ، وقلعت ، أي شنت .

سيده ، فقام موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال ، حتى رماه الله بالعدسة (١) فقتله (٢) .

ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثا وما يدفناه ، حتى أنتن في بيته - وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها ، كما يتقي الناس الطاعون - حتى قال لها رجل من قريش : ونحكما ! ألا تستحيان أن أبا كما قد أنتن في بيته لا تغيبانه ! قالا : إنا نحشى هذه القرحة ، قال : فانطلقا وأنا معكما ، فوالله ما غلوه إلا قذفا عليه بالماء من بعيد ، مايمسونه ؛ وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كنان هناك ، وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروه .

قال محمد بن إسحاق : خضر العباس بدرا ، فأسير فيمن أسير ، وكان الذي أسره أبو اليسر كعب بن عمرو وأحد بنى سلمة ، فلما أمسى القوم والأسارى محبوبسون في الوثاق ، وبات رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الليلة ساهرا ، فقال له أصحابه : مالك لا تدام يارسول الله ؟ قال : «سمعت أنين العباس من وثاقه» ، فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله (٣) .

قال : وروى ابن عباس رحمه الله ، قال : كان أبو اليسر رجلا مجموعا ، وكان العباس طويلا جسيما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا اليسر ، كيف أسرته العباس ؟ قال : يارسول الله ، لقد أعانني عليه رجل مارأيت من قبل ، من هيئته كذا ، قال صلى الله عليه وآله : «لقد أعانك عليه ملك كريم» .

قال محمد بن إسحاق : قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله في أول الواقعة ، فنهى أن يقتل أحد من بنى هاشم ، قال : حدثني بذلك الزهري ، عن عبدالله بن ثعلبة حليف بنى زهرة ، قال : وحدثني العباس بن عبدالله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله ، عن عبد الله بن عباس رحمه الله ،

(١) العدسة ، قال أبو ذر الحنثي : « هي قرحة فائنة كالطاعون ، وقد عدس الرجل ، إذا أصابه ذلك » .

(٢) الخبر لم يهنا في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، ٢٩١

(٣) تاريخ الطبري ٢ : ٤٦٢ (طبعة المعارف) ، والأغانى ٤ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ (طبعة دار الكتب)

قال : وقال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه : إني قد عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لاجابة لنا بقتلهم ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكراها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة : أقتل آباءنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألحنته ^(١) السيف ، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص . يقول عمر : والله إنه لأول يوم كنتاني فيه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي حفص - أضرَبُ وجهه عم رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق ، قال : فكان أبو حذيفة يقول : والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً أبداً إلا أن يكفرها الله عني بشهادة ، فقتل يوم البيمة شهيداً ^(٢) .

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ في أمر الأسارى ، غلظ عمر عليهم غلظة شديدة ، فقال : يا رسول الله أظنني فيما أشير به عليك ، فإني لا آلوك نصحاً ، قدّم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك ، وقدّم عقيلاً إلى علي أخيه يضرب عنقه ، وقدّم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله ، قال : فكره رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك ولم يعجبه .

قال محمد بن إسحاق : فلما قدم بالأسرى إلى المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

(١) لألحنته ، أى لأظنن لحمه بالسيف ، ولأخالطته ، وقال ابن هشام : لألحنته بالسيف ، أى لأضربه به ف و-هه .

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ٤٥٠ طبعة المعارف ، وسيرة ابن هشام

أفد نفسك يا عباس وابني أخويك عَمِيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عُقْبَة بن عمرو ، فَإِنَّكَ ذُو مَال ، فقال العباس : يا رسول الله ، إني كفت مسلماً ، ولكن القوم استكروهوني ، فقال صلى الله عليه وآله : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما قلتَ حقاً فإن الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافتدِ نفسك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسير ، فقال العباس : يا رسول الله ، احسبها لي من فدائي ، فقال صلى الله عليه وآله : ذاك شيء أعطانا الله منك ، فقال : يا رسول الله ، فإنه ليس لي مال ، قال : فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ، وليس معك أحد ، ثم قلت : إن أصبتُ في سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقمتُ كذا وكذا ! فقال العباس : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، ما علم بهذا أحدٌ غيري ، وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله ، ثم فدى نفسه وابني أخويه وحليفه .

قال الواقدي : قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة يبشّران الناس بالمدينة نجاة يوم الأحد في الضحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق ، فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة : يا معشر الأنصار ، أباشرُوا بسلامه رسول الله وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جهل ، وزمعة بن الأسود ، وأمّية بن خلف ، وأسير سهيل بن عمرو ذو الأنياب ؛ فى أسرى كثير . قال عاصم بن عدى : فقامت إليه فنحوته ، فقلت : أحقّ ما تقول يا ابن رواحة ؟ قال : إى والله ، وغداً يقدم رسول الله إن شاء الله ، ومعه الأسرى مقرّنين ، ثم تتبّع دورَ الأنصار بالعالية يبشّرهم داراً داراً ، والصبيان يشتدون معه ، ويقولون : قُتِل أبو جهل الفاسق ، حتى انتهوا إلى

دور بني أمية بن زيد ، وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي صلى الله عليه وآله القصواء ، يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج وأبو جهل ، وأبو البختري وزمعة بن الأسود وأميمة بن خلف ، وأسير سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة ، فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ، ويقولون : ما جاء زيد إلا قلاً ، حتى غاظ المسلمين ذلك ، وخافوا ، قال : وكان قدوم زيد حين سوا على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله التراب بالبيع ، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد : قتل صاحبكم ومن معه ، وقال رجل من المنافقين لأبي ألبابة بن عبد المنذر : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه أبداً ، وقد قتل عليه أصحابكم ، وقتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب ، وقد جاء قلاً ، فقال أبو ألبابة : كذب الله قولك ، وقامت يهود : ما جاء زيد إلا قلاً . قال أسامة بن زيد : جئت حتى خلوت بأبي ، فقلت : يا أبت ، أحق ما تقول ؟ فقال إبي والله حقا يا بني ، فقويت نفسي ، فرجعت إلى ذلك المنافق ، فقلت : أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ! لقد منك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قدم ، فليضر بن عنقك ، فقال : يا أبا محمد ، إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه .

قال الواقدي : فقدم بالأسرى وعليهم شقران وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا ، وهم سبعون في الأصل ، جمع عليه لاشك فيه ؛ إلا أنهم لم يحص سائرهم ، ولقي الناس رسول الله صلى الله عليه وآله بالزوحاء يهنتونه بفتح الله عليه ، فلقى وجه الخرج ، فقال سلمة بن سلامة بن وقش : ما الذي تهنتونه ؟ فوالله ما قتلنا إلا بمجاز صلما ! فتبسم النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا ابن أخي ، أولئك الملاء ، لو رأيتهم لهبتهم ، وبأمروك لأطقتهم ، ولو رأيت فعالم لا تحقرتها ! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم ! فقال سلمة : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، إنك يا رسول الله لم تزل عنى معرضاً منذ كفا بالزوحاء

في بدأتنا ، فقال صلى الله عليه وآله : أما ما قلت للأعرابي : وقعت على ناقتك فهي حبلى منك ، ففحشت وقلت مالا علم لك به ، وأما ما قلت في القوم ؛ فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدا ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله معذرتي ، وكان من عليّة أصحابه .

قال الواقدي : فروى الزهري ، قال : لقي أبو هند البياضي مولى فرّوة بن عمرو رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه حَمِيْت مملوءة حَمِيْساً^(١) أهداه له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنما أبو هند رجلٌ من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه » .

قال الواقدي : ولقيه أسيد بن حُضَيْر ، فقال : يا رسول الله ، الحمد لله الذي ظفرك وأقرّ عينك ، والله يا رسول الله ، ما كان تخلفني عن بدر وأنا أظنّ بك أنك تلتقي عدوّاً ، ولكنني ظننت أنّها العير ، ولو ظننت أنّه عدوّ لما تخلفت ، فقال رسول الله : صدقت .

قال : ولقيه عبد الله ابن قيس بتربان ، فقال : يا رسول الله الحمد لله على سلامتكم وظفرك ، كنتُ يا رسول الله لياليَ خرجت موروداً - أي محموماً - فلم تفارقني حتى كان بالأمس ، فأقبلت إليك ، فقال : آجرك الله .

قال الواقدي : وكان سهيل بن عمرو لما كان بتنوكة بين السقيا وملل ، كان مع مالك ابن الدّخشم الذي أسره ، فقال له : خلّ سبيلي للغائط ، فقام معه ، فقال سهيل : إني أحشم فاستأخر عني ، فاستأخر عنه ، فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران ، ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدّخشم ، أقبل فصاح في الناس ، فخرجوا في طلبه ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله في طلبه بنفسه ، وقال : من وجدته فليقتله ، فوجده رسول الله

(١) الحميت : الزق يجعل فيه السمن والعسل والزيت . والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن ويبدلك شديداً حتى يمتزج ، ثم يتدر نواه ، وقد يجعل فيه سويق .

صلى الله عليه وآله بنفسه أخفى نفسه بين شجرات ، فأمر به فَرَبَطَتْ يداه إلى عنقه ، ثم قرنه إلى راحلته ، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة^(١) .

قال الواقدي : حدثني إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وآله أسامة بن زيد ، ورسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته القصوى ، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو محبوب ، ويداها إلى عنقه ، فلما نظر إلى سهيل قالوا : يا رسول الله ، أبو يزيد ! قال : نعم ، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة .

* * *

وقال البلاذري : قال أسامة - وهو يومئذ غلام - يا رسول الله ، هذا الذي كان يطعم الناس بمكة السريد - يعني الثريد^(٢) .

قلت : هذه لثغة مقلوبة ، لأن الأثغ بيدل السين ثاء ، وهذا أبدل الناء سيناً ، ومن الناس من يرويها : « هذا الذي كان يطعم الناس بمكة الشريد » بالشين المعجمة .

قال البلاذري : وحدثني مُصعب بن عبد الله الزُّبيري ، عن أشياخه أن أسامة رأى سهيلاً يومئذ ، فقال : يا رسول الله هذا الذي كان يطعم السريد بمكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « هذا أبو يزيد الذي يطعم الطعام ، ولكنه سعى في إطفاء نور الله ، فأمكن الله منه » .

قال : وفيه يقول أمية بن أبي الصلت النخعي :

يا أبا يزيد رأيت سيبك واسعاً وسما جودك تستهل فتمطرُ

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٤ .

قال : وفيه يقول مالك بن الدخشم^(١) ، وهو الذي أسره يوم بدر :

أسرتُ سهيلاً فلا أبتغي به غيره من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى سهيلاً فتاها إذا تظلم
ضربت بذي الشفر حتى انثنى وأكرهت نفسي على ذى العلم

أى على ذى العلم بسكون اللام ، ولكنه حرّكه للضرورة .

وكان سهيل أحلم مشقوق الشفة العليا ، فكانت أنيابه بادية ، فلذلك قالوا : ذوالأنياب .

قال الواقدي : ولما قدم بالأسرى كانت سوذة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وآله عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، قالت سوذة : فأتينا فقيل لنا : هؤلاء الأسرى قد أتى بهم ، فخرجت إلى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وإذا أبو يزيد مجموعة يدها إلى عنقه في ناحية البيت ، فوالله ما ملكت نفسي حين رأيته مجموعة يدها إلى عنقه أن قلت : أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا تم كراما ، فوالله ما راعني إلا قول رسول الله صلى الله عليه وآله من البيت : « يا سوذة ، أعلى الله وعلى رسوله » ، فقلت : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق إني ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت .

قال الواقدي : وحدثني خالد بن الياس ، قال : حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي جهم ، قال : دخل يومئذ خالد بن هشام بن المغيرة وأمّية بن أبي حذيفة منزل أم سلمة وأم سلمة في مناحة آل عفراء ، فقيل لها : أتى بالأسرى ، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم حتى

(١) البلاذري : « مالك بن الدخشم بن مالك بن الدخشم بن مرضعة بن غنم - وهو قوقل - بن عوف ابن الخزرج .

رجعت ، فتجد رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت عائشة ، فقالت : يا رسول الله ، إن بنى عمى طلبوا أن يدخل بهم على فاضيلهم ، وأدهن رؤوسهم وألم من شعهم ، ولم أحب أن أفعل شيئاً من ذلك حتى استأمرك ، فقال صلى الله عليه وآله : « لست أكره شيئاً من ذلك ، فافعل من هذا ما بدا لك » . قال الواقدي : وحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزهري ، قال : قال أبو العاص بن الربيع : كنت مستأسراً مع رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز ، وأكلوا التمر ، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم ، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إلى ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد . قال : وكانوا يحملوننا ويمشون .

وقال محمد بن إسحاق في كتابه : كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ختن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج ابنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، وكان ابناً لهالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد ، وكان الربيع بن عبد العزى بعلاً هذه ، فكانت خديجة خالته ، فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يزوجه زينب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يخالف خديجة ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي ، فزوجه إياها ، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله بنبوته آمنت به خديجة وبناته كلهن وصدقته وشهدن أن ماجاء به حق ، ودين بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد زوج عتبة بن أبي لهب إحدى ابنتيه رقية أو أم كلثوم ، وذلك من قبل أن ينزل عليه ، فلما أنزل عليه الوحي ونادى قومه بأمر الله باعدوه ، فقال بعضهم لبعض : إنكم قد فرغتم محمداً من همه ، أخذتم عنه بناته وأخر جتموهن من عياله ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوه بهن ، فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع ، فقالوا : فارق صاحبتك بنت محمد ، ونحن نزوجك أى

امرأة شئت من قریش ، فقال : لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتي ، وما أحب أن لي
بها امرأة من قریش ! فكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ذكره يُثني عليه خيرا
في صهره ، ثم مشوا إلى الفاسق عُتبة بن أبي لهب ، فقالوا له : طلق بنت محمد ، ونحن
ننكحك أي امرأة شئت من قریش ، فقال : إن أنتم زوجتموني ابنة أبان بن سعيد
ابن العاص ، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ، ففارقها ولم
يكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانا له ثم خلف عليها عثمان
ابن عفان بعده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله مغلوبا على أمره بمكة لا يُحل ولا يُحرم ،
وكان الإسلام قد فرّق بين زينب وأبي العاص ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله
كان لا يقدر وهو بمكة أن يفرّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى
جر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وبقيت زينب بمكة مع أبي العاص ، فلما
سارت قریش إلى بدر سار أبو العاص معهم ، فأصيب في الأسرى يوم بدر ، فأتى به
النبي صلى الله عليه وآله ، فكان عنده مع الأسارى ، فلما بعث أهل مكة في فداء
أسارهم ، بعثت زينب في فداء أبي العاص بعلها بمال ، وكان فيما بعثت به قلادة كانت
خديجة أمها أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها عليه ، فلما رآها رسول الله صلى الله
عليه وآله رق لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها
ما بعثت به من الفداء فافعلوا ، فقالوا : نعم يا رسول الله ؛ ففديت بأموالنا فردوا عليها
ما بعثت به ، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء (١) .

قلت : قرأت على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد البصرى العلوى رحمه الله هذا
الخبر ، فقال : أتري أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا للشهد ! أما كان يقتضى التكريم والإحسان

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

أن يطيب قلب فاطمة بفدك ، ويستوهب لها من المسلمين ، أتقصر منزلتها عند رسول الله صلى الله عليه وآله عن منزلة زينب أختها وهي سيّدة نساء العالمين ! هذا إذا لم يثبت لها حقّ ، لا بالنحلة ولا بالإرث ، فقلت له : فدك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين ، فلم يجز له أن يأخذه منهم ، فقال : وفداء أبي العاص بن الربيع قد صار حقاً من حقوق المسلمين ، وقد أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله منهم ، فقلت : رسول الله صلى الله عليه وآله صاحبُ الشريعة ، والحكم حكّمه ، وليس أبو بكر كذلك ، فقال : ما قلتُ هلاًّ أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة ، وإتما قلت : هلاًّ استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين فداء أبي العاص ! أترأه لو قال : هذه بنت نبيكم قد حضرت تطلب هذه النخلات ، أفتطيبون عنها نفساً ، أكانوا منعوها ذلك ! فقلت له : قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد نحو هذا ، قال : إنهما لم يأتيا بحسنٍ في شرع التكرم ، وإن كان ما أتياه حسناً في الدين .

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لما أطلق سبيل أبي العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه في إطلاقه ، أو أن أبا العاص وعد رسول الله صلى الله عليه وآله ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، ولم يظهر ذلك من أبي العاص ؛ ولما من رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أنه لما خلى سبيله ، وخرج إلى مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال لها : كونا بمكان كذا^(١) حتى تمرّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتياي بها ، فخرجا نحو مكة ، وذلك بعد بدر بشهر

(١) سيرة ابن هشام : « كونا بيطن بأجج » ، وأجج : اسم لمكانين : أحدهما على ثمانية أميال من مكة ، وتانيهما أبعد منه ، وفيه بني مسجد الشجرة ، وبينه وبين مسجد النعم ميلان .

[أو شيعه]^(١) فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها ، فأخذت تتجهز^(٢) .

قال محمد بن إسحاق : فحدثت عن زينب أنها قالت : بينا أنا أتجهز للحوق بأبي ، لقيتني هند بنت عتبة ، فقالت : ألم يبلغني يا بنت محمد أنك تريدن اللحوق بأبيك ، فقلت : ما أردت ذلك ، فقالت أي بنت عم لا تفعلين إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما يرفق بك في سفرك أو مال تبليغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك ، فلا تضطني^(٣) مني ، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال ، قالت : وإيم الله ، إني لأظنها حينئذ صادقة ، ما أظنها قالت حينئذ إلا لتفعل ، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك .
قالت : وتجهزت حتى فرغت من جهازي ، فحملني أخو بعلبي وهو كنانة بن الربيع .

قال محمد بن إسحاق : قدم لها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته ، وأخذ قوسه وكفاته ، وخرج بها نهاراً يقود بعيرها ، وهي في هودج لها ، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء ، وتلاومت في ذلك ، وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فخرجوا في طلبها سراً حتى أدركوها بذي طوى ؛ فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، ونافع بن عبد القيس الفهري ، فرواها هبار بالرمح وهي في الهودج ، وكانت حاملاً ، فلما رجعت طرحت ما في بطنها ، وقد كانت من خوفها رأت دمًا وهي في الهودج ، فلذلك أباح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة دم هبار ابن الأسود^(٤) .

(١) من سيرة ابن هشام . وشيعه أي قريب منه .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٣) تضطني ، أي تستحي ، ومنه قول الطرماح :

إذا ذكرت مسعاة والده اضطني ولا يضطني من شتم أهل الفضائل

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

قلت : وهذا الخبر أيضا قرأته على النقيب أبي جعفر رحمه الله، فقال : إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله أباح دم هبار بن الأسود لأنه روع زينب فألقت ذا بطنها ، فظهر الحال أنه لو كان حياً لأباح دم من روع فاطمة حتى ألقت ذا بطنها . فقلت : أروى عنك ما يقوله قوم أن فاطمة روعت فألقت الحسن^(١) ، فقال : لا ترويه عني ولا ترويه عني بطلانه ، فإني متوقف في هذا الموضع لتعارض الأخبار عندي فيه .

قال الواقدي : فبرك حموها كنانة بن الربيع ، وتثله^(٢) كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهما فوضعه في كبد قوسه ، وقال : أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهما ، فتكرر^(٣) الناس عنه .

قال : وجاء أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش ، فقال : أيها الرجل ، اكفف عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تحسن ولم تُصِبْ ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهارا ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد أبيها ، فيظن الناس إذا أنت خرجت بابتها إليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابنا ، وأن ذلك منا وهن ، ولعمري مالنا في حبسها عن أبيها من حاجة ، وما فيها من ثأر ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس بردها سُلها سلاً خفياً ، فألحقها بأبيها . فردها كنانة بن الربيع إلى مكة ، فأقامت بها ليالي حتى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بعيرها ، وخرج بها ليلا حتى سلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدمها بها على رسول الله صلى الله عليه وآله^(٤) .

قال محمد بن إسحاق : فروى سليمان بن يسار ، عن أبي إسحاق الدؤسي ، عن أبي

(١) : « حسناً » . (٢) ثل كنانته : أخرج ما فيها .

(٣) تكرر عنه ، أي ترجع ، وفي ابن هشام : « فتكرر الناس عنه » .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٩

هريرة ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية أنا فيها إلى غير قريش ، فيها متاع لهم وناس منهم ، فقال : إن ظفرتم بهبّار بن الأسود ونافع بن عبد قيس ، فخرقوها بالنار ، حتى إذا كانت الغدُ بعث فقال لنا : « إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرجلين إن أخذتموها ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يعذب بالنار إلا الله تعالى ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما ولا تحرقوهما » (١) .

قلت : لقائل من المحبرة أن يقول : أليس هذا نسخ الشيء قبل تقضى (٢) وقت فعله ، وأهل العدل لا يجيزون ذلك ! وهذا السؤال مشكّل ، ولا جواب عنه إلا بدفع الخبر إما بتضعيف أحد من رواه ، أو بإبطال الاحتجاج به لكونه خبر واحد ، أو بوجه آخر ؛ وهو أن نجيز للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما يذهب إليه كثير من شيوخوا ، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإنفاذها مع أبي بكر ، وبعث على عليه السلام ، فأخذها منه في الطريق ، وقرأها على أهل مكة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم .

فأما البلاذري فإنه روى أن هبار بن الأسود كان ممن عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حين حُجّلت من مكة إلى المدينة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر سراياه إن ظفروا به أن يحرقوه بالنار ، ثم قال (٣) : لا يعذب بالنار إلا رب النار ، وأمرهم إن ظفروا به أن يقطعوا يديه ورجليه ويقتلوه ؛ فلم يظفروا به ، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هبار ، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة . ويقال : أتاه بالجعرانة . حين فرغ من أمر حنين ، فمثل بين يديه ، وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقبل إسلامه وأمر ألا يعرض له ، وخرجت سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله

(٢) ١ « مضى »

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٢

(٣) ساقطة من ب

فقلت : لا أنعم الله بك عينا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مهلاً ، فقد محّا الإسلام ما قبله » !

قال البلاذرى : فقال الزبير بن العوام : لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بعد غلظته على هبّار بن الأسود يطأ طيء رأسه استحياءً منه ، وهبّار يعتذر إليه ، وهو يعتذر إلى هبّار أيضاً^(١) .

قال محمد بن إسحاق : فأقام أبو العاص بمكة على شركه ، وأقامت زينب عند أبيها صلى الله عليه وآله بالمدينة ، قد فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبل الفتح ، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بماله ، وأموال لقريش أبضعوا^(٢) بها معه ، وكان رجلاً مأموناً فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فأصابوا ما معه وأعجزهم هو هاربا ، فخرجت السرية بما أصابت من ماله ؛ حتى قدمت به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله منزلها ، فاستجار بها فأجارته ، وإنما جاء في طلب ماله الذى أصابته تلك السرية ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وآله في صلاة الصبح ، وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفّة النساء : أيها الناس ، إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس الصبح ، فلما سلم من الصلاة ، أقبل عليهم فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « أما الذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعتم ، إنه يجير على الناس أديانهم » . ثم انصرف ودخل على ابنته زينب ، فقال : « أى بنية ، أكرمى مثواه ، وأحسنى قِراه ، ولا يصلنّ إليك ، فإنك

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٩٨ مع اختلاف في الرواية

(٢) ١ : « أبضعوها معه » .

لا تَحْيَيْنَ لَهُ . ثم بعث إلى تلك السرية الذين كانوا أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إنَّ هذا الرجل منَّا بحيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له ، فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتُم فهو فيء الله الذي أفاءه عليكم ، وأنتم أحقَّ به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نردّه عليه ، فردّوا عليه ماله ومتاعه ، حتى إنَّ الرجل كان يأتي بالحَبْل^(١) ، ويأتي الآخر بالشنّة^(٢) ، ويأتي الآخر بالإداوة^(٣) ، والآخر بالشظاظ^(٤) ، حتى ردّوا ماله ومتاعه بأسره من عند آخره ولم يفقد منه شيئاً . ثم احتمل إلى مكّة ، فلما قدمها أدى إلى كلِّ ذى مال من قريش ماله ممّن كان أبضع معه بشيء ، حتى إذا فرغ من ذلك ، قال لهم : يا معشر قريش ، هل بقي لأحدٍ منكم عندي مال ، لم يأخذه ؟ قالوا : لا نجزيك الله خيراً ، لقد وجدناك وفياً كريماً ، قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله مامنعي من الإسلام إلا تخوف أن تظنّوا أني أردتُ أن آكل أموالكم ، وأذهب بها فإذا سلّمها الله لكم ، وأداها إليكم ؛ فإني أشهدكم أني قد أسلمتُ واتبعتُ دين محمد ، ثم خرج سريماً حتى قدم على رسول الله المدينة^(٥) .

قال محمد بن إسحاق : فحدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ردّ زينب بعد ست سنين على أبي العاص بالنكاح الأول لم يحدث شيئاً^(٦) .

قال الواقدي : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من أمر الأسارى ، وفرق الله عزّ وجلّ بيد بين الكفر والإيمان ، أذلّ رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق إلا خضعت عنقه .

(٢) الشنة : السقاء البالي .
(٤) الشظاظ : عود يشدّ به فم الغرارة
(٦) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٤ .

(١) ابن هشام : « بالدلو »
(٣) الإداوة : الطهارة التي يتوضأ بها .
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

وقال قوم من المنافقين : ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة . وقالت يهود فيما بينها : هو الذي نجد نعته في كتبنا ، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت .
وقال كعب بن الأشرف : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، هؤلاء أشرف الناس وساداتهم ، وملوك العرب وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا . وخرج إلى مكة ، فنزل على أبي وداعة بن ضُبيرة ، وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين ، فقال :

طَحَنَتْ رَحًا بِدِرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ وَلِمِثْلِ بَدْرٍ يُسْتَهْلَ وَيُدْمَعُ^(١)
قَتَلَتْ سِرَاةَ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِ لَا تَبْعَدُوا إِنَّا لِلْمَلُوكِ نُصْرَعُ^(٢)
وَيَقُولُ أَقْوَامٌ أَذِلَّ بَعَزَمِ^(٣) : إِنْ ابْنِ أَشْرَفٍ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الْأَرْضَ سَاعَةً قَتَلُوا ظَلَّتْ تَسِيخُ بِأَهْلِهَا وَتَصَدَّعُ^(٤)
نُبِّئْتُ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامِهِمْ فِي النَّاسِ بَيْنِي الصَّالِحَاتِ وَيَجْمَعُ^(٥)
لِيَزُورَ يَثْرِبَ بِالْجُوعِ وَإِنَّمَا يَسْمَعُ عَلَى الْحَسْبِ الْقَدِيمِ الْأُرُوعُ^(٦)

قال الواقدي : أملاها عليّ عبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبي الزناد . فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه ، وأظهروا المرأى - وقد كانوا حرّموها كيلا يشمت المسلمون بهم - وجعل الصبيان والجواري ينشدونها بمكة ، ففاحت بها قريش

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٣١ ، ٤٣٢ ، وأنساب الأشراف ١ : ٢٨٤ ، والبتان الأخيران في نسب قريش ٣٠١ .

(٢) سيرة الناس : خيارهم .

(٣) البلاذري : « غوى أمرهم » ، ابن هشام : « أسر بسخطهم » . الواقدي : « أذل بسخطهم » .

(٤) بعده في ابن هشام :

صَارَ الَّذِي أَثَرَ الْحَدِيثِ بَطْعَنِي أَوْ عَاشَ أَعْمَى مَرَعَشًا لَا يَسْمَعُ
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي الْمَغِيرَةِ كُلَّهُمْ خَشَعُوا لِقَتْلِ أَبِي الْحَكِيمِ وَجَدَّعُوا
وَابْنَا رَيْبَعَةَ عِنْدَهُ وَمُنْبَهُ مَا نَالَ مِثْلَ الْهَالِكِينَ وَتُبَّعُ

(٥) نسب قريش : « بيني الكرامات » :

(٦) نسب قريش : « ليزور أثرب » ، وأثرب لغة في يثرب .

على قتلاها شهراً ، ولم تبقَ دارٌ بمكة إلا فيها النوح - وجزّ النساء شعورهنّ - ، وكان يؤتى
براحلة الرجل منهم أو بفرسه ، فتوقّف بين أظهرهم ، فينوحون حولها ، وخرجن إلى
السكك ، وضربن السطور في الأزقة ، [وقطعن] ^(١) فخرجن إليها ينحنّ ، وصدق أهل مكة
رؤيا عائكة وجهيم بن الصلت ^(٢) .

قال الواقديّ : وكان الذين قدموا من قريش في فداء الأسرى أربعة عشر رجلاً ،
وقيل خمسة عشر رجلاً ، وكان أول من قدم المطلب بن أبي وداعة ، ثم قدم الباقون بعده
بثلاث ليال .

قال : فحدثني إسحاق بن يحيى ، قال : سألت نافع بن جبّير : كيف كان الفداء ؟ قال :
أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ، إلا قوماً لا مال لهم من عليهم
رسول الله صلى الله عليه وآله .

وقال الواقديّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في أبي وداعة : إن له بمكة ابناً
كيساً له مال ، وهو مُغلٍ فداءه ، فلما قدم افتداه بأربعة آلاف ، وكان أول أسير افتدى ؛
وذلك أن قريشا قالت لابن المطلب بن أبي وداعة - ورائته يتجهّز - يخرج إلى أبيه - : لا تعجل ؛
فإننا نخاف أن تفسد علينا في أسارانا ، ويرى محمد تهالكنا فيغلي علينا الفدية ، فإن كنت
تجد فإن كل قومك لا يجدون من السعة ما تجد . فقال : لا أخرج حتى تخرجوا ، فنادعهم
حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة ، فافتدى أباه
بأربعة آلاف ، فلامه قريش في ذلك ، فقال : ما كنت لأترك أبي أسيراً في أيدي القوم
وأتم مضجعون ، فقال أبو سفيان بن حرب : إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه
وبرأيه ، وهو مفسد عليكم ، إنى والله غير مفتدي عمرو بن أبي سفيان ، ولو مكث سنة

(١) من الواقدي

(٢) مغازي الواقدي ، ١١٥ ، ١١٦ .

أويرسله محمد : والله ما أنا بأعوزكم ، ولكنني أكره أن أدخلكم ما يشق عليكم ، ولكن
يكون عمرو كأسوتكم .

قال الواقدي : فأما أسماء القوم الذين قدموا في الأسرى ، فإنه قدم من بني عبد شمس
الوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط ، وعمرو بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع . ومن بني نوفل
ابن عبد مناف جُبَيْر بن مطعم : ومن بني عبد الدار بن قُصَيّ طلحة بن أبي طلحة ، ومن بني أسد
ابن عبد العزى بن قُصَيّ عثمان بن أبي حُبَيْش . ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي ربيعة
وخالد بن الوليد وهشام بن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل . ومن
بني جُحَيْج أبي بن خلف ومُعِير بن وهب . ومن بني سهم المطلب بن أبي وداعة وعمرو بن قيس .
ومن بني مالك بن حِثْل مكرز بن حفص بن الأحنف ، كل هؤلاء قدموا المدينة في فداء
أهلهم وعشائرهم . وكان جبير بن مطعم يقول : دخل الإسلام في قلبي منذ قدمت المدينة
في الفداء ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ في صلاة المغرب : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ وَكِتَابِ
مَسْطُورٍ ، فاستمعت قراءته ، فدخل الإسلام في قلبي منذ ذلك اليوم ^(١) .

القول في تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم

قال الواقدي : أسر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب ، أسره أبو اليسر كعب
ابن عمرو ، وعَقِيل بن أبي طالب أسره عبید ^(٢) بن أوس الظفري ، ونوفل بن الحارث

(١) انظر مغازي الواقدي ١٣٣ - ١٤١

(٢) « عبدة » ، والصواب ما أثبتته من الواقدي وابن هشام .

ابن عبد المطلب أسره جَبَّار بن صخر؛ وأسر حليف لبنى هاشم من بني فهر، اسمه عُبَيْة فهؤلاء أربعة .

ومن بني المطلب بن عبد مناف السائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو^(١) بن علقمة، رجُلان أسرها سلمة بن أسلم بن حريش الأشملي .

قال الواقدي: حدثني بذلك ابن أبي حبيبة، قال: ولم يقدم لهما أحد، وكانا لا مال لهما، فكف رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بغير فدية .

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف عُبَيْة بن أبي مُعَيْط المقتول صَبْرًا^(٢)، على يد عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بأمر رسول الله، أسره عبد الله بن أبي سلمة العجلاني، والحارث بن أبي وخرّة ابن أبي عمرو بن أمية، أسره سعد بن أبي وقاص، فقدم في فدائه الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط فافتداه بأربعة آلاف .

قال الواقدي: وقد كان الحارث هذا لما أمر النبي صلى الله عليه وآله برد الأسارى، ثم أقرع بين أصحابه عليهم، وقع في سهم سعد بن وقاص الذي كان أسره أول مرة - وعمرو ابن أبي سفيان، أسره علي بن أبي طالب عليه السلام، وصار بالقرعة في سهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فأطلقه بغير فدية، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بني معاوية، خرج معتمرا، فحبس بمكة، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول الله صلى الله عليه وآله عمرو بن أبي سفيان .

وروى محمد بن إسحاق في كتاب "المغازي": أن عمرو بن أبي سفيان أسره علي عليه السلام يوم بدر، وكانت أمه ابنة عُبَيْة بن أبي مُعَيْط، فسكت في يد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقيل لأبي سفيان: ألا تفتدي ابنك عمرا؟ قال: أجمع عليّ دمي ومالي! قتلوا حفظة وأفتدي عمرا! دعوه في أيديهم فليمسكوه ما بدا لهم . فبينما هو محبوس بالمدينة، خرج

(١) كذا في الأصول والواقدي، وأنساب الأشراف، وفي ابن هشام: «نعمان بن عمرو» .

(٢) الواقدي: «قتل صبْرًا» .

سعد بن النعمان بن أكتال أخو بني عمرو بن عوف معتمرا ، ومعه امرأة^(١) له ، وكان شيخا كبيرا لا يخشى ما صنع^(٢) به أبو سفيان ، وقد عهد قريشا ألا يعرض لحاج ولا معتير^(٣) ، فعدا عليه أبو سفيان ، فخبسه بمكة بابنه عمرو بن أبي سفيان ، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر :

أرھط ابن أكتال أجبوا دعاءه تعاقدتم لا تسلوا السيد الكهلا
فإن بني عمرو ولسام أذلة لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فمضى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول صلى الله عليه وآله ، فأخبروه بذلك ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به أصحابهم ، فأعطاهم إياه ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فغلى سبيل سعد . وقال حسان بن ثابت يجب أبا سفيان :

ولو كان سعد يوم مكة مطلقا لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلى
بعضب حسام أو بصفراء نبعة تحن إذا ما أنبضت تحفز التبالا^(٤)

وأبو العاص بن الربيع ، أسره خراش بن الصمة ؛ فقدم في فدائه عمرو بن أبي الربيع أخوه ، وحليف لهم ، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضا . وعمرو بن الأزرق افتكاه عمرو بن الربيع أيضا ، وكان قد صار في سهم تميم مولى خراش بن الصمة ، وعقبة بن الحارث الحضرمي أسره عمار بن حزم ، فصار في القرعة لأبي بن كعب ، افتداه عمرو بن أبي سفيان ابن أمية ، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس ، أسره عمار بن ياسر قدم في فدائه ابن عمه ، فهؤلاء ثمانية .

(١) ابن هشام : « مرية » . (٢) ابن هشام : « ما صنع به » .

(٣) ابن هشام : « لا يعرضون لأحد جاء حاجا أو معتمرا إلا بخير » .

(٤) العضب : السيف القاطع ، وكذلك الحسام . وصفراء أراد بها قوساً . والنبعة : شجرة تنبت بالجلال ؛ تصنع منها القسي . وتحن : تصوت . وأنبضت : مد وترها . والأنباس : أن يحرك وتر القوس وعمد . والخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

ومن بني نوفل بن عبد مناف عدى بن الخيار ، أسره خراش بن الصمة ، وعثمان
ابن عبد شمس ، ابن أخى عتبة بن غزوان ، حليفهم^(١) ، أسره حارثة بن النعمان ، وأبو ثور ،
أسره أبو مرثد الغنوى ، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جبير بن مطعم .

ومن بني عبد الدار بن قصى أبو عزيز بن عمير ، أسره أبو اليسر ، ثم صار بالقرعة لحرز
ابن نضلة - قال الواقدي : أبو عزيز هذا هو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه ، وقال مصعب
لحرز بن نضلة : اشد يدريك به ؛ فإن له أما بمكة كثيرة المال ، فقال له أبو عزيز : هذه
وصاتك بي يا أخى ! فقال مصعب : إنه أخى دونك ، فبعثت فيه أمه أربعة آلاف ، وذلك
بعد أن سألت : ما أغلى ما تغادى به قريش ؟ ففيل لها : أربعة آلاف - والأسود بن عامر
ابن الحارث بن السباق ، أسره حمزة بن عبد المطلب ، فهذان اثنان قدم في فدائهما طلحة
ابن أبي طلحة .

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصى ؛ السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسد
ابن عبد العزى ، أسره عبد الرحمن بن عوف . وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن
عبد العزى ، أسره حاطب بن أبي بلتعة ، وسالم بن شمش أسره سعد بن أبي وقاص ؛
فهؤلاء ثلاثة قدم في فدائهم عثمان بن أبي حبيش ، بأربعة آلاف لكل رجل منهم .
ومن بني تميم بن مرة ، مالك بن عبد الله بن عثمان ، أسره قطبة بن عامر بن حديدة ،
فمات في المدينة أسيرا .

ومن بني مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة ، أسره سواد بن غزيرة . وأميمة بن أبي حذيفة
ابن المغيرة ، أسره بلال . وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وكان أفلت يوم نخلة ،
أسره واقد بن عبد الله التميمي يوم بدر ، فقال له : الحمد لله الذى أمكننى منك ، فقد
كنت أفلت يوم نخلة - وقدم في فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبي ربيعة ، افتدى كل
واحد منهم بأربعة آلاف - والوليد بن الوليدة بن المغيرة ، أسره عبد الله بن جحش ،

(١) الواقدي : « حليف لهم » .

فقدّم في فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد ، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى
افتكّاه بأربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يريد ألا يبلغ ذلك - يريد ثلاثة آلاف -
فقال خالد لهشام : إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلت ، فلما
افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة ، فأقلت ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم ،
فقيل : ألا أسلمت قبل أن تفتدى ! قال : كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومي .
- قال الواقدي : ويقال إن الذي أسر الوليد بن الوليد سليط بن قيس المازني - وقيس
ابن السائب ؛ أسره عبدة بن الحبحاس ، فحبسه عنده حيناً ، وهو يظن أن له مالا ،
ثم قدم في فدائه أخوه قرّوة بن السائب ، فأقام أيضاً حيناً ، ثم افتداه بأربعة آلاف
فيها عروض .

ومن بني أبي رفاعه ، صئفي بن أبي رفاعه بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ،
وكان لا مال له ، أسره رجل من المسلمين ، فكث عندهم ، ثم أرسله . وأبو المنذر بن
أبي رفاعه بن عائذ افتدى بألفين - ولم يذكر الواقدي من أسره - وعبد الله ، وهو أبو عطاء
ابن السائب بن عائذ بن عبد الله ، افتدى بألف درهم ، أسره سعد بن أبي وقاص ،
والمطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم ، أسره أبو أيوب الأنصاري -
ولم يكن له مال فأرسله بعد حين - وخالد بن الأعمى العقيلي ، حليف لبني مخزوم ، وهو
الذي يقول :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقَطَّرُ الدَّمَا (١)

(١) رواية ابن هشام ٢ : ٣٦٥ :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَذْبَارِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا يَقَطَّرُ الدَّمُ

وقال محمد بن إسحاق : روى أنه كان أول المهزمين^(١) ، أسره الخلباب بن المنذر بن الجموح ، وقدم في فدائه عكرمة بن أبي جهل ، فهؤلاء عشرة .
ومن بني جُحج عبد الله بن أبي بن خلف ، أسره فرّوة بن أبي عمرو البياضى ، قدم في فدائه أبوه أبي بن خلف فتمتع به فرّوة حيناً . وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن وهب ، أطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله بغير فدية ، وكان شاعراً خبيث اللسان ، ثم قتله يوم أحد ، بعد أن أسره - ولم يذكر الواقدي الذى أسره يوم بدر - ووهب بن عمير بن وهب ، أسره رفاعة بن رافع الزرقى ، وقدم أبوه عمير بن وهب في فدائه ، فأسلم فأرسل النبي صلى الله عليه وآله له ابنه بغير فداء ، وربيعة بن دراج بن العنيس بن وهبان^(٢) ابن وهب بن حذافة بن جُحج ، وكان لا مال له ، فأخذ منه بشيء يسير ، وأرسل به - ولم يذكر الواقدي من أسره - والفاكه مولى أمية بن خلف ، أسره سعد بن أبي وقاص ، فهؤلاء خمسة .

ومن بني سَهْم بن عمرو أبو وداعة بن ضبيرة ، وكان أول أسير افتدى ، قدم في فدائه ابنه المطلب ، فافتداه بأربعة آلاف - ولم يذكر الواقدي من أسره - وفرّوة بن قيس بن عدى بن حذافة بن سعيد بن سهم ، أسره ثابت بن أقرم ، وقدم في فدائه عمرو بن قيس ، افتداه بأربعة آلاف ، وحفظلة بن قبيصة بن حذافة بن سعد ، أسره عثمان ابن مظعون . والحجاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سهم ، أسره عبد الرحمن بن عوف ، فأقلت ، فأخذه أبو داود المازنى . فهؤلاء أربعة .

ومن بني مالك بن حِسل سُهَيْل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك ؛ أسره مالك بن الدخشم ، وقدم في فدائه مكرز بن حنص بن الأحنف ، وانتهى في فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف ، فقالوا : هات المال ، فقال : نعم ، اجعلوا رجلاً مكان رجل ؛

(١) ابن هشام : « أول من ولى فارقاً منهزماً » . (٢) ابن هشام : « أهبان » .

وقوم يروونها : « رَجُلًا مَكَانَ رَجُلٍ » ، فخلّوا سبيل سُهَيْل ، وحبسوا مِكَرَز بن حفص عندهم ، حتى بعث سُهَيْل بالمال من مَكَّة . وعبد الله بن زَمْعَةَ بن قيس بن نصر بن مالك ، أسره عمير بن عوف ، مولى سُهَيْل بن عمرو . وعبد العزى بن مشنوء بن وقدان بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ودّ سَمَاء رسول الله صلى الله عليه وآله بعد إسلامه عبد الرحمن ، أسره النعمان بن مالك . فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى فِهر الطفيل بن أبي قُنَيْع ، فهؤلاء ستّة وأربعون^(١) أسيرا .
وفي كتاب الواقدي أنه كان الأسارى الذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين ، ولم نجد التفصيل يلحق هذه الجملة^(٢) .

وروى الواقدي عن سعيد بن المسيّب ، قال : كانت الأسارى سبعين ، وإنّ القتلى كانت زيادة على سبعين إلا أنّ المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم ، والباقي لم يذكر المؤرخون أسماءهم .

القول في المطعمين في بدر من المشركين

قال الواقدي : المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة ؛ فمن بنى عبد مناف الحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس .
ومن بنى أسد بن عبد العزى ، زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، ونوفل بن خويلد المعروف بابن العدوية .

ومن بنى مخزوم ، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة .
ومن بنى جُمح ، أمية بن سَلَف .

(١) عدتهم في ابن هشام « ثلاثة وأربعون » . (٢) مغازي الواقدي ١٣٣ - ١٣٩ ، وانظر أساب الأشراف ١ : ٣٠١ - ٣٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٦٤ - ٣٦٧ .

ومن بنى سَهْمَ نبيه ومنبه ابنا الحجاج .
فهؤلاء تسعة .

قال الواقدي : وكان سعيد بن المسيّب يقول : ما أطمع أحد ببدر إلا قتل .
قال الواقدي : قد ذكروا عدّة من المطعمين ، اختلف^(١) فيهم ، كسهيل بن عمرو
وأبي البختری وغيرهما^(٢) .

قال : حدثني إسماعيل بن إبراهيم ، عن موسى بن عتبة ، قال : أوّل مَنْ نحر لهم
أبو جهل بمرّ الظهران عشرا ، ثم أمية بن خلف بعسفان تسعا ، ثم سهيل بن عمرو بقُدَيْد
عشرا ، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلّوا الطريق ، فأقاموا بها يوما ، فنحر لهم شيبة
ابن ربيعة تسعا ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم قيس الجمحي تسعا ، ثم نحر عتبة عشرا ،
ونحر لهم الحارث بن عمر وتسعا ، ثم نحر لهم أبو البختری على ماء بدر عشرا ونحر لهم مقيس
ابن ضبابه على ماء بدر تسعا ، ثم شغلّتهم الحرب .

قال الواقدي : وقد كان ابن أبي الزناد يقول : والله ما أظنّ مقيسا كان يقدر على
قلوص واحدة .

قال الواقدي : وأما أنا فلا أعرف قيسا الجمحي . قال : وقد روت أم بكر ، عن
المسور بن مخرمة ابنها ، قال : كان النفر يشتركون في الإطعام ، فينسب إلى الرّجل الواحد
ويسكت عن سائرهم^(٣) .

وروى محمد بن إسحاق أنّ العباس بن عبد المطلب كان من المطعمين في بدر ، وكذلك
طعيمة بن عدى بن نوفل ، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل ، وكان أبو البختری
يعتقب هو وحكيم بن حزام في الإطعام ، وكان النضر بن الحارث بن كلده بن علقمة بن
عبد مناف بن عبد الدار من المطعمين . قال : وكان النبي صلى الله عليه وآله يكره قتل

(١) ١ ومغازي الواقدي : « وقد اختلف علينا فيهم » (٢) مغازي الواقدي : « وغيرهم »

(٣) مغازي الواقدي ١٢٣ ، ١٢٤

الحارث بن عامر ، قال يوم بدر : « مَنْ ظفر به منكم فليتركه لأيتام بني نوفل » ، فقتل في المعركة ^(١) .

القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر

قال الواقدي : حدثني عبد الله بن جعفر ، قال : سألت الزهريّ كم استشهد من المسلمين ببدر ؟ قال : أربعة عشر ^(٢) ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .
قال : فمن بني المطلب بن عبد مناف عبيدة بن الحارث ، قتله شيبة بن ربيعة .
وفي رواية الواقدي قتله عتبة ، فدفنه النبي صلى الله عليه وآله بالصفراء .
ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص ، قتله عمرو بن عبد ود ، فارس الأحزاب ، وعمير بن عبد ود ذو الشمالين ، حليف لبني زهرة بن خزاعة ، قتله أبو أسامة الجشمي .
ومن بني عدى بن كعب عاقل بن أبي البكير ، حليف لهم من بني سعد بن بكر ، قتله مالك بن زهير الجشمي ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، قتله عامر بن الحضرمي ؛ ويقال : إن مهجعا أول من قتل من المهاجرين .

ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء ، قتله طعيمة بن عدى .
وهؤلاء الستة من المهاجرين .

ومن الأنصار ، ثم من بني عمرو بن عوف ، مبشر بن عبد المنذر ، قتله أبو ثور . وسعد ابن خيثمة ، قتله عمرو بن عبدود - ويقال طعيمة بن عدى - ومن بني عدى بن النجار حارثة بن سراقه رماه حبان بن العرقبة بسهم فأصاب حنجرتة ، فقتله .
ومن بني مالك بن النجار ، عوف ومعوذ ابنا عفراء ؛ قتلها أبو جهل .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣١١ .

(٢) في مغازي الواقدي : « ثم عددهم علي ، فهم هؤلاء الذين سميت » .

ومن بنى سلمة بن حرام عمير بن الحمام بن الجوح ، قتله خالد بن الأعمى العقيليّ - ويقال إن عمير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار، وقد روى أن أول قتيل منهم حارث ابن سراقه .

ومن بنى زريق ، رافع بن المَعلى ، قتله عكرمة بن أبي جهل .
ومن بنى الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسح^(١) ، قتله نوفل بن معاوية الديليّ .
فهؤلاء الثمانية من الأنصار .

قال الواقديّ : وقد روى عن عكرمة ، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبي صلى الله عليه وآله قتل ببدر .

وروى [أن]^(٢) معاذ بن معص جرح ببدر ، فمات من جراحته بالمدينة ، وأن عبید بن السكن جرح فاشتكى جرحه ، فمات منه حين قدم^(٣) .

القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم

قال الواقديّ : فمن بنى عبد شمس بن عبد مناف حنظلة بن أبي سفيان بن حرب ، قتله عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، والحارث بن الحضرميّ قتله عمار بن ياسر ، وعامر بن الحضرميّ قتله عاصم ابن ثابت بن أبي الأفلح ، وعمير بن أبي عمير وابنه ، موليان لهم ؛ قتل سالم مولى أبي حذيفة منهم عمير بن أبي عمير - ولم يذكر الواقديّ من قتل ابنه - وعبيدة بن سعيد بن العاص ، قتله الزبير بن العوام ، والعاص بن سعيد بن العاص ، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وعقبة بن أبي معيط ، قتله عاصم بن ثابت صبوا بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله .

(١) الواقديّ : « يسحج » .

(٢) من الواقديّ .

(٣) مغازي الواقديّ ١٤٢ ، ١٤٣ .

وروى البلاذري أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلبه بعد قتله ؛ فكان أول
مصلوب في الإسلام. قال : وفيه يقول ضرار بن الخطاب :

عين بكى لعقبة بن أبانِ فرعٍ فهِرٍ وفارسِ الفرسانِ^(١)

وعتبة بن ربيعة ، قتله حمزة بن عبدالمطلب . وشيبة بن ربيعة ، قتله عبيدة بن الحارث وحمزة
وعلى ، الثلاثة اشتركوا في قتله . والوليد بن عتبة بن ربيعة ، قتله علي بن أبي طالب عليه
السلام . وعامر بن عبد الله حليف لم من أنمار ، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل :
قتله سعد بن معاذ ، فهؤلاء اثنا عشر .

ومن بني نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل ، قتله خبيث بن يساف^(٢) ، وطعيمة
ابن عدى ، ويكنى أبا الريان ، قتله حمزة بن عبد المطلب في رواية الواقدي ، وقتله علي بن
أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن إسحاق^(٣) . وروى البلاذري رواية غريبة ،
أن طعيمة بن عدى أسر يوم بدر ، فقتله النبي صلى الله عليه وآله صبراً على يد حمزة ،
فهؤلاء اثنان .

ومن بني أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود ، قتله أبو دجانة^(٤) ، وقيل :
قتله ثابت بن الجذع^(٥) ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، قتله علي بن أبي طالب
عليه السلام . وعقيل بن الأسود بن المطلب ، قتله علي وحمزة ، شريكاً في قتله .
قال الواقدي : وحدثني أبو معشر ، قال : قتله علي بن أبي طالب عليه السلام وحده ،
وقيل : قتله أبو داود المازني وحده . وأبو البخترى ، وهو العاص بن هشام ، قتله المجذر بن

(١) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧ ، وفيه : « عين فابك » .

(٢) في ابن هشام : « إساف » بهزة مكسورة ، قال ابن حجر في الإصابة : « وقد تبدل

تحتاينه » . (٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧ .

(٤) دجافة ، كئامة : سماك بن خرشة . (٥) الإصابة : الجذع .

زياد ، وقيل : قتله أبو اليسر . ونوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ؛ وهو ابن العَدَوِيَّة ، قتله على عليه السلام ؛ فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عبد الدار بن قصي ، النَّضْر بن الحارث بن كلدة ؛ قتله على بن أبي طالب عليه السلام صَبْرًا بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الذي أسره المقداد بن عمرو ، فوعد المقداد - إن استنقذه - بفداء جليل ، فلما قدَّم لِيُقْتَل ، قال المقداد : يا رسول الله ، إني ذُو عيال ، وأحب الدين ، فقال : اللهم أغْنِ المقدادَ من فضلك ! يا على ، قم فاضرب عنقه . وزيد بن مُلَيْص مولى عمرو بن هاشم بن عبد مناف ، من عبد الدار ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل : قتله بلال . فهؤلاء اثنان .

ومن بنى تيم بن مرة عُمَيْر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام . وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان ، قتله صُهَيْب ، فهؤلاء اثنان - ولم يذكر البلاذري عثمان بن مالك .

ومن بنى مخزوم بن يَقْظَةَ ثم من بنى المَغِيرَةَ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوذ وعوف ابنا عفراء ، وذَفَّ (١) عليه عبد الله بن مسعود . والعاص بن هاشم بن المغيرة ، خال عمر بن الخطاب ، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمي ، حليف لهم ، قتله عمار بن ياسر ، وقيل : قتله على عليه السلام .

ومن بنى الوليد بن المغيرة ، أبو قيس بن الوليد بن الوليد ؛ أخو خالد بن الوليد ، قتله على ابن أبي طالب عليه السلام .

ومن بنى الفاكه بن المغيرة أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، وقيل : قتله أَلْحَبَاب بن المنذر .

(٢) ذفف عليه : أجهز .

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ١ : ٢٩٧ .

ومن بنى أمية بن المغيرة مسعود بن أبي أمية ، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام .
ومن بنى عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بنى رفاعه ، أمية بن عائذ بن
رفاعة بن أبي رفاعه ، قتله سعد بن الربيع . وأبو المنذر بن أبي رفاعه ، قتله معن بن حدي
المجلائي . وعبد الله بن أبي رفاعه ، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام . وزهير بن
أبي رفاعه ، قتله أبو أسيد الساعدي . والسائب بن أبي رفاعه ، قتله عبد الرحمن بن عوف .
ومن بنى أبي السائب المخزومي - وهو صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم -
السائب بن السائب ، قتله الزبير بن العوام . والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله
ابن عمر بن مخزوم ، قتله حمزة بن عبد المطلب . وحليف لهم من طيء ، وهو عمرو بن
شيبان^(١) ، قتله يزيد بن قيس . وحليف آخر ، وهو جبار بن سفيان ، أخو عمرو بن سفيان
المقدم ذكره ، قتله أبو بريدة بن نيار .

ومن بنى عمران بن مخزوم حاجز^(٢) بن السائب بن عويمر بن عائذ ، قتله علي
عليه السلام .

وروى البلاذري أن حاجزاً هذا وأخاه عويمر بن السائب بن عويمر ، قتلها علي
ابن أبي طالب عليه السلام^(٣) - وعويمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ قتله
النعمان بن أبي مالك ؛ فهؤلاء تسعة عشر .

ومن بنى جريح بن عمرو بن هصيص ، أمية بن خلف ، قتله خبيب بن يساف وبلال ،
شريكاً فيه .

قال الواقدي : وكان معاذ بن رفاعه بن رافع يقول : بل قتله أبو رفاعه بن رافع .

• (٢) في البلاذري : « جابر » .

(١) الواقدي : « سفيان »

(٣) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٠ .

وعلى بن أمية بن خلف ، قتله عمّار بن ياسر . وأوس بن المغيرة بن لوزان ، قتله على عليه السلام ، وعثمان بن مظعون ، شرّكا فيه ؛ فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى سَهْم ، منبّه بن الحجاج ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل : قتله أبو أسيد الساعدي . ونيبه بن الحجاج قتله على بن أبي طالب عليه السلام . والعاص بن منبّه بن الحجاج ، قتله على عليه السلام . وأبو العاص بن قيس بن عدي بن سعد ابن سهم ، قتله أبو دُجّانة - قال الواقدي : وحدثني أبو معشر عن أصحابه ، قالوا : قتله على عليه السلام - وعاص بن أبي عوف بن صبيبة بن سعيد بن سعد ، قتله أبو دُجّانة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤي ، ثمّ من بنى مالك بن حسل ، معاوية بن عبد قيس حليف لهم ، قتله عكاشة بن محصن . ومعبد بن وهب ، حليف لهم من كلب ، قتله أبو دُجّانة فهؤلاء اثنان .

فجميع من قتل ببدر في رواية الواقدي من المشركين في الحرب وصبرا ، اثنان وخمسون رجلا ، قتل على عليه السلام منهم مع الذين شرك في قتلهم أربعة وعشرين رجلا . وقد كثرت الرواية أنّ المقتولين ببدر كانوا سبعين ، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماؤهم من ذكرناه ، وفي رواية الشيعة أنّ زَمعة بن الأسود بن المطلب قتل على ، والأشهر في الرواية أنه قتله الحارث بن زَمعة ، وأن زَمعة قتله أبو دُجّانة^(١) .

القول فيمن شهد بدرًا من المسلمين

قال الواقدي : كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بسهامهم وهم غائبون وعدّتهم ثمانية . قال : وهذا هو الأغلب في الرواية ،

(١) انظر تسمية من قتل من المشركين ببدر في الواقدي ١٤٣ - ١٥١ .

قال : ولم يشهد بدرا من المسلمين إلا قرشيّ أو حليف لقرشيّ أو أنصاريّ أو حليف لأنصاريّ أو مولى واحد منهما ، وهكذا من جانب المشركين ، فإنه لم يشهدا إلا قرشيّ أو حليف لقرشيّ أو مولى لهم .

قال : فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلا ، وكانت الأنصار ومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلا^(١) .

فأما تفصيل أسماء من شهدها من المسلمين فله موضع في كتب المحدثين أملى به من هذا الموضع .

[قصة غزوة أحد]

الفصل الرابع : في شرح قصة غزاة أحد . ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقدي^(٢) رحمه الله على عادتنا في ذكر غزاة بدر ، ونضيف إليه من الزيادات التي ذكرها ابن إسحاق والبلاذريّ ما يقتضى الحال ذكره .

قال الواقدي : لما رجع من حضر بدرا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة ، وكذلك كانوا يصنعون ، فلم يجرّوها أبو سفيان ولم يفرّقها لغيبه أهل العير ، ومشت أشراف قريش إلى أبي سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وجبير بن مطعم ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وحويط بن عبد العزّي ؛ فقالوا : يا أبا سفيان ، انظر هذه العير التي قدّمت بها فاحتبسها^(٣) ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة^(٤) قريش ، وهم طيبو الأنفس ، يجهّزون بهذه العير جيشا كشيئا إلى محمد ، فقد

(١) مغازي الواقدي ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) أخبار غزوة أحد في مغازي الواقدي ص ١٩٧ وما بعدها .

(٣) الواقدي : « احتبسها » .

(٤) اللطيمة : العير تحمل الطيب وبز التجار .

ترى مَنْ قَتَلَ مِنْ آبَائِنَا وَأَبْنَائِنَا وَعَشَائِرِنَا . فقال أبو سفيان : وقد طابت أنفُس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أوَّل من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فأنا والله الموتور والثائر^(١) ، وقد قتل ابني حنظلة بيدر وأشرف قومي . فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج ، فباعوها فصارت ذهباً عينا ، ويقال : إنما قالوا : يا أبا سفيان ، بيع العير ثم أعزل أرباحها ، فكانت العيرُ ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ؛ وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً ، وكان متجرهم من الشام غزاةً ، لا يعدونها إلى غيرها ، وكان أبو سفيان ، قد حبس عير بني زهرة ، لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلم ما كان لحرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبني عبد مناف بن زهرة ، فأبى محرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بني زهرة جميعاً^(٢) ، وتكلم الأحنس ، فقال : وما لعير بني زهرة من بين عيرات قريش ! قال أبو سفيان : لأنهم رجعوا عن قريش ، قال الأحنس : أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير ؛ لا تخرجوا في غير شيء ، فأخذت بنو زهرة غيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة ؛ كل ما كان لهم في العير .

قال الواقدي : وهذا يبين أنه إنما أخرج القومَ أرباح العير . قال : وفيهم أنزل^(٣) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ الآية .

قال : فلما أجمعوا على المسير ، قالوا : نسير في العرب فنستنصرهم ؛ فإنَّ عبدة مناة غير متخلفين عنا ، هم أوصلُ العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش ، فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسرون في العرب ، يدعونهم إلى نصرهم ؛ فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وابن الزبيري وأباعرزة الجُمحي ، فأبى أبو عزة أن يسير^(٤) وقال : من

(١) الثائر : الذي يقوم بالثأر

(٢) : ١ : « جمعا » .

(٤) في الواقدي : « فأطاع النفر وأبى أبو عزة » .

(٢) : ١ : « أنزلت »

على محمد يوم بدر ، وحلفت ألا أظاهر^(١) عليه عدوا أبدا . فمضى إليه صفوان بن أمية فقال : اخرج ، فأبى ، وقال : عاهدتُ محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبدا ، وأنا أفى له بما عاهدته عليه^(٢) ، من عليّ ولم يمن عليّ غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء . فقال صفوان : اخرج معنا ، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت ، وإن تُقتل تكن عيالك مع عيالي . فأبى أبو عزة ، حتى كان الغد ، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيسا منه ؛ فلما كان الغد جاءه صفوان وجبير بن مطعم ، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى ، فقال جببير : ما كنتُ أُظنّ أنى أعيش حتى يمضى إليك أبو وهب في أمرٍ تأبى عليه ! فأحفظه ، فقال : أنا أخرج ، قال : فخرج إلى العرب يجمعها ، ويقول :

إيه بنى عبد مناة الرزّام^(٣) أنتم حماة وأبوكم حام
لا تسلموني لا يحلّ إسلام لا بعدوني نصركم بعد العام^(٤)

وخرج النفر مع أبي عزة ، فألبوا العرب وجمعوا ، وبلغوا ثقيفا فأوعبوا^(٥) . فلما أجمعوا المسير وتآلب من كان معهم من العرب وحضروا ، واختلفت قريش في إخراج الظعن معهم ، قال صفوان بن أمية : اخرجوا بالظعن^(٦) فأننا أول من فعل ، فإنه أقمّن أن يحفظنكم ويدكرنكم قتلى بدر ، فإن العهد حديث ، ونحن قوم موثرون مستميتون ، لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه . فقال عكرمة بن أبي جهل : أنا أول من أجب إلى ما دعوت إليه ، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمضى في ذلك

(١) الواقدي : « لا أظاهر » (٢) من الواقدي .

(٣) ابن هشام ٣ : ٤ : « إيه بنى عبد مناة » . والرزّام : جمع رازم ؛ وهو الذي يثبت في مكانه لا يبرحه ، تقول : رزم البعير ، إذا ثبت في مكانه .

(٤) ابن هشام : « لا تعدوني » .

(٥) ب : « أرغبوا » ، وأثبت ما في الواقدي ، وأوعبوا ، أى خرجوا لاغزو .

(٦) الظعن : جمع ظعينة ؛ وهى المرأة فى اليهودج ؛ وأصل الظعينة اليهودج ، سميت المرأة به لقربها منه فى السفر ؛ وقيل : سميت ظعينة لأنها تظعن مع زوجها .

نوفل بن معاوية الدبليّ ، فقال : يامعشر قريش ، هذا ليس برأى ، أن تعرّضوا حرّمكم لعدوكم ؛ ولا آمن أن تكو الدبيرة^(١) لهم فتفتضحوا في نساءكم . فقال صفوان : لا كان غير هذا أبدا ! فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب فقال له تلك المقالة ، فصاحت هند بنت عتبة : إنك والله سلّمت يوم بدر ، فرجعت إلى نساءك ؛ نعم نخرج فنشهد القتال ، فقد رُدّت القيان من الحجفة في سفرهم إلى بدر ، فقتلت الأحبة يومئذ . فقال أبو سفيان : لست أخالف قريشا ، أنا رجلٌ منها ؛ ما فعلتُ ففعلتُ . فخرجوا بالظعن ، فخرج أبو سفيان بن حرب بإمرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بإمرأتين : برزة بنت مسعود الثقفي وهي أم عبد الله الأكبر والبنوم بنت المعذل من كنانة ، وهي أم عبد الله الأصغر ، وخرج طلحة بن أبي طلحة بإمرأته سُلّافة بنت سعد بن شهيد ، وهي من الأوس ، وهي أم بنيه : مسافع ، والحرث ، وكلاب والجلال بن أبي طلحة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بإمرأته أم حكيم بنت الحرث بن هشام ، وخرج الحرث بن هشام بإمرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بإمرأته هند بنت منبّه بن الحجاج ، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص - وقال عمه بن إسحاق اسمها : ربيعة - وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنتها أبي عزيز بن عمير ، أختي مُصعب بن عمير من بني عبد الدار ، وخرج الحرث بن سفيان بن عبد الأسد بإمرأته رَملة بنت طارق بن علقمة الكفانية ، وخرج كنانة بن عليّ بن ربيعة بن عبد العزّي بن عبد شمس بن عبد مناف بإمرأته أم حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عُوَيْف بإمرأته قُتَيْلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه ؛ بأمتهم

(١) الدبيرة : العاقبة .

(٢) من الواقدى .

الدُّغْنِيَّة ، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها ، وفيها يقول حسان :

ولولا لواء الحارثيَّةِ أصبحوا يباعون في الأسواق بالثمن البَخْسِ
قالوا : وخرج سُفيان بن عوف بعشرة من ولده ، وحشدت بنو كنانة . وكانت
الألوية يومَ خرجوا من مكة ثلاثة عقدوها في دار الندوة ؛ لواء يحمله سُفيان بن عوف
لبنى كنانة ، ولواء الأحابيش يحمله رجل منهم ، ولواء لقريش يحمله ^(١) طلحة بن
أبي طلحة .

قال الواقدي : ويقال خرجت قريش ولقها ^(٢) كلهم ؛ من كنانة والأحابيش وغيرهم
على لواء واحدٍ ، يحمله طلحة بن أبي طلحة . وهو الأثبت عندنا .

قال : وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى ^(٣) إليها ، وكان فيهم من ثقيف
مائة رجل ، وخرجوا بعدة سلاح كثير ، وقادوا مائتي فرس ، وكان فيهم سبعمائة دراع
وثلاثة آلاف بعير . فلما أجمعوا على المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً ، وختمه ،
واستأجر رجلاً من بني غفار ، وشرط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله
ينخبره أن قريشاً قد اجتمعت ^(٤) للمسير إليك ؛ فما كنت صانعا إذا خلوا ^(٥) بك فاصنعه .
وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مائتي فرس ، وفيهم سبعمائة دراع ، وثلاثة آلاف
بعير ، وقد أوعبوا من السلاح . فقدم الغفاري فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة ،
وجدته بقباء ، فخرج حتى وجد رسول الله صلى الله عليه وآله على باب مسجد قباء يركب

(١) ب : « يحمله » ، وأثبت ما في ا والواقدي .

(٢) لقها ، أي من اجتمع إليها من القبائل .

(٣) ضوى إليها : انضم إليها ، وق ا والواقدي : « انضم » .

(٤) ا : « أجمعت المسير » .
(٥) ب : « خلوا » وأثبت ما في ا والواقدي .

حمارة ، فدفع إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبي بن كعب ، واستكتم أيباً ما فيه ، ودخل منزل سعد بن الربيع ، فقال : أفي البيت أحد ؟ فقال سعد : لا ، فتكلم بحاجتك ، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب ، فجعل سعد يقول : يا رسول الله ، والله إنى لأرجو أن يكون في ذلك خير ، وأرجفت ^(١) يهود المدينة والمنافقون ، وقالوا : ما جاء محمداً شئاً يحببه ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وقد استكتم سعد بن الربيع الخبر . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من منزله ، خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه ، فقالت : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مالك ولذالك ، لا أم لك ! قالت : كنت أستمع عليكم ، وأخبرت سعدا الخبر ، فاسترجع سعد ، وقال : لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تكلم بحاجتك ! ثم أخذ يجتمع لقتها ^(٢) ، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله بالجر ، وقد بلغت ، فقال : يا رسول الله ، إن امرأتى سألتني عما قلت فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءت بالحديث كله - فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتظن أنني أفشيت سرّك ، فقال صلى الله عليه وسلم : خلّ سبيلها . وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش . وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ، ساروا من مكة أربعة ، فوافوا قريشا وقد عسكروا بذي طوى ، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر ، ثم انصرفوا ولقوا قريشا ببطن رابع ، وهو أربع ليال من المدينة ، فكتبوا عن قريش .

قال الواقدي : فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس مُّسّين إلى مكة ، فقال أبو سفيان : أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبروه بمسيرنا وعددنا ^(٣) ، وحذروه منا ، فهم الآن يلزمون صياصيتهم ، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا . فقال صفوان بن أمية : إن لم يصحروا ^(٤) لنا عمداً إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ،

(٢) « لبتها »

(١) الواقدي : « وقد أرجفت » ،

(٤) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء ؛ وهو القضاء

(٣) الواقدي : « فأخبروه بعددنا » .

فتركناهم ولا أموال لهم ، فلا يختارونها أبدا ، وإن أضحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم ،
وسلاحنا أكثر من سلاحهم ، ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل على وترٍ عندهم
ولا وترٍ لهم عندنا .

قال الواقدي : وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلا من الأوس ، حتى
قدم بهم مكة حين قدم النبي صلى الله عليه وآله يحرثها ويعلمها أنها على الحق ، وما جاء به
محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ، ولم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار
معا ، وكان يقول لقريش : إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء
معي نفرٌ منهم خمسون رجلا . فصدقوه بما قال ، وطمئعوا في نصره .

قال الواقدي : وخرج النساء معهن الدفوف يحرثن الرجال ويذكرونهم قتلى بدر
في كل منزل ، وجعلت قريش تنزل كل منهل ، ينحرون ما انحروا من الجزر مما كانوا
جمعوا من العين ، ويتقوون به في مسيرهم ، ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا
من الأموال .

قال الواقدي : وكانت قريش لما مرت بالأبواء ، قالت : إنكم قد خرجتم بالظعن
معكم ونحن نخاف على نساءنا فتعالوا نبش قبر أم محمد ، فإن النساء عورة ، فإن يصب من
نساءكم أحداً قتم هذه رمة أمك ، فإن كان برأ بأمه - كما يزعم - فلعمري لنفادينهم برمة
أمه ، وإن لم يظفر بأحد من نساءكم فلعمري ليفدين رمة أمه بما لكثير إن كان بها برأ .
فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك ، فقالوا : لا تذكر من هذا
شيأ ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

قال الواقدي : وكانت قريش بذى الخليفة يوم الخميس صبيحة عشر من محرّجهم من
مكة ؛ وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما

أصبحوا بذى الخليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء^(١) ، وبعث النبي صلى الله عليه وآله
عينين له . آنا ومؤنسا ابني فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق ، فسارا معهم ،
حتى نزلوا الوطاء ، وأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبراه ، وكان المسلمون قد ازدرعوا
العرض^(٢) - والعرض ما بين الوطاء بأحد إلى الجرف إلى العرصة ، عرصة البقل اليوم ، وكان أهله
بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يرم سائق
الناضح مجلسا واحدا يفتل الجمل في ساعته ، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التي حفرها
معاوية بن أبي سفيان^(٣) ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة ، فقدم
المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وخيولهم ، وكان لأسيد بن حضير في العرض عشرون
ناضحا تسقى شعيرا ، وكان المسلمون قد حذروا على جمالهم وعمالهم وآلة حريهم ، وكان
المشركون يرعون يوم الخميس ، فلما أمسوا جمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل ، وقصلوا
على خيولهم ليلة الجمعة ، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلوا ظهرهم في الزرع وخیلهم ، حتى تركوا
العرض ليس به خضراء .

قال الواقدي : فلما نزلوا وحلوا المقد ، واطمأنوا بعث رسول الله صلى الله عليه وآله
الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم ، فدخل فيهم وحزر ونظر إلى جميع ما يريد ، وكان
قد بعثه سرا ، وقال له : إذا رجعت فلا تخبرني بين أحذمن المسلمين إلا أن ترى في القوم
قلة ، فرجع إليه فأخبره خاليا ، وقال له : رأيت عددا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا
أو ينقصون قليلا ، والحليل مائتي فرس ، ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع . قال :
هل رأيت ظمنا ؟ قال : نعم رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار - وهي الطبول - فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله : أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر ، هكذا

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض

(٢) العرض : الوادي .

(٣) كذا وردت العبارة في الأصول وفي الواقدي وفيها غموض .

جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ! اللهم بك أحول ،
وبك أصول !

قال الواقدي : وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة ، حتى إذا كان بأدنى العرض
إذا طلعت خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا في أثره ، فوقف لهم على نَشْرٍ^(١) من
الحرّة ، فرشقهم بالنبل مرة ، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولّوا جاء إلى
مزرعته بأدنى العرض ، فاستخرج سيفاً كان له ، ودرع حديد كان له ، دفنا في
ناحية المزرعة ، وخرج بهما يعدّو ، حتى أتى بني عبد الأشهل ، فخبّر قومه
بما لقي .

قال الواقدي : وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال ، وكانت الوقعة
يوم السبت لسبع خلون من شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج : سعد بن معاذ وأسيد
ابن حضير ، وسعد بن عباد ، في عدّة منهم ليلة الجمعة ، عليهم السلاح في المسجد بباب
النبي صلى الله عليه وآله خوفاً من تبييت المشركين ، وحُرست المدينة تلك الليلة ، حتى
أصبحوا ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله رؤيا ليلة الجمعة ، فلما أصبح واجتمع
المسلمون خطبهم .

قال الواقدي : فحدثني محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن
ليبيد ، قال : ظهر النبي صلى الله عليه وآله المنبر فخمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ،
إني رأيتُ في منامي رؤيا ؛ رأيت كأني في دريع حصينة ، ورأيت كأن سيمي ذا الفقار
انقص^(٢) من عند ظبته ، ورأيت بقرا تذبح ، ورأيت كأني مردف كبشا ، فقال الناس :
يا رسول الله ، فما أولتها ؟ قال : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما

(١) ب : « نَشْرَة »

(٢) ا والواقدي : « انقص » .

انقسام^(١) سيفي عند طُوبته فمصيبة في نفسي ، وأما البقر المذبح فقتلني في أصحابي ؛ وأما أني مردف^(٢) كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

قال الواقدي : وروى عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال :
« أما انقسام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي » .

قال الواقدي : وروى للمسور بن مخرمة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : ورأيت في سيفي قلاً فكرهته ، هو الذي أصاب وجهه عليه السلام .

قال الواقدي : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أشيروا عليّ ، ورأى صلى الله عليه وآله ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحب أن يوافق على مثل ما رأى ؛ وعلى ما عثر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبي ؛ فقال : يا رسول الله ، كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة ، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهرا ينقلون الحجارة ، بإعداداً لعدونا ، ونشبت المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام ، وتقاتل بأسياقنا في السكك . يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، وما دخل علينا قط إلا أصبناه ، فدعهم يا رسول الله ، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن رجعوا رجعوا خاسرين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً . يا رسول الله ، أظعنني في هذا الأمر ، واعلم أنني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة .

قال الواقدي : فكان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله مع رأى ابن أبي ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار

(١) الواقدي : « انقسام » . (٢) : « وأما الكبش للمردف » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : امكثوا في المدينة ، واجعلوا النساء والذراري في الآطام ، فإن دُخِل علينا قاتلناهم في الأزقة ، فنحن أعلمُ بها منهم ، ورُموا من فوق الصياصي والآطام - وكانوا قد شبَّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، فهي كالحصن - فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا ، وطلبوا من رسول الله الخروج إلى عدوهم ، ورجبوا في الشهادة ، وأحبوا لقاء العدو ، وقالوا : اخرج بنا إلى عدونا ، وقال رجال من أهل النبِّه^(١) وأهل السن ، منهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عباد ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج : إنا نخشى يا رسول الله ، أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج إليهم جُبْنًا عن لقاءهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل ، فظفرك الله بهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وكنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه - ورسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم ، يتساوون كأنهم الفحول . وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري : يا رسول الله ، نحن والله بين إحدى الحسنين ، إنا يظفركنا الله بهم ، فهذا الذي نريد ، فيذلم الله لنا ، فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يا رسول الله ، ما نبالي أيهما كان ، إن كلاً لفيه الخير . فلم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وآله رجع إليه قولاً ، وسكت . وقال حمزة بن عبد المطلب : والذي أنزل عليه الكتاب ، لا أطمع اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة ، وكان يقال : كان حمزة يوم الجمعة صائماً ، ويوم السبت ، فلاقاه وهو صائم .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم : يا رسول الله ، أنا أشهد أن البقر المذبَّح قتلى من أصحابك ، وأنى منهم ، فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالله الذي لا إله إلا هو

(١) النبِّه : الفطنة ، وقرأ : « النبِّه » .

لأَدْخُلَهَا . قال رسول الله : بم ؟ قال : إني أحب الله ورسوله ، ولا أفرُّ يوم الزحف .
فقال : صدقت ، فاستشهد يومئذ .

وقال أياس بن أوس بن عتيك : يارسول الله ، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح ،
نرجو يارسول الله أن نذبح في القوم ، ويُذبح فينا ، فنصير إلى الجنة ، وبصيرون إلى
النار ، مع أني يارسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ، فنقول : حصرنا محمداً
في صياصي يثرب وآطامها ، فتكون هذه جرأة لقريش ، وقد وطئوا سَعَفَنَا ؛ فإذا لم نذب
عن عِرْضِنَا ، فلم نذرع ؟ وقد كُنَّا يارسول في جاهليتنا ، والعرب يأتوننا ، فلا يطعمون
بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيا فنادبهم عنا ، فنحن اليوم أحقُّ إذ أمدنا الله بك ،
وعرفنا مصيرنا ، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا .

وقام خيشمة ، أبو سعد بن خيشمة فقال : يارسول الله ، إن قريشا مكثت حولاً تجمع الجموع
وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادروا الخيل ، واعتلوا
الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، فيحصرونا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافر ين لم يكلموا ،
فيجربهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد
علينا ، مع ما قد صنعوا بحروثنا ، ويجترى علينا العرب حولنا حتى يطعموا فينا إذا رأونا لم
نخرج إليهم ، فنذبهم عن حريمنا ، وعسى الله أن يُظفرنا بهم ، فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون
الأخرى ، فهي الشهادة . لقد أخطأتني وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصاً ؛ لقد بلغ من
حريصي أن ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه ، فرزق الشهادة وقد كنت حريصاً على
الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ،
وهو يقول الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يارسول
الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ، ودق عظمي ، وأحببت

ثقاء ربي، فادعُ الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة؛ فدعاه رسول الله بذلك، فقتل بأحدٍ شهيداً.

قال أنس بن قتادة: يا رسول الله؛ هي إحدى الحسينين، إماما الشهادة وإماما الغنيمة والظفر بقتلهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني أخافُ عليكم الهزيمة. فلما أبوا إلا الخروج والجهاد، صلى رسول الله يوم الجمعة بالناس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا؛ ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالشخص إلى عدوهم، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ثم صلى العصر بالناس، وقد حشد الناس وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء إلى الآطام، فحضرت بنو عمرو بن عوف بلفها، والتبيت ولنها؛ وتلبسوا السلاح، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه ولبساء وصف [الناس] (١) له ما بين حجرته إلى منبره؛ ينتظرون (٢) خروجه، فجاءهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، فقالا لهم: قلتُم لرسول الله ما قلتم، واستكبرتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم فيه [له] (٣) هوى أو أدبا فاطيعوه. فبينما (٣) القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخص، وبعضهم للخروج كاره؛ إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله قد لبس لأمته، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من آدم كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتم، وتقلد السيف. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ندموا جميعاً

(١) من الواقدي .

(٢) كذا في الواقدي، وفي ب « ينتظرون » .

(٣) ١: « فيينا »، وهي رواية الواقدي .

على ما صنعوا ، وقال الذين يلحون على رسول الله صلى عليه وآله : ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكبر هك والأمر إلى الله ثم إليك ، فقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأيتتم ، ولا ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . قال : وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . ثم قال لهم : انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله؛ فلكم النصر ما صبرتم .

قلت : فَمَنْ تَأَمَّلَ أحوال المسلمين في هذه الغزاة ، من فشلهم وخورهم واختلافهم في الخروج من المدينة والمقام بها ؛ وكرهه النبي صلى الله عليه وآله للخروج ، ثم خروجه على مضض ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج ، ثم اتخذ طائفة كثيرة من الجيش عن الحرب ، ورجوعهم إلى المدينة ، علم أنه لا انتصار لهم على العدو أصلاً ، فإن النصر معروف بالعلم والجهد والبصيرة في الحرب ، واتفاق الكلمة . ومن تأمل أيضاً هذه الأحوال ؛ علم أنها ضد الأحوال التي كانت في غزاة بدر ، وأن أحوال قريش لما خرجت إلى بدر كانت مماثلة لأحوال المسلمين لما خرجوا إلى أحد ؛ ولذلك كانت الدبرة في بدر على قريش .

قال الواقدي : وكان مالك بن عمرو النجاري مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز صلى^(١) عليه ، ثم دعا بدابته ، فركب إلى أحد .

قال الواقدي : وجاء جَعِيل بن سُراقَة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى أحد ، فقال : يا رسول الله ، قيل لي : إنك تقتل غداً - وهو يتنفس مكروباً - ف ضرب النبي صلى الله عليه وآله بيده إلى صدره ، وقال : أليس الدهر كله غداً ! قال : ثم دعا بثلاثة أرماع ، فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حُصَير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجموح - ويقال إلى سعد بن عبادة - ودفع لواء المهاجرين

(١) ب : « فصلي » ، والصواب ما أنبته من الواقدي .

إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام - ويقال إلى مصعب بن عمير - ثم دعا بفرسه، فركبه؛ وتقلد القوس وأخذ بيده قناة - زجّ الرّمح يومئذ من شبّه - والمساؤون متلبسون السلاح، قد أظهروا الدروع، فهم مائة دارع؛ فلما ركب صلى الله عليه وآله خرج السعدان أمامه يعدوان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد؛ كل واحدٍ منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله حتى سلّك على البدائع، ثم زقاق الحسي، حتى أتى الشيخين - وهما أطمأن كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدّثان، فسَمِيَ الأطمأن الشيخين - فلما انتهى إلى رأس الثنية، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل^(١) خلفه، فقال: ما هذه؟ قال: هذه خلفاء^(٢) ابن أبي من اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك. ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وعرض عسكره بالشيخين، فعرض عليه غلمان، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان ابن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسمرّة بن جندب، ورافع بن خديج.

قال الواقدي: فردّم رسول الله صلى الله عليه وآله، قال رافع بن خديج: فقال ظهير بن رافع: يا رسول الله، إنه رام يعينني. قال: وجعلت أنطاول، وعليّ خفان لي، فأجازني رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أجازني قال سمرّة بن جندب لمريم بن سنان الحارثي - وهو زوج أمه: يا أباي، أجاز رسول الله صلى الله عليه وآله رافع بن خديج، وردّني وأنا أصرع رافعا! فقال مريم: يا رسول الله، رددت ابني، وأجزت رافع بن خديج وابني بصرعه! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: تصارعا، فصرع سمرّة رافعا، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الواقدي: وأقبل ابن أبي، فنزل ناحية العسكر، فجعل حلفاؤه ومن معه^(٣) من المنافقين يقولون لابن أبي: أشرت عليه بالرأي، ونصحتته وأخبرته أن هذا رأي من

(١) الزجل، معركة: رفع الصوت والجلبة (٢) ب: « خلفاء » .

(٣) كذا في ١ والواقدي وفي ب: « زمعة » .

مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك ؛ فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه . قال : فصادفوا من ابن أبي نفاقا وغشاً ، فبات رسول الله صلى الله عليه وآله بالشيخين ، وبات ابن أبي في أصحابه ، وفرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من عرض من عرض ، وغابت الشمس ، فأذن بلال بالمغرب ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله نازل في بني النجّار ، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يُطيفون بالسكر ، حتى ادّلع^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان المشركون قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله حيث ادّلع ، ونزل بالشيخين ، فجمعوا خيلهم وظهرهم ، واستعملوا على حرّسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين ؛ وباتت صاهلة خيلهم لا تهدي ، تدنو طلائعهم ؛ حتى تلتصق بالحرّة ، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم ، ويهايون موضع الحرّة ، ومحمد بن مسلمة .

قال الواقدي : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين صلى العشاء : مَنْ يحفظنا الليلة ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله فقال : مَنْ أنت ؟ قال : ذكوان بن عبد القيس ، فقال : اجلس ، ثم قال ثانية : مَنْ رجل يحفظنا الليلة ؟ فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أبو سبيح ، قال : اجلس ، ثم قال ثالثة مثل ذلك ، فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا ابن عبد قيس ؛ فكث رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة ، ثم قال : قوموا ثلاثكم ، فقام ذكوان بن عبد قيس ، فقال رسول الله : وأين صاحبك ؟ فقال ذكوان : أنا الذي كنت أجيبك الليلة ! قال : فاذهب حفظك الله .

قلت : قد تقدّم هذا الحديث بذاته في غزوة بدر ، وظاهر الحال أنه مكرّر ،

(١) الادلاج : السير في آخر الليل .

وأنه إنما كان في غزاة واحدة ، ويجوز أن يكون قد وقع في الغزاتين ، ولكن على بعد .
قال الواقدي : فلبس ذكوان درعه ، وأخذ درّقه ، فكان يطوف على العسكر
تلك الليلة ، ويقال : كان يحرس رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفارقه .

قال : ونام رسول الله صلى الله عليه وآله حتى ادّج ، فلما كان في السّحر ، قال
رسول الله : أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من
كثب ؟ فقام أبو خزيمة الحارثي ، فقال : أنا يا رسول الله ، ويقال : أوس بن قيطي
ويقال : محيصة .

قال الواقدي : وأثبت ذلك عندنا أبو خزيمة ، فخرج برسول الله صلى الله عليه وآله ،
وركب فرسه ، فسلك به في بني حارثة ، ثم أخذ في الأموال حتى مرّ بحائط مريع بن قيطي ؛
وكان أعمى البصر منافقا ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله حائطه ، قام يحنى
التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطي ، فلا
أحله لك .

قال محمد بن إسحاق : وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب ، وقال : والله لو أعلم أني
لأصيب غيرك يا محمد لضربت بها وجهك^(١) .

قال الواقدي : فضر به سعد بن زيد الأشملي بقوس في يده فشجّه في رأسه ، فنزل
الدّم ، فغضب له بعض بني حارثة ممن هو على مثل رأيه ، فقال : « هي على عداوتكم
يا بني عبد الأشهل ، لاتدعونها أبداً لنا^(٢) . فقال أسيد بن حضير : لا والله ، ولكن نفاقكم ،
والله لولا أني لا أدري ما يوافق النبي صلى الله عليه وآله لضربت عنقه وعنق من هو على
مثل رأيه .

قال : ونهاهم النبي صلى الله عليه وآله عن الكلام فأسكتوا .

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩ .

(٢) الواقدي : « هي عداوتكم يا بني عبد الأشهل لاتدعوها أبدا » .

وقال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : دعوه ، فإنه أعمى البصر ، أعمى القلب . يعنى مِرْبَع بن قِيظَى ^(١) .

قال الواقدي : ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبينما هو في مسيره إذ ذب فرس أبي بردة بن نيار بذيته فأصاب كلاب سيفه ، فسل سيفه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا صاحب السيف ، شِم ^(٢) سيفك ، فإني أخال السيوف ستسل اليوم فيكثُر سلها . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب الغال ، ويكره الطيرة ، قال : ولبس رسول الله صلى الله عليه وآله من الشَّيْخِين درعاً واحداً ، حتى انتهى إلى أحد ، فلبس درعاً أخرى ، ومغفراً ، وبيضةً فوق المغفر ، فلما نهض رسول الله صلى الله عليه وآله من الشَّيْخِين ، زحف المشركون على تعبئة حتى انتهوا إلى موضع أرض ابن عامر اليوم ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى موضع القنطرة اليوم جاءه ، وقد حانت الصلاة ، وهو يرى المشركين ، أمر بلالاً فأذن ، وأقام وصلى بأصحابه الصَّحْب صفوفاً ، وانخزل عبد الله بن أبي من ذلك المكان في كتيبته ، كأنه هَيِّق ^(٣) تقدّمهم ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقال : أذكركم الله ودينكم ونبئكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ! فقال ابن أبي : ما أرى أنه يكون بينهم قتال ، وإن أظعنتني يابا جابر لترجعن ، فإن أهل الرأي والحجبي قد رجعوا ، ونحن ناصروه في مدينتنا ، وقد خالفنا ، وأشرت عليه بالرأي فإني إلا طواعية الغلمان . فلما أبى علي عبد الله بن عمرو أن يرجع ، ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة ، قال لهم أبو جابر : أبعدم الله ! إن الله سيغني النبي والمؤمنين عن نصركم . فانصرف ابن أبي ، وهو يقول : أبعصيني ويطيع الولدان ! وانصرف عبد الله بن عمرو يعدو حتى لحق رسول الله وهو يسوي الصفوف ، فلما أصيب أصحاب

(٢) شم سيفك ، أي اغمده .

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩

(٣) الهبيق : ذكر النعام .

رسول الله صلى الله عليه وآله سُرَّ ابنُ أبي ، وأظهر الشماتة ، وقال : عصاني وأطاع من لا رأى له !

قال الواقدي : وجعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله يصف أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلاً على عينين ، عليهم عبد الله بن جبير ، ويقال : سعد بن أبي وقاص - والثبت أنه عبد الله بن جبير - قال : وجعل أحداً خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين عن يساره ، وأقبل المشركون ، واستدبروا المدينة في الوادي ، واستقبلوا أحداً ، ويقال : جعل عينين خلف ظهره ، واستدبر الشمس ، واستقبلها المشركون .

قال : والقول الأول أثبت عندنا ، أن أحداً كان خلف ظهره ، وهو عليه السلام مستقبل المدينة .

قال : ونهى أن يقاتل أحدٌ حتى يأمرهم بالقتال ، فقال عمار بن يزيد بن السكَن : أتى نغير على زرع بني قبيلة ولما نضارب ! وأقبل المشركون قد صفوا صفوفهم ، واستعملوا على اليمين خالد بن الوليد ، وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل ، ولهم محبتان ، مائتا فرس ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية - ويقال عمرو بن العاص - وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة ، وكانوا مائة رامٍ ، ودفَعوا اللّواء إلى طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبد الله^(١) ابن عبد العزّي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي - وصاح أبو سفيان يومئذ : يا بني عبد الدار ! نحن نعرف أنفسكم أحقّ باللّواء منا ، وأنا إنما أتينا يوم بدر من اللّواء ، وإنما يؤتى القوم من قبيل لوأثمهم ، فالزموا لواءكم ، وحافظوا عليه ، وخلوا بيننا وبينه ، فإننا قوم مستميتون موتورون ، نطلب ثأراً حديث العهد . وجعل يقول : إذا زالت الألوية ، فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها ! فغضبت بنو عبد الدار ، وقالوا : نحن نسلم لواءنا ! لا كان هذا أبداً ! وأما المحافظة^(٢) عليه فستري . ثم أسندوا الرّماح إليه ، وأحدقت به بنو عبد الدار ،

(١) في الواقدي : « عبد العزّي بن عثمان » .

(٢) في الواقدي : « فأما محافظة عليه » .

وأغلظوا لأبي سفيان بعضَ الإغلاظ ، فقال أبو سفيان : فنجعل لواءَ آخر ؟ قالوا : نعم ، ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار ، لا كان غير ذلك أبدا !
قال الواقدي : وجعل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يمشي على رجليه ، يسوي تلك الصفوف ، ويبوي أصحابه مقاعد للقتال ، يقول : تقدّم يافلان ، وتأخر يافلان ، حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخره ، فهو يقومهم ، كأنما يقوم القِداح ، حتى إذا استوت الصفوف ، سأل : مَنْ يَحْمِلُ لِوَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أحقّ بالوفاء منهم ، أين مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ؟ قال : ها أنذا ؛ قال : خذ اللواء ، فأخذه مصعب فتقدّم به بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .
قال البلاذري : أخذه من عليّ عليه السلام ، فدفعه إلى مصعب بن عمير ، لأنه من بني عبد الدار ^(١) .

قال الواقدي : ثمّ قام عليه السلام ، فخطب الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : أيّها الناس ، أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته ، والتناهي عن محارمه ، ثمّ إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجِدِّ والنشاط ، فإنّ جهاد العدو شديد كربه ، قليل مَنْ يصير عليه ، إلا مَنْ عزم له على رشده . إنّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإن الشيطان مع مَنْ عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي أمركم به ، فإنّي حريص على رشدكم . إنّ الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحبّه الله ولا يعطى عليه النصر والظفر . أيّها الناس إنه قُذِفَ في قلبي أنّ مَنْ كان على حرام فرغ عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٌ ^(٢) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ

(١) أسباب الأشراف ١ : ٣١٧ .

(٢) ١ ، والواقدي : « ومن صلى عليّ » .

عشرا ، وَمَنْ أَحْسَنُ؛ من مسلم أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو في آجل آخرته، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَعَلَيْهِ الْجُمُعَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، إِلَّا صَبِيًّا أَوْ امْرَأَةً أَوْ مَرِيضًا أَوْ عَبْدًا مَمْلُوكًا ، وَمَنْ اسْتَغْفَى عَنْهَا اسْتَغْفَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . مَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يَقْرَبُكُمْ إِلَى اللَّهِ إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَلَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يَقْرَبُكُمْ إِلَى النَّارِ إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ نَفَثَ الرُّوحَ الْأَمِينُ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا ، لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، وَأَجْمَلُوا فِي طَلْبِ الرِّزْقِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاؤُهُ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ ، قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، غَيْرَ أَنْ بَيْنَهُمَا شُبُهَاتًا مِنَ الْأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ كَالرَّاعِي إِلَى جَنْبِ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ وَيَفْعَلُهُ ، وَلَيْسَ مَلِكٌ إِلَّا وَلَهُ حِمَى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ بِحَارِمِهِ ، وَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى تَدَاعَى إِلَيْهِ سَائِرُ جَسَدِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

قال الواقدي : فحدثني ابنُ أبي سَبرة ، عن خالد بن رباح ، عن المطلب بن عبد الله ، قال : أوَّلَ مَنْ أَنْشَبَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ أَبُو عَامِرٍ ، طَلَعَ فِي خَمْسِينَ مِنْ قَوْمِهِ ، مَعَهُ عُبَيْدُ قُرَيْشٍ فَنَادَى أَبُو عَامِرٍ - وَاسْمُهُ عَبْدُ عَمْرٍو - يَا لَلْأَوْسِ : أَنَا أَبُو عَامِرٍ ، قَالُوا : لَا مَرْحَبًا بِكَ ، وَلَا أَهْلًا ؛ يَا فَاسِقُ ! فَقَالَ : لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ . قَالَ : وَمَعَهُ عُبَيْدُ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَتَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ هُمُ وَالْمَسْلُومُونَ ، حَتَّى تَرَاضَخُوا بِهَا سَاعَةً إِلَى أَنْ وَلَّى أَبُو عَامِرٍ وَأَصْحَابُهُ ؛ وَيُقَالُ : إِنْ الْعَبِيدُ لَمْ يَقَاتِلُوا ، وَإِنَّهُمْ أَمْرٌ يَحْفَظُ عَسَاكِرَهُمْ .

قال الواقدي : وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقي الجمعان أمام صفوف المشركين يضربن بالأكبار^(١) والدِّقَاقِ والغرايبيل^(٢) ، ثم يرجعن فيكنن إلى مؤخر الصف؛ حتى

(١) الأكبار : جمع كبر ، بفتحين ، وهو الطبل ، معرب .

(٢) الذرايبيل : جمع غربال ، وهو هنا الدف .

إذا دنوا من المسلمين تأخر النساء ، فقمن خلف الصفوف ، وجعل كلماً ولّى رجل حرّضه ،
وذكره قتلى بدر .

وقال الواقدي : وكان قزّمان من المنافقين ، وكان قد تخلف عن أحد ، فلما أصبح
غيره نساء بنى ظفر ، فقلن : يا قزّمان ، قد خرج الرجال وبقيت ! استحي يا قزّمان ،
ألا تستحي مما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت في الدار ! فأحفظنه ،
فدخل بيته ، فأخرج قوسه وجعبته وسيفه - وكان يعرف بالشجاعة - وخرج يعدو ، حتى
اتهمى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يسوّى صفوف المسلمين ، فجاء من خلف
الصف ، حتى انتهى إلى الصف الأول ، فسكان فيه ، وكان أوّل مَنْ رمى بسهم من
المسلمين ، جعل يرسلُ نبلاً كأنها الرماح ، وإنه ليكت كتبت^(١) الجمل ثم صار إلى السيف ،
ففعل الأفاعيل ، حتى إذا كان آخر ذلك قتل نفسه . وكان رسول صلى الله عليه وآله عليه
وآله إذا ذكره قال : من أهل النار . قال : فلما انكشف المسلمون ، كسر جفن سيفه
وجعل يقول : الموت أحسن من الفرار . ياللاً وُس ! قاتلوا على الأحساب ، واصنعوا مثل
ما أصنع . قال : فدخل بالسيف وسط المشركين ، حتى يقال : قد قتل ، ثم بطلع فيقول : أنا
الغلام الظفري ، حتى قتل منهم سبعة ، وأصابته الجراحة ، وكثرت فيه ، فوقع فمراً به
قتادة بن النعمان ، فقال له : أبا العيذاب ، قال قزمان : لبيك ! قال : هنيأ لك الشهادة ! قال
قزمان : إني والله ما قاتلتُ يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ ، أن تسير قر يش
إلينا فتظأ سعفنا ، قال : فأذته الجراحة فقتل نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن
الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر^(٢) » .

(١) الكتبت : صياح الجمل .

(٢) في ابن هشام ٣ : ٣٧ عن ابن إسحاق : « حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : كان فينا رجل
أني لا يدري من هو ؟ يقال له قزمان ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا ذكر له : « إنه
لمن أهل النار » ، قال : « فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من
المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثبته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر . قال : فجعل رجال من المسلمين
يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبصر ، قال : بماذا أبصر ؟ فوالله إن قاتلت إلا على أحساب
قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته ، فقتل به نفسه » .

قال الواقدي : وتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرماة ، فقال : احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف أن نؤتى من ورائنا ، والزمو مكانكم ، لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ؛ وإن رأيتمونا تقتل ؛ فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا . اللهم إني أشهدك عليهم ، ارشقوا^(١) خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل ، وكان للمشركين مجنبتان : ميمنة عليها خالد بن الوليد ، وميسرة عليها عكرمة بن أبي جهل .

قال الواقدي : وعمل رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه ميمنة وميسرة ، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير ، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى سعد ابن عباد - وقيل : إلى الحباب بن المنذر - فجعلت الرماة تحمي ظهور المسلمين ، وترشق خيل المشركين بالنبل ، فولت هاربة ، قال بعض المسلمين^(٢) : والله لقد رمقت نبلنا يومئذ ، مارأيت سهما واحدا مما يرمى به خيلهم يقع في الأرض ، إماما في فرس أوفى رجل ؛ ودنا القوم بعضهم من بعض ، وقدموا طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم ، وصفوا صفوفهم ، وأقاموا النساء خلف الرجال يضرن بين أكتافهم بالأكبار والدفوف ، وهند وصواحبها يحرطن ويذمرن^(٣) الرجال ، ويذكرن من أصيب ببدر ، ويقلن :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نمارق أو تدبروا نمارق

* فراق غير وامق *

قال الواقدي : وبرز طلحة ، فصاح : من يبارز؟ فقال علي عليه السلام له : هل لك في مبارزتي؟ قال : نعم ، فبرزوا بين الصفتين ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس تحت

(١) أرشق الراي : رمى وجهها ، أي أطلق السهم إلى المكان المواجه له .

(٢) الواقدي : « الرماة » . (٣) يذمرن الرجال : يحضونهم على القتال .

الرأية ، عليه درعان ومغفر وبيضته ، فالتقيا ، فبدره على عليه السلام^(١) بضربة على رأسه ، فمضى السيف حتى فلق هامته إلى أن انتهى إلى لحيته فوق ، وانصرف على عليه السلام ، فقيل له : هلا ذقت^(٢) عليه ! قال : إنه لما صرع استقباني بعورته ؛ فمطفتني عليه الرمح ؛ وقد علمت أن الله سيقتله ؛ هو كبش الكتيبة .

قال الواقدي : وروى أن طلحة حمل على علي عليه السلام ؛ فضربه بالسيف ، فاتقاه بالدرقة ، فلم يصنع شيئا ، وحمل على عليه السلام وعلى طلحة درع ومغفر ، فضربه بالسيف ، فقطع ساقيه ، ثم أراد أن يذق عليه ؛ فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل ؛ فتركه ولم يذق عليه .

قال الواقدي : ويقال : إن عليا عليه السلام ذق عليه ؛ ويقال : إن بعض المسلمين مرّ به في المعركة فذق عليه . قال : فلما قتل طلحة سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكبر تكبيرا عاليا وكبر المسلمون ؛ ثم شدّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على كتائب المشركين ؛ فجعلوا يضربون وجوههم ، حتى انتقضت صفوفهم ؛ ولم يقتل إلا طلحة ابن أبي طلحة وحده .

قال الواقدي : ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبي طلحة ، وهو أبو شيبة ، فارتجز وقال :

إِنَّ عَلِيَّ رِبِّ السَّوَاءِ حَقًّا أَنْ تُخَضَّبَ الصَّعْدَةُ أَوْ تَنْدَقًا

فتقدّم باللواء والنسوة خلفه ، يحرّضن ويضربن بالدفوف ، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله ، فضربه بالسيف على كاهله ، فقطع يده وكتفه ، حتى انتهى إلى

(١) ب : « فبرزه » تحريف ، والصواب ما في أ ، والواقدي .

(٢) ذقت عليه : أجهز

مُؤْتَرِزِهِ فَبَدَا سَخْرَهُ ^(١) ، ورجع ، فقال : أنا ابن ساقى الحجيج ؛ ثم حمل اللواء أخوها أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرتَه - وكان دراعا ، وعليه مغفر لا رفراف عليه ^(٢) ، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه ^(٣) إدلاع الكلب .

قال الواقدي : وقد روى أن أبا سعد لما حمل اللواء ، قام النساء خلفه يقلن :

ضرباً بنى عبد الدار ضرباً حُصاة الأدبار

* ضرباً بكل بتار *

قال سعد بن أبي وقاص : فأحبل عليه فأقطع يده اليمنى ، فأخذ اللواء باليد اليسرى ، فأضربه على يده اليسرى ؛ فقطعها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعاً وضّمه إلى صدره ، وحنى عليه ظهره . قال سعد : فأدخلُ سيّة القوس بين الدرّع والمغفر ، فأقلع ^(٤) المغفر ، فأرمى به وراء ظهره ، ثم ضربته حتى قتلتَه ، وأخذت أسلِبُه درعه ، فنهض إلى سُبَيْع بن عبد عوف ونفر معه فنعوني ، سلبه وكان سلبُه أجود سلب رجل من المشركين : درع فضفاضة ، ومغفر وسيف جيّد ، ولكن حيل بيني وبينه .

قال الواقدي : وهذا أثبت القولين .

قلت : شتان بين عليّ وسعد ! هذا يجاحش على السلب ويتأسف على فواته ، وذلك يقتل عمرو بن عبد ودّ يوم الخندق ، وهو فارس قريش وصنديدها ومبارزه ، فيعرض عن سلبه ، فيقال له : كيف تركت سلبه وهو أنفس سلب ؟ فيقول : كرهت أن أبرّ السبيّ ثيابه ، فكان حبيباً عناء بقوله :

(١) السرحنا : الرثة

(٢) أدلع لسانه : أخرجه :

(٣) الواقدي : « له » .

(٤) الواقدي : « فأقلع » .

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرَيْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لِالسَّلْبِ^(١)

قال الواقدي : ثم حمل لواء المشركين بعد أبي سعد بن أبي طلحة مسافع بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فقتله ، فحمل إلى أمه سلافة بنت سعد بن الشهيد ، وهي مع النساء بأحد ، فقالت : من أصابك ؟ قال : لا أدري ، سمعته يقول : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَفْلَحِ ، فقالت : أَفَلَحِيَّ وَاللَّهِ ! أَيُّهُ مَنْ رَهْطِي - وَكَانَتْ مِنَ الْأَوْسِ .

قال الواقدي : وروى أن عاصمًا لما رماه ، قال له : خذها وأنا ابن كسرة ، وكانوا يقال لهم في الجاهلية : بنو كسر الذهب ، فقال لأمه : لا أدري ، إلا أني سمعته يقول : خذها وأنا ابن كسرة ، فقالت سلافة : أوسى والله ! كسرى ، أي أنه منّا فيومئذ نذرت سلافة أن تشرب في قحف رأس عاصم بن ثابت الخمر ، وجعلت لمن جاءها به مائه من الإبل .

قلت : فلما قتله المشركون في يوم الرجيع أرادوا أن يأخذوا رأسه ، فحملوه إلى سلافة فحتمته الدبر^(٢) يومه ذلك ، فلما جاء الليل فظنوا أن الدبر لا تحميه ليلاً ، جاء الوادي بسيل عظيم ، فذهب برأسه وبدنه . اتفق المؤرخون على ذلك .

قال الواقدي : ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فقتله الزبير بن العوام ، ثم حمّله أخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فقتله طلحة بن عبيدالله ، ثم حمّله أوطاة بن عبد شرجيل ، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم حمّله شريح بن

(١) ديوانه ١ : ٧١ ، وروايته : « إن الأسود أسود الفيل » .

(٢) الدبر : جماعة النحل أو الزنابير .

قائظ^(١) ، فقتل لا يُدري مَنْ قَتَلَهُ ، ثم حملة صُواب ، غلام بنى عبيد الدار ، فاختلف في قاتله فقيس : قتله على بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل : سعد بن أبي وقاص ، وقيل : قُزَمان ، وهو أثبت الأقوال .

قال الواقدي : انتهى قُزَمان إلى صُواب ، فحمل عليه ، فقطع يده اليمنى ، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذارعيه وعَضُدَيْهِ ، وَحَنَى عَلَيْهِ ظَهْرَهُ ، وقال : يا بنى عبد الدار ، هل اعتذرت ؟ فحمل عليه قُزَمان فقتله .

قال الواقدي : وقالوا : ما ظفّر الله تعالى نبيّه في موطن قَطَّ ما ظفّره وأصحابه يوم أحد ، حتى عصوا الرسول ، وتنازعوا في الأمر ، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهم لا يلوون ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدّاف والفرح .

قال الواقدي : وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحداً ، قال كل واحد منهم : والله إنى لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمت ، ما دون أخذهن شيئاً لمن أرادته ؛ ولكن لا مردّ لقضاء الله . قالوا : وكان خالد بن الوليد كلما أتى من قبيل ميسرة النبي صلى الله عليه وآله ليجوز حتى يأتهم من قبل السّفح ؛ ردّه الرّماة حتى فعلوا ذلك مرارا ، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرّماة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوعز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتلُ فلا تنصرونا . فلما انهزم المشركون ، وتبعهم المسلمون يضعون السّلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهزهم عن المعسكر ، ووقعوا ينتهبونه . قال بعض الرّماة لبعض : لم تقيمون هاهنا في غير شيء ! قد هزم الله العدو ؛ وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين ، فاغنموا مع إخوانكم ، فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم : « احموا ظهورنا ، وإن غنمنا فلا تشركونا ! » ،

(١) الواقدي : « قَائِظ » .

فقال الآخرون : لم يُرِدْ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا ، وقد أذَلَ اللهُ المشركين وهزَمَهُمْ ، فادخلوا العسكر ، فاتهبوا مع إخوانكم . فلما اختلفوا خطبهم أميرُهم عبد الله ابن جُبَيْر ، وكان يومئذ معلماً بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله ، وألا يخالف أمره ، فعضوه ، وانطلقوا فلم يبقَ معه إلا نُفَيْرٌ ما يبلغون العشرة ، منهم الحارث بن أنس ابن رافع ، يقول : يا قوم ، اذكروا عهد نبيكم إليكم ، وأطيعوا أميركم . فأبوا ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون وخلقوا الجبل^(١) ، وانتقضت صفوف المشركين ؛ واستدارت رحالهم ، ودارت^(٢) الريح - وكانت إلى أن انتقض صفهم صباً ، فصارت دُبُوراً - فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، فكرّ بالخييل ، وتبعه عكرمة بالخييل ، فانطلقا إلى موضع الرماة ، فحملوا عليهم ؛ فرامهم القوم حتى أصيبوا ، ورمى عبد الله ابن جُبَيْر حتى فنيت نَبْلُهُ ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر ؛ ثم كسر جفن سيفه ؛ فقاتل حتى قتل ، وأفلت جُعَيْل بن سراقه وأبو بُرْدَة بن نيار بعد أن شاهدا قتل عبد الله ابن جُبَيْر ، وكان آخر من انصرف من الخييل ، فلحقا بالمسلمين .

قال الواقدي : فروى رافع بن خديج ، قال : لما قتل خالد الرماة أقبل بالخييل وعكرمة ابن أبي جهل يتلوه ، فخالطنا وقد انتقضت صفوفنا ، ونادى إبليس - وتصور في صورة جُعَيْل بن سراقه : إن محمدا قد قتل ! ثلاث صرخات ، فابتلي يومئذ جُعَيْل بن سراقه ببليّة عظيمة حين تصوّر إبليس في صورته ، وإن جُعَيْلا ليقاتل مع المسلمين أشدّ القتال ، وإنه إلى جنب أبي بُرْدَة بن نيار وخوات بن جُبَيْر . قال رافع بن خديج : فوالله ما رأينا دولة كانت أسرع من دولة المشركين علينا ، وأقبل المسلمون على جُعَيْل بن سراقه يريدون قتله ، يقولون : هذا الذي صاح أن محمدا قد قتل ، فشهد له خوات بن جُبَيْر وأبو بُرْدَة ، أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح ، وأن الصائح غيره .

(١) الواقدي : « عينين » ، وهو الجبل (٢) الواقدي : « وحالت » .

قال الواقديّ: فروى رافع، قال: أتينا من قبل أنفسنا، ومعصية نبينا، واختلط المسلمون، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا، وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل، وقد جرح يومئذ أسيد بن حضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار، وما يدري، يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاري، وكرّ أبو زعنة في حومة القتال: فضرب أبا بردة ضربتين، ما يشعر أنه هو، يقول: خذها وأنا أبو زعنة، حتى عرفه بعد، فكان إذا لقيه، قال: انظر ما صنعت بي، فيقول أبو زعنة: وأنت فقد ضربت أسيد بن حضير ولا تشعر! ولكن هذا الجرح في سبيل الله، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: هو في سبيل الله يا أبا بردة، لك أجره، حتى كأنك ضربك أحد المشركين، ومن قتل فهو شهيد.

قال الواقديّ: وكان الشيخان: حسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين، قد رفعا في الآطام مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه: لا أبالك! ما نستبق من أنفسنا! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أو غد، وما بقي من أجلنا قدر ظم^(١) دابة، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا برسول الله صلى الله عليه وآله لعل الله يرزقنا الشهادة! قال: فلحقا برسول الله صلى الله عليه وآله، فأما رفاعة فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فالتفت عليه سيوف المسلمين، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا، وابنه حذيفة يقول: أبي أبي! حتى قتل، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين؛ ما صنعتم! فزاد به عند رسول الله صلى الله عليه وآله خيرا، وأمر رسول الله بديته أن تخرج، ويقال: إن الذي أصابه عتبة بن مسعود، فتصدّق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين.

قال الواقديّ: وأقبل يومئذ الحباب بن المنذر بن الجحوح بصيح: يا آل سلمة! أقبّلوا

(١) يقال: ما بقي منه إلا ظم دابة؛ أي لم يبق من عمره إلا اليسير.

عُنُقًا^(١) واحدا : لَبَّيْكَ دَاعِيَ اللَّهِ ، لَبَّيْكَ دَاعِيَ اللَّهِ ! فيضرب يومئذ جَبَّار بن صخر ضربة في رأسه مثقلة وما يدري ، حتى أظهروا الشعار بينهم ، فجعلوا يصيحون : أَمِيتُ أَمِيتُ ! فكفَّ بعضهم عن بعض .

قال الواقدي : وكان نسطاس مولى ضرار بن أمية ممن حضر أهدأ مع المشركين ، ثم أسلم بعد ، وحسن إسلامه ، فكان يحدث ، قال : قد كنت ممن خلف في العسكر يومئذ ، ولم يقاتل معهم عبد إلا وحشي وصواب غلام بنى عبد الدار ، فكان أبو سفيان صاح فيهم : يا معشر قريش ، خلوا^(٢) غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رجالكم ، فجمعنا بعضنا إلى بعض ، وعقلنا الإبل ، وانطلق القوم على تعبيتهم ، ميمنة وميسرة وألبسنا الرجال الأنطاع ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا ساعة ، وإذا أصحابنا منهزمون ، فدخل المسلمون معسكرنا ، ونحن في الرجال ، فأحدقوا^(٣) بنا ، فكنت فيمن أسروا ، واتهبوا المعسكر أقبح اتهاب ، حتى إن رجلاً منهم قال : أين مال صفوان بن أمية ؟ فقات : ما حمل إلا نفقة في الرّحل ، فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة خمسين ومائة منقال ذهباً ، وقد ولي أصحابنا وأيسنا منهم ؛ وانحاش النساء ، فهن في حُجْرهن سَلِمَ لمن أرادهن ، فصار النهب في أيدي المسلمين .

قال نسطاس : فإننا لعلنا ما نحن عليه من الاستسلام ، ونظرت إلى الجبل ، فإذا خيل مقبلة تركض ، فدخلوا العسكر ، فلم يكن أحد يردهم ، قد ضيعت النغور التي كان بها الرماة وجاءوا إلى النهب والرماة يتهبون ، وأنا أنظر إليهم متأبطي قسيهم وجعابهم ، كل واحد منهم في يديه أو حضنه شيء . قد أخذته ، فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارين آمنين ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وتفرق المسلمون في كل وجه ،

(١) العنق : الجماعة من الناس . (٢) والواقدي : « خلوا » .

(٣) والواقدي : « فدخل أصحابي في الرجال ، فأحدقوا بنا » .

وتركوا ما اتهبوا ، وأجلوا عن عسكرنا ، فارتجعنا متاعنا بعد ، لم نفقد منه شيئاً ، وخلوا
أسرانا ، ووجدنا الذهب في المعركة ، ولقد رأيت يومئذ رجلاً من المسلمين ضمّ صفوان
ابن أمية إليه ضمةً ظننت أنه سيموت ، حتى أدركته وبه رمق ، فوجأت^(١) ذلك المسلم
بخنجر معي ، فوقع ، فسألت عنه ، فقيل : رجل من بني ساعدة . ثم هداني الله
بعد للإسلام .

قال الواقدي : فحدثني ابن أبي سبرة ؛ عن إسحاق بن عبد الله ، عن عمر بن الحكم ،
قال : ما علمنا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أغاروا على النهب
فأخذوا ما أخذوا من الذهب بقي معه من ذلك شيء يرجع به حيث غشينا المشركون ،
واختلفوا إلا رجائين : أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، جاء بمنطقة وجدها في
العسكر ، فيها خمسون ديناراً ، فشدّها على حقويه من تحت ثيابه ، وجاء عبّاد بن بشر
بصرة فيها ثلاثة عشر مثقالاً أنقاها في جيب قيصة ، وفوقها الدرع وقد حزم وسطه ،
فتيا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يخمسه وتلقبها إياه .

قال الواقدي : وروى يعقوب بن أبي صعصعة ، عن موسى بن ضمرة . عن أبيه ،
قال : لما صاح الشيطان أرب^(٢) العقبة ، أن محمداً قد قتل لما أراد الله عز وجل من
من ذلك ، سقط في أيدي المسلمين ، وتفرقوا في كل وجه ، وأصدوا في الجبل ، فكان
أول من بشرهم بكون رسول الله صلى الله عليه وآله سائماً كعب بن مالك . قال كعب :
عرفته ، فجعلت أصيح : هذا رسول الله ، وهو يشير إليّ بإصبعه على فيه : أن اسكت .

قال الواقدي : وروى عميرة بنت عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيها ، قالت :
قال أبي لما انكشف الناس : كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) وجأته ؛ أي ضربته .

(٢) أرب العقبة : اسم الشيطان . معروف في حديث العقبة . انظر القاموس .

وبشّرت به المسلمين حيّاً سوياً ، عرفت عينيه من تحت المغفر ؛ فنادت : يا معشر الأنصار !
أبشروا ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأشار إلى رسول الله على الله عليه وآله أن
اصمت : قال : ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله بكعب ، فلبس لأمته ، وألبس كعباً
لأمة نفسه ، وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً ، جرح سبعة عشر جرحاً .

قال الواقدي : وحدثني ابنُ أبي سبرة عن خالد بن رباح ، عن الأعرج ، قال :
لما صاح الشيطان إنَّ محمداً قد قُتِل ؛ قال أبو سفيان بن حرب : يا معشر قريش ، أيكم قتل
محمداً ؟ قال ابن قميئة : أنا قتلته . قال : نسورك^(١) كما تفعل الأعاجم بأبطالها ، وجعل أبو سفيان
يطوفُ بأبي عامر الفاسق في المعركة ؛ هل يرى محمداً بين القتلى ! فمرَّ بخارجة بن زيد بن
أبي زهير ، فقال : يا أبا سفيان ، هل تدري من هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا خارجة بن زيد
هذا أسيد بنى الحارث بن الخزرج ؛ ومرَّ بعباس بن عباد بن نضلة إلى جنبه ، قال : أتعرفه ؟ قال :
لا ، قال : هذا ابن قوقل ؛ هذا الشريف في بيت الشرف ، ثم مرَّ بذكوان بن عبد قيس ،
فقال : وهذا من ساداتهم ، ثم مرَّ بابنه حنظلة بن أبي عامر ، فوقف عليه ، فقال أبو سفيان :
من هذا ؟ قال : هذا أعزَّ من هاهنا على ، هذا ابني حنظلة . قال أبو سفيان : ما نرى
مصرع محمد ؛ ولو كان قُتِل لرأيناه ، كذب ابن قميئة ! ولقي خالد بن الوليد ، فقال : هل تبين
عندك قتل محمد ؟ قال : لا ، رأيتُه أقبل في نفر من أصحابه مصعبين في الجبل ، فقال أبو سفيان :
هذا حق ، كذب ابن قميئة ، زعم أنه قتله !

قلت : قرأت على النقيب أبي يزيد رحمه الله هذه الغزاة من كتاب الواقدي ،
وقلت له : كيف جرى لهؤلاء في هذه الواقعة ؟ فإني أستعظم ماجرسي ! فقال : وفي ذلك !
ما تستعظمه حمل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قلوب المشركين ، فسكسه

(١) نسورك : نلبسك السوار ، وهذا مما كانت تفعله الأعاجم ببلوكهم .

فلو ثبتت مجنبتا رسول الله اللتان فيهما أسيد بن حضير وألحباب بن المنذر بإزاء مجنبتى المشركين ، لم ينكسر عسكر الإسلام ؛ ولكن مجنبتا المسلمين أطبقت إطباقا واحدا على قلب المشركين ، مضافا إلى قلب المسلمين ، فصار عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله قلباً واحداً ، وكتيبة واحدة ، فخطمه قلب قريش حطمة شديدة ، فلما رأت مجنبتا قريش أنه ليس بإزائها أحدٌ ، استدارت المجنبتان من وراء عسكر المسلمين ، وصمد كثير منهم للرماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين ، فقتلوه عن آخرهم ، لأنهم لم يكونوا ممن يقومون بخالد وعكرمة ، وهما فى ألقى رجل ، وإنما كانوا خمسين رجلا ، لاسيما وقد ترك كثير منهم مركزه وشره إلى الغنيمة ، فأكب على النهب .

قال رحمه الله : والذي كسر المسلمين يومئذ ، ونال كل منال خالد بن الوليد ، وكان فارسا شجاعا ، ومعه خيل كثيرة ، ورجال أبطال موتورون ، واستدار خلف الجبل ؛ فدخل من الثغرة التى كان الرماة عليها ، فأتاه من وراء المسلمين ، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة ، فصار المسلمون بينهم فى مثل الحلقة المستديرة ، واختلط الناس ، فلم يعرف المسلمون بعضهم بعضا ، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسيف وهو لا يعرفه لشدة النقع والغبار ، ولما اعتراهم من الدهش والعجلة والخوف ؛ فكانت الدبرة عليهم ، بعد أن كانت لهم ، ومثل هذا يجرى دائما فى الحرب .

فقلت له رحمه الله : فلما انكشف المسلمون ، وفر منهم من فر ، ما كانت حال رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : ثبت فى نفر يسير من أصحابه يحامون عنه .

فقلت : ثم ماذا ، قال : ثم ثابت إليه الأنصار ، وردت إليه عنقا واحدا بعد فرارهم وتفرقهم ، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية ، ثم التحمت الحرب ، واصطدم الفيئتان^(١) .

(١) الفيلوى . كصيفى الجيش .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : لم يزل المسلمون يحامون عن رسول الله صلى الله عليه وآله ،
والمشركون يتكاثرون عليهم ، ويقتلون فيهم حتى لم يبقَ من النهار إلا القليل ،
والدّولة للمشركين .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : ثمّ علم الذين بقوا من المسلمين أنّه لا طاقة لهم بالمشركين ،
فأصعدوا في الجبل فاعتصموا به .

فقلت له : فرسول الله صلى الله عليه وآله ما الذي صنع ؟ فقال : صعد في الجبال .

قلت له : أفيجوز أن يقال : إنه فرّ ؟ فقال : إنّما يكون الفرار بمن أمعن في الحرب
في الصحراء والبيداء ، فأما من الجبل مطلّ عليه وهو في سفحه ؛ فلما رأى مالا يعجبه
أصعد في الجبل ؛ فإنه لا يسمى فارّاً . ثمّ سكت رحمه الله ساعة ، ثمّ قال : هكذا وقعت
الحال ؛ فإن شئت أن تسمي ذلك فراراً فسمّه ، فقد خرج من مكة يوم الهجرة فارّاً من
المشركين ، ولا وصمة عليه في ذلك .

فقلت له : قد روى الواقديّ عن بعض الصحابة ، قال : لم يبرح رسول الله صلى
الله عليه وآله ذلك اليوم شبراً واحداً ، حتى تحاجزت الفئتان ! فقال : دع صاحب هذه
الرواية فليقل ما شاء ، فالصحيح ما ذكرته لك ، ثمّ قال : كيف يقال : لم يزل واقفاً
حتى تحاجزت الفئتان ؟ وإنما تحاجزا بعد أن ناداه أبو سفيان ، وهو في أعلى الجبل بما ناداه ،
فلما عرف أنّه حيٌّ وأنه في أعلى الجبل ، وأن الخيل لا تستطيع الصعود إليه ، وأنّ القوم
إن صعدوا إليه رجالاً لم يتقوا بالظفر به ؛ لأنّ معه أكثر أصحابه ، وهم مستميتون إن
صعد القوم إليهم ، وأنهم لا يقتلون منهم واحداً حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة ، لأنهم
لا سبيل لهم إلى الهرب ، لكونهم محصورين في ذرّ واحد ، فالرجل منهم يحامى عن
خَيْط رقبته - كفوا عن الصعود وقنعوا بما وصلوا إليه من قتل من قتلوه في الحرب ، وأمّلوا

يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظفر السكّاني بالنبي صلى الله عليه وآله ، فرجوا عنهم وطلبوا مكة .

وروى الواقدي عن أبي سبرة! عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن أبي الحويرث ، عن نافع بن جبير ، قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً ، فنظرت إلى التبل يأتي من كل ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في وسطها كل ذلك بصرف عنه ، ولقد رأيتُ عبد الله بن شهاب الزهري ، يقول يومئذ : ذلوني على محمد ، فلا نجوتُ إن نجا ! وإن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جنبه ، مامعه أحد ، ثم جاوزه ، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية ، فقال له صفوان : تَرَحَّحت^(١) ! هلا ضربت محمداً ، فقطعت هذه الشفة ، فقد أمكنتك الله منه ! قال ابن شهاب : وهل رأيتَه ؟ قال : نعم أنتَ إلى جنبه ، قال : والله ما رأيتَه ، أحاف بالله إنه منّا لمنوع ، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاهدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك .

قال الواقدي : فروى ثمة بن أبي ثمة - واسم أبي ثمة عبد الله بن معاذ ، وكان أبوه معاذ أخا البراء بن معمر لأمه - قال : لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وما معه أحد إلا نفر قد أخذ قوابه من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فانطلقوا به إلى الشعب ، وما للمسلمين لواء قائم ، ولا فئمة ، ولا جمع ، وإن كتاب المشركين لتحوشهم مقابلة ومدبرة في الوادي ، يلتقون ويفترقون ما يرون أحداً يرددهم .

قال الواقدي : وحدثني إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري ، عن أبيه ، قال : حمل مصعب اللواء ، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب قبل ابن قبيصة ، وهو فارس فضرب يد مصعب فقطعتها ، فقال مصعب : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وحتى عليه ، فضربه فقطع اليسرى ، فبصمته بعضديه إلى صدره ،

وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ ، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه ، واندق الرمح ، ووقع مُصْعَب وسقط اللواء ، وابتدره رجلان من بني عبد الدار سويبط بن حرملة وأبو الرُّوم ، فأخذه أبو الرُّوم ، فلم يزل بيده حتى دخل به المدينة ، حين انصرف المسلمون .

قال الواقدي : وقالوا : إن رسول الله لما لمح القتال ، وخلص إليه وذبح عنه مصعب ابن عمير وأبو دُجَانة ، حتى كثرت به الجراحة ، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ ؟ » فوثب فئة من الأنصار خمسة ، منهم عُمارة بن زياد بن السَّكَن ، فقاتل حتى أثبت ، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعُمارة بن زياد : اذُنُ مَنِّي ، حتى وسده رسول الله صلى الله عليه وآله قدمه ، وإن به لأربعة عشر جرحاً حتى مات ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يذمر الناس ويحضمهم على القتال ، وكان رجالٌ من المشركين قد أذلقوا^(١) المسلمين بالرَّمي : منهم حيان ابن العرقة ، وأبو أسامة الجُشمي ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله يقول لسعد : « ارم فداك أبي وأمتي ! » فرمى حيان بن العرقة بسهم فأصاب ذَيْلَ أُمِّ أَيْمَن ، وكانت جاءت يومئذ تسقى الجرحى ، فقلبيها ، وانكشف ذَيْلُهَا عنها ، فاستغرب حيان بن العرقة ضحكاً ، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له ، وقال : ارم به ، فرمى فوضع السهم في ثغرة نحر حيان ، فوقع مستلقياً ، وبدت عورته . قال سعد : فرأيت النبي صلى الله عليه وآله ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه ، وقال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوتك ، وسدد رميتك ، ورمى يومئذ مالك بن زهير الجُشمي أخو أبي أسامة الجُشمي المسلمين رمياً شديداً ، وكان هو وريان بن العرقة قد أسرعاً في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأكثراً فيهم القتل يستتران بالصخر ، ويرميان ،

(١) أذلقوم : أوجعوم .

فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير يرمى من وراء صخرة قدرى ، وأطلع رأسه ، فيرميه سعد ، فأصاب التَّمهمُ عينه ، حتى خرج من قفاه ، فترى^(١) في السماء قامة ، ثم رجع فسقط ، فقتله الله عز وجل .

قال الواقدي : ورمى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوسه يومئذ حتى صارت شظايا ، فأخذها قتادة بن النعمان ، وكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وجنته . قال قتادة : فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : يا رسول الله ، إن نحتي امرأة شابة جميلة ، أحبها وتحبني ، وأنا أخشى أن تغدر مكان عيني ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله فردها وانصرف بها ، وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليه ساعة من ليل ونهار ، وكان يقول بعد أن أسن : هي أقوى عيني وكانت أحسنهما .

قال الواقدي : وباشر رسول الله صلى الله عليه وآله القتال بنفسه ، فرمى بالنبل حتى، فنيت نبله ، وانكسرت سيية قوسه ، وقبل ذلك انقطع وتره ، وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سيية القوس ، فأخذ القوس عكاشة بن محصن يوتره له ، فقال : يا رسول الله ، لا يبلغ الوتر ، فقال مده يبلغ ، قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ ، وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سيية القوس ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فما زال يرمى القوم ، وأبو طلحة أمامه يسترد مترساً عنه ، حتى نظرت إلى سيية قوسه قد تحطمت ، فأخذها قتادة بن النعمان .

قال الواقدي : وكان أبو طلحة يوم أُحد قد نثَلَ كِنانته^(٢) بين يدي النبي صلى الله عليه وآله ، وكان رامياً ، وكان صيتاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لصوت أبي طلحة في الجيش خيرٌ من أربعين رجلاً » ، وكان في كِنانته خمسون سهماً نثَلها بين يدي

(٢) نثَلَ كِنانته : أخرج ما فيها .

(١) : « فترى » .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعل يصيح : نفسى دون نفسك يا رسول الله ! فلم يزل يرمى بها سهماً سهماً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يطلع رأسه من خلف أبي طلحة بين أذنيه ومنكبه ، ينظر إلى مواقع النبل حتى فنيت نبهه ، وهو يقول : نحري دون نحرك ! جعلنى الله فذاك ! قالوا : إنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله ، لياخذ العود من الأرض ، فيقول : ارم يا أبا طلحة ، فيرمى به سهماً جيّداً .

قال الواقدي : وكان الرّماة المذكورون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله جماعة : منهم سعد بن أبي وقاص ، وأبو طلحة ، وعاصم بن ثابت ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمقداد بن عمرو ، وزيد بن حارثة ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وعُتْبة بن غَزْوَان ، وخِرَاش ابن الصّمة ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وبشر بن البراء بن معرور ، وأبو نائلة سلكان ابن سلامة ، وقتادة بن النعمان .

قال الواقدي : ورمى أبو رهم الغفاريّ بسهم فأصاب نحرد ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فبصق عليه ، فبرأ ، فكان أبو رهم بعد ذلك يسمى المنحور .

وروى أبو عمرو محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغويّ ، غلام ثعلب ، ورواه أيضاً محمد ابن حبيب في أماليه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فرّ معظم أصحابه عنه يوم أُحُد ، كثرت عليه كتائب المشركين ، وقصدته كتيبة من بني كنانة ، ثم من بني عبد مناة بن كنانة ، فيها بنو سفيان بن عُوَيْف ؛ وهم : خالد بن سفيان ، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان ، وغراب بن سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علىّ اكفني هذه الكتيبة ، فحمل عليها وإنما لتقارب خمسين فارساً ؛ وهو عليه السلام راجل فما زال يضرّ بها بالسيف حتى تفرّق عنه ثم تجتمع^(١) عليه هكذا مرارا حتى قتل بني سفيان بن عويّف الأربعة ، وتمام العشرة منها ، ممن لا يُعرف بأسمائهم ، فقال جبرئيل

(١) : « يجمع » .

عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا محمد ، إن هذه المواساة ، لقد عجبت
للملائكة من مواساة هذا الفتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وما يمنعه وهو مني
وأنا منه ! فقال جبرئيل عليه السلام : وأنا منكما . قال : وسمع ذلك اليوم صوت من
قَبِلَ السماء ، لا يرى شخص الصارخ به ينادى مرارا :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فَسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ، فقال : هذا جبرئيل .

قلت : وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدِّثين وهو من الأخبار المشهورة ، ووقفت
عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق ، ورأيت بعضها خالياً عنه ، وسألت شيخني
عبد الوهاب بن سكينته رحمه الله عن هذا الخبر ، فقال : خبر صحيح ، فقلت : فما بال الصَّحاح
لم يشتمل عليه ؟ قال : أو كما كان صحيحاً نشتمل عليه كتب الصحاح ؟ كم قد أهمل
جامعوا الصَّحاح من الأخبار الصحيحة !

قال الواقدي : وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة الخزومي يحضر^(١) فرساله أبلق ،
يريد رسول الله صلى الله عليه وآله ، عليه لأمة كاملة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله
متوجه إلى الشعب وهو بصيح : لا نجوتُ إن نجوتَ ! فيقفُ رسول الله صلى الله عليه
وآله ، ويعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الخفر التي حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين ،
فيقع الفرس لوجهه ، وسقط عثمان عنه ، وخرج الفرس غائراً ، فيأخذه بعض أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمشي إليه الحارث بن الصَّمة ، فاضطربا ساعة بالسيفين ،
ثم يضرب الحارث رجلاه ، وكانت درعُه مشمرة فبرك ، وذفف^(٢) عليه ، وأخذ الحارث

(١) يحضر فرساً : يجره ، والمضمر : ضرب من السير .

(٢) ذفف عليه : أجهز .

يومئذ سلبه : درعاً جيداً ، ومغفراً ، وسيفاً جيداً ، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذ غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى قتالهما ، فسأل عن الرجل ، قيل : عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، قال : الحمد لله الذي أحانه (١) وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل بيطن نخلة ، حتى قدم به على رسول الله صلى الله عليه وآله فافتدى ورجع إلى قريش ، وغزا معهم أحداً ، فقتل هناك ، ويرى مصرع عثمان عبيد ابن حازم العامري أحد بني عامر بن لؤي ، فأقبل يعدو كأنه سبع ، فيضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه ، فوقع الحارث جريحاً حتى احتمله أصحابه ، ويقبل أبو دجانة على عبيد بن حازم ، فتناوشا ساعة من نهار ، وكل واحد منهما يتقى بالدرقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض ، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ، فلاحق برسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدي : وروى أن سهيل بن حنيف ، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : نبلوا سهيلاً (٢) فإنه سهل ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي الدرداء ، والناس منهزمون في كل وجه ، فقال : نعم الفارس عويمر غير أنه لم يشهد أحداً !

قال الواقدي : وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك ، قال : حدثني من نظر إلى أبي سبرة بن الحارث بن علقمة ، ولقي أحداً للمشركين ، فاختلفا ضربات ، كل ذلك يروغ أحدهما عن الآخر ، قال : فنظر الناس إليهما كأنهما سبعان ضاريان يقفان صرة ويقتلان أخرى ، ثم تعانقا ، فوقعا إلى الأرض جميعاً ، فعلاه أبو سبرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة ، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل يجر قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه ، فنظرت إلى سنان الرمح خرج من صدره ،

(٢) نبلوا سهيلاً ؛ أي أعضوه النبل .

(١) أحانه : أهلكه .

ووقع أبو سبرة ميّتاً ، وانصرف خالد بن الوليد ، يقول : أنا أبو سليمان !
قال الواقدي : وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبي صلى الله عليه وآله قتالا
شديداً ، وكان طلحة يقول : لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله حيث انهزم
أصحابه ، وكثر المشركون ، فأحدقوا بالنبي صلى الله عليه وآله من كل ناحية ، فما أدري
أقوم من بين يديه أو من ورائه ؟ أم عن يمينه أم شماله ؟ فأذبّ بالسيف عنه هاهنا وهاهنا
حتى انكشفوا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ يقول لطلحة : « لقد أوجب »
وروى : « لقد أنحَب » أي قضى نذره .

قال الواقدي : وروى أن سعد بن أبي وقاص ذكر طلحة فقال : يرحمه الله ! إنه
كان أعظمنا غناء عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحد ، قيل : كيف يا أبا إسحاق ؟
قال : لزم النبي صلى الله عليه وآله وكُنّا نتفرق عنه ، ثم تنوب إليه ، لقد رأيتُه يدورُ حول
النبي صلى الله عليه وآله يُترّس بنفسه .

قال الواقدي : وسئل طلحة : يا أبا محمد ، ما أصاب إصبعك ؟ قال : رمى مالك بن
زهير الجشمي بسهم يريدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان لا تحطىء رميته - فاتقيتُ
بيدي عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصاب خنصرِي فسلّ .

قال الواقدي وقالوا : إن طلحة قال لمسارمٍ حسّ^(١) ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وآله : لو قال : « بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون [إليه] »^(٢) من أحبّ أن ينظر إلى
رحل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله ، طلحة
من قضى نحبهِ^(٣) .

(١) حس ، بالبناء على الكسر ، كلمة من ينجؤه ما يؤله ، ومه قولهم : « ضرب فاقال : حس » .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣١٨

(٣) في اللسان : « طلحة من قضى نحبهِ » النحب : النذر ، كأنه ألزم نفسه أن يصدق الأعداء في الحرب
فوفى به ولم يفسح ، وقيل : هو من النحب الموت ، كأنه يلزم نفسه أن يقاتل حتى يموت .

قال الواقدي : وكان طلحة يحدث يقول : لما جال المسلمون تلك الجولة ، ثم تراجعوا أقبل رجل من بني عامر بن لؤي يدعى شيبه بن مالك بن المضرب ، يجر رحمه ، وهو على فرس أغر كميته مدججا في الحديد ، يصيح : أنا أبو ذات الودع ، دلوني على محمد ، فأضرب عرقوب فرسه فاكتسعت^(١) [به]^(٢) ثم أتناول رحمه ، فوالله ما أخطأت به عن حدّته ، فحسار كما يخور الثور فما برحت به واضعا رجلي على خده حتى أزرته شعوب^(٣) .

قال الواقدي : وكان طلحة قد أصابته في رأسه المصلبة ضربه رجل من المشركين ، ضربتين ، ضربة وهو مقبل ، وضربة وهو معرض عنه ، وكان تَزَف منها الدم ، قال أبو بكر : جئت النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، فقال : عليك بابن عمك ، فأتى طلحة بن عبيد الله ، وقد نَزَف الدم ، فجعلت أنضح في وجهه المساء وهو مغشى عليه ، ثم أفاق ، فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقلت : خيرا ، هو أرسلني إليك ، فقال : الحمد لله ، كل مصيبة بعده جَلَل .

قال الواقدي وكان ضرار بن الخطاب الفهري يقول : نظرتُ إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة في مِعْمرة ، فنظرتُ إلى المصلبة في رأسه ، فكان ضرار يقول : أنا والله ضربته ، هو استقبلني فضربته ، ثم أكرّ عليه ، وقد أعرض ، فأضربه ضربة أخرى .

(١) كذا في اللسان ، وفي الواقدي : « انكسعت » ، وفي اللسان : « وفي حديث طلحة يوم أُحُد : « فضربت عرقوب فرسه فاكتسعت به ، أي سقطت » .

(٢) من اللسان

(٣) في اللسان : « وفي حديث طلحة : حتى أزرته شعوب ، أي أوردته المنية فزارها . شعوب من أسماء المنية .

قال الواقدي : ولما كان يوم الجمل ، وقتلَ عليّ عليه السلام مَنْ قتل من الناس ، ودخل البصرة ، جاءه رجل من العرب ، فتكلم بين يديه ، ونال من طلحة ، فزبره عليّ عليه السلام ، وقال : إنك لم تشهد يوم أحد ، وعظم غناؤه عن الإسلام ، مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانكسر الرجلُ وسكت ، فقال له قائل من القوم : وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أحد ؟ فقال عليّ عليه السلام : نعم ، يرحمه الله ، لقد رأيتُه وإنه ليترس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن السيوف لتمشاه ، والنبل من كل ناحية ؛ وما هو إلا جنة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، يقيه بنفسه ، فقال رجل : لقد كان يوم أحد يوماً قتل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله فيه الجراحة ، فقال عليّ عليه السلام : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : ليت أني غودرت مع أصحابي بنحوص^(١) الجبل ، ثم قال عليّ عليه السلام : لقد رأيتني يومئذ وإني لأذئبهم في ناحية ، وإن أبادجانة لفي ناحية يذب طائفة منهم ؛ حتى فرج الله ذلك كله ؛ ولقد رأيتني وانفردت منهم يومئذ فرقة خشناً^(٢) ، فيها عكرمة بن أبي جهل فدخلت وسطهم بالسيف ، فضربت به ، واشتملوا عليّ حتى أفضيت إلى آخرهم ، ثم كررت فيهم الثانية ، حتى رجعت من حيث جئت ؛ ولكن الأجل استأخر ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا .

قال الواقدي : وحدثني جابر بن سليم عن عثمان بن صفوان ، عن عمارة بن خزيمة ، قال : حدثني مَنْ نظر إلى الحباب بن المنذر بن الجوح ، وإنه ليحوشهم^(٣) يومئذ كما تحاش الغنم ؛ ولقد اشتملوا عليه حتى قيل : قد قتل ، ثم برز والسيف في يده ، واقترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم ، وإيهم ليهربون منه إلى جمع منهم ،

(١) ب : « بحصن » ، وصوابه من الواقدي ، وفيه : قال ابن أبي الزناد : نحس الجبل أسفله .

(٢) فرقة خشناً ، أي كثيرة السلاح .

(٣) يحوشهم ، أي يجمعهم .

وصار الحُباب إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الحُباب يومئذ معلماً بعصابة خضراء في مِعْقَرِه .

قال الواقدي : وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس مدججاً لا يرى منه إلا عيناه ، فقال : مَنْ يبارز؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق ! فهض إليه أبو بكر ، وقال : أنا أبارزه ، وجرد سيفه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : شِمِّ سيفك ، وارجع إلى مكانك ، ومتعنا بنفسك .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما وجدتُ لشماس بن عثمان شبيهاً إلا الأُجِنَّة ، يعني مما يقاتل عن رسول الله يومئذ ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ يميناً ولا شمالاً إلا رأى شماس بن عثمان في ذلك الوجه ، يذب بسيفه عنه ، حتى غشى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فترس^(١) بنفسه دونه ، حتى قتل ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما وجدت لشماس شبيهاً إلا الأُجِنَّة » .

قال الواقدي : ولما ولي المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد من خلفهم ، كان أوّل مَنْ أقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرز مع طائفة من الأنصار ، وقد كانوا بلغوا بني حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين في كثيرتهم ، فدخلوا في حوَمَتهم ، فما أفلت منهم رجل حتى قُتِلوا كلهم ، ولقد ضار بهم قيس بن محرز ، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفراً ، فما قتلوه إلا بالرماح ، نظموه ، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائفة^(٢) وعشر ضربات بالسيف .

قال الواقدي : وكان عباس بن عباد بن نضلة المعروف بابن قوقل ، وخارجة بن

(١) ترس بنفسه ، أي جعل نفسه له كالترس .

(٢) الطعنة الجائفة : التي تبلغ الجوف ، وفي الواقدي : « قد جائفة » .

زيد بن أبي زهير، وأوس بن أرقم بن زيد، وعبّاس رافع صوتَه يقول: يا معشرَ المسلمين، الله ونبِيِّكم! هذا الذي أصابكم بمَعْصية نبيِّكم؛ وعدكم^(١) النصر فما صبرتم. ثم نزع مِغْفَرَه عن رأسِه، وخلع دِرْعَه وقال لخارجة بن زيد: هل لك في دِرْعِي ومِغْفَرِي؟ قال خارجة: لا، أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعاً، وعبّاس يقول: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب نبيُّنا ومنا عينٌ تطرف! قال: فيقول^(٢) خارجة: لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حُجَّة، فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السَلَمِيُّ، ولقد ضرب به عباس ضربتين، فخرجه جرحين عظيمين، فارتث يومئذ جريحاً، فكث جريحاً سنة، ثم استقبل. وأخذت خارجة ابن زيد الرماح، فخرج بضعة عشر جرحاً، فمَرَّ به صفوان بن أمية، فمرفه فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد، وبه رمق، فأجهز عليه. وقتل أوس بن أرقم، وقال صفوان: مَنْ رأى خبيب بن يساف؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه. ومثل يومئذ بخارجة، وقال: هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر... يعني أمية بن خلف - وقال: الآن شفيتُ نفسي حين قتلت الأمانيل من أصحاب محمد، قتلت ابن قوقل، و قتلت ابن أبي زهير، و قتلت أوس ابن أرقم.

قال الواقدي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه؟ قالوا: وما حقه يارسول الله؟ قال: يضرب به العدو، فقال عمر: أنا يارسول الله، فأعرض عنه، ثم عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الشرط، فقام الزبير، فقال: أنا، فأعرض عنه، حتى وجد^(٣) عمر والزبير في أنفسهما، ثم عرضه الثالثة، فقام أبو دُجَانَة، وقال: أنا يارسول الله آخذه بحقه، فدفعه إليه، فصدق حين لقي به العدو، وأعطى السيف حقه، فقال أحد الرجلين - إما عمر بن الخطاب أو الزبير: والله لأجعلن هذا الرجل الذي أعطاه السيف ومنعنيهِ من شأني، قال: فاتبعته، فوالله ما رأيت أحداً قاتل أفضل من

(١) ١: « فيوعدكم ». (٢) الواقدي: « يقول ». (٣) أي غضبا.

قتاله ، لقد رأيتُه يضرب به حتى إذا كلَّ عليه وخاف ألا يُحْيِكَ (١) عمدَ به إلى الججارة ، فشحذه ، ثم يضرب به العدو ، حتى يردّه (٢) كأنه منجل ، وكان حين إعطاء رسول الله صلى الله عليه وآله السيف مشى بين الصَّفَيْنِ ، واختال في مشيته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه يمشى تلك المشية : إن هذه لمشيئةُ يبغضها الله تعالى إلا في مثل هذا الموطن . قال : وكان أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يعلمون في الزُّحُوفِ ، أحدهم أبو دُجَانَةَ ، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، وكان قومه يعلمون أنه إذا اعتصبَ بها أحسن القتال ، وكان على عليه السلام يعلم بصوفةٍ بيضاء ، وكان الزُّبَيْرُ يعلم بعصابة صفراء ، وكان حمزة يعلم بريش نعامة .

قال الواقدي : وكان أبو دُجَانَةَ يحدث يقول : إني لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذف الناس وتحوشهم حوشاً منكراً ، فرفعتُ عليها السيف ، وما أحسبها إلا رجلاً ؛ حتى علمت أنها امرأة ، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة - والمرأة عُمْرَةُ بنت الحارث .

قال الواقدي : وكان كعب بن مالك يقول : أصابني الجراح يوم أُحُد ، فلما رأيت المشركين يمثّلون بالمسلمين أشدَّ المثلِّ وأقبحها ، قمتُ فتنحيت عن القتلى ، فإني لفي موضعي أقبلَ خالد بن الأعمى العقيليَّ جامع اللأمة يحوش المسلمين ، يقول : استوسقوا (٣) كما يستوسق جرُوب الغنم ، وهو مدجج في الحديد ، يصيح : يا معشرَ قريش ، لا تقتلوا محمداً ، انسروه أسراً حتى نعرفه ما صنع ؛ ويصمد له قُزْمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه رأيت منها سحره ، ثم أخذ سيفه وانصرف ، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلا عينيه ، فحمل عليه قُزْمان فضربه ضربةً جزّله اثنين ، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومي ، ثم يقول كعب : إني لأنظر يومئذ وأقول : ما رأيتُ مثل هذا الرجل أشجع

(١) لا يحيك : لا يؤثر . (٢) : ١ « رده » . (٣) استوسقوا : اجتمعوا .

بالسيف ، ثم ختم له بما ختم له به ! فيقال له : فما ختم له به ؟ فيقول : من أهل النار ، قتل نفسه يومئذ .

قال الواقدي : وروى أبو التمر الكنانى ، قال : أقبلت يوم أحد وأنا من المشركين ، وقد انكشف المسلمون ، وقد حضرتُ في عشرة من إخواني ، فقتل منهم أربعة ؛ وكان الريح للمسلمين أول ما التقتينا ، فلقد رأيتني وانكشفنا مولين ، وأقبل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على نهب العسكر ، حتى بلغت الجاه ، ثم كررت خيلنا ، فقلت : والله ما كرت الخيل إلا عن أمر رآته ، فكررنا على أقدامنا كأننا الخيل ، فنجد القوم قد أخذ بعضهم بعضاً ، يقاتلون على غير صفوف ، ما يدري بعضهم من يضرب ، وما للمسلمين لواء قائم ، ومع رجل من بني عبد الدار لواء المشركين ، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم : « أمة أمة » فأقول في نفسي : ما « أمة » ؟ وإني لأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أصحابه محذقون به ، وإن التُّبَل ليمرّ عن يمينه ويساره ، ويقع بين يديه ، ويخرج من ورائه ، ولقد رميت يومئذ بخمسين مائة ، فأصبت منها بأسمهم بعض أصحابه ، ثم هداني الله إلى الإسلام .

قال الواقدي : وكان عمرو بن ثابت بن وقش شاكاً في الإسلام ، وكان قومه يكلمونه في الإسلام ، فيقول : لو أعلم ماتقولون حقاً ما تأخرت عنه ، حتى إذا كان يوم أحد بدا له الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وأخذ سيفه وأسلم ، وخرج حتى دخل في القوم ، فقاتل حتى أثبت^(١) ، فوجد في القتلى جريحاً ميتاً ، فدنوا منه وهو بأخر رمق ، فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ؟ قال : الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله ، وأخذت سيفي وحضرت فرزقي الله الشهادة ، ومات في أيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا لمن أهل الجنة » .

(١) أثبت ، أى جرح .

قال الواقدي : فكان أبو هريرة يقول ، والناس حوله : أخبروني برجل يدخل الجنة لم يصل لله تعالى سجدة؟ فيسكت الناس، فيقول أبو هريرة : هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش .

قال الواقدي : وكان مخيرق اليهودي من أحبار يهود ، فقال يوم السبت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي ، وأن نصره عليكم حق . فقالوا : ويحك ! اليوم يوم السبت ، فقال : لا سبت ، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصيب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مخيرق خير يهود » .

قال الواقدي : وكان مخيرق ، قال حين خرج إلى أحد : أن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله فيه ، فهي عامة صدقات النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : وكان حاطب بن أمية منافقاً ، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجل صدق شهد أحداً مع النبي صلى الله عليه وسلم فارتث^(١) جريحاً ، فرجع به قومه إلى منزله ، قال : يقول أبوه وهو يرى أهل الدار يبكون عنده : أتم والله صنعتم هذا به ، قالوا : كيف ؟ قال : أغررتموه من نفسه حتى خرج فقُتِل ، ثم صرتم معه إلى شيء آخر تعدونه جنة ، يدخل فيها حبة من حرملة ، قالوا : قاتلك الله ! قال هو ذلك ، ولم يقر بالإسلام^(٢) .

قال الواقدي : وكان قزمان عسيفاً^(٣) من بني ظفر ، لا يدري ممن هو ، وكان لهم محبباً ،

(١) ارتث : حل من المعركة جريحاً وبه رمق .

(٢) الخبر في ابن هشام ٣ : ٣٧ عن عاصم بن عمر بن قتادة : « أن رجلاً منهم كان يدعى حاطب ابن أمية بن رافع ، وكان له ابن يقال له زيد بن حاطب ؛ أصابته جراحة يوم أحد ؛ فأتى به إلى قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ؛ فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يا ابن حاطب بالجنة ، قال : وكان حاطب شيخاً قد عسا (أي كبر) في الجاهلية ، فنجم يومئذ ففاه ، فقال : بأي شيء تبشرونه ! أبجقه من حرملة ! غررتم والله هذا الغلام من نفسه !

(٣) عسيفاً ، أي أجيراً .

وكان مقللاً ولا ولد له ولا زوجة ، وكان شجاعاً يُعرف بذلك في حروبهم التي كانت تكون بينهم ، فشهد أحداً ، وفاتل قتالا شديداً ، فقتل ستة أو سبعة ، فأصابته الجراح فقتل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن قزمان قد أصابته الجراح ، فهو شهيد ، فقال : بل من أهل النار ، فجاؤا إلى قزمان ، فقالوا : هنيئاً لك أبا العيذاق الشهادة ! فقال : بئس تبشرونني ! والله ماقاتلنا إلا على الأحساب ، قالوا : بشرناك بالجنة ، قال حبة والله من حرمل ، وأنا والله ماقاتلنا على جنة ولا على نار ، إنما قاتلنا على أحسابنا ، ثم أخرج سهما من كنانته ، فجعل يتوجأ به نفسه ، فلما أبطأ عليه المشقص ، أخذ السيف ، فاتكأ عليه ، حتى خرج من ظهره ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال : « هو من أهل النار » .

قال الواقدي : وكان عمرو بن الجوح رجلاً أعرج ، فلما كان يوم أحد ، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد أمثال الأسد ، أراد قومُه أن يجسوه ، وقالوا : أنت رجل أعرج ، ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبي صلى الله عليه وسلم قال : بخ ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم ! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته : كأني أنظر إليه مولياً قد أخذ درّته ، وهو يقول : اللهم لا تردني إلى أهلي ، فخرج ولحقه بعضُ قومه يكلمونه في القعود ، فأبى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن قومي يريدون أن يجسوني عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إنني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له : أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك ، فأبى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقومه وبنيه : لا عليكم أن تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة ؛ فخلّوا عنه . فقتل يومئذ شهيداً . وكان أبو طلحة يحدث ، يقول : نظرت إلى عمرو بن الجوح حين انكشف المسلمون ، ثم تابوا وهو في الرعيل الأول ، لكأني أنظر إلى ضلعه وهو يعرج في مشيته ، وهو يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنة ، ثم أنظر إلى ابنه يعدو في أثره ، حتى قُتلا جميعاً .

قال الواقدي ، وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر ، ولم يكن قد صُرب الحجاب يومئذٍ ، حتى كانت بمنقطع الحرّة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي ، لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام ، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام ، تسوق بغيراً لها ، عليه زوجها عمرو بن الجموح ، وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح ، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام^(١) أبو جابر بن عبد الله ، فقالت لها عائشة : عندك الخبر ، فما وراءك ؟ فقالت هند : خير ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح ، وكلّ مُصيبة بعده جَلَلٌ ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ ﴾ .

— قلت : هكذا وردت الرواية ، وعندى أنها لم تقل كل ذلك ، ولعلها قالت : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ » ، لا غير ، وإلا فكيف يواطئ كلامها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أحد ! هذا من البعيد جداً —

قال : فقالت لها عائشة : فمن هؤلاء ؟ قالت : أخي وابني وزوجي قتلى ، قالت : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم بها « حَلْ حَلْ » تزجرُ بغيرها ، فبرك البعير ، فقالت عائشة : لنقل ما حمل ، قالت هند : ماذا بك به ، لربما حمل ما يحمله البعيران ، ولكني أراه لغير ذلك ، فزجرته فقام ، فلما وجهت به إلى المدينة برك ، فوجهته راجعة إلى أحد ، فأسرع ، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال : إن الجمل للأمور ، هل قال عمرو شيئا ؟ قالت : نعم ، إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة ، ثم قال : اللهم لا تردني إلى أهلي ، وارزقني الشهادة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : فلذلك الجمل لا يمضي ، إن منكم يامعشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح ، يا هند ، مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ، ينظرون أين يدفن ! ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرهم ، ثم قال : يا هند ، قد تراقبوا في الجنة

(١) الواقدي : « حرام » .

جميعا ؛ عمرو بن الجوح بعلك ، وخلاّد ابْنك، وعبد الله أخوك . فقالت هند : يا رسول الله ، فادع الله لي عسى أن يجعلني معهم !

قال الواقدي : وكان جابر بن عبد الله ، يقول : اصطحب ناسٌ يوم أُحدٍ الحمرَ ، منهم أبي ، فقتلوا شهداء .

قال الواقدي : وكان جابرٌ يقول : أوّل قتيل من المسلمين يوم أُحدٍ أبي ؛ قتله سفيان ابن عبد شمس أبو الأعور الشلّمي ، فضلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ الهزيمة .

قال الواقدي : وكان جابر يحدث ، ويقول : استشهد أبي ، وجعلتُ عمّتي تبكي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيها ! ما زالت الملائكة تظلّ عليه بأجنحتها حتى دُفِن .

قال الواقدي : وقال عُبيد الله بن عمرو بن حزام : رأيتُ في النوم قبلي يوم أُحدٍ بأيام مبشّر بن عبد المنذر ، أحد الشهداء بيدر ، يقول لي : أنت قادم علينا في أيام ! فقلت : فأين أنت ؟ قال : في الجنّة نسرح منها حيث نشاء ، فقلت له : ألم تقتل يوم بدر ؟ قال : بلى ، ثم أحييت ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذه الشهادة يا جابر » .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحدٍ : ادفنوا عبد الله بن عمرو ابن حزام وعمرو بن الجوح في قبر واحد ، ويقال : إنهما وجدا وقد مُثّل بهما كلٌّ مُثْلَةٌ قطعت آراهما^(١) عضوا عضوا ، فلا تعرف أبدانهما . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ادفنوها في قبر واحد » ، ويقال : إنّما أمر بدفنهما في قبر واحد ، لما كان بينهما من

(١) الأراب : جمع لارب ، بالكسر والكون ، وهو العضو .

الصفاء ، فقال : ادفنوا هذين المتحايين في الدنيا في قبر واحد .

وكان عبد الله بن عمرو بن حرام رجلاً أحمراً أصم ، ليس بالطويل ؛ وكان عمرو ابن الجموح طويلاً ، فعرفا ودخلا السَّيْلَ بعد عليهما ، وكان قبرهما ممّا يلي السَّيْلَ ، فحفرَ عنهما ، وعليهما نمرتان وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه ، فيدهُ على وجهه^(١) ، فأميطت يده عن جرحه ، فثعب^(٢) الدم ، فردت إلى مكانها فسكن الدم .

قال الواقدي : وكان جابر بن عبد الله يقول : رأيت أبي في حفرة ، وكأنه نائم ، وما تغير من حاله قليل ولا كثير ؛ فقليل له : أفرايت أ كفانه؟ قال : إنما كُفِنَ في نَمْرَةٍ^(٣) حُرَّ بها وجهه ، وعلى رجله الحرمل فوجدنا النَمْرَةَ كما هي ، والحرمل على رجله كهيئته ، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة ، فشاوهم جابر في أن يطيبه بمسك ، فأبى ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا تحدثوا فيهم شيئاً .

قال : ويقال إن معاوية لما أراد أن يُجْرِيَ العَيْنَ التي أحدثها بالمدينة ، وهي كظامة نادى مناديه بالمدينة : من كان له قتيل بأحد فليشهد . فخرج الناس إلى قتلام فوجدوم رطاباً يتثنون ، فأصابت المسحاةُ رجلَ رجلٍ منهم ، فثعبت دما ، فقال أبو سعيد الخدري : لا ينكر بعد هذا منكر أبدا .

قال : ووُجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد ، ووُجد خارجة ابن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحد ، فأما قبرُ عبد الله وعمرو فحوّل ، وذلك أن القناة كانت تمرّ على قبرهما ، وأما قبر خارجة وسعد فترك ، وذلك لأن مكانه كان معتزلاً ، وسُوِيََ عليهما التراب ، ولقد كانوا يحفرون التراب ، فكلمّا حفروا قُتْرَةَ من تراب ، فاح عليهم المسك .

(٢) ثعب الدم : سال .

(١) : « جرحه » .

(٣) النَمْرَةُ : بردة من صوف .

قال : وقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر : يا جابر ، ألا أبشرك ؟ فقال : بلى ، بأبي وأمي ! قال : فإن الله أحيا أباك ، ثم كلمه كلاما ، فقال له : تمنى على ربك ما شئت ! فقال : أتمنى أن أرجع فأقتل مع نبيك ، ثم أحيا فأقتل مع نبيك ، فقال : إني قد قضيت أنهم لا يرجعون .

قال الواقدي : وكانت نسيبة بنت كعب أم عمارة بن غزيرة بن عمرو قد شهدت أحدا ، وزوجها^(١) غزيرة وابناها عمارة بن غزيرة وعبدالله بن زيد ، وخرجت ومعها شن^(٢) لها في أول النهار تريد تسقى الجرْحى ، فقالت يومئذ وأبلت بلاء حسنا ، فجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، فكانت أم سعد بنت سعد بن الربيع تحدث ، فتقول : دخلت عليها ، فقالت لها : ياخاله ، حدثيني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار إلى أحد ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فاتتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصحابة والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أباشر القتال ، وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ، وأرمى بالقوس ، حتى خلصت إلى الجراح ، فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت : يا أم عمارة ، من أصابك بهذا؟ قالت : أقبل ابن قميثة ، وقد ولّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح : دلوني على محمد ، لا نجوت إن نجا ! فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه ، فكنت فيهم ، فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان ، فقالت لها : يدك ما أصابها ؟ قالت : أصيبت يوم اليمامة ، لما جعلت الأعراب تنهزم بالناس ، نادى الأنصار : اخلصونا ، فأخلصت الأنصار ، فكنت معهم ، حتى اتهمنا إلى حديقة الموت ، فاقتلنا عليها ساعة ، حتى قتل أبو دجانة على باب الحديقة ؛ ودخلتها

(١) كذا في الواقدي ، وفي ب : « وتزوجها » .

(٢) الشن : القرية الحلق الصغيرة ، يكون فيها الماء أبرد من غيرها .

وأنا أريد عدوّ الله مُسيلمّة ، فيعرض لي رجل ، ففرض يدي ، ففقطها ، فوالله ما كانت ناهية ، ولا عرجت عليها ، حتى وقفت على الخبيث مقتولاً ، وابني عبد الله بن زيد المازني يمسحُ سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلته ؟ قال : نعم ، فسجدتُ شكراً لله عزّ وجلّ وانصرفت .

قال الواقدي : وكان ضمّرة بن سعيد يحدث عن جدّته ، وكانت قد شهدت أحدًا تسقى الماء ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومئذ : لمقام نسيبه بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان . وكان يراها يومئذ تقاتل أشدّ القتال ، وإمّها لحارزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً .

قلت : ليت الراوي لم يكن هذه الكناية ، وكان يذكرها باسمها حتى لا تتراعى الظنون إلى أمور مشنبهة ! ومن أمانة المحدث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يسكت منه شيئاً ، فما باله كتم اسم هذين الرجلين .

قال : فلما حضرت نسيبه^(١) الوفاة ، كنت فيمن غسّأها فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر ؛ وكانت تقول : إني لأنظر إلى ابن قميثة وهو يضربها على عاتقها - وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنة - ثم نأى منادى النبي صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء أحد : إلى حمراء الأسد ! فشدت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزع الدّم ، ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح ، حتى أصبحنا ، فلما رجع رسولُ الله من حمراء الأسد ، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها ، فرجع إليه فأخبره بسلامتها ، فسرّ بذلك .

قال الواقدي : وحدثني عبد الجبار بن مُمارة بن غزيرة ، قال : قالت أم مُمارة

(١) الواقدي : « فلما حضرتها » .

لقد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بقي إلا نَفِيرٌ ما يتعمون عشرة ، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه نذب عنه ، والناس يمرُّون عنه منهزمين ، فرآني ولا تُرْسَ معي ، ورأى رجلاً مولياً معه تُرْسٌ ، فقال : يا صاحبَ التُّرْسِ ، الق ترسك إلى مَنْ يقاتل . فألقى ترسه فأخذه ، فجعلت أترس به على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ، ولو كانوا رجالاً مثلنا أصبناهم ، فيقبل رجل على فرس ، فضربني وترسست له ، فلم يصنع سيفه شيئاً ، وولّى وأضرب عرقوب فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح : يا بنِ عُمارَةَ ، أمك أمك ! قالت : فعاونني عليه حتى أوردته شعوب^(١) .

قال الواقدي : وحدثني ابنُ أبي سبرة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زيد المازني ، قال : جرحت يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى ، ضربني رجل كأنه الرقْل ولم يعرج عليّ ، ومضى عني ، وجعل الدم لا يرقأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعصب جرحك ، فتقبل أمي إليّ ، ومعها عصائب في حقونها قد أعدتها للجراح ، فربطت جرحي والنبي صلى الله عليه وسلم واقف ينظر ، ثم قالت : انهض يا بني ، فضارب القوم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ومن يطبق ما تطيقين يا أمِ عُمارَةَ ! وأقبل الرجل الذي ضربني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا ضارب ابنك ، فاعترضت أمي له ، فضربت ساقه ، فبرك ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تبسم حتى بدت نواجذهُ ، ثم قال : استقدتِ يا أمِ عُمارَةَ . ثم أقبلنا نعلوه^(٢) بالسلاح حتى أتينا على نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك ، وأراك تارك بعينك !

(١) شعوب : اسم المنية .

(٢) ب : « نعله » ، والصواب ما أثبتته من ا والواقدي .

قال : الواقديّ وروى موسى بن ضمرة بن سعيد ، عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب في أيام خلافته بمروط^(١) كان فيها مرط واسع جيد فقال بعضهم : إن هذا المرط بشمن كذا ، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد ، وذلك حدثان^(٢) ما دخلت على ابن عمر ، فقال : بل أبعث به إلى من هو أحقّ منها ، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد يقول : ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني .

قال الواقديّ : وروى مروان بن سعيد بن المعلّى ، قال : قيل لأمّ عمارة : يا أمّ عمارة ، هل كنت نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهنّ ؟ فقالت : أعوذ بالله ، لا والله ما رأيت امرأة منهنّ رمت بسهم ولا حجّرت ، ولكن رأيت معهنّ الدّاف والأكبار يضربن ويذكرن القوم قتلى بدر ، ومعهنّ مكاحل ومراود ، فكلّما ولي رجل أو تكعكع ناولته إحداهنّ مروداً ومكحلة ، ويقلن : إنّما أنت امرأة ، ولقد رأيتهنّ ولّين منهزمات مشمّرات ، ولها عنهنّ الرجال أصحاب الخليل ، ونجوا على متون خيلهم ، وجملن يتبعن الرجال على أقدامهنّ ، فجملن يسقطن في الطريق ، ولقد رأيت هنداً بنت عتبة ، وكانت امرأة ثقيلة ، ولها خلق ، قاعدة خاشية من الخليل ، ما بها مشى ، ومعها امرأة أخرى ، حتى كثر القوم علينا ، فأصابوا منا ما أصابوا ، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قبل الرماة ومعصيتهم لرسول^(٣) الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقديّ : وحدثني ابن أبي سبرة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة ، عن الحارث بن عبد الله ، قال : سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم ، يقول : شهدتُ أحداً

(١) المرط ، بالكسر : كساء من صوف أو خز أو كتان يؤترز به ، وربما تلقىه المرأة على رأسها

(٢) حدثان الأمر : ابتداءه .

وتلفح به وجمعه مروط .

(٣) ١ : « الرسول » .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تفرق الناس عنه ، دنوت منه ، وأمى تذب عنه ، فقال : يا بن عمارة ، قلت : نعم ، قال : ارمي ؛ فرميتُ بين يديه رجلا من المشركين بحجر ، وهو على فرس ، فأصابت عين الفرس ، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة ، حتى نضدت عليه منها وقرا ، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ويتبسم ، فنظر إلى جرح أمي على عاتقها ، فقال : أمك أمك ! اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ! لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك - يعني زوج أمه - خير من مقام فلان ، رحمكم الله من أهل بيت ! فقالت أمي : ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقك في الجنة ، فقال : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » ؛ قالت : فما أبالي ما أصابني من الدنيا .

قال الواقدي : وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سؤل ، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبيحتها قتال أحد ، وكان قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبیت عندها ، فأذن له ، فلما صلى الصبح غدا يريد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلزمته جميلة ، فعاد فكان معها ، فأجنب منها ، ثم أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها ، فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقيل لها بعد : لم أشهدتِ عليه ؟ قالت : رأيتُ كأن السماء فريجت ، فدخل فيها ، ثم أطبقت . فقلت : هذه الشهادة ، فأشهدت عليه أنه قد دخل بي ، فعلمت منه بعبد الله بن حنظلة . ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد ، فولدت له محمد بن ثابت بن قيس وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه ، فالحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وهو يسوى الصفوف ، فلما انكشف المشركون ، اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب ، فضرب عرقوب فرسه ، فاكتسعت الفرس ، ويقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح : يا معشر قريش ، أنا أبو سفيان بن حرب ! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجلا لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عابنه الأسود بن شعوب ، فحمل على حنظلة بالرمح ،

فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه في الرمح فضر به ثانية فقتله ، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه ، فلحق ببعض قریش ، فنزل عن صدر فرسه ، وردف وراءه أبا سفيان ، فذلك قول أبي سفيان يذكر صبره ووقوفه وأنه لم يفرّ ، وذكره محمد بن إسحاق^(١) :

ولو شئتُ نَجَّتَنِي كُمَيْتٌ طَيْرَةٌ ولم أحمل النعماء لابن شعوب^(٢)
وما زال مُهْرِي مزجر الكلب فيهم^(٣) لدن غُدْوَةٌ حَتَّى دنت لُغْرُوب^(٤)
أقاتلهم وأدعي يالَ غالبِ وأدفعهم عني بركن صليب^(٥)
فبكي ولا ترعى مقالة عاذل ولا تسأمي من عَنَبَةٍ ونجيب
أباك وإخواناً لنا قد تتابعوا^(٥) وحق لهم من حسرة بنصيب
وسلّي الذي قد كان في النفس إنني قتلتُ من التجار كلَّ نجيب
ومن هاشم قرماً كريماً ومصعباً وكان لدى الهيجاء غير هيب^(٥)
ولو أني لم أشف نفسي منهم^(٦) لكانت شجافى الصدّرات ندوب^(٦)
فآبوا وقد أودى الجلابيبُ منهم^(٧) بهم كمد من واجم وكثيب^(٧)
أصابهم من لم يكن لدمائهم^(٨) كيفاء ولا في سنخهم بضرب^(٩)

قال الواقدي : مرّ أبو عامر الراهب على حنظلة ابنه وهو مقتول إلى جنب

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٢١ ، ٢٢

(٢) الطمرة : الفرس السريعة الوثب ، وفي الأصول : « النعمان » تحريف .

(٣) ابن هشام : « منهم » ، ومزجر الكلب ، يريد أنه قريب ، والضمير في « دنت » يعود إلى الشمس .

(٤) صليب : شديد قوى . (٥) ابن هشام : « وإخواناً له » .

(٦) الفرم في الأصل : الفعل الكرم من الإبل ، وعنى به هاهنا حمزة بن عبد المطلب . والمصعب :

الفعل من الإبل أيضاً .

(٧) الندوب : آثار الجروح .

(٨) الجلابيب : الجماعات . وفي ابن هشام :

* بهم خدب من معيط وكثيب *

(٩) في ابن هشام : « ولا في حصة بضرب » .

حمزة بن عبدالمطلب، وعبد الله بن جحش؛ فقال: إن كنت لأحذرك هذا الرجل - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - من قبل هذا المصراع، والله إن كنت لبراً بالوالد، شريف الخلق في حياتك، وإن مماتك لمع سرة أصحابك وأشرفهم، إن جرى الله هذا القتل - يعني حمزة - خيراً، أو جرى أحداً من أصحاب محمد خيراً، فليجزك، ثم نادى: يا معشر قریش، حنظلة لا يمثل به، وإن كان خالفني وخالفكم؛ فلم يأل لنفسه فيما يرى خيراً، فمثل بالناس وترك حنظلة فلم يمثل به.

وكانت هند بنت عتبة أول من مثل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأمرت النساء بالمثل، وبجذع الأنوف والآذان، فلم تبق امرأة إلا عليها معضدان^(١) ومسكتان^(٢) وخدمتان^(٣) إلا حنظلة لم يمثل به، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة من أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة»؛ قال أبو أسيد الساعدي: فذهبنا فنظرنا إليه، فإذا رأسه يقطر ماء، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنه خرج وهو جنب.

قال الواقدي: وأقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عتبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة، فوجد المدينة خلوأ، فسألا: أين الناس؟ قالوا: بأحد، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين من قریش، فقال: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأغاروا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلف الناس، فقاتلا أشد القتال، فانفرت فرقة من المشركين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لهذه الفرقة؟ فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرمام بالنبل حتى انصرفوا، ثم رجعا فانفرت فرقة

(١) المعضد: الدمليج، وهو حل يلبس في المعصم.

(٢) المسك: الأسورة من القرون والعاج.

(٣) الخدمة: الخيل.

أخرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ لهذه الكتيبة ؟ فقال المُرزِيُّ : أنا يا رسول الله ، فقال : قم وأبشِرْ بِالْجَنَّةِ . فقال المُرزِيُّ مسرورا يقول : والله لا أقبل ولا أستقبل ، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيْفِ ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه والمسلمون ، حتى خرج من أقصى الكتيبة ؛ ورسول الله صلى الله عليه يقول : اللهم ارحمه ، ثم يرجع فيهم ، فما زال كذلك وهم محدقون به ، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم ، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة بالرماح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثَّل به أقبح المثل يومئذ . ثم قام ابنُ أخيه ، فقاتل كنهو قتاله ، حتى قُتِلَ ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إنَّ أحمقَ ميتة أموتُ عليها لما مات عليها المُرزِيُّ .

قال الواقدي : وكان بلال بن الحارث المُرزِيُّ يحدث يقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، فلمَّا فتح الله علينا ، وقسمت بيننا غنائمنا ، أسقط فتى من آل قابوس من مُرزينة ، فجثت سعدا حين فزع من نومه ، فقال : بلال ! قلت : بلال ، قال : مرحباً بك ، مَنْ هذا معك ؟ قلت : رجل من قومي ، قال : ما أنت يا فتى من المُرزِيِّ الذي قُتِلَ يوم أحد ! قال : ابنُ أخيه . قال سعد : مرحباً وأهلاً ، أنعم الله بك عينا ! لقد شهدتُ من ذلك الرجل يوم أحد مشهداً ما شهدتُ من أحدٍ قط ، لقد رأيتنا وقد أهدق المشركون بنا من كلِّ ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ، والكتائب تطلع من كلِّ ناحية ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى ببصره في الناس يتوسَّسهم ، ويقول : مَنْ لهذه الكتيبة ؟ كلٌّ ذلك يقول المُرزِيُّ : أنا يا رسول الله ، كلٌّ ذلك يردُّ الكتيبة ، فما أنسى آخر مرة قالها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم

وأبشُرُ بالجنة ، فقام وقت على أثره ، يعلم الله أنى أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة ، فحُضنا حَوَمَتَهُمْ ، حتى رجعنا فيهم الثانية ، فأصابوه رحمة الله ، ووددت والله أنى كنتُ أصيبت يومئذ معه ، ولكن أجل^(١) استأخر ، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله ، وقال : اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحب الرجوع ، فرجع .

قال الواقدي : وقال سعد بن أبي وقاص : أشهدُ لرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على المِزْبَةِ ، وهو مقتول ، وهو يقول : رضى الله عنك ، فأبى عنك راض ؛ ثم رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله قام على قدميه ، وقد ناله عليه السلام من ألم الجراح ما ناله ، وإبى لأعلم أن القيام يشق عليه على قبره ؛ حتى وضع في لحده وعليه بُرْدَةٌ ، لها أعلام حُمْرٌ ، فمدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله البردة على رأسه ، فحمره وأدرجه فيها طولاً ، فبلغت نصف ساقيه ، فأمرنا بجمعنا الحُرْمَل ، فجعلناه على رجليه وهو في لحده ، ثم انصرف فما حال أحبَّ إلى من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المِزْبَةِ .

قال الواقدي : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُدٍ قد خاصم إليه يقيم من الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر في عِدْقٍ بينهما ، ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى لبابة ، فجزع اليتيم على العِدْقِ ، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم العِدْقِ إلى أبى لبابة لليتيم ، فأبى أن يدفعه إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبى لبابة : ادفعه إليه ولك عِدْقٌ في الجنة ، فأبى أبو لبابة ، وقال ثابت^(٢) بن أنى الدحداحة : يا رسول الله ؛ رأيت إن أعطيت اليتيم عِدْقَه من مالى ! قال : لك به عِدْقٌ في الجنة ، فذهب ثابت بن الدحداحة ، فاشتري من أبى لبابة ذلك العِدْقِ بمديقة نخل ، ثم رد العِدْقِ إلى الغلام ،

(١) الواقدي : « أجل استأخر » . (٢) كذا في الاستيعاب ١ : ٢٠٣ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ربّ عذق مذلل^(١) لابن الدحداحة في الجنة » ، فكانت ترجى له الشهادة بذلك القول ، فقتل يوم أحد .

قال الواقدي : ويقبل ضرار بن الخطاب فارساً يجرّ قنّاةً له طويلة ، فيطعن عمرو بن معاذ ، فأنفذه ، ويمشى عمرو إليه حتى غلب ، فوقع لوجهه ، قال : يقول ضرار : لا تعدمن رجلاً زوّجك من الحور العين ، وكان يقول : زوّجت يوم أحد عشرة من أصحاب محمد الحور العين .

قال الواقدي : فسألت شيوح الحديث : هل قتل عشرة ؟ قالوا : ما بلغنا أنه قتل إلا ثلاثة ، ولقد ضرب يومئذ عمر بن الخطاب حين جال المسلمون تلك الجولة بالقنّاة ، وقال : يا بن الخطاب ، إنها نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

قال الواقدي : وكان ضرار يحدث بعد ، ويذكر وقعة أحد ، ويذكر الأنصار فيترحم عليهم ، ويذكر غنائم في الإسلام ، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت ، ثم يقول : لقد قتل أشراف قومي بيدر ، فأقول : من قتل أبا الحكم ؟ فيقال^(٢) : ابن عفراء . من قتل أمية بن خلف ؟ فيقال : خبيب بن يساف . من قتل عتبة بن أبي معيط ؟ فيقال : عاصم بن ثابت . من قتل فلان بن فلان ؟ فيسمى لى من الأنصار ، من أسر سهيل بن عمرو ؟ فيقال : مالك بن الدخشم . فلما خرجنا إلى أحد ، وأنا أقول : إن قاموا في صياصيبهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياماً ثم ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصيبهم أصبنا منهم ، فإن معنا عدداً أكثر من عددهم ، ونحن قوم موتورون ؛ خرجنا بالظعن يذكروننا قتلى بدر ، ومعنا كراع ولا كراع معهم ، وسلاحنا أكثر من سلاحهم ، فقتلهم أن خرجوا ، فالتقمينا ، فوالله ما قمنا لهم حتى هزمتنا وانكشفتنا مولين ، فقلت

(١) العذق بالفتح : النخلة . وبالكسر : العرجون بما فيه من الشاربخ ، وقد ورد في هذا الحديث

في اللسان « عذق » .

(٢) الواقدي : « فقال » .

في نفسى : هذه أشد من وقعة بدر ، وجعلت أقول لخالد بن الوليد : كرت على القوم ، فيقول : وترى وجها نكرت فيه ! حتى نظرت إلى الجبل الذى كان عليه الرماة خاليا ، فقلت : يا أبا سليمان ، انظر وراءك ، فعطف عنان فرسه ، لوكرنا معه ، فانتبهنا إلى الجبل ، فلم نجد عليه أحدا له بال ، وجدنا نغيرا فأصبناهم ، ثم دخلنا العسكر ، والقوم غارثون ينتهبون عسكرنا ، فأقمنا الخيل عليهم ، فتطايروا في كل وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا ، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة ، فلا أرى أحدا ، هربوا فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها ، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان ، فصبرنا لهم ، وصبروا لنا ، وبذلوا أنفسهم حتى عقرنا فرسى ، وترجلت ، فقتلت منهم عشرة ؛ ولقيت من رجل منهم الموت الناقع ، حتى وجدت ريح الدم ، وهو معانق ما يفارقنى ، حتى أخذته الرماح من كل ناحية ، فوقع ، فالحمد لله الذى أكرمهم بيدي ، ولم يهني بأيديهم .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : من له علم بذكوان ابن عبد قيس ؟ فقال على عليه السلام : أنا رأيت يارسول الله فارسا يركض فى أثره حتى لحقه ، وهو يقول : لا نجوت إن نجوت ! فحمل عليه فرسه وذكوان راجل ، فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن علاج ! فقتله ، فأهويت إلى الفارس ، فضربت رجله بالسيف ، حتى قطعها من نصف الفخذ ، ثم طرحته عن فرسه فذقت عليه ، وإذا هو أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي .

قال الواقدي : وقال على عليه السلام لما كان يوم أحد وجال الناس تلك الجولة : أقبل أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وهو دارع مقنع فى الحديد ما يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول : يوم بيوم بدر ! فيعرض له رجل من المسلمين ، فقتله أمية ، قال على عليه السلام : وأصميد له ، فأضربه بالسيف على هامته ، وعليه بيضة ، وتحت البيضة مغفر ، فنبأ سيفي ،

وكنت رجلا قصيرا ، ويضر بني بسيفه ، فأتقني بالدرقة ، فلحج سيفه ، فأضره ، وكان درعه مشمّرة ، فأقطع رجله ، فوقع وجعل يعالج سيفه ، حتى خلّصه من الدرقة ، وجعل يناوشني وهو بارك حتى نظرت إلى فتق تحت إبطه فاحش فيه بالسيف ، فسال فمات ، وانصرفت .

قال الواقدي : وفي يوم أحد اتنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « أنا ابن العواتك » ، وقال أيضا :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قال الواقدي : بينا عمر بن الخطاب يومئذ في رهط من المسلمين قعود ، مرّ بهم أنس بن النضر بن ضمضم عم أنس بن مالك ، فقال : ما يقعدكم ؟ قالوا : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم قام ، فجالد بسيفه حتى قتل ، فقال عمر بن الخطاب : إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده يوم القيامة ، ووجد به سبعون ضربة في وجهه ما عرف حتى عرفته أخته .

قال الواقدي : وقالوا : إن مالك بن الدخشم مرّ على خارجة بن زيد بن زهير يومئذ وهو قاعد ، وفي حشوته^(١) ثلاثة عشر جرحا كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك : أما علمت أن محمدا قد قتل ! قال خارجة : فإن كان محمدا قد قتل ، فإن الله حي لا يُقتل ولا يموت ؟ وإن محمدا قد بلغ رسالة ربه ، فاذهب أنت فقاتل عن دينك .

قال : ومرّ مالك بن الدخشم أيضا على سعد بن الربيع ، وبه اثنا عشر جرحا كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أعلمت أن محمدا قد قتل ! فقال سعد : أشهد أن محمدا قد بلغ رسالة ربه ، فقاتل أنت عن دينك ، فإن الله حي لا يموت .

(١) حشوة البطن : أمعاؤه .

قال محمد بن إسحاق: وحدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني، أخو بني النجار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ: مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، أَمْ فِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً في القتلى، وبه رمق، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات، قال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله خيراً عما ماجزى نبياً عن أمته وأبلغ قومك السلام عني، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف، قال: فلم أبرح عنده حتى مات، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته، فقال: اللهم ارض عن سعد بن الربيع.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن عمار، عن الحارث بن الفضيل الخطمي، قال: أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع، قد سقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشر الأنصار، إلى إني أنا ثابت بن الدحداحة! إن كان محمد قد قُتِلَ، فإن الله حي لا يموت! قاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم؛ فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خشناً^(١) فيها رؤسائهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه، فأنفذه فوق ميتا، وقتل من كان معه من الأنصار، فيقال: إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين في ذلك اليوم.

وقال عبد الله بن الزبيري يذكر يوم أحد:

ألا ذرفت من مقتلتيك دموعٌ وقد بان في جبل الشهاب قطوع^(٢)

(١) كتيبة خشناً: كثيرة السلاح.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ١٠٤ - ١٠٦، وفيه: «بالدمن جبل الشهاب».

وشطّ بَن تَهَوَى المَزَارُ وَفَرَّقَتْ
 وليس لما وَلَى على ذى صَبَابَةٍ (١)
 فدعْ ذَا ولكن هلْ أَنَى أمَّ مالِكِ
 وَنُجِنَبْنَا جُرْدًا إلى أهْل يَنْزِبِ
 عَشِيَّة سِرْنَا من كَدَاءٍ يَقودُهَا
 يَشِدُّ عَلَيْنَا كلَّ زَحْف كَأَنَّهُا
 فَلَمَّا رَأَوْنَا خَالَطْتَهُمْ مَهَابَةٌ
 فودَّوا لو أَنَّ الأَرْضَ يَنْشَقُّ ظَهْرُهَا
 وَقَدِ عَرَّيْتُ بِيضُ كَأَنَّ وَمِيضَهَا
 بِأَيْمَانِنَا نَعْلُو بِهَا كلَّ هَامَةٍ
 فَعَادَرْنَ قَتَلَى الأَوْسِ عَاصِبَةٌ بِهِمْ
 وَمَرَّ بَنُو النَّجَّارِ فِي كلِّ تَلْعَةٍ
 وَلَوْلَا عَلَوَّ الشَّعْبِ غَادَرْنَ أَحْمَدًا
 كَمَا غَادَرَتْ فِي الكَرِّ حَمَزَةٌ ثَاوِيًّا
 نَوَى الحَى دارُ بالحَيْبِ فَجُوعُ
 وَإِنْ طَالَ تَذْرَافُ الدَّموعِ رَجُوعُ
 أَحَادِيثُ قَوْمِي والحَدِيثُ بِشِيعِ !
 عَنَّا جِيحٌ فِيهَا ضَامِرٌ وَبَدِيعُ (٢)
 ضَرُورُ الأَعَادَى لِلصَّدِيقِ نَفُوعُ (٣)
 غَدِيرٌ نَضُوحُ الجَانِبِينَ نَقِيعُ (٤)
 وَخَامِرُهُم رَعْبٌ هَنَّاكَ فَظِيعُ
 بِهِمْ ، وَصَبُورُ القَوْمِ ثُمَّ جَزُوعُ
 حَرِيقٌ وَشِيكٌ فِي الأَبَاءِ سَرِيعُ (٥)
 وَفِيهَا سَمَامٌ لَلْمَدَى ذَرِيعُ
 ضِبَاعٌ وَطَبِيرٌ فَوْقَهُنَّ وَقُوعُ
 بِأَثْوَا بِهِمْ من وَقَعَيْنِ نَجِيعُ
 وَلَكِنْ عَالَا وَالسَّمْهَرِيُّ شَرُوعُ (٦)
 وَفِي صَدْرِهِ مَاضَى السَّمَانِ وَقِيعُ (٧)

وقال ابن الزبيرى أيضا من قصيدة مشهورة ، وهى :

- (١) ابن هشام : « على ذى حرارة » .
 (٢) جنبت الفرس ، إذا قذمتها ولم تركبها . والجرد : جم أجرد ، وهو العتيق من الخيل . والعناجيج : الطوال الحسان ، واحدها عنجوج . وانظر ابن هشام .
 (٣) ابن هشام : « سرنا فى لهام » . (٤) النقيع : الماء البارد العذب .
 (٥) الوميض : الضوء . والأبواء : جمع أبواءة ، وهى أجمة النصب .
 (٦) الشعب : الطريق فى الجبل . والسهمري : الرمح ، وشروع . مائل إلى الطعن .
 (٧) شبابة كل شئ : حده . ووقيع : بمدد .

ياغرابَ البينِ أَسْمَعَتْ فَعَلْتُ^(١) إِنَّمَا تَنْدُبُ أَمْرًا قَدْ فَعَلْتُ^(١)
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَدَى وَسِوَاءِ قَبْرِ مَثْرٍ وَمُقَلُّ^(٢)
كُلِّ خَيْرٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٌ وَبَنَاتِ الدَّهْرِ يَلْعَبْنَ بِكُلِّ
أَبْلَغًا حَسَانَ عَنِّي آيَةٌ فَقَرَّ يَضُّ الشَّعْرَ يَشْفِي ذَا الْعُلُّ^(٣)
كَمْ تَرَى بِالْجَسْمِ مِنْ بُجْجَمَةٍ وَأَكْفَمَا قَدْ أُتْرِتَ وَرَجِيلٌ^(٣)
وَسِرَائِيلَ حَسَانَ شُقِّقَتْ عَنِ كَمَاةٍ غُودِرُوا فِي الْمُنَزَّلِ^(٤)
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدِ مَا جَدِ الْجَدَيْنِ مَقْدَامِ بَطَلِ^(٥)
صَادِقِ النَّجْدَةِ قَرْمٍ بَارِعِ غَيْرِ مَأْطَاطٍ لَدَى وَقَعِ الْأَسَلِ^(٥)
فَسَلِ الْمِهْرَاسَ مَنْ سَاكُنُهُ؟ مِنْ كِرَادَيْسٍ وَهَامٍ كَالْحَجَلِ^(٦)
أَيُّ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدُوا جَزَعِ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(٧)
حِينَ حَطَّتْ بِقُبَاءِ بَرَكِيَّهَا وَاسْتَحْرَ الْقَتْلَ فِي عَبْدِ الْأَسَلِ^(٧)
ثُمَّ خَفُوا عِنْدَ ذَا كُمْ رُقْصًا رَقَّصَ الْخَفَانَ تَعْدُو فِي الْجَبَلِ^(٨)

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ - ٩٨ ، وروايته .

* إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فَعِلْتُ *

(٢) ابن هشام :

* وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ *

(٣) ابن هشام : « بالجر » ، أى الجبل . وأُتْرِتَ : قطعت .

(٤) المنزلة : موضع النزول . (٥) رواية ابن هشام :

* غَيْرِ مِلْتَاثٍ لَدَى وَقَعِ الْأَسَلِ *

(٦) المهراس : ماء بجبل أحد ، والكراديس جمع كردوسة ، وهى جماعة الخيل . والحجل : طائر فى

حجم الحمام ، ورواية ابن هشام :

* بَيْنَ أَقْحَافٍ وَهَامٍ كَالْحَجَلِ *

(٧) البرك : الصدر . واستحْرَ القتل : اشتد ، وعبد الأسل ، أراد عبد الأشهل ، غذف الماء .

(٨) الرقص : ضرب من المشى السريع . والخفان : صغار النعام .

فَقَتَلْنَا النِّصْفَ مِنْ سَادَاتِهِمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَأَعْتَدَلُ
لَا أَلُومَ النَّفْسِ إِلَّا أَنَا لَوْ كَرَّرْنَا لَفَعَلْنَا الْمَفْتَعَلُ
بَسِيفِ الْهِنْدِ تَعْلُو هَامَهُمْ تَبْرَدَ الْغَيْظَ وَيَشْفِينَ الْغُلْلَ^(١)

قلت : كثير من الناس يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية ، وهو قوله : « ليت أشياخي » ، وقال مَنْ أكره التصريح باسمه : هذا البيت ليزيد ، فقلت : له إنما قاله يزيدُ متمثلاً لما سُجِّل إليه رأس الحسين عليه السلام ، وهو لابن الزبيرِ ، فلم تسكن نفسه إلى ذلك ، حتى أوضحته له ، فقلت : ألا تراه يقول : « جزع الخزرج من وقع الأسل » ، والحسين عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج ، وكان يليق أن يقول : « جزع بنى هاشم من وقع الأسل » ؛ فقال بعض من كان حاضراً : لعله قاله في يوم الحرّة ! فقلت : المنقول أنه أنشده لما حمل إليه رأسُ الحسين عليه السلام ؛ والمنقول أنه شعر ابن الزبيرِ ، ولا يجوز أن يترك المنقول إلى ما ليس بمنقول .

وعلى ذكر هذا الشعر فإني حضرت وأنا غلام بالنظامية ببغداد في بيت عبد القادر ابن داود الواسطي المعروف بالحبّ ، خازن دار السكتب بها وعنده في البيت باتكين الرومي الذي ولي إربل أخيراً وعنده أيضاً جعفر بن مكّي الحاجب ، فخرى ذكر يوم أخذ وشعرُ ابن الزبيرِ هذا وغيره ، وأنّ المسلمين اعتصموا بالجبل ، فأصعدوا فيه ، وإن الليل حال أيضاً بين المشركين وبينهم ، فأنشدا ابن مكّي بيتين لأبي تمام متمثلاً .

لَوْلَا الظَّلَامُ وَقُلَّةٌ عَلَّقُوا بِهَا بَاتَتْ رِقَابُهُمْ بِغَيْرِ قِلَالٍ^(٢)

(١) رواية ابن هشام :

* عَدَلَّا تَعْلُوهُمْ بَعْدَ نَهْلٍ *

(٢) ديوانه ٣ : ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها المعتصم ، ويذكر فتح الحرمية . وقلة الجبل : أعلاه ، وجمعه قلال .

فليشكروا جُنْحَ الظَّالِمِ وَذِرْوَدًا^(١) فَهُمْ لَذِرْوَدَ وَالظَّالِمِ مُوَالِي^(٢)
فقال باتكين : لاتقل هذا ؛ ولكن قل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ
بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ
يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا
عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) ، وكان باتكين مسلماً ، وكان جعفر سامحه الله
مغموصاً عليه في دينه .

﴿ نم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ﴾

وبله الجزء الخامس عشر ﴿

(١) ذرود بكسر اوله وسكون ثانية وفتح الواو وآخره دال مهملة : اسم جبل .

(٢) سورة آل عمران ١٥٢

فهرس الموضوعات

باب الكنب والرسائل

صفحة	
	١ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة
٦-	إلى البصرة
٢١-٨	أخبار على عند مسيره إلى البصرة ورسله إلى أهل الكوفة
٢٥-٢١	فصل في نسب عائشة وأخبارها
٢٦	٢ - ومن كتاب له عليه السلام بعد فتح البصرة
٢٨، ٢٧	٣ - من كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه
٢٩، ٢٨	نسب شريح وذكر بعض أخباره
٣٢	٤ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه
٣٣	٥ - من كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس وهو عامل أذر بيجان
٣٥-	٦ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
٤٠-٣٨	جرير بن عبد الله البجلي عند معاوية
٤٤-٤١	٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا
	٨ - من كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله
٤٥-	إلى معاوية
٤٧	٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا
٦٤-٥٢	إجلاب قريش على بني هاشم وحصرهم في الشعب

صفحة	
٦٥٠٠٦٤	القول في المؤمنين والكافرين من بني هاشم
٨٤-٦٥	اختلاف الرأي في إيمان أبي طالب
١٥٧-٨٤	قصة غزوة بدر
١٦٤-١٥٧	القول في نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها للشركيين
	القول فيما جرى في الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها
١٩٩-١٦٥	إلى مكة
٢٠٥-١٩٩	القول في تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم
٢٠٧-٢٠٥	القول في المطعمين في بدر من المشركين
٢٠٨٠٢٠٧	القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر
٢١٢-٢٠٨	القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم
٢١٣٠٢١٢	القول فيمن شهد بدرا من المسلمين
٢٨١-٢١٣	قصة غزوة أحد

